المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة أم القرى
عمادة البحث العلمي

الهدايات القرآنية

دراسة تأصيلية

إعداد

نخبة من المختصين في الهدايات القرآنية

الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَٰذَا هُدًى﴾ [الجاثية: ١١]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين..

- ﴿هَٰذَا هُدًى﴾: القرآن المجيد، الكتاب الحكيم، النبأ العظيم، النور الحق المبين، تعددت أسماؤه، وتنوعت صفاته، فتجاوزت المائه في عددها، لتدل على صفات الجلال والكمال، اللائق بكلام الله الكبير المتعال.

- أنزل الله تعالى القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فالقرآن هدى.. هدى في ذاته وآياته.. هدى في إرشاداته ودلالاته، هدى في آثاره وغاياته.. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠].

- واختار الله لنزوله الأول بلد الله المحرم، حيث البيت العتيق، وجعل الله كعبته المشرفة هدى للعالمين ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٦].

- واصطفى الله تعالى لتبليغ كتابه رسول الهدى نبينا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخبرنا عنه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى: ٥٢]، فاجتمعت في مكة المعظمة محاور الهداية الثلاثة: الكتاب، والبيت، والرسول..

- ومن وحي هذه المعاني اختار «**كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم**» و«**كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى**» خدمة الغاية العظمى التي من أجلها أُنزل القرآن، ومن أجلها بُعث الرسول، ومن أجلها عُظِّم المكان.

- وعلىٰ هذا الأساس توجهت بوصلة العمل لخدمة «**هدايات القرآن**»، وفق منهجية علمية اعتمدت التأصيل الشرعي مرتكزًا للبحث والدراسة، ومرجعًا لحوكمة المخرجات والمنتجات، لا سيما وأنه يؤسس لفنّ من فنون العلوم القرآنية التي تحتاجها الأمة؛ لتعرف مراد الله منها ومقاصد وجودها، وسبل النهوض بأفرادها ومجتمعاتها، ووسائل النجاة والفوز والفلاح، حيث ارتبط ذلك كله بهدايات القرآن الكريم: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٥-١٦].

- وتحقيقًا لهذا الهدف تم إعداد هذا الكتاب «**الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية**» ليكون منهاجًا للأبحاث، ومرجعًا معتمدًا للدراسات، ودستورًا يوجّه الباحثين وفق نور القرآن المبين، وقد بذل الفريق البحثي جهدًا طيبًا مشكورًا، وقدموا عملًا مميزًا مشهودًا، أثنىٰ عليه من اطلّع وقرأ، وحكّم وقوّم أبحاث الدراسة، ولله الحمد والمنة.

وبعد:

فعِلْم «**هدايات القرآن**» بابه واسع ومجال مفتوح للبحث والعطاء، والدراسة والنماء، ولعلّ مشروع «**الموسوعة العالمية في الهدايات القرآنية**» هو حلقة في سلسلة خدمة الهدايات القرآنية، واستنباطها من القرآن وفق منهج القرآن.. والحمد لله أولًا وآخرًا..

المقدمة

وتشتمل على:

* أهمية الموضوع وأسباب الكتابة فيه.
* أهداف الدراسة.
* منهج الدراسة.
* إجراءات الدراسة وضوابط الكتابة.
* الدراسات السابقة.
* خطة الدراسة.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل علينا كتابًا يهدي إلىٰ الحق والرشد والصراط المستقيم، يهدي للتي هي أقوم، يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النور بإذن ربهم، والصلاةُ والسلام علىٰ المبلّغ للهدىٰ، والمبيّن له، الذي شرّفه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وعلىٰ آلهِ الطاهرين، وصحبهِ الصادقين، ومن سارَ علىٰ نهجِهم، واهتدىٰ بهديِهم إلىٰ يومِ الدين.. وبعد:

فالقرآن الكريم هو النور المبدد لظلمات الحياة، والهدىٰ العاصم من كل ضلال، والروح الذي تحيىٰ به النفوس الحياة الطيبة، والشفاء الكامل لكل ما تعانيه الأمة من أمراض، ولما علم العلماء فضل هذا الكتاب المبين، أوقفوا حياتهم في تعلمه، والبحث في معانيه وهديه، حتىٰ كثرت المؤلفات، وتنوعت وتعددت بين من ألّف في بيان مفرداته، ومن كتب في معاني جمله وآياته، ومن دوّن في تقرير أحكامه، ومن بحث في أوجه إعجازه.

ولمّا كان المقصد الأول من نزول القرآن هداية العالمين لما يصلحهم في الدارين، وكانت الجهود السابقة خادمة للوصول لهديه، رأينا إنجاز **موسوعة عالميّة في الهدايات القرآنية**، تجمع خلاصة ما كتبه العلماء في مختلف المدارس التفسيرية في الهدايات؛ مما هو في حاجة لجمع متفرقه، مع إضافة جوانب أخرىٰ ما زالت الأمة في حاجة لأنوار الوحي فيها، وفق الأصول والضوابط التي استقرت عند العلماء، وبمنهجية علمية دقيقة

ومحكّمة وميسّرة، مع السعي لربط الواقع بهدي القرآن الكريم بهدف تقويم هذا الواقع وإصلاحه.

وقبل الشروع في ذلك المشروع العظيم رأىٰ مجلس إدارة «**كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن وعلومه**» أن يُقدّم لذلك بدراسة تأصيلية، تحرّر من خلالها المصطلحات، وتبرز من خلالها أهمية الموضوع، وتوضع فيها الأصول والقواعد والضوابط، ويستقرأ فيها طرق العلماء في الوصول للهداية، وغير ذلك من نقاط مهمة، ومن هنا جاء عنوان هذه الدراسة تحت مسمىٰ: «**الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية**».

أولًا: أهمية الموضوع وأسباب الكتابة فيه:

تظهر أهمية هذه الدراسة من عدة جوانب نلخصها في النقاط الآتية:

١- أنّها تمثل مقدمة مهمة لفهم وتطبيق مشروع «**الموسوعة العالمية في الهدايات القرآنية**»، حيث تحرّر المفهوم، وتضع منهجية مثلىٰ لتناول الهدايات، والخطوات التي يُلتزم بها من بداية المشروع إلىٰ نهايته، وأهمّ الأصول والقواعد والضوابط التي يلتزم بها.

٢- أنّها تفتح الطريق أمام الدارسين والباحثين من أبناء المسلمين في مجال الهدايات القرآنية؛ لتكوين جيل متخصص علىٰ نحو فعّال في هذا الميدان.

٣- أنّها تخدم جانبًا مهمًّا من أهمّ موضوعات الدراسات القرآنية وأولاها بالدّراسة؛ لأنّ الهداية هي المقصد الأول من مقاصد القرآن الكريم، وهو تحقيق الهداية للعالمين، ولم تسبق له خدمة علميّة وفق ما جاء في هذه الدراسة، فهي تعد أوّل وأوسع دراسة علميّة تؤصّل لموضوع الهدايات القرآنية.

٤- أنّها تحقّق إضافة أبعاد وآفاق ومضامين جديدة في مكتبة التفسير والدراسات القرآنية؛ تؤدي للتعمق في معاني القرآن الكريم.

٥- أنّها تظهر ما في القرآن من شمول وإحكام فوق ما تتصوره العقول البشرية، ولا يمكن تحقق ذلك إلا من خلال تطبيق دراسة علمية مؤصلة.

٦- أنّها تعتبر خطوة علميّة تأصيليّة للنظر في مشكلات الأمة، وتلمس الحلول الناجعة في ضوء الهدايات القرآنية؛ بما يتناسب مع عصرنا ومستجداته.

٧- أنّها تعالج جوانب علمية مهمة في تناول موضوع الهدايات القرآنية، كفيلة إذا طبقت من قبل الباحثين بإعادة الأمة إلىٰ دينها الحق الذي يوحدها ويجمع شملها.

ثانيًا: أهداف الدراسة:

جاءت هذه الدراسة مقدمة **لموسوعة عالمية في الهدايات القرآنية**، قصدنا بها تحقيق أهداف مهمة من أبرزها:

١- التأصيل لمفهوم الهدايات القرآنية، وبيان أهميتها، وخصائصها، وأنواعها، ومجالاتها.

٢- بيان أساليب القرآن الكريم في عرض الهدايات، ووسائله، ومميزاتهما.

٣- بيان هدي السلف في التعامل مع الهدايات القرآنية.

٤- معرفة طرق العلماء في الوصول لهدايات القرآن.

٥- الوقوف علىٰ المنهج الأمثل للتعامل مع الهدايات القرآنية.

٦- معرفة سبل تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة.

٧- الوقوف على الموانع والعقبات الصادة عن الانتفاع بالهدايات القرآنية.

ثالثًا: منهج الدراسة:

اعتمد في هذه الدراسة المنهج **الاستقرائي الاستنباطي**، وهو المنهج المناسب لمثل هذا النوع من الدراسة.

رابعًا: إجراءات الدراسة وضوابط الكتابة:

لمّا كانت مناهج الباحثين مختلفة، وطرقهم في الكتابة متنوعة، رأينا توحيد المنهجيّة العلميّة للدراسة، وطريقة الكتابة فيه على النحو الآتي:

أ- إجراءات الدراسة:

١- أن تستوفي كل نقطة بصورة شاملة شافية، ويستوعب فيها جميع الدراسات السابقة.

٢- أن تتم الدراسة في ضوء القرآن الكريم، وتدعم كل نقطة بأدلّة من السنة النبويّة، وكذلك من أقوال العلماء الموثوقين من أهل الاختصاص.

٣- أن يلتزم بالخطّة الموضوعة للمشروع، والمحاور والنقاط المحددة، وفي حالة التعديل في بعض النقاط لابد من عرضها على الفريق الباحث، وأخذ موافقته.

٤- أن يلتزم في المسائل العقدية بمنهج السلف الصالح.

٥- أن تعالج كل نقطة في ضوء محورها، مع استصحاب المحاور الأخرى، وعنوان المشروع وأهدافه، مع تجنب التداخل والتكرار بين الباحثين والنقاط.

ب - ضوابط الكتابة:

١- وضع الآيات بين قوسين، ثم ذكر اسم السورة، ورقم الآية بعدها.

٢- تخريج جميع الأحاديث بذكر الكتاب والباب ورقم الحديث، وإذا كان في الصحيحين يكتفىٰ بهما، وإذا كان في غيرهما يخرّج، ويوضح حكمه، ويلتزم بالأحاديث الصحيحة والحسنة، ويكتفىٰ بحكم علماء الحديث دون التوسع في دراسة الأسانيد.

٣- توثيق الأقوال في أسفل الصفحة بذكر الكتاب، ثم المؤلف، ثم الجزء والصفحة، وتترك بقية معلومات التوثيق إلىٰ فهرس المراجع، حتىٰ اسم الكتاب لا يكتب كاملًا؛ بل يذكر منه ما اشتهر به مثل: «أضواء البيان»، «تاج العروس»، «التحرير والتنوير».

٤- إذا كان اسم الكتاب معروفًا، ولم يشترك كتاب آخر معه في الاسم؛ يكتفىٰ بذكر اسم الكتاب دون مصنفه؛ مثل: «لسان العرب»، «معجم مقاييس اللغة».

٥- لا يذكر في الحاشية محقق الكتاب، ولا الطبعة، ويكتفىٰ بذكر ذلك في الفهرس.

٦- الاكتفاء في ترجمة العَلَم بذكر اسمه.

٧- الالتزام الكامل بالفواصل، وسائر علامات الترقيم.

٨- اتسام أسلوب الكتابة والتعبير عن القضايا العلمية بالوضوح، والموضوعيّة.

خامسًا: الدراسات السابقة:

لا نعلـم أنّ أحـدًا من العلمـاء أصّل للهدايـات القرآنية، فهذه الدراسـة تسـدّ نقصًـا في المكتبة القرآنيّـة بصورة خاصة، والإسـلامية بصـورة عامة.

سادسًا: خطّة الدراسة:

جاءت هذه الدراسـة في: (**مقدّمة، وخمسـة فصول، وخاتمـة**)، على النحو الآتي:

الفصل الأول: مفهوم الهدايات القرآنية ومنزلتها وخصائصها.

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: مفهوم الهدايات القرآنيّة.
- المبحث الثاني: أهمية الهدايات القرآنيّة.
- المبحث الثالث: خصائص الهدايات القرآنيّة.

الفصل الثاني: الهدايات القرآنية أنواعها، ومجالاتها، وحال الناس معها.

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: أنواع الهدايات القرآنيّة.
- المبحث الثاني: مجالات الهدايات القرآنيّة.
- المبحث الثالث: حال الناس مع الهدايات القرآنيّة.

الفصل الثالث: أساليب القرآن الكريم وعرضه للهدايات، ووسائله في تحقيقها، ومميزاتهما.

وفيه تمهيد، وثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات.

- المبحث الثاني: وسائل القرآن الكريم في تحقيق الهدايات.
- المبحث الثالث: مميّزات الأساليب والوسائل القرآنية في عرض الهدايات.

الفصل الرابع: المنهج الأمثل في التعامل مع الهدايات القرآنية.

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: هدي السلف في التعامل مع الهدايات القرآنيّة.
- المبحث الثاني: طرق العلماء في الوصول إلىٰ الهدايات القرآنيّة.
- المبحث الثالث: أصول وقواعد وضوابط في التعامل مع الهدايات القرآنيّة.

الفصل الخامس: تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة؛ سبله، وموانعه، وأثره.

وفيه تمهيد، وثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: سبل تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة.
- المبحث الثاني: موانع تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة.
- المبحث الثالث: أثر تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة.

الخاتمة:

وشملت أهم النتائج، والتوصيات.

الفصل الأول

الهدايات القرآنيّة

مفهومها، وأهميّتها، وخصائصها

ويشتمل علىٰ المباحث التالية:

* مفهوم الهدايات القرآنيّة
* خصائص الهدايات القرآنيّة
* أهميّة الهدايات القرآنية

المبحث الأول

مفهوم الهدايات القرآنية

مفهوم الهدايات القرآنية

مدخل:

إنّ تحديد مفهوم بعض الألفاظ القرآنية يحتاج إلىٰ جهد علمي كبير؛ خاصة في دراسة علميّة تتطلب الدقّة والاستيعاب والشمول، لكلمة لها معان متنوعة في معاجم اللغة، ومعان أخرىٰ إضافية في ورودها القرآني، مع رصد أوجه العلاقة والاختلاف بين ما يتوصل له من مفهوم، وبين المصطلحات المقاربة؛ وذلك لدقة الدلالة القرآنيّة، وشمولها، وتنوع معانيها من موضع لآخر، تنوعًا فريدًا بليغًا، تحار فيه عقول أساطين البلغاء؛ لما تضمنّه كتاب الله تعالىٰ من ألفاظ ومعان حوت كلّ دلائل الإعجاز؛ خاصة إذا كانت اللفظة لها حضورها، واشتقاقاتها الواسعة في القرآن الكريم، مثل: لفظ: «**الهدىٰ**» و«**الاهتداء**»، الذي ورد بصورة واسعة؛ ولذا تناولته بالدراسة كل كتب الغريب، وكتب الوجوه والنظائر، وكتب التفسير، وعلوم القرآن وغيرها.

ومما يصعب الوصول إلىٰ مفهوم محدّد كذلك، أنّ ذلك التناول جاء متباينًا من جهة، وغير محرّر لحدّه ومفهومه من جهة أخرىٰ؛ مما يتطلّب مراجعات جديدة لأصل الكلمة في اللغة ومعانيها، ويستوعب كذلك معانيها التي وردت بها في القرآن؛ لأنّ القرآن يعطي الكلمات معاني أوسع وأعمق مما في معاجم اللغة بكثير، مع مقارنة ذلك بما كتبه العلماء في مواضع الاتفاق والاختلاف.

ومما يزيد من صعوبة الموضوع؛ إذا كان المقصد من الدراسة التوجه بها نحو مفهوم محدد في علوم القرآن الكريم، ووجود تعبيرات مختلفة ومتنوعة ومتعددة في كلام العلماء.

ولما كان المقصد من تحرير هذا المفهوم، التأسيس لدراسة تأصيليّة متكاملة في موضوع الهدايات، تستجمع من خلالها معانيها ودلالتها في الكتاب والسنة في مفهوم علمي واحد، فمن هنا وجدت معاناة شديدة بين موضوع تشعبت مباحثه من جهة، ودراسة لا تتحمل في طبيعتها البسط والإطالة من جهة أخرىٰ، حتىٰ خشيت أن لا أقدّم في هذه الدراسة ما يفيد في تحرير الموضوع، فجعلني ذلك بين إقبال وإدبار؛ ولكنِّي لما اعتصمت بحبل الله وقوّته، ثم استشرت عددًا من المتميّزين من أهل الاختصاص، لاحت أمامي قوارب النجاة، وقربت إليَّ بُعد المنزلة، فقوِي عزمي، وتماسك بناني مع قلمي، وقوِي الرجاء في تقديم ما ينفع، فقسّمت هذا المبحث إلىٰ ستة مطالب، جاءت علىٰ النحو الآتي:

المطلب الأول: تعريف الهدايات في اللغة.

المطلب الثاني: معاني الهدىٰ في القرآن الكريم.

المطلب الثالث: الفرق بين الهدىٰ والهداية والاهتداء في اللغة والقرآن.

المطلب الرابع: تعريف الهدايات القرآنية في الاصطلاح.

المطلب الخامس: الفرق بين مفهوم الهدايات والمصطلحات المقاربة.

المطلب السادس: تعبيرات علماء التفسير لمفهوم الهدايات.

فباسم الله أبتدئ، وعليه أتوكل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المطلب الأول
تعريف الهدايات في اللغة

الهدايات جمع هداية، وهي من الهُدَىٰ، بضم الهاء وفتح الدال، وهي من هَدَىٰ، يهْدي، هَدْيًا، وهُدَىٰ وهِدَايَةً وهِدْيَةً[١].

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهاء والدال والحرف المعتلّ: أصلانِ، أحدهما: التقدُّمُ للإرشاد، والآخر: بَعثة لَطَفٍ[٢]، فالأوَّل قولُهم: هدَيتُه الطَّريق هِدايةً، أي: تقدّمتُه لأرشدَه، وكلُّ متقدِّمٍ لذلك هادٍ، والأصل الآخر الهَدِيّة: ما أهدَيْتَ من لَطَف إلىٰ ذي مَودَّة، يقال: أهدَيْتُ أُهدِي إهداءً، والمِهْدَىٰ: الطَّبَقُ تُهدَىٰ عليه»[٣].

وقال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهِدَايَةُ: دلالةٌ بِلُطف، ومنه الهَدِيَّة، وخُصَّ ما كان دلالةً بهَدَيْتُ، وما كان إعطاءً بأَهْدَيْتُ، نحو أَهْدَيْتُ الهديَّةَ، وهَدَيْتُ إلىٰ البَيْت، فإن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف؟ وقد قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[الصافات:٢٣]، وقال تعالىٰ:

---

(١) ينظر: تاج العروس، للزَّبيدي، مادة (هدىٰ) (ص: ٨٦٦١).

(٢) «اللَّطَف» بالتحريك: التحفة والهدية، وكلمة «بَعْثَة» مهملة النقط في الأصل وهي المرة من البعث. ينظر: مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس القزويني (٦/ ٣١).
وهذا الشرح ذكره محقق الكتاب الدكتور عبد السلام هارون، قال صاحب الصحاح: «وألطفه بكذا، أي: برّه به». الصحاح تاج اللغة، للجوهري، مادة (هدىٰ) (٤/ ١٤٢٧).

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة (هدىٰ) (٦/ ٤٢، ٤٣).

﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الحج: ٤]، قيل: ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكم مبالغة في المعنى كقوله:﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١]»(١).

والهُدَىٰ: بضَمّ الهاءِ وفَتْح الدّال بمعنىٰ: الرَّشَاد، والدّلالة(٢) بلطف إلىٰ ما يوصل إلىٰ المطلوب، ويُذَكَّرُ ويؤنث، يقال: هَدَاهُ الله للدين يهدِيهِ هُدًىٰ، وهَدَيْتُه الطريق هِدايَة، وهَداهُ هُدىٰ وهَدْيًا وهِدَايَةً وهِدْيَةً بكسرهما: أرْشَدَهُ ودَلّه إلىٰ طريق خير، أو سبيل سعادة في الدنيا والآخرة، فَهَدَىٰ واهْتَدَىٰ وتَهَدَّىٰ، وهَداهُ اللّهُ الطَّرِيقَ وله وإليه، أي: للطَّرِيقِ، وإلىٰ الطَّرِيقِ(٣).

والْهُدَىٰ ضِدُّ الضَّلالِ، وَالضَّلالَةُ ضِدُّ الهداية، قال ابن سيده:«الهُدىٰ ضدّ الضلال، وهو الرَّشادُ، والدلالة أُنثىٰ، وقد حكي فيها التذكير»(٤).

«وَالعرب تُطْلِقُ الْهُدَىٰ حَقِيقَةً فِي الظَّاهر الْمحسُوس، فتقول: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ، وَهَدَيْتُهُ الطريق والبيت هِدايَةً، أي: عرَّفته، ويقال: هديته إلىٰ الطريق وللطريق علىٰ معنىٰ أَرشَدْته إِليها، ويقال: هَدَيْتُ له الطريقَ علىٰ معنىٰ بَيَّنْتُ له الطريق، فهو حقيقة فِي الطَّرِيق المحسوس، ومجاز في الطَّريق المعنويِّ، وضِدُّهُ الضَّلال، وهو الخروج عن الطَّرِيق، ومنه البعير الضَّالُّ، وَالشَّاة

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥١٦).

(٢) قال ابن عاشور:«والهداية الدلالة بتلطّف؛ ولذلك خصّت بالدلالة لما فيه خير المدلول؛ لأنّ التلطّف يناسب من أريد به الخير». التحرير والتنوير (١/ ١٨٧).

(٣) تاج العروس، مادة هدىٰ (ص: ٨٦٦٢).

(٤) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده (٢/ ٢١٧)، ولسان العرب، لابن منظور، مادة هدىٰ (١٥/ ٣٥٣).

الضَّالَّة، ورجل ضلَّ عن الطَّريق إِذا خرج عنه؛ لأنَّه التبس عَلَيْه الْأَمر، ولم يكن له هاد يهديه، وهو الدَّليل»[(١)].

وقد جاء الهُدَىٰ بمعنىٰ: «البَيان، ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة:٢٦].

قال أبو عمرو بن العلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أو لم يُبيِّنْ لهم»[(٢)]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[الليل: ١٢] أي: إنّ علينا أن نبيّن طريق الهُدَىٰ من طريق الضَّلال، والهدىٰ: النهار، ومنه قول ابن مقبل:

حتىٰ استبَنْتُ الهُدَىٰ والبيدُ هاجِمَةٌ يَخْشَعْنَ في الآلِ غُلْفًا أو يُصَلِّينا[(٣)]

والهُدَىٰ أيضًا: الهادي في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[طه: ١٠]، أي: هادِيًا، والطريقُ يسمَّىٰ هُدًىٰ، وذهب علىٰ هِدْيَتِه، أَي: علىٰ قَصْده في الكلام وغيره، وخذ في هِدْيَتِك، أَي: فيما كنت فيه من الحديث والعَمَل، ولا تَعْدِل عنه، نظَرَ فلان هِدْيةَ أَمرِه، أَي: جِهةَ أَمرِه، وضلَّ هِدْيَتَه، وهُدْيَتَه، أَي: لوَجْهِهِ الذي كان يُرِيدُه[(٤)].

والهَدْيُ والهَدْيَةُ ويُكْسَرُ: الطَّرِيقةُ والسِيرةُ، يقال: فلان يَهْدي هَدْيَ فلان، أي: يفعل مثل فعله، ويسير سيرته، وفي الحديث: «واهْدُوا بهَدْيِ

(١) الاعتصام، للشاطبي (١/ ٢٣٤)، وينظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة هدىٰ (٢/ ٢١٧)، والصحاح تاج اللغة، للجوهري (٨/ ٤٧٣)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٣).
(٢) الصحاح تاج اللغة (٢/ ٢٤٧)، والمحكم والمحيط الأعظم (٢/ ٢١٧).
(٣) تاج العروس (ص: ٨٦٦٢).
(٤) ينظر: تهذيب اللغة، للهروي (٢/ ٣٥٧)، المحكم والمحيط الأعظم (٢/ ٢١٧)، وتاج العروس (ص: ٨٦٦٥)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٣).

عَمَّارٍ»[(١)] أي: سِيرُوا بِسِيرَتِه وتَهَيَّأُوا بهَيْئَتِه، وما أَحْسَنَ هِدْيَتَهُ، وهَدْيَه أي: سِيرَته وسَمْتَه وسكونه، وفلان حسَنُ الهَدْيِ والهِدْيةِ أي: الطريقة والسِّيرة، والجمع هَدْيٌ مثل: تَمْرة وتَمْرٍ، وفلان حَسَنُ الهَدْيِ، وهو حُسْنُ المذهب في أُموره كلها، وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وأَحسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٢)]، أي: أَحسَنَ الطريقِ والهِداية، وقد جاء في الحديث كذلك: «الهَدْيُ الصالح، والسَّمْتُ الصالِحُ، جزء من خمسة وعشرين جُزءًا من النبوَّة»[(٣)].

قال ابن الأَثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «الهَدْيُ السِّيرةُ والهَيْئة والطريقة»[(٤)].

والهادِي: المُتَقدِّمُ من كل شيء، وبه سُمِي (العُنُق) هاديًا؛ لتقدّمه على سائر البدن، والهادِيةُ من كل شيء أَوَّلُه، وما تقَدَّمَ منه، والهوادِي: الجمعُ، والهادي الدليل؛ لأنّه يتقدم القوم ويتبعونه، أو لكونه يهديهم الطريق، وكل متقدّم فهو هادٍ، ولذلك سمّيت العصا الهادي والهادية؛ لأنّ الرجل يُمْسِكها

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (٤٧٨)، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب عمار بن ياسر وكنيته أبو اليقظان، برقم: (٣٧٩٩) والحاكم في المستدرك، برقم: (٤٤٥٢)، وصححّه، ووافقه الذهبي، وصححّه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (١٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: الهدي الصالح، برقم: (٦٠٩٨)، ومسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم: (٢٠٤٢).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، برقم: (٧٩١)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الوقار، برقم: (٤٧٧٦)، وأحمد في المسند، برقم: (٢٦٩٨)، قال الألباني في الأدب المفرد: حسن.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٥٣)، وينظر: فقه الأسماء الحسني، للدكتور عبد الرزاق البدر (ص: ١١٥).

فهي تَهْديه أي: تتقدَّمه، وقد يكون من الهداية؛ لأَنَّها تَدُلُّه علىٰ الطريق، والمَهْدِيُّ الذي قد هَداه الله إِلىٰ الحق، وقد اسْتُعْمِل في الأَسماء حتىٰ صار كالأَسماء الغالبة، وبه سُمّي المهْدِيُّ الذي بَشَّر به النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنّه يجيء في آخر الزمان[(١)].

والهَدِيَّةُ ما أَتْحَفْتَ به، يقال: أَهْدَيْتُ له وإِليه، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾[النمل:٣٥]، والتَّهادِي أَن يُهْدي بعضُهم إِلىٰ بعض[(٢)].

فمن خلال ما تقدم يتبيّن أنّ الهداية في اللغة تأتي بمعنىٰ: **الإرشاد، أو الدلالة بلطف، أو التقدم، أو البيان، أو التعريف بالشيء، أو القصدِ والوجه،** وجميع هذه المعاني ترجع إلىٰ ما ذكره ابن فارس بمعنىٰ **الإرشاد**، حيث اعتبر معنىٰ التقدّم للإرشاد أصلًا أولًا، تتفرّع منه بقيّة المعاني.

وقال ابن عَطِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«الهِدايةُ في اللُّغة: الإِرشاد؛ لكنَّها تتصرّف علىٰ وُجوه يُعبّر عنها المفسّرون بغير لَفْظ الإِرشاد، وكلُّها إِذا تُؤُمِّلت رجعت إِلىٰ الإِرشاد»[(٣)].

وقال الفيروزي آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وهو صحيح، ولم يذكر أَهل اللغة فيها إِلاَّ أَنَّها بمعنىٰ الإِرشاد»[(٤)].

(١) ينظر: الصحاح تاج اللغة (٢/ ٢٤٧)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٣)، القاموس المحيط، للفيروز آبادي (ص: ١٧٣٣)، وتاج العروس (ص: ٨٦٦٢).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٥/ ٣٥٣).

(٣) المحرّر الوجيز (١/ ٦٥).

(٤) بصائر ذوي التمييز (٥/ ٣١٢).

وقد جاءت بعض مشتقّات الهُدىٰ في معان مختلفة عن الإرشاد، وهي: «هَدْي، هَدِيّة»، وهو المعنىٰ الثاني الذي أشار إليه ابن فارس.

قال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهداية الدلالة علىٰ ما يوصل إلىٰ المطلوب، وقد يقال: هي سلوك طريق يوصل إلىٰ المطلوب»[١].

وقال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهداية دلالة بلطف إلىٰ ما يوصل إلىٰ المطلوب، وقيل: سلوك طريق يوصل إلىٰ المطلوب»[٢].

والهُدىٰ: «يتعدىٰ إلىٰ مفعول واحد بنفسه، ويتعدىٰ إلىٰ المفعول الثاني وهو المُهْدىٰ إليه بـ إلىٰ وبـ اللام، والاستعمالان واردانِ، تقول: هَدَيْتُه إلىٰ كذا علىٰ معنىٰ أوصلته إلىٰ معرفته، وهَدَيْتُه لكذا علىٰ معنىٰ أرشدته لأجل كذا، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام:١٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾[الأعراف: ٤٣].

وقد يتعدىٰ إلىٰ المفعول الثاني بنفسه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦]»[٣].

قال ابن الهمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَداه إلىٰ الطريق: إذا أعلمه أنّ الطريق في ناحية كذا، وهَداه للطريق: إذا ذهب به إلىٰ رأس الطريق، وهَداه الطريق:

(١) التعريفات (ص: ٣١٩). وينظر: التحرير والتنوير (١/ ١٨٨).

(٢) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف (ص: ٧٣٩).

(٣) ينظر: بصائر ذوىٰ التمييز (ص:١٦٣٠)، الكليات، للكفوي (٢/ ٥٩)، التحرير والتنوير (١/ ١٨٧).

إذا أدخله فيه، وسار معه حتىٰ بلغا المقصد، ثم إن فعل الهداية متىٰ عدّي بـ إلىٰ، تضمّن الإيصال إلىٰ الغاية المطلوبة، فأتي بحرف الغاية، ومتىٰ عُدِّي بـ اللّام، تضمّن التخصيص بالشيء المطلوب، فأتي بـ (اللام) الداخلة علىٰ الاختصاص والتعيين، وإذا تعدىٰ بنفسه تضمّن المعنىٰ الجامع لذلك كله»[(١)].

وقيل: تعدّيه بنفسه هي: «لغة أهل الحجاز، وأما غيرهم فلا يعدّيه بنفسه، وقد جعلوا تعديته بنفسه من التوسع المعبّر عنه بالحذف والإيصال»[(٢)].

(١) الكليات (٢/ ٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٨٧). وينظر: لسان العرب (١٥/ ٣٥٣).

المطلب الثاني
معاني الهدى في القرآن الكريم

جاءت كلمة «الهُدىٰ» في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، تزيد عن ثلاثمائة موضعًا(١)، بعدة معانٍ، مما جعل علماء الوجوه والنظائر يخصونها بالدراسة، كما فعل مقاتل بن سليمان، وابن الجوزي، والفيروز آبادي في «بصائر ذوي التمييز»، والدامغاني - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ -، وغيرهم، وافتتح بها الزركشي في «البرهان» في النوع الرابع، والسيوطي في «الإتقان» في النوع التاسع والثلاثين عند حديثهما عن الوجوه والنظائر.

وهذه الوجوه التي ذكرها العلماء تحتاج إلىٰ دراسة خاصة فيما يقبل منها ويرد؛ لأنّ منهم من ذكر معاني محتملة لكنها بعيدة(٢)، وبعضها غير راجح(٣)،

---

(١) ورد مادة (هـ، د، ي) في القرآن من خلال أحد عشر (١١) مشتقًا، تتوزع في اثنين وعشرين وثلاثمائة (٣٢٢) موضعٍ، موزّع علىٰ ستين (٦٠) سورة، جمعها بالحصر والدراسة الدكتور حبيب مغراوي في كتابه: «مفهوم الهدىٰ في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي»، (ص: ٧٨) وما بعدها.

(٢) مثال ذلك تفسير «الهُدىٰ» بمعنىٰ: الموت علىٰ الإسلام، كما فعل ابن الجوزي في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[طه: ٨٢] وهو بعيد، قال البيضاوي: «ثم استقام علىٰ الهدىٰ المذكور»، أنوار التنزيل (٤/ ٦٤)، ولا يكون الهدىٰ بمعنىٰ: الموت؛ إلا إذا قصد لازم المعنىٰ، وهو: (ثم دام علىٰ الهداية حتىٰ الموت).

(٣) مثال ذلك تفسير «الهُدىٰ» بمعنىٰ: التقديم، كما فعل ابن الجوزي في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[الصافات:٢٣]؛ لأنّ قول الجمهور أنّ المراد به التهكم، ومن فسره، فسّره بالإرشاد والدلالة.

وبعضها فيه نظر[١]، وبعض المعاني لم ترد عندهم[٢]، وبعضها الحاكم فيه هو السياق فلا يحتاج إلىٰ ذكرها هنا[٣].

وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن عدد سبعة عشر نوعًا: «وهذا كثير الأنواع»[٤].

وقد قصرت هذا البحث علىٰ أهمّ المعاني التي تخدم مفهوم الدراسة؛ وهي:

١- الإلهام: يأتي «الهُدىٰ» بمعنىٰ الإلهام الفطري، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلىٰ:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

---

(١) مثال ذلك تفسير «الهُدىٰ» بمعنىٰ: التوبة، كما فعل ابن الجوزي في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وهي من مادة (هَوَد) التي بمعنىٰ: الرجوع، وهي تختلف عن مادة (هدىٰ). ينظر كتاب «الهداية في القرآن الكريم» للدكتور العباس بن حسين الحازمي، (ص: ٤٥).

(٢) مثال ذلك: تفسير «الهُدىٰ» بمعنىٰ: الوصول إلىٰ الجنة، في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾[الأعراف:٤٣] كما فسّره بذلك عدد من المفسرين منهم ابن جرير الطبري (١٢/ ٤٣٩)، والقرطبي (٧/ ٢٠٨)، والبيضاوي (٢/ ٢٢٣)، وابن كثير (٥/ ١٦٩) وغيرهم.

(٣) مثال ذلك: تفسير «الهُدىٰ» بمعنىٰ: القرآن، والإسلام، ونبوة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والدّين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[النجم: ٢٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ٧٣]، والتوحيد، والإيمان، في قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾[الأنعام: ٩٠]، فالمراد الإيمان والتوحيد دون الشرائع فإنّها مختلفة، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾[المائدة: ٤٨].

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٤).

قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال المفسرون: معناه ألهم الحيوانات كلها إلىٰ منافعها»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: أعطىٰ كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطىٰ كل عضو شكله وهيئته، وأعطىٰ كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلىٰ ما خلقه له من الأعمال»[(٢)].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كلّ مخلوق إلىٰ ما خلقه له، وهذه الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات، فكل مخلوق تجده يسعىٰ لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتىٰ إن الله تعالىٰ أعطىٰ الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به علىٰ ذلك»[(٣)].

ويأتي فيه الفعل مسندًا لاسم الجلالة، مقرونًا إمّا بفعل الخلق، وإمّا بفعل التقدير، كما في قوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١-٣]، والفعل لا يأتي إلا ماضيًا، دلالة علىٰ سبق وقوعه[(٤)].

(١) البحر المحيط (١/ ١١). وينظر: جامع البيان (١٨/ ٣١٧)، معالم التنزيل، للبغوي (٥/ ٢٧٧)، والمحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ٦٥)، بحر العلوم، للسمرقندي (٢/ ٤٠١)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١١/ ٢٠٤)، واللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (١/ ٢٠٤).

(٢) التفسير القيم (١/ ١٣١). وينظر: الوجوه والنظائر، للدامغاني (١/ ٣٠٨)، والتحرير والتنوير (١/ ١٨٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٥٠٦).

(٤) ينظر: مفهوم الهدىٰ في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، للدكتور حبيب مغراوي (ص: ١٠١).

٢- **الإرشاد والدلالة**: يأتي «الهُدىٰ» بمعنىٰ الدلالة علىٰ الحق والإرشاد إليه، قال تعالىٰ لرسوله الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ:٥٢]، بمعنىٰ تدل وترشد، وكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩] بمعنىٰ يدل ويرشد، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد: ٧] أي: مرشد، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[القصص: ٢٢] يعني: أن يدلني، وكقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه:١٠]، يعني: من يرشدني إلىٰ الطريق[1]، وكقوله تعالىٰ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨] ترشدون، وقرينة هذا المعنىٰ أنّه يمكن أن يسند فعل الهداية لغير الله تعالىٰ.

٣- **البيان**: يأتي «الهُدىٰ» بمعنىٰ البيان، قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾ [البقرة:٥] أي: علىٰ بيان من ربهم، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[الليل: ١٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني البيان، قال الزجاج: علينا أَنْ نُبيِّنَ طريقَ الهُدَىٰ من طَرِيق الضَّلالة، وهو قول قتادة، قال: علىٰ الله بيان حلاله وحرامه»[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[فصلت: ١٧].

---

(١) ينظر: الوجوه والنظائر (١/ ٣٠٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٢١١). وينظر: الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٨٦)، والوجيز، للواحدي (١١/ ٨٦)، وزاد المسير، لابن الجوزي (٩/ ١٥١)، فتح القدير، للشوكاني (٥/ ٤٥٣).

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ ذكره: فبيّنا لهم سبيل الحق وطريق الرشد، كما حدثني عليّ، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: أي بيَّنا لهم»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، قال أبو عمرو بن العلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أوَلم يُبيِّنْ لهم»(٢).

وكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهداية هنا بمعنىٰ البيان»(٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، يعني: بيّنا له الطريقين(٤).

٤- الدليل والبيّنة: يأتي «الهُدىٰ» بمعنىٰ الدليل والبيّنة، قال تعالىٰ: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، «أي: من يهديني إلىٰ الطريق؛ ويدلّني عليها، وكان قد ضلّ عن الطريق»(٥).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨](٦).

---

(١) جامع البيان (٢١ / ٤٤٨).

(٢) الصحاح في اللغة (٢/ ٢٤٧).

(٣) أضواء البيان (٨/ ٣٨٩).

(٤) ينظر: لسان العرب (١٥/ ٣٥٣)، والأشباه والنظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان (ص: ٨٩)، والوجوه والنظائر، للدامغاني (١/ ٣٠٣)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٤).

(٥) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للواحدي (٥/ ٢١٦). وينظر: أضواء البيان (٣/ ٤٩١).

(٦) ينظر: مفردات القرآن، للفراهي (ص: ٣٢٨).

قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المراد بالهدىٰ: «الاستدلال والنظر لأنّه يهدي إلىٰ المعرفة»[(١)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوىٰ»[(٢)].

٥- **المعرفة**: يأتي «الهُدىٰ» بمعنىٰ المعرفة، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[النساء: ٩٨]، أي: لا يعرفون سبيلا، وقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل: ١٦]، يعني: يعرفون السبيل، وكقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾[النمل: ٤١] أي: من الذين يعرفون أو لا يعرفون، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الزخرف: ١٠] يعني: تعرفون الطرق[(٣)].

٦- **الاستبصار**: يأتي «الهُدىٰ» بمعنىٰ الاستبصار، قال تعالىٰ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾[البقرة: ١٦][(٤)].

وقد يكون بمعنىٰ المعرفة، كما قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن الاهتداء المنفي هو الاهتداء بالمعنىٰ الأصلي في اللغة، وهو معرفة الطريق الموصل للمقصود»[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٢٥٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٩٩).

(٣) ينظر: الوجوه والنظائر، للدامغاني (١/ ٣٠٥). وينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٢٠)، وبحر العلوم (٢/ ٤٥٩).

(٤) ينظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي (٢/ ٢٢١).

(٥) التحرير والتنوير (١/ ٣٠١).

٧- **التعليم**: يـأتي «الهُدىٰ» بمعنىٰ التعليم، قـال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦](1)، وقـد يـراد بالآيـة البيان والإرشـاد.

٨- **الصواب**: يأتي «الهُدىٰ» بمعنىٰ الصواب، والاسـتقامة، والسـداد، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [العلق: ١١](2).

٩- **التوفيـق**: يـأتي «الهُدىٰ» بمعنـىٰ التوفيق، وانشـراح الصّـدر للخير، ومـا يقـرّ في القلب من الإيمـان، والعمل بالعلـم، وهذا لا يقـدر علىٰ خلقه في قلـوب العبـاد إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا نفاه عـن غيره، قال تعالـىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقـال تعالـىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقـال تعالـىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

١٠- **السُّـنَّة**: يـأتي «الهُـدىٰ» بمعنىٰ السُّـنَّة، قـال تعالـىٰ: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخـرف: ٢٢]، يقـول: مقتدون مسـتنون بسـنتهم وكقوله تعالـىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعـام: ٩٠] يقول: بسـنتهم في التوحيـد اقتده(3).

---

(١) ينظر: نزهة الأعين النواظر (٢/ ٢٢٢).

(٢) ينظـر: جامـع البيـان (٢٤/ ٥٢٤)، ونزهـة الأعين النواظـر (٢/ ٢٢٥)، والإتقـان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٩).

(٣) ينظر: الوجوه والنظائر، للدامغاني (١/ ٣٠٨).

١١- **الطريق الواضح**: يأتي «الهُدىٰ» بمعنىٰ الطريق الواضح الموصل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾[الحج: ٦٧][(١)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: طريق واضح مستقيم موصل إلىٰ المقصود»[(٢)].

١٢- **الثبات والزيادة**: يأتي «الهُدىٰ» بمعنىٰ الثبات علىٰ الشيء، والزيادة فيه[(٣)]، ومنه طلب الهداية للمهتدي في قوله تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] فالمقصود الثبات والزيادة منها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾[مريم:٧٦]، «قيل: بالناسخ والمنسوخ، وقيل: بأَن يَجْعَلَ جزاءهم أن يزيدهم في يقينهم هُدًى، كما أَضَلَّ الفاسِق بفسقه، ووضع الهُدَىٰ مَوْضِعَ الاهْتداء، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾[طه:٨٢]، قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تابَ مِنْ ذنبه، وآمن بربِّهِ، وعمل بطاعته، ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أَي: ثم أَقامَ علىٰ إِيمانه»[(٤)]، «وهَدَىٰ واهْتَدَىٰ بمعنىٰ، وقد يدلّ سؤال الهداية علىٰ سؤال لزومها، فيكون التقدير اهدنا لزوم الصراط، قاله ابن الأنباري»[(٥)].

---

(١) ينظر: مفردات القرآن للفراهي (ص: ٣٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٥١). ينظر: جامع البيان (١٨/ ٦٨٠)، وأنوار التنزيل (٦/ ١٠٧)، وإرشاد العقل السليم (٦/ ١١٩)، أضواء البيان (٥/ ٣٠٢).

(٣) ينظر: نزهة الأعين النواظر (٢/ ٢٢٦)، والإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٨).

(٤) معاني القرآن (٣/ ٣٠٢).

(٥) زاد المسير (١/ ١٥).

١٣- **الدعــوة**: يأتي «الهُدىٰ» بمعنىٰ الدعوة، قــال تعالىٰ: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾[الأعـراف: ١٥٩]، والمعنىٰ في الآيات الدعاء(١).

قـال ابــن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«قـد جـاء الهدىٰ بمعنــىٰ الدعــاء، من ذلــك قوله تعالــىٰ: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[الرعـد: ٧] أي داع»(٢).

وقــال الســمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«الهداية في القرآن علــىٰ معان، فتكــون الهداية بمعنــىٰ الإلهام، وتكون بمعنىٰ الإرشــاد، وتكون بمعنىٰ البيــان، وتكون بمعنىٰ الدعــاء، وأمّا الدعاء مثــل قوله تعالــىٰ: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ أي: داع»(٣).

١٤- **الإصلاح**: يأتي «الهُــدىٰ» بمعنىٰ الإصلاح، قــال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾[يوســف: ٥٢](٤).

ومــن خلال الاســتقراء والتتبع نجــد أن كلمة «الهُدىٰ» جــاءت في القرآن الكريــم بمعانٍ تتوافق مع اللغــة وتزيد عليها، تتوافق معها في الدلالة والإرشــاد إلــىٰ المطلــوب، والتــي منهــا: **البيــان، والمعرفــة، والتعليم، والاســتبصار، والدعوة، والســنة**، وهذه كلها من العبد، وهي وســائل للإرشــاد العام، وأضاف القــرآن الكريــم علىٰ معنــىٰ الهدايــة في اللغــة: **الإلهــام، والتوفيــق، والثبات والزيــادة**، وهــذه كلها مــن الله تعالىٰ، وهــي الدلالة الموصلــة للمطلوب.

(١) ينظـر: الوجوه والنظائـر، للدامغاني (١/ ٣٠٨)، والبرهان في علــوم القرآن (١/ ١٣٥)، والدرّ المصــون في علم الكتاب المكنون، للســمين الحلبي (١/ ٦١).

(٢) المحــرر الوجيـز (١/ ٦٥). وينظـر: البحر المحيط (١/ ١١)، وتأويل مشــكل القــرآن، لابن قتيبة (ص: ٢٤٨).

(٣) تفسير السمعاني (٧/ ٨).

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣٦)، والإتقان في علوم القرآن (٣/ ٩٧٨).

وقد بيّن القرآن الكريم أنّ مصدر الهدىٰ من الله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾[آل عمران:٧٣].

وبيّن أنّه هو الذي يهدي من يشاء إلىٰ صراطه المستقيم؛ علمًا وعملًا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الحج:٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[يونس: ٣٥]، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾[الأعراف:١٨٦].

وبيّن القرآن الكريم أنّ الهداية التي بمعنىٰ الدلالة والإرشاد للهدىٰ مع أنّها من الله تعالىٰ قد تكون بغيره، بكتابه، أو بواسطة رسله، أو غيرهما، قال تعالىٰ عن هداية كتابه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩]، وقال تعالىٰ عن هداية رسله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورىٰ: ٥٢].

وقد جاء في صحيح مسلم قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَخَيْرَ الْهُدَىٰ هُدَىٰ مُحَمَّدٍ»[1]، وهي متعلقة ببيان الهدىٰ وتفاصيله، والإرشاد إليه.

وبيّن في كتابه أنّ الدالّ علىٰ الهدىٰ والمرشد إليه يسمىٰ: (هاديًا)، قال تعالىٰ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾[الأعراف: ١٨٦]، والعامل بالهدىٰ المسترشد به يسمىٰ: (مهتديًا)، قال تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[الحديد:٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[البقرة:١٦].

(١) في كتاب: الجمعة، باب: تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ وَالْخُطْبَةِ برقم: (٢٠٤٢).

وقد أوجب الله علىٰ عباده في كتابه الاهتداء بنور وحيه، ولم يجبرهم عليه، بل ترك لهم حرية اختيار الهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[يونس: ١٠٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[الزمر: ٤١].

وجعل الجزاء مرتبطًا باتباع الهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه: ١٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٥- ١٦].

المطلب الثالث

الفرق بين الهدى والهداية والاهتداء في اللغة والقرآن

أولًا: العلاقة بين الهدى والهداية والفرق بينهما:

جاءت لفظة «الهُدىٰ» في القرآن الكريم بمعنىٰ الهداية في آيتين هما:

قوله تعالىٰ:﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة: ١٥ – ١٦]، فالفعل: يهديهم، هداية، وهدىٰ.

وقوله تعالىٰ:﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[فصلت: ١٧] فالفعل هنا: هديناهم، الذي مصدره: هداية وهدىٰ، وعبّر هنا عن الهداية في الآية بالهدىٰ.

وكما ورد لفظ «الهُدىٰ» بمعنىٰ الهداية في القرآن الكريم، وردت كذلك في السنة النبوية، في قوله ﷺ:«يا علي سَلِ الله الهدىٰ والسداد، واذكر بالهدىٰ هدايتك الطريق، وبالسداد تسديدك السهم»(١).

ومن هنا قال العلماء: الهدىٰ والهداية في اللغة: شيء واحد.

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم: (٦٦٤)، والنسائي في السنن الكبرىٰ، كتاب الزينة، باب النهي عن الخاتم في السبابة برقم: (٩٤٦٥)، والحاكم في المستدرك، برقم: (٧٧٠٠)، وقال: صحيح الإسناد، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٧٩٥٣).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المفردات»: «والهدىٰ والهداية في موضوع اللغة واحد»[(١)]، وهما مصدران.

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تهذيب اللغة»: «يقال: هداه يهديه هدىٰ وهداية»[(٢)]، وقال الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا يهديه في الدين هدىٰ، وهداه يهديه هداية إذا دلّه علىٰ الطريق»[(٣)].

وقد اخترنا لفظة «الهدايات» هنا في مسمىٰ الدراسة والمشروع لعدة أسباب نلخصها في الآتي:

١- أنّهما في اللغة بمعنىٰ واحد، كما نصّ علىٰ ذلك الراغب الأصفهاني والأزهري والأصمعي - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ-، ولم نجد من خالفهم، بل نقل العلماء كلامهم مؤيدين له.

٢- لأنّ القرآن الكريم عبّر بلفظة «الهُدىٰ» عن معان كثيرة منها: الهداية، وجعل للهدىٰ مصطلحًا محددًا مطردًا يشمل معرفة الحق والتوفيق للعمل به، ونحن قصدنا في مشروعنا هذا معنىً محددًا من الهدىٰ، وهو ما يتعلق بالجانب العلمي الذي هو: الدلالة والإرشاد، دون بقية معاني الهدىٰ، حسب المصطلح القرآني الذي هو نوع من أنواعه، وجزء من مصطلحه ومفهومه، وهو الذي استخدمه القرآن الكريم في الحديث عن

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥١٩).

(٢) تهذيب اللغة (٦/ ٣٨٠).

(٣) المصدر السابق.

قوم ثمود، لما أراد من معنىٰ الهدىٰ هداية الإرشاد، في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

٣- إنّ لفظ «الهدايات» هو المستخدم عند عامة علماء التفسير واللغة[(١)]، فهم حين يتكلمون عن أنواع الهدايات وأقسامها يعبرون عنها بلفظ «الهدايات»؛ بل هذه اللفظة استخدمها العلماءُ - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- قديمًا في أسماء مؤلفاتهم مثل: «الهدايةُ إلىٰ بلوغِ النهايةِ في علمِ معاني القرآنِ الكريم وتفسيره، وأحكامِهِ، وجملٍ من فنون علومه» لمكي بن أبي طالب القيسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و«الهداية في شرح بداية المبتدي»، لعلي بن أبي بكر المرغيناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتاب «بداية الهداية»، لأبي حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤- أنّ هذه اللفظة هي المناسبة لمشروع قائم علىٰ صناعة بشرية، قصد من لفظ «الهُدىٰ» ما يتعلق بالجهد البشري في الدلالة والإرشاد لما جاء من الهدىٰ، وهي تفيد كذلك معنىٰ التكثير، وبذل الجهد، للتوصل لما في القرآن الكريم من فوائد وإرشادات.

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٥٣٩)، والمحرر الوجيز (٥/ ٤٤٠)، ومفاتيح الغيب، للرازي (١/ ١٥٧)، والبحر المحيط (٢/ ٥٩)، وتفسير ابن تيمية (٥/ ٨٥)، والتفسير القيم (١/ ١٣١)، وإرشاد العقل السليم (١/ ١٨)، واللباب في علوم الكتاب (٣/ ٤٢٦)، والبرهان في علوم القرآن (٤/ ٢٦٣)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢/ ٧١٣)، وتفسير الألوسي (٦/ ٤٢)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:٢٦٣)، والوسيط، لسيد طنطاوي (ص:٢٦٣٣)، وأيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر الجزائري (٣/ ٤٤٩)، والتفسير الموضوعي لسور القرآن، لنخبة من العلماء (١/ ٤)، وغيرها.

ثانيًا: الفرق بين الهدى والاهتداء:

هنالك فرق واختلاف في الاستعمال القرآني بين «الهُدىٰ» الذي هو من الفعل (هَدَىٰ)، و «الاهتداء» الذي هو من الفعل (اهتدىٰ)، فاختصّ الأول بالله تعالىٰ، والثاني بالإنسان، فـ«الهُدىٰ» يأتي لما تولاه الله تعالىٰ وأعطاه، واختص هو به دون ما هو إلىٰ الإنسان، و«الاهتداء» يأتي غالبًا: لما تحرّاه الإنسان وطلبه علىٰ طريق الاختيار، إمّا في الأمور الدنيوية، وإما في الأمور الأخروية؛ قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«قد خص الله عَزَّوَجَلَّ لفظة الهدىٰ بما تولاه وأعطاه، واختص هو به دون ما هو إلىٰ الإنسان نحو: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:٢]، ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾[البقرة :٥]، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[البقرة:١٨٥]، ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾[الأنعام:٧١]، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٨]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾[النحل: ٣٧]، ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾[البقرة:١٦].

والاهتداء يختصُّ بما يتحرّاه الإنسان علىٰ طريق الاختيار؛ إمّا في الأمور الدنيوية، أو الأخروية، وهو ثمرة الهداية، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾[الأنعام:٩٧]، وقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[النساء:٩٨]، ويقال ذلك لطلب الهداية، نحو: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٥٣]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾[آل عمران: ٢٠]، ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾[البقرة:١٣٧]»(١).

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥١٩).

المطلب الرابع

تعريف الهدايات القرآنية في الاصطلاح

يريد الباحث من خلال تعريف «الهدايات القرآنية» تحديد مصطلح الهدايات فيما يتعلق بالعبد من بيان وإرشاد، وهو تعريف خاص باعتباره عَلَمًا مرشدًا لما هدىٰ إليه القرآن الكريم من خلال منطوقه ومفهومه، وليس من خلال ما ورد في القرآن الكريم من معنىٰ «الهُدىٰ» الذي يشمل: هداية الإلهام الفطري، وهداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق والتأييد، والهداية التي تتعلق بالآخرة، ولكننا قصدنا بـ «الهدايات القرآنية»(١) فقط بيان ما جاء في القرآن الكريم من إرشادات تهدي من فهمها وعمل بها لما يحقق له سعادة الدارين، ومن هنا عرفنا الهدايات القرآنية هنا بأنّها:

«الدلالة المبيِّنة لإرشادات القرآن الكريم التي توصل(٢) لكل خير(٣)، وتمنع من كلِّ شرّ».

---

(١) قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهداية في اصطلاح الشرع حين تسند إلىٰ الله تعالىٰ هي: الدلالة علىٰ ما يرضي الله من فعل الخير ويقابلها الضلالة وهي التغرير». التحرير والتنوير (١/ ١٨٨).

(٢) اخترنا كلمة: (توصل)؛ لأنّ مجرد بيان الهدىٰ هو هداية، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[فصلت: ١٧]؛ ولهم الخيار بعد ذلك دون إكراه، كما قال تعالىٰ:﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان: ٣].

(٣) احتار الباحث في الاختيار بين ما جاء في هذا التعريف، وبين الزيادة عليه بالقول: «توصل إلىٰ الصراط المستقيم، وتعصم من الطرق المعوجة»؛ لأني كنت مترددا بين آيات تبين أنّ القرآن جاء ليهدي للتي هي أقوم، وبين آيات تبين أنّه جاء ليهدي إلىٰ الصراط المستقيم، إلا أنني اخترت هذا التعريف؛ لكونه شارحا لمفهوم الصراط المستقيم.

فـ «**الدلالة**»: «ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى»[(١)]، فهي تبين الوسائل والطرق والكيفيات.

و«**المبيِّنة**»: من البيان الذي هو: «ما بُيِّنَ به الشيءُ من الدلالة وغيرِها، وبانَ الشيءُ بَيانًا اتَّضح»[(٢)]؛ لأنّ الهدف من الدلالة إظهار وإيضاح الهداية للعمل، ولتمييزها عن طرق الضلال؛ وهذا هو المتفق مع مهمة الرسل وأتباعهم، التي هي بيان هدايات القرآن الكريم للناس، وهو الذي يكون في مقدورهم، وما يجب عليهم، وبعد التبيين تكون المؤاخذة لمن تخلف عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾[محمد: ٢٥]، خلافًا لهداية التوفيق والسداد، وجعل الهدى في القلب، وهذه من الله تعالى وحده، علمًا بأنّ السبيل إلى الثانية يكون بمعرفة الأولى، ولا فائدة للهداية الأولى بدون الثانية، والدالّ على الهداية يقصد تحقق كلا الأمرين للمهدي، وهداية الإلهام فطرية ليس للعبد تدخل فيها.

«**لإرشادات**»: وهي الغاية التي يُتوصل إليها بهذا العلم؛ ولأن الهدايات القرآنية في مصطلح الدراسة هي مجرد الإرشاد إلى الخير، سواء حصل اتباع الخير أم لم يحصل فهي هداية.

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٧١).

(٢) لسان العرب (١٣/ ٦٢).

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كانت الهداية والتَّعليم يقتضيان شيئين: تعريفًا من المُعَرِّف، وتَعَرُّفًا من المُعَرَّف، وبهما يتمّ الهدايةُ والتَّعلُّم؛ فإنه متىٰ حصل البذل من الهادي والمعلِّم ولم يحصل القبول صَحَّ أن يقال: لم يَهْدِ ولم يُعَلِّم، اعتبارًا بعدَم القَبُول الذي هو تمام الهداية والتعليم، وصحّ أنْ يُقال: هَدَىٰ وعَلَّم، اعتبارًا ببَذْلِه، فإذا كان كذلك صحّ أن يُقالَ: إنَّ الله لم يَهْدِ الكافرين والفاسقين، من حيثُ إنَّه لم يَحْصُل القَبولُ الَّذىٰ هو تَمامُ الهِداية والتَّعلِيم، وصحّ أَنْ يُقال: قد هَداهم وعَلَّمَهُم، من حيث إنَّه حَصَل البَذْلُ الذىٰ هو مَبْدأُ الهِداية»[١].

«**القرآن الكريم**»: يشمل ما دل عليه بمنطوقه ومفهومه من خلال آياته، وموضوعاته، وسوره، ومن هنا كانت الهدايات بعضها دلّ عليه ظاهر النص، وبعضها استنبطها العلماء بعد تدبر وإعمال فكر فيه.

«**التي توصل**»: لأنّ هداية الإرشاد في أصلها جاءت لتدل وتوصل الإنسان إلىٰ مطلوبه، وهو الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، المتمثل في معرفة الحق والعمل به، فهي موصلة إليه إرشادًا، ولا يمكن الوصول إلىٰ الهدىٰ بغيرها.

قال أبو البقاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهداية هي عند أهل الحق الدلالة علىٰ طريق من شأنه الإيصال؛ سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء، أو لم يحصل»[٢].

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٤٠).

(٢) الكليات (٢/ ٥٧).

«لكل خير»: لأنّ القرآن الكريم جاء ليهدي بهديه للتي هي أقوم، فيما يحقق سعادة الدنيا والآخرة، فلا يهدي إلا إلىٰ الخير والمعروف.

«وتمنع من كل شر»: لأنّ القرآن الكريم كما أنّه يهدي للتي هي أقوم، فهو أيضا يمنع بهدايته من سلوك السبل المعوجة التي توصل إلىٰ الضلال والشر والشقاء، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه:١٢٣]، فقد أمرنا الله تعالىٰ باتباع الصراط المستقيم غير صراط المغضوب عليهم والضالين، التي هي السبل التي حذّرنا الله منها، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام: ١٥٣].

وقد تكون الهداية في كلمة قرآنية واحدة، وقد تكون في آية قرآنية، وقد تجتمع جملة هدايات في الآية الواحدة، أو في آيات الموضوع الواحد في السورة، وقد تكون الهدايات مستنبطة من مجموع آيات السورة، أو من الموضوع، أو اللفظ القرآني الواحد، ولا تخلو آية قرآنية ولو كانت من كلمة واحدة من هداية ظاهرة أو مستنبطة، بل قد تجد فيها عشرات الهدايات؛ لأنّ الآية مع ما فيها من هدايات هي في الوقت نفسه تدل علىٰ وجوده جَلَّ وَعَلَا؛ لأنّ من لوازم القول أن يكون له قائل، وتدل علىٰ علمه وحكمته ورحمته، لما حوته من هَدْي محكم، يسدد لكل خير وصلاح.

المطلب الخامس

الفرق بين مفهوم الهدايات والمصطلحات المقاربة

استعمل العلماء - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- مصطلحات معينة في الدلالة علىٰ فهم معاني القرآن الكريم، واستنباط حكمه وأسراره، وإدراك مقاصده وغاياته، والدلالة علىٰ هداياته، فمن ذلك: «**التفسير، والتأويل، والاستنباط، والهدايات**»، ويعبر العلماء عن ذلك بقولهم: تفسير الآية كذا، واختلفوا في تأويلها علىٰ كذا، ويستنبط من الآية كذا، والهدايات عبّروا عنها بألفاظ متنوعة سوف يأتي الحديث عنها بإذن الله في المطلب القادم، فلكي نستطيع تجلية مفهوم الهدايات لابد من التمييز بينها وبين التفسير، وبينها وبين الاستنباط، لما بينهما من علاقة وتداخل، أما التأويل فهو هنا يحمل نفس معنىٰ التفسير، ولذا أعرضت عنه.

١- العلاقة بين التفسير والهدايات والفرق بينهما:

حتىٰ نستطيع أن نعرف العلاقة بين «التفسير» و«الهدايات» وما بينهما من فرق، نبدأ بتعريف «التفسير» ثم نوضح ما بينهما من العلاقة والفرق:

أولًا: تعريف التفسير:

أ- التفسير في اللغة: من (الفَسْر) بمعنىٰ البيان والكشف والتوضيح، وفَسَر الشيءَ يفسِرُه بالكسر، ويَفْسُرُه بالضم فَسْراً: وضَّحَه، وشرحه، وبيّنه، ومنه لفظ مفسَّر، وفَسَّرَ آيات القرآن: شرحها، فالفاء والسين والراء تدل

علىٰ بيان شيء وإيضاحه[(١)]، والتَّفْسِيرُ مثله؛ والفَسْرُ: كشف المُغَطّىٰ، والتَّفْسير: كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل، واسْتَفْسَرْتُه كذا، أَي: سأَلته أَن يُفَسِّره لي، وكلّ شيء يُعْرفُ به تفسير الشيء ومعناه فهو تَفْسِرَتُه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[الفرقان:٣٣][(٢)].

وقد اشتهرت لفظة «التفسير» مقرونة بالقرآن الكريم، حتىٰ أصبحت هذه اللفظة إذا أطلقت فقيل: التفسير أريد به العلم الموضح لمعاني القرآن الكريم، وقد يقال: فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها، وفيما يختص بالتأويل تفسير، ولهذا يقال: «تفسير الرُؤيا وتأويلها، قال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[الفرقان:٣٣]»[(٣)].

ب- التفسير في الاصطلاح: تعدّدت أقوال العلماء وتباينت في تعريف «التفسير» اصطلاحًا، ومنهم من كتب في التفسير دون أن يعرفه، وهذا ما فعله غالب المفسرين؛ ولكن بعد الاستقراء والتتبع يمكن تقسيم التعريفات الاصطلاحية التي ذكرها العلماء إلىٰ قسمين:

القسم الأول: من قصروا علم التفسير علىٰ توضيح المعاني، ومعرفة مراد الله تعالىٰ من خلال كلامه.

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط، مادة (فسر) (١/ ٦٨٨)، ومعجم مقاييس اللغة (٤/ ٥٠٤)، والتوقيف علىٰ مهمات التعريف (ص: ١٩٢).

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة (فسر) (٥/ ٥٥٥)، مختار الصحاح، مادة (فسر) (١/ ٢١١)، وتهذيب اللغة، مادة (فسر) (١٢/ ٤٠٧).

(٣) المفردات (ص:٣٨٢).

والقسم الثاني: من توسعوا في التعريف حتىٰ أدخلوا الاستنباط، والهدايات والإعجاز، بل زاد بعضهم حتىٰ ضوابط التفسير، ومهمة المفسر كذلك.

فممّن قصر تعريف علم التفسير علىٰ بيان وتوضيح معاني القرآن الكريم؛ من العلماء:

١- ابن جُزَيِّ الكلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت:٧٤١هـ) حيث قال:«معنىٰ التفسير: شرح القرآن، وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصِّه، أو إشارته، أو نحوهما»(١).

٢- وعرفه الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٨١٦هـ) في «التعريفات» بقوله: «توضيح معنىٰ الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة»(٢).

٣- وعرفه الكَافِيجِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت:٨٧٩هـ) بقوله:«وأما التفسير في العرف فهو كشف معاني القرآن وبيان المراد»(٣)، وكشف المعاني لا شك أنه يشتمل اللغوية والشرعية، والإفرادية والتركيبية.

٤- وابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ عرّفه بقوله:«التفسير في الاصطلاح: هو: اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها، باختصار أو توسّع»(٤).

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٦).

(٢) التعريفات (ص: ٦٧).

(٣) ينظر: التيسير في قواعد التفسير (ص:١٢٤، ١٢٥).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٣).

٥- وعرّفه الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ١٤٢١هـ) بقوله: «بيان معاني القرآن»[١].

وهنالك من توسعوا حتىٰ أدخلوا في التفسير علم القراءات، والإعجاز، والاستنباط، والهدايات؛ وغيرها:

١- فعرَّفَهُ أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٧٤٥)، بقوله هو: «علمٌ يُبحثُ فيه عن كيفيّةِ النطقِ بألفاظِ القرآنِ، ومدلولاتِها، وأحكامِها الإفراديَّةِ والتركيبيَّةِ، ومعانيها التي تُحمَلُ عليها حالَ التركيبِ، وتتماتُ ذلك»[٢]، فهو أدخل علم القراءات بقوله: «يُبحثُ فيه عن كيفيَّةِ النُّطقِ بألفاظِ القرآنِ»، وهذا لم يقل به غيره، فهي وإن كان لها تعلق بالتفسير من بعض الوجوه، لكنّه هو علم يهتم بنطق ألفاظ القرآن الكريم، وأدخل العلوم الأخرىٰ التي ينبغي أن يلم بها المفسر في قوله: «وتتمات ذلك»، حيث قال: «وقولنا: (وتتمات لذلك)، هو معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما انبهم في القرآن، ونحو ذلك»[٣].

٢- وعرَّفه الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٧٩٤) في «البرهان» بقوله: «علم يفهم به كتاب الله تعالىٰ المنزل علىٰ نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه»[٤]، فهو أدخل علم الاستنباط، وعلم الفقه

---

(١) أصول في التفسير (ص: ٢٨).

(٢) البحر المحيط (١/ ١٢١).

(٣) المصدر السابق.

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣).

الذي له توسع في الأحكام، وأدخل علوما أخرىٰ للمفسر في تعريف آخر له، بقوله: «هو عِلْمُ نُزولِ الآيةِ وسورتِها وأقاصيصِها والإشاراتِ النَّازلةِ فيها، ثُمَّ ترتيبُ مكِّيِّها ومدنيِّها، ومحكمِها ومتشابِهها، وناسخِها ومنسوخِها، وخاصِّها وعامِّها، ومطلقِها ومقيدِها، ومجملِها ومفسرِها»[(١)].

٣- وقال ابنُ عَرَفَة المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٨٠٣): «هو العلمُ بمدلولِ القرآنِ وخاصِّيَةِ كيفيةِ دلالتِه، وأسبابِ النُّزولِ، والنَّاسخِ والمنسوخِ»[(٢)]، وقال في شرحه للتعريف: «فقولنا: خاصيةِ كيفيَّةِ دلالته: هي إعجازُه، ومعانيه البيانيَّةُ، وما فيه من علمِ البديعِ الذي يذكره الزَّمخْشَرِيُّ، ومن نحا نحوه»[(٣)]، فهو أدخل علم الإعجاز في تعريف التفسير.

٤- والزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عرّفه في كتابه «المناهل» بقوله: «علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته علىٰ مراد الله تعالىٰ، بقدر الطاقة البشرية»[(٤)]، فهو أدخل علم الهدايات.

والذي يرجح الباحث، أنّ علم التفسير هو: «علم يُبيِّن معاني القرآن الكريم»، والذي يرجّح ذلك الآتي:

١- هو المتوافق مع تعريف التفسير في اللغة، حيث جاء معنىٰ التفسير في اللغة مختصرًا علىٰ البيانِ والكشفِ والإيضاح للشيء.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣).

(٢) تفسير ابن عرفة (١/ ٥٩).

(٣) المصدر السابق.

(٤) ينظر: مناهل العرفان (٢/ ٤).

٢- هو الـذي اتّفق عليـه كل من عرّف التفسـير، أما الزيـادات الأخرىٰ لم يتفـق عليها.

٣- هو الذي سـار عليه السـلف الصالح - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- في طريقة تفسـيرهم لكتـاب الله تعالـىٰ، حيث لم يتجـاوزوا بيـان المعنىٰ الـذي يتعلـق بالألفاظ القرآنيّـة، أو خلاصة المعنـىٰ التركيبي من الجملـة القرآنية.

٤- هـو الـذي مارسـه العلمـاء من خـلال كتبهـم وتفاسـيرهم، فتجد المفسـر يهتـمّ بتوضيح معـاني المفردات، كمـا في كتب المفـردات والغريب، ويذكـر مـن الأحاديـث، وأسـباب النـزول، وأوجـه القـراءات، وغيرها مما يخـدم بيـان المعنىٰ، حتـىٰ ما جـاء من أوجـه إعـراب، أو جوانـب بلاغية، أو إسـرائيليات، وغيرهـا ممـا ذكـرت لخدمـة هـذا الجانب، وحتـىٰ الذين خرجـوا من بيـان المعنىٰ إلىٰ التفريـع في مسـائل عقدية، أو فقهيـة، كان ذلك ملحظًـا علميًا سـجل علىٰ تفاسـيرهم.

٥- أنّ الـذي جاء في كتب التفسـير من هدايات منثـورة، لم تكن مقصودة عندهـم في كتبهم التي خلـت من حديث مباشـر عنها، ولم تـبرز معالمه، كما كان بـارزًا عندهم علم التفسـير بأدواته المتنوعة.

ثانيًا: العلاقة بين التفسير والهدايات:

هنالـك علاقة وثيقة بيـن «التفسـير» و«الهدايات القرآنية»؛ لأنّ المفسـر عندمـا يسـتخرج الهدايات يحتـاج - أولًا - إلىٰ معرفة معاني الآيـة، وما يرتبط بذلك من أسـباب النـزول، وأوجه القراءات، والناسـخ والمنسـوخ، وغيرها.

كمـا أنَّ علم «الهدايات» نشـأ في رحم علم «التفسـير» من خلال ما يذكره بعـض العلماء مـن فوائد، ودلالات، وإرشـادات للآيـة أو الآيـات، بعد بيان

معنىٰ الآية، لكنّ علماء التفسير لم يتوسعوا في تدوين الهدايات، ولم يقصدوه بالتأليف، بل كان مقصدهم هو التفسير الذي كثيرًا ما يقف في بيان المعاني.

ومن هنا كان علم «الهدايات» يأتي بعد علم «التفسير»، وهو معتمد عليه، وملتصق به، لأنّ علم «التفسير» يقف عند بيان المعنىٰ غالبًا، وعلم «الهدايات» هو خلاصة ما جاء في معاني الآية من هداية وإرشاد ودلالة علىٰ تلك المعاني، فالتفسير بيان للمعنىٰ، والهدايات دلالات وإرشادات مستفادة من ذلك المعنىٰ الموضح، فعلم «التفسير» هو الأصل لعلم «الهدايات»، وهو الثمرة والخلاصة التي تترتب علىٰ فهم المعنىٰ، فالعلاقة بينهما علاقة الوسيلة بالمقصد.

ثالثًا: الفرق بين التفسير والهدايات:

مع ما بين «التفسير» و«الهدايات» من علاقة؛ إلا أنّ بينهما تباينًا من وجوه عدة، فمن ذلك:

* أنّ التفسير يهتمّ بتوضيح وبيان المعاني في الغالب، كما هو منهج جميع المفسرين، بينما علم الهدايات يهتم بما تهدي وترشد وتدل عليه تلك المعاني، فالتفسير بيان، والهدايات دلالات وإرشادات، يخلص إليها بعد معرفة معاني الآية.

* أنّ علم التفسير معتمده الأول في بيان القرآن الكريم؛ تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنّة، ثم بما أُثِر عن الصحابة والتابعين، ثم اللغة، ثم الرأي والاجتهاد، بينما المعتمد عليه الأول في الوصول للهدايات القرآنيّة؛ القريحة الذهنية، والرأي والاجتهاد والتدبر؛ الذي يترتّب علىٰ فهم المعنىٰ.

❁ أنّ علم التفسير تظهر فيه قدرة المفسّر وتميزه بمدىٰ التزامه بأحسن طرق التفسير، من تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ومن خلال قوته كذلك في الترجيح والاختيار، ونحو ذلك، بينما علم الهدايات تظهر قدرة المفسّر وتميزه بقدر ما يوظف معاني الآية، أو السورة، أو الموضوع، في دلالات وإرشادات ظاهرة وخفية من وراء المعنىٰ المبين.

❁ أنّ علم التفسير مقدمة لعلم الهدايات، من خلال شرح المفردات، وبيان أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغيرها، وعلم الهدايات هو خلاصة ما يريد أن يصل إليه العلماء - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ-، من خلال كل الجهود المبذولة في فهم وخدمة القرآن الكريم، فالتفسير وسيلة، والهدايات ثمرة وغاية.

❁ أنّ علم التفسير ظهرت معالمه، وبانت أصوله، وقعّدت قواعده، ووضعت ضوابطه بصورة كبيرة، بينما علم الهدايات لم يجد حظه من العناية والتأصيل بما وجده علم التفسير.

❁ أنّ علم التفسير قد تكون كتابة المعاني وتوضيحها، فيها البسط والتطويل، ودخول مفردات كثيرة، أما علم الهدايات فأسلوب الكتابة فيه يميل إلىٰ الاختصار، والتلخيص، والتركيز، غالبًا.

٢- العلاقة بين الاستنباطات والهدايات والفرق بينهما:

حتىٰ نستطيع أن نعرف العلاقة بين الاستنباطات والهدايات وما بينهما من فرق، نبدأ بتعريف الاستنباط، **ثم نوضح العلاقة بينهما والفرق:**

أولًا: تعريف الاستنباط:

أ- الاستنباط في اللغة: «النون والباء والطاء كلمةٌ تدلُّ علىٰ استخراج شيء، واستنبَطْتُ الماءَ: استخرجتُه»(١)، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾[النساء: ٨٣] أي: يستخرجونه، واسْتَنْبَطَ الفَقيهُ: اسْتَخْرَجَ الفِقْهَ الباطِنَ بفَهْمِه واجْتهادِه(٢).

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكل مستخرج شيئًا كان مستترًا عن أبصار العيون، أو عن معارف القلوب؛ فهو له مستنبط»(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنّ الاستنباط هو استخراج الشيء الثابت الخفي الذي لا يعثر عليه كل أحد»(٤)، وقال أيضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ الاستنباط استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفىٰ علىٰ غير مستنبطه»(٥).

ب- الاستنباط في الاصطلاح: هو استخراج معنىٰ خفي لا يظهر لغير المفسر من الآية أو الآيات بطريق صحيح، أو هو استخراج المعاني الخفية من الآيات والسور، فالاستنباط في استعمال المفسرين هو: «استخراج ما وراء ظواهر معاني الألفاظ من الآيات القرآنية»(٦)، وهذا ما بيّنه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (نبط) (٥/ ٣٨١).

(٢) القاموس المحيط، مادة (نبط) (ص:٨٩٠).

(٣) جامع البيان (٨/ ٥٧١).

(٤) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٣).

(٥) إعلام الموقعين (١/ ٢٦٨).

(٦) ينظر: مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الرابع- السنة الثانية - ذو الحجة ١٤٢٨هـ، الموضوع الأول: معالم الاستنباط في التفسير، للأستاذ نايف بن سعيد الزهراني، (ص: ٢٠).

من خلال شرحه للاستنباط حيث قال هو: «قدر زائد علىٰ مجرد فهم اللفظ، فإنّ ذلك ليس طريقة الاستنباط، إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط، وإنما تنال به العلل، والمعاني، والأشباه والنظائر، ومقاصد المتكلم، ومعلوم أنّ هذا الفهم قدر زائد علىٰ معرفة موضوع اللفظ، وعمومه، أو خصوصه، فإنّ هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب، وإنما هذا فهم لوازم المعنىٰ، ونظائره، ومراد المتكلم بكلامه، ومعرفة حدود كلامه، بحيث لا يدخل فيها غير المراد، ولا يخرج منها شيء من المراد»(١).

ثانيًا: العلاقة بين الاستنباطات والهدايات والفرق بينهما:

المتأمل في دلالات الآيات القرآنية، وكلام العلماء، يجد أنّ هنالك علاقة وثيقة بين الهدايات والاستنباط، فالاستنباط وسيلة من وسائل الوصول للمعنىٰ الكامل، والهدايات الدقيقة في الآية، فلا يمكن استكمال ما في الآية من هدايات بدون الاستنباط، إلا أنّنا نجد الهدايات القرآنية منها ما يحتاج إلىٰ استنباط ودقة نظر وتأمل، ومنها ما لا يحتاج لذلك، ومن هنا يظهر لنا أنّ بين الاستنباطات والهدايات عمومًا وخصوصًا، فالهدايات تتّجه نحو توظيف المعاني الظاهرة والخفية في الدلالات والإرشادات، خاصة وأنّ منها ما لا يخفىٰ علىٰ من له معرفة باللسان العربي، وله قدرة على الذوق والفهم، بينما اتجاه الاستنباط هو نحو المعاني الخفية والدقيقة، من وراء الكلمات، وتحتاج إلىٰ مقومات ونظر.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٦٨).

والاستنباط من العلوم المكملة لبيان الهدايات؛ لأنّنا متعبدون بما دلّ عليه القرآن بمنطوقه ومفهومه، وفق الضوابط التي وضعها العلماء، فعلم الهدايات يهتم بالهدايات الظاهرة والخفية ذات الآثار الإيمانية العملية، والاستنباط يهتم بالهدايات والمعاني والنكت الخفية بصورة أوسع، وهما من حيث الممارسة والكتابة متداخلان؛ لأنّهما من علوم التفسير الذي موضوعه: «ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيها، وما يستنبط منها»[(١)]، فالعلاقة بينهما علاقة الجزء بالكل.

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢).

المطلب السادس

تعبيرات علماء التفسير لمفهوم الهدايات

علماء التفسير يعبرون عن «الهدايات» بإطلاقات متنوعة، وبعد البحث والتتبع وجدتها في الغالب تدور في سبعة ألفاظ، تتفق تمامًا مع معنى الهداية في اللغة أو تقرب منها، وما ورد في القرآن الكريم، فإليك بيانها مع نماذج من تعبيرات العلماء لكل واحدة من تلك الإطلاقات:

أولًا: الدِّلالة: يقولون تدل هذه الآية على كذا، ودلّت هذه الآية على كذا.

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾[الحجر: ٢٤]: «هَـذَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ أَوَّلِ الْوَقْتِ فِي الصَّلَاةِ خَاصَّةً، وَعَلَى فَضْلِ الْمُبَادَرَةِ إِلَى سَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَيْهَا عَامَّةً»[1].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٧٨ – ٢٧٩]: «دلّت هذه الآية على أنّ أكل الربا والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك»[2].

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[الحج: ٢٥]: «إنّ هذه الآية دلّت على أنّ من كان في البيت

---

(١) أحكام القرآن (٥/ ١٢٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣٦٤).

الحرام مأخوذ بمجرّد الإرادة للظلم، فهي مخصّصة لما ورد من أنّ الله غفر لهذه الأمة ما حدّثت به أنفسها، إلا أن يقال: إنّ الإرادة فيها زيادة على مجرّد حديث النفس»[1].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٥٩]: «فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث»[2].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران:١٥٩]: «وقد دلّت الآية على أنّ الشُّورى مأمور بها الرسُول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما عبّر عنه بـ (الأمر) وهو مُهمّات الأمّة ومصالحها في الحرب وغيره»[3].

وقد عبّر عدد من المفسرين - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- بهذا، منهم: أبو الحسن الماوردي في «النكت والعيون» (ت:٤٥٠هـ)، وأبو القاسم الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) في «الكشاف»، وفخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ) في «مفاتيح الغيب»، والبيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) في «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، وأبو حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) في «البحر المحيط»، وابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) في «التفسير القيّم» وفي عدد من المواضع في كتبه، وابن كثير

(١) فتح القدير (٥/ ١٠٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٧٨).
(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٤٧).

(ت: ٧٧٤هـ) في «تفسير القرآن العظيم»، والألوسي (ت: ١٢٧٠هـ) في «روح المعاني»، وجمال الدين القاسمي في «محاسن التأويل» (ت:١٣٣٢هـ)، والشنقيطي (ت:١٣٩٣هـ) في «أضواء البيان»، وغيرهم[(١)].

ثانيًا: الإرشاد: يقولون ترشد هذه الآية إلىٰ كذا، وأرشدت هذه الآية إلىٰ كذا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[البقرة:٨٥]: «والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق، ذمّ اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة»[(٢)].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾[الأحزاب: ٦١]: «وهذه الآية ترشد إلىٰ تقديم إصلاح الفاسد من الأمة علىٰ قطعه منها؛ لأنّ إصلاح الفاسد يكسب الأمة فردًا صالحًا أو طائفة صالحة تنتفع الأمة منها»[(٣)]، فهم ذلك من تقديم الأخذ علىٰ التقتيل.

---

(١) لم أوثّق هذه المواضع هنا لكثرتها في كتبهم، ولأنّ طبيعة الدراسة لا تتحمل البسط، ولأني اكتفيت بتوثيق النماذج المذكورة لكل مثال.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٩٥).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١١٠).

وقال مصطفى المراغي رحمه في تفسير قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ١١٢]: «والآية ترشد إلى أنّ الإيمان الخالص لا يكفي وحده للنجاة، بل لابدّ أن يقرن بإحسان العمل»(١).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[الفرقان: ٦٧]: «والآيات المذكورة أرشدت الناس ونبّهتهم على الاقتصاد في الصرف»(٢).

وقد عبّر عدد من المفسرين- رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- بهذا التعبير، منهم: ابن العربي (ت:٥٤٣هـ) في «أحكام القرآن»، وبرهان الدين البقاعي (ت:٨٨٥هـ) في «نظم الدرر»، والألوسي في «روح المعاني»، والقاسمي في «محاسن التأويل»، وغيرهم.

ثالثًا: الفائدة(٣): يقولون تفيد هذه الآية كذا، وأفادت هذه الآية كذا.

مثال ذلك: قول الجصاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٢٦]: «ومما تفيد هذه الآية من الأحكام، ما استدلّ به منها محمد بن الحسن، على امتناع جواز الكفارة قبل الحنث»(٤).

---

(١) تفسير المراغي (١/ ١٩٥).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٧٧).

(٣) قال الليث: «الفائدةُ: ما أفاد الله العبد من خير يستفيده ويستحدثه، وجمعها الفوائد»، ينظر: تهذيب اللغة، مادة (فيد) (٤/ ٤٨٤).

(٤) أحكام القرآن (٢/ ٥٤، ٥٥).

وقال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]: «أفادت هذه الآية وجوب الزكاة فيما سمىٰ الله سبحانه، وأفادت بيان ما يجب فيه من مخرجات الأرض التي أجملها في قوله: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾»[1].

وقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤]: «أفادت هذه الآية أن علىٰ القاذف إذا لم يقم البيّنة الحد، ورد الشهادة، وثبوت الفسق»[2].

وقول الرازي في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]: «فثبت أنّ هذه الآية تفيد وجوب التسوية من كل الوجوه»[3].

وقول البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]: «فقد أفادت هذه الآية أنّ من كان في قلبه غلّ علىٰ أحد من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فليس ممن عنىٰ الله بهذه الآية»[4].

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ٤٦٥).

(٢) زاد المسير في علم التفسير (٦/ ١٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٣/ ٦١).

(٤) نظم الدرر (٧/ ٥٢٨).

وقد عبّر عدد من المفسرين - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- بهذا، منهم: ابن عطية، وابن العربي، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو البركات النسفي (ت:٧١٠هـ) في «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، وأبو حيان الأندلسي، والسمين الحلبي (ت:٧٥٦هـ) في «الدرّ المصون»، وابن عادل الحنبلي (ت:٨٨٠هـ) في كتابه «اللباب في علوم الكتاب»، والألوسي، والقاسمي، والشنقيطي، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، وهو يعبّر في تفسيره عن الهدايات بالفوائد، والجزائري في «أيسر التفاسير»، وغيرهم.

رابعًا: البيان: يقولون تبيّن هذه الآية كذا، وبيّنت هذه الآية كذا.

مثال ذلك: قول الجصاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ١٢٠]: «قد بيّنت هذه الآية وجوب الخروج علىٰ أهل المدينة مع رسول الله في غزواته إلا المعذورين، ومن أذن له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القعود؛ ولذلك ذمّ المنافقين الذين كانوا يستأذنون رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القعود في الآيات المتقدمة»[(١)].

وقول أبي حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[البقرة: ٢٣٧]: «بيّنت هذه الآية أنّ المفروض لها تأخذ نصف ما فرض، ولم تتعرض الآية لإسقاط متعتها بل لها المتعة ونصف المفروض»[(٢)].

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ٣٧١).

(٢) البحر المحيط (٢/ ١٧١).

وقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[العلق: ٧]: «فقد بيّنت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبّهت علىٰ الحذر من تغلغلها في النفس»(١).

وقول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[المؤمنون: ٥ - ٦]: «فقد بيّنت هذه الآية أن حفظ الفرج من الزنىٰ، واللواط لازم، وأنّه لا يلزم حفظه عن الزوجة والموطوءة بالملك»(٢).

وقد عبّر عدد من المفسرين - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- بهذا، منهم: البقاعي، والشنقيطي، ومحمد السيد طنطاوي (ت:١٤٣١هـ) في تفسيره «الوسيط»، وغيرهم.

خامسًا: الإشارة: يقولون تشير هذه الآية إلىٰ كذا، وأشارت هذه الآية لكذا.

مثال ذلك: قول أبي حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[النساء: ١٠٣]: «وهذه الآية تشير إلىٰ أنّ القضاء في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إنّما هو قضاء صلاة الخوف»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٤٤٥).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٥٠٦).

(٣) البحر المحيط (٣/ ٣٥٧).

وقول محمد جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ١٤٨]: «تشير الآية إلىٰ أنّ الناس علىٰ مذاهب عديدة وأديان متنوعة، وأنّ علىٰ العاقل أن يستبق إلىٰ ما كان خيرها وأرقاها، وقد اتفق العقلاء قاطبة والفلاسفة أنّ دين الإسلام أرقىٰ الأديان كلّها لما حوىٰ من حاجيات الكمال البشري، ووفّىٰ بشؤون الاجتماع، وأسباب العمران، وذرائع الرقيّ، وطرق السعادتين»(١).

وقول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ٧١]: «وهذه الآية الكريمة تشير إلىٰ هجرة إبراهيم، ومعه لوط - عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ - من أرض العراق إلىٰ الشام؛ فرارًا بدينهما»(٢).

وقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[غافر: ١٥]: «وهذه الآية تشير إلىٰ أنّ النبوءة غير مكتسبة»(٣).

وقول أبي بكر الجزائري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[فاطر: ١٠]: «إنّ الآية تشير إلىٰ أنّ كل من يمكر مكر السوء فإنّ عاقبة مكره تعود عليه وبالًا وخسرانًا»(٤).

---

(١) محاسن التأويل (١/ ٣٩٣).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٣٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ١١١).

(٤) أيسر التفاسير (٤/ ٣٤٢).

وقد عبّر عدد من المفسرين بهذا، منهم: أبو القاسم عبد الكريم القشيري (ت:٤٦٥هـ) في «لطائف الإشارات»، وابن عطية في «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، والثعالبي (ت:٨٧٥ هـ) في «الجواهر الحسان في تفسير القرآن»، وابن عادل الحنبلي، والألوسي، والسعدي، وابن عثيمين، وغيرهم.

سادسًا: الفهم: يقولون يفهم من هذه الآية كذا، وهذه الآية فيها كذا.

مثال ذلك: قول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[البقرة:١٧٣]: «فيفهم من الآية أن الباغي والعادي كلاهما متجانف لإثم، وهذا غاية ما يفهم منها»[(١)].

وقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء: ٥٩]: «يفهم منها أنّ ما لم يتنازعوا فيه بل اتفقوا عليه أنهم غير مأمورين برده إلىٰ الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقًا للكتاب والسنة فلا يكون مخالفا»[(٢)].

وقول الجصاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأحزاب: ٥٠]: «الآية فيها نصّ علىٰ إباحة عقد النكاح بلفظ الهبة للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٣)].

(١) أضواء البيان (٣/ ٩٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٢٠٢).

(٣) أحكام القرآن (٥/ ٢٣٧).

وقول ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤]: «الْآيَةُ فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ»[١].

وقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾[يوسف: ١١٠]: «وهذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم، وهذا الباب عظيم وخطره جسيم ينبغي الوقوف عليه لئلا يزل الإنسان فيكون في سواء الجحيم»[٢].

وقد عبّر عدد من المفسرين - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- بهذا، منهم: ابن عطية في «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، وابن القيم فيما جمع له من «التفسير القيم»، والزركشي في «البرهان»، والبقاعي في «نظم الدرر»، والألوسي في «روح المعاني»، والنيسابوري في «الكشف والبيان»، وابن عاشور في «التحرير والتنوير»، وغيرهم.

سابعًا: الأخذ: يقولون يؤخذ من هذه الآية كذا، وأخذ من هذه الآية كذا.

مثال ذلك: قول ابن العربي فيما نقله عن الشافعي - رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ- في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾[البقرة: ٢٢٩]: «يؤخذ من هذه الآية أنّ السراح من صريح ألفاظ الطلاق الذي لا يفتقر إلىٰ نية»[٣].

---

(١) أحكام القرآن (١/ ٦٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٧٥).

(٣) أحكام القرآن (١/ ٣٨١).

وقول ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٧٤]، يؤخذ من الآية أنّ الأفضلية تثبت للجنس بثبوتها لبعض أفراده؛ لأنّ الحجارة الموصوفة بذلك هي بعض من كل، وقد ثبت التفضيل للجميع بقوله: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ﴾، ولم يقل: فهي كالحجارة الموصوفة بكذا، والحجارة عام؛ إما بـ (الألف واللام)، أو بالسياق، فقد فضل عليهم جميع الحجارة»[(١)].

وقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾[الأحزاب: ٥٠]: «يؤخذ من مفهومه، أنّ ما عداهن من الأقارب غير محلل، كما تقدم في سورة النساء، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقًا، والأصول مطلقًا، وفروع الأب والأم وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح»[(٢)].

وقول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[آل عمران: ٣١]: «يؤخذ من هذه الآية الكريمة أنّ علامة المحبة الصادقة لله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ هي اتباعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فالذي يخالفه ويدعي أنّه يحبه، فهو كاذب مفتر؛ إذ لو كان محبًّا له لأطاعه، ومن المعلوم عند العامة أنّ المحبة تستجلب الطاعة»[(٣)].

(١) تفسير ابن عرفة (١/ ٣٣٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٦٩).

(٣) أضواء البيان (٤/ ١٨).

وقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾[الكهف: ٤٧]، أنّ فناء العالم يكون بالزلازل»[١].

هذه هي الألفاظ البارزة التي عبّر بها المفسرون - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- عن مفهوم الهدايات المستفادة من الآيات، حسب ما ظهر لنا من خلال البحث والتتبع، وهنالك ألفاظ أخرىٰ عبر بها بعض المفسرين بصورة قليلة، وهي: «**الإيماء، التنبيه، الإيحاء، والتضمين، والمقصد، والثمرة، وغيرها**».

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٣).

المبحث الثاني

أهمّيّة الهدايات القرآنية

أهمية الهدايات القرآنية

مدخل:

«الهدايات القرآنيّة» أمرها عظيم، وشأنها كبير؛ لأنَّ موضوعها ومصدرها الذكر الحكيم، كلام رب العالمين، الذي هو خير الحديث، وأصدقه، وأعدله، وأنفعه، وأبركه.

فوصفها كريم، لأنّها نور وهدىٰ، وبركة وذكرىٰ، وشفاء ورحمة، فهي جمعت كل الصفات التي تحمد، وتنزهت عن كل شائبة نقص وعوج.

وهدفها جليل، وهو إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، وإرشادهم إلىٰ ما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة؛ لأنّها تدلهم علىٰ كلِّ هدىٰ وخير، وعلم وحكمة جاءت في كتاب الله، من أمور المعاش والمعاد بصورة مستمرة.

والحاجة إليها كبيرة، لا سيما في عصر تعقدت مشكلاته الاجتماعية، والنفسية، والسياسية، والاقتصادية وغيرها، مما يتطلّب البحث في هدايات الآيات، واستخراج واستنباط معالجات شافية لما تحتاج الأمة إليه؛ لأن الله جعل في كتابه كل ما هو صالح لكل زمان ومكان، قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[الإسراء:٨٢].

وأثرها بليغ؛ لأنّها تبلغ كل كمال وسعادة، وتصون عن كل فساد وانحراف، وكيف لا تكون كذلك؟! وهي مُنَزَّلةٌ من عند الله العليم الحكيم، قال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[السجدة:٢] فإنّ

الأوائل سعدوا بالقرآن الكريم؛ لما أقبلوا عليه يأخذون هديه، ويستنيرون بنوره، فتوحدت كلمتهم، وقويت شوكتهم، وعز سلطانهم، وعلا مجدهم، فالقرآن الكريم في كل زمان يمثل سرّ قوة الأمة، فهو برهان صدق الرسالة، وقائد مسيرتها للتي هي أقوم بين الأمم، ومن هنا كانت هداياته واضحة الهدف، عظيمة النفع والأثر، مصانة عن العبث، محققة للكمال البشري، لا يستغنىٰ عنها العقلاء، ولا يشبع من دراستها العلماء، فالله جعل في أرضه غذاء الأجساد، وجعل في هدايات كتابه غذاء للأرواح، وهداية للعقول، وكما لا نجد خللًا فيما أخرجه لعباده من الطيبات، لا نجد كذلك عوجًا فيما أنزله لعباده من البينات والهدىٰ والذكر الحكيم، وهو الذي خلق، ويعلم ما يصلح الخلق؛ ولذا أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ المهتدين بهدايات القرآن الكريم، فوصفهم بالهداية والعقل، قال تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧ – ١٨].

ومن هنا سوف نتكلم عن أهميّة «الهدايات القرآنيّة» من جهة موضوعها، ووصفها، وهدفها، وشدة الحاجة إليها، وأثرها، من خلال المطالب الخمسة الآتية بإذن الله تعالىٰ، نسأل الله العون والتوفيق والسداد، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

المطلب الأول
موضوع الهدايات القرآنية

مما يدلّ على أهميّة «الهدايات القرآنيّة» أنّ موضوعها هو كتاب الله تعالى «كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر»(١)، والقرآن العظيم، والنور المبين، والذكر الحكيم، والكتاب العزيز؛ الذي جمع الله فيه كل علم نافع، وحكمة صالحة، وهداية راشدة، ودلالة موصلة لكل خير، وجعله رحمة من كل شقاء، وشفاء من كل داء، فهو كتاب الإنسانية التي أرادت أن تحيا على منهج الله تعالى، تصون به عقيدتها، وتصلح به عبادتها، وتستقيم عليه حياتها في جميع الجوانب؛ لأنّ الله تعالى بيّن فيه كل ما كانت الأمة في حاجة إليه؛ لصلاح أمرها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل: ٨٩] «بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنّة كافيًا في هدي الأمّة في عبادتها، ومعاملتها، وسياستها، في سائر عصورها، بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدين وافيًا في كلّ وقت بما يحتاجه المسلمون»(٢)، وهو الحق المبين، الذي ليس بعده لضال عذر، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[يونس:١٠٨]،

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي (٤/ ١٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٠٣).

وهو الصراط المستقيم الذي ندعو الله أن يبصرنا به في قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وهو الهدىٰ القويم، الذي به قوام الأمور واستقامتها، وهو النور العظيم الكاشف لكل ظلمات الحياة والقلوب، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وهو بصائر للمستبصرين، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وهو حبل الله الذي أمرنا بالاعتصام به، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهو الروح الذي تحيا به الأمة حياة السعادة، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فسمّاه ﴿رُوحًا﴾ لما يحصل به من الحياة، وجعله نورًا لما يحصل به من الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان، فحيث وُجِدَت هذه الحياة بهذا الروح وُجِدَت الاضاءة والاستنارة، وحيث وُجِدَت الاستنارة والاضاءة وُجِدَت الحياة، فمن لم يقبل هذه الروح فهو ميت مظلم»[1]، وهو الموصل لكل هدىٰ، ومحقق لكل خير ورحمة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ

(١) التفسير القيم (٢/ ١٢٣).

﴿صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾[النساء:١٧٤–١٧٥]، فهو الذي يهديهم إلىٰ طريق الجنة، ويبعدهم عن طرق النار، وهو الذي حثهم علىٰ كل ما ينفعهم، وحذر فيه من كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم، ومن هنا صار رحمة ونعمة عظمىٰ من الله البر الرحيم بعباده.

ويدل علىٰ فضل «الهدايات القرآنيّة»، أنّ كل ما ثبت للقرآن من فضائل ومنزلة فهي ثابتة لهداياته المستخرجة بصورة صحيحة، حيث جعل الله فيها الكفاية للهدىٰ والحق والكمال، وكل ما كان الناس في حاجة إليه؛ لصلاح دينهم ودنياهم، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[العنكبوت:٥١].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء، فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل: ليته لم ينه عنه، بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسايرة إرشاداته، وهداياته، وأحكامه لكل حال، وكل زمان، بحيث لا تصلح الأمور إلا به، فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل علىٰ طلب الحق، فلا كفىٰ اللّه من لم يكفه القرآن، ولا شفىٰ اللّه من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدىٰ به واكتفىٰ، فإنه رحمة له وخير، فلذلك قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ وذلك لما يحصل فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية»[١].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٣٥).

والأمـة مـع هداياته لا تحتاج إلـىٰ غيرها، وقد قـال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾[المائـدة: ٤٨]، وهيمنته تـدل علىٰ علو مرتبتـه، وكمال هديـه، وفضله، وجمعـه لجميع ما في غيره مـن الكتب الإلهية السـابقة.

فالقـرآن الكريم مصـدر «الهدايـات القرآنيّة» الـذي: «لا طريق إلىٰ الله سـواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسـك بشـيء يخالفـه، وهذا كلـه لا يحتاج إلىٰ تقرير واسـتدلال عليه؛ لأنـه معلوم من ديـن الأمة»(١)، قـال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾[البقـرة:١٢٠]، وقـال تعالـىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنعام: ٧١].

(١) الموافقات في أصول الشريعة (٤/ ١٤٤).

المطلب الثاني
صفات الهدايات القرآنية

«الهدايات القرآنيّة» وصفت بصفات عظيمة، تدل كل صفة على أهميتها ومنزلتها وعلو شأنها، من ذلك:

أولًا: هدايات مستقيمة: فالله تعالىٰ وصف القرآن الكريم بالاستقامة التي لا عوج فيها.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف:١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٦]، فهداياته كذلك التي استخرجها العلماء وفق أسس صحيحة كلها مستقيمة، بل في كمال الاستقامة، لا خلل فيها، ولا تناقض، ولا عيب، ولا نقص؛ لأنّها مستنبطة من كتاب «لا اعوجاج فيه ألبتة، لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني، أخباره كلها صدق، وأحكامه عدل، سالم من جميع العيوب في ألفاظه ومعانيه، وأخباره وأحكامه؛ لأن قوله: ﴿عِوَجَا ۜ﴾ نكرة في سياق النفي، فهي تعم نفي جميع أنواع العوج»[(١)].

ثانيًا: هدايات قيّمة: وهي هداية وصفت كذلك بأنها قيمة.

قال تعالىٰ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة:٢-٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾

(١) أضواء البيان (١٩/٥).

[الكهف:١ -٢]، فهي هدايات قيمة، لا يوجد أقيم منها في الوجود؛ لما يحقق مصالح العباد العاجلة والآجلة، لا ريب في قيمتها، وصلاحها، وفائدتها، وعظيم نفعها، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢]، ولا ريب أنّ ما جاء فيها هو الحق الذي لا يلبسه باطل، والعدل الذي لا يخالطه جور، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، ولا حجّة لمرتاب في ريبه، وهي هدايات قيمة كذلك؛ لأنها تنبض بالحكمة التي لا يعتريها خلل؛ لأنها مستنبطة من كتاب حكيم، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[آل عمران: ٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[يس:١ – ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[يونس:١]، وقال تعالىٰ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾[لقمان: ٢ – ٣]، فهو لحكمته يهدي لكل كمال، ويوصل لكل صلاح من خلال هداياته.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان»(١).

ثالثًا: هدايات كريمة: وهي هدايات وصفت كذلك بأنّها كريمة أي: عظيمة الفوائد، جمة المنافع، كثيرة الخير، كبيرة الأثر، ليس لها مثيل ونظير؛ لأنّها مستنبطة من كلام رب العالمين، الموصوف بأنه كريم.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾[الواقعة: ٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾[الحاقة: ٣٨ – ٤٠].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٦٢).

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوصف الكريم في الكتابِ غاية الوصف، وأهل الزَّمان يصفون الكتاب بِالخطير، وبالأَثير، وبِالمبرور؛ فإن كان لملك قالوا: العزيز؛ وأَسقطُوا الكريم غَفْلَةً، وَهُوَ أَفضلها خصلة»[(١)].

وقال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «و﴿كَرِيمٌ﴾: وصف مدح ينفي عنه مالا يليق به»[(٢)].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والكريم اسم جامع لما يحمد؛ وذلك أنّ فيه البيان والهدىٰ والحكمة، وهو معظم عند الله عَزَّوَجَلَّ»[(٣)].

وقال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿كَرِيمٌ﴾: كثير النفع؛ لاشتماله علىٰ أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد، أو حسن مرضي في جنسه»[(٤)].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو ﴿كَرِيمٌ﴾ علىٰ المؤمنين، لأنه كلام ربهم، وشفاء صدورهم، كريم علىٰ أهل السماء؛ لأنه تنزيل ربهم ووحيه، وقيل: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: غير مخلوق، وقيل: ﴿كَرِيمٌ﴾ لما فيه من كريم الأخلاق ومعالي الأمور، وقيل: لأنّه يكرم حافظه، ويعظم قارئه»[(٥)].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم فإنما يستفاد من كتاب الله، ويستنبط منه»[(٦)].

---

(١) أحكام القرآن (٦/ ٢١٦).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٢١٣).

(٣) زاد المسير (٨/ ١٥١).

(٤) أنوار التنزيل (٥/ ٢٩٢).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٢٢٤).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٣٦).

رابعًا: هدايات مباركة: فهداياته فعلًا هي هدايات مباركة، عطاؤها لا ينفد، ونورها لا يخبأ، وخيرها لا يحد؛ لأنها من كتاب مبارك في علومه، ومعانيه، وأثره، وفي كل ما يتصل به.

قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ووصف القرآن بالمبارك، يعمّ نواحي الخير كلها؛ لأنّ البركة زيادة الخير؛ فالقرآن كلّه خير، من جهة بلاغة ألفاظه، وحسنها، وسرعة حفظه، وسهولة تلاوته، وهو أيضًا خير لما اشتمل عليه من أفنان الكلام، والحكمة، والشريعة، واللطائف البلاغية، وهو في ذلك كله آية علىٰ صدق الذي جاء به؛ لأنّ البشر عجزوا عن الإتيان بمثله، وتحدّاهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بذلك فما استطاعوا، وبذلك اهتدت به أمم كثيرة في جميع الأزمان، وانتفع به مَن آمنوا به، وفريق ممن حرموا الإيمان، فكان وصفه بأنه مبارك وافيًا علىٰ وصف كتاب موسىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ بأنّه فرقان وضياء»[١].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾: «فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدىٰ من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية علىٰ كل مطلوب ما كان به أجلَّ كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٩٠، ٩١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٧١٢).

خامسًا: هدايات مذكّرة: وهي هدايات ذكر للمتذكرين والذاكرين؛ لأنّها تذكر العباد بخالقهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص، وماله عليهم من حق العبادة، وتذكرهم بنعمه عليهم، وواجب شكره، وتذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه، لا يستغنون عنه نَفَسًا واحدًا، وتذكرهم بأسه، وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصىٰ أمره، وكذب رسله، وتذكرهم بثوابه وعقابه، وتذكرهم ما فيه صلاح اعتقادهم، وطاعة ربهم، وتهذيب أخلاقهم، وآداب بعضهم مع بعض، والمحافظة علىٰ حقوقهم، ودوام انتظام جماعتهم، وكيف يعاملون غيرهم من الأمم الذين لم يتبعوه، وتذكرهم بأوامر ربهم ونواهيه، وحدوده، وشرائعه، وأحكامه القدرية والشرعية، وتذكرهم بالمبدأ والمعاد، وتذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه، وتذكرهم بنفوسهم، وأحوالها، وآفاتها، وما تكمل به، وتذكرهم بعدوهم، وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم، وبالجملة فهي تذكر العباد بمصالحهم وما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم وما به تكون سعادة الدارين[1]؛ لأنّها نابعة من الذكر الحكيم، وهي تذكر ما جاء فيه.

قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[يس: ٦٩-٧٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧].

---

(١) ينظر: بدائع التفسير، لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٥٦)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٩١٢)، والتحرير والتنوير (١٥/ ١٦٥).

سادسًا: هدايات ميسرة: وهي هدايات مع استقامتها، وحكمتها، وبركتها، وبالغ أثرها، ميسرة، سهلة الفهم، شديدة التعلق بالقلب، قوية التأثير على النفس؛ لأنّها مأخوذة من كتاب وصف باليسر في كل ما يتعلق به .

قال تعالى:﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[مريم: ٩٧]، وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧]، وهذه الآية كررها الله تعالى في سورة واحدة أربع مرات.

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«سهلناه؛ للاتعاظ، حيث أتينا فيه بكل حكمة.. وجعلناه بحيث يعلق بالقلوب، ويستلذ سماعه، ومن لا يفهم يتفهمه، ولا يسأم من سمعه وفهمه، ولا يقول: قد علمت فلا أسمعه؛ بل كل ساعة يزداد منه لذة وعلمًا»(١).

وإلى غير ذلك من الصفات الكثيرة، التي يمكن أن توصف بها الهدايات القرآنية، ومن ذلك: **أنها فصل ليس فيها هزل، وهي نور، وفرقان، وروح، وشفاء، ورحمة، وبصائر، وبيان، وعلم، وصدق، وحق، وعدل، وبشرى، وهي خير الهدى.**

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ٣٠٠).

المطلب الثالث

غايات الهدايات القرآنية وأهدافها

مما يدلّ علىٰ أهميّة «الهدايات القرآنية» ومنزلتها، أنّ أهداف استخراجها وذكرها عظيمة، وغاياتها شريفة؛ من ذلك:

أولًا: إخراج الناس من الظلمات إلى النور:

من أهداف «الهدايات القرآنية» العظيمة إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، من ظلمات الكفر والشرك والجهل والضلال والمعصية إلىٰ نور الإيمان والعلم والهدىٰ والطاعة، ومن ظلمات الخرافة والتيه، والغواية، والظلم، والتفرق والعداء، والضنك إلىٰ نور اليقين، والحق، والرشد، والعدل، والمحبة، والأمن، والسعادة الفردية والجماعية؛ لأن ذلك واحدًا من أعظم أهداف نزول هذا الكتاب المجيد، قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[إبراهيم:١]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[الحديد:٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ:٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥ – ١٦].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: «لتهديهم به من ظلمات الضلالة والكفر إلىٰ نور الايمان وضيائه، وتبصر به أهل الجهل والعمىٰ سبل الرشاد والهدىٰ»[(١)].

وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه أربعة أوجه؛ أحدها: من الشك إلىٰ اليقين، الثاني: من البدعة إلىٰ السنّة، الثالث: من الضلالة إلىٰ الهدىٰ، الرابع: من الكفر إلىٰ الإيمان»[(٢)].

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعنىٰ ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة، إلىٰ نور الإيمان والعلم والهداية، جعل الكفر بمنزلة الظلمات، والإيمان بمنزلة النور، علىٰ طريق الاستعارة، و(اللام) في ﴿لِتُخۡرِجَ﴾ للغرض والغاية، والتعريف في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للجنس، والمعنىٰ: أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يخرج بالكتاب، المشتمل علىٰ ما شرعه الله لهم من الشرائع، مما كانوا فيه من الظلمات، إلىٰ ما صاروا إليه من النور، وقيل: إنّ الظلمة مستعارة للبدعة، والنور مستعار للسنة، وقيل: من الشك إلىٰ اليقين، ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور»[(٣)].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإسناد الإخراج إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه يبلغ هذا الكتاب، المشتمل علىٰ تبيين طرق الهداية إلىٰ الإيمان، وإظهار فساد الشرك والكفر، وهو مع التبليغ يبين للناس، ويقرب إليهم معاني

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٦٧).

(٢) النكت والعيون (٣/ ١٢٠).

(٣) فتح القدير (٤/ ١٧٧).

الكتاب بتفسيره وتبيينه، ثم بما يبنيه عليه من المواعظ والنذر والبشارة، وإذ قد أسند الإخراج إليه في سياق تعليل إنزال الكتاب إليه؛ عُلِم أنّ إخراجه إياهم من الظلمات بسبب هذا الكتاب المنزل، أي: بما يشتمل عليه من معاني الهداية، وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات؛ دلّ على أن الهداية هي مراد الله تعالىٰ من الناس، وأنه لم يتركهم في ضلالهم، فمن اهتدىٰ فبإرشاد الله، ومن ضلّ فبإيثار الضال هوىٰ نفسه علىٰ دلائل الإرشاد، وأمرُ الله لا يكون إلا لحِكم ومصالح بعضها أكبر من بعض»[١].

ثانيًا: هداية العباد للتي هي أقوم:

من أهداف «الهدايات القرآنية» التي نص الله عليها في كتابه، هداية العباد للتي هي أقوم، في العقيدة، والعبادة، والأخلاق، وسائر الأمور، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء:٩]، فطريقته في الهداية هي خير الطرق وأرشدها، وأحكامه وآدابه هي أقوم الأحكام والآداب وأعدلها، وأصلحها للعباد والبلاد.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«ذكر جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين جلَّ وعلا، ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: الطريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب.. وهذه الآية الكريمة أجمل الله جَلَّ وَعَلَا فيها جميع ما

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٨٠).

في القرآن من الهدىٰ إلىٰ خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها علىٰ وجه الكما؛ لأتينا علىٰ جميع القرآن العظي؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدىٰ إلىٰ خيري الدنيا والآخرة»[١].

ولذا قال تعالىٰ حكاية عن الجن لما سمعته: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ① يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢]، فغايته الهدىٰ لكل خير، والعاصمة من كل ضلالة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وقد قال النبي صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ، مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ وَأَخَذَ بِهِ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»[٢].

ثالثًا: تحقيق الشفاء لأمراض الفرد والجماعة:

من أهداف «الهدايات القرآنية» تحقيق الشفاء الكامل لأمراض الأمة وعللها، خاصة أمراض الكفر، والنفاق، والريب، والجهل، والضلال، والمعصية، وكل خلل ونقص يلحق بالفرد والجماعة من العقائد الفاسدة، والأفكار المنحرفة، والأعمال الضارة، والأخلاق الذميمة، وما في النفوس من هوىٰ، وشح، وحسد، وغل، وغيرها؛ بل هو شفاء حتىٰ للأبدان من أسقامها الحسية ببركته، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

(١) أضواء البيان (١٨/ ٢٧).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: مِنْ فَضَائِلِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّٰهُ عَنْهُ، برقم: (٦٣٨٠).

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[فصلت: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[الإسراء:٨٢].

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولفظة ﴿مِنَ﴾ ها هنا ليست للتبعيض، بل هي للجنس، كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾[الحج: ٣٠]، والمعنىٰ: وننزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء، فجميع القرآن شفاء للمؤمنين، واعلم أنّ القرآن شفاء من الأمراض الروحانية، وشفاء أيضًا من الأمراض الجسمانية، أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر؛ وذلك لأنّ الأمراض الروحانية نوعان: الاعتقادات الباطلة والأخلاق المذمومة.

أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادًا الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر، والقرآن كتاب مشتمل علىٰ دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة فيها، ولما كان أقوىٰ الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب، والقرآن مشتمل علىٰ الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة، لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني.

وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل علىٰ تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلىٰ الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض، فثبت أنّ القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية، وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرًا من الأمراض»[١].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/ ١١٣).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والشفاء حقيقته زوال الداء، ويستعمل مجازًا في زوال ما هو نقص وضلال وعائق عن النفع من العقائد الباطلة، والأعمال الفاسدة، والأخلاق الذميمة تشبيهًا له ببرء السقم.. والمعنىٰ: أنّ القرآن كله شفاء ورحمة للمؤمنين ويزيد خسارة للكافرين؛ لأن كل آية من القرآن من أمره ونهيه، ومواعظه، وقصصه، وأمثاله، ووعده ووعيده، كل آية من ذلك مشتملة علىٰ هَديٍ وصلاحِ حالٍ للمؤمنين المتبعينَه»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم، ولا أنفع، ولا أعظم، ولا أنجع، في إزالة الداء من القرآن»[2].

فالقرآن الكريم أنزله الله تبارك وتعالىٰ؛ لأهداف عظيمة، وغايات نبيلة، تمثلت في إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، ومن طرق الانحراف والشقاء، إلىٰ سبيل الهدىٰ والسعادة والرحمة، وجاء القرآن الكريم ليكون بلسمًا شافيًا للأُمة، في كل أمراضها وعللها، ولما يحقق خيرها، ووحدتها، وعزتها، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[النحل: ٦٤].

ومن هنا فقد جمعت هداياته كل خير، ونهت عن كل شر، ودلت علىٰ كل نفع، ومن وفق إليها فقد اختصه الله برحمته، وهداه إلىٰ طريق جنته، وأبعد عنه الضلالة، والشقاء، وكتب له حياة السعداء.

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٤٦٥).

(٢) التفسير القيم (٢/ ٣١).

رابعًا: سدّ حاجات الأمة إلى الهدايات القرآنية:

الأمة المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها في حاجة شديدة إلىٰ «الهدايات القرآنية»، فإن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجلًا أو آجلًا مفتقر إلىٰ «الهدايات القرآنية»، ومستند عليها، فهي هدايات لا يستغني عنها مهتد لمعاشه ومعاده، لازمة للمؤمن في حياته لزوم الهواء والماء، فهي التي تضع العباد في طريق الخير، وتكملهم في كل وقت وحين، إلىٰ ما يحقق سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، وقد جمع الله فيه «كل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية علىٰ كل مطلوب ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله»[1]، فهي التي تخرج من الظلمات إلىٰ النور، وهي التي تبين الحلال والحرام، وهي التي تهدي إلىٰ طريق الجنة، وتبعد عن طريق النار، وهي التي تحذر عن كل ما يضر، وتحض علىٰ كل ما ينفع، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾[النساء: ١٧٤ – ١٧٥]، وهي التي تهدي إلىٰ الحق عند الاختلاف، قال تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣]، وهي التي تعصم الأمة عند الفتن، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧١٢).

وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٥]، وهي التي توحد كلمتهم، وتنزع العداء من بينهم، وتجعلهم في اتفاق، ووئام، وتعاون، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وهي التي توضح العقيدة السليمة التي توافق الفطرة والعقل السليم، وهي التي تبين التشريعات التي تحقق العدل والأمن والاستقرار، وهي التي تهدي للآداب التي تُرقي الأمم والشعوب، وهي التي تقود الحياة كلها للتي هي أقوم من كل المترديات التي تخسف بالأمم والشعوب، وهي العلم الشافي من كل جهل وجاهلية، وهي الحق العاصم من كل هوىً وفتنة للنفوس، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]، وهي الشفاء من كل علة ومرض للفرد والجماعة، وهي النور الذي «أنزله الله إلى أرضه؛ ليستضاء به، فيعلم في ضوئه الحق من الباطل، والحسن من القبيح، والنافع من الضار، والرشد من الغي»(١)، وفق شمولية في المنهج، وواقعية في التناول، وعمق في المعالجة، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فإذا علمت أنّ هذه «الهدايات» هدىً لكل مهتد في الأرض، وشفاء لكل علة تلحق بالخلق، ونور للبصائر بعد عماها، يستضاء به في كل ظلمة، فكيف

(١) أضواء البيان (٥٠ / ٣٤).

ترضىٰ لنفسك البعد عن الهدىٰ والشفاء والتبصرة، وسبيل السعادة التي لا تنال إلا بالاهتداء بهديه، والتزام بما جاء به، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[الشورىٰ: ٥٢]، وهو أمن الأرواح بعد خوفها، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨].

فالحاجة إلىٰ «الهدايات القرآنية» لازمة لكل صلاح وإصلاح يقع في الأرض في العقيدة والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وسائر جوانب الحياة، فهي سبب الأمن، ومسلك الهدىٰ، ونور القلب عند العمىٰ، وأنسه عند الوحشة.

المطلب الرابع
عظيم أثر الهدايات القرآنية

ومما يدل علىٰ أهمية «الهدايات القرآنية» عظيم أثرها، وعراقة نفعها، وينقسم هذا الأثر إلىٰ قسمين: أثر علىٰ الفرد، وأثر علىٰ الجماعة.

وإليك الحديث عن كل قسم هنا باختصار، وسوف يأتي التفصيل بصورة أوسع في المطلب الأخير من هذا البحث:

أ- أثر الهدايات القرآنية على الفرد:

«الهدايات القرآنية» هي التي تسدد أقوال من اتبعوها، وتقوِّم عملهم، وتهدي عقولهم، وترتب حياتهم بما يحقق أمنهم وسعادتهم، كما وعد الله تعالىٰ في قوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ – ١٢٤].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «تَضَمَّنَ الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه؛ أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقىٰ في الآخرة»[(١)].

وقال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن اتبع كتاب الله، وامتثل أوامره، وانتهىٰ عن نواهيه، نجا من الضلال، ومن عقابه»[(٢)]، وقال تعالىٰ في تحقيق الأمن والسلامة: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧].

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٣٨٩).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٢٠٩).

فـ «الهدايات القرآنية» هي التي صححت عقائد أفراد الأمة من الشرك إلىٰ التوحيد، ومن الشك إلىٰ اليقين، ومن الرياء إلىٰ الإخلاص، وهي التي غيرت نفوسهم، وأصلحت أحوالهم، من الجهل إلىٰ العلم، ومن الباطل إلىٰ الحق، ومن الظلام إلىٰ النور، ومن الذل إلىٰ العز، ومن الموت إلىٰ الحياة، ومن التيه إلىٰ الهدىٰ، ومن الغفلة إلىٰ التذكر، ومن الضيق إلىٰ السعة، ومن الخوف إلىٰ الأمن، وهي التي حملتهم إلىٰ العبادات الحقة، وأكسبتهم الآداب، والمكارم الفاضلة، وزكت نفوسهم، وطهرتها من الدنس والرذائل، وجعلتهم رحمة للعالمين، فنقلتهم من الكذب إلىٰ الصدق، ومن الظلم إلىٰ العدل، ومن الخيانة إلىٰ الأمانة، ومن الكِبْرِ إلىٰ التواضع، ومن سوء الخلق إلىٰ حسن الخلق، ومن العقوق إلىٰ البر، وحملتهم إلىٰ كل خير وكمال، وتحمل أفراد الإنسانية في كل وقت لكل خير وكمال؛ لأنها خير الهدىٰ.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كان خير الكلام كلام الله، وخير الهدىٰ هدىٰ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكل من كان إلىٰ ذلك أقرب وهو به أشبه، كان إلىٰ الكمال أقرب وهو به أحق، ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف، كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق»(١).

ب- أثر الهدايات القرآنية على الجماعة:

«الهدايات القرآنية» هي التي حولت الجزيرة العربية من عبادة الأصنام إلىٰ عبادة الرحمن، ومن وأد البنات إلىٰ رحمة الأنام، ومن التفرق والشتات

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٦٧٥).

إلىٰ الوحدة والوئام، ومن الضعف والضياع والهوان إلىٰ القوة والعزة والرفعة بين العباد، كما قال تعالىٰ ممتنًا عليهم: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[آل عمران: ١٠٣].

وكما جاء عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: وهي تروي ما قاله جعفر بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، عندما سأله النجاشي بقوله: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلاَ فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ؟ فَقَالَ لَهُ جعفر: «أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَىٰ اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ، مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلاَمِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا؛ لِيَرُدُّونَا إِلَىٰ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا،

خَرَجْنَا إِلَىٰ بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَىٰ مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لاَ نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]، قَالَتْ: فَبَكَىٰ وَاللهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّىٰ أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ، حَتَّىٰ أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلاَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَـذَا وَاللهِ وَالَّذِىٰ جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا، فَوَاللهِ لاَ أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا وَلاَ أُكَادُ»[١].

فقد أثر هذا الكتاب علىٰ مسيرة الإنسانية في ماضيها وحاضرها بصورة عزَّ له مثيل ونظير.

قال الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أثر القرآن في العباد والبلاد: «ولو لم يكن من عظم شأنه إلا أنه طبق الأرض أنواره، وجلل الآفاق ضياؤه، ونفذ في العالم حكمه، وقبل في الدنيا رسمه، وطمس ظلام الكفر بعد أن كان مضروب الرواق، ممدود الأطناب، مبسوط الباع، مرفوع العماد، ليس علىٰ الأرض من يعرف الله حق معرفته، أو يعبده حق عبادته، أو يدين بعظمته، أو يعلم علو جلالته، أو يتفكر في حكمته؛ لكان كما وصفه الله تعالىٰ جل ذكره من أنه نور، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

---

(١) أخرجه أحمد في المسند بإسناد حسن، برقم: (١٧٤٠)، والطبراني في المعجم الكبير برقم: (٧٨٧١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢٤): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع، وجوّد إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (٣١٩٠).

[الشورى:٥٢]»[1]، وهي نظمت حياتهم على التشريعات الدقيقة الشاملة العادلة، ووحدتهم، وألّفت بينهم بعد ما كان بينهم من تباغض وتهاجر وتقاطع، فأصبحوا بنعمته إخوانًا، وبفضله نصرًا وأعوانًا.

فـ «الهدايات القرآنية» روح تحيي، ونور تهدي، وحكم تسدِّد، جمعت كل صنوف العلم والحكمة للفرد والجماعة، وهدت لأعظم ما في الوجود من مُثل وأخلاق تُرقي الإنسانية، وتحقق لها الشفاء الكامل من عللها، مما كان لها أبلغ الأثر في تهذيب النفوس وإصلاحها، لذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[العنكبوت:٥١].

وإذا كانت «الهدايات القرآنية» هي التي أحدثت ذلك الأثر العظيم في تاريخ الأمة، فهي قادرة على إحداثه في أي وقت، لو صدقت النيات والعزائم للرجوع إليها، وسيجدون كل ما يبحثون عنه في كل مشكلاتهم، وأسباب قوتهم وعزتهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ﴾[المائدة: ٦٦]، فهو نور وهدى، وروح وشفاء، في كل زمان ومكان؛ لأن الله جعله خالدًا؛ ليبقى أثره خالدًا.

(١) إعجاز القرآن (ص: ٩٨).

المبحث الثالث

خصائص الهدايات القرآنية

خصائص الهدايات القرآنية

مدخل:

«الهدايات القرآنية» لها خصائص كثيرة تميزت واختصّت بها، من الصعب حصرها؛ لأنها نابعة من خصائص القرآن الذي أخذت منه، الذي تميز وتعدد في خصائصه وفضائله، وهذه الخصائص هي التي تجعل لهذه «الهدايات القرآنية» قيمتها الفريدة، ومكانتها العالية، وكانت سببًا في أن جعلت العلماء يفنون أعمارهم في تعلمها، واستنباطها، والعمل بها، والسعي لتعليمها للناس، ومهما تكلمنا عنها فلن نوفيها حقها؛ وذلك لصعوبة استيفاء كل خاصية منها؛ ولكن من أبرز خصائصها:

- أنّها ربّانية المصدر والغاية.
- تمثّل المقصد الأول للقرآن الكريم.
- أنها عامة وشاملة.
- أنها كاملة وتامة.
- وأنها غاية في الوضوح واليسر.
- أنها خالدة ومتجددة.
- أنها في أعلىٰ درجات المثالية والواقعية.

وسوف نكتفي هنا بالحديث عن كل خصِّيصة بما يبرزها لا بما يحتو يها .

المطلب الأول

الهدايات ربّانية المصدر والغاية

من خصائص الهدايات القرآنية أنّها ربّانية المصدر والغاية، قال تعالىٰ في ربانية مصدرها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:١٩٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأنعام:١٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[الإسراء:١٠٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[النجم:٢٣].

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرسول أو الكتاب»[1].

فهي ليست حكمًا وإرشادات بشرية؛ بل هي هدايات ربّانية، منشؤها ومصدرها رب العالمين؛ لأنّها مستخرجة من كتاب الله الذي أنزله ليكون هدىٰ ورحمة، ونورًا، وبشرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[النمل:١ - ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾[لقمان:١- ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر:٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨].

(١) أنوار التنزيل (٣/ ٤٥١).

وربّانيةُ مصدرها يجعلنا نعتقد بأنها عند التوصل إليها، وفق المنهج السليم، حق لا باطل فيها، وصدق لا كذب فيها، وعدل لا جور فيها، وهي أوفق معنىٰ للفطرة، وأقبل خطاب للعقل، وأشرح هدي في الصدر، فما يستنبط من هدايات القرآن مثلاً في أخباره لا يتعارض مع التاريخ الماضي، أو حقائق الواقع، أو مع ما يكتشفه العلم في المستقبل؛ بل اكتشافها هي بينات أخرىٰ علىٰ ربانيتها، قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنّه سبحانه أخبر، وخبره الصدق، وقوله الحق، أنه لا بد أن يُرِي العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أنّ الوحي الذي بلغته رسله حقٌّ»[١].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فبيّن أنّه يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وأن مراده بذلك البيان أن يتبين لهم أن ما جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق»[٢].

فنحن نؤمن بلا ريب أنّ كل ما أخبر الله به في كتابه عن أخبار الأمم، ومجاهل الكون في السماء والأرض والجبال والبحار وغيرها، أو مجاهل النفس البشرية، مما يتعلق بخلقها، أنّه صدق وحق، ليس للعلم إلا أن يبينها ويصدقها، وحاشاه أن يكذبها ويردها، أو يقول بنقيضها، لأنّ الذي قالها وأنزلها هو خالق كل شيء، وعليم بكل شيء، وشهيد علىٰ كل شيء.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٦٦).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٧٦).

كما أنّ ربّانية مصدر الهدايات تجعل ما يؤخذ منها في العقيدة، والعبادة والأخلاق، وغيرها، هو الحق الذي يجب أن يعتقده المسلم، ويسير عليه، ويستدل بها على صحة منهجه، وهي التي تجعل إقبال المسلم لتعلمها والعمل بها، وجهته التي يتوجه إليها في سائر حياته؛ ليأخذ منها معالم طريقه، وخطى هديه، حتىٰ لا يضل ولا يشقىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمعنىٰ أنّ الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضلّ في الدنيا عن طريق الدين، فمن اتّبع كتاب الله، وامتثل أوامره، وانتهىٰ عن نواهيه، نجا من الضلال ومن عقابه»(١).

وقال أبو عبد الله الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الآية تدل علىٰ أنّ المراد بالهدىٰ الذي ذكره الله تعالىٰ اتباع الأدلة، واتباعها لا يتكامل إلاّ بأن يستدل بها، وبأن يعمل بها، ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالىٰ له أن لا يضل ولا يشقىٰ»(٢).

فاتباع الأدلة هو أصل في الوصول للهدىٰ، ومن جعل غيرها من الآراء والمذاهب وما قالته الفرق أصلًا يكون قد ضل ضلالًا مبينًا، وارتكب إثمًا عظيمًا.

و«الهدايات القرآنية» كما هي ربّانية المصدر، كذلك هي ربّانية الغاية والوجهة، فكل هداية منها تربط العبد بربه، وتسدد خطاه علىٰ دربه، وتربط

(١) البحر المحيط (٦/ ٢٠٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٧/ ٢٠٧).

حياته بآخرته، وتجعل كل حركاته وسكناته متصلة بخالقه، كما قال تعالىٰ مخاطبًا نبيّه بهذا في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ – ١٦٣].

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الآية أمر من الله أن يعلن بأن مقصده في صلاته، وطاعته، من ذبيحة، وغيرها، وتصرفه مدة حياته، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته، إنما هو لله، وإرادة وجهه، وطلب رضاه، وفي إعلان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه المقالة، ما يلزم المؤمنين التأسي به، حتىٰ يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله»[(١)].

وأنّ ما جاء في القرآن من هدايات تتعلق بالتشريعات والمعاملات الدنيوية هي لتخلص الإنسان من رواسب الهلع، والطمع، والظلم، والقتور، ونحوها، من أمراض تصيب كل نفس، لم تزكَّ بنور الوحي؛ ليكون ربانيًا في حياته، وليتطهر للقاء ربه، وليتحرّر من كل هوىٰ وشهوة سببها حب الدنيا والركون إليها.

وهذه الربّانية في «الهدايات القرآنية» جعل فيها من التفرد والخصوصية ما لا تتوافر في غيرها، فربّانية المصدر جعل لها من الثقة بها، والاطمئنان إليها، وتعلّق القلب بها، واندفاعية العمل بما جاء فيها، مع اعتقاد كمال نفعها، وعظم أثرها ما لا يوجد في غيرها؛ لأنّ الذي أنزلها منزّه عن كل عيب ونقص، متّصف بكل كمال، عليم بما يصلح عباده في كل حال وزمان

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤٣٣).

ومكان، قد أودع في كتابه كل ما تحتاجه النفس البشرية لسموّها ورفعتها، ليس فيها خلل يقوَّم، ولا نقص يكمَّل، كما أنّه ليس فيها أوهام أو خيالات، أو كذب أو ترهات؛ بل كل حرف وكلمة جاءت لتهدي وتنير درب العباد؛ لأنّها صبغة الله التي جاءت ليصطبغ بها العباد، ويعلموا من خلالها أين هم من الحق والصواب، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾[البقرة: ١٣٧ – ١٣٨].

كما أن ربّانية وجهتها وغايتها جعلتها تسمو بالإنسانية بما لا يمكن أن تصل إليه بمداركها وطاقتها، فهي هدايات جاءت لتضيف للإنسان فوق مداركه، وتهديه بما لا يمكن أن يصل إليه بعقله المحدود، مهما كانت درجته ورتبته، قال تعالىٰ مخاطبًا رسوله الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[الشورى: ٥٢ – ٥٣].

مما يجعل الذين يستنيرون بها أسعد الناس حظًّا في الدنيا والآخرة، ومن هنا اشتغل بها، وتكلّم فيها خيار الخلق من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه الكرام، وفضلاء التابعين، وخيرة العلماء سهروا ليلهم من أجل معرفتها، وأفنوا أعمارهم في استخراجها؛ لأنّهم عرفوا قيمتها، من خلال يقينهم بمصدرها، والغاية العظمىٰ التي من أجلها أنزلها البر الرحيم، والأثر العظيم المترتب علىٰ اتباعها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ

عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[طه:٤٧]، وقال تعالىٰ مبينًا عظمة الانتفاع بها: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[البقرة: ٢٦٩]، فالحكمة التي يترتب عليها هذا الخير الكثير، هو فهم القرآن ومعرفة هداياته.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: «يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله»[١].

وعن قتادة: «الحكمة: الفقه في القرآن»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢/ ١٥٨٠)، تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٣١)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٤٨) إلىٰ ابن المنذر.

(٢) المصدر السابق، وعزاه السيوطي في الدرّ المنثور إلىٰ عبد بن حميد.

المطلب الثاني
الهدايات هي المقصد الأول للقرآن الكريم

من أبرز خصائص «الهدايات القرآنية» أنّها تمثل المقصد الأول من نزول القرآن الكريم؛ لأنّ الغاية منه هو الهداية للتي هي أقوم في سائر مناحي الحياة؛ ثم إنّ المقصد الأساس الذي صيغت ألفاظُ القرآن الكريم لأجلهِ هو هداية الثقلين للإيمانِ الصحيح، والعملِ الصالح المستقيم؛ للوصولِ لحياةٍ طيبةٍ، ونفسٍ مطمئنة، وسعادة كاملة في الدارين، وهذا ما فهمته الجن بعد تدبرها وفهمها للقرآن، قال تعالىٰ: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾[الجن: ١ - ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[الأحقاف: ٢٩ - ٣٠]؛ وذلك لأنّ القرآن نزل ليهدي للتي هي أقوم، في العقائد، والعبادات، والأخلاق وسائر الأمور، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[الإسراء:٩]، فمن تعلّم هدايته، وتمسّك بها هدي إلىٰ الصراط المستقيم، وكان من المفلحين، قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[المائدة:١٥-١٦].

ولا يمكن الاهتداء بالقرآن إلا بعد معرفة ما فيه من هدايات في مقاصده العامة، وهداياته التفصيلية تكون بالوقوف مع كل آية وسورة، وكل

موضوع ومصطلح قرآني، واستخراج ما فيه من أحكام، وحكم، وأسرار، وإرشادات، ودلالات ثم العمل بها، ولا يكون ذلك إلا بعد إطالة النظر في آياته وسوره، ومعانيها القريبة والبعيدة، وما دلت عليه من خلال مفهومها ومنطوقها.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين، -والله سبحانه أعلم-»(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدّث عما ينبغي أن يتصف به حامل القرآن:«ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه فينتفع بما قرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح بحامل القرآن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنىٰ ما يتلوه، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا»(٢).

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«فلا شيء أنفع للقلب من قراءةِ القرآنِ بالتدبرِ والتفكر؛ فإنه جامعٌ لجميعِ منازلِ السائرين وأحوالِ العاملين ومقاماتِ العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا والتفويض، والشكر والصبر، وسائرَ الأحوال التي بها حياةُ القلبِ وكمالُه، وكذلك يزجرُ عن جميعِ الصفاتِ والأفعالِ المذمومة؛

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٣/ ٥٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١).

والتي بها فسادُ القلبِ وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءةِ القرآن بالتدبرِ لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكرٍ حتىٰ مرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبهِ كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءةُ آيةٍ بتفكرٍ وتفهمٍ خيرٌ من قراءةِ ختمةٍ بغيرِ تدبرٍ وتفهم، وأنفعُ للقلبِ وأدعىٰ إلىٰ حصولِ الإيمان وتذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادةَ السلفِ يرددُ أحدُهم الآية إلىٰ الصباحِ، وقد ثبت عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قامَ بآيةٍ يرددها حتىٰ الصباح وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][١]، فقراءةُ القرآنِ بالتفكرِ هي أصلُ صلاح القلب»[٢].

فمن أعظم خصائص «الهدايات القرآنية»؛ أنّها توصل إلىٰ الفهم الصحيح لهذا الدين، الذي يورث العمل المستقيم، ومن هنا جعلَ الله فهم هدايات كتابه من صفاتِ عباده، والإعراضَ عن فهمِه من صفاتِ أعدائه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

وقال تعالىٰ عن اليهود: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، يعني يقرأون الكتاب دون علم بما فيه، قال قتادة: «لا يعلمون الكتاب ولا يدرون ما فيه»[٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في القراءة في صلاة الليل، برقم: (١٣٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (٤٩٠٤)، والحاكم في المستدرك، برقم: (٨٧٩)، وقال: هذا حديث صحيح، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسّنه الألباني في صحيح ابن ماجة.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

(٣) جامع البيان (٢/ ٢٦٠).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: لا يعلمون من الكتاب إلا قراءة ألفاظ دون إدراك معانيها»[١].

وقال الشيخ العثيمين: «أي: إلا قراءة بدون فهم للمعنىٰ؛ ومن لم يفهم المعنىٰ فهو في حكم من لا يعرف القراءة؛ لأنّه لا يستفيد شيئًا بقراءته»[٢].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الله ذمّ الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة علىٰ ما أصله هو من البدع الباطلة، وذمّ الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن، ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه»[٣].

وشبههم الله بالحمار يحمل أسفارًا، قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[الجمعة:٥].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا تنبيه من الله عَزَّوَجَلَّ لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء»[٤].

وكان من صفات الكفار عدم فقه كتابه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[الإسراء: ٤٥ – ٤٦]، وقال تعالىٰ عن الكافرين: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[النساء:٧٨].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٤).

(٢) تفسير ابن عثيمين (٣/ ١٨٧).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٧٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٦٤).

فمـن أعظم خصائـص «الهدايـات القرآنية» أنّهـا تحقـق المقصد الذي أنـزل القـرآن الكريم من أجلـه، وهو من أجـلِّ المقاصد؛ لأنّ القـراءة دون فهم لا توصـل للمطلـوب، والعمـل دون هدي القـرآن الذي يكون مـن خلال فهمه ضلال مبين.

المطلب الثالث

خاصيّة العموم في الهدايات القرآنية

من خصائص «الهدايات القرآنية» اتسامها بالعموم في أصلها، فهي هدايات للناس جميعًا، ليتعلموها ويعملوا بها، وتشمل عموم الزمان منذ بعثة النبي ﷺ إلىٰ قيام الساعة، قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنعام:٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان:١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[القلم:٥٢]، فهي ليست كهدايات الكتب السابقة التي كانت هداياتها لفترة محددة، وزمن مخصوص، ينتهي أثرها ونورها وهديها بانتهائه، كما جاء عن جابر بن عَبْدِ الله رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً»(١).

وكما أنّ هداياتها شاملة لكل العصور الآتية، فهي قد تضمنت كل هدايات الكتب السابقة؛ لأنّ القرآن جاء مصدقًا لهدايات تلك الكتب مما كان فيها من الحق، ومهيمنًا عليها بزيادة الهدىٰ، وإبطال ما دخلها من التحريف والباطل، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٤٨].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحيض، باب الصَّلاة عَلَىٰ النُّفَسَاءِ وَسُنَّتِهَا، برقم: (٣٣٥).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أشارت الآية إلىٰ حالتي القرآن بالنّسبة لما قبله من الكتب، فهو مؤيّد لبعض ما في الشّرائع مُقرّر له من كلّ حكم كانت مصلحته كلّيّة لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصف مُصَدّق، أي مُحقّق ومقرّر، وهو أيضًا مبطل لبعض ما في الشّرائع السالفة وناسخ لأحكام كثيرة من كلّ ما كانت مصالحه جزئيّة مؤقّتة مراعىٰ فيها أحوال أقوام خاصّة»(١).

وقال أيضًا: «كونُه مصدّقًا للكتب السالفة، أي: مبيّنًا للصادق منها ومميزًا له عما زيد فيها وأسيء من تأويلها»(٢).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهكذا القرآن، فإنه قرّر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله، وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بيانًا وتفصيلًا، وبيّن الأدلة والبراهين علىٰ ذلك، وقرر نبوة الأنبياء كلهم، ورسالة المرسلين، وقرّر الشرائع الكلية التي بعثت بها الرسل كلهم، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين، وبيّن عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها، وبيّن ما حرف منها وبدل، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة، وبيّن أيضًا ما كتموه مما أمر الله ببيانه، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن، فصارت له الهيمنة علىٰ ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة، فهو شاهد بصدقها، وشاهد

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٢١).

(٢) المصدر السابق (١١/ ١٦٩).

بكذب ما حُرِّفَ منها، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله، ونسخ ما نسخه، فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريات»[١].

ولذا قال تعالىٰ عن هيمنته: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[النمل: ٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١].

و«الهدايات القرآنية» كما هي تشمل الزمان باختلاف قرونه وأجياله تشمل عموم المكان مع تنوعه واختلافه، ليست هدايات لأم القرىٰ فحسب؛ بل هي هدايات لشتىٰ بقاع الأرض في كل عصر ومصر، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[الأنعام:٩٢]، وقد جاء عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قوله: «﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ يعني بـ(أم القرىٰ): مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَآ﴾: من القرىٰ إلىٰ المشرق والمغرب»، وفي رواية: «﴿وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾: الأرض كلها»[٢].

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾: يريد أهل سائر الأرض»[٣].

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٤٤).

(٢) جامع البيان (١١/ ٥٣١).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٣٨٠).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني: جميع الآفاق»[(١)]، وهذا هو قول الجمهور، وهو الموافق لما دلّ عليه القرآن الكريم قال تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩]، فالقرآن هداياته لجميع الناس مع اختلاف زمانهم، وتعدد بلدانهم، وتباين عصورهم، وتنوع ثقافاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وتنوع قضاياهم، فهي ليست لزمان دون آخر، ولا لجنس دون آخر، ولا لوطن دون آخر، ولا لطبقة دون أخرىٰ، ولا لطائفة دون أخرىٰ، ولا لجيل دون آخر.

و«الهدايات القرآنية» مع عمومها اتسمت بالشمول لكل مراحل الإنسان، طفلًا، وكهلًا، وشيخًا؛ بل حيًّا وميتًّا، فهي كما أنها استوعبت الزمان والمكان، استوعبت قضايا الحياة، وكل حاجات النفس البشرية الظاهرة والباطنة، بالإضافة إلىٰ حاجاتها لجوانب العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وجوانب الحكم، والسياسة، والاقتصاد، وغيرها؛ لأنّ القرآن جاء لينظم جميع شؤون الحياة، ويربط الدنيا كلها بالآخرة، بل أي اتجاه يتوجه إليه الإنسان يجد هدايات القرآن تنتظره؛ لتوجهه للتي هي أقوم، وليس له إلّا أن يبحث عن الهداية ليعمل بها، ولا يجوز له التحاكم الجزئي لهدايات القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ٨٥].

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٨).

فهي هدايات تشمل الحياة كلها فتغطيها، وتعمّ الإنسانية برمتها فتظلها، وهي عامة لكل الناس في كل زمان ومكان، وشاملة لكل حاجات الإنسان، روحه وعقله، وشؤونه الخاصة والعامة، فهي تهديه في عقيدته، وفي عباداته، وفي أخلاقه ومعاملاته، كما أنها تهديه في سلمه وحربه؛ بل تهديه في كل قوله وفعله، وحركته وسكونه، وليله ونهاره، ومعاشه ومعاده، سواء أكان حاكمًا أم محكومًا، كبيرًا أم صغيرًا، ذكرًا كان أم انثىٰ، وهي مع عمومها وشمولها، قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان، دون حرج.

المطلب الرابع
خاصية التمام والكمال في الهدايات القرآنية

إنَّ هدايات القرآن الكريم قد بلغت الغاية في التمام والكمال، فهي تامة في بيانها، وحُجَجِها، ودلائلها، تامة في أحكامها، وأوامرها، وهديها، كاملة في كل غرض مطلوب، تفي بكل حاجات البشر في كل زمان ومكان، وفي أرقى عصورها، وفاء لا نظير له في أي كتاب آخر، في أمور الدين والدنيا، فما من أمر يحتاجه الناس في دينهم، عقيدة، وعبادة، وشريعة، وأخلاقًا، أو دنياهم، سياسة، واقتصادًا، واجتماعًا، وغيرها، من أمورهم الفردية أو الجماعية، إلّا في القرآن هديه وبيانه، سواء بالنص عليه، أو بالإشارة والإيماء إليه، بصورة كافية وافية.

ومن هنا كان من أبرز خصائص الهدايات القرآنية التمام والكمال الذي جعلها وافية بمطالب الإنسانية، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[الأنعام: ١١٥].

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنّ هذه الآية تدل علىٰ أنّ كلمة الله تعالىٰ موصوفة بصفات كثيرة، فالصفة الأولىٰ: كونها تامة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وفي تفسير هذا التمام وجوه الأول: ما ذكرنا أنها كافية وافية، بكونها معجزة دالة علىٰ صدق محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والثاني: أنها كافية في بيان ما يحتاج المكلفون إليه إلىٰ قيام القيامة، عملًا وعلمًا»[1].

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٣١).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«ومعنى تمامها أنّ كلّ غرض جاء في القرآن فقد جاء وافيًا بما يتطلّبه القاصد منه»(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«فلكمالها استحال عليها التغيير والتبديل، فلو كانت ناقصة لعرض لها ذلك، أو شيء منه»(٢).

وقال تعالى:﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام:٣٨].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«أي في القرآن: ما تركنا شيئا من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن، إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو من الإجماع، أومن القياس الذي ثبت بنص الكتاب؛ قال الله تعالى:﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل: ٨٩]، وقال:﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٤٤]، وقال:﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر: ٧]، فأجمل في هذه الآية، وآية (النَّحْلِ)، ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنّه ما فرّط في الكتاب من شيء إلا ذكره، إما تفصيلًا وإما تأصيلًا»(٣).

وقال تعالى:﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٤٧٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤٢٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام إيذانا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجا عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام؛ إيذانا بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم، بالدوام في هذه الدار، وفي دار القرار، وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم، إذ هم القائمون به، المقيمون له، وأضاف النعمة اليه، إذ هو وليها ومسديها، والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقا، وهم قابلوها، وأتىٰ في الكمال بـ اللّام المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خُصُّوا به دون الأمم»[1].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المراد بها: إكمال الكليات، التي منها الأمر بالاستنباط والقياس، قال الشاطبي: لأنّه علىٰ اختصاره جامع، والشريعة تمت بتمامه، ولا يكون جامعًا لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمور كلية»[2].

فهي هدايات تامة في غرضها، كاملة في عناصرها، شافية في معالجاتها، تخاطب العقل، فتقنعه بخطاب متكامل، وتهذب النفس، فتزكيها بهدايات شافية كافية، فتمامها وكمالها يفيد بلوغها وشمولها في كل جانب، أحسن ما يكون، في بلوغ ما يراد منها فيما يحقق السعادة والكمال.

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٠).

وهي هدايات كاملة ليس فيها نقص يكمل، أو عوج يقوم، أو ظلم يعدل؛ بل هي هدايات تامة في بيان الأمور، كاملة في الهدي المطلوب؛ وذلك لأنّ الذي أنزلها له الكمال المطلق، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وأقواله، وفيما يشرعه لعباده من أحكام، ويهديهم إليه من هدايات.

وقد «جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب، وخاتمها، وأشملها، وأعظمها، وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا، وحاكما عليها كلها»(١).

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٨٨).

المطلب الخامس

خاصية الوضوح واليسر للهدايات القرآنية

من خصائص «الهدايات القرآنية» أنَّهَا واضحة الدلالة علىٰ مراد الله، ميسر علىٰ كل الناس فهمها؛ وذلك لأنّ القرآن الكريم جاء في صورة غاية في البيان والوضوح، واضح في أحكامه وحكمه، بين في هديه، رائع في محجته، مشتمل علىٰ أبلغ الكلام في البيان، وأبين الأساليب في الإيضاح، وأيسر الطرق في البيان، وأقوىٰ الحجج في الإقناع، يصور لك المعقول في صورة حسية تراها العيون، وينقل لك الغائب فيجعله بين يديك حاضرًا، بل يجسد لك المعاني من خلال ألفاظه حتىٰ كأنك تراها، ليس فيها شبهة لمرتاب، وقد تكلّم الله عن بيان كتابه في عشرات الآيات، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾[النساء: ١٧٤]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ١-٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾[النور: ٣٤].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تحصل بها الهداية لمن استهدىٰ، وإقامة الحجة علىٰ من عاند، وهي في الوضوح والدلالة علىٰ الحق قد بلغت مبلغًا عظيمًا، ووصلت إلىٰ حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر»(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٠).

وقال تعالىٰ: ﴿حمٓ ① وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[الزخرف: ١-٢]، فهو كتاب بيِّن ومبين.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمبين: البالغ الغاية في البيان، أي الوضوح كأنه لقوة بيانه قد صار يبين غيره»(١).

ومن بيانه العظيم قد فصّل الله فيه كل شيء تفصيلًا، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾[الأنعام: ١١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[الأعراف: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[فصلت: ١-٣]؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾[المرسلات: ٥٠].

قال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في البيان»(٢).

وقال الشيخ طنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: إذا كانوا لم يؤمنوا بهذا القرآن المشتمل علىٰ أسمىٰ أنواع الهدايات، وأحكمها، وأوضحها.. فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون؟!»(٣).

والقرآن الكريم مع أنه بلغ في البلاغة أعلاها، وفي السمو منتهاه، حتىٰ عظم جنابه بما أعجز الخلق أن يأتوا بمثله، إلا أنّه في الوقت نفسه يُسِّرَ في

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٩٩).

(٣) تفسير الوسيط (ص: ٤٤١٣).

هديه للخلق في البيان والوضوح، حتىٰ شمل العامة والخاصة، بما لا يتوفر في غيره، فالعامة يجدون ما يهديهم، وتسكب في هداياته أعينهم، والخاصة ينظرون في هداياته، فيجدون ما يبهر عقولهم، وتقشعر منه جلودهم، كل يجد فيه عزه ومطلبه، ويدرك روعته وحلاوته وحسنه، ويرىٰ فيه من حجته وبيانه ما يغنيه، فهو بكلام واحد، خاطب العلماء والعامة، كما أنه خاطب الملأ والاتباع، والصغير والكبير، وهذا واحد من خصائص القرآن دون سائر الكلام.

قال الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إرضاؤه العامة والخاصة، ومعنىٰ هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته علىٰ العامَّة، أو قرئ عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه علىٰ قدر استعدادهم، ما يرضي عقولهم وعواطفهم، وكذلك الخاصة، إذا قرؤوه، أو قرئ عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة، ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام، لا في إشراق ديباجته، ولا في امتلائه وثروته، ولا كذلك كلام البشر، فإنه إن أرضىٰ الخاصة والأذكياء؛ لجنوحه إلىٰ التجوز والإغراب والإشارة، لم يرض العامة؛ لأنهم لا يفهمونه، وإن أرضىٰ العامة؛ لجنوحه إلىٰ التصريح، والحقائق العارية المكشوفة، لم يرض الخاصة؛ لنزوله إلىٰ مستوىٰ ليس فيه متاع لأذواقهم، ومشاربهم، وعقولهم»[(١)].

وقد تكلّم الله تعالىٰ عن يسر هذا الكتاب في عدد من الآيات، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٢٢٥).

[مريم: ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، وكرّر ذلك أربع مرات في سورة القمر، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] فهو كتاب ميسّر للتلاوة، والهداية، والعمل.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ولقد يسّرنا وسهّلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنه أحسن الكلام لفظًا، وأصدقه معنىٰ، وأبينه تفسيرًا، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون، من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة، والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظًا وتفسيرًا، أسهل العلوم، وأجلها علىٰ الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أُعِينَ عليه.

قال بعض السلف- رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه؟ ولهذا يدعو الله عباده إلىٰ الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾»(١).

فإذا كان القرآن واضح الدلالة، بيّن الحجة، مفصل الأحكام، ميسر الهدي، كان من الطبيعي أن يكون علم الهدايات متسمًا بهذه الخاصية، خاصية الوضوح واليسر، وعدم الخفاء، في التوجيه للمدلول من خلال الآيات والسور، ولهذا دائما ما يقدم العلماء الهدايات بصورة واضحة، مرتّبة، بيّنة، ميسّرة؛ لأنّها تمثل خلاصة ما توصلوا إليه من فهم القرآن، بصورة تقرّب هداياته لجميع الناس.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٨٢٥).

المطلب السادس

خاصيّة الخلود والتجدد في الهدايات القرآنية

من خصائص «الهدايات القرآنية» التي يدركها كل مختص، أنها خالدة بخلود الكتاب المجيد، دائمة النفع؛ لأنّ الله أنزل كتابه، وحفظه من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، لتبقىٰ هداياته، وحجته، مستمرة للعالمين علىٰ مرّ الزمان، ولم يتمّ مثل هذا الحفظ لكتاب غيره، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بيّن تعالىٰ في هذه الآية الكريمة أنّه هو الذي نزل القرآن العظيم؛ وأنّه حافظ له من أن يزاد فيه، أو ينقص، أو يتغير منه شيء، أو يبدل»[١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت: ٤١ - ٤٢].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حفظ الله ألفاظه من التغيير فيها، والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يحرف محرف معنىً من معانيه إلا وقيّض الله له من يبين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله، ونعمه علىٰ عباده المؤمنين، ومن حفظه أنّ الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدوًّا يجتاحهم»[٢].

(١) أضواء البيان (٨/١٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٢٩).

وهـو كتاب مـع خلوده في نفسـه وهديـه، متجـدّد في عطائـه، لا يبلىٰ، ولا يضمـر في معانيه، كل ما كرّرته الألسـن، وفكّرت فيـه العقول، وجدت فيه مـن المعاني والهدايـات ما يسـحر العقول، فهداياتـه دائمة النفع، لا يسـتغنىٰ عنهـا بحال، بل الحاجة إليها مسـتمرة، وتزداد في كل حيـن، لا يمكن للزمان أن يتجاوزهـا أو يـأتي بخير منها؛ لأنّه ما أمر بشـيء يمكن الاسـتغناء عنه، ولا نهىٰ عن شـيء لا يحسـن النهي عنـه؛ ولذلك فهـو كتاب خالـد علىٰ مـر الزمان، متجـدد في عطائـه مع تقلـب الليالـي والأيام، لا تنقضـي عجائبـه، ولا يخلَق مـن كثرة الـرد؛ فكلما أكثر الإنسـان من قراءتـه، وأطال النظـر في تدبره، خرج بهدايـات جديـدة في الموضـوع الواحد، دعك عـن غيره، بل كلمـا نظرت فيه الأجيال تجـددت معانيه عنـد كل جيل جديد.

قـال الزرقـاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نلاحظ في كثيـر من ألفـاظ القرآن أنهـا اختيرت اختيـارًا يتجلىٰ فيـه وجه الإعجـاز من هذا الاختيـار؛ وذلـك في الألفاظ التي نمـرّ بها علىٰ القرون والأجيال، منـذ نزل القرآن إلىٰ اليوم، فـإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسـب تفكيـره، ويلائم ذوقه، ويوائم معارفـه، وإذا أجيال أخرىٰ تفهم مـن هذه الألفـاظ عينها غير ما فهمتـه تلك الأجيال، ولو اسـتبدلت هذه الألفـاظ بغيرهـا لم يصلح القـرآن لخطاب النـاس كافة، وكان ذلـك قدحًا في أنّـه كتاب الدين العام الخالد، ودسـتور البشـرية في كل عصر ومصر، فسـبحان من أنـزل هذا القرآن مشـبعا لحاجات الجميـع، وافيًا تجـارب الجميع ملائمًا لأذواق الجميـع، متفقًـا ومعـارف الجميع، مما يـدلّ دلالةً واضحـةً علىٰ أنّه كلام الله وحـده أنزله بعلمه والملائكة يشـهدون وكفىٰ بالله شـهيدا»[1].

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٧٢).

فهو كتاب عجز الخلق أن يأتوا بمثله لفظًا أو معنىً أو هدىً، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾[الإسراء: ٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾[الطور:٣٤].

ولهذا مهما كتب العلماء واستنبطوا، سيظلّ القرآن محل نظر العلماء لاستنباط الجديد، فهي هدايات أخذت من كتاب كريم، نص الله تعالىٰ علىٰ كرمه وبركته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾[الواقعة: ٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[الأنعام:١٥٥]، وهذه البركة حيث جعله الله بلغة هي أفصح لغات البشر، لا تنتهي فيها المعاني، مما جعل القرآن في كل يوم يعطي «عطاءه الجديد ولا تنقضي عجائبه، ويقرأه واحد فيفهم منه معنىً، ويقرأه آخر فيفهم منه معنىً جديدًا، وهذا دليل علىٰ أن قائله حكيم، وضع في الشيء القليل الفائدة الكثيرة، وهذا هو معنىٰ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾؛ فكلّ كتاب له زمن محدود، وعصر محدود، وأمة محدودة، أما القرآن فهو يواجه من يوم أنّ أنزله الله إلىٰ أن تقوم الساعة، قضايا متجددة، يضع لها حلولًا، والمهم أنّ القرآن قد جاء علىٰ ميعاد مع طموح البشريات، وحضاراتها، وارتقاءاتها في العقول؛ لذلك كان لابد أن يواجه كل هذه المسائل مواجهة تجعل له السبق دائمًا، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت فيه البركة»[1].

---

(١) تفسير الشعراوي (ص: ٩٣٣).

المطلب السابع

خاصية المثالية والواقعية في الهدايات القرآنية

من سمات «الهدايات القرآنية» المثالية، والواقعية، فهي هدايات مثالية؛ لأنّها تهدي لأمثل وأقوم طريقة في الحياة، لا يوجد أفضل ولا أهدىٰ لمصالح العباد منها، فهي تهدي إلىٰ الحق، وإلىٰ التي هي أقوم، وإلىٰ الرشد، وإلىٰ الصراط المستقيم، وإلىٰ سبل السلام، قال تعالىٰ: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة:١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[سبأ:٦]، فهي تهدي الإنسان الذي ينشد الكمال الإنساني الممكن، ويحقق سعادته في نفسه وحياته.

وهي واقعية متوافقة مع حاجة الإنسان الفردية، والجماعية، والنفسية والفكرية، والمادية، والروحية، وفي الجوانب الإيمانية، والأخلاقية، والتعبدية، والأسرية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وفي جميع الاتجاهات، فحيثما كانت أحوال الإنسان من زواج أو طلاق، في سفر أو حضر، في سلم أو حرب وغيرها كانت هدايات القرآن توجهه وتهديه للحق والصواب.

وهي واقعية في تعاملها مع النفس البشرية، في أغوارها، وأحوالها المختلفة، في هلوعها، وكنودها، وقتورها، وعجولها، وقنوطها، بما يتوافق

مع فطرة الإنسان وعقله ونفسه، فهي هدايات تحاج العقل فتقنعه، وتخالط النفس فتملأها طمأنينةً وسرورًا.

وهي واقعية حيث إنها تلامس الواقع بما تتناوله من موضوعات لعقائد فاسدة قائمة، وعبادات ضالة، وأخلاقيات منحرفة، وقضايا اجتماعية وسياسية متكررة، فجاءت «الهدايات القرآنية» متوافقة مع ما هو ماثل في الواقع، من انحرافات تحتاج إلىٰ معالجة بصورة متكررة، ليست من باب الترف الفكري، أو المثاليات التي لا وجود لها في عالم الواقع .

وهي هدايات واقعية من حيث أنها تتوافق مع طاقة الإنسان ووسعه في ظروفه، وأحواله المختلفة، في سفره وإقامته، ومرضه وعافيته، وقوته وضعفه، وشبابه وهرمه، وفرحه وكرهه، وحبّه وبغضه، في حالة تمثله بالفضائل، أو تلبسه بالرذائل، قال تعالىٰ: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾[البقرة:٢٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾[البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾[الطلاق: ٧].

وهي هدايات مثالية وواقعية في طريقة عرضها الموضوعي، فقد تجد في السورة الواحدة موضوعات متنوعة، وأحيانًا قد تراها متباعدة؛ لكن بعد التأمل والنظر تجدها مجتمعة، ومتناسقة، ومتكاملة، تعطي العقل حقه والنفس حقها، وتخرج من موضوع لآخر، ومن هداية لأُخرىٰ بصورة فوق طاقات العقول تصورها، وهي مع تباعدها وتداخلها تشكل وحدة موضوعية مترابطة، بل بعد التأمل والنظر تجد جميع هدايات السورة تتجه نحو مقاصد كلية متوافقة، يتعلّق آخرها بأولها، وأولها بآخرها، وتترامىٰ

بجملتها إلىٰ غـرض واحد[١]،«كل ذلـك بغير تكلف، ولا اسـتعانة بأمر خارج مـن المعاني أنفسـها، وإنما هو حسـن السـياقة، ولطف التمهـيد في مطلع كل غـرض، ومقطعه وأثنائـه، يريـك المنفصل متصـلًا، والمختلـف مؤتلفًا»[٢]، فالسـورة مع طولهـا أو قصرها، هي:«سلسـلة واحدة من الفكـر، تتلاحق فيها الفصول والحلقات، ونسـق واحد من البيان تتعانق فيـه الجمل والكلمات»[٣].

وفي هـذا يقـول البقاعـي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«السـورة كالشـجرة النضيـرة العالية، والدوحـة البهيجة الأنيقـة الخاليـة، المزينة بأنـواع الزينة المنظومـة بعد أنيق الـورق بأفنـان الـدر، وأفنانهـا منعطفـة إلىٰ تلـك المقاطـع كالدوائـر، وكل دائـرة منهـا لها شـعبة متصلة بمـا قبلها، وشـعبة ملتحمـة بما بعدهـا، وآخر السـورة قـد واصل أولهـا، كما لاحـم انتهاؤهـا ما بعدهـا، وعانـق ابتداؤها مـا قبلها، فصارت كل سـورة دائـرةً كبرىٰ، مشـتملة علىٰ دوائر الآيـات الغُرِّ، البديعـة النظم، العجيبـة الضم، بلين تعاطـف أفنانها، وحسـن تواصل ثمارها وأغصانها»[٤].

ولذا فهـي هدايات مرتبـة في تناولهـا الموضوعي بوحي مـن الله تعالىٰ، ومـن تأمل في هدايـات القرآن، وتعمـق في معانيـه، علم أنـه لا يوجد كلام في تناسـقه، وتكاملـه، ككلام الله تعالـىٰ، وهـي هدايـات متدرجـة في طرحها في

(١) ينظر: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، للفراهي (ص: ٤٦).

(٢) النبأ العظيم، لمحمد دراز (ص: ١٥٥).

(٣) المصدر السابق (ص: ١٥٧).

(٤) مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور (١/ ١٤٩).

الموضوعات، من حيث تقديم الأولويات، والبدء بالأهم، والمنطقية في الحجج، وصدق الحق، إذ يقول: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود:١].

فـ «الهدايات القرآنية» مثالية القيم، واقعية المعالجة، تسعىٰ لهداية الإنسان، وإصلاحه، ورفعه إلىٰ الصورة المثالية، بمنهج فريد في قيمه، فريد في واقعيته، حيث يراعي طاقة الإنسان ووسعه من جهة، وحاجاته الواقعية من جهة أخرىٰ، وظروفه المختلفة من جهة ثالثة، ومن هنا شرع الرخصة، وأباح المحرم للضرورة، فهي هدايات مبنية علىٰ المثالية فيما تدعو إليه، وهي واقعية حيث راعت طاقات البشر، واختلاف أحوالهم دون حرج، ومثالية من حيث ما يقدم ويؤخر، ويذكر ويحذف، ونحو ذلك من جوانب يطول ذكرها.

الفصل الثاني

الهدايات القرآنيّة

الهدايات القرآنية، أنواعها، ومجالاتها، وحال الناس معها

ويشتمل علىٰ المباحث التالية:

- ❋ أنواع الهدايات القرآنيّة
- ❋ مجالات الهدايات القرآنيّة
- ❋ حال الناس مع الهدايات القرآنية

المبحث الأول

أنواع الهدايات القرآنية

أنواع الهدايات القرآنية

مدخل:

قد تنوعت تقسيمات العلماء للهدايات القرآنية، بين من قسمها قسمين[١]، ومن قسمها ثلاثة[٢]، ومنهم من قسمها أربعة أقسام، وبعد الاستقراء والتتبع، يرى الباحث أنّ الأنسب تقسيمها لأربعة أقسام؛ وذلك لأنّ هذا الذي اختاره عدد من العلماء[٣]، وهو مستوعب لما جاء في القرآن بصورة كلية واضحة، وهنالك أنواع أخرى ذكرها بعض العلماء؛ ولكن عند

(١) قال القرطبي: «الهدى هُديان: هدى دلالة، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم.. وتفرد هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق»، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ١٦٠).

وقسّمها الشنقيطي إلى هداية عامة وخاصة فقال: «الهدى يستعمل في القرآن استعمالين: أحدهما عام والثاني خاص، أما الهدى العام فمعناه إبانة طريق الحق وإيضاح المحجة سواء سلكها المبين له أم لا.. وأما الهدى الخاص فهو تفضل الله بالتوفيق على العبد»، ينظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص:٢).

وقسّمها الشيخ العثيمين إلى هداية دلالة وتوفيق، فقال: «والهداية نوعان: هداية دلالة: وهذه عامة لكل أحد؛ فكل أحد قد بين الله له شريعته سواء وفِّق لاتباعها، أم لا؛ والثاني: هداية توفيق بأنّ يوفق الله العبد لاتباع الهدى»، تفسير القرآن (٤/ ٣٤٢).

(٢) بتقسيم الهداية إلى: الهداية العامة، وهداية الإرشاد، وهداية التوفيق باعتبار تعلقها بالدنيا، وعليها مدار التكليف.

(٣) ينظر: المفردات (ص: ٥٣٩)، وبدائع الفوائد (٣/ ٥٢)، وبصائر ذوي التمييز (ص: ١٦٣١)، والكليات (٢/ ٦١)، وتاج العروس (ص: ٨٦٦٢).

التأمل والنظر نجدها داخلة ضمن بعض هذه الأنواع الأربعة، ومتفرعة عنها كما سنبين ذلك، وهي على النحو الآتي:

النوع الأول: الهداية العامة

يطلق عليها بعض العلماء هداية الفطرة، وهداية الإلهام، والهداية الغريزية، والهداية الكونية، والهداية العامة، وقد جاءت في آيتين من كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلى: ٣].

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله تعالى: ﴿فَهَدَىٰ﴾ عام لوجوه الهدايات، فقال الفرّاء: معناه هدى وأضل واكتفى بالواحدة لدلالتها على الأخرى، وقال مقاتل والكلبي: هدى الحيوان إلى وطء الذكور الإناث، وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي، وقال مجاهد: هدى الناس للخير والشر والبهائم للمراتع، قال القاضي أبو محمد: وهذه الأقوال مثالات، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير وفي كل هداية»[(١)].

وقال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهدى عام لجميع الهدايات.. وهذه الأقوال محمولة على التمثيل لا على التخصيص»[(٢)].

وقال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصواب من القول في ذلك عندنا، أنّ الله عمّ بقوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ الخبر عن هدايته خلقه، ولم يخصص من ذلك

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٤٤٠). وينظر: تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٨٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٣٤٤).

معنىٰ دون معنىٰ، وقد هداهم لسبيل الخير والشرّ، وهدىٰ الذكور لمأتىٰ الإناث، فالخبر علىٰ عمومه، حتىٰ يأتي خبر تقوم به الحجة، دالٌّ علىٰ خصوصه»[١].

ولما كانت الهداية هنا عامة، وأنواعها كثيرة، أطال العلماء في شرح بعض أنواعها، من باب التمثيل لا الحصر، انقل إليكم بعض هذه الأقوال:

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي: قدّر ووفّق لكل شكل شكله، ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: أرشد، قال مجاهد: قدّر الشقاوة والسعادة، وهدىٰ للرشد والضلالة، وعنه قال: هدىٰ الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدىٰ الأنعام لمراعيها، وقيل: قدّر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسًا، ولمراعيهم إن كانوا وحشًا، وروي عن ابن عباس والسُّدّي ومقاتل والكلبي في قوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ قالوا: عَرَّف خلقه كيف يأتي الذكر الأنثىٰ؛ كما قال في سورة (طه): ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي الذكر للأنثىٰ، وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له، وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدىٰ الإنسان لوجه استخراجها منها.. وهدايات الإنسان إلىٰ ما لا يحدّ من مصالحه، ولا يحصر من حوائجه، في أغذيته وأدويته، وفي أبواب دنياه ودينه، والهامات البهائم والطيور وهوام الأرض باب واسع، وشوط بطين[٢]، لا يحيط به وصف واصف؛ فسبحان ربي الأعلىٰ، وقال السُّدّي:

---

(١) جامع البيان (١٠/ ٨٥٩٠).

(٢) «البَطِينُ»: العظيم البَطْنِ، والبَطِينُ: البعيد، وهو المراد هنا. ينظر: الصحاح في اللغة، مادة (بطن) (١/ ٤٦).

قـدّر مدة الجنين في الرحم تسـعة أشـهر، وأقـل وأكثر، ثم هـداه للخروج من الرحـم، وقال الفـرّاء: أي: قدّر، فهـدىٰ وأضلّ؛ فاكتفىٰ بذكـر أحدهما؛ كقوله تعالىٰ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾[النحـل: ٨١]»[١].

وقال شـيخ الإسـلام ابن تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالـىٰ: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ:٣]: «يتضمـن أنّه قَـدَّر ما سـيكون للمخلوقات، وهداها إليـه، علم ما يحتـاج إليه النـاس والدواب من الـرزق، فخلق ذلـك الرزق وسـواه، وخلق الحيـوان وسـواه وهداه إلىٰ ذلـك الرزق، وهـدىٰ غيره من الأحياء أن يسـوق إليـه ذلك الـرزق، وخلق الأرض، وقَـدَّر حاجتها إلىٰ المطر، وقَدَّر السـحاب ومـا يحملـه من المطـر، وخلق ملائكـة هداهم ليسـوقوا ذلك السـحاب إلىٰ تلـك الأرض فيمطـر المطر الذي قـدره، وقَدَّر ما نبـت بها من الـرزق، وقَدَّر حاجـة العبـاد إلىٰ ذلك الـرزق، وهداهم إلـىٰ ذلك الرزق، وهدىٰ من يسـوق ذلك الـرزق إليهم..»[٢].

وقال ابـن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قولـه تعالـىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طـه:٥٠]: «أي: أعطـىٰ كل شـيء صورته التي لا يشـتبه فيهـا بغيره، وأعطـىٰ كل عضو شـكله وهيئته، وأعطـىٰ كل موجود خلقـه المختص به، ثم هـداه إلىٰ ما خلقـه له من الأعمـال، وهذه هدايـة الحيوان المتحـرك بإرادته، إلـىٰ جلب ما ينفعـه، ودفع ما يضـره، وهداية الجمال المسـخر لمـا خلق له، فلـه هداية تليق به كمـا أن لكل نوع من الحيـوان هداية تليق بـه، وإن اختلفت

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٧٣).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ١٤٠).

أنواعها وصورها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدىٰ الرجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للإسماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدىٰ الزوجين من كل حيوان إلىٰ الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدىٰ الولد إلىٰ التقام الثدي عند وضعه، وطلبه مراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو، فتبارك الله رب العالمين، وهدىٰ النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا، ومن الشجر، ومن الأبنية، ثم تسلك سبل ربها مذللة لها، لا تستعصي عليها، ثم تأوي إلىٰ بيوتها، وهداها إلىٰ طاعة يعسوبها واتباعه، والائتمام به، أين توجه بها، ثم هداها إلىٰ بناء البيوت، العجيبة الصنعة، المحكمة البناء، ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم، شهد له بأنّه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم»[١].

وهذا النوع من الهداية من نعم الله العظيمة الشاهدة بربوبيّته، المستوجبة لألوهيته، وهي موجودة في كل مخلوق بحسب حاجته الضرورية، وأكملها وجودًا في الإنسان المكرم بين خلقه، المميز بالعقل.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وعطْفُ قوله:﴿فَهَدَىٰ﴾ علىٰ ﴿قَدَّرَ﴾ عطفُ المسبَّب علىٰ السبب، أي: فهدىٰ كلَّ مقدر إلىٰ ما قدر له، فهداية الإنسان، وأنواع جنسه من الحيوان، الذي له الإدراك والإرادة، هي هداية الإلهام، إلىٰ كيفية استعمال ما قدَّر فيه من المقادير والقوىٰ، فيما يناسب استعماله فيه، فكلما حصل شيء من آثار ذلك التقدير حصل بأثره الاهتداء إلىٰ

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٥٢).

تنفيذه، والمعنىٰ: قَدّر الأشياءَ كلها، فهداها إلىٰ أداء وظائفها، كما قدّرها لها، فالله لما قدّر للإنسان أن يكون قابلًا للنطق، والعِلم، والصناعة بما وَهَبَه من العقل، وآلات الجسد، هداهُ لاستعمال فكره لما يُحصِّل له ما خُلق له، ولمَّا قَدر البقرةَ للدَّر، ألهمها الرَّعْي ورِئْمَانَ[١] ولدها؛ لِتَدرَّ بذلك للحالب، ولمّا قدر النحل لإنتاج العسَل، ألهمها أن ترعىٰ النَّور والثمار، وألهمها بناء الجِبْح[٢]، وخلاياه المسدسة التي تضع فيها العسل، ومن أجلِّ مظاهر التقدير والهداية، تقدير قوىٰ التناسل للحيوان؛ لبقاء النوع، فمفعول (هَدَىٰ) محذوف؛ لإفادة العموم، وهو عام مخصوص بما فيه قابلية الهَدْي، فهو مخصوص بذوات الإدراك والإرادة، وهي أنواع الحيوان، فإن الأنواع التي خلقها الله، وقدَّر نظامها، ولم يقدِّر لها الإدراك، مثل: تقدير الإثمار للشجر، وإنتاج الزريعة لتجدد الإنبات، فذلك غير مراد من قوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ لأنّها مخلوقة ومقدّرة ولكنها غير مهدية لعدم صلاحها للاهتداء»[٣].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠]: «أي: أعطىٰ كل مخلوق خلقته اللائقة به، المناسبة لحاله، ثم بعد هذا الخلق هدىٰ كل مخلوق لما خلق له؛ وهذا يشمل أنواع الهدايات كلها: فالحيوانات غير الإنسان هدىٰ كل صنف منه إلىٰ ما يناسبهم مما

(١) أي: ترأم وتعطف بأنفهما علىٰ ولدها؛ لتدر اللبن. ينظر: شرح الرضي علىٰ الكافية، للرضي الأستراباذي (٤/ ٤٠٦)، والاشتقاق، لابن دريد (ص: ١٦٥).

(٢) «الجَبْحُ، والجُبْحُ، والجِبْجُ»: مَوْضِعُ تَعْسِيلِ النَّحْلِ في الجَبَلِ. ينظر: لسان العرب (٣/ ١١).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٧٧).

لا تتم حياته الحيوانية إلا به، من جلب المنافع الخاصة، ودفع المضار عن نفسه؛ وأما الإنسان فهداه الله هذه الهداية، واختصه بهدايات أخر، استكمل بها دينه ودنياه إذا استعملها كلها، وأما إذا استعملها في غير ما خلقت له، فهذا قد استحب واختار العمىٰ علىٰ الهدىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[فصلت: ١٧]، وبهذه الهداية الخاصة بالإنسان سخر له جميع ما وصلت إليه قدرته، من علوم الكون، وهذه الهداية تشمل الهداية المجملة والمفصلة، في علم الشرع وأعماله، وفي علوم الكون وأعماله، فعلمه العلوم الشرعية، وهداه إلىٰ معرفتها، ثم إلىٰ العمل بها، وعلمه علوم الكون، ثم يسر له سبلها فسلكها»[١].

فمن سمّاها بالهداية الغريزية والفطرية، نظر إليها علىٰ أنها هداية غريزة، فطر الله تبارك وتعالىٰ الخلق عليها؛ رحمة منه بخلقه، حتىٰ تقوم حياتهم ومصالحهم، فهي تهديهم إلىٰ ما ينفعهم، وتبعدهم عن ما يضرهم، بحُكم الإلهام، والغريزة، والفطرة.

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ أي: قدّر أجناس الأشياء، وأنواعها، وأشخاصها، ومقاديرها، وصفاتها، وأفعالها، وآجالها، ﴿فَهَدَىٰ﴾ فوجهه إلىٰ أفعاله، طبعًا، واختيارًا، بخلق الميول والإلهامات، ونصب الدلائل، وإنزال الآيات»[٢].

ومن سمّاها بالهداية العامة، نظر إليها من جهة ارتباطها بكل مخلوق، لكنّها تكاملت في الإنسان المميّز بالعقل والفطنة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٠٧).

(٢) أنوار التنزيل (٢/ ١١٤٨).

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والهداية هي: الإرشاد إلىٰ الخيرات، قولًا وفعلًا، وهي من الله تعالىٰ علىٰ منازل، بعضها يترتب علىٰ بعض، لا يصح حصول الثاني إلا بعد الأول، ولا الثالث إلا بعد الثاني، فأول المنازل: إعطاؤه العبد القوىٰ التي بها يهتدي إلىٰ مصالحه، إما تسخيرًا وإما طوعًا، كالمشاعر الخمسة، والقوة الفكرية، وبعض ذلك قد أعطاه الحيوانات، وبعض خصّ به الْإِنْسَاْن، وعلىٰ ذلك دلّ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ٣]، وهذه الهداية إما تسخير، وإما تعليم، وإلىٰ نحوه أشار بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، وقال في الْإِنْسَاْن بما أعطاه من العقل، وعرّفه من الرشد: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الْإِنْسَاْن: ٣]، وقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال في ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]»[(١)].

فهذه الهداية الفطرية العامة التي رزقها الله لسائر خلقه علىٰ حسب حاجته لما يهتدي إليه في مصالحه، وتكاملت في الإنسان بما رزقه الله، وخصه بالعقل الذي يهديه لمصالحه الدنيوية والآخروية علىٰ أكمل وجه، هي أول مراحل الهداية، لأن من لم يرزق عقل التكليف ليس بمحاسب بتكاليف الشريعة.

---

(١) محاسن التأويل (١/ ٢٢٦).

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهداية الله تعالىٰ للإنسان علىٰ أربعة أوجه؛ الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف، من العقل، والفطنة، والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء، حسب احتماله»[١].

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة

يطلق عليها العلماء هداية التعليم، وهداية الدلالة، وهداية البيان، وهداية الإرشاد، وهداية الدعوة، وهي النوع الوحيد من أنواع الهدايات الذي له تعلق بالبشر، وهي تمثل مرحلة من مراحل الهداية المهمة، لكن لا يتحقق بها الهدىٰ الكامل، قال تعالىٰ لرسوله الأمين: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[الشورىٰ: ٥٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هداية البيان، والدلالة، والتعريف، لنجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدىٰ التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينبغي الهدىٰ معها»[٢]، ولهذا قال تعالىٰ عن قوم صالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾[فصلت:١٧]، «أي: بيّنّا لهم طريق الحق، وأمرناهم بسلوكها، وطرق الشر، ونهيناهم عن سلوكها، علىٰ لسان نبينا صالح عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الكفر علىٰ الإيمان بعد

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٨).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٥٤).

إيضاح الحق لهم»[١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾[الإنسان:٣]، والمراد بالهداية هنا: البيان، والإرشاد للطريق المستقيم، من خلال إرسال رسله، وإنزال كتبه، وإقامة حججه، بدليل قوله تعالىٰ بعده: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بيّنّا له، وعرّفناه طريق الهدىٰ والضلال، والخير والشر، ببعث الرسل، فآمن أو كفر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[البلد:١٠]، وقال مجاهد: أي: بيّنّا له السبيل إلىٰ الشقاء والسعادة»[٢].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والهداية حقيقتها إبانة الطريق، وتطلق علىٰ مطلق الإرشاد لما فيه النفع سواء اهتدىٰ المهْدي إلىٰ ما هُدي إليه أم لم يهتد»[٣].

وهداية الدلالة والإرشاد لم تترك لاجتهاد العباد، بل أصلها من الله؛ لأنّها لا تكون إلا من خلال وحيه الذي أنزله، فالله هو الهادي للحق بما أنزله، وشرعه في كتابه، ومما جاء مبيناً في سنة رسوله الكريم، فهو قد أرشد عباده من خلال وحيه إلىٰ ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وحذرهم عما يضرهم في الدنيا والآخرة؛ وما فرّط في كتابه فيما يهدي خلقه من شيء، فكل ما فيه من خير وصلاح، أرشدهم ودلهم عليه، وكل ما فيه شر وفساد، حذرهم منها، وبيّنه لهم في كتابه، وقد جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تبين أن

(١) أضواء البيان (٧/ ١١٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٠٣).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ١٨٠).

القرآن الكريم هدىٰ للناس، وهو الهادي إلىٰ الحق، وإلىٰ الطريق المستقيم، وإلىٰ التي هي أقوم في سائر الأمور، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٥ - ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[سبأ: ٦]، وقال تعالىٰ عن الجنّ في قولهم الراشد: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأحقاف:٣٠]، ومن هنا كان أصل هداية الإرشاد من الله تعالىٰ، بما أنزله في كتابه من الهدىٰ، ومن ابتغىٰ الهدىٰ بغيره أضله الله، والهدىٰ دون وحيه، سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، فالقرآن جاء ليهدي للتي هي أقوم، يهدي للنجاة، يهدي لسعادة الدارين.

والأنبياء، والعلماء، ومن يقومون بواجب الدعوة والبيان، يدلون إلىٰ هديه من خلال شرحهم، وبلاغهم لما جاء في الكتاب، وما بيّنته السنة، فهم يهدون بالحقّ الذي أنزله، فهداية الإنسان لغيره منحصرة في البيان، والدلالة، والدعوة لما جاء عن الله عَزَّوَجَلَّ، دون سائر أنواع الهدايات، وهو المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧٣]،

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد:٧].

فهذه الآيات تقرّر أن الدعاة والمصلحين يقومون بواجب هداية البيان والإرشاد للناس عبر التاريخ، وفق ما أمر الله، وأنزله من الحق والهدىٰ، فهم يدلون علىٰ الحق، ويذكرون بالخير، ويرشدون الناس لما هداهم إليه القرآن، وأن هذا هو حدود طاقتهم، وهو الواجب المكلفون به، الذي يسألون عنه، وأن عدم امتلاك العباد لهداية التوفيق، لا يجعلهم يتقاعسون عن واجب هداية البيان، وأن يتركوا تعليم الناس ودعوتهم؛ لأنّهم لا يملكون هدايتهم، فإنّ الله كلف عباده ما في وسعهم، فعليه أن يسعىٰ في تحقيق ذلك، ولهذا كانت همة الأخيار متصلة في بيان الهداية للناس، كما قال تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حاكيا مقولته لوالده: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾[مريم: ٤٣]، وقال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[النازعات: ١٨ - ١٩]، وقال مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]، وقال الله لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورىٰ: ٥٢]، وهم مأجورون عند ما يقومون بهذا النوع من الهداية، ولو لم يستجب المدعوون لهم، وهم آثمون معذّبون إن تخلّوا عنها، بحجة أن المدعوين لم يستجيبوا لهم، وأن علىٰ المستمع أن يستجيب لما دلوهم عليه من هدي القرآن، وأرشدوهم إليه؛ ليكونوا

من المهتدين، النّاجين الفائزين، وأن خير هذه الاستجابة عائد عليهم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[يونس: ١٠٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[الزمر:٤١]، فالذي يجب علىٰ الإنسان من واجب الهداية لغيره، ينحصر في بلاغ هدايات القرآن للناس وبيانها؛ ليعرفوا الحق والهدىٰ فيسلكوه، دون سائر أنواع الهدايات التي لا يملكونها، ولذا لم يكلفوا بها، وأن الواجب علىٰ من أرشدوه بالهدىٰ، العمل بما دلوهم إليه، ووضحوه له.

ومن هنا فهم العلماء -رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- أنّ كل هداية مُنِع منها الكافرون، والظالمون، والفاسقون، والخائنون، والمسرفون، وغيرهم، لا تشمل هذا النوع من الهداية، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[المائدة: ١٠٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[يوسف: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[النحل: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النحل: ١٠٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾[الزمر:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[غافر:٢٨]، فهي في غير هداية الدلالة والبيان، التي جعلها الله متاحة لكل خلقه، بل ما أنزل كتابه إلا من أجل تحقق هذا،

قال تعالىٰ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾[البقرة: ١٨٥].

وكذلك كل هداية نفاها الله تعالىٰ عن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وعن خلقه، وبين عجزهم عنها فهي غير متعلقة بهداية الدلالة والإرشاد.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكل هداية ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنّه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة، وهي التوفيق الذي يختص به المهتدون، والرابعة، التي هي الثواب في الآخرة وإدخال الجنة.. وكل هداية نفاها الله عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها، فهي ما عدا المختص من الدعاء، وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل والتوفيق وإدخال الجنة»[(١)].

وهذا النوع من الهداية، وهي هداية البيان، والدلالة، والإرشاد، هي العلم المقصود من خلال هذه الدراسة، وهو المكلف به الخلق من أنبياء ورسل، ومن يقومون بواجب البلاغ والبيان بعدهم، من إنس وجن.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهدىٰ هُديان: هدىٰ دلالة، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[الرعد: ٧]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[الشورىٰ: ٥٢]، فأثبت لهم الهدىٰ الذي معناه الدلالة، والدعوة، والتنبيه، وتفرّد هو سبحانه بالهدىٰ الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾[القصص: ٥٦]، فالهدىٰ على هذا يجيء بمعنىٰ خلق الإيمان في القلب»[(٢)].

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٦١).

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام

يطلق عليها العلماء هداية التوفيق، وهداية التأييد، وهي تكون بجعل الهدىٰ في القلب، والتوفيق للعمل بالحق، والثبات عليه، والزيادة فيه، وهذا النوع من الهداية لا تدخل للعبد فيه إلا من جهة سلوك سبيلها من المجاهدة والدعاء والعلم، والله تعالىٰ وحده هو الذي يختص به من يشاء من عباده توفيقًا في القلب، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالىٰ لرسوله الكريم: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وجاء عَنْ جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَخْطُبُ النَّاسَ، يَحْمَدُ الله، وَيُثْنِىٰ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: «مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَخَيْرُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ»[١].

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب تَخْفِيف الصَّلَاةِ وَالْخُطْبَةِ، برقم: (٢٠٤٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها»(١).

وهداية التوفيق من الله، ولكن بأسباب يسلكها العبد، فهو الذي يمن بتوفيقه، وبإلهامه، وتسديده للعبد، بسبب من العبد، قال الله جل وعلا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[آل عمران: ٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾[النساء: ١٧٤- ١٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[المائدة: ١٥-١٦]، فإذا سلك العبد سبيل الهداية ورغب فيها، وعمل علىٰ تحصيلها، وفقه الله تعالىٰ إليها، وإذا سلك طريق الغواية ففرط في العلم، وكره ما أنزله الله من الحق، وآثر الضلال علىٰ الهدىٰ بعد معرفته، فإنه يوكل إلىٰ نفسه، ويحرم التوفيق والسداد والإلهام.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٥٤).

وهداية التوفيق تكون بالتوفيق لأصول الهدىٰ، ومعرفة الحق جملة، وقد تكون بالتوفيق لمزيد من الهدىٰ الموعود به من اهتدىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾[مريم: ٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[محمد: ١٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾[التغابن: ١١]، وتكون بالثبات علىٰ الحق، والعصمة من خطوات الشياطين، واتباع الشهوات، فالذي يسأله العبد في صلاته، وهو مؤمن مهتدٍ، في قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦]، هو الزيادة والثبات.

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ اهدنا أرشدنا، وقال علي وأبي بن كعب: ثبّتنا كما يقال للقائم قم حتىٰ أعود إليك، أي: دم علىٰ ما أنت عليه، وهذا الدعاء من المؤمنين، مع كونهم علىٰ الهداية، بمعنىٰ التثبيت، وبمعنىٰ طلب مزيد الهداية؛ لأنّ الألطاف والهدايات من الله تعالىٰ لا تتناهىٰ علىٰ مذهب أهل السنة»[(١)].

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: دلّنا عليه واسلك بنا فيه وثبّتنا عليه»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فالمطلوب الهدىٰ الخاص التام الذي يحصل معه الاهتداء»[(٣)].

---

(١) معالم التنزيل (١/ ٦).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٨).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ١٥٧).

والعبد في سلوك الصراط المستقيم يعلم أنّ أفراده كثيرة، والأحوال التي تعتريه مختلفة، وهو قد يأخذ أشياء، وتفوته أخرىٰ، وقد يعمل اليوم، ويعتريه الضعف غدًا، فسؤال العبد ربه جل وعلا أن يهديه الصراط المستقيم، يعني: أن يوفقه، ويسدّده؛ لسلوك جميع أفراد الصراط المستقيم، وأن يوفقه في جميع الأحوال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كان العبد في كل حال مفتقرًا إلىٰ هذه الهداية، في جميع ما يأتيه ويذره من أمور، قد أتاها علىٰ غير الهداية، فهو يحتاج إلىٰ التوبة منها، وأمور هدي إلىٰ أصلها دون تفصيلها، أو هدي إليها من وجه، فهو محتاج إلىٰ تمام الهداية فيها؛ ليزداد هدىٰ، وأمور هو محتاج إلىٰ أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خال عن اعتقاد فيها، فهو محتاج إلىٰ الهداية فيها، وأمور لم يفعلها، فهو محتاج إلىٰ فعلها علىٰ وجه الهداية، إلىٰ غير ذلك من أنواع الحاجات، إلىٰ أنواع الهدايات، فرض عليه أن يسأل هذه الهداية في أفضل أحواله، وهي الصلاة، مرات متعددة، في اليوم والليلة»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فالهداية هي: البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلىٰ البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف، ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه، وهما هدايتان مستقلتان

(١) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٦/ ٥).

لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلًا وإجمالًا، وإلهامنا له وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى، بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا، وتثبيتنا عليه إلى الوفاة، ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة، فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية؟! فإنّ المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده»[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قيل: كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له؟ وكذلك الإلهام والتوفيق؟ قلنا: لقد أجيب عنها بأن المراد التثبيت ودوام الهداية، واعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب، إلا بعد سبعة أمور، **هو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:**

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره، بكونه محبوبًا للرب تعالى، مرضيا له، فيؤثره، وكونه مغضوبًا له، مسخوطًا عليه، فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء، نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريدًا لجميع ما يحب الله منه أن يفعله، عازمًا عليه، ومريدًا لترك جميع ما نهى الله، عازمًا على تركه، بعد خطوره بالبال مفصلًا، وعازمًا على تركه من حيث الجملة مجملًا، فإن نقص من إرادته لذلك شيء، نقص من الهدى التام، بحسب ما نقص من الإرادة.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٤).

الأمـر الثالـث: أن يكون قائمًـا به فعلًا وتـركًا فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه، فهذه ثلاثة، هي أصول في الهداية، ويتبعها ثلاثة، هي من تمامها وكمالها:

أحدها: أمور هدي إليها جملة، ولم يهتد إلىٰ تفاصيلها، فهو محتاج إلىٰ هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلىٰ تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هدي إليها تفصيلًا من جميع وجوهها، فهو محتاج إلىٰ الاستمرار إلىٰ الهداية والدوام عليها، فهذه أصول تتعلق بما يعزم علىٰ فعله وتركه.

الأمر السابع: يتعلق بالماضي، وهو أمور وقعت منه علىٰ غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلىٰ تداركها بالتوبة منها، وتبديلها بغيرها، وإذا كان كذلك فإنّما يقال: كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟! ثم يجاب عن ذلك: بأن المراد التثبيت، والدوام عليها، إذا كانت هذه المراتب حاصلة له بالفعل، فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام، فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده، ولا سبيل له إلىٰ فعله إلا بأن يخلق الله فاعليه فيه، فالمسئول هو أصل الهداية علىٰ الدوام، تعليمًا، وتوفيقًا، وخلقًا للإرادة فيه، وإقدارًا له، وخلقًا للفاعلية، وتثبيتًا له علىٰ ذلك، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلىٰ سؤال الهداية، أصلها وتفصيلها، علمًا وعملًا، والتثبيت عليها، والدوام إلىٰ الممات،

وسر ذلك أن العبد مفتقر إلىٰ الهداية في كل نَفَسٍ، في جميع ما يأتيه ويذره، أصلًا وتفصيلًا، وتثبيتًا، ومفتقرًا إلىٰ مزيد العلم بالهدىٰ علىٰ الدوام، فليس له أنفع، ولا هو إلىٰ شيء أحوج من سؤال الهداية، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يثبت قلوبنا علىٰ دينه»(١).

فالهداية للإيمان، والزيادة من الهدىٰ، والثبات عليه، لا يكون إلا بتوفيق وإعانة من الله تعالىٰ للعبد، والعبد إذا وكل لنفسه ضل، وانحرف بعد ما هداه الله تعالىٰ، لا سيما والشياطين له بالمرصاد، كما قال إبليس - عليه لعنة الله -: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[الأعراف: ١٦ -١٧].

فالعبد بحاجة شديدة لتوفيق رباني ليصل إلىٰ الهدىٰ، ومحتاج إلىٰ توفيق، وإعانة للثبات علىٰ طاعته، وترك معصيته، ويصرف قلبه عما يجلب سخطه وعدم رضاه، ومحتاج إلىٰ إعانة؛ ترقيه وتزيده في مراتب ومنازل الهدىٰ، ومن هنا قال شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، نسأل الله تعالىٰ التوفيق للهدىٰ، والثبات عليه، والزيادة في منازله ودرجاته.

النوع الرابع: الهداية في الآخرة

النوع الأخير من أنواع الهدايات، والذي يطلق عليه العلماء الهداية الأخروية، والهداية إلىٰ دار الخلد والنعيم، والهداية إلىٰ الجنة والنار، وهو

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٧٥).

ثمـرة ونتيجـة تحقق الهدايـة، ومحصلتهـا في الدنيـا، فتكون بـه هدايتهم إلىٰ سلوك الطريق الـذي يوصلهـم إلىٰ الجنـة، وفي عـدم تحققها يكون سـلوك الطريـق الـذي يوصلهم إلـىٰ النار، وقـد جاء بيـان ذلك في عدد مـن الآيات.

فجاءت آيات تتحـدث عن الهداية إلىٰ الجنة بفضـل منه جَلَّ وَعَلَا ورحمة، منها قوله تعالـىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[يونس: ٩].

قـال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهـذا إخبار عن حال السـعداء الذيـن آمنوا بالله، وصدقوا المرسـلين، وامتثلوا ما أمروا بـه، فعملوا الصالحات، بأنه سـيهديهم بإيمانهـم، يحتمـل أن تكـون (البـاء) هاهنا سـببية فتقديره: بسـبب إيمانهم في الدنيـا، يهديهـم الله يـوم القيامة إلـىٰ الصراط، حتـىٰ يجـوزوه ويخلصُوا إلىٰ الجنـة، ويحتمـل أن تكـون للاسـتعانة، كما قـال مجاهـد في قوله: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ قـال: يكون لهـم نورًا يمشـون به»[١].

وقـال تعالـىٰ: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾[الأعـراف: ٤٣]، وقـال تعالـىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾[محمـد: ٤ - ٦]، والهدايـة بعـد القتـل لا تكون إلا إلـىٰ الجنّة.

قـال ابـن كثيـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقولـه: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ أي: إلـىٰ الجنـة، كقولـه تعالـىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي

(١) تفسـير القـرآن العظيـم (٤/ ٢٥٠). وينظـر: جامـع البيـان (١٥/ ٢٧)، والنكـت والعيون (٢/ ٤٢٣)، والجامـع لأحـكام القـرآن (٨/ ٣١٢)، وأيسـر التفاسـير (٣/ ٤٣٢).

﴿مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[يونس: ٩]، وقوله: ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ أي: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ أي: عرفهم بها، وهداهم إليها، قال مجاهد: يهتدي أهلها إلىٰ بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدًا، وروىٰ مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا، وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة»[(١)].

وقد جاءت آيات تتحدث عن الهداية إلىٰ النار، كقوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الحج: ٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾[النساء: ١٦٨-١٦٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[الصافات: ٢٢-٢٣]، والعلماء في توجيه معنىٰ هذه الآيات **انقسموا إلىٰ اتجاهين:**

القسم الأول: حملوها علىٰ معنىٰ الدلالة والإرشاد علىٰ الطريق لمن لا يعرفه، وقالوا: إن الهدىٰ كما أنه يستعمل في الإرشاد والدلالة علىٰ الخير، يستعمل أيضًا في الدلالة علىٰ الشر؛ لأنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وقسم الهداية في الآخرة إلىٰ قسمين.

قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ أي: عرّفوهم، وقودوهم إلىٰ طريق النار؛ حتىٰ يصطلوها»[(٢)].

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٤٠).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٤١). وينظر: اللباب في علوم الكتاب (٥/ ٣٧٦)، وأضواء البيان (٤/ ٢٦٤).

والقسم الآخر: جعل الهداية في معنىٰ الدلالة علىٰ الخير فقط، وأنّ هذا من إطلاق الهداية فيها علىٰ أسلوب التهكم بهم.

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والهداية دلالة بلطف، ولذلك تستعمل في الخير، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وارد علىٰ التهكّم»[١].

وقال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والهداية دلالة بلطف علىٰ ما يوصل إلىٰ البغية؛ ولذلك اختصت بالخير، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وارد علىٰ نهج التهكم»[٢].

ولعل الرّاجح أنّ الهداية الدلالة والإرشاد إلىٰ مرغوب فيه لمعرفته، ولهذا تقابل الهداية بالضلالة التي هي بمعنىٰ الحيرة «وذكر ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ هنا تهكم بالمشركين، كقول عمرو بن كلثوم:

قَرَيْناكُمْ فعَجَّلْنا قِراكُمْ ... قُبَيْلَ الصُّبْحِ مِرْداةً طَحُونَا[٣]

وهذا هو الذي اختاره عامة المفسرين[٤]، وهو الذي يتوافق مع عامة ما ورد في استعمال الهداية في القرآن الكريم.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والهدىٰ إنّما يتعلّق بالأمور النّافعة: لأنّ حقيقته إصابة الطريق الموصّل للمكان المقصود.. وأمّا قوله: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ

(١) أنوار التنزيل (١/ ١٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ١٧).

(٣) ينظر: جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي (ص: ٢٩٦)، شرح القصائد السبع الطوال، للأنباري (ص: ٤٢١)، شرح المعلقات السبع، للزوزني (ص: ٢٢٣).

(٤) فتح القدير (٤/ ٣٩١).

﴿صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[الصافات:٢٣] فهو تهكّم، والضّلال إنّما يكون في أحوال مضرّة؛ لأنّ حقيقته خطأ الطّريق المطلوب»[١].

فهذه الأنواع الأربعة من الهدايات السابقة مرتبطة ببعضها أشد الارتباط، فهداية الفطرة، رزقها الله لسائر مخلوقاته، ولكن كان نصيب الإنسان منها الحظ الأوفر؛ لأنّ الله خصّه بالعقل الذي هو مناط التكليف، الذي بدونه لا يتأهل لهداية الإرشاد، وهداية التوفيق مترتبة علىٰ هداية الإرشاد التي هي سبب وسبيل إليها، ولا تحقق هداية الجنة، إلا بتحقق الهداية الثانية والثالثة.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولىٰ لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابعة فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله، ثم ينعكس فقد تحصل الأولىٰ، ولا يحصل له الثاني ولا يحصل الثالث»[٢].

فخلاصة القول: إنّ الهدايات المذكورة في القرآن تنقسم إلىٰ أربعة أنواع، وهي:

١- الهداية العامة.

٢- هداية البيان.

٣- هداية التوفيق.

---

(١) التحرير والتنوير (٨ / ٥٧).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٩).

٤- هداية الآخرة[١].

ويمكن تقسيمها من جهة تعلقها إلىٰ قسمين:

القسم الأول: هداية من العبد؛ وهي هداية الدلالة والإرشاد، وهذه جعلها الله متاحة لسائر خلقه، وقد جاء القرآن لبسطها للناس.

والقسم الثاني: هدايات من الله تعالىٰ؛ وهذه علىٰ نوعين:

١- هداية في الدنيا؛ وهي علىٰ نوعين كذلك:

أ- هداية الفطرة؛ وهذه عامة لسائر خلقه كل بحسب حاجته.

ب- وهداية التوفيق؛ وهذه خص بها خواص خلقه، ومن علم فيهم خيرًا.

٢- وهداية في الآخرة؛ وهي الهداية إلىٰ الجنة، وهي نتيجة الهداية و محصلتها .

وجميع الهدايات مصدرها من الله، وإنما اختصر جانب الإرشاد

(١) هنالك من قسمها إلىٰ أربعة أنواع خلاف هذه التي ذكرناها.
قال ابن عاشور:«والهداية أنواع، تندرج كثرتها تحت أربعة أجناس مترتبة؛ الأول: إعطاء القوىٰ المحركة والمدركة، التي بها يكون الاهتداء إلىٰ انتظام وجود ذات الإنسان، الثاني: نصب الأدلة الفارقة بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، وهي هداية العلوم النظرية، الثالث: الهداية إلىٰ ما قد تقْصُر عنه الأدلة، أو يفضي إعمالها في مثله إلىٰ مشقة، وذلك بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وموازين القسط، الرابع: أقصىٰ أجناس الهداية، وهي كشف الحقائق العُليا، وإظهار أسرار المعاني التي حارت فيها أَلباب العقلاء، إما بواسطة الوحي والإلهام الصحيح أو التجليات، وقد سمىٰ الله تعالىٰ هذا هدىً حين أضافه للأنبياء فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾»[الأنعام:٩٠]. التحرير والتنوير (١/ ١٨٩).

علىٰ الأنبياء والرسل والدعاة، من حيث البيان، وأنّ الداعية لا يملك أن يمنح الإيمان للمدعوّين، أو أن يقذفه في قلوبهم؛ لأنّ هذا مما اختصَّ به الله سبحانه، فهو الذي يهدي من يشاء إلىٰ صراطه المستقيم، وفق سننه في الهداية والإضلال، فالقلوب بيده يصرفها كيف يشاء، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[يونس: ١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

المبحث الثاني

مجالات الهدايات القرآنية

مجالات الهدايات القرآنية

تمهيد:

أنزل الله تعالىٰ كتابه هداية للعالمين، وهو أعظم مقاصده، وأعلىٰ مراميه وأجل فوائده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، فذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية ثلاث حكم لإنزال القرآن الكريم: وهي البيان والهدىٰ والرحمة، وقطب هذه الثلاثة هو الهدىٰ؛ فالبيان وسيلته، والرحمة ثمرته، فجميع مقاصد القرآن الكريم تصب في نهاية غايتها إلىٰ هداية من الهدايات.

وفي ذلك يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، «فعدىٰ الفعل (يهْدِي) بحرف اللام (للَّتِي)؛ ليدل علىٰ اختصاص هداية القرآن الكريم بهذه الصفة»[١].

فهو يهدي للتي هي أقوم الطرق، «وهي أقربها إلىٰ الحق؛ فإن الطريق المستقيم هو أقرب خط موصل بين نقطتين، وكلما تعوّج بَعُد»[٢].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله عَزَّوَجَلَّ أي شهادة أن لَا إلهَ إلا الله والإيمان بِرسلِهِ، والعملُ بطاعتِه، وهذه صفة الحال التي هي أقوم الحالات»[٣].

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٥٨).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ١١٢٣).

(٣) معاني القرآن (٣/ ٢٢٩).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الآية الكريمة أجمل الله عَزَّوَجَلَّ فيها جميع ما في القرآن من الهدىٰ إلىٰ خير الطرق، وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها علىٰ وجه الكمال؛ لأتينا علىٰ جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدىٰ إلىٰ خيري الدنيا والآخرة»[١].

ولذلك ذكر الله تعالىٰ في الآيات التالية لآية الهداية أحوال المؤمنين والكافرين، وتسخير الكون للإنسان وقال بعدها: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، «فكل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحق، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان..، كل هذا فصل في القرآن تفصيلًا: كلّ فصّل علىٰ غاية البيان والإحكام.

وهذا دعاء وترغيب للخلق أنّ يطلبوا ذلك كله من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل، ويأخذوا منه ويهتدوا به؛ فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدىٰ والبيان»[٢].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٧).

(٢) مجالس التذكير، لابن باديس (ص: ٤٩).

وفي هــذا المبحث نتناول هــذه المجالات للهداية، ونبــدؤه بتمهيد حول مفهوم المجالات.

مفهوم المجالات

أمــا المجــال في اللغة: فأصله مــن الجَوَل، وهــو الدوران، يقــال: جال، يجُــول، جَــوْلًا، وجَوَلانًــا، وأَجَلْتُه أنا، هــذا هو الأصل، ثم يشــتق منه.

وجــال في الحــرب جَوْلَة، وجــال في التطواف، يجــول جَــوْلًا، وجَوَلانًا وجُــؤُولًا.. وتجاوَلُــوا في الحرب، أي: جال بعضهم علىٰ بعــض، وكانت بينهم مُجَــاوَلات.. وجــال واجْتَــال: إذا ذهب وجــاء.. واجْتَال الشــيء: إذا ذهب به وســاقه، والجائِل: الزائـل عن مكانه.

والجُــوْل: العزيمة، ويقــال: العقل، وليــس له جُــوْلٌ، أي: عقل وعزيمة تمنعــه، مثــل جُول البئر؛ لأنهــا إذا طويت كان أشــد لها، ورجل ليــس له جَالٌ: أي: ليس له عزيمــة تمنعه[١].

والجُوْل: ناحية البئر، والبئر لها جوانب يدار فيها، وناحية القبر.

ويقال: ما لفلان جُولٌ، أي: ماله رأي.

وهذا مشتق مما سبق؛ لأنّ صاحب الرأي يدير فكره ويعمله[٢].

وأما المقصــود بالمجال في هذه الدراســة فهو: النواحــي والميادين التي تــدور حولهــا هدايات القــرآن العظيــم، وهي مجــالات عديدة عامة شــاملة،

(١) لسان العرب (١١/ ١٣٢)، تاج العروس (٣٠/ ٣٩٠).

(٢) معجم مقاييس اللغة (١/ ٤٩٥، ٤٩٦)، بتصرف. وينظر: المخصص، لابن سيده (٢/ ٧٩).

ففي القرآن العظيم هداية الدنيا والآخرة، وهداية العقيدة والعمل، وهداية العبادة والمعاملة، وهداية الفرد والجماعة، وهداية الأسرة والمجتمع، وهداية الدولة والأمة، وهداية المؤمن والكافر، وهداية القوي والضعيف، وهداية الحائر والمهتدي، وهداية الذكر والأنثىٰ، وهداية النفس والعقل والجسد، وغيرها.

وجميع هذه الهدايات يمكن حصرها في **مطلبين** هما موضوع هذا المبحث، وهي كما يلي:

المطلب الأول: المجالات المتفق عليها، وهي أربعة مجالات:

المجال الأول: هدايات القرآن الكريم في مجال العقيدة.

المجال الثاني: هدايات القرآن الكريم في مجال العبادة.

المجال الثالث: هدايات القرآن الكريم في مجال الأخلاق والآداب.

المجال الرابع: هدايات القرآن الكريم في مجال المعاملات.

المطلب الثاني: المجالات المختلف فيها، وهي المجالات العلمية: مجال العلوم الكونية، ومجال علوم الأنفس.

المطلب الأول

مجالات هدايات القرآن الكريم المتفق عليها

المجال الأول: هدايات القرآن الكريم في مجال العقيدة:

العقيدة في اللغة: مأخوذة من العَقْد: وهو الشد والربط، يقال: عَقَد الحبل والبيع والعهد يعْقِدُه: شده، والعَقْد: العهد[(١)].

فالعَقيدَة ما يربط عليه العبد قلبه، فكأنها هي العهد المشدود، والعروة الوثقىٰ، وذلك لاستقرارها ورسوخها في القلوب.

وهي في الاصطلاح: كل ما يجب الإيمان به مما يتعلق بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والنبوات، وما أخبر به الأنبياء عن ربهم من الأمور الغيبية، كالملائكة واليوم الآخر وغيرها من أركان الإيمان الستة.

والهداية في مجال العقيدة هي أعظم هذه المجالات وأنفعها؛ إذ بها صلاح دينه ودنياه وأخراه؛ ولذلك كان تقرير العقيدة هو أكثر ما في القرآن الكريم، بل كما قال جمع من أهل العلم: القرآن كله في تقرير التوحيد، وفي ذلك يقول ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلىٰ عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن

---

(١) القاموس المحيط (١/ ٥١٣).

إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبىٰ من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[١].

فلا تكاد تخلو سورة - مكية كانت أو مدنية - بل حتىٰ آية من شد الإنسان بكليته إلىٰ ربّه، وربط كل تصرف بهذه العقيدة التي تمثل القاعدة الأساسية لهذا الدين الذي لا يقوم بدونها، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢].

ونحن في هذه الدراسة لسنا بصدد عرض عقيدة المؤمن وتفصيلها في القرآن الكريم، وإنما المقصود بيان اشتمال القرآن الكريم علىٰ جميع الهدايات الإيمانية التي تصلح القلوب، وتشرح الصدور، وتحقق الحياة المطمئنة التي وعد الله تعالىٰ من تحلّىٰ بها بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

فنجد أنّ القرآن الكريم يأمر بأركان الإيمان الستة إما في آية واحدة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى

---

(١) شرح الطحاوية (ص:٤٣).

﴿ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧]، حيث ذكر الأركان الخمسة متتابعة، ثم أشار سبحانه إلىٰ الإيمان بالقدر، وذلك ببيان ثمرته، وهو الصبر علىٰ البأساء والضراء وحين البأس؛ لذلك روي أن رجلا سأل أبا ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن الإيمان، فقرأ عليه هذه الآية حتىٰ ختمها، وقال: «إن رجلا سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان فقرأ عليه هذه»(١).

وقال ابن بطة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فانتظمت هذه الآية أوصاف الإيمان وشرائطه من القول والعمل والإخلاص»(٢).

وإما أن يأمر بالأركان في آيات متعددة وهو الأكثر في القرآن الكريم، ويمكن تناول جميع ما ورد من هدايات القرآن الإيمانية كما يلي:

أولًا: هدايات القرآن الكريم في تقرير الإيمان بالله، وهو في ثلاثة أصول:

الإيمان بوجود الله تعالىٰ وربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته:

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١١/ ١٢٨)، والآجري في الشريعة (ص: ١٢١) عن مجاهد عن أبي ذر وهو منقطع؛ لأن مجاهدًا لم يسمع من أبي ذر. ينظر: التهذيب (١٠/ ٤٢)، وقال ابن كثير: أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد عن أبي ذر. تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٧)، وذكره جماعة من المفسرين. ينظر: تفسير الطبري (٢/ ٩٤)، الدر المنثور (١/ ١٦٩)، فتح القدير (١/ ١٧٣).

(٢) الإبانة (٦/ ٧٦٥ – ٧٧٢).

الأصل الأول: هدايات القرآن الكريم في الإيمان بوجود الله تعالىٰ وربوبيته:

ومعناه: اعتقاد أنّ لهذا الكون خالقًا مدبرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقد قرّر القرآن الكريم هذا الأصل بوجوه كثيرة، ودلالات متنوعة، ومنها:

- بيان أنّ الفطرة دالة عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والفطرة عندنا: الإقرار بالله والمعرفة به.. ولستَ واجدًا أحدًا إلّا وهو مُقِرّ بأنَّ له صانعًا ومدبِّرًا، وإن عبد شيئًا دونه، وسمَّاه بغير اسمه»(١).

- كما قرّر القرآن الكريم أنّ العقل كذلك يوصل إلىٰ وجود الله تعالىٰ وربوبيته، فوجود الموجودات بعد العدم، وحدوثها بعد أن لم تكن، يدل بداهة علىٰ وجود من أوجدها، وقد سبقت معنا البراهين العقلية الدقيقة في عدد من الآيات، كقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

---

(١) زاد المسير (٣/ ٤٢٢)، باختصار يسير.

• كما بيّن في آيات أخرىٰ أنّ العقل لا يشترط في إثباتها أن يشهدها، بل يستحيل أن تشهد المخلوقات خلق نفسها، وخلق ما وجد قبلها، كما قال سبحانه: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾[الكهف: ٥١]، فكل إنسان يعلم يقينا أنّه لم يكن شيئًا مذكورًا ثم وجد، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

• وكذلك بيّنت الآيات أنّ هذا الإتقان الدقيق، والتقدير العجيب، دال علىٰ ربوبية الرب العظيم، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾[النمل: ٨٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾[السجدة: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣].

فكلها آيات متنوعة وطرائق متعددة في الهداية إلىٰ توحيد الربوبية الذي يتضمن الإقرار بوجود الرب الخالق المدبر للكون.

الأصل الثاني: هدايات القرآن الكريم في الإيمان بالألوهية:

والمقصود به إفراد الله تعالىٰ بالعبادة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٦٣].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والذي يستحق عَليكم أيها الناس الطاعةَ له، ويستوجب منكم العبادة، معبودٌ واحدٌ، وربٌّ واحد، فلا تعبدوا غيرَه،

ولا تشركوا معه سواه، فإنّ من تُشركونه معه في عبادتكم إياه، هو خَلقٌ من خلق إلهكم، مثلكم، وإلهكم إله واحد، لا مثلَ لهُ ولا نَظير»[١].

وقد دلّ القرآن الكريم علىٰ هذا التوحيد بطرق كثيرة، وهدايات عديدة، ومن ذلك:

- الأمر الصريح بعبادته سبحانه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وقد نقل الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قوله: «أي: وَحِّدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم»[٢].

- النهي الصريح عن الشرك وهو عبادة مَنْ سواه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

- الإخبار بأن الله تعالىٰ ما خلق الخلق إلا لعبادته، كما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

- الإخبار بأنّ الله تعالىٰ ما أرسل الرسل إلا للدعوة إلىٰ عبادته، والنهي عن عبادة من سواه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا

(١) جامع البيان (٣/ ٢٦٥).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٦٣).

نُوحِىٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾[النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾[الزخرف: ٤٥].

• الاستدلال بتوحيد الربوبية علىٰ إثبات توحيد الألوهية؛ فتقرير أنّ الله هو الخالق المالك المدبر الذي لم يشاركه في ذلك أحد، يلزم منه أن لا يشاركه في العبادة أحد، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴾[النمل: ٦٠]،وما بعدها من الآيات.

• الاستدلال بتفرّده بصفات الكمال علىٰ وجوب إفراده بالعبادة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾[مريم: ٦٥]، وحكاية قول خليله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه بقوله: ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾[مريم: ٤٢]، وحكاية قول هدهد سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٥ – ٢٦].

• التذكير بنعم الله تعالىٰ علىٰ عباده، وأن مقتضىٰ ذلك شكره وعبادته، لا كفره والشرك به، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٣–٥٤].

• التنبيه إلىٰ أن الإنسان مضطر إلىٰ عبادة الله بفطرته؛ ولذلك يتوجه إليه حتىٰ المشركون عند شدائدهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ

دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٥] .

• بيان عجز كل ما يعبد من دون الله، وأنه لا يخلق شيئًا، ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا، كما قال تعالىٰ:﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴾[الفرقان: ٣]، وقوله تعالىٰ:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾[الحج: ٧٣]، وقوله تعالىٰ:﴿ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾[الأعراف: ١٩١ – ١٩٢].

• التشنيع علىٰ سفه المشركين في اتخاذهم لأوثان لا تملك لهم شيئًا، كما قال تعالىٰ:﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[العنكبوت: ١٧].

• إبطال حجج المشركين في عبادة غير الله تعالىٰ، والردّ عليها، كما في قوله تعالىٰ:﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾[الزمر: ٣]، وقوله تعالىٰ:﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[الزمر: ٤٣- ٤٤].

• ضرب الأمثال الدالة علىٰ بطلان الشرك، وقبحه، وسوء عاقبته، كما في قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

• بيان عاقبة الموحدين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، والظلم هنا هو الشرك، كما بين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقّ ذلك علىٰ أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّه ليس بذاك، ألا تسمع إلىٰ قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»(١).

• بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله، وبيان مآلهم مع معبوداتهم، حيث تتبرأ منهم كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦](٢).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، برقم: (٤٧٧٦)، ومواضع أخرىٰ.

(٢) ينظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن، للسعدي (ص:١١،١٢)، تيسير العزيز الحميد، لسليمان بن عبد العزيز ابن عبد الوهاب (ص: ٣٨،٣٩)، ودعوة التوحيد، للهراس (ص: ٣٩،٤٥).

الأصل الثالث: هدايات القرآن الكريم في الإيمان بأسماء الله وصفاته:

ومعناه: إفراد الله تعالىٰ بصفات الكمال وأسماء الجلال، وإثبات ما أثبته الله تعالىٰ لنفسه، وما أثبته له رسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل[1].

وقد قرّر القرآن هذا الأصل بطرق كثيرة، وهدايات متنوعة، منها:

• إثبات الكمال المطلق لله تعالىٰ وصفاته وأسمائه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[النحل: ٦٠]، أي: الوصف الأكمل؛ لذلك فسّرها ابن عباس بقوله: «يقول: ليس كمثله شيء»[2].

قال السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ أي: الصفة العليا، وذلك مثل قولهم: عالم، وقادر، ورازق، وحي، وغير هذا»[3].

• إثبات عجز الخلق عن الإحاطة بصفاته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا﴾[طه: ١١٠]، وقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾[الزمر: ٦٧]، وقال: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٠٣] أي: لا تحيط به، وإن كانت تراه في الآخرة، وهو أحد الأقوال في تفسيرها، كما نقله جمع من المفسرين[4].

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٩٠) في تفسيره، برقم: (١٧٤٨٧).

(٣) تفسير السمعاني (٣/ ١٨١).

(٤) والمعنىٰ الثاني: لا تراه في الدنيا، وهما متآلفان. ينظر: جامع البيان (١٢/ ١٤)، زاد المسير (٢/ ٦٢).

• نفي المثيل والند والمكافئ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا تمثلوا لله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشباه؛ فإنّه لا مثل له ولا شبه»[١].

وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسيرها: «هل تعلم للرب مثلًا أو شبيهًا»[٢]، وهو استفهام، يراد به النفي، أي: لا تعلم له سميًّا.

ومثله: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء»[٣].

• بيان نقص كل ما سواه سبحانه، وافتقار جميع الخلق إليه، فقال عن الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقال عن الإنسان: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال عن الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال عن الخلق جميعًا: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]،

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٥٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٥٠).

(٣) جامع البيان (٢٤/ ٦٩١).

وكلّه دالّ على كمال علمه وقدرته وكرمه وغناه وغيرها من صفات الكمال، ونعوت الجلال.

• بيان أنّ اتصاف الله تعالى بصفات قد تطلق على المخلوقين لا يقتضي التمثيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فأثبت لنفسه السمع والبصر، كما أن للإنسان سمعًا وبصرًا، ونفى التماثل بينهما.

لذلك قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكلّمه، وأنا في ناحية البيت ما أسمع، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]»[١].

• ذم آلهة المشركين بعدم اتصافهم بصفات الكمال؛ لتقرير اتصافه سبحانه وتعالى بها، كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، وحكى عن إبراهيم قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

• بيان أنّ أسماء الله تعالى كلها حسنى، ولا تكون كذلك إلا إذا تضمّنت صفات الكمال، وإلا كانت أعلامًا مجردةً لا معنى لها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

---

(١) أخرجه البخاري معلّقًا، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، والنسائي في الكبرى، كتاب الظهار، برقم: (٥٦٢٥)، وأحمد في المسند (٦/ ٤٦)، ووصله ابن حجر العسقلاني في (تغليق التعليق) (٥/ ٣٣٩).

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأسماء ألفاظ، دالة على المعاني، فهي إنّما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنىٰ للحسن في حق الله تعالىٰ إلا ذكر صفات الكمال، ونعوت الجلال»[١].

ثانيًا: هدايات القرآن الكريم في تقرير الإيمان بالملائكة:

الملائكة في أصل اللغة: جمع مَلَك، وهو مشتق من الأَلُوكَة، أي: الرسالة[٢]، والملائكة أجسام نورانية، أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة، وهي في السموات، وتطوف في الأرض بأمر الله تعالىٰ.

وقد وردت «الهدايات القرآنية» في تقرير الإيمان بالملائكة، وبمسالك عديدة، **يمكن إجمالها فيما يلي:**

- بيان أن الإيمان بوجودهم وأوصافهم من أركان الإيمان، بقرنه بغيره من الأركان، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[البقرة:١٧٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٥].
- التحذير من إنكارهم والكفر بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء: ١٣٦].
- بيان جلائل صفاتهم، وعظيم مكانتهم عنده سبحانه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥ / ٤١٢).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٠/ ٣٩٤).

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[آل عمران: ١٨]، ووجه الدلالة أنّ الله احتج بشهادتهم علىٰ أعظم مشهود علىٰ الإطلاق، وهو توحيده سبحانه، وقرن شهادتهم بشهادته، وقوله تعالىٰ: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾[الأنبياء:٢٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[التحريم: ٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[الأنبياء: ٢٠]، وغيرها من الآيات في وصفهم.

- ذكر بعض من صفاتهم الخَلقية، كما في قوله تعالىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾[فاطر: ١]، ووصف النبي ﷺ أحد حملة العرش، فقال: «أذن لي أن أحدث عن أحد حملة العرش، ما بين شحمة أذنه وعاتقه، مسيرة سبعمائة عام»[(١)].

ومن صفاتهم الخَلقية أنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، فمن وصفهم بالأنوثة فقد كفر؛ لتكذيبه القرآن الكريم في نفي ذلك، قال تعالىٰ: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾[الإسراء: ٤٠].

وهم يأتون علىٰ صور الرجال، كما جاؤوا لإبراهيم، ولوط عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ، وكما جاء جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ في صورة بشر، وكذلك كان جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يأتي النبي ﷺ في صورة تشبه الصحابي دحية الكلبي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ[(٢)]، وفي صورة أعرابي، كما في حديث جبريل المشهور[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية، برقم: (٤٧٢٧)، وقال ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢١٢): (وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات)، وقال ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٥٣٣): إسناده علىٰ شرط الصحيح، وصحّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) كما في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله..، برقم: (١٦٧).

(٣) كما في البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي =

• بيان أنّ عددهم لا يعلمه إلا الله سبحانه، حيث ردّ علم ذلك إلىٰ نفسه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾[المدثر: ٣١]، وجاء في صفة البيت المعمور أنه: «يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم»(١)، وغيرها من الأحاديث الدالة علىٰ كثرتهم.

• الإخبار عن أعمال بعض الملائكة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ [النازعات: ١ – ٥].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة علىٰ كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره»(٢).

ومن الأعمال التي كلف بها الملائكة، الحفظ والكتابة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾[الرعد: ١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾[الانفطار: ١٠–١١].

= صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، برقم: (٤٩)، وأخرجه مسلم عن عمر وأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، في كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، برقم: (٨) و(٩) و(١٠).

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج، برقم: (٣٦٧٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إلىٰ السموات وفرض الصلوات، برقم: (٤٠٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٠٨).

ومـن الملائكة من يجاهـد مع المؤمنين، كما قـال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال: ٩].

ومن أعمال الملائكة أنّها تشـفع يوم القيامـة في المذنبين من الموحدين، قال تعالـىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾[النجم: ٢٦].

وهنـاك ملائكة موكلـة بأعمال أخـرىٰ كثيـرة، كحملة العـرش، وخزنة الجنـة والنـار، والملائكة الطوافيـن، وغيرها.

ثالثًا: هدايات القرآن الكريم في تقرير الإيمان بالكتب:

الإيمـان بالكتـب المنزلة علىٰ الرسـل ركن مـن أركان الإيمان؛ لا يصح إيمان المسـلم إلا به، **وقـد وردت الهدايات القرآنية لتقرير هـذا الأصل بصور متنوعة، ومنها:**

- الأمـر المؤكـد بالإيمان بالكتـب، ومنها القرآن الكريـم، والتحذير من إنكارهـا والكفـر بها، كما قـال تعالـىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النسـاء: ١٣٦].
- بيـان أنّ هـذا الأمر أُمـر به آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيـث قال تعالـىٰ حين أهبط آدم من الجنة: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طـه: ١٢٣]، فالهـدىٰ هنـا هو: كل ما أنزله الله تعالىٰ علىٰ رسـله.
- بيـان أنّـه سـبحانه أمـر بـه بنـي آدم مـن بعـده فقـال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۙ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعـراف: ٣٥].

• ذكر أشهر هذه الكتب، وهي أربعة- قبل القرآن -: التوراة المنزلة على موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾[المائدة:٤٤].

والإنجيل الذي أنزله الله علىٰ رسوله عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله تعالىٰ:﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

والزبور الذي أنزله الله علىٰ رسوله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال تعالىٰ:﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[النساء: ١٦٣]،[الإسراء: ٥٥].

وصحف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال تعالىٰ:﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[الأعلىٰ: ١٨-١٩].

• بيان أنّ هذه الكتب يصدق بعضها بعضًا، كما قال تعالىٰ:﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الصف: ٦].

وقال الله تعالىٰ في شأن القرآن الكريم:﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾[المائدة: ٤٨].

• بيان كفر من زعم أنها ليست من عند الله أو أنها قول البشر، كما قال تعالىٰ:﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾[الأنعام: ٩١]، وقال تعالىٰ:﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٤-٢٦].

• بيان أن أهل الكتاب حرفوا كتبهم فقال عن اليهود: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[المائدة: ١٥].

• بيان أنّ القرآن الكريم ناسخ للتعبد بشريعة التوراة والإنجيل، فقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[الأعراف: ١٥٧].

• بيان أنّ القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله من كل تحريف أو تبديل أو زيادة أو نقص، ومصون من أن يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، حتىٰ قيام الساعة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩].

• الأمر بالتحاكم إلىٰ القرآن الكريم، وبيان أنّ التحاكم إلىٰ غير كتابه يعتبر تحاكما إلىٰ الطاغوت، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء: ٦٠].

رابعًا: هدايات القرآن الكريم في تقرير الإيمان بالرسل:

الإيمان بالرسل هو: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالىٰ بعث في كل أمة رسولًا يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده، والكفر بما يعبد من دونه، وأنهم

جميعًا مرسلون صادقون، قد بلّغوا جميع ما أرسلهم الله به، منهم من أعلمنا الله باسمه، ومنهم من استأثر الله بعلمه.

وقد تعدّدت هدايات القرآن الكريم في بيان هذا الأصل، ومن ذلك ما يلي:

• بيان أنّ الإيمان بالرسل من أصول الإيمان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[البقرة:١٧٧].

• الأمر بالإيمان بجميع الرسل دون تفريق بينهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾[البقرة: ٢٨٥].

• التحذير من التكذيب والكفر بأي رسول منهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[النساء: ١٥٠ – ١٥١].

• بيان أنّ رسل الله جميعًا كانوا رجالًا من البشر فلم يكونوا إناثًا ولا ملائكةً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾[يوسف: ١٠٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام: ٨-٩].

• بيان أن الرسل كغيرهم من بني البشر، يأكلون ويشربون وينكحون ويموتون، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[الفرقان: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ

﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾[الرعد: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾[آل عمران: ١٤٤].

- بيان أنّهم لا يملكون شيئًا من خصائص الألوهية، فلا يتصرفون في الكون، ولا يملكون النفع أو الضر، ولا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٨٨].

- بيان أنّ مهمة الرسل هي الدعوة إلىٰ عبادة الله وحده دون من سواه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥].

- بيان أنّ خاتمهم رسول الله ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

- الأمر بطاعة الرسل وعدم مخالفتهم؛ وأن ذلك من طاعة الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[النساء: ٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾[النساء: ٨٠].

خامسًا: هدايات القرآن الكريم في تقرير الإيمان باليوم الآخر:

والإيمان باليوم الآخر هو: الاعتقاد الجازم بأنّ الله تعالىٰ يبعث الناس يوم القيامة، ويحاسبهم، ويدخلهم إما الجنة، وإما النار، ويدخل في ذلك

الإيمان بأشراط الساعة، وبالموت، وما بعده من فتنة القبر، وعذابه، ونعيمه، وبالنفخ في الصور، وخروج الخلائق من القبور، وما في موقف القيامة من الأهوال، وتفاصيل المحشر، ونشر الصحف، ووضع الموازين، والصراط، والحوض، والشفاعة، وغيرها، ثم الجنة ونعيمها، الذي أعلاه النظر إلىٰ وجه الله تعالىٰ، والنار وعذابها، الذي من أشده حجبهم عن ربهم سبحانه.

وقد اهتمّ القرآن الكريم بهذا الركن، وأكثر من ذكره، وأكد وقوعه بطرق شتىٰ، **وأساليب عدة، ومن ذلك:**

- كثرة اقترانه بالإيمان بالله تعالىٰ كما في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾[الطلاق: ٢] في آيات كثيرة.

- تسميته بأسماء كثيرة ومتعددة؛ مما يدل علىٰ أهميته، وتحقّق وقوعه، مثل: القارعة والحاقة، والواقعة، والساعة، والقيامة، وبعض هذه الأسماء يدل علىٰ ما سيقع فيه من الأهوال مثل: الغاشية، والطامة، والصاخَّة.

ومن أسماء اليوم الآخر في القرآن الكريم: يوم الدين، ويوم الحساب، ويوم التغابن، ويوم الخلود، ويوم الخروج، ويوم الحسرة، ويوم التناد.

- الإكثار من ذكر الموت وهو بداية قيامة العبد، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾[الزمر: ٣٠-٣١]، وبيان أنّ كل نفس ذائقة الموت، وأنّ كل من عليها فان.

- ذكر فتنة القبر، كما قال تعالىٰ في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[غافر: ٤٦]،

وأمّا نعيم القبر فللمؤمنين الصادقين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧]، ومما ذكر من معاني الحياة الطيبة أنها في القبر(١)، والتنكير يدل علىٰ الإطلاق، فتشمل الدنيا وفي البرزخ.

• ذكر أشراط الساعة، قال الله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾[محمد: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[الأنعام: ١٥٨].

• ذكر قيام الساعة، وأحوال القيامة، والعرض، والحساب، والموازين، والصراط، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾[الحاقة: ١٣ – ١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[مريم: ٧١]، والمقصود بالورود هنا: المرور علىٰ الصراط.

---

(١) ينظر: زاد المسير (٢/ ٥٨٢).

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وورودهم فيها، هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، من مرورهم علىٰ الصراط المنصوب علىٰ متن جهنم، فناجٍ مسلّم، ومكردسٍ فيها»(١).

• ذكر الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، قال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥].

سادسًا: هدايات القرآن الكريم في تقرير الإيمان بالقدر:

ذكر الله تعالىٰ الإيمان بالقدر، وبين معالم هداياته، وأصّل له في آيات كثيرة، **ومن أهمّ ذلك ما يلي:**

• بيّن ضرورة الإيمان بأن الله تعالىٰ يعلم كل شيء، أزلًا، وأبدًا، جملةً، وتفصيلًا، كما قال تعالىٰ: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

• بيّن أن الله تعالىٰ كتب مقادير كل شيء، قبل خلق السموات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠]، وقد بيّن صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ذلك بقوله: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه علىٰ الماء»(٢).

---

(١) جامع البيان (١٨/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم موسىٰ عليهما السلام، برقم: (٢٦٥٣).

• ذكر مرتبة المشيئة، ومعناها الإيمان بأنّ كل شيء بمشيئة الله تعالىٰ، وأنّ مشيئة الخلق لا تخرج عن مشيئته تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[التكوير: ٢٩].

ومن روائع ما قيل في ذلك قول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]:

فما شئتَ كان وإن لم أَشأْ ... وما شئتُ إن لم تشأْ لم يكُنْ
خلقتَ العباد علىٰ ما علِمتَ ... ففي العلم يجري الفتىٰ والمُسِنْ
علىٰ ذا مَنَنْتَ وهذا خَذَلتَ ... وهذا أَعنْتَ وهذا لم تُعِنْ
فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيدْ ... ومنهم قبيحٌ ومنهم حَسَنْ

• ذكر مرتبة الخلق: ومعناه الإيمان بأنّ الله خلق كل شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[الأعلىٰ:٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان:٢]، ومن ذلك خلقه للناس وأعمالهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات: ٩٦].

• بيّن إرادته الكونية والشرعية، فالشرعية تستلزم المحبة، فالله تعالىٰ يريد كل ما أمر به ويحبه، ولا يريد كل ما نهىٰ عنه ويبغضه ويكرهه، وهي المرادة بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[النساء: ٢٧]، وهي لا تقع لكل أحد.

والإرادة الكونية هي القدرية العامة التي بمعنىٰ المشيئة، فكل ما يشاؤه الله تعالىٰ ويقدره كونًا، فإنه يقع، سواء كان محبوبًا له كالإيمان والطاعة، أو مكروهًا كالكفر والفسوق والعصيان، ويدلّ عليها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا

(١) ينظر: الاستذكار، لابن عبد البر (٨/ ٢٦٥)، طبقات الشافعية الكبرىٰ، للسبكي (١/ ٢٩٥).

يُرِيدُ﴾[الحج: ١٤]، وهي بمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[الحج: ١٨]، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾[هود: ٣٤]، فالإرادة هنا كونية قدرية، وليست شرعية؛ لأنّ الله تعالىٰ لا يحب الغواية، وإن كان سبحانه يشاؤها قدرًا؛ لحكم يعلمها(١).

• بيّن أنّ العبد مختار في أفعاله، حيث أضاف الأفعال إليه في آيات كثيرة، ونصوص شهيرة، فقال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾[البقرة: ٢٨٦]، وحيث وصف العبد بالمشيئة والإرادة فقال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾[التكوير: ٢٨].

• بيّن أثر الإيمان بالقدر، وهو تسليم الأمر لله تعالىٰ، والتوكل التام عليه، فإنّ الأمر كله بيديه، ولا يصيب العبد إلا ما كتبه عليه، فقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[التوبة: ٥١]، وكذلك الصبر والرضا بما قدره الله وقضاه، كما قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾[الحديد: ٢٢-٢٣]، فذكر أن كل مصيبة تقع قد كتبها الله تعالىٰ، ثم أعقب أثر هذا الإيمان وهو عدم الأسىٰ علىٰ المحن، وعدم الفرح والافتخار بالمنح.

(١) ينظر: مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام (٨/ ٥٨، ١٨٨)، شرح الطحاوية، لابن أبي العز الأذرعي (ص: ١١٦).

المجال الثاني

هدايات القرآن الكريم في مجال العبادة

العِبادَة والتَّعَبُّد: التَذَلَّل، والتَّعْبيد: التَّذْليل، وبعير مُعَبَّد: مُذلَّل، وطريق مُعَبَّد: مَسْلوك مُذَلَّل، وأصل العبودية: الخُضوع والتَّذَلُّل[١].

وهي في الشرع: اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالىٰ ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة[٢].

وقد وردت العبادة في القرآن الكريم علىٰ معنيين رئيسين:

المعنىٰ الأول: الطاعة والانقياد، ومما ورد في هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، والعبادة هنا بمعنىٰ: طاعة الشيطان، واتباعه في المعاصي.

قال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: لا تطيعوا الشيطان، وعبادة الشيطان طاعته»[٣].

ومن هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن كنتم منقادين لأمره، سامعين مطيعين، فكلوا مما أباح لكم أكله، وحلله، وطيَّبه لكم، ودعوا في تحريمه خطوات الشيطان»[٤].

---

(١) لسان العرب (٣/ ٢٧١، ٢٧٤) مختصرًا.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ابن تيمية (١٠/ ١٥٠).

(٣) تفسير السمعاني (٤/ ٣٨٤).

(٤) جامع البيان (٣/ ٣١٧).

المعنى الثاني: وهو التعبد بمعنى التأله والتنسك، وهي إقامة الشعائر، كالصلاة، والصيام، والحج، والدعاء، والذبح، والنذر، وهو أكثر إطلاقات العبادة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ -٦]، فسمى دعاءهم عبادة.

ولسنا هنا بصدد الكلام حول تفاصيل الآيات الدالة على العبادات، وأحكامها الفقهية، فإن هذا موضعه آيات الأحكام، ولكنّ المقصود هنا بيان هدايات القرآن الكريم في تقريره لأهمية العبادة وفوائدها، ومقاصدها، وآدابها، وحقائقها.

وقد قرّر القرآن الكريم هذا الأصل من خلال ما يلي:

- بيان أنه ما خلق الثقلين إلا لتحقيقها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
- أمره سبحانه بالعبادة، وحضّه عليها، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].
- بيان أنّ العبادة وظيفة الإنسان التي ينبغي أن يستصحبها في جميع تصرّفاته، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].
- بيان أنّها حاجة فطرية خلق بها، وجبل عليها، فقال سبحانه: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، قال مجاهد: «صبغة الله: فطرةَ الله التي فطر الناسَ عليها»[١].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/ ١١٩)، وصححه حكمت بشير في التفسير الصحيح (١/ ٢٤٧).

• بيان أنّ الحياة المطمئنة، والسعادة الحقيقية، إنما تكون في ظل هذه العبادة، فقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

• بيان أنّ النعيم المقيم، والفوز العظيم في الآخرة، منوط بهذه العبادة، في أكثر من أربعين آية، يعلق فيها النجاة والفوز بالجنات، بالإيمان والأعمال الصالحات، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

• بيان أنّ العبادة مبناها على الإخلاص والاتباع، في كثير من الآيات، فيقول سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، في حصر دقيق سديد يدل على تخليص العمل من كل شائبة للتنديد، ويقول تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

• بيان فوائد آحاد العبادات ومقاصدها، فيقول سبحانه في عبادة الصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعنى نهيها إيّاهم عن ذلك أنّها لتضمنها صنوف العبادة من التكبير، والتسبيح، والقراءة، والوقوف بين يدي الله عزّ وجل، والركوع والسجود له سبحانه، الدال على غاية الخضوع والتعظيم، كأنها تقول لمن يأتي بها: لا تفعل الفحشاء والمنكر، ولا تعص ربا هو أهل لما أتيت به، وكيف يليق بك أن تفعل ذلك، وتعصيه تعالى وقد أتيت، مما

يدلّ على عظمته تعالى، وكبريائه سبحانه، من الأقوال والأفعال، بما تكون به إن عصيت، وفعلت الفحشاء أو المنكر، كالمتناقض في أفعاله»(١).

ويقول في عبادة الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣].

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصوم يورث التقوى؛ لما فيه من انكسار الشهوة، وانقماع الهوى، فإنه يردع عن الأشر، والبطر، والفواحش، ويهون لذات الدنيا ورئاستها؛ وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن، والفرج، وإنما يسعى الناس لهذين، كما قيل في المثل السائر: المرء يسعى لعارية بطنه وفرجه، فمن أكثر الصوم هان عليه أمر هذين، وخفت عليه مؤنتهما، فكان ذلك رادعًا له عن ارتكاب المحارم والفواحش، ومهونا عليه أمر الرياسة في الدنيا وذلك جامع لأسباب التقوى»(٢).

ويقول في عبادة الحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾[الحج: ٢٧ – ٢٨].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتنكير ﴿مَنَٰفِعَ﴾؛ للتعظيم، المراد منه الكثرة، وهي المصالح الدينية والدنيوية؛ لأنّ في مجمع الحج فوائد جمة للناس: لأفرادهم من الثواب والمغفرة لكل حاج، ولمجتمعهم؛ لأنّ في الاجتماع صلاحا في الدنيا، بالتعارف والتعامل»(٣).

---

(١) روح المعاني (١٠/ ٣٢٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٢٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٦).

ويقول في الزكاة: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة: ١٠٣].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة، ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ أي: تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم، ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عمومًا، وخصوصًا عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم، ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم»[(١)].

ويقول في عبادة الذكر: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وفي الذكر أكثر من مائة فائدة:

إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره.

الثانية: أنه يرضي الرحمن.

الثالثة: أنه يزيل الهم والغم عن القلب.

الرابعة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.

الخامسة: أنه يقوي القلب والبدن.

السادسة: أنه ينور الوجه والقلب.

السابعة: أنه يجلب الرزق.

الثامنة: أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٥٠).

التاسعة: أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام، وقطب رحىٰ الدين، ومدار السعادة..»[(١)].

ويقول تعالىٰ في عبادة الاستغفار خاصة: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[نوح: ١٠-١٢].

ويقول في عبادة التوكل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق: ٣].

ويقول في عبادة الجهاد: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الأنفال: ٣٩].

ويقول في عبادة الدعوة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[النحل: ١٢٥].

فالقرآن الكريم قد بيّن أصول العبادات ثم أحال إلىٰ تفاصيلها في السنة، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الحشر: ٧].

وهكذا نجد أنّ القرآن الكريم يقرّر أصول العبادات، ويوضح كيفيّتها، ويجلي مقاصدها، ويبيّن أنها رسالة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ إلىٰ الأمم السابقة، وسبيل النجاة في الدار الآخرة.

---

(١) الوابل الصيب (ص: ٤١).

المجال الثالث

هدايات القرآن الكريم في مجال الأخلاق والآداب

الأَخْلاَق في اللغة مأخوذة من الخَلْق: وهو بسكون اللاّم وضمها، السجيّة، وفلان يَتَخَلّق بغير خُلُقِه، أي: يتكلّفه[١].

وهي في الاصطلاح: عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر؛ من غير حاجة إلىٰ فكر ورويّة[٢].

وقد شرحها الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلًا وشرعًا بسهولة، سميت الهيئة: خُلُقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خُلُقًا سيئًا، وإنما قلنا: إنه هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال علىٰ الندور بحالة عارضة لا يقال: خُلُقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال: خُلُقه الحلم، وليس الخُلُق عبارة عن الفعل، فرب شخصٍ خلقه السخاء، ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خُلُقه البخل وهو يبذل، لباعث أو رياء»[٣].

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ -عن الخلق-: «الدِّين، والطَّبْع، والسجيّة، وحقيقته: أنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي: نفسه، وأوصافها، ومعانيها

(١) مختار الصحاح (ص: ٩٥).

(٢) التعريفات (ص: ١٠١).

(٣) المصدر السابق.

المختصة بها، بمنزلة الخُلُق لصورته الظاهرة، وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب مما يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة، أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حُسن الخُلُق في غير موضع»(١).

وقد جاء القرآن الكريم لتقرير هذا الأصل من عدة جوانب، وبهدايات متنوعة، منها:

أنّ القرآن الكريم قد أمر بجميع مكارم الأخلاق جملة، حينما مدح النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتحليه بها، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤] مع الأمر باتباعه والاقتداء به، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٢١]، ونصّ علىٰ طائفة من الأخلاق والآداب، ومنها:

الصبر: وهو من أكثر الأخلاق التي اعتنىٰ بها القرآن الكريم؛ لذا تكرر ذكره في مواضع كثيرة.

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعًا»(٢).

وقد تنوّعت هدايات الحث علىٰ الصبر في القرآن الكريم، ومن ذلك:

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٧٠).

(٢) ينظر: التفسير القيّم (ص: ١٠٤).

• الأمر الصريح به، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [النحل: ١٢٧].

• النهي عما يضاده، كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [القلم: ٤٨].

• تعليق الفلاح به، كقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور التي إنما تجتمع كلها بالصبر.

• الإخبار بعظيم أجر الصابرين ومضاعفته علىٰ غيره، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤].

• تعليق الإمامة في الدين به، وباليقين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين[(١)].

ومنها الصدق: وكذلك تنوعت طرائق الهداية إليه، ومنها:

• الأمر الصريح بالصدق كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

• الثناء علىٰ الصادقين، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ

---

(١) عدّة الصابرين، لابن القيم (ص: ٧٢).

وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[الأحزاب: ٣٥].

• التحذير الشديد من ضده وهو الكذب، كما في آيات كثيرة، ومنها قوله تعالىٰ:﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾[النحل: ١٠٥].

• بيان عاقبة الصادقين، كما في قوله تعالىٰ:﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[المائدة: ١١٩].

ومن الأخلاق والآداب: **الحض علىٰ الإحسان بمعناه العام.**

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«والإحسان فضيلة مستحب، وذلك كنفع الناس بالمال، والبدن، والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتىٰ إنه يدخل فيه الإحسان إلىٰ الحيوان البهيم المأكول، وغيره»(١).

وقد تنوعت طرق الهداية إليه، ومنها:

• الأمر بالإحسان في كل شيء، كما في قوله سبحانه:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[النحل: ٩٠].

• بيان محبة الله تعالىٰ للمحسنين، كما قال تعالىٰ:﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[البقرة: ١٩٥].

• بيان فضل الإحسان وعاقبته في الدنيا والآخرة، فقال تعالىٰ:﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[الأعراف: ٥٦].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٤٧).

• تأكيد الإحسان إلى أصناف من الناس، فقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾[النساء: ٣٦] .

وأمر بخلق الأمانة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[النساء:٥٨].

• ونهى عن ضدها، وهي الخيانة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[الأنفال: ٢٧].

• وبيّن صفات المفلحين وذكر منها الأمانة، وكرّر الآية في موضعين من القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، [المعارج: ٣٢].

• وبيّن أن تحمل جلائل الأمانات من خصائص هذا الإنسان، فقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾[الأحزاب: ٧٢].

وحث على خلق التواضع ونهى عن التكبر، فقال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الحجر: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[الفرقان:٦٣].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين»(١).

---

(١) معالم التنزيل (٦/ ٩٣).

• وبيّن أنّه من الصفات التي يحبها الله تعالىٰ، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[المائدة: ٥٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه صفات المؤمنين الكمّل، أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا علىٰ خصمه وعدوه، كما قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾[الفتح: ٢٩].

• وقال سبحانه: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾[القصص: ٨٣].

قال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ: أي تكبرًا وطغيانًا لا رفعة المنزلة، فإن إرادتها جائزة»[١].

وحثّ علىٰ خلق الرحمة في آيات كثيرة، وبهدايات متنوعة:

• منها أنّه وصف صفوة خلقه، وخاتم رسله، بهذه الصفة التي ملك بسببها القلوب، فعبّد الخلق لعلاّم الغيوب، فقال سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾[آل عمران: ١٥٩]، بل وصف رسالته كلها بالرحمة للعالمين، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

• ومنها ثناء الله تعالىٰ علىٰ المتّصفين بالرَّحْمَة، فقد قال تعالىٰ واصفًا رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه الذين معه: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾[الفتح: ٢٩].

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٢٠).

• ومنها بيان أنّها سبب في النجاة ودخول الجنات، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١١-١٨].

ومن الأخلاق والآداب: **أنّه أمر بحسن الظن واجتناب سيّئه**، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي كونوا علىٰ جانب منه، وذلك بأن تظنوا بالناس سوءًا، فإن الظانّ غير محقق، وإبهام (الكثير) لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه، إذ لا داعية تدعو المؤمن للمشي وراءه، أو صرف الذهن فيه، بل من مقتضىٰ الإيمان ظنّ المؤمنين بأنفسهم الحسن، قال تعالىٰ: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]»[١].

وأمر بإقامة العدل وحثَّ عليه، ومدح من قام به، وذلك في آيات كثيرة منها؛ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

---

(١) محاسن التأويل (٨/ ٥٣٤).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين أن يكونوا قوّامين بالقسط، أي: بالعدل، فلا يعدلوا عنه يمينًا ولا شمالًا ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه»[(١)].

كما حذّر من الحسد وأمر بالاستعاذة منه، فقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١-٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة، وكثيرًا ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر؛ للمناسبة، ولهذا كان اليهود أسحر الناس وأحسدهم، فإنهم لشدة خبثهم فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم»[(٢)]؛ لذلك قال عنهم وعن غيرهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النساء: ٥٤].

وأشار إلىٰ أنه أول ذنب عصي الله به في السماء، حين امتنع إبليس من السجود لآدم؛ حسدًا له علىٰ هذا الإكرام، فاعترض بما حكاه الله تعالىٰ عنه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، كما أنه أوّل ذنب عصي الله به في الأرض كما في قصة ابني آدم، حيث قال تعالىٰ:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣٣).

(٢) التفسير القيم (ص: ٦٤٢).

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧].

ذكر ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سبب القتل أنه قال: «فحسد أخاه عند ذلك فقال: لأقتلنّك! قال: إنما يتقبل الله من المتقين»[١].

فهذه بعض الأخلاق والآداب التي هدىٰ إليها القرآن الكريم ونهىٰ عن أضدادها، واستيعابها مما يخرج عن المقصود من هذه العجالة، فما من خُلُق كريم إلّا وقد أمر الله تعالىٰ به في كتابه، وحث عليه، ورغّب فيه، وبين أنّه من صفات الصفوة من عباده، وما من خلق ذميم إلا وحذر منه، ونهىٰ عنه، وبيّن أنه من صفات الأشقياء من خلقه.

(١) جامع البيان (١٠/ ٢٠٧).

المجال الرابع

هدايات القرآن الكريم في مجال المعاملات

المُعامُلات: جمع مُعامَلة؛ وهي مأخوذة من العَمَل، وهو لفظ عام في كل فعل يقصده المكلّف.

وهي في الاصطلاح: الأحكام الشرعية المتعلقة بأمور الدنيا سواء تعلقت بالأموال أو النساء.

قال ابن عابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمعاملات خمسة: المعاوضات المالية، والمناكحات، والمخاصمات، والأمانات، والتَرِكات»[(١)].

وقد اشتمل القرآن الكريم على كل الهدايات في مجال المعاملات بأنواعها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والقضائية، إما تنصيصًا، أو تأصيلًا.

ففي المعاملات الاجتماعية: أمر بالتعاون والتناصر والتناصح، فقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[التوبة:٧١] ونهى عن التنازع، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الأنفال: ٤٦]، وأمر بالإصلاح بين المؤمنين، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[الحجرات:١٠]، وحرم القتل، وجعله من أعظم الذنوب، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ

(١) حاشية ابن عابدين (١/ ٧٩).

﴿خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾[النساء: ٩٣]، وحذر من ذلك أشد التحذير فقال تعالىٰ: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾[المائدة:٣٢]، وشرع القصاص إحياء للمجتمع، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٩]، وشرع حدّ الحرابة إبقاء علىٰ الأمن والاستقرار، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة:٣٣]، ثم أمر بالنكاح لتكاثر المجتمع وتقويته وطمأنينته، فيقول تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم: ٢١].

قال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: جعل بينكم بالزواج الذي شرعه لكم، توادًا، وتراحمًا، من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة، ولا مرابطة مصححة للتعاطف، من قرابة أو رحم.. ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾: في تضاعيف تلك الأفاعيل المبنية علىٰ الحكم، والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله، مع التنبيه علىٰ أن ما ذكر ليس بآية فذة، بل هي مشتملة علىٰ آيات شتىٰ، وإنها تحتاج إلىٰ تفكر كما تؤذن بذلك الفاصلة، وذكر الطيبي: أنه لما كان القصد من خلق الأزواج، والسكون إليها، وإلقاء المحبة بين الزوجين، ليس مجرد قضاء الشهوة التي يشترك بها البهائم، بل تكثير النسل وبقاء نوع المتفكرين الذين

يؤديهم الفكر إلىٰ المعرفة والعبادة التي ما خلقت السماوات والأرض إلا لها»[١].

وحرم الفواحش التي تقوض هذا المقصد، ونهىٰ عن مقدماتها وإشاعتها، وشرع العقوبة علىٰ مقترفها، فشرع حد الزنا، وحد القذف، كل ذلك للمحافظة علىٰ أفراد المجتمع، ثم راعىٰ المحافظة علىٰ مصلحة العقل فحرم الخمر، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]، والخمر أم الخبائث وسبب أكثر الأمراض الاجتماعية؛ لذلك قال ﷺ: «الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر، من شربها وقع علىٰ أمه، وخالته، وعمته»[٢].

وفي المعاملات الاقتصادية: أحل الطيبات، وحرم الخبائث، فقال تعالىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، ونهىٰ عن الإسراف، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وأمر بالقصد في الإنفاق، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ

(١) روح المعاني (١١/ ٣٢).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ١٦٤)، برقم: (١١٣٧٢) و(١١٤٩٨)، وحسّنه الألباني بطرقه كما في السلسلة الصحيحة، برقم: (١٨٥٣).

يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء: ٢٩]، ونهىٰ عن الاكتناز وأمر بالصدقات، فقال تعالىٰ:﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: ٣٤]، وحرم الربا، فقال تعالىٰ:﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢٧٥]، وبيّن حرمة أكل أموال الناس بالباطل، فقال تعالىٰ:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[النساء: ٢٩]، وهذا عموم يشمل جميع الوجوه المحرمة، وأمر بكتابة الدَّين، وتوثيق العقود، والإشهاد في البيع سدا لباب الخصومة، فقال تعالىٰ:﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾[البقرة: ٢٨٢]، وفي كل ذلك يربط المعاملات بالإيمان والأخلاق، فيبدأ أكثر الخطابات بلفظ (الإيمان) ثم يلفت في أثنائها إلىٰ صفة من الصفات القويمة، والأخلاق الرفيعة.

وفي المعاملات السياسية: ذكر الملك، ومدح ما كان منه بحق، كما عند الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين، فقال تعالىٰ:﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٥٤]، وذكر طالوت، واصطفاءه للملك لعلمه وصلاحه وقوته، مشيرًا إلىٰ مقومات الولاية، فقال تعالىٰ:﴿وَقَالَ لَهُمْ

﴿نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٤٧]، وبعده داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث قال تعالىٰ:﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾[البقرة: ٢٥١]، ثم سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال تعالىٰ:﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[النمل: ١٦]، وذكر ذا القرنين الذي مكَّن الله تعالىٰ له في الأرض، فحكم بالعدل، فقال تعالىٰ:﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[الكهف: ٨٤].

وفي مقابل ذلك ذم القرآن الكريم الملك الظالم، مثل الذي حاجَّ إبراهيم -عَلَيْهِ السَّلَامُ- في ربه أن آتاه الله الملك، ومثل فرعون الذي قال تعالىٰ في شأنه:﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٤].

وذكر الاستخلاف والتمكين وبيّن شروطه، كما في قوله تعالىٰ:﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وبيّن الحقوق والواجبات علىٰ الحاكم والمحكوم، فقال تعالىٰ:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ

نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[النساء: ٥٨-٥٩].

وهاتان الآيتان هما أساس الولاية؛ ففي الآية الأولىٰ: بيان الواجبات علىٰ الحاكم، وفي الثانية: بيان الواجبات علىٰ المحكوم.

وأرسىٰ مبدأ الشورىٰ فقال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وغيره ﷺ أولىٰ بهذا الأمر مع عدم العصمة، وعدم التأييد بالوحي؛ لذلك وصف به المؤمنين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٨].

وبيّن العلاقة بين المسلمين وغيرهم، وأحوال السلم، والحرب، والأمان، والعهد، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الأنفال:٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾[التوبة: ٦].

وتفاصيل هدايات القرآن الكريم في المجال السياسي يطول ذكرها، فالمقصود الإشارة إلىٰ تحقيق القرآن الكريم لهذا المجال من الهدايات، وتفصيل ذلك في مظانه.

وفي المعاملات القضائية: أمر بتنصيب الحكام والقضاة بين الناس وأمرهم بالعدل الذي هو مقتضىٰ الشرع، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾[النساء: ٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم

﴿بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وبيّن أن القضاء من عمل الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ترغيبًا فيه، فقال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال في رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، إلى آخر ما جاء في هذا الباب الواسع الشعب.

المطلب الثاني

المجالات المختلف فيها

وهي المجالات العلمية، وهذا الموضوع يدرس في «علم الإعجاز القرآني»، وهو يتنوع إلىٰ أنواع كثيرة، منها: الإعجاز العلمي في مجال العلوم الكونية، ومجال علوم الأنفس.

والسؤال المشهور هو:

هل نزل القرآن؛ لتحقيق هداية الإنسان، وبيان القدر الذي يفيده في الآخرة؟ أم أنّه فصّل في جميع العلوم الدنيوية، والمكتشفات العصرية؟

ولتحرير هذا الموضوع الدقيق نعرض للآراء فيه، ثم نبيّن ما يظهر منها بحسب ما تقتضيه الدلائل، والخلاف في هذا الموضوع علىٰ مذهبين رئيسين:

أولهما: مذهب من يرىٰ أنّ القرآن الكريم فيه بيان لكل علم وصل إليه الإنسان، أو سيصل إليه إلىٰ قيام الساعة؛ استدلالًا بالعموم في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[النحل: ٨٩]، وبالكثير من الآيات التي تتحدث عن حقائق الكون والإنسان.

وفي ذلك يقول الغزالي: «وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته، وأفعاله، وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلىٰ مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلىٰ فهم القرآن، ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلىٰ ذلك، بل كل ما

أشكل فيه علىٰ النظار، واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات، ففي القرآن إليه رموز، ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها»[(١)].

وقال مصطفىٰ صادق الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وللقرآن وجه اجتماعي من حيث تأثيرُه في العقل الإنساني، وهو معجزة التاريخ العربي خاصة، ثم هو بآثاره النامية، معجزة أصلية في تاريخ العلم كلّه، علىٰ بسيط هذه الأرض، من لدُن ظهر الإسلام إلىٰ ما شاء الله، لا يذهب بحقها اليوم أنها لم تكن قبلُ إلا سببًا، فإن في الحق ما يَسعُ الأشياء، وأسبابها جميعًا.. ولعل متحققًا بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن وأحكم النظرَ فيه وكان بحيث لا تُعْوِزُهُ أداةُ الفهم ولا يلتوي عليه أمر من أمره.. لاستخرج منه إشارات كثيرة، تومئ إلىٰ حقائق العلوم، وإن لم تبسط من أنبائها، وتدل عليها، وإن لم تسمها بأسمائها، بلىٰ وإن في هذه العلوم الحديثة علىٰ اختلافها لعونًا علىٰ تفسير بعض معاني القرآن، والكشفِ عن حقائقه»[(٢)].

وقال الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القرآن الكريم يحض علىٰ الانتفاع بالكون.. اقرأ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣]، قل لي بربك!! ألا يمتلكك العجب حين تقرأ هذا النص القرآني الذي يتفق وأحدث الكشوف العلمية في الظواهر الكونية؟.. فأثبتوا العلم أولًا، ووفروا له الثقة، حققوه، ثم اطلبوه في القرآن فإنكم لا شك يومئذ واجدوه»[(٣)].

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٩).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص: ٨١).

(٣) مناهل العرفان (٢/ ٣٥٧).

والأقوال في تقرير هداية القرآن إلىٰ العلوم الكونية كثيرة، وهو ما عليه أكثر المعاصرين.

وأما المذهب الثاني: فهو مذهب الرافضين للإعجاز العلمي في القرآن، فهم يرون أنّ القرآن الكريم إنّما جاء للهداية الموصلة إلىٰ الله تعالىٰ، دون تفاصيل العلوم الدنيوية، وهم بين مانع للدليل الدال عليه، وبين متخوف علىٰ مصداقية القرآن؛ نتيجة لعدم ثبات كثير من النظريات العلمية.

ولعلّ من أشهر من يمثل هذا المذهب هو الإمام الشاطبي حيث بيّن: «أنّ كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوىٰ علىٰ القرآن الكريم الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين، من علوم الطبيعيات، والتعاليم[١]، والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه علىٰ ما تقدم لم يصح، وإلىٰ هذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم، كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه، وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدّعىٰ»[٢].

قال الشيخ محمود شلتوت رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«إن طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث، وتلقّنوا، أو تلقفوا شيئًا من النظريات العلمية، والفلسفية، والصحية، وغيرها، أخذوا يستندون إلىٰ ثقافتهم الحديثة، ويفسرون القرآن علىٰ مقتضاها.

---

(١) أي: الرياضيات والهندسة، كما في هامش الموافقات (٢/ ١٢٧).

(٢) الموافقات (٢/ ١٢٧).

نظـروا في القرآن فوجـدوا الله تعالىٰ يقـول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعـام:٣٨]، فتأوّلوهـا علىٰ نحوٍ زين لهـم أن يفتحوا في القـرآن فتحًا جديدًا، ففسـروها علىٰ أساس من النظريات العلمية المسـتحدثة، وطبقـوا آياته علىٰ مـا وقعوا عليه مـن قواعد العلـوم الكونية، وظنوا أنهم بذلـك يخدمون القرآن، ويرفعـون مـن شـأن الإسـلام، ويَدْعُون لـه أبلغ دعايـة في الأوسـاط العلمية والثقافية.

نظـروا في القـرآن علـىٰ هذا الأسـاس، فأفسـد ذلـك عليهـم علاقتهم بالقـرآن، وأفضىٰ بهـم إلىٰ صور مـن التفكيـر لا يريدها القـرآن، ولا تتفق مع الغـرض الـذي من أجلـه أنزله الله، فـإذا مرت بهـم آية فيهـا ذكـرٌ للمطر، أو وصف للسـحاب، أو حديث عـن الرعد والـبرق، تهلّلوا واستبشـروا، وقالوا: هذا هو القـرآن يتحدث إلىٰ العلمـاء الكونيين، ويصف لهـم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسـحاب، وكيف ينشـأ؟ وكيف تسـوقه الرياح؟ وإذا رأوا القـرآن يذكـر الجبـال، أو يتحدث عـن النبات والحيـوان، وما خلـق الله من شـيء، قالـوا: هذا حديـث القرآن عن علـوم الطبيعة، وأسـرار الطبيعـة، وإذا رأوه يتحـدث عن الشـمس والقمر، والكواكـب والنجوم، قالـوا: هذا حديث يثبـت لعلماء الهيئـة والفلكيـين أن القرآن كتاب علـم دقيق»[١].

ويقـول محمد الصـادق عرجـون رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يجمـل بنـا أن نطلب من القـرآن أن يشـرح لنا نظريـات العلـم، والتحـدث في تركيب الأشـياء، وبيان جزيئاتها وأشـكالها، وما يطـرأ عليها من تغيير كيميائـي أو طبيعي، كما تتحدث

(١) تفسير القرآن الكريم، لشلتوت (ص: ١١-١٣).

كتب الكيمياء، والفلك، وطبقات الأرض، لأن القرآن كتاب عقيدة، وهداية، وعبر، وتهذيب للنفوس، وتطهير للأرواح والقلوب.. فإذا عرض لشيء من الآيات الكونية، فإنما يعرض لها باعتبارها مصدر هداية إلىٰ عظمة الكون؛ لنصل علىٰ ضوئها إلىٰ تعظيم الله خالق الكون..»(١).

ومن خلال النظر في هذين المذهبين، والتنازع القوي بين الرأيين، وأن غاية الفريقين تعظيم القرآن الكريم، يمكننا الخروج بقول يؤلف بينهما، ويدفع مآخذ كلّ منهما، ويحقق المصالح التي ينشدها الفريقان، وهي هداية القرآن للناس أجمعين، وبقاء تجليات هذه الهداية إلىٰ يوم الدين، فنقول:

لا شك أن القرآن الكريم كتاب هداية، وتشريع يخاطب العالم في جميع الأزمنة والأمكنة؛ لتحقيق هذه الهداية، وهو هدفه الأسمىٰ كما سبق، ولم ينزل أصالة لبيان تفاصيل العلوم بجزئياتها، وإلا لأوضحها وبينها بأدل عبارة، كما بين الأحكام بقسميها العقدي والتعبدي، وكما بين القدر الهادي من الأخبار السابقة واللاحقة.

ومع ذلك فهذا لا يمنع من وجود إشارات كلية، ودلائل إجمالية علىٰ بعض العلوم، يفهم معانيها المتقدمون، وقد يصل إلىٰ حقائقها المتأخرون، وهو ما يسعىٰ إليه المتحدثون عن الإعجاز العلمي.

وفي ذلك يقول الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز علىٰ الخلق، قد حاكم الناس إلىٰ عقولهم، وفتح عيونهم إلىٰ الكون وما في الكون من سماء وأرض، وبر وبحر، وحيوان ونبات،

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين (ص: ٢٦٠) وما بعدها.

وخصائص وظواهر، ونواميس وسنن، وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقا كل التوفيق، بل كان معجزا أبهر الإعجاز؛ لأنّ حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها، الخبير بدقائقها، المحيط بعلومها ومعارفها»[1].

وذلك كالحديث عن الكواكب والنجوم كما في قوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[الفرقان: ٦١]، ومراحل تكون الإنسان كما في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

وإنّ القرآن الكريم في كلامه عن القضايا الكونية إنما أراد لفت النظر إلىٰ ملكوت السموات والأرض، وتعميق الإيمان بالله تعالىٰ، وهي تُحقّق أنواعا من الهدايات المتنوعة، كالإقرار بوحدانية الله تعالىٰ كما في قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[فصلت: ٥٣].

وكالاستدلال بهذه المشاهدات علىٰ الغيبيات، ونلحظ ذلك حينما يذكر الله تعالىٰ آياته المبصرة في السماء والأرض والأنفس ثم يلفت قلب المؤمن إلىٰ أن ما أخبرك به من المغيبات يجب الإيمان به كالذي تراه من المشاهدات، فيقول سبحانه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[الذاريات: ٢٠ – ٢٣].

---

(١) مناهل العرفان (١/ ٢٥-٢٦).

قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما أقسم بما له من المقدورات لمن وقف مع المحسوسات المشهورات، فترقوا بذلك إلىٰ أعلىٰ الدرجات، وانكشف ما له من الكمال انكشافًا تامًا، وعلم أن في خزائنه سبحانه كل ما أخبرت عنه به الرسل، من وعد ووعيد، سبب عنه قوله مقسمًا بنفسه الأقدس، لكن بصفة مألوفة، فقال: ﴿فَوَرَبِّ﴾ أي: مبدع ومدبر ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بما أودع فيهما مما علمتموه، وما لم تعلموه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الذي توعدونه من الخير والشر والجنة والنار»[1].

ومثله الافتقار والتعبد لله تعالىٰ، والتواضع حينما يعلم كيفية خلقه وحقيقة أصله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ – ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ – ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٧٧].

ومنه الإقرار بالبعث، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٩).

﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾[القيامة: ٣٦-٤٠].

ولا بد أن يخضع هذا النوع من الإعجاز لقواعد وضوابط ومنهج الاستنباط المقرر في علوم القرآن، بعد التيقن من ثبوت الحقيقة العلمية من قبل المختصين(١)، ولا يكفي مجرد معرفة طرف من هذه العلوم ثم محاولة إسقاط القرآن عليها كما يفعله بعضهم، وهو من أهمّ تخوفات المانعين لهذا النوع من الإعجاز، ولإهمال هذا الأصل وقعت بعض التكلفات التي ينبغي تجنيبها عن القرآن، من نحو قولهم بنظرية الانفجار العظيم، وهي مجرد نظرية، يقول المنكرون لدلالة القرآن عليها: إنّه لا سبيل إلىٰ إثباتها بأي وسيلة من وسائل العلم الحديث(٢).

ثم الاستدلال لها بقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[الأنبياء: ٣٠]، فظاهر الآية إنما يبيّن كيفيّة خلق السموات والأرض التي فصلت في آيات أخرىٰ كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ

(١) ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، لعبدالله المصلح، وعبد الجواد الصاوي (ص: ٣١).

(٢) ومفادها أن الكون بدأ قبل خمسة عشر مليار سنة تقريبًا، بكتلة واحدة، ثم انفجرت وتشتتت في أرجاء الكون، ومنها تكونت المجرات، والنجوم، والكواكب. ينظر: نقد النظريات الكونية، لمحمد الإمام (ص: ٨٢).

﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[فصلت: ٩ – ١٢].

وكالاستدلال علىٰ حركة الأرض بقوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾[النمل: ٨٨]، وهي آية تتحدث عن يوم القيامة ومرحلة من مراحل نسف الجبال، كما قال تعالىٰ: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾[النبأ: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾[القارعة: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾[طه: ١٠٥]، فكلها متسقة متآلفة في تصوير ذلك اليوم العظيم[١].

إذن فهذا العلم له أصله الشرعي والواقعي بضوابطه، كما أنّ له فوائد عديدة سبقت الإشارة إليها، منها:

- زيادة اليقين علىٰ وحدانية الله تعالىٰ، وتعميق الإيمان به سبحانه، وتقديره وتعظيمه.
- الشهادة الإضافية علىٰ صدق القرآن، وصدق رسالة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، حينما تثبت تلك الحقائق في زمان لم تكن فيه أدوات إثباته.
- وهو وسيلة لدعوة غير المسلمين في زمان سادت فيه لغة العلم، وتكشفت فيه معالم كثير من الظواهر.

وغيرها من الفوائد الكثيرة، والله أعلم[٢].

(١) ينظر: الفرقان في بيان إعجاز القرآن، لعبدالكريم الحميّد (ص: ٣٢١).

(٢) للتوسع في ذلك، ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (ص: ٣٥).

المبحث الثالث

حال الناس مع الهدايات القرآنية

حال الناس مع الهدايات القرآنية

تمهيد:

لقد شاء المولىٰ سبحانه، ومضت سنته تعالىٰ؛ وفقًا لحكمته الباهرة، وعلمه التام، وعدله اليقين: انقسام الناس في كل شيء، واختلافهم في كل أمر، فخلق الله تعالىٰ الفرح والحزن، والليل والنهار، والأبيض والأسود.. ونحوها، فقد أخرج الترمذي في سننه من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّ الله تعالىٰ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم علىٰ قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحَزْنُ، والخبيث والطيب»[(١)].

قال الطيبي: «ولما كانت الأوصاف الأربعة من الأمور الظاهرة في الإنسان والأرض، أُجريت علىٰ حقيقتها، وتركت الأربع الأخيرة مفتقرة إلىٰ تأويل؛ لأنّها من الأخلاق الباطنة، فإن المعني بـ(السهل) الرفق واللين، وبـ(الحَزْنِ) الخرق والعنف، وبـ(الطَّيِّب) الذي يعني به الأرض العذبة: المؤمن الذي هو نفع كله، وبـ(الخبيث) الذي يراد به الأرض السبخة: الكافر الذي هو ضر وخسران في الدارين»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، برقم: (٢٩٥٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأبو داوود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، برقم: (٤٦٩٣)، وأحمد في مسنده (٣٢/ ٣٥٣)، برقم: (١٩٥٨٢)، وصحّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي، والأرناؤوط في تحقيقه لأبي داود.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي (٢/ ٥٦٤). وينظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري (٨/ ٢٣٤).

فاختلاف الناس في كل شيء سنّة إلهية، ومنه اختلافهم في أصل الهداية إلىٰ مهتد وضال، إلىٰ طائع وعاص، إلىٰ مؤمن وكافر به، كما دلّت نصوص القرآن الكريم علىٰ ذلك، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾[هود: ١١٨].

يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو شاء ربك يا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجعل الناس كلها جماعة واحدة علىٰ ملة واحدة، ودين واحد.. ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم وأهوائهم، علىٰ أديان وملل وأهواء شتىٰ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ فآمن بالله وصدق رسله، فإنهم لا يختلفون في توحيد الله، وتصديق رسله، وما جاءهم من عند الله»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٩٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[الشورىٰ: ٨].

وهكذا حال الناس مع القرآن:

فريق آمن به، وصدّق ما جاء فيه، فآمن بمقتضياته ولوازمه من الاتباع والتصديق، والعلم والعمل، فاهتدىٰ بهديه، واستنار بنوره ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١٧٤]، فكان من المتقين ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ١، ٢].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٥٣٤).

وفريق كفر به، ولم يؤمن بما جاء فيه من الآيات والبينات والهدىٰ والنور المبين، واستحب الضلالة علىٰ الهداية، والغواية علىٰ الإيمان ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[النحل: ٣٣].

يقول الله تعالىٰ في بيان انقسام الناس إلىٰ مهتد وضال في الهداية بالقرآن: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾[يونس: ١٠٨]، ويقول سبحانه: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾[الإسراء: ١٥]، ويقول تعالىٰ: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾[النمل: ٩٢]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[الزمر: ٢٣].

وبيّن تعالىٰ في أكثر من آية أن اتباع القرآن سبب للهداية، والإعراض عنه سبب للشقاوة، يقول تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾[طه: ١٢٣ - ١٢٦].

والذين آمنوا بالقرآن، وصدّقوا به ليسوا كلهم سواء، فهم متفاوتون في تلاوته، وحفظه، والعلم بمضمون آياته، واتباع أوامره واجتنابه نواهيه، فهناك فئام من الناس قد هجروا القرآن الكريم، وخاصة في الأزمنة المتأخرة.

وفي جواب للجنة الدائمة للإفتاء عن سؤال يتعلق بحكم هجر القرآن، أجابت اللجنة بقولها: «أنزل الله القرآن للإيمان به، وتعلمه وتلاوته، وتدبره والعمل به، وتحكيمه والتحاكم إليه، والاستشفاء به من أمراض القلوب وأدرانها، إلىٰ غير ذلك من الحكم التي أرادها الله من إنزاله.

والإنسان قد يهجر القرآن، فلا يؤمن به، ولا يسمعه، ولا يصغي إليه، وقد يؤمن به، ولكن لا يتعلمه، وقد يتعلمه ولكن لا يتلوه، وقد يتلوه ولكن لا يتدبره، وقد يحصل التدبر ولكن لا يعمل به، فلا يحل حلاله، ولا يحرم حرامه، ولا يحكمه، ولا يتحاكم إليه، ولا يستشفي به مما فيه من أمراض في قلبه وبدنه، فيحصل الهجر للقرآن من الشخص، بقدر ما يحصل منه من الإعراض، كما سبق»[(١)].

فهجر القرآن الكريم «**له جانبان؛** أحدهما: يتعلق بالقرآن دون أخذ له، وهذا صنيع الكفار والمنافقين.

والآخر: يتعلق به بعد الإقرار بأنه كلام الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا صنيع بعض المسلمين الذين لا يقرؤون القرآن، أو يقرؤونه لا يجاوز حناجرهم، فلا يعملون به، ومن هؤلاء صنف يحفظ القرآن، أو شيئًا منه، ثم يهجر القراءة، حتىٰ ينسىٰ ما قد يكون حفظه منه»[(٢)].

---

(١) فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٤/ ١٠٣)، فتوىٰ رقم: (٨٨٤٤).

(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، لعدد من المختصين بإشراف الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد (١١/ ٥٦٩١).

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره أن هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

الثالث: هجر تحكيمه، والتحاكم إليه.

والرابع: هجر تدبره، وفهمه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

وكل ذلك داخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾[الفرقان:٣٠][١].

وهذه الآية الكريمة وقعها علىٰ النفس شديد، وأثرها في القلب عظيم، فالشاكي هو الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، والذي يُشكىٰ إليه هو رب العالمين جل في علاه، والشكوىٰ: هجر القرآن، «وهذه شكوىٰ عظيمةٌ، وفيها أعظم تخويف لمن هجر هذا القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه من الحلال والحرام، والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزواجر، والقصص، والأمثال»[٢].

وكل ذلك داخل في الهجران، نسأل الله تعالىٰ السلامة والعافية، والستر في الدنيا والآخرة.

---

(١) الفوائد (١/ ٨٢).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٤٨).

ومـن هنـا يظهـر أهمية هـذا المبحـث؛ لمـا فيه مـن تذكيـر للنفوس، وتحذير مـن الوقوع في المحظـور، للوصول إلىٰ الاهتداء بهـذا القرآن العظيم.

وبالنظـر إلـىٰ ما تقـدم فـإن الحديث عن هـذا المبحث سـيكون ضمن أربعـة مطالب:

المطلب الأول: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار الاستماع والتلاوة.

المطلب الثاني: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار التدبر.

المطلـب الثالـث: حـال الناس مـع الهدايـات القرآنيـة باعتبـار العلم والعمـل به.

المطلـب الرابـع: حال النـاس مـع الهدايـات القرآنية باعتبـار التداوي والاستشـفاء به.

وهـذه المطالـب؛ كل واحـد منها تحتـاج إلىٰ مجلـدات للحديـث عنها وبيانهـا بالتفصيل، لكن يكفي مـن القلادة ما أحـاط بالعنق، وأتمثـل فيها ما قاله الإمـام الزركشـي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما تحدث عن أنـواع علوم القرآن ختـم ذلك بقوله:

«واعلـم أنه ما من نوع من هذه الأنواع، إلّا ولو أراد الإنسـان استقصاءه لاسـتفرغ عُمُره، ثـم لم يُحكم أمرَه، ولكـن اقتصرنا من كل نـوع علىٰ أصوله، والرمـز إلـىٰ بعض فصولـه، فإن الصناعـة طويلـة، والعمر قصير، ماذا عسـىٰ يبلغ لسـان التقصير.

قالـوا: خـذ العيـن مـن كلٍّ، فقلت لهـم: في العيـن فضل، ولكـن ناظر العين»[(١)].

هذا والله أسأل التوفيق والسداد، والإخلاص والقبول والرشاد..

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٢).

المطلب الأول
حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار الاستماع والتلاوة

أنزل الله تعالىٰ كتابه علىٰ نبيه ومصطفاه ﷺ، وأمره بالاستماع إليه، والقيام بحقه، من التلاوة والحفظ والإتقان، للوصول إلىٰ الهداية التي أرادها الله تعالىٰ، والتي من أجلها أنزل كتابه علىٰ الناس، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فتعليق الرحمة هنا بالاستماع لآيات القرآن، والإنصات لها، دليل علىٰ أهميّة هذا الأمر في الاهتداء بهدي القرآن، وقد علم المشركون هذا الأمر فكانوا يتواصون بعدم سماعه، واللغو فيه، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

والهداية بالقرآن الكريم لا تتحقق بمجرد إعمال حاسة السمع، لذا ذكر الله تعالىٰ الاستماع والإنصات ليشمل: سمع الأذن، ووعي القلب، وإدراك العقل، وإجابة الجوارح.

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث، أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه، ويتدبر ما يستمع.

فإن من لازم علىٰ هذين الأمرين حين يتلىٰ كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا، وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدىٰ متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتّب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك علىٰ أن من تُلِي

عليه الكتاب فلم يستمع له وينصت، أنّه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير»[١].

وفي دراسة قيّمة لابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن السماع وأهميته يقول: «فالسماع أصل العقل، وأساس الإيمان الذي انبنىٰ عليه، وهو رائده وجليسه.. وحقيقة السماع: تنبيه القلب علىٰ معاني المسموع، وتحريكه عنها طلبًا وهربًا، وحبًا وبغضًا..»[٢].

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان السماع الذي مدحه الله في كتابه، وأمر به وأثنىٰ عليه: «فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه، وهو علىٰ ثلاثة أنواع:

- سماع إدراك بحاسة الأذن.
- وسماع فهم وعقل.
- وسماع فهم وإجابة وقبول.

والثلاثة في القرآن.. والمقصود أن سماع خاصَّة المقربين هو: سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفهمًا، وتدبرًا، وإجابةً، وكل سماع في القرآن الكريم مدح الله أصحابه وأثنىٰ عليهم، وأمر به أولياءه، فهو هذا السماع.. فهذا السماع حاد يحدو القلوب إلىٰ جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلىٰ ديار الأفراح، ومحركٌ يثير ساكن العزمات إلىٰ أعلىٰ المقامات، وأرفع الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليلٌ يسير بالركب في

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣١٤).

(٢) مدراج السالكين (١/ ٤٧٧).

طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح، من قِبل فالق الإصباح: حي علىٰ الفلاح، حي علىٰ الفلاح.

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة علىٰ رشد، وردًّا علىٰ ضلالة، وإرشادًا من غي، وبصيرة من عمىٰ، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلىٰ نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوىٰ، وحثًّا علىٰ تقىٰ، وجلاءً لبصيرة، وحياةً لقلب، وغذاءً ودواءً وشفاءً، وعصمة ونجاةً، وكشفَ شبهةٍ، وإيضاح برهانٍ، وتحقيقَ حقٍّ، وإبطالَ باطل..»[١].

وكما أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده بالاستماع والإنصات، أمر الله نبيه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والناس من بعده بتلاوة القرآن، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾[الكهف:٢٧]، وقال سبحانه: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾[النمل: ٩١، ٩٢]، وقال سبحانه: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[المزمل: ٢٠].

ففي هذه الآيات ومثيلاتها أمر من الله تعالىٰ لنبيه بأن يتلو القرآن، وهذا الأمر يشمل أمته من بعده عليه الصلاة والسلام، والأمر هنا بـ: ﴿ٱتْلُ﴾ «شامل للتلاوة بمعنىٰ القراءة، والتلو بمعنىٰ الاتباع»[٢].

(١) مدراج السالكين (١/ ٤٨٢).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٢٦١).

كذلك أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ عباده الأتقياء الأنقياء الأصفياء بتلاوة القرآن الكريم، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، ففي هذه الآية الكريمة ربط الله تعالىٰ بين تلاوة القرآن والإيمان به.

وتلاوة القرآن الكريم لا بد أن تكون علىٰ مهل وتأمل، كما أمر الله تعالىٰ فقال: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، والترتيل: «هو أن يذكر الحروف والكلمات مُبيَّنةً ظاهرة، والفائدةُ فيه: إنه إذا وقعت القراءة علىٰ هذا الوجه، فَهِم من نفسه معانيَ تلك الألفاظ، وأفهم غيره تلك المعاني، وإذا قرأها بالسرعة لم يَفهم، ولم يُفهِم، فكان الترتيل أولىٰ»[(١)].

وما أجمل ما قاله الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فائدة الأمر بالترتيل، حيث قال: «واعلم أنّه تعالىٰ لما أمره بصلاة الليل أمره بترتيل القرآن[(٢)]، حتىٰ يتمكّن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها، فعند الوصول إلىٰ ذكر الله، يستشعر عظمته وجلالته، وعند الوصول إلىٰ الوعد والوعيد،

---

(١) مفاتيح الغيب (١/ ٦٩).

(٢) هذا علىٰ قول من قال: إنّ الأمر هنا متعلق بقيام الليل، وذهب جماعة من المفسرين إلىٰ أنّ الأمر بالترتيل عام عند تلاوة القرآن الكريم.
وهذا قال عنه ابن عاشور في التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٠): «وهذا أولىٰ؛ لأنّ القراءة في الصلاة تدخل في ذلك».

يحصل الرجاءُ والخوف، وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله، والإسراع في القراءة يدلُّ علىٰ عدم الوقوف علىٰ المعاني؛ لأنّ النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الرُّوحانية، ومن ابتهج بشيء أحب ذكره، ومن أحب شيئًا لم يمُرَّ عليه بسرعة، فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب، وكمال المعرفة»[(١)].

ويقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له»[(٢)].

فالمقصود إذًا من قراءة القرآن علىٰ مهل ورويّة، هو تحقيق ما أراده الله تعالىٰ من إنزال كتابه، وهو: تدبره، والتأثّر بآياته، والعمل به، والاهتداء بهديه، كما قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ١، ٢].

والآيات في هذا الباب كثيرة.

فقراءة القرآن الكريم، وكثرة الاستماع لآياته، سبب من أسباب التأثر به، والاهتداء بهديه، فكلما أكثر المسلم من قراءة القرآن، والاستماع له،

(١) مفاتيح الغيب (٣٠/ ٦٨٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٩٢).

كلما زاد إيمانه، وقوي يقينه، واهتدي بهديه، فالقلوب «لا تضيء ولا تشرق إلا بتلاوة القرآن، والعمل به»(١).

روي عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إن هذا القرآن كائن لكم أجرًا، وكائن لكم ذكرًا، وكائن عليكم وزرًا، فاتبعوا القرآن ولا يتبعكم، فإنه من يتبع القرآن يَهبط به علىٰ رياض الجنة، ومن يتْبعه القرآن يزخّ(٢) في قفاه، فيقذفه في جهنم»(٣).

وأحوال الناس مع تلاوة القرآن الكريم بينها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث المتفق عليه: «إنّ مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كالتمر لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح، وطعمها مر»(٤).

فالمؤمن القارئ للقرآن لا شك في أنه قد طبق مراد الله تعالىٰ في كتابه، واستجاب لأمره، فاستفاد بتلاوته، واهتدىٰ بهديه، وقد كان هدي النبي

(١) موسوعة الأخلاق، لخالد بن جمعة الخراز (ص: ٨٤).

(٢) «الزَّخ»: هو الدفع، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٢٩٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، باب في التمسك بالقرآن، برقم: (٣٤٨٢١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، برقم: (٥٤٢٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، برقم: (٧٩٧).

ﷺ الإكثار من تلاوة القرآن الكريم، في جميع أحواله، وأوقاته، تاليًا لآياته، في نهاره وليله، حال قيامه وقعوده واضطجاعه، في سيره وركوبه.

وقد وصف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هدي النبي ﷺ في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه وبكائه بقوله: «كان له ﷺ حزبٌ يقرؤه، ولا يخل به، وكانت قراءته ترتيلاً لا هذًّا ولا عجلة، بل قراءة مفسَّرةً حرفًا حرفًا، وكان يقطع قراءته آية آية، وكان يمدُّ عند حروف المد.. وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره، وأمر عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقرأ عليه وهو يسمع، وخشع ﷺ لسماع القرآن منه حتىٰ ذرفت عيناه، وكان يقرأ القرآن قائمًا، وقاعدًا، ومضطجعًا، ومتوضئًا، ومُحدِثًا، ولم يكن يمنعه من القراءة إلا الجنابة..»[(١)].

كل ذلك امتثالًا لأمر ربه تعالىٰ، وكذا سار من بعده من الصالحين الأتقياء من الصحابة الكرام، والتابعين العظام، ومن سار علىٰ نهجهم واتبع خطاهم إلىٰ يوم المقام، فكان الصحابة رضوان الله تعالىٰ إذا لقي أحدهم أخاه يقول له: «اجلس بنا نؤمن ساعة»[(٢)]، يعني: نذكر الله تعالىٰ، ولا شك أنّ أعلىٰ مراتب

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٤٦٣ - ٤٧٥).

(٢) أخرج ابن أبي شيبة وغيره عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّه كان يقول لرجل من إخوانه: «اجلس بنا فلنؤمن ساعة، فيجلسان يتذاكران الله ويحمدانه»، وهذا الأثر ذكره البخاري في صحيحه معلّقًا، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام علىٰ خمس..»، وأخرجه مسندا ابن أبي شيبة في مصنفه واللفظ له (٦/ ١٦٤)، برقم: (٣٠٣٦٣)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١/ ٣٦٨)، برقم: (٧٩٦)، ووصله ابن حجر وصححه في (تغليق التعليق) (٢/ ٢١،٢٠).

ذكر الله تعالىٰ هو تلاوة كتابه، وكانوا رضوان الله تعالىٰ من أحرص الناس علىٰ تلاوة القرآن وختمه، ولهم في هذا أحوال وفتوحات ليس هذا مقام ذكرها وإيرادها، كل ذلك استجابة لأوامر الله تعالىٰ، ونبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثمرات استماع وتلاوة القرآن الكريم:

لاستماع القرآن الكريم، وتلاوة آياته - حسب ما أراد الله تعالىٰ - فوائد كبيرة، وثمرات عظيمة، **من أهمها:**

١- حصول المراد من الاهتداء به، والوقاية من سوء العاقبة: إن تلاوة القرآن الكريم، وتشنيف الآذان بالاستماع لآياته أقرب السبل الموصلة للهداية به: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

يقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]»[(١)].

٢- إلقاء السكينة في قلب قارئ القرآن، وذكر الله تعالىٰ لهم في الملأ الأعلىٰ.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالىٰ يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[(٢)].

(١) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه (٣/ ٣٨١)، برقم: (٦٠٣٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن (٦/ ١٢٠)، برقم: (٢٩٩٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن، برقم: (٢٦٩٩).

وهــذا الحديث العظيم اشــتمل علىٰ أربعة خصائص خــصَّ الله تعالىٰ بها أهل القــرآن، **الذين يتلون كتابه ويتدارســونه بينهم:**

الخاصيــة الأولــىٰ: نــزول الســكينة عليهــم، وهي: «الطمأنينــة والراحة النفســية، فلا يصيبهــم ما يملأ قلــوب الآخرين من قلق واضطــراب، وأمراض نفســية وعقد ومخاوف، جعلــت حياة هــؤلاء جحيمًا لا يطــاق»[(١)].

ووقوع الســكينة في القلب مِنّــة من الله تعالىٰ، وفضل عظيم منه ســبحانه، يختص بها عبــاده المؤمنين ليــزدادوا إيمانًا، قال تعالــىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾[الفتح: ٤].

والمراد مــن الســكينة: الطمأنينة والوقار وســكون القلب، وحســن هذا المعنىٰ النووي.

وقيل: الرحمة، قال القاضي عياض: وهذا أليق الوجوه هنا.

وقيل: صفــاء القلب بنــوره وذهاب ظلمته النفســانية، وحصــول الذوق والشوق.

وقيل: السكينة ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمنه ويأمره بالخير[(٢)].

---

(١) ورتل القرآن ترتيلاً، لأنس كرزون (ص: ٢١).

(٢) ينظــر: شــرح صحيح مســلم، للقاضي عيــاض (٨/ ١٩٥)، وشــرح النــووي علىٰ صحيح مســلم (١٧/ ٢١)، ومرقاة المفاتيح شــرح مشــكاة المصابيــح، للملا القــاري (١/ ٢٨٧)، والتحبير لإيضاح معاني التيســير، للأمير الصنعاني (١/ ٦٢٧)، وتحفة الأحوذي شــرح ســنن الترمذي، للمباركفــوري (٨/ ٢١٦).

الخاصية الثانية: تغشاهم الرحمة؛ أي: تغطيهم، والرحمة هنا رحمة الله تعالىٰ [(١)]، «ورحمة الله تعالىٰ خير لهم مما يجمعه أهل الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزخرف: ٣٢] عند ذلك نعلم يقينًا أن ما يجنيه أهل مجلس التلاوة والمدارسة من الخير العظيم لا يوزايه كل شيء يجمعه أهل الدنيا من الحطام الزائل»[(٢)].

الخاصية الثالثة: تحفهم الملائكة؛ أي: تحيط بهم ملائكة الرحمة والبركة، وتقرب منهم حتىٰ لا تدع فرجًا للشيطان، وذلك تعظيمًا لصنيعهم، واستماعًا لتلاوتهم وقراءتهم، يحفظونهم بأمر الله تعالىٰ من الآفات، ويؤمنون علىٰ دعائهم، ويستغفرون لهم[(٣)].

الخاصية الرابعة: وهي أهمها وأعظمها، يذكرهم الله تعالىٰ فيمن عنده؛ ثناءً لهم لتدارسهم كلامه سبحانه، وتلاوتهم آياته، «وأي مكانة أكرم وأعظم من أن يذكر الله جَلَّجَلَالُهُ، وتقدست أسماؤه، عبدَه الفقير الضعيف، فيمن عنده في الملأ الأعلىٰ»[(٤)].

---

(١) شرح الأربعين النووية، للشيخ ابن عثيمين (ص: ٣٥٨).

(٢) هجر القرآن العظيم: أنواعه وأحكامه، لمحمود بن أحمد الدوسري (ص: ٤٤٢).

(٣) ينظر: شرح الأربعين النووية، لابن دقيق العيد (ص:١٢١)، ومشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه، لمحمد بن علي بن آدم (٤/ ٣٤٢).

(٤) هجر القرآن العظيم (ص: ٤٤٤).

وقد ورد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقول الله تعالىٰ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه»(١).

فأيّ خير وبركة أعدّه الله تعالىٰ لأهل القرآن أعظم من هذا؟!

٣- براءة المستمع والمنصت لآيات القرآن الكريم من الغفلة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[الأعراف: ٢٠٤ ـ ٢٠٥].

٤- سلامة العقل وصحة البدن، يقول عبد الملك بن عمير رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان يقال: إنّ أبقىٰ الناس عقولًا قرّاء القرآن»(٢).

أما صحّة البدن فإن القرآن الكريم شفاء من جميع الأمراض القلبية والجسدية، وقد أثبت الطب الحديث أن تلاوة القرآن الكريم، وسماع آياته بشكل مستمر، يشفي بأمر الله تعالىٰ من كافة الأمراض الحسية والنفسية، كما سيأتي مفصلًا بأمر الله تعالىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث علىٰ ذكر الله تعالىٰ، برقم: (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن (٦/ ١٢٠)، برقم: (٢٩٩٥٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٣٥)، برقم: (٢٤٥٢).

٥- الاستماع للقرآن الكريم، والإنصات له، وتلاوته حقّ تلاوته، يحقق في القلب حقيقة التوكل علىٰ الله تعالىٰ، واليقين به تعالىٰ، فأهل القرآن «يفوضون إليه أمورهم، ويثقون به، ولا يرجون غيره، ولا يخافون سواه»[(١)]، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال: ٢-٤]، فقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يتوكلون علىٰ الله تعالىٰ، ولا يتوكلون علىٰ غيره.

٦- حصول البركة لقارئ القرآن الكريم، فعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حَسْرة، ولا تستطيعها البَطَلَة»[(٢)].

وعن أبي ذر الغفاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «عليك بتقوىٰ الله، فإنه رأس الأمر كله»، قلت: يارسول الله زدني، قال: «عليك بتلاوة القرآن، فإنه نور لك في الأرض، وذخر لك في السماء»[(٣)].

٧- كثرة التلاوة سبب للرفعة في الدنيا والآخرة، فعن عامر بن واثلة أن نافع بن عبدالحارث رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، لقي عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعُسفان، وكان عمر يستعمله

---

(١) معالم التنزيل (٣/ ٣٢٦). وينظر: جامع البيان (١٣/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ أطول، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، برقم: (٨٠٤).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه في حديث طويل يجمع العديد من الوصايا، (٢/ ٧٦-٧٩)، برقم: (٣٦١)، وحسّنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ١٦٤)، برقم: (١٤٢٢).

علىٰ مكة، فقال: من استعملت علىٰ أهل الوادي، فقال: ابن أبزىٰ، قال: ومن ابن أبزىٰ؟ قال: مولىٰ من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولىٰ؟ قال: إنه قارئٌ لكتاب الله تعالىٰ، وإنّه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إنّ الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين»(١).

كما أنّ تلاوة القرآن الكريم تورث الدرجات العلىٰ في الجنان، حيث: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارتق، ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»(٢).

فكلما أكثر المسلم من تلاوة القرآن كلما زاد رفعة في الدنيا، ورفعة الدرجات يوم القيامة، فقارئ القرآن له بكل حرف عشر حسنات.

يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله تعالىٰ فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، برقم: (٨١٧).

(٢) أخرجه أبو داوود في سننه، باب تفريع أبواب الوتر، باب في استحباب الترتيل في القراءة، برقم: (١٤٦٤)، واللفظ له، وأحمد في مسنده (٦/ ٣١٣، ٣١٤)، برقم: (٦٧٩٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/ ٢٨١،٢٨٢)، برقم: (٢٢٤٠).

(٣) أخرجه الترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ماله من الأجر، برقم: (٢٩١٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وجوّد إسناده الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٢٦٣)، برقم: (٦٦٠).

وأخرج الحاكم من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إنَّ هذا القرآن مأدبةُ الله، فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم، إنَّ هذا القرآن حبلُ الله، والنور المبينُ، والشِّفاء النافع، عصمةٌ لمن تمسك به، ونجاةٌ لمن تبعَه، لا يزيغُ فيُستعتب، ولا يَعوجُّ فيُقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، اتلوهُ فإن الله يأجركم علىٰ تلاوته كلَّ حرف عشرَ حسنات، أما إني لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن: ألفٌ ولامٌ وميم»[١].

٨- سبب للشفاعة ودخول الجنة بأمر الله تعالىٰ، حيث أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك فقال: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تُحاجان عن أصحابهما..» الحديث[٢].

وعن بريدة بن الحُصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت جالسًا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمعته يقول: «تعلَّموا سورة البقرةِ، فإنَّ أخذها بركةٌ، وتركُها حَسْرةٌ، ولا يستطيعها البَطَلة» قال: ثم سكت ساعة ثم قال: «تعلّموا سورة البقرة وآل عمران، فإنّهما الزَّهراوان، يُظلاَّن صاحبَهما يوم القيامة كأنَّهما غَمامتان، أو غيايتانِ، أو فرقان من طيرٍ صوافَّ، وإنَّ القُرآن يَلقَىٰ صاحبَهُ

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين (١/ ٧٤١)، برقم: (٢٠٤٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، واللفظ له، وأخرجه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (١/ ١٧)، برقم: (٤)، وصحح محققه أسانيده موقوفًا.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، برقم: (٨٠٤).

يـومَ القيامـةِ حين ينشـقُّ قـبرُهُ كالرجُلِ الشـاحـبِ، فيقـول له: هـل تعرفُني؟ فيقـول: مـا أعرفُكَ؟ فيقول: أنـا صاحبُك القـرآنُ الذي أظمأتُـكَ في الهَواجرِ، وأسـهرتُ ليلـكَ، وإنَّ كلَّ تاجرٍ مـن وراء تجارتِـهِ، وإنَّكَ اليوم مِـنْ وراء كلِّ تجـارة، فيُعطىٰ الـمُلك بيمينـه، والـخُلدَ بشـماله، ويُوضع علىٰ رأسـهِ تاجُ الوَقـارِ، ويُكسـىٰ وَالداهُ حُلَّتيـن لا يُقوَّم لهما أهـل الدنيا، فيقولان: بم كُسـينا هـذا؟ فيقـال: بأخذ ولدكمـا القرآن، ثم يقال لـه: اقرأ، واصعـد في درج الجنة وغُرفهـا، فهو في صعود مـا دام يقـرأ، هـذًّا كان، أو ترتيلًا»[١].

وغيرها الكثير والكثيـر من الفوائد والثمرات التـي تحصل لقارئ القرآن الكريم، والمسـتمع لآياته، وأما مـن هجر ذلك، وجعل كتـاب الله العظيم آخر همـه، حرم ذلـك، ووكَلَهُ الله تعالىٰ لنفسـه، وخُشـي عليه من الشـقاء في الدنيا والآخـرة، وأي حرمان أعظم مـن حرمان التلذذ بتلاوة القرآن الكريم، وسـماع آياتـه، وتدبر كلامه، وقـد أخبر النبي ﷺ أنّ الذي ليس في جوفه شـيء مـن القـرآن كالبيت الخَـرِب[٢]، أي: أنه لا ينتفـع بالقرآن كمـا لا ينتفع بالبيت

(١) الحديـث بطوله أخرجه الإمام أحمد في مسـنده (٣٨/ ٤١، ٤٢)، برقـم: (٢٢٩٥٠)، وذكره الحافـظ ابن كثير في تفسـيره (١/ ٦٤)، وقال عن إسـناده: «وهذا إسـناد حسـنٌ علىٰ شـرط مسـلم»، وكذا حسّـن إسـناده في المتابعات والشواهد الشـيخ شـعيب الأرناؤوط ومن معه في تحقيق المسـند.

(٢) أخرجـه الترمذي في سـننه، أبواب فضائل القـرآن، باب، برقم: (٢٩١٣)، وأحمد في مسـنده (٢/ ٤٥٩)، برقـم: (١٩٤٧)، والحاكم في مسـتدركه (١/ ٧٤١)، برقـم: (٢٠٣٧)، عن ابن عبـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «إنّ الذي ليـس في جوفه شـيء من =

الخرب «فمن لم يكن في جوفه شيء من القرآن يحفظه، لا نفع فيه لنفسه ولا لغيره»[(١)].

والخَرِب -بفتح الخاء وكسر الراء- أي: الخراب؛ لأنّ عمارة القلوب بالإيمان وقراءة القرآن، وفي الحديث تشبيه خلو القلب من القرآن بالبيت الخَرِب، ووجه الشبه بينهما: «أنّ القرآن إذا كان في الجوف يكون عامرًا مزينًا بحسب قِلَّة ما فيه وكثرته، وإذا خُلِّي عما لا بد له منه من التصديق، والاعتقاد الحق، والتفكر في آلاء الله ومحبّه وصفاته، يكون كالبيت الخرب الخالي عما يعمره من الأثاث والتجمل»[(٢)].

= القرآن كالبيت الخَرِب»، قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٢/ ٤٥٩)، برقم: (١٩٤٧).

(١) التحبير لإيضاح معاني التيسير (١/ ٦٤٠).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٤٧٠).

المطلب الثاني

حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار التدبر

إن تدبّر القرآن الكريم هو الغاية العظمىٰ التي من أجله أنزل الله تعالىٰ كتابه، لا مجرد تلاوته وسماع آياته، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص: ٢٩].

يقول الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي الآية دليل علىٰ أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر»(١).

لذا حثّ عليه الشرع وأمر به، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] يعني: القرآن(٢)، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد:٢٤]، فهذه الآيات ومثيلاتها تبين أهمية تدبر كلام الله تعالىٰ، وأنّه هو المقصود الأعظم من إنزاله علىٰ الناس.

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾: «أي: هذه الحكمة من إنزاله؛ ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها، ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل علىٰ الحث علىٰ تدبر القرآن، وأنه من أفضل

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٩٤).

(٢) ينظر: تفسير السمعاني (٣/ ٤٨٣)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/ ١٣٩).

الأعمال، وأنّ القراءة المشتملة علىٰ التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود»[١].

فالمقصود من التدبر إذًا هو: النظر في القرآن الكريم، والوصول إلىٰ فهم آياته؛ للانتفاع بها، والاهتداء بهديها.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه، وجمع الفكر علىٰ تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرَّدُ تلاوته بلا فهم ولا تدبر»[٢].

فتدبر القرآن هو: «التأمّل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه، وعواقبه، ولوازم ذلك»[٣].

أو هو: «الوقوف عند الآيات، والتأمل فيها؛ للانتفاع بها إيمانًا وعلمًا وعملًا»[٤].

وهذا هو المقصود الأعظم من تلاوة القرآن الكريم وسماع آياته.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خاطب منه لك علىٰ لسان رسوله، قال تعالىٰ:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٨٩).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤٩).

(٣) مفهوم التدبر في ضوء القرآن والسنة والآثار، للدكتور محمد الربيعة (ص: ١٧٨)، ضمن مطبوعات أوراق عمل الملتقىٰ العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم.

(٤) المصدر السابق.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق: ٣٧]، وذلك أنّ تمام التأثير لمَّا كان موقوفًا علىٰ مؤثر مُقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ، وأبينه، وأدله علىٰ المراد..»، ثم قال نقلًا عن ابن قتبة معلقًا: «استمع كتاب الله، وهو شاهد القلب والفهم، وليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلىٰ المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفىٰ المانع، وهو اشتغال القلب، وذهوله عن معنىٰ الخطاب، وانصرافه عنه إلىٰ شيء آخر، حصل الأثر، وهو: الانتفاع والتذكر..»[1].

فوائد تدبر القرآن الكريم وثمراته:

لتدبر كلام الله تعالىٰ فوائد عديدة، وثمرات يانعة كثيرة، من أهمها[2]:

١ - أنّ التدبر لآيات القرآن الكريم يؤدي إلىٰ الإيمان به، والتصديق بآياته، واليقين بحقيقته، فيستجيب لأوامره، ويبتعد عن نواهيه.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٣).

(٢) ينظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٨١ ـ ١٩٠)، ومدارج السالكين (١/ ٤٤٩)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ١٩٨ ـ ١٩٠)، وتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٤٠، ٢٤١)، وأفلا يتدبرون القرآن (ص: ١٦٥-٢٢١)، وفتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص: ٢١٠ـ٢١٢)، ومفهوم التدبر تحرير وتأصيل، للدكتور خالد السبت (ص: ١٦٥)، ضمن مطبوعات أوراق عمل الملتقىٰ العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم.

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنّه بذلك يصل العبد إلىٰ درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، فترىٰ الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضا، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنّه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلًا»[١].

٢- أنّه يوصل إلىٰ معرفة الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، «وما له من صفات الكمال، وما ينزّه عنه من صفات النقص»[٢]، فيصل بالعبد إلىٰ تحقيق العبودية له سبحانه، فمن عرف الرب حقيقة المعرفة، وصل إلىٰ هذه الغاية.

٣- الوصول إلىٰ معرفة الطريق الموصلة إلىٰ الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فيسير عليها، وفي مقابل ذلك معرفة العدو الحقيقي والطريق الموصلة إلىٰ العذاب الأليم، فيبتعد عنها.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلىٰ نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر علىٰ معاني آياته، فإنها تُطلع العبد علىٰ معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلىٰ طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتُتلُّ في يده[٣] مفاتيح

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:١٩٠).

(٢) المصدر السابق (ص: ١٨٩).

(٣) «تَلّ، يَتِلُّ»: بالكسر، إذا سقط، وتلَّ في يده يَتُلُّ: إذا صبَّ. ينظر: تاج العروس (مادة:تلل)=

كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبِّت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه.. وتُشهده عدل الله وفضلَه، وتعرِّفهُ ذاته وأسماءَه وصفاته وأفعاله.. وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قَدِم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرىٰ: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه..»[(١)].

ويشير إلىٰ هذه الفائدة أو الثمرة من ثمرات التدبر فيقول: «ويُعرِّف الطريق الموصلة إليه، وصفة أهلها وما لهم عند القدوم عليه، ويُعرف العدو، الذي هو العدو علىٰ الحقيقة، والطريق الموصلة إلىٰ العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب الغفلة»[(٢)].

٤- بالتدبر يصل العبد إلىٰ كثرة العلم وزيادته، فالعبد كلما ازداد تأملًا فيه، ازداد علمًا وعملًا وبصيرة[(٣)].

= وقد يكون بمعنىٰ الوضع، ومنه حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا: «نصرت بالرعب، وأعطيت جوامع الكلم، وأُحلَّ لي المغنم، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض، فتُلت في يدي».

أخرجه أحمد في مسنده برقم: (١٠٥١٧)، والحديث في الصحيحين بلفظ البخاري برقم: (٢٩٧٧)، ومسلم برقم: (٥٢٣): «فوُضعت في يدي».

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٥٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٨٩).

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٨٩).

يقــول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفريــق بين التذكر والتفكــر: «وكلّ من التذكر والتفكــر له فائــدة غير فائــدة الآخر، فالتذكر يفيــد تكرار القلب علــىٰ ما علمه وعرفــه؛ ليرســخ فيــه ويثبــت، ولا ينمحــي فيذهب أثــره من القلــب جملة، والتفكــر يفيد تكثير العلم واســتجلاب ما ليــس حاصلاً عند القلــب، فالتفكر يحصله، والتذكــر يحفظه..»[١].

٥ - الوصول إلىٰ السعادة الحقيقة في تدبر القرآن الكريم.

يقــول ابــن القيــم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فليس شــيء أنفع للعبــد في معاشــه ومعاده، وأقــرب إلــىٰ نجاته من تدبــر القــرآن، وإطالة التأمــل فيه، وجمــع الفكر علىٰ معــاني آياتــه، فإنها تُطِــع العبد علــىٰ معالم الخير والشــر بحذافيرهمــا، وعلىٰ طرقاتهما، وأســبابهما وغاياتهمــا وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتتُــلُّ في يده مفاتيح كنوز الســعادة والعلوم النافعة، وتثــبِّت قواعــد الإيمان في قلبه، وتشــيد بنيانه، وتوطــد أركانــه، وتريه صــورة الدنيا والآخــرة والجنة والنــار في قلبه..»[٢].

وغيرهــا مــن الثمــرات، التــي في جملتهــا تفيد علــىٰ صعيد بنــاء الفرد المســلم، من حيث الوصــول إلىٰ قوة يقينــه بكتاب ربه، وطهــارة قلبه، وتزكية نفسه، وتحســين أخلاقه، وحل مشــكلاته المادية والنفســية والصحية، وشحذ همه .

وبالجملــة «فلا شــيء أنفــع للقلب مــن قراءة القــرآن بالتدبــر والتفكر، فإنه جامــع لجميع منازل الســائرين، وأحــوال العاملين، ومقامــات العارفين،

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٥٠).

وهو الذي يورث المحبة، والشوق، والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والرضا، والتفويض، والشكر، والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة، والتي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتىٰ مر بآية وهو محتاجًا إليها في شفاء قلبه، كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعىٰ إلىٰ حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف.. فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب»[١].

واعلم أن من أهم ما يعين المسلم علىٰ تدبر القرآن الكريم[٢]:

- الخلوة مع القرآن، وقيام الليل.
- الخشوع والبكاء عند تلاوة آياته.
- ترك الذنوب والمعاصي.
- ترتيل القرآن، ومراعاة أحكام التلاوة، وتحسين الصوت.
- كثرة الاستماع والإنصات للقرآن.
- تكرار الآيات، «وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلىٰ الصباح»[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

(٢) ينظر: التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي (ص: ٨٥، ٩٥)، تفسير المنار (٨/ ٤٠٦)، وموسوعة الأخلاق، لخالد بن جمعة الخراز (ص:١٨٥)، ومفاتيح تدبر القرآن، للدكتور خالد اللاحم (ص: ١٩، ٧١)، وهجر القرآن العظيم (ص: ٥٤٩، ٥٦٢).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

- التأدب بآداب القرآن من التطهر، والتسوك، واختيار المكان المناسب، ونحوها.
- تدارس القرآن.
- الاطّلاع على كتب التفسير.

والمقصود من هذا كله: الانتفاع بالقرآن الكريم عند سماع آياته وتلاوته، فلا بد من حضور القلب، وإعمال الذهن، والتفكر في الآيات، للوصول إلى المراد من تدبر كلام الله سبحانه جل في علاه، والناس في هذا فريقان:

فريق علم المقصود، واتبع المراد، فقرأ القرآن كما أراد رب العباد، فاهتدى بهديه، وانتفع بكلام ربه، فاستحق بذلك أن يكون من أهل القرآن، الذين هم أهل الله وخاصته، وتحققت فيه ثمرات التدبر، كل على حسبه، فمنهم المكثر ومنهم المقل، فتدبر القرآن الكريم يتنوع بحسب تنوع مطالب المتدبرين، وكلٌّ في ذلك على حسب ما أعطاه الله تعالى من الفهم والفقه.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكمًا أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه، ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف: ضمُّه إلى نص آخر متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا بابٌ عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به..»[١].

(١) إعلام الموقعين (ص: ٢٦٧). وينظر: مفهوم التدبر، للسبت (ص: ١٧٢، ١٧٣).

وفريق أعرض عن المقصود، حتىٰ وإن تلا القرآن بلسانه، فلم يتدبر كلام الله، ولم ينتفع بهدي القرآن، وهؤلاء أنكر الله تعالىٰ عليهم ذلك، ووبخهم علىٰ إعراضهم عن تدبر القرآن وبين سبحانه أنّ علىٰ قلوبهم أقفالًا لا تنفتح لفهم القرآن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار علىٰ من أعرض عن تدبر كتاب الله جاء موضحًا في آيات كثيرة.. ومعلوم أن كلَّ من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم، أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها، فإنه معرضٌ عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات، إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به علىٰ التدبر.. فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه، والعمل به وبالسنة الثابتة المبينة له، من أعظم المناكر وأشنعها»[1].

وفي بيان قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦]، ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الناس في الذكرىٰ **علىٰ ثلاثة أقسام:**

الأول: رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرىٰ في حقه.

الثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوّة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة، إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه لكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب، فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرىٰ مع استعداده ووجود قلبه.

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٥٦).

الثالـث: رجل حيٌّ القلب مسـتعد، تليت عليه الآيات، فأصغىٰ بسـمعه، وألقـىٰ السـمع، وأحضر قلبـه، ولم يشـغله بغير فهم ما يسـمعه، فهو شـاهد القلب، ملقٍ السـمع، فهذا القسـم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشـهودة.

فالأول والثـاني لا ينتفعان بالقـرآن لأنهما لم يتدبرا آياتـه، فالأول بمنزلة الأعمـىٰ الـذي لا يبصر، والثـاني بمنزلة البصيـر الطامح ببصره إلـىٰ غير جهة المنظور إليه.

أمـا الثالـث فهو البصيـر الذي قـد حـدَّق إلىٰ جهـة المنظـور، وأتبعه بصـره، وقابلـه علىٰ توسـط من البعـد والقـرب، فهذا هـو الذي يـراه[1].

ولهجر القرآن أسباب[2] **أجملها في:**

- مقاربة الذنوب والإصرار عليها، والوقوع في البدع[3].
- انشغال القلب عن القرآن.
- الجهل باللغة العربية.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤١)، موسوعة الأخلاق (ص: ١٧٧).

(٢) ينظـر: فتـح الرحمن في بيان هجر القـرآن (ص: ٢١٥ ـ ٢٢١)، وهجر القـرآن العظيم (ص: ٥٣٦ ـ ٥٤٥).

(٣) يقـول ابن قدامة: «فإن التدبر هـو المقصود من القراءة.. وينبغي للتالي أن يسـتوضح من كل آية مـا يليق بها.. وليتخـلَّ التالي مـن موانع الفهم.. ومن ذلـك أن يكون التالـي مصرًّا علىٰ ذنـب، أو متصفًـا بكـبر، أو مبتلىٰ بهوىً مطـاع، فإن ذلك سـبب ظلمة القلب وصـداه، فهو كالجـرب علىٰ المـرآة، يمنع من تجلىٰ الحـق، فالقلب مثل المرآة، والشـهوات مثل الصدأ، ومعاني القـرآن مثل الصور التي تـتراءىٰ في المـرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشـهوات مثل الجـلاء للمرآة». مختصر منهـاج القاصدين (ص: ٥٣، ٥٤).

- عدم قراءة كتب التفسير.
- عدم التأني عند تلاوة القرآن.
- الاهتمام بكثرة التلاوة علىٰ التدبر.

وعليـه؛ فإنّ من حـرم تدبر القـرآن الكريم حرم الخير كلـه؛ لأنّه «لا خير في عبـادة لا علـم فيها، ولا خيـر في علم لا فقه فيـه، ولا خير في قـراءة لا تدبر معها»[1].

فنسأل الله تعالىٰ ألا يحرمنا ذلك، ويعيننا علىٰ تدبّر كلامه.

---

(١) قالـه علي بن أبـي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقد أخرجه الدارمي في سـننه (١/ ٣٣٨)، برقم: (٣٠٥)، وأبـو داوود في الزهد (ص: ١١٥)، برقم: (١٠٤)، وضعّفه محقّق سـنن الدارمي.

المطلب الثالث

حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار العلم والعمل

إنّ الهدف الأسمىٰ، والغاية العظمىٰ من تلاوة القرآن الكريم، وسماع آياته، وتدبره: هو العمل به بعد العلم بمضمونه، فإن من لوازم التدبر العلم، ومن مقتضيات العلم العمل، فأسعد الناس بالعلم، وأحسنهم حظًا، وأزكاهم فؤادًا، وأشرفهم منزلة عند الله، من يطلبه لمرضاة الله، والعمل به، والاهتداء بنوره، والامتثال لأمره[١].

والعلم لا بد أن يكون قبل العمل، لذا بدأ به المولىٰ سبحانه فقال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[محمد: ١٩]، فالأمر في: ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ كناية عن طلب العلم، وهو العمل بالمعلوم، «ومن اللطائف القرآنية أنّ أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، قال ابن عيينة لما سئل عن فضل العلم: ألم تسمع قوله حين بدأ به ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾»[٢].

وقد بوَّب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه بابًا بعنوان: «باب العلم قبل القول والعمل»[٣]، ذكر فيه جملة من النصوص في القرآن والسنة في فضل العلم وأهله، وهو يريد بذلك كما قال ابن المنير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنّ العلم شرط في

---

(١) فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص: ٢٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٥).

(٣) صحيح البخاري، كتاب العلم (١/ ٢٤).

صحة القول والعمل، فلا يُعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما؛ لأنّه مصححٌ للنية المصححة للعمل، فنبه المصنف علىٰ ذلك، حتىٰ لا يسبق إلىٰ الذهن من قولهم: إنّ العلم لا ينفع إلا بالعمل، تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه»[(١)].

والعمل بالقرآن معناه: تصديق أخباره، واتباع أحكامه، واتخاذه شرعة ومنهاجًا، فيأتمر بأمره، وينتهي عن نواهيه، ويحتكم إليه في جميع شؤونه الخاصة والعامة، حتىٰ يصير القرآن حياته، ويصبح كأنّه قرآن يمشي علىٰ الأرض[(٢)]، وهذا ما أشارت إليه أم المؤمنين عائشة ب بوصفها لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كان خُلُقه القرآن»[(٣)].

وهذا كان هدي سلف الأمة - رضوان الله تعالىٰ - عليهم مع القرآن، قرؤوا القرآن فحفظوه، وعلموا ما فيه، وعملوا بآياته، فحللوا حلاله، وحرموا حرامه، فتعلموا العلم والعمل معًا، ووقر الإيمان في قلوبهم، يقول أبو عبد الرحمن السلمي -:- مبيّنًا منهج أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعلم القرآن، برعاية المربي الأول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيقول: «حدثنا من كان يُقرئنا من

---

(١) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني (١/ ١٦٩)، عمدة القاري، للعيني (٢/ ٣٩).

(٢) ينظر: هجر القرآن العظيم، للدوسري (ص: ٥٧٢)، وعظمة القرآن الكريم، للدكتور سعيد بن علي بن وهف القحطاني (ص: ٦١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١/ ١٤٨)، برقم: (٢٤٦٠١)، بسند صحّحه الأرناؤوط محقق المسند، وعند مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، برقم: (٧٤٦)، بلفظ طويل، جاء فيه: «فإن خلق نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان القرآن».

أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنهم كانوا يقترئون من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرىٰ حتىٰ يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل»[(١)].

وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا إذا تعلّمنا من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر آيات من القرآن، لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها حتىٰ نعلم ما فيه»، فقيل لشريك: من العمل؟ قال: نعم[(٢)].

وهذا الذي من أجله أنزل الله تعالىٰ القرآن، يقول الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص: ٢٩]، ويقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[البقرة: ١٢١] أي: يتبعونه حق اتباعه[(٣)].

يقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما نزل القرآن ليُعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملًا، قيل: كيف العمل به؟ قال: ليُحلوا حلاله، ويُحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه»[(٤)].

---

(١) أخرجه مجاهد في تفسيره (١/ ١٩٣)، والإمام أحمد في مسنده (٣٨/ ٤٦٦)، برقم: (٢٣٤٨٢)، وقد تقدم تخريجه والحكم عليه.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٧٤٣)، برقم: (٢٠٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٤٤)، برقم: (١٨٠١)، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» وسكت عنه الذهبي.

(٣) هذا المعنىٰ مروي عن ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، ومجاهد، وأبي رزين.. وغيرهم، ينظر: جامع البيان (٢/ ٥٦٦-٥٦٩).

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (ص: ٧٦).

وهكذا سار علىٰ منوالهم الصالحون والمتقون وإلىٰ زماننا هذا، إلا أن فئة من الناس قديما وحديثًا -وهم كثر، وخاصة في زماننا هذا، وللأسف الشديد- لم يتبعوا هذا المنهج الرباني، وابتعدوا عن هذا النهج القويم، فسلكوا في القرآن غير مسلكه، واتبعوا غير سبيله، فضلوا عن القرآن وهديه، حتىٰ وإن قرأه بعضهم بلسانهم، أخرج الحاكم وغيره عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لقد عشنا بُرهة من دهرنا، وإن أحدَنا يؤتىٰ الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة علىٰ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده فيها، كما تعلمون أنتم القرآن، ثم لقد رأيت رجالًا اليوم يؤتىٰ أحدُهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحته إلىٰ خاتمته، ما يدري ما أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، ينثره نثر الدَّقَل»(١).

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «إنّا قومٌ أوتينا الإيمان قبل أن نؤتىٰ القرآن، وإنكم قومٌ أوتيتم القرآن قبل أن تؤتوا الإيمان»(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٩١)، برقم: (١٠١)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٣/ ١٧٠)، برقم: (٥٢٩٠)، قال عنه الحاكم: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرِّجاه، ووافقه الذهبي، وقال ابن منده: هذا إسناد صحيح علىٰ رسم مسلم والجماعة إلا البخاري، وقال في المجمع: رجاله رجال الصحيح.
ينظر: الإيمان، لابن منده (١/ ٣٦٩)، رقم: (٢٠٧)، ومجمع الزوائد، للهيثمي (١/ ١٦٥)، رقم: (٧٥٥).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (١/ ٢٠٧)، برقم: (٤٨)، وصححه محقّقه.

ويقول عمـر بن الخطـاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يغرنكم من قرأ القـرآن، فإنما هو كلام يتكلم بـه، ولكن انظروا مـن يعمل به»[(١)].

ويبين الحسـن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ خطورة قراءة القرآن باللسـان فقط، وعدم العلـم بآياته والعمـل بمضمونه: «إنّ هذا القـرآن قد قرأه عبيـدٌ وصبيانٌ لا علم لهـم بتأويله، ولم يتأوّلـوا الأمر من قِبـل أوله، وقـال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[ص: ٢٩]، ومـا تدبـر آياته إلا اتباعـه، والله يعلم، أما والله مـا هو بحفظ حروفـه وإضاعة حدوده، وقد والله أسـقطه كلّـه، ما يُرىٰ له القـرآن في خلق، ولا عمل، حتـىٰ إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السـورة في نفس، والله مـا هؤلاء بالقـراء، ولا العلمـاء، ولا الحكمـاء، ولا الورعـة، متىٰ كانت القـراءة مثل هـذا؟ لا كثّر الله في الناس مثـل هؤلاء»[(٢)].

فـإذا كان مثل هـذا قد وقع في أفضل القـرون، فماذا نقـول في زماننا هذا، وإنـا لله وإنا إليـه راجعون، فما أحـرىٰ بالمربين ومعلمي القـرآن الاعتناء بتدبر القـرآن، والعلـم بما في الفرقـان، كالاعتنـاء بالحفـظ والتـلاوة، فيهيء قلب المتلقـي أولاً لتلقـي تعاليم القـرآن الكريـم، والاهتـداء بآياته، ثم إذا سـمع القـرآن وتـلاه وقـر في قلبه، وانتفـع به، وهـذا النبي الكريـم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعلـم الأطفـال الإيمـان قبـل أن يعلمهم القـرآن، يقـول جندب بـن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنّـا مع النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن فتيـانٌ حَـزاوِرَة[(٣)]، فتعلمنا الإيمان

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (٢/ ٣٩٣)، برقم: (١٢٧)، وضعفه محقّقه.

(٢) أخرجـه ابن المبارك في الزهد (١/ ٢٧٤)، برقم: (٧٩٣)، وسـعيد بن منصور في التفسـير من سـننه (٢/ ٤٢٣)، برقم: (١٣٥)، وحسّن إسناده المحقق.

(٣) «حَـزاوِرَة»: جمع حَزْوَر وحَـزَوَّر، وهو الذي قارب البلوغ. ينظـر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/ ٣٨٠).

قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا»[1]، ولا يعني ذلك بأي حال من الأحوال التقليل من شأن تلاوة القرآن وحفظ آياته، بل المقصود هو تهيئة القلب للاستفادة المثلىٰ من كتاب الله تعالىٰ.

وقد جاء الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد لمن قرأ القرآن ليرفع ذكره في الدنيا، ويشار إليه بالبنان، ويحيي مجالس العزاء فقط، ولم يقرأه للتدبر والعمل به واكتساب الأجر، ومن ذلك:

ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأىٰ أحدٌ منكم من رؤيا»، قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال ذات غداة: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وأني انطلقت معهما، وإنا أتينا علىٰ رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغُ رأسَهُ، فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر فيأخذه، فلا يرجع إليه حتىٰ يصحَّ رأسُهُ كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولىٰ، قال: فقلت لهما: سبحان الله ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق..» إلىٰ أن قال في آخره: «أما إنا سنخبرك، أما

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب في الإيمان، برقم: (٦١)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٦٥)، برقم: (١٦٧٨)، والبيهقي في الشعب (١/ ١٥٢)، برقم: (٥٠)، بزيادة قوله: «وإنّكم اليوم تعلَّمون القرآن قبل الإيمان»، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٢): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، برقم: (٥٢).

الرجـل الأول الذي أتيتَ عليـه يُثلغ رأسـه بالحجر، فإنه الرجـل يأخذ القرآن فيرفضـه وينام عن الصـلاة المكتوبـة..» الحديث(١).

وفي روايـة: «.. فانطلقنـا حتـىٰ أتينـا علىٰ رجـل مضطجع علـىٰ قفاه، ورجـلٌ قائـم علىٰ رأسـه بفهـر –أو صخرة– فيشـدخ به رأسـه، فـإذا ضربه تدهـده الحجـر، فانطَلَـقَ إليه ليأخـذه، فلا يرجع إلـىٰ هذا حتىٰ يلتئم رأسـه، وعاد رأسـه كمـا هو، فعـاد إليه فضربـه..» إلـىٰ أن قال:«والذي رأيتَه يُشـدخ رأسـه، فرجل علمه الله القـرآن فنام عنه بالليـل ولم يعمل فيه النهـار، يُفعل به إلىٰ يـوم القيامـة..» الحديث(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سـمعت رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول:«إنَّ أوَّل النـاس يُقضَـىٰ يـوم القيامـة عليه: رجلٌ استُشـهِدَ، فـأُتيَ بـه، فعرَّفه نعمه فعرفهـا، قـال: فما عملـتَ فيها؟ قـال: قاتلـتُ فيه حتـىٰ استهشـدتُ، قال: كذبـت، ولكنك قاتلـت لأن يقال: جـرئٌ، فقد قيـل، ثم أُمر به فسُـحب علىٰ وجهه حتـىٰ ألقي في النـار، ورجلٌ تعلـم العلم وعلمـه، وقرأ القـرآن، فأُتي به فعرفـه نعمـه فعرَفَهـا، قال: فمـا عملتَ فيهـا؟ قال: تعلمـت العلـم وعلمتُهُ، وقـرأت فيك القـرآن، قـال: كذبـت، ولكنـك تعلمت العلـم ليقـال: عالم، وقـرأت القـرآنَ ليُقال: هو قـارئ، فقد قيـل، ثم أُمـرَ به فسُـحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقـي في النـار، ورجلٌ وسَّـع الله عليه، وأعطـاه مِن أصناف المـال كلِّه،

(١) أخرجـه البخـاري في صحيحه، كتـاب التعبير، باب تعبيـر الرؤيا بعد صـلاة الصبح، برقم: (٧٠٤٧).

(٢) أخرجـه البخـاري في صحيحـه، كتـاب الجنائز، بـاب ما قيـل في أولاد المشـركين، برقم: (١٣٨٦).

فـأتي به فعرَّفـه نعمه فعرفها، قـال: فما عملت فيهـا؟ قال: ما تركتُ من سـبيلٍ تحـبُّ أن يُنفـق فيها إلا أنفقـت فيها لك، قـال: كذبتَ، ولكنَّـك فعلت ليقال: هـو جـوادٌ، فقد قيل، ثـم أُمر فسـحب علىٰ وجهه، ثـم ألقي في النـار»[١].

وعـن أنس بن مالـك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قـال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتيت ليلة أُسـري بي علىٰ قـومٍ تُقرضُ شـفاهُهُم بمقاريـضَ من نـارٍ، كُلَّما قُرضت وَفَـتْ، فقلـت: يا جبريل مـن هؤلاء؟ قـال: خطباء مـن أمّتك الذيـن يقولون ولا يفعلـون، ويقرؤون كتـاب الله ولا يعملون»[٢].

وبنـاء علـىٰ ما تقـدم ذكره فـإن الناس يمكن تقسـيمهم بحسـب معرفة الحـق والعمـل به إلـىٰ ثلاثة أقسـام كما ذكر ابـن القيـم وغيره[٣]:

قسـم عرف الحق واتبـع هواه، فضـلّ عن العمـل دون العلـم، وينطبق هـذا في كل الفـرق «التي تعمـدت ذلك، واسـتحقت بالديانة عـن عمدٍ، وعن تأويـل بعيد جداً تُحمـل عليه غلبة الهوىٰ، فهؤلاء سـلكوا مـن الصراط الذي خُـطَّ لهم مسـالك غير مسـتقيمة، فاسـتحقوا الغضب؛ لأنهم أخطـأوا عن غير معـذرة، إذ ما حملهـم علىٰ الخطـأ إلا إيثار حظـوظ الدنيـا»[٤]، ويمثلهم هنا اليهـود؛ لأنهـم حملـوا التـوراة، أي: علموا الحـق، فكلفوا العمل بـه، لكنهم

(١) أخرجـه مسـلم في صحيحه، كتـاب الإمارة، بـاب من قاتل للرياء والسـمعة اسـتحق النار، برقم: (١٩٠٥).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الاقتضاء (ص: ٧٣) بسـند حسـنه الشـيخ الألبـاني في تحقيقه لكتاب الاقتضاء.

(٣) ينظر: مدارج السالكين (١/ ٣٤)، وتفسير ابن عثيمين (١/ ١٧).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٩٩).

عدلوا عنه ولم يعملوا[١]، فهم «تمردوا علىٰ أنبيائهم وأحبارهم غير مرة، وبدلوا الشريعة عمدًا، فلزمهم وصف المغضوب عليهم، وعلق بهم في آيات كثيرة»[٢]، كما قال تعالىٰ: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٢].

والله عَزَّوَجَلَّ شبّه عمل هؤلاء القوم بالحمار الذي يحمل علىٰ ظهره الأسفار ولم يستفد منها، يقول تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الجمعة: ٥]، «فقاس سبحانه من حمله كتابه ليؤمن به، ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا علىٰ ظهر قلب، فقراءته به بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له، ولا تحكيم له وعملٍ بموجبه، كحمار علىٰ ظهره زاملة أسفار، لا يدري ما فيها، وحظه منها حملها علىٰ ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي علىٰ ظهره، فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنىٰ لمن حمل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته»[٣].

وقسم عمل دون علم، فضل عن العلم والعمل، وهو «جنس للفرق الذين حرفوا الديانات الحق عن عمد، وعن سوء فهم»[٤]، ويمثلهم هنا:

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٠٠).

(٣) الأمثال في القرآن، لابن القيم (ص: ٢٦، ٢٧).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٩٩).

النصارىٰ «الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة، لا يهتدون إلىٰ الحق»[١]، فضلوا وأضلوا، كما أخبر القرآن عنهم: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة: ٧٧]، فهم قد «ضلوا بعد الحواريين، وأساءوا فهم معنىٰ التقديس في عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فزعموه ابن الله علىٰ الحقيقة»[٢].

وقسم عرف الحق واتبع هداه، فهو مهتد في العلم والعمل، وهم أهل الإيمان الذين أنعم الله عليهم، والذين جاء ذكرهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾[النساء: ٦٩].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنّ طريقة أهل الإيمان مشتملة علىٰ العلم بالحق والعملِ به، واليهودُ فقدوا العملَ، والنصارىٰ فقدوا العِلمَ، ولهذا كان الغضب لليهود، والضلالُ للنصارىٰ؛ لأنّ من علم وترك استحق الغضب، خلاف مَن لم يعلَمْ، والنصارىٰ لما كانوا قاصدين شيئًا لكنهم لا يهتدون إلىٰ طريقه؛ لأنّهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق ضلّوا، وكلٌّ من اليهود والنصارىٰ ضال مغضوب عليهم، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب.. وأخصُّ أوصاف النصارىٰ الضلال.. وبهذا جاءت الأحاديث والآثار»[٣].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٠٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٥).

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد وغيره من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إنّ المغضوب عليهم: اليهود، وإنّ الضالين النصارىٰ»(١).

وابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قسّمهم إلىٰ ثلاثة أقسام(٢): راشد، وغاو، وضال

فأما الراشد: فهو المطيع لله تعالىٰ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المتبع لأوامرهما، المجتنب لنواهيهما.

وأما الغاوي: فهو من عرف الحق وتعمَّد خلافه.

والضال: هو من لم يتعمد خلاف الحق.

والله تعالىٰ ذكر الغواية في كتابه ووصف بها:

• أتباع إبليس، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

• من أوتي الآيات فردّها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

• أهل النار، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾.

نسأل الله تعالىٰ السلامة والعافية، ونسأله سبحانه أن يرزقنا علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا متقبلًا، وقلبًا خالصًا خاشعًا، وعينًا دامعة، ولسانًا ذاكرًا..

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢/ ١٢٣، ١٢٤)، برقم: (١٩٣٨١)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ١٨٤،١٨٣) برقم: (٧٢٠٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٩٩) برقم: (٢٣٧)، والطبري في تفسيره (١/ ١٨٥، ١٨٦)، والحديث جوّده الألباني في السلسلة الصحيحة (٧/ ٧٨٣)، برقم: (٣٢٦٣)، وصحّحه أحمد شاكر في تخريجه لأحاديث الطبري (١/ ١٨٥).

(٢) روائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي (١/ ٢٢١).

المطلب الرابع

حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار التداوي والاستشفاء به

وردت نصوص عديدة من القرآن والسنة علىٰ أنّ القرآن الكريم فيه شفاء للناس، ومن تلك النصوص:

- قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[يونس: ٥٧].
- وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾[الإسراء: ٨٢].
- وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾[فصلت: ٤٤].

فهذه الآيات الكريمات تؤكد علىٰ خاصية مهمة من خصائص كتاب ربّنا سبحانه جَلَّ وَعَلَا، وهي خاصية الشفاء.

وبما أن المرض نوعان[1]: مرض القلوب (شبهة، وشهوة)، ومرض

(١) يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه القيم زاد المعاد (٤/ ٥، ٧): «المرض نوعان: مرض القلوب، ومرض الأبدان، وهما مذكوران في القرآن، ومرض القلوب نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوةٍ وغي، وكلاهما في القرآن، قال تعالىٰ في مرض الشبهة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾[البقرة: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾[المدثر: ٣١].. فهذا مرض الشبهات والشكوك، وأما مرض الشهوات فقال تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾[الأحزاب: ٣٢]، فهذا مرض شهوة الزنىٰ، والله أعلم، وأما مرض الأبدان، فقال =

الأبـدان (حسّـي، ومعنوي)، فإنّ القرآن الكريم شـفاء لكليهمـا، فالآية الأولىٰ جاءت في شـفاء أمـراض القلوب، أمـراض الشـبهة والشـهوة؛ لأنّ الله تعالىٰ «أخبر في هـذه الآية أن القرآن شـفاء لمـا في الصـدور، وهي القلـوب، وهي محـل الشـبهات، والشـهوات، والجهـل، والهمـوم، والغموم من الإنسـان، والإنسـان مركـب علىٰ قلبه صلاحًا وفسـادًا.. ومـن النكت اللطيفـة في الآية: أنّ الله وصـف القرآن بأنه شـفاء، ولم يصفـه بأنه دواء، وهذا يـدل علىٰ تحقق حصول النتيجة عند الاستشـفاء بـه، وهي زوال الداء، بخلاف الـدواء، فإنه قد يحصل بـه الشـفاء، وزوال الداء، وقـد لا يحصل..»[١].

يقـول السـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وهو هـذا القرآن، شـفاء لما في الصـدور، من أمـراض الشـهوات الصادة عـن الانقياد للشـرع، وأمراض الشـبهات القادحة في العلـم اليقينـي، فإن ما فيـه مـن المواعظ والترغيـب والترهيـب، والوعد والوعيـد، مما يوجـب للعبد الرغبـة والرهبة.

وإذا وجـدت فيه الرغبـة في الخير، والرهبة من الشـر، ونمتـا علىٰ تكرّر مـا يرد إليها من معـاني القرآن، أوجب ذلـك تقديم مراد الله علـىٰ مراد النفس، وصار مـا يرضي الله أحب إلىٰ العبد من شـهوة نفسـه.

= تعالـىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[النـور:٦١]، وذكـر مـرض البدن في الحـج والصـوم والوضوء؛ لسـرٍّ بديـع، يُبيّـن لك عظمـة القرآن، والاسـتغناء به، لمـن فهمه وعقلـه عن سـواه، وذلك أن قواعـد طب الأبـدان ثلاثة: حفظ الصحـة، والحمية عن المؤذي، واسـتفراغ المواد الفاسـدة، فذكر سـبحانه هذه الأصول في هذه المواضـع الثلاثة».

(١) الاستشفاء بالقرآن الكريم، للدكتور علي بن غازي التويجري (ص: ١٤، ١٥).

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرفها الله غاية التصريف، وبينها أحسن بيان، مما يزيل الشبه القادحة في الحق، ويصل به القلب إلىٰ أعلىٰ درجات اليقين.

وإذا صحّ القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده»[(١)].

وأما الآية الثانية والثالثة فهي عامة في جميع الأمراض: القلبية منها والبدنية، الحسية منها والمعنوية، كأمراض السحر، والحسد، والعين، والصرع.. وغيرها، لعموم لفظ ﴿شِفَآءٌ﴾ في كل مرض، حسيًّا كان أو معنويًّا، بدنيًّا أو قلبيًّا.

يقول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله في الآية: ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ يشمل كونه شفاءً للقلب من أمراضه، كالشك والنفاق وغير ذلك، وكونه شفاءً للأجسام إذا رقي عليها به..»[(٢)].

وهل القرآن كله أم بعضه شفاء؟

قولان للعلماء؛ بناء علىٰ المراد من ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، فذهب جماعة من العلماء إلىٰ أنّ ﴿مِنَ﴾ هنا للتبعيض، والصحيح -وهو ما عليه جماهير العلماء من السلف والخلف- أنّ ﴿مِنَ﴾ هنا بيانية[(٣)]؛ لأنّها

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٦٦).

(٢) أضواء البيان (٣/ ١٨١).

(٣) ينظر: الهداية إلىٰ بلوغ النهاية (٦/ ٤٢٧٥)، وتفسير القرآن، للسمعاني (٣/ ٢٧١)، ومعالم التنزيل (٥/ ١٢٣)، والكشاف (٢/ ٦٨٩)، وزاد المسير (٣/ ٤٩)، ومفاتيح الغيب (٢١/ ٣٨٩)، ومدارك التنزيل (٢/ ٢٧٣)، والتفسير القيّم (ص: ٣٦٣)، والجواب الكافي=

لـو كانـت تبعيضية؛ لـكان بعض القـرآن ليس فيه شـفاء، وهذا لا يحسـن مع كتاب ربنا سـبحانه جل في عـلاه، والمعنـىٰ: وننزل من هذا الجنـس الذي هو قرآن ما هو شـفاء، فجميـع القرآن شـفاءٌ للمؤمنين.

يقـول ابـن القيـم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالقرآن هو الشـفاء التـام من جميـع الأدواء القلبيـة والبدنيـة، وأدواء الدنيـا والآخـرة، ومـا كلُّ أحـدٍ يؤَهَّـلُ ولا يُوفـق للاستشـفاء بـه، وإذا أحسـن العليل التـداوي بـه، ووضعه علـىٰ دائه بصدق وإيمـان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واسـتيفاء شـروطه، لم يقاومـه الداء أبدًا، وكيـف تقـاوم الأدواء كلام رب الأرض والسـماء، الذي لو نـزل علىٰ الجبال لصدّعهـا، أو علـىٰ الأرض لقطّعهـا، فمـا مـن مرض مـن أمـراض القلوب والأبـدان إلا وفي القـرآن سـبيل الدلالة علىٰ دوائه وسـببه، والحميـة منه لمن رزقـه الله فهمًا في كتابـه..»[(١)].

وفي السـنة النبوية أحاديث كثيـرة، وآثار عديدة، تؤكـد أنّ القرآن كما هو شـفاء للقلوب كذلك هو شـفاء للأبدان، ومن ذلك:

= لمن سـأل عـن الـدواء الشـافي (ص: ٨)، وتفسـير القرآن العظيـم (٥/ ١٠٣)، ومحاسـن التأويـل (٦/ ٤٩٦)، والتحريـر والتنويـر (١٥/ ١٨٩).

وحتـىٰ علىٰ قـول القائلين بـأنّ ﴿مِنَ﴾ هنـا للتبعيض فقـد أوَّل بأحـد تأويليـن؛ الأول: ما قاله الزمخشـري في كشـافه، وتبعـه السـمعاني في تفسـيره وغيرهم علـىٰ أنّ المراد مـن البعض هو الكل، أي: ما كله شـفاء، واستشـهد السـمعاني بقول الشـاعر: أو يعتلـق بعض النفوس حمامهـا.. أي: كل النفوس، الثاني: أنها للتبعيض بحسـب إنزالـه؛ لأنّ إنزاله إنما هو مبعض، فكأنـه قال: وننزل من القرآن شـيئًا شـيئًا ما فيه كل شـفاء. قاله ابن عطيـة في المحرر الوجيز (٣/ ٤٨٠).

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٢٢، ٣٢٣).

• مـا أخرجه الشـيخان في صحيحيهما مـن حديث أبي سـعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن ناسًـا مـن أصحاب رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا في سـفر، فمرُّوا بحي من أحيـاء العرب، فاسـتضافوهم، فلم يضيفوهم، فقالـوا لهم: هل فيكم راق؟ فإن سـيّد الحـي لديغٌ أو مصـابٌ، فقال رجـل منهم: نعم، فأتـاه، فرقاه بفاتحـة الكتاب، فبرأ الرجـل، فأعطي قطيعًا مـن غنم، فأبـىٰ أن يقبلها، وقال: حتىٰ أذكـر ذلك لرسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتىٰ النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكر ذلك له، فقـال: يا رسـول الله، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب، فتبسّـم رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقـال: «وما أدراك أنهـا رقية؟!» ثم قال: «خـذوا منها واضربوا لي بسهم معكم»(١).

• ومـا أخرجـه الشـيخان كذلـك عـن عائشـة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالـت: كان النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينفـث علىٰ نفسـه في المرض الـذي مات فيـه بالمعـوذات، فلما ثقل عليـه، كنت أنفث عليـه بهنّ، وأمسـح بيد نفْسِـه لبركتهـا، يقول الراوي: فسـألت الزهـري: كيـف ينفـث؟ قـال: كان ينفث علـىٰ يديه، ثم يمسـح بهمـا وجهه(٢).

• ومـا أخرجـه ابن حبان في صحيحه عن عائشـة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أنّ رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخـل عليها وامـرأة تعالجهـا، أو ترقيهـا، فقال: «عالجيها بكتاب الله»(٣)، وغيرها مـن الأحاديث.

---

(١) البخـاري، كتـاب الطب، بـاب النفـث في الرقيـة، برقـم: (٥٧٤٩)، ومسـلم - واللفظ له - كتاب الآداب، باب جواز أخذ الأجرة علىٰ الرقية، برقم: (٢٢٠١).

(٢) البخـاري، كتـاب الطب، بـاب الرقىٰ بالقـرآن، برقم: (٥٧٣٥)، ومسـلم، كتـاب الطب، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث، برقم: (٢١٩٢).

(٣) صحيـح ابن حبـان بترتيب ابن بلبـان (١٣/ ٤٦٤)، برقـم: (٦٠٩٨)، وصحّحـه الألباني في السلسـلة الصحيحـة (٤/ ٥٦٥، ٥٦٦)، برقم: (١٩٣١).

فهذه النصوص من كتاب الله تعالىٰ، وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونحوها تبيّن أنّ القرآن الكريم فيه شفاء، وهو عام -كما أسلفت- فيه «شفاء القلوب وشفاء الأبدان، ولكن لحصول الشفاء بالقرآن وغيره، شروط وانتفاء موانع، في المعالِج، والمعالَج.. فإذا توفرت الشروط، وانتفت الموانع حصل الشفاء بإذن الله، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله»[١] [٢].

وقد أثبت العلم حديثًا أنّ القرآن الكريم يشفي بأمر الله تعالىٰ من كافة الأمراض الحسية والنفسية، فقد أجرىٰ بعض الأطباء النفسيين بحثًا علىٰ مجموعة من المتطوعين عند استماعهم إلىٰ القرآن الكريم، فكانت النتائج مبهرة، حيث تم تسجيل أثر مهدئ لتلاوة القرآن الكريم علىٰ نسبة بلغت (٩٨)٪ من مجموع الحالات، رغم وجود نسبة كبيرة من المتطوعين لا يعرفون اللغة العربية، إلا أنّه تم رصد تغيرات فسيولوجية لا إرادية عديدة حدثت في الأجهزة العصبية للمتطوعين، مما أدىٰ إلىٰ تخفيف درجة التوتر لديهم بشكل ملحوظ.

وتمّت تجربة دقيقة بعمل رسم تخطيطي للدماغ، أثناء الاستماع إلىٰ القرآن الكريم، فوجد أنه مع الاستماع إلىٰ كتاب الله، تنتقل الموجات الدماغية من النسق السريع الخاص باليقظة (١٢ ـ ١٣) موجة / ثانية إلىٰ النسق البطيء (٨ ـ ١٨) موجة / ثانية، وهي حالة الهدوء العميق داخل

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الآداب، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، برقم: (٢٢٠٤).

(٢) مجموع فتاوىٰ الشيخ ابن باز (٨/ ٦١).

النفس، وأيضًا شعر غير المتحدثين بالعربية بالطمأنينة، والراحة، والسكينة، أثناء الاستماع لآيات كتاب الله، رغم عدم فهمهم لمعانيه[١]، وهذا من أسرار القرآن العظيم.

إذا عُلم هذا فإن كثيراً من الناس قد حُرموا من الاستشفاء والتداوي بالقرآن الكريم، وخاصة في هذه الأزمنة المتأخرة؛ لهجرهم كتاب ربهم، وبعدهم عنه، فلم يهتدوا لذلك، فضلّ بعضهم ضلالًا بعيدًا، ولجأوا في علاج أمراضهم الحسية منها والمعنوية إلىٰ غير رب الأرباب سبحانه، يلتمسون الشفاء والدواء من السحرة والعرافين والمشعوذين، وتعلقت قلوبهم بالبدع والخرافات، من تعليق التمائم، والاستشفاء بتربة قبور الأولياء والصالحين -بزعمهم-، والتبرك بها[٢].

ومن جانب آخر فإن هجر الاستشفاء بالقرآن الكريم علىٰ الوجه الصحيح أدّىٰ بالكثير من الناس إلىٰ اللجوء إلىٰ الرقاة، الذين كثروا في البلاد، بل امتهن بعضهم مهنة القراءة، وأصبح شغله الشاغل، فوقع الكثير منهم في بعض المحاذير والفتن[٣]:

---

(١) أشار إلىٰ هذه الدراسة موقع البوابة علىٰ الشبكة العنكبوتية، علىٰ العنوان التالي:
http://www.khayma.com/ashab/taab_alabadat_malafat/algoraan-fuwed.htm

(٢) ينظر: فتح الرحمن في بيان هجر القرآن (ص: ٣٤١، ٣٤٧).

(٣) ينظر: الاستشفاء بالقرآن (ص: ٥٣).

• كفتنة جمع المال، فيصبح هم الراقي وهدفه من القراءة، هو جمع المال فقط، لا نفع الناس، وقد توسع الناس في هذا الباب كثيرًا، فتجد بعضهم يبيع قارورة الماء التي ينفث عليها بخمسين ريالًا أو أكثر، وهي لا تساوي الريال والريالين.

• فتنة النساء، وهي من أشدّ الفتن علىٰ المسلم، يقول النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة هي أضرّ علىٰ الرجال من النساء»(١)، فتجد بعض الرقاة لا يتورعون عن الخلوة بالنساء، أو إطالة النظر فيهن، وعدم غض البصر، ومسّهن بالأيدي.. إلىٰ غير ذلك من المحاذير التي ورد النهي عنها، والتحذير منها.

عن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يُطعن في رأس رجلٍ بمخيطٍ من حديد، خيرٌ له من أن يمس امرأةً لا تحلُّ له»(٢).

• الاستعانة بالجن والشياطين، وهذا قد يستخدمه بعض الرقاة، بحجّة شفاء المريض، واستنادًا إلىٰ أقوال بعض العلماء الذين جوّزوا ذلك بشروط، وهذا مما لا يجوز، وقد أفتت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقىٰ من شؤم المرأة، برقم: (٥٠٩٦)، ومسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، برقم: (٢٧٤٠).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: (٤٨٦)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٢٦) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وصحح إسناده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٤٠١)، برقم: (١٩١٠)، وجوّده في السلسلة الصحيحة (١/ ٤٤٧)، برقم: (٢٢٦).

والإفتاء بالمملكة العربية السعودية، بعدم جواز الاستعانة بالجن في معرفة الإصابة ونوع علاجها؛ لأنّ الاستعانة بالجنّ شرك[١].

- فتنة الشهرة، فيغترّ بعض الرقاة بكثرة الناس عنده، وازدحامهم حوله، فيقع في المحذور من الإعجاب بالنفس، والاغترار بعمله.

إلىٰ غيرها من الفتن والمحاذير التي ينبغي الحذر منها، وعدم الوقوع فيها، والذي أدىٰ إلىٰ كل ذلك؛ هو ابتعاد الناس عن كتاب ربهم، وهجرهم إيّاه: استماعًا، وتلاوةً، وحفظًا، وتدبرًا، وعملًا.

فنسأل الله تعالىٰ بمنّه وكرمه أن يجعلنا من أهل القرآن الكريم، التالين لآياته، العالمين بمراده، العاملين بمقتضاه.. آمين

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ينظر: فتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، المجموعة الثانية، (١/ ٩٢ - ٢٠٦).

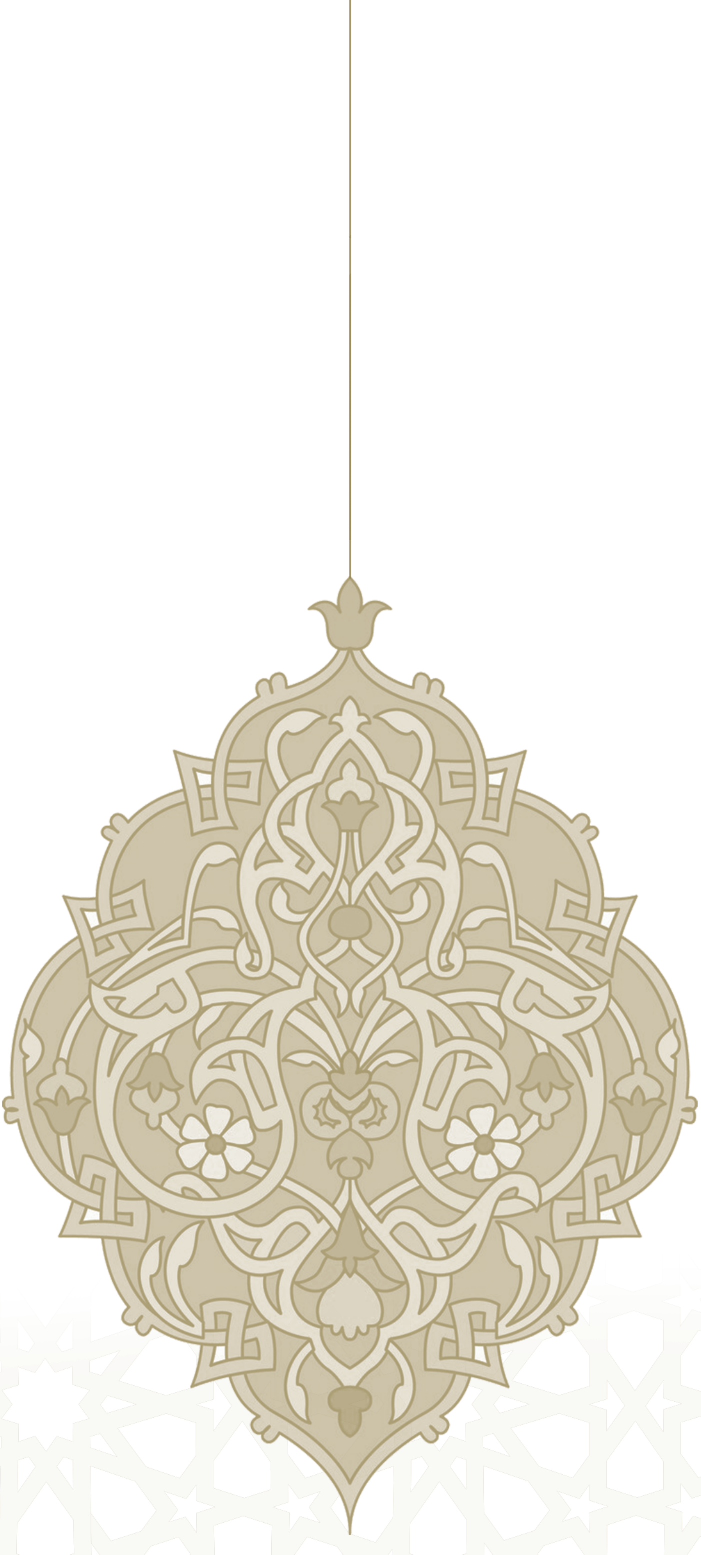

الفصل الثالث

الهدايات القرآنيّة

أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات، ووسائله في تحقيقها، ومميزاتهما

ويشتمل علىٰ المباحث التالية:

* أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات.
* وسائل القرآن الكريم في تحقيق الهدايات.
* مميزات الأساليب والوسائل القرآنية في عرض الهدايات.

أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات، ووسائله في تحقيقها، ومميزاتهما

تمهيد في بيان مفهوم الأساليب والوسائل:

هذا الفصل يسلط الضوء علىٰ أساليب القرآن الكريم وطريقة عرضها للهدايات علىٰ العالمين، ووسائل تحقيقها، وأهم مميزات الأساليب والوسائل، وكيف أنها كانت شاملة لجميع مقتضيات الهداية، ملبّية لمتطلباتها كافةً، والموضوع يدور حول مصطلحين رئيسين، وهما: الأساليب والوسائل، ولابد من بيان المقصود منهما حتىٰ يتم لنا تصور مباحث الفصل، ومن ثم محاولة استيعاب مضامينه.

أولًا: مفهوم الأساليب:

الأَسَالِيب: جمع أسلوب، وأصلها مأخوذ من مادة (س، ل، ب) التي تعني أخذ الشيء بخفة واختطاف[١]، وهي تأتي في اللغة بمعان كثيرة، فيقال للسّطر من النّخيل: أُسْلوب، وكلّ طريق ممتدّ: هو أُسْلوب، والأُسْلوب: الطّريق، والوجه، والمذهب؛ يقال: أنتم في أُسْلوب سوء، والأُسْلوب: الفنّ؛ يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه[٢].

وأما في اصطلاح العلماء فله عدة تعريفات، منها ما عرّفه ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنّه: «المنوال الذي ينسج فيه التراكيب، والقالب الذي تفرغ فيه»[٣].

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٩٢).

(٢) ينظر: لسان العرب (٧/ ٢٢٥).

(٣) مقدمة ابن خلدون (ص: ٥٧٠).

بينما عرّفه الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «الضرب من النظم، والطريقة فيه»[(١)]، وقريب منه تعريف العلوي في الطراز[(٢)].

وقال القرطاجني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالأسلوب هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية، والنظم هيئة تحصل عن التأليفات اللفظية»[(٣)].

وبتأمل هذه التعريفات نجد أن بعض العلماء يطلق الأسلوب ويريد به الألفاظ كما عند ابن خلدون، والجرجاني وغيرهما - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ -، وهو المستعمل عند بعض علماء علوم القرآن الكريم[(٤)]، وبعض آخر ينسحب عنده على الصورتين اللفظية والمعنوية، وهذا هو الغالب عند الأدباء والبلاغيين وهو الأشهر من حيث الاستخدام العام[(٥)].

وحينما تكلم الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أساليب القرآن الكريم وفنونه البليغة، قال عن الأساليب البلاغية: «والصحيح أنّ الموضوع مجموع المعاني والألفاظ، إذ اللفظ مادة الكلام الذي منه يتألف، ومتىٰ أخرجت الألفاظ عن أن تكون موضوعا خرجت عن جملة الأقسام المعتبرة؛ إذ لا يمكن أن توجد إلا بها»[(٦)].

(١) دلائل الإعجاز (ص: ٤٦٩).

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، للمؤيد بالله يحيىٰ الحسيني (٢/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء (ص: ٣٥٤، ٣٥٥).

(٤) ولم أجد تعريفًا دقيقًا لأسلوب القرآن كمصطلح علمي في علوم القرآن إلا ما سبق من نقولات متناثرة، ولم يذكره الأستاذ الدكتور الشايع، في كتابه معجم مصطلحات علوم القرآن.

(٥) ينظر التفصيل في: كتاب الأسلوب، لأحمد الشايب (ص: ٤١-٤٦).

(٦) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٨٢).

وقال الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلىٰ هذا فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه»[(١)].

والمتأمل في كلام المفسرين وعلماء الشرع حول هذا المفهوم يجد أنهم لم يحدّدوا له ملامح واضحة؛ وذلك لعدم وروده في النصوص الشرعية، فتراهم يتحدثون عن الأسلوب ويقصدون به السبك اللفظي للقرآن كما سلف، وفي أحايين أخرىٰ يتعاملون معه، ويريدون الدلالات والمعاني؛ لذلك يقولون: الأسلوب البلاغي، والقصصي، والعقلي، والحواري، ونحوه كما سيأتي، وهو نظر إلىٰ المعاني، وكلها إطلاقات تدور حول النص ، إذ هو المقصود أصالة.

والأمر بين الرأيين قريب؛ فإن الألفاظ لا يمكن النظر إليها بمعزل عن معانيها، كما أنه لفظ اصطلاحي وليس شرعيا ، فلا نحتاج أن نقف عنده كثيرًا.

فخلاصة الأمر: أنّ مقصودنا هو الدراسة التفصيلية الشاملة لجميع الإطلاقات اللغوية للأسلوب ، فهي تعم الأسلوب اللفظي للنص أصالة، والمعنوي تبعًا؛ وعليه يمكن أن نعرف الأسلوب القرآني بأنّه:

طريقة القرآن الكريم في اختيار الألفاظ، وتأليف الكلام، والدلالة علىٰ المعاني.

ثانيًا: مفهوم الوسائل:

الوَسائِل: جمع وسيلة، وهي تأتي بمعنىٰ الرغبة والطلب، يقال: وَسَل: إذا رغب، والواسِل: الراغب إلىٰ الله تعالىٰ، كما في قول لبيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٢)]:

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٣٠٣).

(٢) ديوان لبيد (ص: ٢٨).

أرىٰ النَّاسَ لَا يَدرُونَ ما قَدرُ أمرِهِمْ   بلىٰ كلُّ ذي لُبٍّ إلىٰ اللّهِ وَاسِلُ(١)

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوسيلة: التوصّل إلىٰ الشيء برغبة وهىٰ أخص من الوصيلة لتضمنها لمعنىٰ الرغبة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وحقيقة الوسيلة إلىٰ الله تعالىٰ مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحرىٰ مكارم الشريعة وهىٰ كالقربة، والواسل: الراغب إلىٰ الله تعالىٰ»(٢).

فوسائل القرآن الكريم هي الطرق التي جاء بها القرآن الكريم؛ لتحقيق هداياته، وهي أنواع كثيرة بحسب الغاية المقصودة منها؛ فلذلك سنتناول أنواعًا من الوسائل التي أصل لها القرآن الكريم لتحقيق الهدايات، كالأمر بالدعاء، والتدبر لآياته، والتفكر في أصل الخلق، والنظر والاستدلال، والتذكير بالنعم، وغيرها.

والفرق بين الأساليب والوسائل: أنّ الأساليب هي القوالب التي تصاغ فيها المعاني، وتعرض بها الهدايات، في حين أنّ الوسائل هي الطرق التي جاء بها القرآن الكريم؛ لتحقيق الهدايات، ومتىٰ سلكها الإنسان كانت سببًا في إيصاله إلىٰ الهداية بأنواعها - بتوفيق الله تعالىٰ -.

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة (٦/ ١١٠).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٧١).

المبحث الأول

أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات

أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات

تمهيد:

من أهم ما يميز القرآن الكريم في دعوته وهدايته أسلوبه اللغوي، فحينما يطلق الأسلوب يتبادر إلىٰ الذهن الجانب البلاغي[١]، وجميع الأساليب القرآنية داخلة فيه، مصاغة في قالبه، فقد نزل القرآن الكريم متحديا العرب في لغتهم التي كانوا يفاخرون بها، ويستوي عامتهم في تذوقها، وليس فقط التحدث بها، ومع ذلك عجزوا مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله، وليس عجزهم في الجانب العلمي في ذلك الوقت فحسب، بل كان في الجانب اللغوي أصالة؛ حيث ينفرد القرآن الكريم بسياقه الذي يدرك روعته، وجماله البلاغي، عامة العرب بسليقتهم.

وحول أهمية الأسلوب البلاغي يقول الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وهو المقصود الأعظم من هذا الكتاب، وهو بيت القصيدة، وأول الجريدة، وغرة الكتيبة، وواسطة القلادة، ودرة التاج، وإنسان الحدقة، علىٰ أنه قد تقدّمت الإشارة للكثير من ذلك.

اعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا ذوو بصيرة تستقصيه، وهو أرق من الشعر، وأهول من البحر، وأعجب من السحر، وكيف لا يكون؟!

---

(١) ولا يقصد بالبلاغة هنا العلم الاصطلاحي المعروف الذي ينتظم الفنون الثلاثة: (المعاني والبديع والبيان)، وإنما المقصود عموم الفصاحة.

وهـو المطّلع علىٰ أسـرار القرآن العظيـم، الكافل بإبراز إعجـاز النظم المبين، ما أودع من حسـن التأليف، وبراعـة التركيب، وما تضمنـه في الحلاوة، وجلله في رونـق الطلاوة، مع سـهولة كلمـه، وجزالتها، وعذوبتها، وسلاسـتها»[١].

والبلاغـة تتعلق بالتراكيب، وليسـت باللفظة المفردة؛ فـإن ألفاظ القرآن الكريـم هي مـن جنس ألفـاظ العـرب وكلماتهم، ولكن سـبكها في سـياقها، ونظمهـا في عقدها، يضفـي عليها ذلكم الإبداع البلاغي، بل الإيقاع السـماعي.

لذلـك تعرفهـا الوليد بـن المغيـرة المخزومـي بمجرد سـماعها، فقال عبارتـه المشـهورة: «وماذا أقـول فيـه؟! فوالله مـا منكم رجل أعلم بالأشـعار منـي، ولا أعلم برجـزه، ولا بقصيده، ولا بأشـعار الجنّ؛ مني، فوالله ما يشـبه الـذي يقول شـيئا مـن هـذا، والله إن لقوله الـذي يقـول لحـلاوة، وإن عليه لطـلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسـفله، وإنـه ليحطم ما تحتـه، وإنه ليعلو، ومـا يُعلىٰ»[٢].

أمـا الإيقـاع الصـوتي، فيدرك سـلطانه كل من لـه حـسّ وذوق، وإن لم يكـن عربيًّـا، وهذا سـر تأثر غيـر العـرب بالقرآن الكريـم، واسـتكانتهم عند سـماع تلاوته، وخشـوعهم عند ترتيله، ومن ثـم الهداية في تبني الإسـلام قبل فهم شـيء من معانيـه، وإنما بسـبب التغني بألفاظـه ومبانيه.

ونـودّ هنا النظـر في أنواع الجوانـب البلاغية التي كانت أسـلوبًا بارزًا من أسـاليب هداية القـرآن الكريم للعالميـن، وذلك بنظرة عجلـىٰ، نحليها بأمثلة،

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٨٢).

(٢) ينظر: تفسير عبد الرزاق (٣/ ٣٦٢)، جامع البيان (١٢/ ٣٠٩)، الكشاف (٤/ ٤٦٩).

كإلماحات توضح دلالتها على الهدايات، وليس المقصود الاستقصاء، فإنّ الأساليب كثيرة، ويصعب حصرها، كما يصعب استيفاء الأسلوب الواحد منها في هذه الدراسة، فبلاغة القرآن الكريم من الإعجاز الذي لا يمكن الإحاطة به، شأنها في ذلك شأن جميع الجوانب الإعجازية في القرآن الكريم، فكلام الله تعالىٰ صفة من صفاته، وصفات الله تعالىٰ تعلم عظمتها، ولا يحاط بها علمًا، فهي داخلة في عموم قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[طه: ١١٠]، كما أنّ المقام ليس مقامًا لغويًّا، فحسبنا أن نتبيّن أسرار التعبير القرآني، وتحقيقه للهداية، وتأثيره في القلوب، وأنه لا يمكن استبدال كلمة بغيرها، فتؤدي الكمال البلاغي نفسه، فسوف نعرض أبرز الأساليب القرآنية وأشهرها، مع مراعاة تنوعها، في أحد عشر مطلبًا، ومن الله تعالىٰ أستمد العون والسداد، والهداية والرشاد.

المطلب الأول

أسلوب الاستفهام

«أسلوب الاستفهام» تكرر كثيرا في القرآن الكريم، والأصل فيه أنّه سؤال عن أمر يجهله السائل؛ ولذلك يعرّف الاستفهام بأنّه: طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل، بأداة من إحدىٰ أدواته[1].

إلّا أنّ هذا المعنىٰ لا يمكن إضافته إلىٰ الله تعالىٰ؛ فهو بكل شيء عليم؛ ولذلك فإنّ الاستفهام الوارد في القرآن الكريم يراد به معان كثيرة، منها ما يلي:

• الإنكار أو الإقرار: كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[يونس: ٣٥]؛ فهنا استفهامان:

الأول: استفهام إنكاري، فقد أنكر أن يمتلك أحد من الخلق هداية التوفيق والإلهام، فهي مختصة بالله تعالىٰ، وهذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[الروم: ٢٩]، أي: لا أحد يهدي من أضله الله تعالىٰ، وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾[الزمر: ١٩]، أي: لا تملك هداية قلبه لتنقذه من النار لضلاله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنتم تعلمون أنّ شركاءكم لا تقدر علىٰ هداية ضالّ، وإنّما يهدي الحيارىٰ والضّلّال، ويقلّب القلوب من الغيّ إلىٰ الرّشد، الله الّذي لا إله إلّا هو»[2].

---

(١) جواهر البلاغة، للهاشمي (١/ ٧٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٧).

والثاني: فيه تقرير استحقاق من يملك الهداية للاتباع والعبادة دون غيره، وهو قوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[يونس: ٣٥].

ومن التقرير أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[الأعراف: ١٧٢] أي: أنا ربكم، والاستفهام هنا يكسب الخبر قوة، ويحمل السامع على الإقرار بالحقيقة في نفسه، وإن جحدها بلسانه.

• التوبيخ: ويكون علىٰ أمر وقع، كقوله تعالىٰ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[الصافات: ١٢٥]، فهنا توبيخ لهم علىٰ فعلهم الذي لا وجه له بحال، فكيف تقرون بخالقكم، ثم تدعون مخلوقًا له مفتقرًا إليه؟

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تقرير بالخشية منهم، وتوبيخ عليها»(١)، فالأحق بالخشية من تؤمنون بأن له الأمر كله، خالق الكون ومدبره.

• العتاب: وذلك كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[الحديد: ١٦]، ففيها معاتبة للمؤمنين؛ ليتعاهدوا قلوبهم، ويزيدوا إيمانهم؛ لذلك قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين»(٢).

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب التفسير، باب في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، برقم: (٣٠٢٧).

• التعجب: كقوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة: ٢٨]، فالاستفهام هنا للتعجب مع التقريع؛ لعدم وجود مقتضٍ للكفر بالذي خلقهم، وأحياهم، ويميتهم.

قال ابن عادل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيها معنىٰ الاستفهام الذي معناه التعجب»(١).

• التذكير: نحو قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[البقرة: ٣٣]، فالاستفهام هنا لتذكيرهم بما قاله تعالىٰ، بعد أن تبين لهم فضل آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو تذكير لهم بقوله لهم في أوّل المحاورة: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾»(٢)، وهو يتضمن معنىٰ التقرير أيضًا.

• الأمر والطلب: كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩١]، أي: انتهوا، وهذا ما فهمه عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال بعد نزول الآية: «انتهينا، انتهينا»(٣).

ومنه قوله سبحانه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[آل عمران: ٢٠]، فهو استفهام يتضمن الأمر، أي: أسلموا.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب (١/ ٤٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤١٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٥٣)، وأبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، برقم: (٣٦٦٩)، والترمذي في سننه، كتاب التفسير، سورة المائدة، برقم: (٣٠٤٩)، وقال: وقد روي عن إسرائيل هذا الحديث مرسلًا، وصحّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لفظه استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا كما قال: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي: انتهوا»[١]، فجاء الاستفهام هنا للطلب على سبيل الرفق والاستعطاف.

• الترغيب: كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾[البقرة: ٢٤٥]، ومثله قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الصف: ١٠]، وسنعرض تفصيلًا أسلوب الترغيب والترهيب؛ لما له من خصائص تجعله حقيقًا بالإفراد.

• التحضيض: أي الحض على الفعل وهو مندرج في عموم الترغيب، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة: ١٠٤]، ففيها الحضّ على التوبة والصدقة، مادام أن الله تعالى يقبلها، ويثيب عليها، و قوله سبحانه: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٢٢]، وفيها الحضّ على العفو؛ لينالوا مغفرة الله تعالى.

• التهكم والتبكيت: كقوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾[البقرة: ١٤٠]، فلا علاقة بين علمهم وعلم الله تعالى، ولكنه يتضمن التهكم والتبكيت بهم.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا تبكيت لهم في كتمانهم أحوال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وسائر الأنبياء»[٢].

---

(١) معالم التنزيل (٢/ ٢٠).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٣٢٦).

• الإخبار: كقوله تعالىٰ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[النور: ٥٠]، ففيها أنّ حالهم هذا إما لمرض في قلوبهم، أو شك وريب، أو يخافون الجور من الله تعالىٰ ورسوله، وهو يتضمن الذم لهم علىٰ جميع أحوالهم.

• التحقير: كقوله تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١]، فالمراد من الاستفهام هنا، تحقير هذه الآلهة التي لا تملك لهم موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا.

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً﴾ بل اتخذوا، والهمزة لإنكار اتخاذهم، ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: صفة لآلهة، أو متعلّقة بالفعل، علىٰ معنىٰ الابتداء، وفائدتها: التحقير دون التخصيص»[(١)].

• التهويل والتفخيم: كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[القارعة: ١-٣]، وقوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[الحاقة: ١-٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾[المطففين:٨]، وقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾[الواقعة:٤١]، فكلها استفهام، يفيد تهويل القيامة، وعذاب النار.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الحاقة: «أي: أيّ شيء هي؟ تفخيما لشأنها، وتعظيما لهولها، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ لأنه أهول لها، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾: وأيّ شيء أعلمك ما الحاقة؟ يعنىٰ: أنك لا علم لك بكنهها،

(١) أنوار التنزيل (٤/ ٤٨).

ومدىٰ عظمها، علىٰ أنّه من العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد، ولا وهمه، وكيفما قدرت حالها، فهي أعظم من ذلك»[١].

وهذه المعاني الاستفهامية قد يختلف المفسرون في توجيهها[٢]، وقد ذكر بعض الباحثين أنّ «الاستفهام» ذكر في القرآن الكريم في أكثر من (ألف ومائتي) موضع، وهو يكثر في موضوعات العقيدة، والمحاجة، والتذكير بالنعم، والبعث والحساب، والجنة والنار[٣]، وهو في جميع مواضعه، وعلىٰ مختلف التوجيهات والأقوال، محقّق للهداية من وجوه كثيرة، ومنها:

- أنّ «الاستفهام» يدفع العقل إلىٰ التفكير، ويدعو النفس إلىٰ الوقوف مع الحقائق المستفهم عنها، ومن ثم مراجعة المواقف والقناعات.

- كما أنّه يدفعه لأن يوجد في نفسه أجوبة مقنعة، وفي خضم ذلكم الحديث النفسي، يتولد الصراع الداخلي بين البقاء علىٰ الضلالة، أو اختيار سبيل الهداية، فإما أن يصدق ويستجيب، وإمّا أن يجحد بها ظلمًا وعلوًّا، فكان «أسلوب الاستفهام» من أنفع الأساليب في تقرير الهداية؛ لذلك نجد أنّه مستخدم ضمن أكثر الأساليب الأخرىٰ، كالقصص، والأمثال، والجدل، والترغيب والترهيب، كما سيتبين بإذن الله تعالىٰ.

(١) الكشاف (٤/ ٥٩٨).

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢١٢ – ٢١٥).

(٣) ينظر: أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، لعبد الكريم محمود (ص: ١٧١).

المطلب الثاني

التوكيد

ومن هذه الأساليب البلاغية «التوكيد» ، الذي يعرف بأنه: «مجيء اللفظ؛ لتقرير المعنىٰ الحاصل قبله ، وتقويته»(١)، وبتعبير آخر: «عبارة عن إعادة المعنىٰ الحاصل قبله»(٢).

فالتوكيد حاصل بكل تعبير يكسب المعنىٰ قوة، وثباتًا في النفس، ويكون ذلك بالمفردات والجمل.

ولا شك أنّ «التوكيد» من أهم أساليب تقرير الهداية وتثبيتها؛ لذلك كثر استخدامه في القرآن الكريم، وله فوائد كثيرة.

يقول الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«والتأكيد كما يكون لإزالة الشك، ونفي الإنكار مع السامع، كذلك يكون لصدق الرغبة، ووفور النشاط من المتكلم، ونيل الرواج، والقبول من السامع، وكون الخبر علىٰ خلاف ما يترقب، نحو: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾[الشعراء: ١١٧]، و﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾[آل عمران: ٣٦]، وتحسين إتيان ضمير الشأن، نحو: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وكذلك ترك التأكيد، فإنه كما يكون لعدم الإنكار، يكون أيضًا لعدم الباعث والمحرك من جهة المتكلم، ولعدم الرواج والقبول من جهة السامع.

(١) الكليات (ص: ٢٦٧).

(٢) التعريفات (ص: ٧١).

وقد يكون التأكيد لرد ظن المتكلم، كقولك: (أحسنت إليه، ثم أساء إليّ)، أو لإظهار كمال العناية كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[يس:٣]، أو كمال التضرع والابتهال نحو: ﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾[آل عمران: ١٦]، أو كمال الخوف، نحو: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾[آل عمران: ١٩٢]، إلىٰ غير ذلك من المعاني، التي تناسب التأكيد بوجه خطابي»[١].

والتوكيد علىٰ قسمين:

القسم الأول: أن يكون بنفسه، ويسمىٰ التوكيد اللفظي: ويكون بتكرار اللفظ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[الشرح:٥-٦]، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[الانفطار:١٧- ١٨]، وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[التكاثر: ٣ – ٤]، وقوله: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾[المؤمنون: ٣٦].

وكذلك يكون بتأكيد الفعل أو اسمه بالمصدر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾[الإسراء:٦٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء: ١٦٤]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب: ٥٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾[الطور: ٩ –١٠]، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[النمل: ٨٨]، وقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[الزلزلة: ١]،وقوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾[يوسف: ٥] وغيرها كثير، وهو عوض عن تكرار الفعل مرتين[٢].

(١) الكليات (ص: ٢٦٨).

(٢) البرهان في علوم القرآن بتصرف (٢/ ٣٩١، ٣٩٢).

القسم الثاني: التوكيد بغيره، ويكون بألفاظه المعروفة: (ككل، وجميع، وإنّ، والنون، واللام) وغيرها، فنجد أنّ الله تعالىٰ أكّد تحقيق القرآن الكريم للهداية بلفظ: ﴿ إِنَّ ﴾، فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، وأكّد بها أيضًا إثبات هداية الدلالة للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وأكّد حصول الهداية بالمجاهدة (باللام)، فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وأكّد أنه لا هادي إلا الله، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فكلّ هذه الأساليب البلاغية استخدمها القرآن الكريم؛ لتأكيد الهدايات بأنواعها، وتقوية المعاني الدالة عليها.

ومما يمكن أن يدخل في هذا الأسلوب من حيث الغاية منه:

- أسلوب القسم: إذ هو إنما يساق لتأكيد الكلام، فكل قسم في القرآن الكريم هو لتوكيد المقسم عليه، وبيان أهميته، كقسمه بالكتاب، وقسمه بمخلوقاته، كالشمس، والقمر، والنجوم، وقسمه بنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كقوله تعالىٰ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢].
- ومما يتّفق معه في بعض أغراضه: أسلوب الحصر، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، فكلّها تفيد التأكيد؛ فلذلك لم أجد حاجة إلىٰ إفراد هذه الأساليب في هذه الدراسة، التي مقصودها التأصيلات دون التفصيلات، والإشارات دون الاستطرادات[1].

(١) ينظر: دراسة وظيفية لأسلوب التوكيد في القرآن الكريم، لعائشة عبيزة (ص: ٥، ٧١).

المطلب الثالث

التكرار

يعدّ «التكرار» من الأساليب البارزة التي استخدمها القرآن الكريم في عرض الهداية، فيقع التكرار في القصص، والأمثال، والأخبار، والأحكام، والترغيب والترهيب، وفي الألفاظ، والجمل، والموضوعات(١).

ومما يدلّ علىٰ هذا الأسلوب، قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾[الزمر: ٢٣].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنّما قيل له: مثاني؛ لأنّه كرّرت فيه القصص، والفرائض، والحدود، والثواب، والعقاب»(٢).

ثم بيّن الحكمة من ذلك فقال: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر: ٢٣]، فكان التكرار سبيلًا للهداية، وسببًا يؤدي إليها.

وليس مقصودنا هنا من «التكرار» الموصول اللفظي، أو المعنوي، فقد سبق في أسلوب التوكيد، ولكننا نقصد «التكرار» المفصول للقصص، أو الأمثال، أو الأخبار، أو الأحكام، أو الإنشاءات، فهذا أسلوب آخر لعرض الهداية(٣).

(١) ينظر: عادات القرآن الأسلوبية، للدكتور راشد الثنيان (١/ ٣٢٢)، وما بعدها.

(٢) زاد المسير (٤/ ١٤).

(٣) وقد بيّن السيوطي وجوه الفرق بين (التكرار) و(التوكيد) كما في: الإتقان (٣/ ٢٢٥).

والتكرار المفصول علىٰ قسمين:

الأول: تكرار في اللفظ: وهو علىٰ صورتين؛ إمّا أن يكون التكرار في السورة نفسها، وإمّا أن يكون في القرآن الكريم كله.

مثال التكرار في السورة نفسها: تكرّر قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الشعراء: ١٩٠-١٩١]، في سورة الشعراء ثماني مرات.

وتكرّر قوله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[المرسلات: ١٥]، في سورة المرسلات (عشر) مرات.

وتكرّر قوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن: ١٣]، في سورة الرحمن (إحدىٰ وثلاثين) مرة.

وتكرّر قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر: ١٦-١٧]، في سورة القمر.

قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والادكار تكرر ثلاث مرات، فبثلاث مرار حصل التأكيد، وقد بينا أنّه تعالىٰ ذكر: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في حكاية نوح للتعظيم، وفي حكاية ثمود للبيان، وفي حكاية عاد أعادها مرتين للتعظيم والبيان جميعًا، واعلم أنه تعالىٰ ذكر: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في ثلاث حكايات (أربع) مرات: فالمرة الواحدة للإنذار، والمرات الثلاث للادكار، لأنّ المقصود حصل بالمرة الواحدة، وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ذكره مرةً للبيان، وأعادها ثلاثين مرةً غير المرة الأولىٰ، كما أعاد: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ثلاث مرات غير المرة الأولىٰ، فكان ذكر الآلاء عشرة

أمثال ذكر العذاب، إشارةً إلىٰ الرحمة، التي قال في بيانها: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[الأنعام: ١٦٠]»[(١)]، فتأمّل في هذه الهدايات؛ في دلالات «التكرار».

ومثال «التكرار» في القرآن الكريم كله: تكرّر قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[يونس: ٤٨]، (ست) مرات: في [يونس: ٤٨]، و[الأنبياء: ٣٨]، و[النمل: ٧١]، و[سبأ: ٢٩]، و[يس: ٤٨]، و[الملك: ٢٥].

وتكرّر قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[التوبة: ٧٣]، (مرتين) في [التوبة: ٧٣]، و[التحريم: ٩].

الثاني: التكرار في المعنىٰ دون اللفظ: وهو الأكثر في القرآن الكريم، وذلك: مثل قصص الأنبياء مع أقوامهم، وذكر الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، وجملة من الأخبار.

و«التكرار» في القرآن الكريم له فوائد، وحكم كثيرة، كما تقدم عن الرازي، وقد بيّن السيوطي طرفًا منها فقال:

«التكرير: وهو أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة خلافًا لبعض من غلط، **وله فوائد؛ منها:**

- التقرير؛ وقد قيل: الكلام إذا تكرّر تقرر، وقد نبّه تعالىٰ علىٰ السبب الذي لأجله كرّر الأقاصيص والإنذار في القرآن الكريم، بقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[طه: ١١٣].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣١٣).

• ومنها التأكيد.

• ومنها: زيادة التنبيه علىٰ ما ينفي التهمة؛ ليكمل تلقي الكلام بالقبول، ومنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾[غافر: ٣٨-٣٩]، فإنه كرّر فيه النداء لذلك.

• ومنها: إذا طال الكلام وخشي تناسىٰ الأول، أعيد ثانيًا؛ تطرية له، وتجديدًا لعهده، ومنه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾[النحل: ١١٩]، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾[النحل: ١١٠]، ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٨٩]، إلىٰ قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾[البقرة: ٨٩]، ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾[آل عمران:١٨٨]، ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي﴾[يوسف:٤]»[1].

• ومنها: التنوع البلاغي؛ فيذكر الخبر علىٰ طريقة الإيجاز، وعلىٰ طريقة الإطناب؛ إظهارًا لفصاحة القرآن علىٰ الطريقتين[2].

وبيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوائد تكرار قصة موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ نموذجًا لهدايات التكرار، فقال: «وقد ذكر الله هذه القصة في عدة مواضع من

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٢٤-٢٢٥).

(٢) ينظر: مقدّمة التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٩).

القرآن الكريم، يبيّن في كل موضع منها، من الاعتبار والاستدلال، نوعًا غير النوع الآخر، كما يسمىٰ الله ورسوله وكتابه بأسماء متعددة، كل اسم يدل علىٰ معنىٰ لم يدل عليه الاسم الآخر، وليس في هذا تكرار؛ بل فيه تنويع الآيات مثل أسماء النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إذا قيل: (محمد، وأحمد، والحاشر، والعاقب، والمقفىٰ، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة)، في كل اسم دلالة علىٰ معنىٰ ليس في الاسم الآخر، وإن كانت الذات واحدة، فالصفات متنوعة.

وكذلك القرآن الكريم، إذا قيل فيه: (قرآن، وفرقان، وبيان، وهدىٰ، وبصائر، وشفاء، ونور، ورحمة، وروح)، فكل اسم يدل علىٰ معنىٰ ليس هو المعنىٰ الآخر.

وكذلك أسماء الرب تعالىٰ، إذا قيل: (الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور)، فكل اسم يدل علىٰ معنىٰ، ليس هو المعنىٰ الذي في الاسم الآخر، فالذات واحدة، والصفات متعددة، فهذا في الأسماء المفردة.

وكذلك في الجمل التامة، يعبر عن القصة بجمل تدل علىٰ معان فيها، ثم يعبر عنها بجمل أخرىٰ، تدل علىٰ معان أخر، وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة، فصفاتها متعددة، ففي كل جملة من الجمل معنىً ليس في الجمل الأُخر»[١].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٦٧، ١٦٨).

وحول إعجاز «التكرار» في القرآن الكريم يقول الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وههنا معنىٰ دقيق في التحدي، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجبًا، وهو: التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف في طرق الأداء، وأصل المعنىٰ واحد، في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قصصه؛ لتوكيد الزجر، والوعيد، وبسط الموعظة، وتثبيت الحجة، ونحوها، أو في بعض عباراته؛ لتحقيق النعمة، وترديد المنة، والتذكير بالنعم، واقتضاء شكره، إلىٰ ما يكون هذا الباب؛ وهو مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم؛ للتهويل، والتوكيد، والتخويف، والتفجع، وما يجري مجراها من الأمور العظيمة، وكل ذلك مأثور عنهم، منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة.

بيد أنّ وروده في القرآن الكريم، مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته، وأنهم يعجزون عنه؛ لقوة غريبة فيه، لم يكونوا يعرفونها إلا توهمًا، ولضعف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة، لأن المعنىٰ الواحد يتردد في أسلوبه بصورتين، أو صور، كل منها غير الأخرىٰ، وجهًا، أو عبارة، وهم علىٰ ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة، ومستمرون علىٰ العجز، لا يطيقون ولا ينطقون.

فهذا لعمرك أبلغ في الإعجاز، وأشد عليهم في التحدي؛ إذ هو دليل علىٰ مجاوزتهم مقدار العجز النفسي، الذي قد تمكن معه الاستطاعة، أو تتهيأ المعاريض، حينًا بعد حين، إلىٰ العجز الفطري الذي لا يتأوّل فيه

المتأول، ولا يعتذر منه المعتذرون، ولا يجري الأمر فيه على المسامحة»[(١)].

فالمقصود الأول من «التكرار»، هو المقصود الأول من إنزال القرآن الكريم، وهو تحقيق الهداية، فإن التربية على الهداية والدعوة إليها تحتاج على الدوام إلى التذكير والتكرير، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الذاريات: ٥٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ٩-١٠].

فبكل ما سبق، تبيّن لنا أنّ «التكرار» بنوعيه: اللفظي، والمعنوي، أسلوب بلاغي قرآني؛ لتقرير الهداية.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص: ١٣٤-١٣٥).

المطلب الرابع

الطباق والمقابلة

من الأساليب البلاغية: «الطِّباق والمُقابلة»، ويسمىٰ: الطِّباق بالمُطابقة والتَّضاد أيضًا، وهو الجمع بين المتضادين، أي: معنيين متقابلين في الجملة[١]، وقد استُخدم كثيرا في القرآن الكريم، **وله عدة صور:**

- منها: أن يكون بلفظين من نوع واحد كالفعلين، وذلك كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[الرعد: ٢٧]، وقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[البقرة: ٢٦]، وقوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

والطباق يزيد المعنىٰ تأكيدًا ووضوحًا، وفي الجمع بين الهدىٰ والضلال في هذه الآيات وغيرها بيان لتمحض الهداية ووضوحها، وأن طريقها لا يجتمع مع الضلال بحال.

- ومنها: أن يكون اللفظان من نوعين مختلفين كالاسم والفعل في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾[الأنعام:١٢٢] يعني: من كان كافرًا ضالًا فهديناه، كما ثبت عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[٢].

---

(١) ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحي العلوي (٣/ ١٩٨)، الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٢٧).

(٢) جامع البيان (١٢/ ٩١).

وفي الآيـة أسـلوب بلاغي آخـر، وهو اسـتعارة المـوت مـكان الكفر، والحيـاة مـكان الهـدىٰ، والنور مـكان الإيمـان، وهـذا كقولـه تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطـر: ٢٢]، وهو ما سـيأتي تناوله في أسـلوب ضرب الأمثال.

وأما المقابلـة: فقد تكون مقابلـة اثنين باثنين كقولـه تعالىٰ: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾ [التوبـة: ٨٢]، فلفظـا: الضحك والقليل، يقابلـه لفظا: البكاء والكثيـر، وفيـه تأكيـد ما سـيحصل لهـم من بـكاء كثيـر في الآخـرة، مقابل ضحكهم القليـل في الدنيا.

- وقد تكـون بأكثر من ذلك، كمقابلـة أربعة بأربعة، كمـا في قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليـل: ٥ – ١٠].

قال السـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ ﴾ أي: ما أمر بـه من العبادات المالية، كالزكـوات، والكفـارات، والنفقـات، والصدقات، والإنفـاق في وجوه الخير، والعبـادات البدنية كالصـلاة، والصوم، ونحوهمـا، والمركبـة منهما، كالحج والعمـرة، ونحوهمـا، ﴿ وَٱتَّقَىٰ ﴾ ما نهي عنه، مـن المحرمـات والمعاصي، علىٰ اختلاف أجناسـها، ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: صدق بـ (لا إله إلا الله) وما دلّت عليه مـن جميع العقائـد الدينية، وما ترتـب عليها من الجـزاء الأخروي، ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي: نسـهل عليه أمره، ونجعله ميسرا لـه كل خير، ميسـرًا له ترك كل شـر؛ لأنّه أتىٰ بأسـباب التيسـير، فيسـر الله له ذلك، ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ ﴾ بمـا أمر به، فـترك الإنفـاق الواجب والمسـتحب، ولم تسـمح نفسـه بأداء مـا وجب لله،

﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلىٰ ربها، الذي لا نجاة لها، ولا فوز، ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بما أوجب الله علىٰ العباد التصديق به من العقائد الحسنة، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ أي: للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسرًا للشر أينما كان، ومقيضًا له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية»[١].

وقد بلغت هذه الآيات غاية البلاغة، حيث رسمت صورا من الهداية، ثم أعقبتها بما يقابلها من سبل الغواية، مما تجذب القلوب للتدبر، وتهيئ النفوس للتقبل، وتبين الطريقين، وتفرق بين النجدين.

- قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وقال بعضهم: المقابلة إما لواحد بواحد، وذلك قليل جدا، كقوله:﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[البقرة:٢٥٥]، أو اثنين باثنين، كقوله:﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا ﴾[التوبة: ٨٢]، أو ثلاثة بثلاثة، كقوله:﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[الأعراف: ١٥٧]، وأربعة بأربعة، كقوله تعالىٰ:﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾الآيتين، وخمسة بخمسة، كقوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾[البقرة: ٢٦]، الآيات، قابل بين﴿بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾، وبين﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، و﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وبين﴿يُضِلُّ﴾، و﴿وَيَهۡدِي﴾، وبين ﴿يَنقُضُونَ﴾، و﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾، وبين﴿وَيَقۡطَعُونَ﴾، و﴿أَن يُوصَلَ﴾، أو ستة بستة، كقوله:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾[آل عمران: ١٤]، الآية، ثم قال:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٢٦).

﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم﴾ [آل عمران: ١٥] الآية، قابل الجنات، والأنهار، والخلد، والأزواج، والتطهير، والرضوان، بإزاء ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾، ﴿وَٱلۡبَنِينَ﴾، ﴿ٱلذَّهَبِ﴾، ﴿وَٱلۡفِضَّةِ﴾، ﴿وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾، ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، ﴿وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾»[١].

فتبيّن من هذه الأمثلة اتساع ذكر هذا الأسلوب، وتنوع استخدامه، وقوة دلالاته، مما يكسبه أهمية تستدعي مزيد الوقوف معه عند استنباط الهدايات، واستخراج ما تحويه الآيات من إرشادات.

(١) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٢٨).

المطلب الخامس

أسلوب الالتفات

هذا الأسلوب مشهور عند علماء القرآن الكريم والتفسير والبلاغة، وهو أسلوب بلاغي عربي، تميز به القرآن الكريم، وكثر استعماله فيه، وتفنن المفسرون في بيان أغراضه البلاغية، ودلالاته الإعجازية.

ومعناه: انتقال الكلام من أسلوب إلىٰ آخر، في سياق واحد.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو نقل الكلام من أسلوب إلىٰ أسلوب آخر؛ تطرية واستدرارًا للسامع، وتجديدا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر؛ بدوام الأسلوب الواحد علىٰ سمعه كما قيل:

لا يصْلُحُ النَّفْسَ إن كانت مُصَرَّفَةً   إلا التَّنقُّلُ مِن حالٍ إلىٰ حالِ»[١]

وخصه الجمهور بانتقال الضمائر من خطاب إلىٰ غائب، أو متكلم إلىٰ خطاب، وبقية السداسية المشهورة التي ستأتي، وذهب بعضهم إلىٰ أن الالتفات عام في الضمائر والأفعال والأعداد[٢].

وأمثلة الالتفات كثيرة، بحسب أنواعه الستة علىٰ المشهور، نعرض لها، مع بيان فوائد هذا الأسلوب من خلالها، وأثره في الهدايات، وهي كما يلي:

١- مثال الالتفات من ضمير الغيبة إلىٰ التكلم؛ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]،

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٤).

(٢) المثل السائر، لابن الأثير (٢/ ٣).

فهنا التفات من أسلوب الغيبة في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، إلىٰ أسلوب المتكلم في قوله تعالىٰ: ﴿وَبَعَثْنَا﴾، ولو جاء الأسلوب علىٰ السياق السابق لكان: (وبعث).

وفائدة ذلك كما قال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والالتفات في قوله تعالىٰ: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ للجري علىٰ سَنن الكبرياء، أو لأن البعث كان بواسطة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ»(١).

وأمثلته كثيرة، وغالب هذا النوع عائد علىٰ الله تعالىٰ؛ تعظيمًا له، وبيانًا لمزيد عناية بالملتفت إليه(٢).

٢- ومثال الالتفات من ضمير الغيبة إلىٰ الخطاب؛ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾[مريم: ٨٨-٨٩]، فكان الأسلوب للغيبة بحكاية قولهم في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، ثم انتقل إلىٰ أسلوب الخطاب في قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾، ولم يقل: (لقد جاؤوا)، وفي هذا الالتفات زيادة التوبيخ لهم، والتشنيع عليهم، ومواجهتهم بجرمهم.

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ علىٰ الالتفات للمبالغة في الذم، والتسجيل عليهم بالجراءة علىٰ الله تعالىٰ»(٣).

٣- ومثال الالتفات من ضمير الخطاب إلىٰ الغيبة؛ قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٤).

(٢) ينظر: عادات القرآن الأسلوبية (٢/ ٦٤١).

(٣) أنوار التنزيل (٤/ ٣٥).

بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[يونس: ٢٢].

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد التفت عن ﴿كُنتُمۡ﴾ إلىٰ ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾، وفائدة العدول عن خطابهم إلىٰ حكاية حالهم لغيرهم؛ لتعجبه من فعلهم وكفرهم، إذ لو استمر علىٰ خطابهم؛ لفاتت تلك الفائدة.

وقيل: لأن الخطاب أولا كان مع الناس، مؤمنهم وكافرهم، بدليل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾، فلو قال: (وجرين بكم)؛ للزم الذم للجميع، فالتفت عن الأول؛ للإشارة إلىٰ الاختصاص بهؤلاء، الذين شأنهم ما ذكره عنهم في آخر الآية، فعدل عن الخطاب العام إلىٰ الذم الخاص ببعضهم، وهم الموصوفون بما أخبر به عنهم.

وقيل: لأنهم وقت الركوب حصروا؛ لأنهم خافوا الهلاك، وتقلب الرياح، فناداهم نداء الحاضرين، ثم إنّ الرياح لما جرت بما تشتهي النفوس، وأمنت الهلاك؛ لم يبق حضورهم كما كان، علىٰ ما هي عادة الإنسان أنه إذا أمن غاب، فلما غابوا عند جريه بريح طيبة، ذكرهم الله بصيغة الغيبة، فقال: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾»[1].

٤- ومثال الالتفات من ضمير الخطاب إلىٰ التكلم؛ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾[البقرة:١٨٦]، فهنا التفات من أسلوب خطاب الله تعالىٰ للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، إلىٰ أسلوب المتكلم، فلم يقل: (فقل إني قريب)، وإنما قال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٨).

﴿ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾، وفي هذا الالتفات أنواع من الهدايات العظيمة، والمعاني البليغة، بيّن طرفًا منها ابن عاشور بقوله:

«وإنما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ ولم يقل: فقل لهم إني قريب؛ إيجازًا لظهوره، من قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾؛ وتنبيهًا علىٰ أن السؤال مفروض، غير واقع منهم بالفعل، وفيه لطيفة قرآنية ، وهي: إيهام أن الله تعالىٰ تولىٰ جوابهم عن سؤالهم بنفسه؛ إذ حذف في اللفظ ما يدل علىٰ وساطة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تنبيها علىٰ شدة قرب العبد من ربه في مقام الدعاء»(١).

٥- ومثال الالتفات من ضمير التكلم إلىٰ الغيبة؛ قوله تعالىٰ: ﴿طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾[طه:١-٤]، فهنا التفات من أسلوب المتكلم: ﴿أَنزَلۡنَا﴾ إلىٰ أسلوب الغائب: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ﴾.

وفي ذلك يقول الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلىٰ لفظ الغائب؟ قلت: غير واحدة: منها: عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة، ومنها: أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة، ومنها: أنه قال أولًا: ﴿أَنزَلۡنَا﴾ ففخم بالإسناد إلىٰ ضمير الواحد المطاع، ثم ثنّىٰ بالنسبة إلىٰ المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين»(٢).

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٧٩).
(٢) الكشاف (٣/ ٥١).

٦- ومثال الالتفات من ضمير التكلم إلىٰ الخطاب؛ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس:٢٢].

وفي هدايات هذا الالتفات يقول الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه، وهو يريد مناصحة قومه، فقال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي: أي مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني؟ ثم رجع إلىٰ خطابهم؛ لبيان أنه ما أراد نفسه؛ بل أرادهم بكلامه فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، ولم يقل: (إليه أرجع)، وفيه مبالغة في التهديد»[١].

والأمثلة علىٰ أسلوب الالتفات كثيرة، ومن خلال ما ذكر ظهر لنا بعض وجوه الإعجاز البلاغي لهذا الأسلوب، ومدىٰ تأثيره في تحقيق الهدايات، وبه تظهر أهميته، وضرورة العناية به في استخراج الإرشادات من الآيات؛ لذلك يقول الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«نرىٰ من أفانين الكلام الالتفات، وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم، أو الخطاب، أو الغيبة، إلىٰ طريق آخر منها، وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسمّاه ابن جني: شجاعة العربية؛ لأنّ ذلك التغيير يجدد نشاط السامع، فإذا انضم إليه اعتبار لطيف، يناسب الانتقال إلىٰ ما انتقل إليه، صار من أفانين البلاغة، وكان معدودا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن الكريم ما لا يحصىٰ كثرة، مع دقة المناسبة في الانتقال»[٢].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤١٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٩).

المطلب السادس
الأسلوب الجدلي والحواري

«الجَـدَل والحِـوار»، قيـل: إنهمـا بمعنـىٰ واحد، كمـا في قولـه تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[المجادلـة: ١]، فسـمىٰ جدالها محاورة، وقيل: الحـوار أعم من الجدل؛ إذ هـو عـام في كل محادثـة بيـن طرفين، وهـو الأشـهر، والآية تحتملـه، كما سـيظهر في ثنايا التفصيل(١).

قـال ابـن منظـور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهـم يتحـاورون أي: يتراجعـون الـكلام، والمحـاورة: مراجعـة المنطـق والـكلام في المخاطبـة»(٢).

أمـا الجَدَل: فهو مصطلح شـرعي، في مقابـل المناظرة التـي هي إطلاق اصطلاحي.

ومعنـىٰ الجَـدَل كمـا قال ابـن فـارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجيـم والـدال واللام أصـل واحد وهو من باب اسـتحكام الشـيء في استرسـال يكون فيـه وامتداد الخصومـة ومراجعـة الـكلام»(٣)، ففيه ذكـر الحجج وشـدة تقريرها.

قـال النـووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجَـدَل والجِـدال والمُجادلـة: مقابلـة الحجة بالحجـة.. وأصلـه الخصومة الشـديدة، وسـمي جـدلًا؛ لأنّ كل واحد منهما

(١) ينظـر: الكافيـة في الجـدل، للجوينـي (ص: ٢١)، منهج الجـدل والمناظـرة، لعثمان علي (١/ ٢٧).

(٢) لسان العرب (٤/ ٢١٨).

(٣) معجم مقاييس اللغة (١/ ٤٣٣).

يحكم خصومته وحجته، إحكامًا بليغًا، علىٰ قدر طاقته؛ تشبها بجدل الحبل، وهو إحكام فتله»(١).

أما المُناظرة، فلها عدة تعريفات، منها: النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين؛ إظهارًا للصواب(٢).

وهما بمعنىٰ واحد كما أسلفنا، قال صديق حسن خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يبعد أن يقال: إن علم الجدل هو علم المناظرة ؛ لأن المآل منهما واحد»(٣).

والجدل في القرآن الكريم علىٰ نوعين؛ محمود، ومذموم:

فالجدل المحمود؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

والجدل المذموم؛ هو الجدال بالباطل، ومكابرة الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٤٨).

(٢) ينظر: الكليات (ص: ٨٤٩).

(٣) أبجد العلوم (٢/ ٢٠٨).

ويدخل في الجدل الباطل كذلك، الجدال بغير علم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾[الحج: ٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾[الحج: ٨]، وقال سبحانه: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[آل عمران: ٦٦].

قال ابن الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن الله سبحانه ذكر لفظة (الجدل)، وما تصرف منها، في كتابه العزيز، في تسعة وعشرين موضعًا، ولفظة الحجة، وما تصرف منها، في سبعة وعشرين موضعًا، ولفظة (السلطان) أيضًا، في ثلاثة وثلاثين موضعًا، الجميع المراد به: الحجة، سوىٰ موضع واحد، في الحاقة: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾[الحاقة: ٢٩]، وقيل: المراد به الحجة، فأما الجدل فهو مذموم، في كل موضع ذكر، إلا في ثلاثة مواضع:

أحدها: في النحل؛ ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[النحل: ١٢٥]، الموضع الثاني: في العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[العنكبوت: ٤٦]، الموضع الثالث: في المجادلة: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾[المجادلة: ١]»(١).

وقد استعمل القرآن الكريم أسلوب «الحوار والجدل والمناظرة»، أسلوبًا إقناعيًا دعويًا؛ لإيصال الهداية لمن يعقلها، بل دعا إلىٰ هذا الأسلوب فقال: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[النمل: ٦٤]، وقال: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[يونس:٦٨](٢).

---

(١) استخراج الجدل من القرآن (ص: ٤٩-٥٢).

(٢) ينظر: أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة، لحمد العثمان (ص: ٣٣).

وأول مجادلة ومحاورة حكاها القرآن، هي ما كانت من الملائكة، في قولهم - كما حكىٰ الله عنهم -: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾[البقرة: ٣٠]، فكان جواب الله تعالىٰ محققًا لأعظم معالم الهداية، في أول حوار يسوقه القرآن الكريم؛ منارةً للطريق في بداية خلق الإنسان، فقال سبحانه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: من ترتيب خلقي، وتدبير صنعي، المحوط بالحكمة، الدال علىٰ القدرة؛ فإنّي خلقت الملائكة من نور لا ظلمة فيه، فكان منهم الخير المحض بإرادتي، وخلقت الشياطين من ظلمة نار السموم، فكان منهم الشر المحض بإرادتي، وخلقت آدم وذريته من نور وظلمة، فكان منهم الخير والشر بإرادتي، ووضعت فيهم عقلًا يرشد إلىٰ المصالح، ونفسًا ميالةً إلىٰ الهوىٰ، وأمددت الفريقين بجندين، يسوقان العقل والنفس، إلىٰ ما سبق من التقدير، الناشئ عن علم التدبير، وكان حكمي في هذين الفريقين أنّ من غلب عقله علىٰ هواه فهو من الناجين، ومن غلب هواه علىٰ عقله فهو من الهالكين، وقد ركبت فيهم من الشهوة ما لو ركّبته فيكم؛ لفعلتم فعلهم، أو لم تطيقوا صبرهم، علىٰ أنهم قد أحبوني محبةً بذلوا فيها أبدانهم للتمزيق، ودماءهم للإراقة، وأرواحهم للذهاب، ومنهم الصابرون علىٰ أنواع المكاره، والصائمون في الهواجر، والعابدون علىٰ ضعف القوىٰ، والناهون نفوسهم مع قوة الهوىٰ، ويرون ذلك المرّ حلوًا في رضائي، وتسليمًا لقضائي، يسابق كلّ وليّ منهم بالعبادة أجله، يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة، فظهرت حكمة الله تعالىٰ في خلقهم، ورجحت حجة الله سبحانه علىٰ الملائكة في قدحهم[(١)].

(١) ينظر: استخراج الجدل من القرآن (ص: ٥٧-٥٩).

كما جادل القرآن الكريم مختلف الطوائف، وأهل الملل، فقد استغرق الحديث عن اليهود آيات كثيرة، من سورة البقرة، وآل عمران، وسورة المائدة، وغيرها؛ وذلك لكشف مكائدهم وعداوتهم لله سبحانه ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، ومعناه: أنّ العلة التي توجب عندكم الإيمان بالرسل قد وجدت، فلم قتلتموهم؟ فدلّ علىٰ أنّ التعليل بما ذكرتم غير صحيح، وهذا النقض وارد علىٰ معنىٰ كلامهم، وهو يهدم كلام الخصم علىٰ أي وجه كان، ويعدّ من القوادح العقلية، في علم الجدل والأصول.

ويجادل القرآن المشركين، فيقول سبحانه: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل: ٦٠ – ٦١] إلىٰ آخر الآيات، فكلها استخدم فيها أسلوب المناظرة، في الانتقال من المسلمات إلىٰ المطلوبات، فهم يسلمون بخلقه سبحانه للسموات والأرض، وإنزاله للمطر، وإنباته للشجر، وإجرائه للنهر، فألزمهم بهذا التسليم أن يفردوه بالعبادة، فقال: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: أنّ الذي خلق ما تقرّون به، هو المستحق للعبادة دون غيره.

فهذه المناظرات القرآنية، والأساليب الجدلية البرهانية، مع أصحاب الملل المختلفة، تحقق أعمق الهدايات، باعتقاد الحق، وبطلان ما هم عليه من الكفر.

وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمحاجّة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلىٰ الحق، ومن الجهل إلىٰ العلم، ومن العمىٰ إلىٰ الإبصار»[1].

لذلك كان الأسلوب الجدلي، من أهم الأساليب التي استخدمها الأنبياء، فجادل نوح قومه، كما في مواضع من القرآن الكريم، حتىٰ حكىٰ الله عنهم أنهم قالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾[هود: ٣٢]، وجادل إبراهيم عليه وسلّم أباه وقومه، فقال الله تعالىٰ فيه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام: ٨٣]، وجادل شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قومه، وجادل موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فرعون، وهكذا كانت المجادلة بالتي هي أحسن دأبًا للأنبياء بتعليم الله تعالىٰ لهم، ختما بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي تزخر سنّته بذلك، ولذا كان التوجيه الرباني لجميع أتباع الأنبياء من الدعاة والعلماء آمرًا بها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[العنكبوت: ٤٦].

(١) بدائع التفسير (٢/ ١٥٢).

وذكـر القـرآن الكريـم حـوارات متنوعة، للملائكـة، والجـن، والطير، والنمل، في لوحة بلاغيـة بديعة، في كل منها هدايات عقليـة، وإيمانية، وتربوية، يهتدي بها الناظرون، ويسـتضيء بمنارها السـائرون، بل لقد هيـأ القرآن أرضية الحـوار، بأن قعد التزام كل واحـد من المتحاورين أن يتبـع الحق إذا ظهر علىٰ لسـان مناظره، فقال سـبحانه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

ثـم طمأن المتحاوريـن إلىٰ أن الأمر كلـه لله، والهدايـة لا تحقق بمجرد المجادلـة، بل علـىٰ صاحب الحـق أن يبذل وسـعه، ثم الفتح مـن الله تعالىٰ، فقال: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سـبأ: ٢٦].

ثـم أمر بختـم الحـوار إن لم يـؤت أكلـه، ولم تـر حاجـة في المتابعة، ومقابلـة الخصـم علـىٰ ما بدر منـه من إسـاءات في الحـوار بالصـبر، وليكن العفـو والصفـح، أساسًـا وخلقًـا، في التعامل مـع الجاهليـن، فقـال تعالىٰ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السـجدة: ٣٠]، وقال: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النجـم: ٢٩]، وقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمـل: ١٠]، وقـال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فأسـلوب «الحوار والجدال» الحـوار والجدال أصـل متكامل في القرآن الكريـم؛ لتقريـر الهدايات، ومنهـاج للأنبيـاء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ مع أقوامهـم، ومنارة للدعـاة في تبليغ رسـالة ربهم جَلَّ وَعَلَا.

المطلب السابع

أسلوب ضرب الأمثال

«ضرب الأمثال» من الأساليب القرآنية العظيمة التي استخدمها القرآن؛ لتحقيق الهدايات، بمجالاتها المتعددة، كما قال تعالىٰ في أوائل كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[البقرة: ٢٦]، فدلت الآية علىٰ أن الأمثال يهتدي بها المؤمنون، ويضل بها المكابرون الفاسقون.

والكلام في هذا الأسلوب القرآني متسع مشعب، ولكننا هنا نشير إلىٰ الجانب الذي نحن بصدده، وهو تحقيق هذا الأسلوب للهداية، وسيكون ذلك من خلال بيان معنىٰ المثل، ثم بيان أنواعه، ثم فوائد ضرب الأمثال، وكل ذلك محلىٰ بنماذج من الآيات التي تصور لنا تحقيق الأمثال القرآنية للهداية.

المَثَل في اللغة: مأخوذ من النظير، والمساوي، والصفة، والعبرة، وما يجعل مثالاً لغيره[(١)].

قال الفيروز آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المِثْل - بالكسر والتحريك -.. الشِّبْه، والجمع أَمْثال.. والمَثَل - محرّكة -: الحجة، والصفة.. والمِثال: المقدار والقصاص»[(٢)]، إلىٰ غير ذلك من المعاني.

---

(١) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٨١٦)، لسان العرب (١١/ ٦١١)، مادة: (مثل).

(٢) القاموس المحيط (ص: ١٠٥٦)، مادة: (مثل).

فالنظير، والمساوي، وما يجعل مثلًا لغيره، كلها معان واضحة للمثل، وأما الصفة، فكما في قوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]، وكذلك في آية محمد: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقيل مثل ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[الفتح: ٢٩].

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمثل يقال علىٰ وجهين: أحدهما: بمعنىٰ المثل، نحو: شبه وشبه، ونقض ونقض، قال بعضهم: وقد يعبّر بهما عن وصف الشيء، نحو قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، والثاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنىٰ من المعاني أيّ معنىٰ كان»(١).

والمثل في معناه العام: قول سائر، تشبه به حالة الثاني بحالة الأول.

وهو تفصيلًا علىٰ ثلاثة أنواع:

الأول: المَثَل السائر الموجز؛ والمراد به عبارات موجزة تشيع وتنتشر ويكثر دورانها علىٰ الألسنة، في مواطن متعددة، وهو كثير في كلام العرب كقولهم: (لكل مقام مقال ولكل دهر رجال)، (رجع بخُفَّي حُنَين)، (كالمستجير من الرَّمْضاء بالنار)، وهو مذكور أيضا في أحاديث النبي

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٥٩).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولىٰ»(٢).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اليد العليا خير من اليد السفلىٰ»(٣)، وغيرها كثير.

ومن هذه الأنواع في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وغيرها.

فهي آيات ذات معنىٰ معين، ولكنها تستخدم في مواطن متعددة:

فالآية الأولىٰ: تستخدم في كل من لم يأت الأمور علىٰ وجهها.

والثانية: وإن كانت لتشبيه حال أعمال الكفار، إلا أنّها أصبحت مثلًا سائرًا في كل ما لا يرجىٰ تحصيله.

والثالثة: في كل ما كفي الإنسان مؤنته، وتخلص من تبعته.

وهذه الأمثال السائرة هي عبارة عن عمومات، تنزل علىٰ بعض المفردات، وقد استطاع بعض الدارسين المعاصرين أن يجمع منها نحو سبعمائة مثل، - والله أعلم -(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، برقم: (٣٤٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، برقم: (١٢٨٣)، واللفظ له، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في الصبر علىٰ المصيبة عند الصدمة الأولىٰ، برقم: (٩٢٦).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنىٰ، برقم: (١٤٢٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلىٰ، برقم: (١٠٣٤).

(٤) الأمثال العربية: دراسة تاريخية تحليلية، للدكتور عبد المجيد قطامش (ص: ١٣٠)، نقلاً عن الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، للدكتور الجربوع (١/ ٤٧).

الثاني: المَثَل الخيالي أو الخرافي؛ وهو عبارة عن حكايات خيالية، علىٰ ألسنة الحيوانات، أو الأشجار، أو الجمادات، يراد بها التعليم، أو العبرة، أو الفكاهة، كقولهم: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض)، وهو أسلوب أدبي قصصي عند العرب، كما في «كليلة ودمنة» لابن المقفع، وهذا النوع لا محل له في القرآن الكريم.

الثالث: المَثَل القياسي؛ وهو المثل القصصي الذي فيه تشبيه صورة بصورة، وهذا النوع يدخل في القياس، من جهة أن فيه تعديةً وتشبيهًا، كما أنه يدخل في الأساليب البلاغية، ضمن التشبيهات والاستعارات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وضرب الأمثال، وصرفها في الأنواع المختلفة، وكلها أقيسة عقلية، ينبه بها عباده علىٰ أن حكم الشيء حكم مثله، فإن الأمثال كلها قياسات يعلم منها حكم المَمَثّل من الممثّل به، وقد اشتمل القرآن الكريم علىٰ بضعة وأربعين مثلا تتضمن تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم»[(١)].

وهناك تقسيم آخر للأمثال، ذكره الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره، وهو أنّها علىٰ قسمين: **ظاهر**؛ وهو المصرّح به، **وكامن**؛ وهو الذي لا ذكر للمثل فيه، وحكمه؛ حكم الأمثال[(٢)].

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الكامنة، فقال الماوردي: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول: سألت

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٠١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٥٧١).

الحسين بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله، «خير الأمور أوساطها»؟ قال: نعم، في أربعة مواضع: قوله تعالىٰ: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[البقرة: ٦٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان: ٦٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ١١٠].

قلت: فهل تجد في كتاب الله، «من جهل شيئا عاداه»؟، قال: نعم في موضعين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾[يونس: ٣٩]، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[الأحقاف: ١١].

قلت: فهل تجد في كتاب الله، «احذر شر من أحسنت إليه»؟ قال: نعم: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾[التوبة: ٧٤].

قلت: فهل تجد في كتاب الله، «ليس الخبر كالعيان»؟ قال: في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[البقرة: ٢٦٠].

قلت: فهل تجد في «الحركات البركات»؟ قال: في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[النساء: ١٠٠].

قلت: فهل تجد «كما تدين تدان»؟ قال: في قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النساء: ١٢٣].

قلت: فهل تجد فيه قولهم: «حين تقلي تدري»؟ قال: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان: ٤٢].

قلت: فهل تجد فيه «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»؟ قال: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾[يوسف: ٦٤].

قلت: فهل تجد فيه، «من أعان ظالمًا سلط عليه»؟ قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الحج: ٤].

قلت: فهل تجد فيه قولهم: «لا تلد الحية إلا حية»؟ قال: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[نوح: ٢٧]..»[1].

وكما هو ظاهر فإن أكثر هذه الأمثال الكامنة، هي ضمن الأمثال السائرة التي سبق بيانها، وبعضها من الكنايات والاستعارات، وهي داخلة في المفهوم العام للأمثال القرآنية؛ لذلك لم نفردها في هذه الدراسة المختصرة.

وقد بيّن الله تعالىٰ أهمية ضرب الأمثال، وأن فهم حقيقة مراميها، وتدبر دقائق معانيها، واستخراج أعماق خوافيها، إنّما هو من خصائص أولي الألباب والتفكّر، والعلم والتدبر، فقال تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: ٢١].

فأمثال القرآن الكريم لها مميزات عظيمة، وفوائد جليلة تصب في معين الهداية، وتحلق بالمؤمنين في معارج الولاية، **ومن فوائد هذا الأسلوب ما يلي:**

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٠٤٥-١٠٤٦).

- ما فيه من إيجاز الألفاظ، واختصار العبارات؛ يدفع شرود الذهن والسآمة، فتتغلغل في دواخل العقل، وتؤتي أكلها في سويداء القلب.
- أنّ فيه بيانًا للمعنىٰ المراد، وإصابته بأوضح دلالة، فتدبر يسير، يفهم المثل، ووجهه، والغاية منه، والاعتبار به ، فتحقق الهداية بأيسر السبل.
- فيه حسن التشبيه، وقوة الصور البلاغية، فيكون أسلوبًا آخر للحوار، ونمطا متجددا للحجة، وطريقا للهداية.
- وفيه إيناس النفس، وسرعة قبولها وانقيادها، فالأمثال تروق لها الأسماع، وتنجذب لها الأفئدة.

قال عبد القاهر الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنّ مما اتّفق العقلاء عليه أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلىٰ صورته، كساها أبّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، وقسر الطّباع علىٰ أن تعطيها محبة وشغفًا.

فإن كان ذمًّا: كان مسه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشدّ، وحدّه أحد.

وإن كان حجاجًا: كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر.

وإن كان افتخارًا: كان شأوه أمدّ، وشرفه أجد، ولسانه ألد.

وإن كان اعتذارًا: كان إلىٰ القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسلّ، ولغرب الغضب أفلّ، وفي عقد العقود أنفث، وحسن الرجوع أبعث.

وإن كان وعظًا: كان أشفىٰ للصدر، وأدعىٰ إلىٰ الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر أن يجلىٰ الغياية، ويبصّر الغاية، ويبري العليل، ويشفي الغليل»(١).

والأمثال القياسية علىٰ أنواع:

١- منها: التمثيل القصصي؛ وهو بيان أحوال الأمم الماضية؛ للعظة والاعتبار، من خلال التشابه الموجود بينها وبين غيرها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[التحريم: ١٠](٢).

وهذا النوع يحقق الهداية من وجوه:

• منها: الاقتداء بأهل الهداية، المضروب بهم المثل الحسن، والانتهاء عن سبل الغواية التي ضرب بها مثل السوء، كما قال الله تعالىٰ عن شعيب في إنذار قومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾[هود: ٨٩].

• ومنها: أن عاقبة من ضرب بهم المثل متعدية إلىٰ غيرهم ممن هم علىٰ سننهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾[هود: ٨٢-٨٣]، وغير ذلك مما سيأتي في هدايات الأسلوب القصصي.

---

(١) أسرار البلاغة (ص: ١٠١- ١٠٢).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٠٤١).

٢- ومن أنواع الأمثال القياسية: التمثيل الطبيعي: وهو عبارة عن تشبيه غير المحسوس بالمحسوس، والغائب بالمشاهد، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، فهنا ضرب الله تعالىٰ مثلا للحياة الدنيا وزهرتها، وتزينها في عين ناظرها واغتراره بها، ثم سرعة انقضائها، وزوالها وفنائها، وسلبها منه بغتة، بنبات الأرض مما يأكله الناس والأنعام، والذي أخرجه الله بماء أنزله من السماء، حتىٰ إذا تزخرفت الأرض بأصنافها الزاهية، وازينت بأنواعها المختلفة، وظنّ أصحابها أنهم قادرون علىٰ جذاذها وحصادها، أتاها أمر الله من صاعقة، أو ريح، أو آفة، فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها، كأنها لم تكن شيئا بالأمس، وهكذا شأن الدنيا، تمر ساعاتها سراعًا، وتنقضي أوقاتها تباعًا، وأما الجنة فهي السليمة من الآفات، الدائمة في النعيم والخيرات؛ لذلك قال تعالىٰ بعد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥][(١)]، وفي ختمه بالهداية تأكيد لتحقيق الأمثال لها، وإيصالها إليها.

فهكذا هي الأمثال، واسعة الشعب، متعددة المقاصد، كالبستان الذي يستفاد منه فوائد متنوعة؛ بظلاله وعيونه، وأخشاب أشجاره، وروائح أزهاره، ومذاق ثماره.

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين (١/ ١١٨).

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ المقصود من ضرب الأمثال أنّها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقًا للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجردًا عن ضرب مثل له، لم يتأكد وقوعه في القلب، كما يتأكد وقوعه إذا مثّل بالنور، وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر، لم يتأكد قبحه في العقول، كما يتأكد إذا مثّل بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور، وضرب مثله بنسج العنكبوت، كان ذلك أبلغ في تقرير صورته، من الإخبار بضعفه مجردًا، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله»(١).

وقد نزلت الأمثال؛ لهداية الناس، فلذلك كانت تتميز بما تتميز به مراحل الهداية:

فالأمثال في المرحلة المكية كانت تتميز في الأغلب بما تتميز به الآيات المكية: من مجادلة المشركين، وإبطال آلهتهم، وتقرير التوحيد، وإثبات البعث، كما في سورة العنكبوت، حيث يقول سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، ففيها تشبيه عظيم؛ يضرب الله فيه مثلا لآلهة المشركين ببيت العنكبوت، ويشبه المشركين في اتخاذهم لهذه الآلهة بالعنكبوت التي اتخذت ذلك البيت الذي هو أوهى البيوت، وتحت هذا المثل أنّ هؤلاء لم يستفيدوا من اتخاذهم لآلهتهم،

(١) مفاتيح الغيب (٢/ ٣١٢)، وقال نحوه الزركشي في البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٨٨).

والاستنصار بهم، إلا بعدا عن نصرة الله وتأييده وتوفيقه، فحصل لهم باتخاذ هذه الآلهة نقيض مقصودهم، وعاملهم الله بضد مرادهم؛ فحقيقة الأمر أنهم كتلك العنكبوت التي تلقىٰ غاية التعب والعناء، وتشقىٰ غاية الشقاء، وتبذل جهدها في بناء بيتها، ومع ذلك لا ينفعها ولا يدفع عنها الضر، ولا يقيها الريح والمطر، ولا الحر والقر(١).

وفي بيان فضائل التوحيد، وقبائح الشرك، يقول تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦]، فضرب الله تعالىٰ هذا المثل العظيم لكلمة التوحيد، وشبهها بالشجرة الطيبة، التي تضرب بجذورها الأرض وتثبت فيها، وتمتد بأغصانها إلىٰ السماء، تؤتي أكلها، وتثمر ثمارها كل حين، وينتفع الناس بخيراتها، ممسين ومصبحين، وهكذا كلمة التوحيد، وشهادة الحق، إذا تمكنت في القلب، وثبتت فيه، وتغلغلت في سويدائه، وأخلص لها صاحبها، وعرف حقيقتها، وقام بحقها، أثمرت ثمارها اليانعة، وظهرت أنوارها الساطعة، فانعكست علىٰ الجوارح أعمالًا صالحة، وأقوالًا طيبة نافعة، ترتفع إلىٰ السماء، وتصعد إلىٰ الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، فتأمل هذا التمثيل البديع، والوصف البليغ.

---

(١) ينظر: تفسير السمعاني (٤/ ١٨٢)، بتصرف.

وكذلك يضرب الله مثلا لـ ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، وهي: كلمة الكفر والشرك، بشجرة ﴿خَبِيثَةٍ﴾، ومع خبثها، ونفور الطباع عنها، ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: اقتلعت، واستؤصلت من جذورها، ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ فلا قرار لها، أي: لا أصل لها، ولا ثبات، وبالتالي لا ثمر لها، حيث انقطعت عنها مادة السقي، وهكذا الكفر والشرك في قلب صاحبه، لا أصل له يمسكه ويثبته، ولا عمل له ينتجه ويصلحه، بل يبقىٰ كتلك الشجرة بضعفها ووهنها ، تعصف به الريح وتنفر عنه الفطرة ، ولا يصعد منه عمل إلىٰ الله تعالىٰ، فلا أصل له في الأرض، ولا فرع له في السماء، لا يؤتي أكله ؛ لانقطاع مادة الحياة، وهي: الإيمان والتوحيد، فبالمقارنة بين المثلين، والتدبر في حال الفريقين، تتحقق الهداية لأقوم النجدين.

وأمّا الأمثال المدنية؛ فهي في غالبيتها تأخذ الطابع المدني في علاج الأدواء التي ابتلي بها المجتمع في المدينة، كالنفاق كما في أول الأمثال في سورة البقرة، وهو المثل المائي والناري، وكانحرافات أهل الكتاب، حيث ضرب الله تعالىٰ بهم مثلًا بالحمار يحمل أسفارًا، كما في سورة الجمعة، وكذلك التركيز علىٰ الجوانب السلوكية، كما في مثل الغيبة الوارد في سورة الحجرات، حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾[الحجرات: ١٢]، فيصور الله تعالىٰ شناعة الغيبة وبشاعتها بهذا المثل، فكما أنّه يقبح في الطبائع، وتكره النفس غاية الكراهة أكل لحم أخيك وهو ميت، فكذلك لا بد أن يكون اغتيابه، والكلام عليه، والطعن فيه، وهو غائب عنك مثله،

ويتضمن هذا المثل القرآني غاية البلاغة، في التنفير من هذا الفعل، مما يحقق الهداية الأخلاقية، **وذلك من وجوه**[١]:

- منها: أن هذا المشبه به، وهو أكل لحم الأخ ميتًا، لا يمكن أن يختلف اثنان في استخباثه، واستعظامه، فكان هذا أبلغ في الزجر والتشنيع؛ لذلك بدأه بالاستفهام المسلم بجوابه.
- ومنها: أن الغيبة مما تسهل علىٰ اللسان، ولا تثقل علىٰ النفس أن تسلس لها القياد، بل قد تحبها، وتأنس بها، فكان لا بد من تشبيهها بما يصعب علىٰ النفس، ويثقل طبيعة، ويكره فطرة.
- ومنها: أن أغلىٰ ما في الإنسان عرضه، فمن نقص من عرضه، فكأنما نهش من لحمه، فالعرض هو الإنسان المعنوي، كما أن اللحم هو الإنسان الحسي.
- ومنها: أن تقييد اللحم بلحم الأخ؛ لزيادة التنفير، فإنه أفحش وأعظم حرمة من غيره، والمراد بها الأخوة الإيمانية، فهي الوشيجة الربانية.
- ومنها: أن الغائب لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الغيبة، والتهمة، والوقيعة، بل لا يشعر بها، وهذا مثل الميت لا يستطيع أن يدفع الاعتداء عن نفسه، وأذىٰ الحي له، ولا يشعر به.
- ومنها: أن الغيبة حركة بالأفواه، وذكر للمثالب، وتمزيق للأعراض، فهي في طريقتها كأكل اللحم، وتمزيقه، وصعوبة مضغه، وتقطيعه.

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين (١/ ١٣١)، بتصرف، مع زيادات تدبرية.

٧- ومنها: أن اللحم يغطي العظام فمن يأكله وينهشه يكشف عن العظام، وكذلك من يغتاب إنما هو كاشف لعيوب غيره، وهاتك لستره.

هذا ما يلوح من وجوه الهدايات في هذا المثل العظيم، ولو أعمل القلب بمزيد من التدبر والتفكر؛ لخرج بأكثر من ذلك، وعلىٰ هذا يسير المتأمل إذا أراد استخراج الهدايات من الأمثال.

وكذلك تميزت الأمثال المدنية بالصور المرغبة في الفضائل، كما في مثل مضاعفة النفقة، في سورة البقرة.

فالأمثال القرآنية، تتنوع بحسب التقسيمات السابقة؛ لتتعانق في تحقيق الهداية لكل من عقلها وتأملها، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣].

المطلب الثامن
الأسلوب القصصي

من المعلوم أن جميع آيات القرآن الكريم لا تخرج عن قسمين: إما أخبار، وإما إنشاءات.

والأخبار في جملتها ترجع إلىٰ ثلاثة أقسام:

١- أخبار عن الله تعالىٰ وأفعاله، وصفات كماله، وأسماء جلاله.

٢- وأخبار عن الأمم السابقة، كقصص الأنبياء، وغيرها.

٣- وأخبار تتعلق بالأحداث اللاحقة، من أشراط الساعة، والبعث، والجنة والنار.

فالقَصَص هو **النوع الثاني من الأخبار**.

وأصل القَصَص في اللغة مأخوذ من القَصّ: وهو تتبع الأثر، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾[الكهف:٦٤]، أي: رجعا يتتبعان الأثر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾[القصص: ١١]، أي: تتبعي أثره.

واقْتَصّ الحديث: رواه علىٰ وجهه، والقِصَّة: الأمر والحديث، والقِصَص بالكسر: جمع القِصَّة[(١)].

والقَصَص اصطلاحًا: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضًا[(٢)].

(١) لسان العرب (٨/ ٣٤١)، مادة: (قصص).

(٢) ينظر: القصة في القرآن الكريم، للدكتورة مريم السباعي (ص: ٢٧) وما بعدها.

ومن أهم أغراض القصص القرآني تحقيق الهداية، كما ذكر الله تعالىٰ ذلك في سياق بيان فوائد القصص، فقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف: ١١١].

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والهدىٰ الذي في القصص: العبر الباعثة علىٰ الإيمان والتقوىٰ بمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص علىٰ أن المتصرف هو الله تعالىٰ، وعلىٰ أن التقوىٰ هي أساس الخير في الدنيا والآخرة»(١).

والقصص القرآني علىٰ ثلاثة أنواع:

الأول: قصص الأنبياء، وهي تتضمن دعوتهم لأقوامهم، وما تعرضوا له في سبيل ذلك، ونصر الله تعالىٰ لهم، والمعجزات التي أيدهم بها، وعاقبة المكذبين لهم.

الثاني: قصص الأمم السابقة من غير الأنبياء، كأصحاب الكهف، وذي القرنين، ومريم، ولقمان، وأصحاب السبت، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل، وإبليس، وغيرهم.

الثالث: القصص التي وقعت في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كبعض الغزوات وغيرها.

وتتنوع موضوعات القصص القرآني، فتتناول الجوانب المختلفة، من العقيدة، والرسالات، والعبادات، والأخلاق، كما أنها تخاطب العقل

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٧٢).

والعاطفة معًا، بسياج بلاغي بديع، فهي تتنوع لتنتظم جميع الأساليب القرآنية، البلاغية، والعقلية، والحوارية، والترغيب، والترهيب، والتحدي، وغيرها.

ومن فوائد قصص القرآن الكريم كما سبق في الآية:

• الاعتبار والاتعاظ؛ قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ القصص التي قصها الله تعالىٰ عن الأمم الماضية، وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، إنما هو حديث حدث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين، وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم»(١).

لذلك نجد أن أكثر القصص تختم بمواعظ موجزة؛ لتتحقق بها الهداية، فبعد ذكر عدد من الأنبياء في سورة هود، يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[هود: ١٠٣].

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المعنىٰ: أن في هذه القرىٰ وما حل بها لعبرة وعلامة اهتداء لمن خاف أمر الآخرة، وتوقع أن يناله عذابها فنظر وتأمل، فإن نظره يؤديه إلىٰ الإيمان بالله تعالىٰ»(٢).

• كما أن فيها تثبيتًا لقلب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقلوب المؤمنين، علىٰ الهداية، وطمأنينة لهم بنصر الله تعالىٰ، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤ / ٢٢٥).
(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٢٠٦).

• وفيها: تسلية له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عما أصابه من المكذبين له؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[فاطر: ٢٥-٢٦].

• وفيها: بيان لصدق نبوة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون؛ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله سبحانه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود: ٤٩].

• وفيها: مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدىٰ، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[آل عمران:٩٣].

• وفي القصص القرآني: تعلم سبل الدعوة والإصلاح، ومعرفة طرق الهداية، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[الأحزاب: ٣٩].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ ذكره: سنة الله في الذين خلوا من قبل محمد من الرسل، الذين يبلغون رسالات الله إلىٰ من أرسلوا إليه، ويخافون الله في تركهم تبليغ ذلك إياهم، ولا يخافون أحدا إلا الله، فإنهم إياه يرهبون، إن هم قصروا عن تبليغهم رسالة الله إلىٰ من أرسلوا إليه، يقول لنبيه محمد: فمن أولئك الرسل الذين هذه صفتهم فكن، ولا تخش أحدًا إلا الله، فإن

الله يمنعك من جميع خلقه، ولا يمنعك أحد من خلقه منه، إن أراد بك سوءًا»(١).

- وفيها: التحذير من عاقبة الضلال، وحصول ما وقع من الهلاك للمكذبين، وتجدد المثلات: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الرعد: ٦]، وهو من عيون معاني قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾[القمر:٤].

- وفيها: بيان عدله تعالىٰ بعقوبة المكذبين، وإهلاك الظالمين؛ لقوله تعالىٰ عن المكذبين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ﴾[هود: ١٠١].

ولأهمية القصص في تحقيق الهداية، أمر الله تعالىٰ نبيه بأن يستخدم هذا الأسلوب الدعوي مع قومه، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧]، وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾[يونس: ٧١]، وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الشعراء: ٦٩]، وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾[الأعراف: ١٧٥]، إلىٰ قوله: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف:١٧٦].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فاقصص، يا محمد، هذا القصص، الذي اقتصصته عليك، من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبار الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصصت عليك نبأهم، ونبأ أشباههم، وما حل

(١) جامع البيان (٢٠/ ٢٧٧-٢٧٨).

بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رسلنا من نقمتنا، علىٰ قومك من قريش، ومن قبلك من يهود بني إسرائيل؛ ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا، وينيبوا إلىٰ طاعتنا، لئلا يحل بهم مثل الذي حل بمن قبلهم من النقم والمثلات، ويتدبره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقة أمرك وصحة نبوتك»[١].

بل أمر به عموم البشر، فقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[آل عمران: ١٣٧].

قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي الآية دلالة علىٰ أهمية علم التاريخ؛ لأنّ فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها، قال ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السير في الأرض، حسي ومعنوي، والمعنوي هو: النظر في كتب التاريخ، بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم، ما لا يحصل بالسير في الأرض؛ لعجز الإنسان، وقصوره»، وإنما أمر الله بالسير في الأرض دون مطالعة الكتب؛ لأن في المخاطبين من كانوا أميين، ولأن المشاهدة تفيد من لم يقرأ علمًا وتقوىٰ علم من قرأ التاريخ أو قص عليه»[٢].

فكلها معان لا بد من استحضارها عند تأمل الآيات القصصية، واستنباط ما فيها من هدايات ربانية.

---

(١) جامع البيان (١٣/ ٢٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٩٧).

المطلب التاسع
أسلوب التحدي والتعجيز

ورد هذا الأسلوب كثيرًا في القرآن الكريم؛ لتقرير الهداية في مجالاتها المتعددة، من التوحيد، وإثبات الرسالة، والتحدي بالقرآن، وغيره، كما أنه حكىٰ استخدام الأنبياء له في دعوتهم لأقوامهم.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معناه: «يقال: تَحَدَّىٰ فلان فلانًا: إذا دعاه إلىٰ أمر؛ ليظهر عجزه فيه، ونازعه الغلبة في قتال، أو كلام غيره، ومنه: أنا حدياك، أي: ابرز لي وحدك»(١).

فتحدىٰ الله تعالىٰ جميع الخلق بالإتيان بمثل هذا القرآن الكريم، أو بعضه، في ستة مواضع، و هي علىٰ ترتيب المصحف كما يلي:

١- قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة:٢٣].

٢- قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[يونس: ٣٨].

٣- قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[هود: ١٣].

٤- قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾[الإسراء: ٨٨].

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٩١).

٥- قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

٦- قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣ - ٣٤].

والجمهور علىٰ أنّ هذا التحدي جاء علىٰ مراحل:

وذلك أنه تحدّىٰ الخلق بالإتيان بمثله، فلما عجزوا عن الإتيان بمثله، تحدّاهم بعشر سور، فلما عجزوا، تحدّاهم بالإتيان بسورة واحدة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما صرّح تعالىٰ هنا بأن هذا القرآن ما كان أن يفترىٰ علىٰ الله، أقام البرهان القاطع علىٰ أنه من الله، فتحدىٰ جميع الخلق بسورة واحدة مثله، ولا شك أنه لو كان من جنس كلام الخلق؛ لقدر الخلق علىٰ الإتيان بمثله، فلما عجزوا عن ذلك كلهم حصل اليقين والعلم الضروري أنه من الله عَزَّوَجَلَّ»(١).

وهناك خلاف كبير في ترتيب نزول هذه الآيات.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحدىٰ العرب قاطبة بالقرآن، حين قالوا: افتراه، فأنزل الله تعالىٰ عليه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾، فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سور تشاكل القرآن، قال تعالىٰ: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾، ثم كرّر هذا، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي: من كلام مثله، وقيل: من بشر مثله، ويحقق القول الأول الآيتان السابقتان، فلما عجزوا عن أن يأتوا بسورة تشبه

(١) أضواء البيان (٢/ ١٥٦).

القرآن، علىٰ كثرة الخطباء فيهم والبلغاء، قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾»[1].

وبقية الأقوال تطلب في مظانها[2].

وتحدىٰ الله الخلق إن كان أحد منهم يملك أن يؤخر أجله، فضلا عن أن يعيد من قضىٰ عليه الموت تارة أخرىٰ، فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦-٨٧].

وتحدىٰ الله تعالىٰ المشركين وآلهتهم وبين عجزهم، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

﴿أَرُونِى﴾: أمر للتعجيز، ومعناه: إذا كنتم علمتم أن هذه الأصنام عاجزة، فكيف تعبدونها؟ وإن وقع لكم توهم أن لها قدرة ما، بوجه من الوجوه، فأروني تلك القدرة المزعومة؛ أهي في الأرض؟ أم في السماء؟[3].

وفي هذا إفحام؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يثبتوا شيئًا خلقته الأصنام، فيكون الأمر التعجيزي - عن طريق هذا الاستعمال والتركيب - أقوىٰ وأبلغ في انتفاء قدرة الخلق عن الأصنام من مجرد النفي.

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٩١).

(٢) ينظر: آيات التحدي في القرآن الكريم: الدلالة والإيحاء، للدكتور عبدالعزيز العمار.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: (٢٦/ ٢٩)، البحر المحيط (٧/ ٣٠٢).

بل تحداهم بأن يخلقوا ذبابة؛ بل أن يستنقذوا ما يسلبه الذباب منهم، ونفىٰ ذلك عنهم، ولو اجتمعوا عليه، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾[الحج: ٧٣].

وتحدىٰ اليهود؛ ليبين بطلان دعواهم، وانحرافهم، فقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾[البقرة: ٩٤-٩٦]، ولا زال التحدي قائمًا، والحجة ظاهرة عليهم.

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذه الآية أعظم حجة، وأظهر دلالة، علىٰ صحة رسالته صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه قال لهم: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾، وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبدًا، فلم يتمنه واحد منهم»(١).

بل هم من أجبن الناس في الاقتراب من أسبابه، كما وصفهم الله تعالىٰ بأنهم أحرص الناس علىٰ أيّ حياة، وإن كانت ذليلة حقيرة.

وقد أمر الله نبيه باستخدام أسلوب التحدي، كما في قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾[المرسلات: ٣٩]، وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، فتحدىٰ المشركين وآلهتهم الباطلة.

---

(١) بحر العلوم (١/ ٧٥).

وكذلك ورد التحدي على لسان كثير من الأنبياء، كما قال تعالى عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وقال عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في تحديه للملك: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقال عن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤-٥٥]، فكان هذا التحدي هو آيته إلى قومه؛ لإثبات نبوته، وتأييد الله تعالى له.

قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: « وهذا من أعظم آيات الرسل، أن يكون الرسول وحده، وأمته متعاونة عليه، فيقول لهم: كيدوني، فلا يستطيع أحد منهم ضرّه »(١).

وقال عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

فالتحدي أسلوب قويم؛ لعرض الهدايات، حيث يصلح مع المعاندين الجاحدين؛ ليقطع حجتهم، كما ينفع الشاكين المرتابين؛ ليرفع شكهم، وهو كذلك سبب في تثبيت قلوب المؤمنين، وزيادة يقينهم، وكلها من مدارج الهداية.

(١) زاد المسير (٢/ ٣٨٠).

المطلب العاشر

أسلوب الترغيب والترهيب

هذا الأسلوب من أكثر الأساليب ورودا في القرآن الكريم، وهو يمتزج مع غيره من الأساليب.

والترغيب في اللغة: من رَغِب يَرْغَب رَغْبَةً، إذا حرص علىٰ الشيء، وطمع فيه، والرَّغْبَة: السؤال والطّلب، وأَرْغَبَهُ في الشيء (غيره)، ورَغِب إليه، ورَغَّبَهُ تَرْغِيبًا: أعطاه ما رَغِب، والرَّغائِب: ما يُرْغَب فيه من الثّواب العظيم، يقال: رَغِيبَةٌ ورَغائِبُ[١].

وشرعًا: كل ما يشوّق المدعوّ إلىٰ الاستجابة، وقبول الحق، والثبات عليه .

وأما الترهيب في اللغة: فأصله رَهِب، كعَلِم، رَهْبَةً ورُهْبًا، بالضم، وبالفتح، وبالتحريك، ورُهْبانًا، بالضم، ويحرّك: خاف، والاسم: الرَّهْبَىٰ، ويضمّ، ويمدّان، والرَّهَبُوتىٰ، و«رَهَبُوتٌ - محرّكتين - خير من رَحَمُوتٍ»، أي: لَأَنْ تُرْهَبَ خير من أن تُرْحَمَ، وأَرْهَبَه، واسْتَرْهَبَه: أخافه، وتَرَهَّبَهُ: توعّده[٢].

وشرعًا: كل ما يخيف، ويحذر المدعوّ، من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله.

(١) ينظر: تاج العروس (٢/ ٥٠٩-٥١٠).

(٢) القاموس المحيط (ص: ٩٢).

و«الترغيب والترهيب»، أسلوبان دالان علىٰ صفات الكمال لله تعالىٰ، كقدرته، وقوته، وملكه، وعلمه؛ فلا يرغب ولا يرهب إلا من اتصف بذلك، وهو محقق للهداية مع أكثر الناس الذين لا يتبعون الحق إلا بترغيب بنتائج إيمانهم، أو ترهيب من عواقب كفرهم، كما أنه يزيد المؤمنين إيمانًا، وإصلاحًا لأعمالهم، فيحملهم علىٰ زيادة حسناتهم، وتقليل سيئاتهم.

والمؤمن يعبد ربه مع المحبة والتعظيم، بالرغبة والرهبة، كما قال تعالىٰ عن المخلصين من أنبيائه ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، والآيات في هذا كثيرة.

وقد تنوع أسلوب «الترغيب والترهيب» في عرض الهداية، علىٰ طرائق كثيرة، **يمكن إجمالها فيما يلي:**

١- الترغيب المباشر في الهداية بالأمر بها، والحث علىٰ تحصيلها، والسير علىٰ طريقها، كما قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل، وتقريره، وتثبيته، والاستمرار عليه؛ كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، أي: بصّرنا فيه، وزدنا هدى، وثبّتنا عليه»[1].

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣٤).

٢- بيان مكانة الهداية، وعلو مرتبتها، وشرف أهلها، فبين أنها نعمة أنعمها عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وبيّن أنها أعلى مراتب الكمال، وأعظم الخصال، حيث قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. ومن شريف مكانتها، أن الله تعالى نسبها إليه في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٥]، ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، وبمقابل ذلك نسب الضلال إلى غيره، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ [فصلت: ٢٩].

٣- الثناء على أهلها؛ ترغيبًا في التحلي بها، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧]، والمعنى: والذين شرح الله صدرهم للإيمان فاهتدوا: لطف الله بهم، فزادهم هدى، وأرسخ الإيمان في قلوبهم، ووفقهم للتقوى، فاتقوا وغالبوا أهواءهم[1].

٤- بيان عاقبة المهتدين، وما لهم في الآخرة من النعيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ [محمد: ٤-٦].

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٢).

٥- الترهيب بوصف من لم يتحل بها، بعدة أوصاف، تنفر من التفريط فيها:

- كوصفه بالظلم والجهل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

- وحب الدنيا، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧].

- والكذب والظلم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

- والفسق، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

- والعمىٰ، كما في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ﴾ [النمل: ٨١].

٦- ذم من استبدل بها غيرها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد والله رأيتموهم، خرجوا من الهدىٰ إلىٰ الضلالة، ومن الجماعة إلىٰ الفرقة، ومن الأمن إلىٰ الخوف، ومن السّنة إلىٰ البدعة»[1].

(١) جامع البيان (١/ ٣١٧).

وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[فصلت: ١٧]، والمقصود في الآيتين هداية الدلالة والإرشاد، حيث آثروا الضلال من بعد ما تبين لهم الحق، كما قال سبحانه عن اليهود: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٨٩].

٧- بيان أن ترك الهداية، وعدم السير على صراطها، من عمل الشيطان، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[الحجر: ٤٢] وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ -١٠٠]، وقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[النمل: ٢٤]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

٨- المقارنة بين الحالين، والجمع بين الطريقين؛ ليتمحض الهدىٰ من الضلال في مواطن كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[البقرة: ٢٦]، وقوله: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الملك: ٢٢]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ

أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ١٩-٢٥][1].

وهذه هي الطريقة الغالبة في «الترغيب والترهيب» وهي الجمع بينهما:

إما في آية واحدة، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [الأنعام:١٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[غافر: ٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ: ٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾[هود: ١٠٥].

وإما في آيات متتالية كما سبق.

وهذا الجمع أوقع في النفس، وأظهر دلالة؛ وبضدها تتبين الأشياء، وهذا ما سار عليه الأنبياء، فهذا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يقول لأبيه -كما قال الله تعالىٰ عنه-: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾[مريم: ٤٣ - ٤٥]، فرغبه في الهداية، ثم حذره من الغواية، باتباع الشيطان الذي عاقبته العذاب من

(١) ينظر: الهدايات في القرآن الكريم (ص: ١٧١-٢٢٢).

الرحمن، وهكذا كان منهج جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كما هو منثور في القرآن الكريم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير ذلك: «قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦]، ذكر جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية الكريمة أنه ما يرسل الرسل إلا مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم بالنار، وكرر هذا المعنىٰ في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]»(١).

فـ «الترغيب والترهيب» أسلوب قرآني، ومنهج دعوي، يخاطب العقل والعاطفة علىٰ حد سواء.

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٠٦).

المطلب الحادي عشر

أسلوب التقديم والتأخير

«التقديم والتأخير» في القرآن الكريم؛ **له صورتان:**

الصورة الأولىٰ: تقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، كتقديم المفعول علىٰ الفعل، أو الفاعل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]؛ للدلالة علىٰ الإخلاص، كما سيأتي، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقد بين الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فائدة تقديم لفظ الجلالة هنا، فقال: «تقديم اسم الله تعالىٰ؛ إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشون من هم، ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم، ولو أخر ذكر اسم ﴿ٱللَّهَ﴾، وقدم ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، فقيل: (إنما يخشىٰ العلماءُ اللهَ)؛ لصار المعنىٰ علىٰ ضد ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيان المخشي من هو، والإخبار بأنه الله تعالىٰ دون غيره، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالىٰ مقصورة علىٰ العلماء، وأن يكونوا مخصوصين بها، كما هو الغرض في الآية، بل كان يكون المعنىٰ: أن غير العلماء يخشون الله تعالىٰ أيضًا، إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالىٰ يخشون معه غيره، والعلماء لا يخشون غير الله تعالىٰ»[(١)].

الصورة الثانية: تقديم الكلمة في مواضع، وتأخيرها في مواضع، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[البقرة: ١٢٩]،

---

(١) دلائل الإعجاز (ص: ٣٣٨، ٣٣٩).

مع قوله تعالىٰ: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، حيث قدم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢] علىٰ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، بخلاف الآية الأولىٰ، كل بحسب السياق، ففي الآية الأولىٰ: كان ظاهر دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن البعث في الأمة المسلمة؛ فلذلك كانوا إلىٰ تعليم ما ذكر أحوج منهم إلىٰ التزكية؛ فإن أصلها موجود بالإسلام فأخر قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، أي: يطهّر قلوبهم، بما أوتي من دقائق الحكمة، فترتقي بصفائها، ولطفها، من ذروة الدين إلىٰ محل يؤمن عليها فيه أن ترتد علىٰ أدبارها، وتحرف كتابها، كما فعل من تقدمها، ولما ذكر سبحانه في سورة الجمعة بعثه في الأميين عامة، اقتضىٰ المقام تقديم التزكية، التي رأسها البراءة من الشرك الأكبر؛ ليقبلوا ما جاءهم من العلم.

وأما تقديمها في آل عمران؛ فلاقتضاء الحال بالمعاتبة علىٰ الإقبال علىٰ الغنائم، الذي كان سبب الهزيمة؛ لكونها إقبالًا علىٰ الدنيا، التي هي أم الأدناس(١).

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]؛ لمناسبة السياق؛ فالآية الأولىٰ سبقت بالحكم في الخصومات فقدم القسط، والآية الثانية جاءت بعد التذكير بميثاق الله تعالىٰ فقدم القيام لله تعالىٰ علىٰ القسط(٢).

---

(١) نظم الدرر (٢/ ١٦٢)، بتصرف.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٦/ ١٣٥).

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٣١]، مع قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، حيث قدم في الأولىٰ رزق الأولاد؛ لعدم وقوع الآباء في الإملاق، وإنّما مجرد الخشية، وقدم في الثانية رزق الآباء؛ لإملاقهم، وفقرهم[(١)].

وهذا الأسلوب من أهم الأساليب البلاغية التي تثمر فوائد فريدة، وتدل علىٰ هدايات عديدة؛ لذلك قال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلىٰ لطيفة، ولا تزال ترىٰ شعرا، يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر، فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلىٰ مكان»[(٢)].

ولأهميته نجد الكلام عليه قديمًا، منذ الصدر الأول، فقد روي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا في قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [النساء: ١٥٣]، قال: «إنّهم إذا رأوه فقد رأوه، إنما قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾، قال: هو مقدّم ومؤخر»[(٣)]، وكان ابن عباس يتأول ذلك: أن سؤالهم موسىٰ كان جهرة[(٤)].

---

(١) ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم: دراسة تحليلية، للدكتور منير المسيري (ص: ٧٧).

(٢) دلائل الإعجاز (ص: ١٠٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ٣٥٩)، برقم: (١٠٧٧٢).

(٤) جامع البيان (٩/ ٣٥٩).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾ [الكهف:١-٢]، « يقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (أنزل الكتاب عدلًا قيمًا، ولم يجعل له عوجا)، فأخبر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بقوله هذا مع بيانه معنىٰ القيّم، أن القيم مؤخر بعد قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾، ومعناه التقديم، بمعنىٰ: أنزل الكتاب علىٰ عبده قيّما»[١].

وروي عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، قال: «هذا من المقدم والمؤخر، أي: رافعك إليّ، ومتوفيك»[٢].

وقد تكلم العلماء في الفوائد البلاغية للتقديم والتأخير، فقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد يقدم لفظ في موضع، ويؤخر في آخر، ونكتة ذلك: إما لكون السياق في كل موضع يقتضي ما وقع فيه -كما تقدمت الإشارة إليه- وإما لقصد البداءة والختم به؛ للاعتناء بشأنه، كما في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] الآيات، وإما لقصد التفنن في الفصاحة، وإخراج الكلام علىٰ عدة أساليب، كما في قوله: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقوله: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١]»[٣].

وأما ما يحققه هذا الأسلوب من هدايات مع ما سبق، فيمكن **تناول بعضه كما يلي:**

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٥٩١).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٦١).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٤٧).

• التقديم بقصد الاختصاص المتضمن للإخلاص، كقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥]، أي: نخصك بالعبادة، فلا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة، فلا نستعين بأحد سواك، ونحو هذا قوله سبحانه: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[البقرة: ١٧٢]، أي: إن كنتم تخصونه بالعبادة، دون سواه[١].

• التقديم للحث علىٰ أمر، والحض علىٰ القيام به، وعدم التهاون فيه، كتقديم الوصية علىٰ الدَّين، في قوله تعالىٰ: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾[النساء: ١١]، مع أن حق الدَّين في تركة الميت مقدم علىٰ حق الوصية.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما كانت الوصية أقل لزومًا من الدَّين قدمها؛ اهتماما بها»[٢].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾[الشورىٰ: ٤٩ - ٥٠]، قدم الإناث؛ حثًّا علىٰ الإحسان إليهن، وحضًّا علىٰ رعايتهن، وعدم التهاون في شؤونهن.

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجها قريبا فقال: «وعندي وجه آخر: وهو أنه سبحانه قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات، حتىٰ كأن الغرض بيان أن هذا النوع المؤخر الحقير عندكم، مقدم عندي في الذكر»[٣].

(١) ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم (ص: ٧٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٧٤).
(٣) تحفة المودود بأحكام المولود (ص: ٢١).

• التقديم لبيان كثرة الأمر، مثاله قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ لأن الكفار أكثر، ونحوه قوله سبحانه: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ قدم الظالم لكثرة الظالمين، ثم المقتصد ثم السابق[١].

• التقديم لبيان عظمة الله وقدرته، كقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قلت: لم قدمت الجبال علىٰ الطير؟ قلت: لأنّ تسخيرها وتسبيحها، أعجب وأدلّ علىٰ القدرة، وأدخل في الإعجاز؛ لأنّها جماد، والطير حيوان، إلا أنه غير ناطق»[٢].

• التقديم بقصد التحذير والتنفير، كقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣]، فقد قدم الزانية علىٰ المشركة، مع أن جريمة الشرك أشنع؛ وذلك تحذيرًا من الزنىٰ، وتنفيرًا عنه[٣].

إلىٰ غيرها من الهدايات القرآنية التي يتضمنها أسلوب «التقديم والتأخير».

(١) دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم (ص:١٤٢).

(٢) الكشاف (٣/ ١٢٩).

(٣) ينظر كتاب: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم (ص:١٤٧).

المبحث الثاني
وسائل القرآن الكريم
في تحقيق الهدايات

وسائل القرآن الكريم في تحقيق الهدايات

سبق في مقدمة هذا الفصل الكلام عن مفهوم الوسائل، وخلصنا إلىٰ أنّها الطرق التي جاء بها القرآن الكريم؛ لتحقيق هداياته، وهي أنواع كثيرة بحسب الغاية المقصودة منها؛ فلذلك سنتناول أهمها، من خلال ثمانية مطالب، كما يلي:

المطلب الأول

الدعوة إلى التعقل والتفكر

من معلومات الشرع والواقع، أنّ الله تعالىٰ كرّم الإنسان وفضّله علىٰ سائر الأجناس، وأسجل عليه من الإحسان والنعم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء:٧٠]، فجعل الله تعالىٰ هذا الإنسان من أشرف الخلائق، وأودع في خلقه من آياته الباهرة، وأسبغ عليه من نعمه الظاهرة، ومن أعظم ما ميّز الله تعالىٰ به هذا الإنسان علىٰ سائر الحيوان، أن زينه بالعقل، وحثّه علىٰ التفهم والتفكر، وحضه علىٰ التعقل والتدبر، فأنزل الله جَلَّ وَعَلَا الآيات، مخاطبًا أولي النهىٰ والألباب، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد: ٤]،وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم: ٢١]، وقال: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾[الفجر: ٥]، أي: لذي عقل.

فتبيّن من ذلك أن هذا العقل من أعظم الامتنان، وأحسن التفضيل والإحسان.

قال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«لأنه جعل العقول معادن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار، إليها يأوي كل محصول، وبها يستدل علىٰ ما أخبر به من علم الغيوب، فبها يقدرون الأعمال قبل كونها، ويعرفون عواقبها قبل وجودها، وعنها تصدر الجوارح

بالفعال بأمرها، فتسارع إلىٰ طاعتها، أو تزجرها، فتمسك عن مكروهها»[(١)].

فلذلك كثر ورود الاستدلالات العقلية في القرآن الكريم، التي تخاطب العقل العام الذي هو مناط التكليف، والعقل الخاص الذي يتميز بمزيد من إعمال النظر، وإجراء الفكر، وهي من أهم وسائل القرآن في عرض الهدايات.

والاستدلالات العقلية داخلة في معاني الميزان، الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورىٰ: ١٧]، وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾[الرحمن: ٧].

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البُر والشعير، والذهب والفضة؟! أو تعتقد أن الميزان المقابل وضعه برفع السماوات والأرض هو الطيار والقبان؟! ما أبعد هذا الحسبان!! وما أعظم هذا البهتان !! فاتق الله، ولا تشطط، ولا تعسف في التأويل، واعلم أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله تعالىٰ، ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله، وملكه وملكوته»[(٢)].

وقد سار علىٰ هذا التعميم لكلمة الميزان، جماعة من المفسرين، فقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الميزان، فهو العدل، والاعتبار بالقياس

(١) فهم القرآن، للمحاسبي (ص: ٢٦٧).

(٢) القسطاس المستقيم، للغزالي (ص: ١٤-١٥)، وذكر نحوه ابن تيمية، ونقلها ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ١٠٣).

الصحيح، والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الآفاقية، والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات، والعلل، والأحكام، والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالىٰ، ووضعه بين عباده؛ ليزنوا به ما اشتبه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به، وأخبرت رسله، فما خرج عن هذين الأمرين: عن الكتاب، والميزان، مما قيل: إنه حجة، أو برهان، أو دليل، أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها، وعرف التمييز بين راجح الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه، وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة، والألفاظ المموهة، ولم تنفذ بصيرته إلىٰ المعنىٰ المراد، فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان، فوفاقه وخلافه سيان»[١].

والمراد بالقياس هنا معناه العام الذي هو الاستدلال العقلي المأخوذ من التسوية، والتقدير، والتعدية، والانتقال من الحقيقة الكلية إلىٰ الجزئيات، ومن المقدمات إلىٰ النتائج[٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٥٦).

(٢) وليس المقصود بالقياس هنا الأشكال المنطقية بأنواعها، وما فيها من حشو وتداخل، كما أنه لا يراد هنا تكلف استخراج ذلك من القرآن، كما فعل جماعة من المتكلمين حينما شرعوا يستنبطون لكل شكل برهاني أمثلته من الآيات، كما فعل الغزالي في كتابه «القسطاس المستقيم»، وانتقد ذلك ابن تيمية في كتابه «الرد علىٰ المنطقيين» (ص: ٣٣٧)، ولا يقصد كذلك القياس الأصولي بشروطه، ومسالك علله.

وقد استخدم القرآن الكريم الاستدلالات العقلية بأنواعها المختلفة؛ وسيلةً لتقرير معالم الهداية، في مجالاتها ومراتبها، فاستخدمه في الاستدلال لأصل الهداية وهو التوحيد، فقرر إثبات الخالق بطرق عقلية برهانية، فقال سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[الطور: ٣٥]، فهذه الآية الكريمة مع وجازتها تتضمن تقسيمين عقليين قطعيين، وتوضيحه بالسبر والتقسيم كما يلي:

إما أن يكون خلقهم صدر من خالق، أو لم يصدر من خالق أصلًا، وهذا تقسيم عقلي قطعي، منحصر في النقيضين المذكورين، ثم قسم أحد القسمين تقسيما عقليا آخر، وهو:

علىٰ فرض أنه خلقهم خالق فلا يخلو: إما أن يكون ذلك الخالق هو أنفسهم، أو ليس بأنفسهم، وصح بالحصر العقلي انحصار الأقسام في ثلاثة: أنهم خلقوا من غير شيء خالق لهم، أو أنهم خلقوا أنفسهم، أو أن خالقهم هو الله تعالىٰ.

وبالسبر الصحيح يتبين أن القسمين الأولين باطلان غاية البطلان:

فالأول: أنهم خلقوا بدون خالق: يلزم منه أن يوجد الممكن دون موجد وهو محال؛ لأن الممكن لا يترجح وجوده علىٰ عدمه إلا بمرجح، وكونه وجد من غير موجد، يقتضي الترجيح بلا مرجح، وهو ممتنع.

والثاني: أوجدوا أنفسهم؛ إما أن نفس المخلوق أوجد نفسه، أو أن المخلوق أوجده مخلوق آخر مثله، فأولهما باطل؛ لأنه يلزم أن يكون المخلوق متقدمًا علىٰ نفسه، باعتباره محدثًا، ومتأخرًا باعتباره حادثًا،

وتقدم الشيء علىٰ نفسه وتأخره عنه محال في غاية الامتناع، ويلزم منه اجتماع النقيضين وهو محال، فإن إيجاد الشيء نفسه قبل وجوده، عبارة أخرىٰ عن اجتماع وصفي الوجود والعدم علىٰ موضوع واحد، في وقت واحد، وثانيهما: وهو كون المخلوق أوجده مخلوق آخر؛ محال؛ لإفضائه إلىٰ التسلسل الممتنع عند عامة العقلاء[1].

فتعين بانتفاء هذين القسمين أن الذي خلقهم هو خالق السموات والأرض ومن فيهما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالقسم الصحيح من الأقسام حذف في الآية لدلالة المقام عليه، وهذا دارج عند العقلاء، كما قال الأخضري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]:

والحذفُ في بعضِ المُقَدِّماتِ أوالنتيجةُ لِعِلْمٍ آتِ

وهذا النظر العقلي الجامع لتحقيق التوحيد، والمانع من جميع صور التنديد: هو مدرك بفطرة العقل، ولا يحتاج في فهمه إلىٰ دراسات منطقية، ولا مقدمات فلسفية جدلية.

لذلك قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نفس العلم بأن المحدَث لا بد له من محدِث أبين وأقوىٰ وأظهر في العقل من كون الممكن لا يترجح إلا بمرجح..»، إلىٰ أن قال: «وكل من كان إلىٰ الفطرة العقلية والشرعة النبوية أقرب: كانت طريقته أقوم»[3].

---

(١) ينظر: آداب البحث والمناظرة للشنقيطي (٢/ ٢٢)، وذكر شيخ الإسلام عدة وجوه في درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٢٩٣) وما بعده.

(٢) السلم المنورق، مع شرحه رفع الأعلام (ص: ١٧٣).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٢٩٣).

فهذا جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بمجرد أن سمع هذه الآية، علم كوامن الهداية فيها، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، كاد قلبي أن يطير»(١)، فقد تعامل معها بفطرته، ولم يضطر إلىٰ تأصيلات منطقية فلسفية لفهمها.

كما نجد أنّ القرآن الكريم قد أثبت أصلًا آخر من أصول الهداية، وهو الإيمان بالبعث، بأدق الاستدلالات العقلية القياسية، التي تأخذ بألباب المتفكرين، وتغرس اليقين في قلوب المؤمنين، فإثبات إمكان الشيء يكون بإثبات إحدىٰ أمور ثلاثة، كلها قد اجتمعت في تقرير الهداية للمتقين بالجزم بوقوع يوم الدين، **وبيانها كما يلي:**

١- إثبات وقوع آحاده، مما يدل علىٰ وقوعه للجميع؛ لضرورة التسوية بين المتماثلات، وهو ما وقع لأفراد من الناس حكىٰ الله قصصهم في القرآن الكريم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وكما وقع لبني إسرائيل، حيث قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فإذا وقع البعث بعد الموت لهؤلاء القوم فوقوعه لعامة الخلق لا يمتنع قطعًا.

---

(١) كما في البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، برقم: (٤٨٥٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، برقم: (٤٦٣).

٢- إثبات وقوع نظيره وهو الخلق الأول، وإحياء الأرض بعد موتها، وتغير الخصائص بين المخلوقات، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

٣- إثبات وقوع ما هو أعظم منه، وهو يدل علىٰ وقوعه بقياس الأولىٰ، فبيّن أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان ابتداء أو إعادة، مما يدل علىٰ إمكانه، فقال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، فالذي خلق السماوات وكواكبها ونجومها مع سعتها وعظمتها، وخلق الأرض، وبحارها، وجبالها، وأشجارها، مع تنوعها، وكثرة خيراتها، كيف يعجز من قدر علىٰ ذلك عن أن يخلق أجسامهم بعد تحلّلها، ثم يعيد أرواحهم إلىٰ أعيانهم؟! وهذا قياس أولوي، فخلق السماوات والأرض أعظم، فما دونه أولىٰ منه[1].

وهذه الطرق في إثبات البعث ذكرها الله تعالىٰ في آيات عديدة، ومن أجمعها قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٧-٨١].

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٠٨)، تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٩٩).

وسأقف مع هذه الآيات لأبين وجوه الهدايات التي يحققها الإعجاز العقلي فيها بإيجاز.

ومحصله أن الله تعالىٰ يحكي شبهة يوردها الكافرون المنكرون للبعث، ثم يجيب عليها سبحانه بثلاثة أجوبة عقلية كافية، في دحض إنكار هؤلاء الجاحدين.

أما شبهة هذا الكافر، فهي قياسه قدرة الخالق علىٰ قدرة المخلوق، في استبعاد إحياء هذه العظام بعد أن بليت، ثم يبين الله تعالىٰ أن مثل هذا القياس إنما هو ذهول وغفلة عن أصل خلقه؛ لذلك يجيب الله تعالىٰ عليه بثلاثة أجوبة شافية، وهي حجج عقلية محكمة وافية[1]، **وهي كما يلي:**

الحجة الأولىٰ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هذا هو القياس الصحيح، والاستدلال المستقيم، فالذي أنشأ العظام وأوجدها وخلقها قادر علىٰ إحيائها وإعادتها بعد أن بليت، فلا فرق بينهما بل إيجادها من العدم أعظم من إعادة إحيائها، لذلك نجد أن هذا الدليل يحيط بالشبهة قبلها وفي أثنائها، وبعدها، فقد قال قبلها: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، وقال في أثنائها: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾، ثم قال بعدها: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذه الإحاطة تدل علىٰ إبطال الشبهة من أصلها، واجتثاثها من جذرها؛ لذلك ذكرها الله تعالىٰ في مواطن من كتابه، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[ق: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[الأعراف: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧].

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين (١/ ١٠٩).

الحجة الثانية: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[يس: ٨٠]، وهذا دليل على البعث، وإخراج الأموات من قبورهم، كما أخرج النار اليابسة المحرقة، من الشجر الأخضر الرطب البارد، ذي النضرة والثمرة، فتغير هذه الصفات والخصائص والأحوال، وإخراج الأشياء من أضدادها، كل ذلك دليل على قدرة الله تعالى على كل شيء، ومنه إعادة الحياة للعظام بعد فنائها، وتغير أوصافها، ومثله إحياء الأرض بعد موتها، وهو وما قبله من استخدام قياس الغائب على الشاهد[1].

الحجة الثالثة: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾[يس: ٨١]، وهذا دليل واضح للعقول، وإن ضعفت، فالذي خلق السماوات والأرض - باعتراف المشركين - قادر على أن يخلق مثلهم، وكذلك الذي خلق الإنسان قادر على أن يخلق مثله، فضلًا عن أن يعيده.

فتأمل هذه الدلائل الثلاثة، التي بلغت الغاية في تقرير هداية الإيمان بالبعث، والمتضمنة للطريقة القرآنية في ذكر الحجج البرهانية، والاستدلالات العقلية.

وكذلك استخدم القرآن الكريم الاستدلالات العقلية في تقرير الهداية بإبطال أعظم نواقضها وهو الشرك، فقرر بطلان عبادة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبطلان اتخاذه إلهًا، فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩]، فإذا كان كونه خلق من غير أب مسوغًا لاتخاذه إلهًا، فأولى منه في ذلك آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد خلق من غير أب ولا أم،

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٥٣، ٥٤).

لكن لما لم يكن آدم إلهًا باعترافكم، فمن باب أولىٰ أن لا يكون عيسىٰ إلهًا؛ لأن المعجزة فيه أدنىٰ من آدم، وكل شيء علىٰ الله يسير، وهو علىٰ كل شيء قدير.

كما قرّر بطلان عموم الشرك بقياس العكس، وهو إثبات المطلوب بإبطال نقيضه، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ٢٢].

ويسمىٰ هذا الدليل عند المتكلمين: بدليل التمانع، ويقررون به استحالة وجود خالقين متكافئين.

وقد حقق شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّه لتقرير توحيد الألوهية الذي جاءت به الرسل، وهو إبطال جميع المعبودات غير الله تعالىٰ، وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون: ٩١].

ومعنىٰ الآية: لو كان في السموات والأرض إله معبود إلا الله؛ لفسد نظام العالم؛ لأنه قام بالعدل، والشرك أكبر الظلم[(١)].

وهذا الدليل نفسه استخدم في تقرير أن القرآن الكريم كلام الله تعالىٰ، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢].

والاختلاف والتناقض باطل لا وجود له في القرآن الكريم، فثبت نقيضه، وهو أنه محكم معجز، فدلّ علىٰ أنه كلام الله تعالىٰ.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية (ص: ٤٩٣).

ومن الاستدلالات العقلية التي تحتاج إلىٰ تفكر؛ كل ما ورد في القرآن الكريم من بيان حال الذين عذبهم الله تعالىٰ علىٰ تكذيبهم لرسله، وعصيانهم لشرعه، والاستدلال علىٰ أن هذا الحكم عام شامل علىٰ من سلك سبيلهم، واتصف بصفتهم، وقد بين تعالىٰ ذلك العموم، وأن هذا الحكم متعد لكل من فعل فعلهم، فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾[القمر: ٤٣].

والشواهد علىٰ الاستدلالات العقلية في القرآن الكريم، وتحقيقها للهداية كثيرة، فكل عاقل مخاطب بالتكليف، يدرك هذه الاستدلالات بعقله المجرد، ومطلوب منه تعقلها والتفكر فيها، والدعوة إلىٰ الهداية باستخدامها، وما ذكر أمثلة دلالية، توقف علىٰ هذه الطريقة العميقة، من الاستدلالات العقلية الدقيقة في الآيات القرآنية.

المطلب الثاني
إنكار تقليد الآباء والكبراء

هذا المطلب يعتبر لازمًا لما سبق؛ لكون التقليد مانعًا من موانع التعقل والوصول إلى الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[التوبة: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[الأحزاب: ٦٧]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣]، إلى غيرها من الآيات.

فباعتباره يمنع أصحابه من التعقل من جهة، ومن الاتباع من جهة أخرى؛ كان إنكاره والتحذير منه وسيلة ظاهرة من وسائل الهدايات، فهو بمثابة تمهيد لطريق إيصالها، وإزالة العراقيل التي تعترضها.

والتقليد: هو قبول قول من ليس قوله حجة بغير دليل[(١)]، ويكون سببه إما الجهل، أو الهوى، أو العصبية للعادات، وهو مذموم في الباطل، وأما تقليد الجاهل للعالم المهتدي، واتباعه في الحق فهو صحيح.

(١) ينظر: التعريفات (ص: ٣٤)، الإحكام، لابن حزم (٦/ ١١٦)، التلخيص، للجويني (٣/ ٤٢٥).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تعلق قوم بهذه الآية في ذم التقليد؛ لذم الله تعالىٰ الكفار باتباعهم لآبائهم في الباطل، واقتدائهم بهم في الكفر والمعصية، وهذا في الباطل صحيح، أما التقليد في الحق فأصل من أصول الدين، وعصمة من عصم المسلمين، يلجأ إليها الجاهل المقصر عن درك النظر»[1].

وتفصيل القول في التقليد ومسائله في الشريعة يطلب في مظانه[2]، وإنما المقصود هنا بيان احتجاج الكفار بالتقليد، في الإعراض عن الحق، ورد القرآن الكريم علىٰ هذه الحجة؛ لتمهيد الطريق أمام الهداية.

وقد كان لإنكار تقليد الآباء والكبراء **عدة صور، ومعالجات متنوعة:**

- منها: الإنكار الصريح، كما سبق.
- ومنها: إرسال الرسل بالحجج والبينات، وجعلهم من أقوامهم، ويتحدثون بألسنتهم، ويعرفون عاداتهم، بل اختارهم من أشرافهم؛ ليكون قولهم أدعىٰ للقبول إذا خالف أعرافهم.
- ومنها: الدعوة إلىٰ المبادرة باستقلال التفكير الذاتي أو الجمعي، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢١١).

(٢) ينظر: المجموع، للنووي (١/ ٨٩)، المسودة، لآل تيمية (ص: ٥٥٣)، صفة الفتوىٰ، لابن حمدان (ص: ٥١)، البرهان، للجويني (٢/ ١٣٥٧)، المستصفىٰ، للغزالي (٢/ ٣٨٧)، الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي (٢/ ٦٦)، تيسير التحرير، لأمير بادشاه (٤/ ٢٤١)، شرح الكوكب المنير، للفتوحي (٤/ ٥٢٩) وما بعدها، إرشاد الفحول، للشوكاني (ص: ٢٦٥) وما بعدها.

• ومنها: الحض على العلم، فكان أول ما نزل من القرآن الكريم آية الأمر بالعلم في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[العلق: ١-٥].

وبيّن فضل العلم في آيات كثيرة، فقال سبحانه: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾[البقرة: ٢٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[فاطر:٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾[الزمر: ٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾[المجادلة: ١١].

ثم بيّن عاقبة من تنكر ذلك، وآثر الهوى على الهدى باتباع الكبراء، فحكى تبرؤ بعضهم من بعض في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة:١٦٦-١٦٧].

وفي بيان هذه الصورة القاتمة للتقليد، والمحاورة الخاسرة بين أربابه؛ يقول القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تبرأ المتبوعون؛ وهم الرؤساء الآمرون باتخاذ الأنداد، وكل ما عبد من دونه تعالى، من الذين اتبعوا من الأتباع، بأن اعترفوا ببطلان ما كانوا يدعونه في الدنيا لهم - أو يدعونهم إليه - من فنون الكفر والضلال، واعتزلوا عن مخالطتهم، وقابلوهم باللعن، وقرئ الأول على البناء للفاعل، والثاني على البناء للمفعول، أي: تبرأ الأتباع من الرؤساء ورأوا العذاب، (الواو) للحال، أي: تبرؤوا في حال رؤيتهم العذاب،

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، أي: الوصل التي كانت بينهم، من الاتفاق على دين واحد، ومن الأنساب، والمحاب، والاتباع، والاستتباع.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ حين عاينوا تبرؤ الرؤساء منهم، وندموا على ما فعلوا من أتباعهم لهم في الدنيا: ﴿ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: ليت لنا رجعة إلى الدنيا، فنتبرأ منهم هناك، ومن عبادتهم، ونعبده تعالى وحده كما تبرؤا منا اليوم، وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، كما أخبر تعالى عنهم بذلك، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل تلك الإراءة الفظيعة، ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ﴾ ندمات شديدة عليهم، أي: تذهب وتضمحل، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] الآية، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩] الآية، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾. [البقرة: ١٦٧].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

[سبأ: ٣١-٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]»[1].

فإنكار القرآن الكريم تقليد الآباء والكبراء، وسيلة نافعة في تقرير الهداية، استخدمها القرآن الكريم، وسار عليها الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ مع أقوامهم، كما قال تعالىٰ في قصة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنبياء: ٥٣-٥٤]، فهي وسيلة تربوية علىٰ قاعدة «التخلية قبل التحلية»، وهو علىٰ وزان الكفر بالطاغوت، ثم إعمار القلب بتعظيم ذي الملكوت، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(١) محاسن التأويل (١/ ٤٦٤، ٤٦٥)، باختصار يسير.

المطلب الثالث
الدعوة إلى تدبر القرآن الكريم

جاءت آيات كثيرة تحض علىٰ تدبر القرآن العظيم، منها أربع بلفظه الصريح، وهي قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون: ٦٨]، وقوله: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[ص: ٢٩]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فإنه لا يمكن الانتفاع بتلك الأساليب القرآنية إلا بتدبرها، فمن هذا الوجه كان الأمر بالتدبر وسيلة قرآنية، استخدمت لتحقيق الوصول إلىٰ الهدايات.

والتَّدبُر: النظر والتفكر في المعاني.

وعرّفه الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب»(١).

ومما قيل في تعريفه: «إنه العمل علىٰ تحقيق وتحديق النظر في ما يبلغه المعنىٰ القرآني المَديدُ من درجات الهداية إلىٰ الصراط المستقيم»(٢).

(١) التعريفات (ص: ٥٤). وينظر: الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٩٠).

(٢) العزف علىٰ أنوار الذكر، لمحمود توفيق (ص: ١١). وينظر: تعليم تدبر القرآن، للأهدل (ص: ١١-١٣).

فالقرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾[سبأ: ٥٠]، ولا تتحقق هذه الهداية إلا بتدبره وفهمه.

ولذلك نجد أن القرآن الكريم استخدم وسيلة الأمر بالتدبر في ثنايا عرضه للهداية؛ ليبين العلاقة الوثيقة، والوشيجة العميقة بينهما، ففي آية النساء يأمر بالتدبر، بعد الأمر بطاعة الله تعالىٰ، وطاعة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي تمام الهداية، وبعد بيان حال المعرضين عن طاعتهما، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[النساء: ٨٠-٨١]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كان ذلك كله أثرًا من آثار استبطان الكفر، أو الشك، أو اختيار ما هو في نظرهم أولىٰ مما أمروا به، وكان استمرارهم علىٰ ذلك، مع ظهور دلائل الدين، منبئًا بقلة تفهمهم القرآن، وضعف استفادتهم، كان المقام لتفريع الاستفهام عن قلة تفهمهم، فالاستفهام إنكاري؛ للتوبيخ، والتعجيب منهم في استمرار جهلهم، مع توفر أسباب التدبير لديهم»[(١)].

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٧).

وكذلك في آية سورة محمد، ورد الأمر بالتدبر بعد بيان حال المنافقين المعرضين عن الهداية، قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله، التي يعظهم بها، في آي القرآن، الذي أنزله على نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ يقول: أم أقفل الله على قلوبهم، فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه، من المواعظ والعبر»(١).

وكذلك في سورة (ص) لما بين حال المهتدين والمفسدين وأنهم لا يستوون، أخبر بأن القرآن الكريم أنزل؛ للتدبر فيه، في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٨-٢٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد من دار أخرىٰ، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة، والفطر المستقيمة، علىٰ أنه لا بد من معاد وجزاء؛ فإنا نرىٰ الظالم الباغي يزداد ماله، وولده، ونعيمه، ويموت كذلك، ونرىٰ المطيع المظلوم، يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم، العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك دارًا أخرىٰ لهذا الجزاء والمواساة، ولما كان القرآن يرشد إلىٰ المقاصد الصحيحة، والمآخذ العقلية

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٧٩).

الصريحة، قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: ذوو العقول، وهي الألباب، جمع لب، وهو العقل»(١).

فتدبُّر هذه المناسبات الدقيقة، يوضح بجلاء أن التدبر من أهم وسائل الهدايات، وقد بين الله تعالىٰ ذلك في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[الزمر: ٢٣]، فكان التدبر موصلًا إلىٰ الخشية التي هي من أخص معالم الهداية؛ لذلك قال بعدها: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه»(٢).

وللتدبر وسائل متعددة تعين عليه، وتوصل إليه، وقد أكد عليها القرآن الكريم، منها:

• الإنصات عند تلاوة آياته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٤]، والراجح في الآية حملها علىٰ العموم في الصلاة وغيرها.

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٣).
(٢) المصدر السابق (٧/ ٩٤).

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمرهم سبحانه بالاستماع للقرآن والإنصات له عند قراءته لينتفعوا به، ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح»[١].

وهذا الاستماع لأهميته، صرف الله تعالىٰ إليه الجن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[الأحقاف: ٢٩].

• ومع الإنصات لابد من إحضار القلب عند قراءته، أو سماعه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: استمع بأذنه، وهو حاضر بفؤاده، يقول الإنسان لغيره: ألق سمعك، وارعني سمعك، أي: استمع إلي، والمعنىٰ: أنه يستمع، ولا يشغل قلبه بما يمنعه من السماع»[٢].

• ومن وسائل التدبر: تنقية القلب والجوارح من الذنوب الصارفة عنه، كالكبر والغرور، كما قال تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[الأعراف: ١٤٦].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يريد الذين يتجبرون علىٰ عبادي، ويحاربون أوليائي، حتىٰ لا يؤمنوا بي، يعني: سأصرفهم عن قبول آياتي، والتصديق بها،

(١) فتح القدير (٢/ ٢٨٠).

(٢) تفسير السمعاني (٥/ ٢٤٧).

عوقبوا بحرمان الهداية؛ لعنادهم للحق، كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥].

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سأمنعهم فهم القرآن، قال ابن جريج: يعني عن خلق السموات والأرض وما فيهما، أي: سأصرفهم أن يتفكروا فيها، ويعتبروا بها»(١).

- ومنها: الاستعاذة من الشيطان ووساوسه؛ لذلك أمر الله تعالىٰ بها في بدء القراءة في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وقد بين الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوائد الاستعاذة، وإعانتها علىٰ التدبر من وجوه، منها: أن القرآن الكريم شفاء لما في الصدور، يذهب بما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات، والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمره فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء، ويخلىٰ منه القلب؛ ليصادف الدواء محلًا خاليا، فيتمكن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

أتاني هواها قبل أنْ أعرفَ الهوَىٰ ... فصادفَ قلْبًا خاليًا فتمَكَّنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلىٰ قلب قد خلا من مزاحم ومضاد له، فينجع فيه(٢).

---

(١) معالم التنزيل (٢/ ٢٣٤).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٩٢).

• ومن ذلك الترتيل، والتأني في قراءته، وعدم سرده سردًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، أي: اقرأه علىٰ تمهل؛ فإنه يكون عونًا علىٰ فهم القرآن الكريم وتدبره[(١)].

وهو أحد الوجوه في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، أي: علىٰ ترسل في التلاوة وترتيل، قاله مجاهد، وابن عباس، وابن جريج[(٢)]، فيعطي القارئ القراءة حقها: ترتيلها، وتحسينها، وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن»[(٣)].

وهكذا كان يقرأ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنه سئل عن قراءة رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «كانت مدًّا، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يمد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ويمد ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ويمد ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾»[(٤)].

وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا تنثروه نثر الدَّقَل، ولا تهذوه هذ الشِّعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»[(٥)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٠).

(٢) ينظر: الآثار في جامع البيان (١٧/ ٥٧٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٤٠)، والمعنىٰ الآخر ذكره القرطبي في تفسيره (١٠/ ٣٣٩) بقوله: «أي: تطاول في المدة شيئا بعد شيء».

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، برقم: (٥٠٤٦).

(٥) معالم التنزيل (٨/ ٢١٥)، وسيأتي تخريجه في هدي السلف مع الهدايات.

ولتحقيق التدبر نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ختم القرآن الكريم في أقل من ثلاثة أيام فقال: «اقرأ القرآن في ثلاث، فإنه لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث»[١].

• ومنه تكرار القراءة، وقد روى أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قام بآية يرددها حتى أصبح: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]»[٢].

والآثار عن السلف - رَحِمَهُمُ اللهُ - في ذلك كثيرة[٣].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعيد الكلمة ثلاثًا؛ لتعقل عنه»[٤].

• ومنه التغني بالقرآن، وتحسين الصوت بالقراءة، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[٥]، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس منا من

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب تفريع أبواب شهر رمضان، باب في كم يقرأ القرآن، برقم: (١٣٩٠)، وأصله في البخاري برقم: (١٩٧٨).

(٢) أخرجه النسائي، كتاب الافتتاح، باب ترديد الآية، برقم: (١٠٠٩)، وحسنه الألباني صحيح سنن النسائي.

(٣) ينظر: تعليم تدبر القرآن، للأهدل (ص: ١١٦)، وسيأتي طرف منها في هدي السلف مع الهدايات.

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب في كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (٣٦٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٥) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، برقم: (١٤٦٨)، والنسائي، كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت، برقم: (١٠١٥)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، في حسن الصوت بالقرآن، برقم: (١٣٤٢)، وعلقه البخاري في كتاب التوحيد، باب الماهر بالقرآن مع الكرام البررة، ووصله وصححه في خلق أفعال العباد (ص: ٤٩، ٥٠).

لم يتغن بالقرآن»[١].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أذن الله لشيء، ما أذن لنبي، حسن الصوت، يتغنىٰ بالقرآن، يجهر به»[٢].

وهو ما مدح به داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود»، فقال أبو موسىٰ: «لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرًا»[٣].

والعلة في كل ذلك زيادة الخشوع والتدبر، ويدل عليه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أحسن الناس قراءة، الذي إذا قرأ، رأيت أنه يخشىٰ الله»[٤].

فكل هذه الأسباب وغيرها تعين علىٰ تدبر القرآن الكريم الذي أمر الله تعالىٰ به؛ ليتحقق الانتفاع بكتابه، والاهتداء بهديه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالىٰ: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣-١٤] برقم: (٧٥٢٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن، برقم: (٥٠٢٤)، وكتاب التوحيد باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، وغيرها، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، برقم: (٧٩٢).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوب بالقراءة للقرآن، برقم: (٥٠٤٨)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، برقم: (٢٣٥).

(٤) أخرجه الخطيب (٣/ ٢٠٨)، وعبد بن حميد (ص: ٢٥٥)، برقم: (٨٠٢)، والروياني (٢/ ٤١٠) برقم: (١٤١٥)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٣١١) برقم: (٢٠٧٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٧/ ١٧٠): «فيه حميد بن حماد، وثقه ابن حبان، وقال: ربما أخطأ»، وأخرجه محمد بن نصر في قيام الليل كما في مختصره للمقريزي (ص: ٢٢٣) برقم: (١٥٢)، وصححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة (٤/ ١١١).

المطلب الرابع

الدعوة إلى العمل بالقرآن الكريم

تقرر أن القرآن الكريم كتاب هداية، ولا يتحصل الاهتداء بالقرآن بعد فهمه إلا بالعمل بمقتضاه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه: ١٢٣].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه، أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقىٰ في الآخرة، ثم تلا هذه الآية»(١).

ولذلك حض الله تعالىٰ علىٰ العمل بالقرآن الكريم في آيات كثيرة، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[النساء: ٦٦-٦٨]، وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، والقرآن الكريم هو أصل الصراط المستقيم، وقال: ﴿ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[الأعراف: ٣]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر: ١٨]، وقال تعالىٰ في موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الصافات: ١١٧- ١١٨].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢٢٥)، عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه الحاكم بمعناه في المستدرك، وصححه، برقم: (٣٤٣٨).

فمما سبق تبين أن القرآن الكريم في عرضه للهداية، كثيرًا ما يحض علىٰ العمل به، وعدم الاكتفاء بمجرد سماعه وقراءته؛ ولذلك وردت آيات كثيرة، في ذم من لا يعمل بالقرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[الجمعة: ٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقاس من حمله سبحانه كتابه ليؤمن به، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا علىٰ ظهر قلب، فقرأه بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له، ولا عمل بموجبه كحمار علىٰ ظهره زاملة أسفار، لا يدري ما فيها، فحظه منها حملها علىٰ ظهره ليس إلا، فحظ هذا من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي علىٰ ظهره، فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنىٰ لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته»[١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه شكوىٰ عظيمة، وفيها أعظم تخويف لمن هجر هذا القرآن العظيم، فلم يعمل بما فيه، من الحلال والحرام، والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من الزواجر، والقصص، والأمثال»[٢].

(١) التفسير القيم (٥٤٣-٥٤٤).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٤٨).

فالقرآن الكريم دعا إلىٰ العمل بأحكامه وعظاته، وهو ما تمثل به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولًا، ثم دعا إليه؛ فقالت عائشة بوقد سئلت عن خلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألست تقرأ القرآن؟ فإن خلق نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان القرآن»[1]، وهذا الخلق هو الذي سار عليه أصحابه، واقتبسوا من ضيائه، وتغذوا من غذائه، فكانوا هداة مهديين، وما ذاك إلا بعملهم بالقرآن الذي علمهم ورباهم عليه نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلذلك يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات من القرآن، لم يجاوزهن حتىٰ يعرف معانيهن، والعمل بهن»[2].

وقال أبو عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر آيات، لم يجاوزوها، حتىٰ يتعلموا ما فيها، من العلم والعمل، فتعلمنا العلم والعمل جميعًا»[3].

فالعمل بالقرآن الكريم هو الذي حقق لهم هذه الهداية بتوفيق الله تعالىٰ، وهذا الأمر كان عليه نساء الصحابة كذلك.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، برقم: (٧٤٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في مقدمة التفسير (١/ ٨٠-٨١)، وصححه أحمد شاكر في تحقيقه لتفسير ابن جرير.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، في تعليم القرآن كم آية، برقم: (٢٩٩٢٩)، وأحمد في المسند بنحوه، برقم: (٢٣٤٨٢)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٦٥): «رواه أحمد، وفيه عطاء بن السائب اختلط في آخر عمره»، وحسّنه شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند (٣٨/ ٤٦٦-٤٦٧).

فقد قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ [النور: ٣١]: شققن مروطهن فاختمرن به»[(١)].

فكان مجتمعًا قرآنيًّا استحق رضا الله تعالىٰ، وكل من أراد اقتفاء أثرهم، لا يحصل له ذلك إلا باتباع الكتاب الذي رفع قدرهم، وشرف ذكرهم.

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب وليضربن بخمرهن علىٰ جيوبهن، برقم: (٤٧٥٨).

المطلب الخامس
التأسي بالقدوة الحسنة

استخدم القرآن الكريم وسيلة اتخاذ القدوات، والإشادة بهم، والأمر باتباعهم، فقال سبحانه لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

بل جعل ذلك من دعاء عباد الرحمن، فذكر أن من دعائهم قولهم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، وللآية معنيان يدلان على المقصود:

المعنى الأول: اجعلنا أئمة للمتقين يقتدون بنا.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم، ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى»(١).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «سألوا لأنفسهم - بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان - أن يجعلهم قدوة يقتدي بهم المتقون»(٢).

المعنى الثاني: اجعلنا نقتدي بالمتقين.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اجعلنا مؤتمين بالمتقين مقتدين بهم، قاله مجاهد فعلى هذا يكون الكلام من المقلوب، فالمعنى: واجعل المتقين لنا إمامًا»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٩١).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٧٠).

(٣) زاد المسير (٣/ ٣٣٢).

وأعظم القدوات هم الأنبياء، وفي مقدمتهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٢١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أقواله وأفعاله وأحواله»[١].

وجعل الاقتداء به سببًا للهداية، فقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨].

وقد ورد لفظ (الأسوة) في موضعين آخرين؛ في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[الممتحنة: ٤]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[الممتحنة: ٦].

وكل هذا يدل على أهمية «القدوة الحسنة» في تحقيق الهدايات، فمن الوسائل المهمة جدًا في تبليغ الدعوة إلى الله، وجذب الناس إلى الإسلام، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، القدوة الطيبة للداعي، وأفعاله الحميدة، وصفاته العالية، وأخلاقه الزاكية، مما يجعله أسوة حسنة لغيره، يكون بها أنموذجًا، يقرأ فيه الناس معاني الإسلام، فيقبلون عليها، وينجذبون إليها؛ لأن التأثر بالأفعال والسلوك، أبلغ وأكثر من التأثر بالكلام وحده[٢]، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب؛ منها:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٨٨).

(٢) القدوة: مبادئ ونماذج، للدكتور صالح بن حميد (ص: ٧).

١- أن في فطرة الإنسان ميلًا قويًّا لاتخاذ القدوات.

٢- أن المثال الحي الذي يتحلىٰ بجملة من الفضائل، يعطي غيره قناعة بأن بلوغها من الأمور التي هي في متناول الوسع والقدرة، وشاهد الحال أقوىٰ من شاهد المقال.

٣- أن المثال الحي المرتقي في درجات الكمال، يثير في الأنفس الاستحسان والإعجاب.

فالقدوة لها دور كبير في إعلاء الهمم وإصلاح المسلمين، فمن كان عالي الهمة اقتدىٰ به غيره، فأصلح نفسه وأصلح غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي، وبلّغ الرسالة علىٰ التمام والكمال، ما يستحق بهذا أن يكون للناس إمامًا يقتدىٰ به في جميع أحواله وأفعاله وأقواله»(١).

والقدوة كما تكون تأسيًا بأفراد، تكون كذلك تأسيا بجماعات، كما سبق ذكره من أمر الله تعالىٰ رسوله بأن يقتدي بالأنبياء قبله، وكما قال الله تعالىٰ للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ﴾[الصف: ١٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٥٠).

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين، بقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: قال لهم عارضًا ومنهضًا: من يعاونني، ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي، ويخرج مخرجي؟ فابتدر الحواريون، فقالوا: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾، فمضىٰ عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين»[1].

ومن هذه القدوات أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، أولئك الصفوة المختارة التي لقيته وآمنت به، واتبعت النور الذي أنزل معه؛ لذلك وردت الأوامر باتباعهم، بل بين الله تعالىٰ أن السير علىٰ طريقتهم سبب محقق في الهداية، فقال تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وبين سبب ذلك، وهو أنهم حققوا كلمة التقوىٰ، فقال: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الفتح: ٢٦]؛ كما أنهم بلغوا غاية الهداية قولًا وعملًا، كما وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٦٠).

لذلك بشّر الله تعالىٰ من اتبع طريقتهم بالفوز برضوان الله تعالىٰ ونعيمه المقيم، فقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠].

ومن القدوات التي ذكرها القرآن الكريم نموذجًا للقدوة الحسنة: لقمان ومريم وامرأة فرعون وذو القرنين وغيرهم، فقد فطر الناس علىٰ افتقاد القدوة، والبحث عن الأسوة؛ ليكون لهم نبراسًا يضيء سبيل الحق، ومثالًا حيا يبين لهم كيف يطبقون كتاب الله؛ لذلك لم يكن لرسالات الله من وسيلة لتحقيقها علىٰ الأرض، إلا إرسال الرسل، يبينون للناس ما أنزل الله من شريعته.

وكما أمر الله تعالىٰ بالاقتداء بـ«القدوة الحسنة»، كذلك نهىٰ عن الاقتداء بأهل السوء، وهو أسلوب معهود في القرآن الكريم حيث يبين طرق الخير تفصيلًا، وطرق الشر تفصيلًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الأنعام: ٥٥].

وقد حكىٰ الله تعالىٰ قول المشركين في اتخاذهم الأسوة السيئة، واتباع أهل السوء، والاقتداء بهم، فقال عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣]، وردّ عليهم القرآن الكريم بقوله: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾[الزخرف: ٢٤]، وسبق الكلام عن تقليد الآباء والكبراء بغير هدىٰ من الله تعالىٰ.

المطلب السادس

الأمر بسؤال الهداية

الدعاء مع كونه من أعظم العبادات، فهو يعتبر من أسباب الهداية؛ لذلك سيتم تناوله في مبحث سبل الهداية؛ أما الأمر به فيعتبر من الوسائل التي استخدمها القرآن الكريم في عرض الهدايات، حيث ساق أعظم آية في الهداية بصيغة الدعاء، والمقصود بسياقها الأمر بسؤالها، فهي طريقة قرآنية فريدة في عرض الهداية؛ وذلك ببيان أهمية طلبها.

ومما يدل علىٰ أهميتها: أنّها أول سؤال بدأ الله تعالىٰ به كتابه كما في سورة الفاتحة في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦]، وكل ما سبقها من آيات، كانت استفتاحًا لهذا الدعاء الكريم، وثناءً علىٰ الله تعالىٰ بين يدي هذا السؤال العظيم، وهو أكثر دعاء يدعو به المسلم، فهو يقرؤه في يومه وليلته، سبع عشرة مرة وجوبًا - عند الجمهور - في صلواته الخمس، وما شاء بعد ذلك استحبابًا في صلاة النوافل، أو خارجها.

وسؤال الهداية في هذه الآية يتضمن جميع أنواع الهدايات: من الهداية العامة، إلىٰ هداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق والإلهام، ثم الهداية علىٰ الصراط إلىٰ الجنات.

كما أنه يتضمن سؤال هداية العلم والعمل، أصلها وكمالها والثبات عليها، فكل عبد لا تنفك حاجته عن هذا السؤال إلىٰ دخول الجنة.

لذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلىٰ سؤال هذه الدعوة، فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين،

فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا، مثل ما نريده، أو أكثر منه، أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلىٰ الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والوئام.

وللهداية مرتبة أخرىٰ وهي آخر مراتبها: وهي الهداية يوم القيامة إلىٰ طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها»(١).

وفي هذا السؤال بلفظ هذه الآية من الأسرار العظيمة التي تجعله من أهم الأدعية وأجمعها، **ويمكن إجمالها فيما يلي:**

• الإتيان بضمير الجمع في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ قيل: لأن كل عضو من أعضاء العبد، وكل حاسة ظاهرة وباطنة مفتقرة إلىٰ هداية خاصة به، فأتىٰ بصيغة الجمع تنزيلًا لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه، وقد ضعفه شيخ الإسلام؛ لأن الإنسان اسم للجملة لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه، ووجه الجمع بأنه مطابق لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم؛ فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلىٰ الرب تعالىٰ، وإقرار بالفاقة إلىٰ عبوديته واستعانته وهدايته فأتىٰ به بصيغة ضمير الجمع أي نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك، وتحت طاعتك، ولا نخالف أمرك، فيكون هذا أحسن

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢-٣٣).

وأعظم موقعًا عند الملك؛ من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدًّا، وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك، والاستعانة بك وطلب الهداية منك، فقد تضمن ذلك من الثناء علىٰ الرب بسعة مجده، وكثرة عبيده، وكثرة سائليه الهداية، ما لا يتضمنه لفظ الإفراد، فتأمّله.

- تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف، ففعل الهداية يتعدىٰ بنفسه تارة، وبحرف (إلىٰ) تارة، وبـ (اللام) تارة، والثلاثة في القرآن الكريم؛ فمن المعدىٰ بنفسه هذه الآية، وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[الفتح: ٢]، ومن المعدىٰ بـ (إلىٰ)، قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورىٰ: ٥٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام: ١٦١]، ومن المعدىٰ بـ (اللام)، قوله في قول أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف: ٤٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩]، ففعل الهداية متىٰ عدي بـ (إلىٰ) تضمن الإيصال إلىٰ الغاية المطلوبة، فأتىٰ بحرف الغاية، ومتىٰ عدي بـ (اللام) تضمن التخصيص بالشيء المطلوب، فأتىٰ بـ (اللام) الدالة علىٰ الاختصاص والتعيين؛ فإذا قلت: هديته لكذا، فهم معنىٰ: ذكرته له، وجعلته له، وهيأته، ونحو هذا، وإذا تعدىٰ بنفسه، تضمن المعنىٰ الجامع لذلك كله، وهو: التعرف والبيان والإلهام، فالقائل إذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هو طالب من الله تعالىٰ أن يعرّفه إياه، ويبيّنه له، ويلهمه إياه، ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف، وأتىٰ به مجردًا معدىٰ

بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عدي بحرف تعين معناه، وتخصص بحسب معنى الحرف.

- تعريف الصراط؛ وذلك أن (الألف واللام)، إذا دخلت على اسم موصوف، اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، فلو قال: (اهدنا صراطًا مستقيمًا)؛ لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته، وجعله طريقًا إلى رضوانه وجنته[(١)].

وقد تكرر سؤال الهداية في القرآن الكريم؛ بيانًا لأهميته مع ما سبق، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[آل عمران:٨]، فهو وسيلة استخدمها القرآن الكريم، وأمر بها لتحقيق الهداية.

وثبت في صحيح مسلم، عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن الله تعالى: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم»[(٢)].

فتبين من كل ذلك أن الدعاء من أعظم أسباب تحصيل الهداية، فإنها إنما تستجلب من مالكها، وهو الله تعالى، فجميع الهدايات مصدرها من الله تعالى، وهداية القرآن الكريم والأنبياء والدعاة، إنما هي بيان، وإرشاد، لما جاء به الله تعالى، ثم يكون التوفيق والإلهام؛ فلذلك كان الأمر بالدعاء

(١) ما سبق ملخص من بدائع الفوائد (٢/ ٩-٤٠).

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧).

وسؤال الهداية من أهم الوسائل القرآنية التي استخدمت في تحصيل الهدايات.

وللدعاء موضع غير هذا، يتناول بتفصيل، ويتجه باتجاه آخر.

المطلب السابع
التذكير بأصل الخلق

كثيرًا ما يستخدم القرآن الكريم هذه الوسيلة في تحصيل الهدايات، فيذكر الله تعالىٰ هذا الإنسان بأصل خلقته، وأنه خلق من ماء مهين، وإفراده هنا عن سائر النعم؛ لأنه أصلها، وأخصها بالإنسان، وأعمها، وأظهرها.

فالتفكر في أصل الخلق وعظمته، والإتقان في صنعه، والإحكام الدقيق في تسيير حياته، وصغر أعضائه وضعفه: تغرس تعظيم الله تعالىٰ في القلب، وتحمل العبد علىٰ دوام افتقاره واستشعاره بنقصه، وهي لا شك من أهم معالم الهداية.

فلا أحد من البشر ينكر أصل خلقته؛ فهي حقيقة إعجازية ماثلة للعيان؛ لذلك قال سبحانه منكرا علىٰ هذا الإنسان ما يقوم به من كفر وطغيان: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾[عبس: ١٧-٢٠]، ما أعظم كفره وهو يجحد خالقه الذي أبدع خلقه، واختار أن تكون هذه النطفة المهينة هي طريقة وجوده، ثم صوره ويسر خروجه، ثم يتنكر كل ذلك.

ومن التحليق في هذه المعاني وبيانها، يقول البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دعاء عليه بأشنع الدعوات، وتعجب من إفراطه في الكفران، وهو مع قصره يدل علىٰ سخط عظيم، وذم بليغ ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ بيان لما أنعم عليه، خصوصًا من مبدأ حدوثه، والاستفهام للتحقير؛ ولذلك أجاب عنه بقوله:

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾، فهيأه لما يصلح له، من الأعضاء والأشكال، أو فقدره أطوارًا، إلىٰ أن تم خلقته»[١].

وهذا كقوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ معاتبًا للإنسان المقصر في حق ربه، المتجرئ علىٰ مساخطه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أتهاونًا منك في حقوقه؟ أم احتقارًا منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه ؟ أليس هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ في أحسن تقويم؟ ﴿فَعَدَلَكَ﴾، وركبك تركيبًا قويمًا معتدلًا في أحسن الأشكال، وأجمل الهيئات، فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟ إن هذا إلا من جهلك، وظلمك وعنادك، وغشمك، فاحمد الله أن لم يجعل صورتك صورة كلب، أو حمار، أو نحوهما من الحيوانات؛ فلهذا قال تعالىٰ: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾»[٢].

فأصل الخلق دال علىٰ ربوبية الله تعالىٰ، والتي تستلزم عبادته وشكره، والاهتداء بوحيه، والسير علىٰ صراطه المستقيم؛ لذلك لما ذكر الله تعالىٰ آيات خلق الإنسان في سورة الحج في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥]،

---

(١) أنوار التنزيل (٥/ ٢٨٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩١٤).

أعقب ذلك بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨]، وفيه إشارة دقيقة إلىٰ أن هذه الطريق مؤدية إلىٰ الهداية إلا لمن تنكبها وأعرض عنها، كما قال بعد ذلك: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [الحج: ٩]، أي: لاويًا جنبه؛ تكبرًا وإعراضًا(١).

فتأمل في هذا السياق القرآني المحكم، الذي يدفع المنصف لنفسه، والمبقي علىٰ عقله، إلىٰ التسليم، والسير علىٰ الهدىٰ المستقيم، فأصل الخلق إعجاز عياني نفساني، كلما تذكره العبد، ووقف عنده، كان علىٰ بينة من ربه، مطيعًا لأمره، معظما لقدره، بخاصة إذا تأمل إتقان خلقه، وإحسان صنعه، ومنته عليه بذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤]، وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٤]، [التغابن: ٣]؛ فلكل ذلك أمر الله تعالىٰ بتأمل الإنسان لنفسه، وجعل ذلك آية ظاهرة لكل مبصر، فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: في حال ابتدائها، وتنقلها من حال إلىٰ حال، واختلاف ألسنتها، وألوانها، وما جبلت عليه من القوىٰ والإرادات، وما بينها من التفاوت في العقول والأفهام، وما في تراكيب أعضائها من الحكم في وضع كل عضو منها، في المحل المفتقر إليه، إلىٰ غير ذلك مما لا يحصيه قلم كاتب، ولا لسان بليغ.

أنشد الحافظ ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «التفكير والاعتبار» لشيخه أبي جعفر القرشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) ينظر: معالم التنزيل (٣/ ٣٢٥).

وإذا نظرت تريد معتبرًا فانظرْ إليكَ، ففيكَ مُعْتَبَرُ
أنتَ الذي يُمسي ويُصبح في الدنيا وكلُّ أموره عبَرُ
أنتَ المُصَرَّفُ كان في صغرٍ ثم استقلَّ بشخصِكَ الكِبَرُ
أنتَ الذي تنعاهُ خِلقتُه ينعاه منه الشَّعْرُ والبَشَرُ
أنتَ الذي تُعطىٰ وتُسلَبُ لا يُنْجيه من أنْ يُسْلَبَ الحَذَرُ
أنتَ الذي لا شيءَ منه لَه وأحق منه بما له القَدَرُ(١)

وهي هداية متجددة غير متناهية، كلما أبصر الإنسان في نفسه، وتأمل في أحواله، وازداد علمًا في حقيقته؛ لذلك قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة، حتىٰ سبيل الغائط والبول، فإن الرجل يشرب، ويأكل، من مكان واحد، ويتميز ذلك من مكانين، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه، اللتين هما قطرة ماء، ينظر بهما من السماء إلىٰ الأرض مسيرة خمسمائة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة، وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه.

وقيل: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من كونهم نطفًا إلىٰ غير ذلك من انتقال أحوالهم كما تقدم..

وقيل: المعنىٰ سيرون ما أخبرهم به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الفتن وأخبار الغيوب»(٢).

(١) محاسن التأويل (٩/ ٤٠)، ونقل الأبيات ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٧٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٣٧٥)، باختصار يسير.

المطلب الثامن

الأمر بتذكر النعم

بعد التذكير بأصل الخلق، جاءت آيات كثيرة، تذكر بنعم الله تعالىٰ، كقوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[النمل: ٦٠-٦٢]، إلىٰ بقية الآيات.

وآيات أخرىٰ تحث الإنسان علىٰ أن يتذكر نعم الله تعالىٰ عليه، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[فاطر: ٣]، وهي وسيلة لعرض الهداية؛ فإن الفطرة السوية تقضي بشكر من تفضل عليك، وأسدىٰ معروفه إليك.

ولأهمية هذه الطريقة نجد أن الله تعالىٰ كرر التذكير بالنعم في سورة الرحمن، إحدىٰ وثلاثين مرة، بالاستفهام الذي يدفع إلىٰ الإقرار، في قوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن: ١٣].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا السر البلاغي في ذلك: «إن ذلك التكرير؛ لتقرير النِّعم، وتأكيد التذكير بها، قال ابن قتيبة: من مذاهب العرب التكرار للتوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار؛ للتخفيف والإيجاز؛ لأن افتنان المتكلم والخطيب في الفنون، أحسن من اقتصاره في المقام علىٰ فن

واحد، يقول القائل منهم: والله لا أفعله، ثم والله لا أفعله، إذا أراد التوكيد، وحسم الأطماع من أن يفعله.. قال ابن قتيبة: «فلما عدد الله تعالىٰ في هذه السورة نعماءه، وأذكر عباده آلاءه، ونبههم علىٰ قدرته، جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين كل نعمتين؛ ليفهمهم النعم ويقررهم بها، كقولك للرجل: ألم أبوئك منزلًا وكنت طريدًا؟ أفتنكر هذا ؟ ألم أحج بك وأنت صرورة[1]؟ أفتنكر هذا؟»[2].

ونعم الله تعالىٰ لا يقدر أحد علىٰ إحصائها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤]، وهو معلوم عقلًا وواقعًا.

قال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ السابقة واللاحقة، لا تحصوها؛ لعدم تناهيها، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ ينقص حق الله تعالىٰ، أو حق نفسه بإبطال الاستعداد، أو يضع نور الاستعداد في ظلمة الطبيعة، ومادة البقاء في محل الفناء، ﴿كَفَّارٌ﴾ لتلك النعم التي لا تحصىٰ؛ لغفلته عن المنعم عليه بها، وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه، حيث يظن أن شكره يقابل نعمه تعالىٰ، كفار محجوب عن رؤية الفضل عليه بداية ونهاية»[3].

(١) هو من لم يحج قط. ينظر: لسان العرب (٤/ ٤٥٣).

(٢) زاد المسير (٥/ ٤٦١).

(٣) روح المعاني (٧/ ٢١٩).

فعليه يبقى تحقيق الشكر على كماله متعذرًا، وهو من دقيق معاني قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُۥ﴾[عبس: ٢٣]، في ثنايا تذكيره بجملة من نعم الخلق، والرزق، والتدبير.

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يقضي أحد أبدًا ما افترض عليه»[١].

ولذلك فإن الشعور الدائم بالتقصير من أعلى مدارج الهداية؛ فقد وصف الله تعالى المؤمنين بصفات ختمها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[المؤمنون: ٦٠].

وجاء في تفسيرها عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بأنها قالت: يا رسول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هو الذي يسرق، ويزني، ويشرب الخمر، وهو يخاف الله تعالى؟ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون، ويصومون، ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم»[٢].

وقال تعالى عن أهل الجنة: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾[الطور: ٢٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: قد كنا في الدار الدنيا، ونحن بين أهلنا، خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: فتصدق علينا، وأجارنا مما نخاف»[٣].

(١) جامع البيان (٢٤/ ٢٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي، أبواب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون، برقم: (٣١٧٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوق من العمل، برقم: (٤١٩٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٢)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (١٦٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٣٥).

فلا شك أن هذه الوسيلة من أنفع الوسائل في إيصال الهدايات وتثبيتها؛ لذلك كثرت في القرآن آياتها، وتنوعت دلالاتها، فوجدنا أنه «بعد كل نص سام، تتبين فيه نعمة لخالق وبديع السماوات والأرض، يكون تذكير بنعم الله، ووجوب شكرها بالطاعة، وتجنب المعصية، والإقرار بوحدانية المعبود، وألا يعبدوا غيره سبحانه، وفي ذلك إشارة إلىٰ أن كل نعمة من هذه النعم، وبينة من هذه البينات توجب وحدها الشكر، وتوجب الإقرار بوحدانية الله تعالىٰ»[1].

---

(١) المعجزة الكبرىٰ: القرآن، لأبي زهرة (ص: ١٢٢).

المبحث الثالث

مميزات الأساليب والوسائل القرآنيّة في عرض الهدايات

مميزات الأساليب والوسائل القرآنية في عرض الهدايات

تمهيد:

إن الكلام عن القرآن ومميزات أساليبه ووسائله مما لا ينقضي، وهو المعجزة الخالدة التي أوتيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا، أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا»(١).

هذا القرآن الكريم الذي قد علمت عظمته الكائنات، فلو أنزله الله عليها لخضعت له حتى الجمادات، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول جلّ ثناؤه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾، وهو حجر، ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ يا محمد ﴿خَٰشِعًا﴾، يقول: متذللًا، ﴿مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ على قساوته، حذرًا من أن لا يؤدّي حقّ الله المفترض عليه في تعظيم القرآن الكريم، وقد أنزل على ابن آدم، وهو بحقه مستخفّ، وعنه عما فيه من العبر والذكر معرض، كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقرًا»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بعثت بجوامع الكلم»، برقم: (٧٢٧٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (٢٣٩).

(٢) جامع البيان (٢٣/ ٣٠٠-٣٠١).

هذا القرآن الكريم الذي جمع الله فيه جميع معالم الهداية، ومن جهات متعددة، فذكر خبر ما قبلنا ونبأ ما بعدنا، وحكم ما بيننا، في سلسلة وعظية بليغة، وقصص إيمانية بديعة، وأخبار صادقة عظيمة، وأحكام عادلة حكيمة، كانت بحق دوحة وارفة، يستظل بها المؤمنون، فلا يزال يخشع لآياته الخاشعون، ويوجل لمواعظه المتقون، ويزداد إيمانا لسماعه المخبتون، ويهتدي باتباعه العاملون: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال: ٢].

فلا يمكننا، ونحن نتكلم عن أساليبه، ووسائله، أن نحيط بمميزاتها وخصائصها، لكننا نذكر أظهرها، على حد النظر المحدود، وتفصيلها من خلال المطالب السبعة التالية:

المطلب الأول: كمال الفصاحة والبلاغة.

المطلب الثاني: الصدق.

المطلب الثالث: التنوع.

المطلب الرابع: الشمول.

المطلب الخامس: الإجمال مع الوضوح والبيان .

المطلب السادس: التوازن بين العقل والعاطفة.

المطلب السابع: الدقة والعمق.

المطلب الأول

كمال الفصاحة والبلاغة

إن أهم ما يميز هذه الأساليب والوسائل كمال الفصاحة التي تعلوها، وغاية البلاغة التي تكسوها، وباطراد في جميع آياته، ومع مختلف أغراضه، دون أدنىٰ نفور، حتىٰ إنه رغم التحدي به، لم يستطع أحد من بلغاء العرب أن ينتقد حرفا منه، مع شدة حرصهم علىٰ انتقاصه، وقوة ملاحظتهم، وشدة تذوقهم البلاغي.

وإنما يحكم علىٰ الكلام بالبلاغة إذا كان مطابقًا لمقتضىٰ الحال، وفي جميع المحال، مع فصاحته، فالبلاغة تختص بالكلام المؤلّف، فلا تكون وصفًا للكلمة المنفردة كما سبق، وفصاحة الكلام شرط في بلاغته، فكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغًا، فالبلاغة أخص من الفصاحة(١).

فإذا تأملنا جميع آيات القرآن الكريم؛ لوجدناها علىٰ نظم بديع، وفصاحة مطردة، وبلاغة ثابتة، في أغراضها كافة، الخبرية، والإنشائية، والقصصية، والتمثيلية، والحكمية، قصيرة كانت أو طويلة، من أوله إلىٰ آخره، وهذا ما لا مثيل له، ولا قريب منه في كلام العرب، الذين كانت فصاحتهم في خطب محدودة، وقصائد معدودة، يعتريها التباين والإخلال، والتكلف والاضطراب، كما يظهره بعضهم عند انتقادهم لبعض.

---

(١) للتوسع في ذلك؛ ينظر: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص: ٣٦-٣٨)، المعجزة الكبرىٰ، لأبي زهرة (ص: ١٨٠)، بغية الإيضاح، لعبد المتعال الصعيدي (١/ ٢٦).

قال القرطاجني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها، في جميعه، استمرارا لا يوجد له فترة، ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية، فينقطع طيب الكلام ورونقه، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه»[(١)].

وهذا الاتساق في كمال البلاغة داخل في معاني وصف المتشابه، الوارد في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[الزمر: ٢٣].

فمن معاني المتشابه: أي في الإعجاز والبلاغة، كما قال القشيري[(٢)]، وقال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: «وتشابهه تشابه أبعاضه في الإعجاز، وتجاوب النظم، وصحة المعنىٰ، والدلالة علىٰ المنافع العامة»[(٣)].

وهناك معان أخرىٰ للمراد بالمتشابه في هذه الآية:

أحدها: يشبه بعضه بعضًا من الآي والحروف، قاله قتادة[(٤)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثاني: يشبه بعضه بعضًا في نوره، وصدقه، وعدله.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ١٠).

(٢) لطائف الإشارات (٣/ ٢٧٨).

(٣) أنوار التنزيل (٥/ ٤١)، وذكر نحوه الألوسي في تفسيره (٢٣/ ٢٥٨).

(٤) جامع البيان (٢١/ ٢٧٩).

الثالث: يشبه كتب الله المنزلة علىٰ أنبيائه؛ لما يتضمنه من أمر ونهي، وترغيب وترهيب، وإن كان أعم وأعجز[١].

والأصل حمل اللفظ علىٰ جميع معانيه المتآلفة[٢].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومتشابهًا مطلق في مشابهة بعضه بعضًا، فكان متناولا لتشابه معانيه، في الصحة، والإحكام، والبناء علىٰ الحق، والصدق، ومنفعة الخلق، وتناسب ألفاظه وتناصفها في التخير والإصابة، وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتبكيت»[٣].

ومما يدل علىٰ ما سبق، قوله سبحانه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا ثناء علىٰ القرآن بكمال معانيه، بعد أن أثني عليه باستقامة ألفاظه.

ووجه العدول عن وصفه بالاستقامة، إلىٰ وصفه بانتفاء العوج عنه، التوسّل إلىٰ إيقاع عوج، وهو نكرة في سياق ما هو بمعنىٰ النّفي، وهو كلمة ﴿غَيْرَ﴾، فيفيد انتفاء جنس العوج علىٰ وجه عموم النّفي، أي: ليس فيه عوج قطّ، ولأنّ لفظ ﴿عِوَجٍ﴾ مختصّ باختلال المعاني، فيكون الكلام نصًّا في استقامة معاني القرآن؛ لأنّ الدّلالة علىٰ استقامة ألفاظه، ونظمه، قد استفيدت من وصفه بكونه عربيًّا،كما علمته آنفًا»[٤].

---

(١) النكت والعيون (٥/ ١٢٢)، بتصرف يسير.

(٢) ينظر: الموافقات (٤/ ١٢١).

(٣) الكشاف (٤/ ١٢٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٩٨).

ومن أدلة هذا المعنىٰ أيضا قوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[النساء: ٨٢]، والاختلاف المنفي هنا ينتظم اطّراد بلاغته.

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه: أنّ الله تعالىٰ قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بالكلام كله علمًا، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أيّ لفظة تصلح أن تلي الأولىٰ، وتبين المعنىٰ بعد المعنىٰ، ثم كذلك من أول القرآن إلىٰ آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطًا، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوىٰ من الفصاحة»(١).

فمن أهم مميزات هذه الأساليب والوسائل في عرضها للهدايات، هو كمال بلاغتها، حتىٰ يأسر سلطانها القلوب، بعد أن تحير الألباب، فتذعن النفوس لعظمتها، وتنقاد إلىٰ هدايتها؛ فلذلك فإنه حتىٰ نساء المشركين وأطفالهم انبهروا لسماعه، واستكانوا لبيانه، فخاف أشراف قريش من اتباعهم له.

فعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا، قالت: «ثم بدا لأبي بكر، فابتنىٰ مسجدًا بفناء داره، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيقف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين»(٢).

(١) المحرر الوجيز (١/ ٥٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب المسجد يكون في الطريق من غير ضرر بالناس، برقم: (٤٧٦).

وهـذه البلاغة المتناهية الآخـذة بمجامع الألباب هي التـي أقر بها الوليد بن المغيرة المخزومي بمجرد سـماعها، فقال عبارته الشـهيرة:

«ومـاذا أقول فيه؟ فـوالله ما منكم رجل أعلم بالأشـعار منـي، ولا أعلم برجـزه ولا بقصيـده، ولا بأشـعار الجن مني، فو الله ما يشـبه الذي يقول شـيئا مـن هـذا، والله إن لقوله الذي يقـول لحـلاوة، وإن عليه لطـلاوة، وإنه لمثمر أعـلاه، مغدق أسـفله، وإنه ليحطـم ما تحته، وإنـه ليعلو، ومـا يُعلى»[١].

(١) ينظر: تفسير عبد الرزاق (٣/ ٣٦٢)، وقد سبق.

المطلب الثاني

الصدق

من أعظم ما يميز أساليب القرآن الكريم ووسائله هو صدقها، فهي من عند الله تعالىٰ، وهو سبحانه أصدق القائلين، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[النساء: ١٢٢].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ أيها الناس ﴿مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ أي: لا أحد أصدق منه قيلا»(١)، وهي آيات واضحة العبارة، صريحة الدلالة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الأنعام: ١١٥].

قال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمعنىٰ: أنها بلغت القاصية صدقًا في الإخبار والمواعيد، وعدلا في الأقضية والأحكام، لا أحد يبدل شيئًا من ذلك، بما هو أصدق وأعدل، ولا بما هو مثله، فكيف يتصوّر ابتغاء حكم غيره تعالىٰ؟!»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[الأحزاب: ٤]، وأصل الحق: المطابقة والموافقة(٣)، فهو ينتظم معنىٰ الصدق.

وهذا الصدق تجلت معالمه في جميع الأساليب والوسائل:

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢٢٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/ ١٧٨).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٤٦).

• فهو سبحانه صادق في أخباره، وقصصه، وأمثاله، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[آل عمران: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[هود: ١٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾[آل عمران: ٥٩-٦٠].

• وصادق في ترغيبه وترهيبه، ووعده ووعيده، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[النساء: ٨٧].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[النساء: ١٢٢].

وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾[الأحقاف: ١٦].

قال ابن عادل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعدًا من الله بالتقبل والتجاوز، والمعنىٰ: أنه يعامل من صفته ما قدمناه بهذا الجزاء، وذلك وعد من الله، فبين أنه صدق، لا شك فيه»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾[إبراهيم: ٢٢].

• وصادق في إرادة الهداية للخلق، كما قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٢٦ وَٱللَّهُ

---

(١) اللباب في علوم الكتاب (١٧/ ٣٩٧).

﴿يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٢٦-٢٨]، فأخبر الله تعالىٰ أنه يريد لنا البيان والإرشاد، والهداية، والتوبة، والتخفيف، وخبره صدق لا شك فيه، فهو صادق في هذه الإرادة؛ لذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وأقام حججه، وفصل بيناته.

والإرادة هنا شرعية، بمعنىٰ المحبة، وليست كونية، بمعنىٰ تقدير ذلك وإيجاده؛ لتخلف الهداية عن كثير من الخلق، وليس كل ما يحبه الله تعالىٰ يقدره ويوجده؛ وذلك لحكمة يعلمها[1].

- وصادق في حواراته؛ حيث يذكر قول المخالف كما هو، بحجته، وقوته، وبلاغته، ثم يجيب عنه بأبلغ منه، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة: ١١١]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[البقرة: ١٣٥]، وقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[المائدة: ٦٤]، وقال: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤-٢٥]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:٨]،وقال: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾[النازعات:١١].

---

(١) ينظر تفصيله: في شرح الطحاوية (١/ ٨٠).

فهو سبحانه يحكي الأقوال المخالفة كما هي، بكل صدق وعدل، ثم يرد عليها بما يحقق الهداية، كما سبق في أهمية الأسلوب الحواري.

ولذلك كان الصدق الذي جاء به القرآن الكريم، والحق الذي دعا إليه من أهم خصائصه، وأسباب هداية الناس به، كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[يونس: ١٠٨].

وقال: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]، فجعل الحق والصدق سببا في هدايته.

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنّ من أوتي علمًا لا يغتر بتكذيبه، ويعلم أن ما أنزل إلى محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق وصدق، وقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ يفيد الحصر، أي: ليس الحق إلا ذلك، وأما قول المكذب فباطل.. وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ يحتمل أن يكون بيانًا لكونه هو الحق، فإنه هاد إلىٰ هذا الصراط، ويحتمل أن يكون بيانا لفائدة أخرىٰ، وهي أنه مع كونه حقًّا هاديًا، والحق واجب القبول، فكيف إذا كان فيه فائدة في الاستقبال وهي الوصول إلىٰ الله»[١].

فشمل الصدق جميع أساليب القرآن الكريم ووسائله، من الأخبار، والقصص، والأمثال، والحوار، والاستدلال، وغيرها مما سبق.

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٥/ ١٩٤). وينظر المعنىٰ الآخر للآية في: تفسير ابن كثير (٦/ ٤٩٥).

المطلب الثالث

التنوع

يعد التنوع من أهم سمات أساليب القرآن الكريم ووسائله، فهي متنوعة في صياغاتها ودلالاتها وهداياتها، فتتنوع إلىٰ أمر ونهي، وتوكيد واستفهام، وترغيب وترهيب، واستدلال عقلي، وحوار جدلي، وقصص وأمثال..

وقد يكون التنوع في السياق الواحد، فنجد أنه يجمع في موضوع واحد، وسياق واحد، بين الترغيب والترهيب، وقصص المهتدين والضالين، كما قال تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الحجر: ٤٩-٥١]، فرغّب ورهّب، ثم ذكر قصة ضيف إبراهيم -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- المهتدين، ثم قصة قوم لوط -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- الضالين.

كما تتنوع في السياق الواحد الأدلة العقلية والحسية، والخبرية والإنشائية، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[النحل:٨٣].

في هذه الآيات تعددت الأساليب والوسائل في تقرير الوحدانية، فأمر الله تعالىٰ بها، ونهىٰ عن التنديد تصريحًا، ثم ذكر دليل النوائب، وهو من الأدلة الواقعية علىٰ وحدانيته، فلا كاشف للبلاء في البر والبحر غيره؛ لذلك كان المشركون يلجؤون إليه وحده في النوائب، ثم يشركون بعدها، وبعد ذلك

ذكر استدلالًا عقليًا، وهو دليل المثل الأعلىٰ، وأن كل كمال ينبغي أن يكون الخالق الذي يقرون بوجوده أولىٰ بالاتصاف به، فإذا كره المشركون الأنثىٰ فكيف ينسبونها إليه وهو المنزه عن كل نقص؟! وهنا استخدام للاستفهام الإنكاري.

ثم انتقل إلىٰ وسيلة التذكير بالنعم، فذكر نعمة الأنعام ومنافعها، واللبن السائغ للشاربين، ثم نعمة الثمرات، ثم نعمة العسل، ثم ضرب لهم مثلًا بعدم إشراك السادة عبيدهم في رزقهم؛ لإبطال شركهم، وذكّرهم بنعمة الأزواج والأولاد، ثم بين أن عبادة المشركين لما لا يملك لهم رزقًا، ثم ضرب مثلًا لنفسه تعالىٰ، ولما يعبد من دونه؛ إبطالًا للشرك، بطريقة عقلية واضحة، ثم ذكّر الإنسان بخلقه، وانتقل إلىٰ تسخير الطير، ونعمة السكن والبيوت، وما يؤخذ من الأنعام، وفي آخر الآيات يقول تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾[النحل: ٨١]، فتأمل في هذا التنوع البديع، في سياق واحد، وقس عليه بقية المواضع الكثيرة في القرآن الكريم.

كما قد يكون التنوع في سياقات متعددة، فمثلًا تنوعت الأساليب والوسائل في تقرير الهداية بتحقيق ألوهيته في آيات القرآن الكريم المتعددة، **ومن ذلك التنوع ما يلي:**

١- أمره سبحانه بعبادته، وترك عبادة ما سواه؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾[النساء:٣٦].

٢- ومنها: إخباره سبحانه أنه خلق الخلق لعبادته؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

٣- ومنها: إخباره أنه أرسل جميع الرسل بالدعوة إلىٰ عبادته، والنهي عن عبادة ما سواه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[النحل:٣٦] .

٤- ومنها: الاستدلال علىٰ توحيد الإلهية بانفراده بالربوبية، والخلق، والتدبير، وصفات الكمال، ونفيها عن آلهة المشركين؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ١٧]، وقوله حاكيًا عن ما قاله خليله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾[مريم: ٤٢] .

٥- ومنها: بيان عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله، وبيان مآلهم مع من عبدوهم، حيث تتبرأ منهم تلك المعبودات في أحرج المواقف؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾[الأحقاف: ٥ - ٦].

٦- ومنها: رده سبحانه علىٰ المشركين في اتخاذهم الوسائط بينهم وبين الله، بأن الشفاعة ملك له سبحانه؛ لا تطلب إلا منه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، بعد رضاه عن المشفوع له؛ قال سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[الزمر: ٤٣-٤٤].

٧- ومنها: أنه سبحانه ضرب أمثلة كثيرة في القرآن الكريم، يتضح بها بطلان الشرك، من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾[الحج: ٣١]؛ فشبه سبحانه التوحيد في علوه، وارتفاعه، وسعته، وشرفه؛ بالسماء، وشبه تارك التوحيد بالساقط من السماء إلىٰ أسفل سافلين؛ لأنّه سقط من أوج الإيمان إلىٰ حضيض الكفر، وشبه الشياطين التي تقلقه بالطير التي تمزق أعضاءه، وشبه هواه الذي يبعده عن الحق بالريح التي ترمي به في مكان بعيد(١).

ونجد كذلك أنه تعالىٰ إذا أراد من العبد التحقق بمعالم الهداية، نوع بين الوسائل، والأساليب، في الدعوة إليها، فمن ذلك:

- التعبير بلفظ الأمر الصريح، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[النحل: ٩٠]، أو بصيغة فعل الأمر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾[الإسراء: ٢٦].
- التعبير بلفظ: القضاء والحكم، والفرض، والكتب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾[الإسراء: ٢٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[الممتحنة: ١٠]، والفرض، كقوله تعالىٰ: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾[النساء: ١١]، والكتب، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣].
- والإخبار بأنه علىٰ الناس فعله، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾[آل عمران: ٩٧].

(١) ينظر التفصيل في: الإرشاد إلىٰ صحيح الاعتقاد، لصالح الفوزان (ص: ٣٩-٤٢).

• التعبير بأن هذا الفعل خير وبر، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾ [البقرة:٢٢٠]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ومدح المتحلين به، والثناء عليهم، وبيان عاقبتهم، كقوله تعالىٰ: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨–٨٩].

• وترتيب الثواب علىٰ الفعل، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، وترتيب العقاب علىٰ ترك الفعل، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣٢].

والأمثلة علىٰ هذا الباب لا تنقضي، وحسبنا ما سبق.

وكذلك نجد أنه يقدم أحيانًا، ويؤخر أحيانًا، في تنوع بليغ، له دلالاته البديعة(١).

فيقول تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠]، ويقول سبحانه: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ [يس: ٢٠]، ففي آية القصص قدّم الفاعل ﴿رَجُلٞ﴾ علىٰ الجار والمجرور ﴿مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾، في حين أن الفاعل في آية سورة (يس) جاء متأخرًا عن الجار والمجرور.

---

(١) ينظر نماذج ذلك في كتاب: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، للدكتور منير المسيري، وقد سبق بحث ذلك تفصيلًا.

فقيل توجيهًا لذلك: بأنّ قوله في سورة (يس): ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ قدم المجرور على المرفوع؛ لاشتمال ما قبله من سوء معاملة أصحاب القرية للرسل، وإصرارهم على تكذيبهم، فكان مظنة التتابع على مجرى العبارة تلك القرية، ويبقى مخيلًا في فكره أكانت كلها كذلك أم كان فيها على خلاف ذلك، بخلاف ما في سورة القصص[1]، حيث جاء الفاعل نكرة لا يعرفه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، لكنه موصوف بأنه من أقصى المدينة.

وفي موضع يحذف بعض الكلمات، وفي موضع يثبتها، فيقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾[البقرة: ١٩٣]، ويقول سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]، فآية البقرة جاءت خالية من لفظ التوكيد (كلّ)، بينما أثبتت في آية الأنفال.

قال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في توجيهه: «ولم يجىء هنا كلمة ﴿كُلُّهُۥ﴾ كما في آية الأنفال؛ لأن ما هنا في مشركي العرب، وما هناك في الكفار عموما، فناسب العموم هناك، وتركه هنا»[2].

ومقصوده: تأكيد العموم بـ (كل)، وإلا فكلاهما فيه صيغة عموم.

وهو متنوع في بيان وسائل الهداية من الدعوة إلى التعقل والتفكر، وتدبر القرآن الكريم، والعمل به، واتخاذ القدوات، وتذكر أصل الخلق، والنعم، وسؤال الهداية، وتكرار كل ذلك بأساليب متعددة، كما سبق.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٨٤).

(٢) روح المعاني (١/ ٤٧٢).

المطلب الرابع

الشمول

شمول الأساليب والوسائل القرآنية، تتجلىٰ في جوانب متعددة، منها:

- أنّها شاملة لجميع أنواع الأساليب البلاغية، والوسائل العقلية، والوعظية، والعلمية، كما سبق بيانه في المبحثين السابقين.

- وكذلك شاملة في محاورة جميع أصناف المخالفين للهداية، والمنحرفين عن طريقها، بجميع الاستدلالات الهادية لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الأنعام:٥٥]:

- فيرد في دعوته للتوحيد علىٰ عباد الأصنام بالأسلوب الذي يناسبهم، فيقول تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت: ١٧].

- ويرد علىٰ عباد المسيح بما يلزمهم من حجج عقلية واقعية، فيقول سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: ١٧].

- ويرد علىٰ عباد الملائكة بالترهيب من عاقبتهم، فيقول تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[سبأ:٤٠-٤١].

• ويرد على عبدة الكواكب والنجوم، فيقول سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت: ٣٧].

• ويرد على من ينسبون إليه الولد، فيقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم: ٨٨-٩٣].

• ويرد على من يؤلهون البشر، فيقول تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[التوبة: ٣١].

• ويرد على من يعبدون أهواءهم، فيقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية: ٢٣].

• ويرد على أصناف المشركين بأسلوب التحدي والتعجيز، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[الحج: ٧٣].

فلكل ذلك وصف الله تعالى كتابه بأنه شامل في بيانه، مع تمام هدايته -وهما وصفان متلازمان-، فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل: ٨٩].

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يفيد العموم، إلا أنه عموم عرفي، في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشرائع، من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدني، وتبين الحقوق، وما تتوقف عليه الدعوة من الاستدلال علىٰ الوحدانية، وصدق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما يأتي في خلال ذلك من الحقائق العلمية، والدقائق الكونية، ووصف أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلل ذلك من قوانينهم، وحضاراتهم، وصنائعهم.

وفي خلال ذلك كله أسرار ونكت، من أصول العلوم والمعارف، صالحة لأن تكون بيانًا لكل شيء علىٰ وجه العموم الحقيقي، إن سلك في بيانها طريق التفصيل، واستنير فيها بما شرح الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما قفاه به أصحابه، وعلماء أمته، ثم ما يعود إلىٰ الترغيب والترهيب، من وصف ما أعد للطائعين، وما أعد للمعرضين، ووصف عالم الغيب، والحياة الآخرة.

ففي كل ذلك بيان لكل شيء يقصد بيانه؛ للتبصر في هذا الغرض الجليل، فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه، إلىٰ عموم حقيقي بضمنه ولوازمه، وهذا من أبدع الإعجاز»[1].

ومثله قوله سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨]، علىٰ المعنىٰ الثاني، وأنه يراد به القرآن الكريم، وهذا الشمول إما أن يكون تصريحًا، أو تلويحًا، تنصيصًا أو تأصيلًا، بالإحالة إلىٰ السنة، أو طرائق الاستدلال الأخرىٰ.

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٣).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في توجيه المعنىٰ الثاني للآية: «فعلىٰ هذا يكون من العام الذي أريد به الخاص، فيكون المعنىٰ: ما فرّطنا في شيء بكم إليه حاجة، إلا وبيناه في الكتاب، إما نصًّا، وإما مجملًا، وإما دلالة»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾[الكهف: ٥٤-٥٥]، فنعىٰ عليهم عدم اهتدائهم به، مع شمول بيانه لكل ما يحتاجونه، وتصريفه لهم بجميع الأساليب والوسائل المؤدية إلىٰ الهداية.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول عزّ ذكره: ولقد مثلنا في هذا القرآن للناس من كلّ مثل، ووعظناهم فيه من كلّ عظة، واحتججنا عليهم فيه بكل حجة؛ ليتذكّروا فينيبوا، ويعتبروا فيتعظوا، وينزجروا عما هم عليه مقيمون من الشرك بالله، وعبادة الأوثان، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ يقول: وكان الإنسان أكثر شيء مراء وخصومة، لا ينيب لحقّ، ولا ينزجر لموعظة»[2].

فجاء القرآن الكريم بكل أسلوب نافع يؤدي إلىٰ الهداية، وبكل وسيلة صالحة تصب في ينبوعها، في ثلاثية للخطاب: العقلي، والعلمي، والوعظي، تميز بها هذا الكتاب المعجز، وأمر الدعاة أن يسيروا علىٰ منهاجه فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي

(١) زاد المسير (٢/ ٢٦).
(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٩٩).

﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥]، فالحكمة: هي العلم، والموعظة: هي الخطاب القلبي، والمجادلة بالتي هي أحسن: هي الاستدلال العقلي.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ آمرا رسوله محمدًا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الخلق إلىٰ الله ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾، قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة،﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها؛ ليحذروا بأس الله تعالىٰ.

وقوله:﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلىٰ مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين، وحسن خطاب»[1].

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦١٣).

المطلب الخامس
الإجمال مع الوضوح والبيان

من مميزات أساليب القرآن الكريم ووسائله، أنّها جمعت بين الإجمال في أكثر مباحثها، ووضوحها وخلوها عن التعقيد، وبيانها لجميع الناس، ممن يفهم لغة العرب، فقد وصف الله تعالىٰ كتابه بالبيان المؤدي للهداية، فقال سبحانه: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٨]، وقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[يوسف: ١]،[الشعراء: ٢]،[القصص:٢]، فمع أن آياته معدودة، إلا أن معانيه ودلالاته لا تنقضي عجائبها، من غير إرهاق ذهني، أو كدّ عقلي، بل يكفي فهم لغته، وإحضار القلب عنده، وربما شرح يسير لمن استعجمت عليه معانيه وألفاظه؛ ليجلس القارئ والسامع معه، وكأنه يرىٰ صورًا مجسدة، وحقائق ماثلة.

فأساليبه البلاغية واضحة قريبة، وحججه وبراهينه العقلية فطرية مجملة مبينة، وهذا من عجائب القرآن الكريم.

قال الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«ما من برهان، ولا دلالة وتقسيم وتحديد، ينبئ عن كليات المعلومات العقلية، والسمعية، إلا وكتاب الله تعالىٰ قد نطق به، لكن أورده تعالىٰ علىٰ عادة العرب، دون دقائق طرق الحكماء والمتكلمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قاله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم: ٤] الآية.

والثاني: إن المائل إلىٰ دقيق المحاجة، هو العاجز عن إقامة الحجة بالجلي من الكلام.

فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون، لم ينحط إلىٰ الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ما لم يكن ملغزًا»[(١)].

ويؤكد ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الحقيقة قائلًا: «وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية، وجد الصواب منها يعود إلىٰ بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية، بأفصح عبارة وأوجزها، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[الفرقان: ٣٣]»[(٢)].

وقد ذكرنا نماذج من ذلك عند الكلام علىٰ الاستدلال العقلي في القرآن الكريم، علىٰ أنه وسيلة من وسائل عرض الهدايات، وتبين لنا كيف أنها جمعت بين الإجمال من جهة، والوضوح من جهة، كقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[الطور: ٣٥]، في إثبات الخالق، وكيف أن جبير بن مطعم -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- أذعن لها عند سماعها، دون حاجة إلىٰ تفصيلها، وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[ق: ١٥] في إثبات البعث، وقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء: ٨٨]، في إثبات أن القرآن كلامه سبحانه، وقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٢٧).

(٢) شرح الطحاوية (١/ ٧٦).

[الحجرات: ١٢]، في التنفير من الغيبة، وبيان قبحها، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾[العلق: ٢]، في التذكير بأصل الخلق.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الدليل وهو: خلق الإنسان من علق، يشترك فيه جميع الناس، فإن الناس هم المستدلون، وهم أنفسهم الدليل، والبرهان، والآية، فالإنسان هو الدليل، وهو المستدل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١]، وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصلت: ٥٣]، وهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه، ويذكره كلما تذكر في نفسه، وفيمن يراه من بني جنسه، فيستدل به علىٰ المبدأ والمعاد كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[مريم: ٦٦–٦٧]»[(١)].

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾[المرسلات: ٢٥–٢٧].

فهذه الآيات مع جزالتها وإجمالها، إلا أنها واضحة بينة، وجامعة لحقائق، تلفت نظر الإنسان إلىٰ دليلي الخلق والعناية، ويفهم منها العربي في الصحراء، أن الأرض تحفظه علىٰ ظهرها حيًّا، وفي بطنها ميتًا، وأن الجبال تحفظ الأرض من التصدع، وهو فهم يتناسب مع علمه، ويؤدي الغاية المقصودة من التدبر والعظمة.

وجاء العلماء المختصون اليوم ليتحدثوا لنا عن الجاذبية التي تحفظ الإنسان علىٰ سطح الأرض، وإلا لما كان لهم أن يستقروا في مكان، ويتحدث

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٢٦٢)، باختصار يسير.

لنا العلماء عن الجبال، وعجائبها، واختلاف ألوانها، وما تحويه من معادن، وكيف أن رواسي كل شيء من تحته إلا الجبال، فإنها رواسي الأرض من فوقها؛ ليكون فيها من المنافع ما لا يعلمه إلا الله، وهذا الفهم العلمي يتناسب مع آيات القرآن، ولا ينافيها، ويؤدي المقصود من العظة والاعتبار، ويظهر النعمة بشكل أوضح[١].

وكذلك نجد استفهامات القرآن الكريم جزلة موجزة، وواضحة بينة، لا اختصار يخل بهداياتها، ولا تطويل وحشو يصرف عنها؛ بل هي كلمات تؤدي معناها بأقوم طريق، وأهدى سبيل، فإذا قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[الواقعة:٥٨-٥٩]، فهم المراد بالاستفهام، وتبادر إلى القلب الجواب بالإقرار بربوبية الله، وكذلك إذا قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[الواقعة: ٦٨-٧٠]، علم عامة الناس مغزى الاستفهام، وتوارد مؤداه على أفئدتهم؛ إقرارًا بربهم.

والإجمال مع الوضوح والبيان، ظاهر كذلك في أسلوبه القصصي؛ حيث لا تذكر إلا في آيات معدودة، وكلمات محدودة، ومع ذلك تتضمن غاية البيان والهدى[٢]، فلا ذكر فيها لتفاصيل لا تفيد في الهداية، ولا محل فيها للحشو والتطويل المعهود في كتب الرواية، فهي متسامية في أهدافها،

(١) ينظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، لمحمد ملكاوي (ص: ٣٣٨-٣٣٩).

(٢) ينظر في خصائص القصص القرآني: القصة في القرآن الكريم، لمريم السباعي (ص: ٣٧)، وما بعدها.

مترفعة عن كل ما لا غرض له في غاياتها، مع دلالتها على هداياتها، بأبين صياغاتها، وأوضح عباراتها.

المطلب السادس
التوازن بين العقل والعاطفة

هنا نجد أن أساليب القرآن الكريم ووسائله، تميزت بمخاطبتها للعقل والعاطفة معًا، وبتعانق دقيق بينهما، فاستخدمت الأسلوب الوعظي بمختلف أنواعه، كالترغيب والترهيب، والأسلوب العقلي بصوره المتنوعة؛ ليتم التوازن بين العاطفة والعقل، فلا تطغىٰ إحداهما علىٰ الأخرىٰ، فطغيان العقل سبب في القسوة التي جنح إليها اليهود، وطغيان العاطفة سبب في الغلو، والرهبانية، والضلال، الذي اتصف به النصارىٰ، والقرآن وازن بينهما، فكان كاللبن السائغ بين الغلاة والجفاة، وهو من مدلولات قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦]، وهو كذلك منتظم في قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فمما يدخل في معاني الوسط: الوسط بين الحضارة الروحية، والحضارة المادية، وبين العقل والروح.

وقد جاءت الأوامر بتحقيق الأمرين، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[النحل: ٩٠]، فالعدل مناطه العقل، والإحسان تخالطه العاطفة.

قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مفهوم العدل: «وهو الإنصاف الذي لا يقبل عمل بدونه، وأول درجاته التوحيد الذي بنيت السورة عليه، والعدل يعتبر تارة في المعنىٰ، فيراد به هيئة في الإنسان، تطلب بها المساواة، وتارة في العقل، فيراد به التقسيط القائم علىٰ الاستواء، وتارة يقال: هو الفضل كله، من حيث إنه

لا يخرج شيء من الفضائل عنه، وتارة يقال: هو أكمل الفضائل من حيث إن صاحبه يقدر علىٰ استعماله في نفسه وفي غيره»[١].

والأمثلة علىٰ الموازنة بين العقل والعاطفة والمزاوجة بينهما كثيرة في أساليب القرآن الكريم، ووسائله، فمن ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[النمل: ٦٠]، فتأمل في هذه الآيات التي تأخذ بنواصي العقول، بحقائقها، وإشراقة ديباجتها، وتتعلق بتلابيب الأفئدة بعظاتها، وصدق عاطفتها، فبدأها بالاستفهام التقريري؛ لحملهم علىٰ الإقرار بالحقّ، علىٰ وجه الاضطرار؛ فإنّه لا يتمالك أحد ممن له أدنىٰ تمييز، ولا يقدر علىٰ أن لا يعترف بخيرية من خلق جميع المخلوقات، وأفاض علىٰ كل منها ما يليق به من منافعه، والمعنىٰ: أمّن خلق قطري العالم الجسمانيّ، ومبدأي منافع ما بينهما، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، وفيه التفات إلىٰ خطاب الكفرة لتشديد التبكيت والإلزام، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالىٰ، والإيذان بأنّ إنبات تلك الحدائق، المختلفة الأصناف والأوصاف، والألوان والطّعوم، والرّوائح والأشكال، مع ما لها من الحسن البارع، والبهاء الرّائع، بماء واحد، ممّا لا يقدر عليه إلا هو وحده، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ﴾، فضلًا عن ثمرها، وسائر صفاتها البديعة، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ﴾ وهذا تبكيت لهم بنفي الألوهية عمّا يشركونه به تعالىٰ، في ضمن

---

(١) نظم الدرر (١١/ ٢٣٦).

النّفـي الكليّ علـىٰ الطريقـة البرهانية، فإنّ أحـداً ممّن له تمييـز في الجملة، لا يـكاد يقدر علـىٰ إنكار انتفاء الألوهية عنه رأسًـا، لا سـيّما بعـد ملاحظة انتفاء أحكامها عمّا سـواه تعالـىٰ، وهكذا الحال في الآيات الأربـع الأخرىٰ، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ إضـراب وانتقـال من تبكيتهـم بطريق الخطاب، إلىٰ بيان سـوء حالهـم، وحكايته لغيرهـم، أي: بل هم قـوم عادتهم العدول عـن طريق الحقّ بالكليـة، والانحـراف عن الاسـتقامة في كلّ أمر مـن الأمور(١).

وهكذا تسـتمر بقية الآيـات في موازنة دقيقة، وتنقـلات عجيبة بين ما هو عقلي، وما هو عاطفي؛ لتنتشـل هذا الإنسـان من تخبطـات الضلالة والغواية، إلىٰ طمأنينة الهداية.

وهـذا كان دأب الأنبيـاء -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- الذيـن قـص الله مـن أخبارهـم، وبين أسـلوب دعوتهـم لأقوامهم، فنـوح عَلَيْهِ السَّلَامُ خاطب عقولهـم في عبادتهم لأصنامهـم وعـدم نفعها لهم، ثـم خاطب عواطفهـم في ترغيبهـم بعبادة ربهم ومـا يمدهم به مـن أموال وبنيـن، ويجعـل لهم جنـات وأنهارًا.

وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خاطـب عقولهم، بمناظراته لهـم في عبادتهم الكواكب والنجـوم والأصنـام، وخاطـب أباه كذلـك بإعمال عقلـه، ثم خاطبـه خطابًا وعظيًّـا يلامس عاطفتـه، فحكـىٰ الله قولـه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٣-٤٥].

(١) ملخص من إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٩٣-٢٩٤). وينظر: نظم الدرر (١٤/ ١٩١-١٩٩).

وهكـذا تتابـع الآيـات، وغيرهـا كثيـر، واعظـة لقلـب هذا الإنسـان، ومسـتدلة لـه علىٰ عظمـة الرحمـن، في تـوازن معجز، واتسـاق مبهـر، وهو الشـأن في عامـة أسـاليب دعوة القـرآن الكريـم ووسـائلها، ودعـوة الأنبياء، فراعـت العقل والروح، بالاسـتدلال والوعـظ؛ تحقيقًا للهدايـة، وإحاطة لهذا الإنسـان بكامـل الرعاية.

المطلب السابع

الدقة والعمق

إن من أهم ما يميز أساليب القرآن الكريم ووسائله، دقةَ اختيار ألفاظه، والعمقَ في دلالة معانيه، فاختيرت كل كلمة لمغزىٰ، وقصدت كل صيغة لمعنىٰ، مع التناسب والتناغم بين آياته، بين الأخبار والإنشاءات، والترغيب والترهيب، والاستدلال والحوار، كل ذلك في قالب دقيق، وأسلوب عميق، فيوجز حيث ناسب الإيجاز، كما إذا تأملت قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، الجامع لمنهاج الدعوة.

يقول الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذه ثلاث كلمات اشتملت علىٰ جميع الرسالة»(١).

كما أنه يطنب حيث احتاج إلىٰ تفصيل، كما في آيات الأحكام، كالفرائض، والطلاق، ونحوها(٢).

وهذا الوصف من الدقة والعمق، داخل في معاني قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان معانيها: « ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ نظمت نظمًا محكمًا، لا يعتريه إخلال من جهة اللفظ والمعنىٰ، أو منعت من الفساد والنسخ، فإن المراد آيات السورة، وليس فيها منسوخ، أو أحكمت بالحجج

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٢٦).

(٢) ينظر: عادات القرآن الأسلوبية، للدكتور راشد الثنيان (١/ ٣٠٦)، وما بعدها.

والدلائل، أو جعلت حكيمة، منقول من حكم بالضم، إذا صار حكيمًا؛ لأنها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية»[١].

وهذا لا شك بحر لا ساحل له، فلو جئنا إلى كل سياق، نسبر أغواره، لطال بنا المقام، وقد سبق معنا عند تناول الأساليب والوسائل ما فيها من دقة وإحكام، وعمق وإتقان، وحسبنا هنا أن نمثل لذلك بأمثلة تدلنا على المراد.

فمن أمثلة دقة الأسلوب القرآني في اختيار الألفاظ، أننا نجد عند تقرير أعظم الهدايات؛ **وهي:**

- الوحدانية، يذكر نفسه سبحانه باسم (الرب) أحيانًا، و(الإله) أحيانًا، وقد يكون في السياق نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام: ١١٢]، مع قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام: ١٣٧].

ففي الأولى: عبر بالرب؛ لأنها في بيان أعدائه سبحانه، والمسلطين عليه، فأشار إلى أن ذلك لإكرامه وإعزازه، لا لهوانه، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: بما له إليك من حسن التربية، وغزير الإحسان، مع ما له من تمام العلم، وشمول القدرة.

وفي الثانية: الكلام في خصوص الشركاء؛ لذلك علق الأمر باسم الذات، الدال على الكمال، المقتضي للعظمة والجبروت، وسائر الأسماء

(١) أنوار التنزيل (٣/ ١٢٧).

الحسنىٰ علىٰ وجه الجلال، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: بما له من العظمة، والإحاطة بجميع أوصاف الكمال، المقتضية للعلو عن الأنداد، والتنزه عن الشركاء والأولاد، واستحقاق الألوهية(١).

- وكذلك حينما ينهىٰ عن التلبس بما يضاد الهداية تارة يقول: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، وتارة يقول: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾.

فالأولىٰ: كما في قوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

والثانية: كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والسر في ذلك -والله أعلم- أنّ الآية الأولىٰ تتحدث عن محظورات الصوم، من الأكل، والشرب، والجماع، ثم المحظور في الاعتكاف وهو الجماع، فناسب التعبير بعدم الاقتراب منها، في حين أنّه في الآية الثانية ذكر الأحكام الشرعية من الطلاق، والرجعة،

(١) نظم الدرر (٧/ ٢٨٣)، بتصرف.

والخلع؛ فلذلك حذر من الاعتداء، ومجاوزة حكم الله فيها، فتأمل في هذا التناسق القرآني، والتعانق الإبداعي.

- ومن أمثلة الدقة والعمق في الأساليب البلاغية القرآنية، استخدام لفظ (المرأة) أحيانًا، ولفظ (الزوج) أحيانًا، فاستخدم لفظ (المرأة) في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ﴾[هود: ٧١]، وقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ [مريم: ٥]، وقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ﴾ [التحريم: ١٠]، وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [التحريم: ١١]، وغيرها.

واستخدم لفظ (الزوج) في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقوله: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾[الأحزاب: ٣٧]، وغيرها، فما السر البلاغي في التنويع بينها؟ وأي هداية ترشد إليها؟

يقال -والله أعلم-: إن كلمة (زوج) تأتي حيث تكون الزوجية هي مناط الموقف حكمة وآية، أو تشريعًا وحكمًا؛ لذلك قال في آية الزوجية: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾[الروم:٢١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤].

فإذا تعطلت آيتها من السكن والمودة والرحمة، بخيانة أو تباين في العقيدة، فامرأة لا زوج، كما في قوله: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[يوسف: ٣٠]، وقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا

لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم:١٠]، ومعها في امرأة لوط آيات: [العنكبوت:٣٣]، [النمل: ٥٧]، [الحجر: ٦٠]، [الذاريات: ٨١]، [الأعراف:٨٣].

وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١]، وقد تعطلت آية الزوجية بينهما، بإيمانها وكفره، وحكمة الزوجية في الإنسان وسائر الكائنات الحية من حيوان ونبات، هي اتصال الحياة بالتوالد.

فإذا تعطلت حكمة الزوجية في البشر بعقم أو ترمل، فامرأة لا زوج، كالآيات في امرأة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧١]، وامرأة عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾ [آل عمران: ٣٥].

ويضرع زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الله سبحانه، كما حكى الله تعالى قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]، ثم لما استجاب له ربه، وحققت الزوجية حكمتها، كانت الآية: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠][1].

- وتأمل في عمق أسلوب الترهيب والوعيد، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩]، فمعلوم أنه لا ذنب لها، وهي

---

(١) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (ص: ٢٣٠-٢٣١).
وفي نظر الباحث يرى أن مثل هذه الأمور تحتاج لمزيد تتبع واستقراء لجميع الآيات الواردة فيها، حتى نثبت ونجزم بهذه الحقيقة القرآنية.

قد لحدت في مهدها، لكن هذا التعبير الفائق، والأسلوب العاطفي الرائق، يحمل أولئك القساة علىٰ مراجعة فطرتهم، والبحث عن بقايا الرحمة في جنبات سويداء قلوبهم، التي ران عليها شركهم وفواحشهم، كما أنه يتضمن احتقارهم، وعدم الالتفات إليهم؛ تشنيعًا لفعلهم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله تعالىٰ: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ﴾، إشعار بأنه لا ذنب لها فتقتل بسببه، بل الجرم علىٰ قاتلها، ولكن لعظم الجرم يتوجه السؤال إليها؛ تبكيتا لوائدها»[(١)].

فالأساليب والوسائل القرآنية، متعانقة متماسكة، متجانسة متآلفة، متآخية متجاوبة، منسجمة متلاقية، يعجز الخلق عن سبر أغوارها، واستخراج درر أسرارها، كما قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تنقضي عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلىٰ صراط مستقيم»[(٢)].

---

(١) أضواء البيان (٨/ ٤٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي مرفوعًا، في ثواب القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، برقم: (٢٩٠٦)، وقال: «غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول»، وقال ابن كثير في تعليقه علىٰ هذا الخبر: «وقد وهم بعضهم في رفعه، وقصارىٰ هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ». ينظر: فضائل القرآن، لابن كثير: (ص: ١٥).

ولعمق الأسلوب القرآني أمر الله تعالىٰ بتدبره كما سبق، فإنّه في كل مرة يتدبره فيه المؤمن، يستخرج من كنوزه وعجائبه، ولذلك مهما فسره المفسرون، وجمع فوائده المؤولون؛ يبقىٰ بحر علومه لا ينفد.

وأختم بهذا النقل القيم، عن الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث يقول:

«فإن قلت: إنك قد أشرت إلىٰ مقام عظيم، فافتح لي بابه، واكشف لي حجابه، وكيف تدبر القرآن وتفهمه، والإشراف علىٰ عجائبه، وكنوزه؟! وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا، فهل في البيان غير ما ذكروه؟

قلت: سأضرب لك أمثالا تحتذي عليها، وتجعلها إمامًا لك في هذا المقصد.

قال الله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الذاريات: ٢٤-٣٠].

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية، وتطلعت إلىٰ معناها، وتدبرتها، فإنما تطلع منها علىٰ أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف، يأكلون، ويشربون، وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك، فأخبرتها الملائكة: أن الله قال ذلك، ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار، وكم قد تضمنت من الثناء علىٰ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

وكيف جمعت الضيافة وحقوقها، وما تضمنت من الرد علىٰ أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة؟

وكيف تضمنت علما عظيما من أعلام النبوة؟

وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي ردها إلىٰ العلم والحكمة؟

وكيف أشارت إلىٰ دليل إمكان المعاد، بألطف إشارة، وأوضحها، ثم أفصحت وقوعه؟

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب، وانتقامه من الأمم المكذبة؟

وتضمنت ذكر الإسلام، والإيمان، والفرق بينهما، وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة علىٰ توحيده، وصدق رسله، وعلىٰ اليوم الآخر.

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة، وهم المؤمنون بها، وأما من لا يخاف الآخرة، ولا يؤمن بها، فلا ينتفع بتلك الآيات»[1].

(١) الرسالة التبوكية (ص: ٦٣، ٦٤).

الفصل الرابع

المنهج الأمثل في التعامل

مع الهدايات القرآنية

ويشتمل على المباحث التالية:

* هدي السلف في التعامل مع الهدايات القرآنية
* طرق العلماء في الوصول للهدايات القرآنية
* أصول وقواعد وضوابط في التعامل مع الهدايات القرآنية

المبحث الأول
هدي السلف في التعامل مع
الهدايات القرآنية

هدي السلف في التعامل مع الهدايات القرآنية

تمهيد:

إن كل علم نظري يفتقر إلىٰ أسوة عملية يُقتدىٰ بها، وتطبيقات واقعية يُهتدىٰ بها، و«الهدايات القرآنية» حتىٰ تؤتي أكلها، ويشتد عودها، لابد لها -بعد الجانب التأصيلي- من واقع تنزيلي، ولاشك أن أفضل التطبيقات، وأجل القدوات، ما كان في القرون المفضلة، وهي قرون السلف، الذين أمر الله باتباعهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ ولذلك سيكون الحديث في هذا المبحث حول هدي السلف في التعامل مع الهدايات علمًا وعملًا.

وأبدأ هذا المبحث بتمهيد حول مفهومي: الهدي والسلف.

أولًا: معنى الهدي:

الهَدْي: يطلق علىٰ القصد، والوجهة، والطريقة، يقال: فلان هِدْيَة أمره، أي: جهة أمره، وضل هُدْيَتَه، أي: وجهه، ويقال: فلان يذهب علىٰ هِدْيَتِه، أي: علىٰ قصده، ويقال: هَدَيْتُ؛ أي: قصدتُ.

وفلان يَهْدي هَدْي فلان: يفعل مثل فعله، ويسير سيرته، وفي الحديث: «واهتدوا بهَدْي عمار»[1]، أي: سيروا بسيرته، وتهيأوا بهيئته،

(١) أخرجه الترمذي في السنن، أبواب المناقب، باب مناقب عمار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، برقم: =

وما أحسن هَدْيَه، أي: سمته وسكونه، وفلان حسن الهَدْي، والهِدْية، أي: الطريقة والسيرة، والجمع هَدْي، مثل: تمرة وتمر، وفي حديث جابر بن عبد الله: «وإن أحسن الهَدْي هَدْي محمد»(١)، أي أحسن الطريق، والنحو، والهيئة، وفي الحديث: «الهَدْي الصالح والسمت الصالح جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة»(٢).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهَدْي السيرة والهيئة والطريقة، ومعنى الحديث أن هذه الحال من شمائل الأنبياء من جملة خصالهم وأنها جزء معلوم من أجزاء أفعالهم، وليس المعنى أن النبوة تتجزأ، ولا أن من جمع هذه الخلال كان فيه جزء من النبوة، فإن النبوة غير مكتسبة، ولا مجتلبة بالأسباب، وإنما هي كرامة من الله تعالى، ويجوز أن يكون أراد بالنبوة ما جاءت به النبوة ودعت إليه، وتخصيص هذا العدد، مما يستأثر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعرفته»(٣).

= (٦٦٨)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٧٩)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٣/ ٢٣٥)، برقم: (١٢٣٣).

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١/ ٢٨٥)، برقم: (٣٦٥)، والدرامي في مسنده (١/ ١٢١)، برقم: (٢١٤)، وحسّن إسناده محقق مسند الدارمي، وهو عند البخاري في صحيحه (٥/ ٢٥)، رقم: (٦٠٩٨) بلفظ: «وأحسن الهدي هدي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٤٣٢)، وأبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في الوقار، برقم: (٤٦٠٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٠١)، برقم: (١٩٩٣).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٥٣). و ينظر: لسان العرب (١٥/ ٣٥٦).

ثانيًا: معنى السَّلَف:

السَّلَف لغة: كل من تقدّمك.

قال ابن منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سَلَف يَسْلُف سَلَفًا، مثال: طلب يطلب طلبًا، أي: مضىٰ، والقوم السُّلاَّف: المتقدمون، وسَلَف الرجل: آباؤه المتقدمون، والجمع أَسْلاف وسُلاَّف، وقال ابن بري: سُلاَّف، ليس بجمع لسَلَف، وإنما هو جمع سالِف للمتقدم، وجمع سالِف أيضا سَلَف، ومثله خالَف وخَلَف.. والسَّلَف أيضًا: من تقدّمك من آبائك، وذوي قرابتك، الذين هم فوقك في السن والفضل، واحدهم سالِف؛ ومنه قول طفيل الغنوي يرثي قومه:

مَضَوا سَلَفًا قَصْدُ السَّبيلِ عليهِمُ وصَرْفُ المنايا بالرِّجالِ تَقَلَّبُ

أراد: أنهم تقدّمونا، وقَصْدُ سبيلِنا عليهم، أي: نموت كما ماتوا، فنكون سَلَفًا لمن بعدنا، كما كانوا سَلَفًا لنا»[(١)].

والسَّلَف في الاصطلاح: أصحاب القرون الثلاثة الفاضلة من الصحابة والتابعين وأتباعهم، دون من رمي ببدعة، أو شهر بلقب غير مرضي، كجهمي، أو رافضي[(٢)].

ودليل ذلك حديث عمران بن الحصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُمْ»[(٣)].

---

(١) لسان العرب (٩ / ١٥٩)، مادة (سلف).

(٢) لوامع الأنوار؛ للسفاريني (١ / ٢٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد علىٰ شهادة جور إذا أشهد، برقم: (٢٦٥١)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، برقم: (٢٥٣٥).

والنّسبةُ إلىٰ السَّلَف سَلَفِيٌّ، ويقصد بها أحد أمرين:

١- إما أنّه من القرون الثلاثة.

٢- وإما أنّه متّبع لهم في طريقتهم في الدِّين.

كما قال ﷺ: «لا يزال ناس من أمتي ظاهرين، حتىٰ يأتيهم أمر الله، وهم ظاهرون»[1].

فالاستمراريّة تستلزم متابعة السابقين.

معالم هدي السَّلَف مع الهدايات:

إن الإقبال علىٰ كل شيء، علمًا وعملًا، إنما يقوم علىٰ قاعدة التعظيم له، وقوة التعلق به، وهذا الأصل هو الذي حققه السلف الكرام، مع هدايات القرآن العظيم، فقد كان إقبالهم علىٰ القرآن الكريم تدبرًا لآياته، وتأثرًا بعظاته، وعملًا بأحكامه، واجتنابًا لمنهياته، قائمًا علىٰ غاية التعظيم للمنزِّل والمنزَل، كما وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب، برقم: (٣٦٤٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: لا تزال طائفة..، برقم: (١٩٢١).

قالت أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «كان أصحاب محمد إذا سمعوا القرآن، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، كما نعتهم الله»[(١)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون، ويُؤمِّلون من رحمته ولطفه»[(٢)].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: «لا يضر الرجل أن لا يسأل عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن، فإنه يحب الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٣)]، وقال: «إن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن»[(٤)].

وقال خباب بن الأرت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لرجل: «تقرب إلىٰ الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه»[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (ص: ٣٥٩)، برقم: (١٠١٦)، وسعيد بن منصور في التفسير من سننه (٢/ ٣٣٠)، برقم: (٩٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤١٦)، برقم: (١٩٠٠)، وصححه سعد الحميّد في تحقيقه لسنن سعيد بن منصور.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٩٤).

(٣) فضائل القرآن، لأبي عبيد (ص: ٢١).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ١٠٤)، برقم: (٦١٧٢)، وابن أبي شيبة (١٦/ ٤١٧)، برقم: (٣٢٠٠٦)، والدارمي في سننه (٤/ ٢٠٩٣)، برقم: (٣٣٦٥)، وقال محققه: إسناده صحيح، وقال في مجمع الزوائد (١/ ١٢٩): رواه البزار في حديث طويل، ورجاله موثقون، وقال أيضا (٧/ ١٦٤): ورجال هذه الطريق رجال الصحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٦/ ٤٤٥)، برقم: (٣٢٠٩٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٩)، برقم: (٣٦٥٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

ويتجلّىٰ هـذا التعظيـم في جميع جوانـب تعاملاتهم مع القـرآن الكريم، وسـيظهر ذلك في ثنايا ما سـيأتي مـن الفقرات.

أولًا: كثرة تلاوة القرآن الكريم والاهتمام بحفظه وإدامة النظر فيه:

كثـرة التلاوة، والعكـوف علىٰ القـرآن الكريم، من أهم ما يميز السـلف الكرام؛ فـإن بداية العلم، والتدبر، والفهم، والاسـتنباط، تبـدأ بالترتيل، وإدامة النظـر، والحفـظ والتكرير، مع ما فيـه من الأجـر الكبير، وقـد كان هذا الأمر ظاهـرًا من بدايـة العهـد الأول، فقد قـال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني لأعـرف أصوات رفقـة الأشـعريين بالقـرآن، حيـن يدخلـون بالليـل، وأعـرف منازلهـم، من أصواتهـم بالقـرآن وبالليل، وإن كنـت لم أر منازلهـم حين نزلـوا بالنهار»[(١)].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أديموا النظر في المصحف»[(٢)].

وقـال أيضًا: «إن هـذه القلوب أوعية، فاشـغلوها بالقرآن ولا تشـغلوها بغيره»[(٣)].

وقال أبو موسـىٰ الأشـعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني لأسـتحي ألا أنظـر كل يوم في عهد ربي مـرة»[(٤)].

---

(١) أخرجـه البخـاري، كتـاب المغـازي، باب غـزوة خيبر، برقـم: (٤٢٣٢)، ومسـلم، كتاب فضائـل الصحابـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بـاب فضل الأشـعريين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، برقـم: (٢٤٩٩).

(٢) أخرجـه ابـن أبـي شـيبة في المصنـف (٢/ ٢٤٠)، برقـم: (٨٥٥٨)، والطـبراني في الكبير (٩/ ١٣٩)، برقـم: (٨٦٨٧)، قـال ابـن حجـر في فتـح البـاري (٩/ ٧٨): وإسـناده صحيح.

(٣) أخرجـه ابـن أبـي شـيبة في المصنـف (٦/ ١٢٦) برقـم: (٣٠٠١١)، وأبو نعيـم في الحلية (١/ ١٣١)، قـال الألبـاني في السلسـلة الصحيحـة: (٢/ ١٧٧): لا بـأس به.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٥١١)، برقم: (٢٠٣٣).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال أمير المؤمنين، عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لو أن قلوبنا طهرت ما شبعت من كلام ربنا، وإني لأكره أن يأتي علي يوم لا أنظر في المصحف، وما مات عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حتى خرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه»(١).

ونجد ذلك في صلواتهم كذلك، فطول القيام وكثرة تلاوة القرآن كانت سمة بارزة في حياتهم؛ لمعرفتهم فضل ذلك، حيث سئل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي الصلاة أفضل؟ فقال: «طول القنوت»(٢) أي: طول القيام، لما يتضمنه القيام من قراءة للقرآن، وهو هديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فعن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «صليت مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقرأها، ثم النساء، ثم آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مر بتعوّذ تعوّذ»(٣).

عن هشام بن عروة، عن أبيه: «أن أبا بكر الصديق صلى الصبح، فقرأ فيها بسورة البقرة في الركعتين كلتيهما»(٤).

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٧٩)، برقم: (٧٧٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٥٩٣)، برقم: (٥٢٤)، وفيه انقطاع، فالحسن لم يسمع من عثمان.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أفضل الصلاة طول القنوت، برقم: (٧٥٦).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، برقم: (٧٧٢).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، برقم: (٢٧٠)، وإسناده منقطع، قاله الحافظ ابن حجر في إتحاف المهرة (٨/ ٢٣٨).

وعن السائب بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «صليت خلف عمر الصبح، فقرأ فيها بالبقرة، فلما انصرفوا استشرفوا الشمس، فقالوا: طلعت الشمس، فقال: لو طلعت لم تجدنا غافلين»(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «أمر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبي بن كعب وتميما الداري أن يقوما للناس بإحدىٰ عشرة ركعة، قال: وقد كان القارئ يقرأ بالمئين، حتىٰ كنا نعتمد علىٰ العصي؛ من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا في فروع الفجر»(٢).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قرأ بالسبع الطوال في ركعة»(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله، فخذوا منه ما استطعتم، فإني لا أعلم شيئا أصفر من خير، من بيت ليس فيه من كتاب الله شيء، وإن القلب الذي ليس فيه من كتاب الله شيء خرب، كخراب البيت الذي لا ساكن له»(٤).

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١٨٠) برقم: (١٠٧٨)، والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٧٠)، برقم: (١٨٠٢)، وقريب منه عند عبد الرزاق في المصنف (٢/ ١١٤)، برقم: (٢٧١٧).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة في رمضان، باب ما جاء في قيام رمضان (١/ ١١٥)، برقم: (٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢٩٣)، برقم: (١٧٤١)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢/ ١٩٢).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ١٤٨)، برقم: (٢٨٤٥).

(٤) أخرجه الدارمي في سننه (٤/ ٢٠٨٣) برقم: (٣٣٥٠)، قال محققه: رجاله ثقات غير أن أبا سنان سعيد بن سنان متأخر السماع من أبي إسحاق وهو موقوف علىٰ ابن مسعود.

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن البيت ليتسع على أهله، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويكثر خيره أن يقرأ فيه القرآن، وإن البيت ليضيق على أهله، وتهجره الملائكة، وتحضره الشياطين، ويقل خيره أن لا يقرأ فيه القرآن»(١).

بل كانوا يلزمون أنفسهم بذلك، ويحملونها عليه؛ لذلك يقول أبو العالية: «كنا نعد من أعظم الذنب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام لا يقرأ منه شيئًا»(٢).

وقد كانت لهم - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - ختمات مرتبة، يحافظون عليها، ويتنافسون فيها، فهذا عبدالله بن عمرو يستأذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أن يكثر من الختمات.

فعن عبد الله بن عَمْرٍو بقَال: قَال رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقرإِ الْقُرْآن فِي شَهر «قلت: إِنِّي أَجدُ قُوَّةً.. حَتَّىٰ قَال: «فَاقْرَأْهُ في سَبع ولا تَزِد عَلَىٰ ذلك»(٣).

وفيه: أن رَسُول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ»(٤).

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٤/ ٢٠٨٥)، برقم: (٣٣٥٢)، قال محققه: إسناده صحيح، وهو موقوف على أبي هريرة، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٧٩).

(٢) الزهد، لأحمد بن حنبل (ص: ٣٠٣).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن، برقم: (٥٠٥٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، برقم: (١١٥٩).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن، أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، باب تحزيب القرآن، برقم: (١٣٩٤)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في كم يستحب بختم القرآن، برقم:(١٣٤٧)، وصححه الألباني في صحيح السنن.

وهـو الذي عمل بـه الصحابة العظمـاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومن تبعهـم من الأئمة الأجـلاء - رَحِمَهُمُ اللَّهُ-، فعن ابـن مسـعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «اقرؤوا القرآن في سـبع، ولا تقرؤوه في أقل مـن ثلاث»[(١)].

وثبـت عن معاذ بـن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنـه كان يكـره أن يقرأ القـرآن في أقل من ثـلاث[(٢)].

قال ابـن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كـره غير واحد من السـلف قـراءة القرآن في أقـل من ثـلاث، كما هـو مذهب أبي عبيد، وإسـحاق بـن راهويـه، وغيرهما من الخلـف أيضًا»[(٣)].

لكـن روي عن جِلـة منهم أنه ختـم في ليلة، بل وفي ركعـة، وعن بعضهم أنه ختم أكثـر من ختمة في اليـوم والليلة.

قال النـووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الذيـن ختموا القرآن في ركعـة: فلا يُحصون؛ لكثرتهم، فمنهـم: عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسـعيد بـن جبير»[(٤)].

لكـن ذلـك يحمل علىٰ عـدم المداومـة؛ تنزيهًـا لهم عـن مخالفة نهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه سـعيد بن منصور في التفسـير من سـننه (٢/ ٤٤٢)، برقم: (١٤٦)، وصحح محققه إسـناده، وكذا الحافظ ابن حجر في فتـح الباري (٩/ ٧٨).

(٢) أخرجـه أبـو عبيـد في فضائـل القـرآن (ص: ٨٩)، وصححـه ابن كثيـر في فضائـل القرآن (ص: ٢٥٤).

(٣) فضائل القرآن (ص: ٢٥٤).

(٤) الأذكار (ص: ١٠٢).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان قتادة يختم في كل سبع دائمًا، وفي رمضان في كل ثلاث، وفي العشر الأواخر كل ليلة، وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرؤها في غير الصلاة، وعن أبي حنيفة نحوه.. وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات المفضلة، كشهر رمضان، خصوصًا الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر، أو في الأماكن المفضلة، كمكة لمن دخلها من غير أهلها، فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن؛ اغتنامًا للزمان والمكان، وهو قول أحمد وإسحاق، وغيرهما من الأئمة، وعليه يدل عمل غيرهم كما سبق ذكره»(١).

ثانيًا: الاهتمام بتعلم أحكامه ومعانيه:

لم يكن حال السلف مع القرآن الكريم مجرد القراءة فحسب، بل كان اهتمامهم بتعلم معانيه يفوق مجرد التلاوة؛ حتىٰ لا يكون حظهم من القرآن الكريم ما أنكره الله تعالىٰ علىٰ الكتابيين، حيث قال عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة: ٧٨].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: من أهل الكتاب ﴿أُمِّيُّونَ﴾ أي: عوام، ليسوا من أهل العلم، ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين، الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم»(٢).

---

(١) لطائف المعارف (ص: ١٧١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٦). وينظر المعاني الأخرىٰ للآية في: جامع البيان (٢/ ٢٦١)، زاد المسير (١/ ٨١).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾[البقرة: ٢٦٩].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير ﴿الْحِكْمَةَ﴾: «المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله»[١].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا»[٢].

ولذلك نقل إلينا ذلكم التراث الثري من تفاسير السلف السابقين لآيات الكتاب المبين، ومما يدل علىٰ حرصهم علىٰ فهم القرآن الكريم، وتعلم أحكامه، ما يلي:

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أراد العلم فليتبوأ من القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين»[٣]، وفي رواية: «فليثوّر القرآن»[٤]، أي: لينقر عنه،

(١) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (ص: ٦)، وابن جرير في جامع البيان (٥/ ٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص: ٢٨٩)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٤٧) برقم: (١٨٠٨)، وصححه محقق التفسير من سنن سعيد بن منصور (١/ ٩)، وذكر بعض طرقه.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٣٦)، برقم: (٨٦٦٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٤٧)، برقم: (١٨٠٨)، قال في مجمع الزوائد (٧/ ١٦٥): رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح.

ويفكر في معانيه، وتفسيره، وقراءته[(١)].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «لقد عشنا برهة من دهرنا، وإن أحدنا يؤتىٰ الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة علىٰ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده فيها، كما تعلمون أنتم القرآن، ثم قال: لقد رأيت رجالا، يؤتىٰ أحدهم القرآن، فيقرأ ما بين فاتحته إلىٰ خاتمته، ما يدري ما أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، ينثره نثر الدقل»[(٢)].

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «عرضت القرآن علىٰ ابن عباس ثلاث عرضات أقفه عند كل آية أسأله فيما نزلت، وكيف كانت»، وفي رواية: «عرضت القرآن علىٰ ابن عباس ثلاثين عرضة»[(٣)].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أنزل الله آية، إلا وهو يحب أن يعلم ما أراد بها»[(٤)].

---

(١) النهاية، لابن الأثير (١/ ١٣٨).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٥)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، وذكر محقق التفسير من سنن سعيد بن منصور (١/ ٢٠٩) بعض طرقه، وصححه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٠٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٨٠)، الرواية الأولىٰ من طريق أبان بن صالح عنه، والرواية الثانية: عن الفضل بن ميمون عنه. وينظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٠).

(٤) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٩٧)، بإسناد حسن.

وقال عمرو بن مرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني؛ لأني سمعت الله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]»(١).

فلذلك كان السلف - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - من الصحابة ومن بعدهم، يمكث أحدهم في تعلم السورة من القرآن الكريم، السنين الطويلة.

فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورًا»(٢).

وعن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أنه بلغه أن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها(٣).

ولا يدل هذا التأخر على ضعف الحفظ، أو الانشغال عنه، وإنما يدل على الاهتمام بالعلم والفهم؛ لذلك قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن»(٤).

وهو المنهج العام الذي حكاه عن عامتهم أبو عبد الرحمن السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: «كان الذين يقرئوننا القرآن من صحابة رسول الله

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٩٧)، وابن أبي حاتم في التفسير (١١/ ٤٤٠)، بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه البيهقي في شُعب الإيمان (٣/ ٣٤٦)، قال في تهذيب سير أعلام النبلاء (١/ ٣٥): وفيه أبو بلال الأشعري قال عنه البيهقي في الشعب (٢/ ٤٧٤): وقد روى أبو بلال الأشعري وليس بالقوي.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب القرآن، باب ما جاء في القرآن، برقم: (١١).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ٨٠)، بإسناد صحيح كما ذكره المحقق في المقدمة.

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عثمان، وأبي بن كعب، وغيرهما، يقولون: كنا على عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا نتجاوز العشر آيات، حتى نعرف ما فيها من العلم والعمل، فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا»(١).

وبسبب هذه العناية بالعلم والفهم كان تعظيمهم للحفاظ القراء كبيرًا، قال أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «كان الرجل إذا قرأ: البقرة، وآل عمران، جد فينا – يعني عظم»(٢)؛ لأنه لا يقرؤها إلا بتعلمها.

ولذلك كانت لهم تلك الاستنباطات الدقيقة من القرآن الكريم، على جميع أحكام الشرع الحنيف.

فمن ذلك أن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أتي عثمان بامرأة ولدت في ستة أشهر، فأمر برجمها، فقال ابن عباس: أدنوني منه فلما أدنوه منه، قال: إنها إن تخاصمك بكتاب الله، تخصمك، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ويقول الله في آية أخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، فقد حملته ستة أشهر، فهي ترضعه لكم حولين كاملين، قال: فدعا بها عثمان فخلى سبيلها»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٤٦٠)، برقم: (٣١٩٢١)، وأحمد في المسند (٣٨/ ٤٦٦)، برقم: (٢٣٤٨٢)، وابن جرير في جامع البيان (١/ ٨٠)، وحسنه شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٩/ ٢٤٧)، وصححه محققو المسند.

(٣) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥/ ٣٤)، وابن أبي حاتم في التفسير (٢/ ٤٢٨).

ثالثًا: العمل بهدايات القرآن الكريم ظاهرًا وباطنًا:

العمل هو الثمرة الحقيقية لنزول القرآن الكريم، والغاية الأصلية لتفصيله وبيانه، وهو السؤال الأساس الذي سيسأل عنه تجاه القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ – ٩٣]، وقد جاءت الآية بعد بيان موقف المشركين من القرآن الكريم.

لذلك قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا محمد، لنسألنّ هؤلاء الذين جعلوا القرآن في الدنيا، عِضين في الآخرة، عما كانوا يعملون في الدنيا، فيما أمرناهم به، وفيما بعثناك به إليهم، من آي كتابي الذي أنزلته إليهم، وفيما دعوناهم إليه، من الإقرار به، ومن توحيدي، والبراءة من الأنداد والأوثان»(١).

والعمل بالقرآن الكريم يعين علىٰ فهمه، والانتفاع به، والاهتداء بهديه، وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ العاملين بالقرآن الكريم، فقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يحلّ حلاله، ويحرّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوّل منه شيئا علىٰ غير تأويله»(٢).

(١) جامع البيان (١٧/ ١٤٩).

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٢/ ٥٦٧).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، يتبعونه حق اتباعه»[(١)].

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعملون به حق عمله»[(٢)].

ومما يدل على عنايتهم بالعمل ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثًا، فأتى على رجل من أحدثهم سنًا، فقال: ما معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا، وسورة البقرة، قال: أمعك سورة البقرة؟ فقال: نعم، قال: «فاذهب فأنت أميرهم»، فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها»[(٣)].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صدر هذه الأمة، لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن، منهم الصبي، والأعمى، ولا يرزقون العمل به»[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٢/ ٥٦٦).

(٢) جامع البيان (٢/ ٥٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي في السنن، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، برقم: (٢٨٧٦)، وقال: هذا حديث حسن، والنسائي في الكبرى، كتاب السير، النهي عن قتل النساء، برقم: (٨٦٩٦)، وضعفه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٤/ ٢٩)، برقم: (٢١٢٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٤٠)، وضعفه زين الدين العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (ص: ٣٣٩).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان، لا علم لهم بتأويله، وما تدبُّر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتىٰ إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا، وقد -والله- أسقطه كله، ما يُرىٰ القرآن له في خلق ولا عمل، حتىٰ إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَسٍ!! والله!! ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء، ولا الحكماء، ولا الوَرَعة، متىٰ كانت القراء مثل هذا؟ لا كثَّر الله في الناس أمثالهم»[1].

قال الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المؤمن العاقل إذا تلا القرآن، استعرض القرآن، فكان كالمرآة، يرىٰ بها ما حَسُن من فعله، وما قَبُح فيه، فما حذّره مولاه حذِره، وما خوّفه به من عقابه خافه، وما رغّب فيه مولاه رغب فيه ورجاه؛ فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة، فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهدًا، وشفيعًا، وأنيسًا، وحرزًا، ومن كان هذا وصفه، نفع نفسه، ونفع أهله، وعاد علىٰ والديه، وعلىٰ ولده، كل خير في الدنيا والآخرة»[2].

ولذلك كانت محاسبتهم علىٰ العمل أكثر من غيره فعن أبي صالح الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «رأيت علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخذ المصحف، فوضعه علىٰ رأسه، حتىٰ لأرىٰ ورقه يتقعقع، ثم قال: اللهم إنهم منعوني أن أقوم في الأمة بما فيه، فأعطني ثواب ما فيه»[3].

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص: ٢٧٦)، تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٦).

(٢) أخلاق أهل القرآن (ص: ١٠٩).

(٣) أخرجه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٣/ ٧٧).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إنّ أخوف ما أخاف، إذا وقفت على الحساب أن يقال: قد علمت؛ فما عملت فيما علمت؟»[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «والله ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربه، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول ابن آدم: ماذا غرّك يا ابن آدم؟ ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم؟ ماذا عملت فيما علمت»[(٢)].

وقال في قوله تعالى ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[آل عمران: ١٠٣]: «حبل الله: القرآن»[(٣)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن القرآن شافِعٌ ومشفَّع، وماحِلٌ مصدَّقٌ، فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار»[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (ص: ١٣)، برقم: (٣٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١١٢)، برقم: (٣٧٣٢١)، وهو حسن لغيره، كما في الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ٨٧).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (ص: ١٣)، برقم: (٣٨)، وعبدالله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ٢٥٨) برقم: (٤٧٤)، بإسناد صحيح كما في الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ٨٩).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٣/ ١٠٨٣)، برقم: (٥١٩)، والدارمي في مسنده (٢/ ١٠٥٦)، برقم: (٣٤٢٠)، وصححه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٨٤)، وكذا محقق كتاب تفسير سعيد بن منصور.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٧٢)، برقم: (٦٠١٠)، وابن حبان في صحيحه، (١/ ٣٢٧)، برقم: (٤٠٤)، وجوّد إسناده الألباني كما في السلسلة الصحيحة (٥/ ٣١)، برقم: (٢٠١٩).

وقال أبو موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن هذا القرآن كائن لكم ذكرًا، أو كائن لكم أجرًا، أو كائن عليكم وزرًا، فاتبعوا القرآن، ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من يتبع القرآن يهبط به علىٰ رياض الجنة، ومن يتبعه القرآن يزُخُّ(١) في قفاه، حتىٰ يقذفه في نار جهنم»(٢).

وقال مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القرآن يشفع لصاحبه يوم القيامة، يقول: يا رب جعلتني في جوفه، فأسهرت ليله، ومنعته كثيرا من شهوته، ولكل عامل عمالة، فيقول: ابسط يدك، أو قال: يمينك، فيملأها من رضوانه، فلا يسخط عليه بعدها، ثم يقال: اقرأهْ، وارقهْ، فيرفع له بكل آية درجة، وبكل آية حسنة»(٣).

رابعًا: تدبر القرآن الكريم، والتفكر في هداياته:

تدبر القرآن الكريم، والتفكر في آياته، هو السبيل إلىٰ استخراج هداياته، ومن ثم الاهتداء بها، والاستضاءة بضيائها، والاستظلال بدياحها، كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

(١) قال في لسان العرب (٣/ ٢٠): «زَخخ: زَخَّه يَزُخُّه زَخًّا: دَفَعَهُ فِي وَهْدة، وزَخَّ فِي قَفَاهُ يَزُخُّ زَخًّا: دَفَعَ، وَقَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: كُلُّ دَفْع زَخٌّ»، ثم أورد الأثر أعلاه.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٨١)، وابن أبي شيبة (١٦/ ٤١٧)، برقم: (٣٢٠٠٨)، بإسناد حسن في الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ١٥٦).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١/ ١١٣)، برقم: (٢٢)، وابن أبي شيبة (١٦/ ٤٢٩)، برقم: (٣٢٠٤٤)، وصححه محقق سنن سعيد بن منصور، وينظر: الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ١٥٦).

قال الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القليل من الدرس للقرآن، مع الفكر فيه وتدبره، أحب إلي من قراءة الكثير من القرآن، بغير تدبر، ولا تفكر فيه، وظاهر القرآن يدل على ذلك، والسنة، وقول أئمة من المسلمين»(١).

ونتيجة لذلك التدبر؛ يحصل التأثر القلبي، الذي ينعكس على الجوارح خضوعا وانقيادًا، وهو هدي العهد الأول.

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن القرآن الكريم، وكيف تعامل السابقون معه: «إنّ من كان قبلكم رآه رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار»(٢).

وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»(٣).

قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في القصة المشهورة في إمامة أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنّ أبا بكر رجلٌ رقيقٌ»، وفي رواية: «أَسِيفٌ»، وفي روايةٍ: «كان أبو بكر رجلا بكّاءً؛ لا يملكُ عينيه إذا قرأ القرآن»، وفي رواية: «غلب عليه البكاء»(٤).

---

(١) أخلاق أهل القرآن (ص: ١٠٩).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٤٩٨)، التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ٤٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٦)، برقم: (٨٧٣٣)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٦٠)، برقم: (٢٠٤١)، والآجري في أخلاق أهل القرآن (ص: ٤)، وضعف سنده محقق التفسير من سنن سعيد بن منصور (٢/ ٤٤٦)، إلا أنه ذكر صحة الأثر بالنظر إلى مجموع طرقه، وينظر كذلك: المنيحة بسلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٣٤٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلى المدينة، برقم: (٣٩٠٥)، وينظر: فتح الباري (٧/ ٦٣٧).

وعن أبي صالح رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «قدم ناس من أهل اليمن على أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فجعلوا يقرؤون ويبكون، فقال أبو بكر الصديق: هكذا كنا»[١].

وعن عبد الله بن شداد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح، وهو يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]»[٢].

وفي المصنف: «أنَّ عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قرأت وهي تصلي، قول الله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، فبكت، وقالت: اللَّهُمَّ مُنَّ عليَّ وَقِنِي عَذابَ السَّمُومِ، إنَّك أنتَ البرُّ الرَّحِيمُ»[٣].

وقال مسروق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال لي رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح، أو كاد أن يصبح، يقرأ آية من كتاب الله، يركع بها، ويسجد، ويبكي: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]»[٤].

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ٤٧).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (٥/ ٤٠٥)، برقم: (١١٣٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٨٣)، برقم: (٣٦٠٣)، وصححه محقق سنن سعيد بن منصور، وعلقه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب إذا بكى الإمام في الصلاة.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف مختصرا (٣/ ١٦٨)، برقم: (٤١٨٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٥)، برقم: (٦٠٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٣٦)، برقم: (١٩٢٤).

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص: ٣١)، برقم: (٩٤)، وسعيد بن منصور في سننه (٧/ ٣٢٩)، برقم: (١٩٧٠)، والنسائي في الكبرى، كتاب المواعظ، برقم: (١١٨٣٣)، وصححه العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٢/ ٧٠٥)، رقم: (٨٤٧).

وقال نافع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان ابن عمر إذا قرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، يبكي حتىٰ يغلبه البكاء»[(١)].

وعن أبي جمرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «قلت لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة، فأدبرها، وأرتلها، أحب إليّ من أن أقرأ القرآن أجمع هذرمة[(٢)]»[(٣)].

وعن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «قرأ علقمة علىٰ عبد الله، فكأنه عجل، فقال عبد الله: فداك أبي وأمي رتل، فإنه زين القرآن، قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن»[(٤)].

ويقول وهيب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نظرنا في هذه الأحاديث، فلم نجد شيئًا أرق للقلوب، ولا أشد استجلابًا للحزن، من قراءة القرآن، وتفهمه، وتدبره»[(٥)].

وعن بكر العابد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «سمعت فضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في قول الله تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، قال:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٩/ ٣٦٩)، برقم: (٣٧٣٧٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥)، وحسنه محقق كتاب المصنف، وكذا محققو سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١٤).

(٢) «هَذْرَمَة»: هُوَ السُّرْعَةُ فِي الْقِرَاءَةِ. ينظر: لسان العرب (١٢/ ٦٠٦)، مادة: (هذرم).

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٧٤)، والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٥٥٥)، برقم: (٤٠٦٠)، وإسناده صحيح كما في الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ١٥٠)، رقم: (١٤١).

(٤) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ١٥٧)، وسعيد بن منصور في سننه (١/ ٢٢٥)، برقم: (٥٤)، وابن الجعد في مسنده (ص: ٤٩٦)، برقم: (٣٤٥٦)، وإسناده صحيح كما في الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ١٤٩)، رقم: (١٤٠).

(٥) إحياء علوم الدين (٣/ ٥١٦).

أتوا بأعمال ظنوها حسنات، فإذا هي سيئات، قال: فرأيت يحيىٰ بن معين بكىٰ»[(١)].

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتسن القراءة بالتدبر والتفهم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، به تنشرح الصدور، وتستنير القلوب.. وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكير في معنىٰ ما يلفظ به، فيعرف معنىٰ كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان قصر عنه فيما مضىٰ، اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة، استبشر وسأل، أو عذاب، أشفق وتعوذ، أو تنزيه، نزه وعظم، أو دعاء، تضرع وطلب»[(٢)].

ولكثرة تدبرهم نُقلت عنهم كثيرٌ من الاستنباطات لجملة من الهدايات.

فمن ذلك قول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إنّ الله فضل محمدا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الأنبياء، وعلىٰ أهل السماء، فقالوا: يا ابن عباس بم فضله علىٰ أهل السماء؟ قال: إن الله قال لأهل السماء: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٢٩]، وقال الله لمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢]، قالوا: فما فضله علىٰ الأنبياء؟ قال: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾[إبراهيم: ٤] الآية، وقال الله عَزَّوَجَلَّ لمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾[سبأ: ٢٨]، فأرسله إلىٰ الجن والإنس»[(٣)].

(١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (١٥/ ٣٥٢).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٠٦).

(٣) أخرجه الدَّارمِيّ في المسند (١/ ٣٨)، برقم: (٤٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨١)، برقم: (٣٣٣٥)، وصححهُ ووافَقَهُ الذَّهبِيّ، وصحّح إِسنَاده محقق سنَن الدّارمِي.

وعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «إذا أعجبك حسن عمل امرئ فقل: ﴿ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ولا يستخفنك أحد»(١).

أي: لا تغتر بعمل أحد، فتظن به الخير، إلا إن رأيته واقفا عند حدود الشريعة.

خامسًا: تعليم القرآن الكريم ومدارسة هداياته:

لا شك أن التعليم والمدارسة، سبب في زيادة العلم، والفهم، والتقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]، فبيّن سبحانه أن العمل بالكتاب، وذكر ما فيه، سبب للتقوىٰ؛ ولذلك وردت الفضائل الكثيرة للتعليم والمدارسة.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»(٢).

فالسكينة، والرحمة، وحضور الملائكة، والذكر في الملأ الأعلىٰ، كل هذه الفضائل، مقابل التلاوة، المقرونة بالمدارسة، والتعلم، والمذاكرة.

وجماع الفضائل في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(٣).

---

(١) علّقه البخاري بصيغة الجزم، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ..﴾، وأوصله الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٥/ ٣٦٥)، وينظر: الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر..، باب فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن، برقم: (٢٦٩٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، برقم: (٥٠٢٧).

وهــو الــذي كان عليه صــدر هذه الأمــة، ففي قصــة القراء الذيــن كانوا يحيــون ليالي المدينــة بالمدارســة أعظم عبرة.

قال أنــس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنهم كانــوا يحتطبون بالنهــار، ويصلــون بالليل»(١)، وفي روايــة ثابت: «ويشــترون بــه الطعــام لأهــل الصفــة، ويتدارســون القرآن بالليــل، ويتعلمون»(٢).

وعــن أنــس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بعثنــي الأشــعري إلىٰ عمــر، فقال لــي عمر: كيــف تركت الأشــعري؟ فقلت له: تركتــه يعلم النــاس القرآن، فقــال: أما إنه كيس، ولا تســمعها إياه»(٣).

وعن أبــي عطية الهمــداني رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كتب عمر بــن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تعلموا ســورة براءة، وعلموا نساءكم ســورة النور»(٤).

وعــن أبــي الطفيــل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رأيــت أميــر المؤمنيــن علي بــن أبي طالــب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام علىٰ المنبر، فقال: ســلوني قبل أن لا تســألوني ولن تســألوا بعــدي مثلــي، قال: فقــام ابن الكــواء فقال: يــا أمير المؤمنيــن، ما ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾؟ قــال: الرياح، قــال: فمــا ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾؟ قال: الســحاب، قال: فما

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع...، برقم: (٤٠٩٠).

(٢) ينظر: اختلاف ألفاظ الروايات في فتح الباري (٧/ ٤٤٧).

(٣) أخرجــه ابن ســعد في الطبقــات (٢/ ٣٤٥)، وقــال محققو ســير أعلام النبــلاء (٢/ ٣٩٠): رجاله ثقات.

(٤) أخرجه ســعيد بن منصور في التفســير مــن ســننه (٥/ ٢٣١)، برقــم: (١٠٠٣)، والبيهقي في شــعب الإيمــان (٤/ ٨٢)، برقم: (٢٢١٣)، وصححه محقق ســنن ســعيد بــن منصور.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾؟ قال: السفن، قال: فما ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾؟ قال: الملائكة، قال: فمن ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[إبراهيم: ٢٨]؟ قال: منافقو قريش»(١).

سادسًا: التأكيد على معرفة أحوال النزول:

تعتبر معرفة أسباب النزول، ومواطنه، وأحواله، من أهم العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، والتي أكد عليها السلف، فهو من الأسباب المعينة على فهم الآيات، وتدبر ما فيها من عظات، واستنباط ما تتضمنها من هدايات، وهو ما تميز به الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن غيرهم، حيث شهدوا ذلك، وأدركوه، وفهموه، ثم نقلوه لمن بعدهم.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله، إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله، إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل، لركبت إليه»(٢).

ولذلك علم السلف أهمية هذا الباب، وأن أكثر الضلال في فهم القرآن، إنما يكون بسبب الجهل بنزوله.

---

(١) أخرجه الشاشي في المسند (٢/ ٩٦)، برقم: (٦٢٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٦) برقم: (٣٧٣٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (٥٠٠٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبدالله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، برقم: (٢٤٦٣).

فعن إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «خلا عمر ذات يوم، فجعل يحدث نفسه، كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد؟! فأرسل إلىٰ ابن عباس فقال: «كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد؛ وقبلتها واحدة؟» فقال ابن عباس: «يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام، يقرءون القرآن، ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا»، قال: فزبره عمر، وانتهره، فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه، فأرسل إليه، فقال: «أعد عليّ ما قلت»، فأعاده عليه، فعرف عمر قوله، وأعجبه»[(١)].

وعن محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «سألت عبيدة السلماني، عن آية من كتاب الله تعالىٰ، فقال: عليك بتقوىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، والسداد، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن»[(٢)].

وعن يوسف بن ماهك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إني عند عائشة أم المؤمنين، إذ جاءها عراقي، فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك، وما يضرك ؟! قال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك، قالت: لم ؟ قال: لعلي أؤلف القرآن عليه؛ فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتىٰ إذا ثاب الناس إلىٰ الإسلام: نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ١٠٢)، وسعيد بن منصور في سننه (١/ ١٧٦)، برقم: (٤٢)، وقال محققه: الحديث صحيح لغيره.

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (١/ ٨٦)، وسعيد بن منصور في سننه (١/ ١٨٥)، برقم: (٤٤)، وقال محققه: سنده صحيح علىٰ شرط الشيخين.

الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة علىٰ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإني لجارية ألعب: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة، والنساء، إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السور»(١).

سابعًا: استحضار هدايات القرآن الكريم في مختلف المواقف:

إن من يتعلق قلبه بالقرآن الكريم، ويعيش معه، ويعكف عليه لا شك سيستحضره في كل لحظة، وسيقف معه في كل خطوة، وهو ما كان عليه السلف الصالح، حيث لم يغب عن خلجاتهم داعي القرآن الكريم، بل كان شاهدهم في جميع أفعالهم وأقوالهم، ومصاحبهم في تقلب أحوالهم.

فهذا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي أصعب المواقف التي مرت علىٰ الأمة، في يوم وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يستحضر آيات كريمة، ولوعة الفراق تعصر قلبه، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فحمد الله أبو بكر، وأثنىٰ عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، وقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قال: فنشج الناس يبكون.. ثم لقد بصر أبو بكر الناس الهدىٰ، وعرفهم الحق الذي عليهم وخرجوا به، يتلون: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلىٰ: ﴿ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، برقم: (٤٩٩٣).

(٢) أخرجه البخاري كتاب أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو كنت متخذًا أحدًا خليلًا برقم: (٣٦٦٨) و (٣٦٧٠).

وهــذا عمــر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - في أصعب حدث وقــع له، يوم طعن- يســتحضر آيــة عظيمة، فعن عمــرو بن ميمــون، قال: «كنت أدع الصــف الأول هيبة لعمر، وكنــت في الصــف الثاني يوم أصيــب، فجاء، فقــال: الصلاة عباد الله، اســتووا، قــال: فصلــىٰ بنا، فطعنــه أبو لؤلــؤة طعنتين، أو ثلاثًــا، قال: وعلــىٰ عمر ثوب أصفــر، قــال: فجمعه علىٰ صــدره، ثم أهــوىٰ، وهو يقــول: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[الأحــزاب: ٣٨]»(١).

فســبحان الله!! أيّ إيمــان بالله وبقدره، تحلــىٰ به الفــاروق ؟! أيّ حياة عاشــها مع القــرآن الكريم، حتىٰ تجري هــذه الآية علىٰ لســانه في تلك اللحظة العصيبــة ؟! أيّ صــبر يحول المعانــاة إلىٰ مناجــاة ؟! أيّ يقين يخــرج من بين فرث ودم العذاب لــذة الاحتســاب، في ذات رب الأرباب ؟!

وقــد كان هذا دأبه علــىٰ الدوام، فــكان يقول: «ويل لديــان أهل الأرض من ديان أهل الســماء يوم يلقونــه، إلا من أم العدل، وقضــىٰ بالحق، ولم يقض لهــوىٰ، ولا قرابة، ولا لرغبــة، ولا لرهبة، وجعل كتاب الله مــرآة بين عينيه»(٢).

وعــن نعيــم عــن نبيــط عن ســالم بــن عبيــد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وكان مــن أهل الصفــة- قال: «أخذ عمر بيــد أبي بكر فقــال: من له هذه الثــلاث؟ ﴿إِذْ يَـقُولُ

(١) أخرجه ابن أبي شــيبة في المصنــف (٢١/ ١٦٤)، برقم: (٣٩٨٥١)، و ابن ســعد في الطبقات (٣/ ٣٩٤) مــن طريــق آخــر، وابن بطــة في الإبانــة (٨/ ٨٨)، برقــم: (٧)، وصححه محقق كتاب المصنف.

(٢) أخرجــه ابــن أبي شــيبة في المصنــف (١٢/ ٥٠٧)، برقــم: (٢٣٤١٦)، والبيهقي في الســنن الكــبرىٰ (١٠/ ٢٠٠)، برقــم: (٢٠٣٥٩)، وصححه الألباني في مختصــر العلو (ص: ١٠٣)، برقم: (٤٧).

﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ من صاحبه؟ ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ من هما؟ ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾»(١).

وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: «اغتسلت أنا وآخر، فرآنا عمر ابن الخطاب، وأحدنا ينظر إلى صاحبه، قال: إني لأخشى أن يكونا من الخلف الذي قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]»(٢).

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه: «أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله للصلاة، يقول لهم: الصلاة، الصلاة، ثم يتلو هذه الآية: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]»(٣).

ثامنًا: اجتناب التكلف والمراء والجدال:

من أهم ما يميز السلف الكرام، بعدهم عن تكلف ما لم يؤمروا به تجاه القرآن الكريم، تأويلًا، أو عملًا، وتركهم للمراء والجدال في القرآن الكريم، والآثار في هذا الباب أكثر من أن تحصى.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب وفاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب كيف صلي على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (٧٠٨١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٦/ ٥١٨)، برقم: (١٦٦٢٧) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٨٣): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٢١٥)، برقم: (٧٤٠١).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة، باب ما جاء في صلاة الليل، برقم: (٥)، وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٤٩)، برقم: (٤٧٤٣)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٣٩٠)، برقم: (١٢٤٠).

قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «آيتان ما أشدهما على من يجادل في القرآن: قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [البقرة: ١٧٦]»[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «المراء في القرآن كفر»[(٢)].

وقد حكى عبيد الله بن عمر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- مذهبهم القائم على الورع، والتحري في هذا الباب، فقال: «لقد أدركت فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير»[(٣)].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله، عليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متى يقبض، أو متى يفتقر إلى ما عنده، وستجدون أقوامًا، يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، والتنطع، والتعمق، وعليكم بالعتيق»[(٤)].

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان (٢٣/ ١٦٦)، برقم: (٢٥٥٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٥٣٨)، برقم: (٢٠٧٨)، والسيوطي في الدر المنثور (١/ ٤١٠).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب النهي عن الجدال في القرآن، برقم: (٤٦٠٣)، والنسائي في الكبرى، كتاب فضائل القرآن، باب المراء في القرآن، برقم: (٨٠٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٣٤)، برقم: (٦٦٨٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (١/ ٧٩)، بإسناد صحيح.

(٤) أخرجه معمر بن راشد في الجامع (١١/ ٢٥٢)، برقم: (٢٠٤٦٥)، والدارمي في سننه (١/ ٢٥١)، برقم: (١٤٥)، وصحح إسناده في الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ٥٦)، رقم: (٤٢).

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «بينما ابن عباس مع عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وهو آخذ بيده، فقال عمر: أرىٰ القرآن قد ظهر في الناس، فقلت: ما أحب ذاك يا أمير المؤمنين، قال: فاجتذب يده من يدي، وقال: لم قلت؟ لأنهم متىٰ يقرؤوا يتقروا، ومتىٰ ما يتقروا اختلفوا، ومتىٰ ما يختلفوا يضرب بعضهم رقاب بعض، فقال: فجلس عني وتركني، فظللت عنه يوم لا يعلمه إلا الله، ثم أتاني رسوله الظهر، فقال: أجب أمير المؤمنين، فأتيته، فقال: كيف قلت؟ فأعدت مقالتي، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن كنت لأكتمها الناس»(١)، وفي رواية: «فقلت: يا أمير المؤمنين متىٰ ما تسارعوا هذه المسارعة يحيفوا، ومتىٰ ما يحيفوا يختصموا، ومتىٰ ما يختصموا يختلفوا، ومتىٰ ما يختلفوا يقتتلوا، فقال عمر: لله أبوك، لقد كنت أكاتمها الناس حتىٰ جئت بها»(٢).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن أخوف ما أخاف عليكم ثلاثة: جدال المنافق بالقرآن، لا يخطئ واوًا ولا ألفًا، يجادل الناس أنه أجدل منهم؛ ليضلهم عن الهدىٰ، وزلة عالم، وأئمة المضلين، ثلاث بهن يهدم الزمن»(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣)، برقم: (٦٣٠٢).

(٢) أخرجه معمر في جامعه (١١/ ٢١٧)، برقم: (٢٠٣٦٨)، وعبد الرزاق في المصنف (١٠/ ٢٦٠)، برقم: (٢١٤٣٩)، وقال محققو سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٩): «رجاله ثقات»، وصحح إسناده محقق سنن سعيد بن منصور (١/ ١٧٦-١٧٨).

(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرىٰ (٢/ ٥٢٧) برقم: (٦٤١).

وعن مسعر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «أخرج إلي معن بن عبد الرحمن كتابًا، فحلف لي بالله إنه خط أبيه، فإذا فيه قال عبد الله: والذى لا إله إلا هو، ما رأيت أحدًا كان أشد على المتنطعين من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما رأيت أحدًا كان أشد عليهم من أبى بكر، وإني لأرى عمر كان أشد خوفا عليهم أو لهم»(١).

ولذلك كان أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: «أيُّ أرض تُقِلُّني، وأيُّ سماء تظلّني، إذا قلت في القرآن برأيي - أو: بما لا أعلم»(٢).

وعن السائب بن يزيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «أتي إلى عمر بن الخطاب، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا لقينا رجلًا يسأل عن تأويل القرآن، فقال: اللهم أمكني منه، قال: فبينا عمر ذات يوم جالس يغدي الناس إذ جاءه وعليه ثياب وعمامة، فغداه، ثم إذا فرغ قال: يا أمير المؤمنين، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ [الذاريات: ١-٢]، قال عمر: أنت هو؟ فمال إليه، وحسر عن ذراعيه، فلم يزل يجلده، حتى سقطت عمامته، ثم قال: واحملوه، حتى تقدموه بلاده، ثم ليقم خطيبا ثم ليقل: إن صبيغًا ابتغى العلم فأخطأ، فلم يزل وضيعا في قومه حتى هلك، وكان سيد قومه»(٣).

---

(١) أخرجه الدارمي في السنن (١/ ٢٣٧)، برقم: (٦٥٧)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٩٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٨٩)، رقم: (٢٦٩).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما يخاف من اللسان، برقم: (٢٠٧٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٦/ ٤٤٨)، برقم: (٣٢١٠٥)، وسعيد بن منصور في سننه (١/ ١٦٨)، برقم: (٣٩)، وحسن إسناده محققه.

(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٧٦)، برقم: (٧١٧)، والآجري في الشريعة (١/ ٤٨١)، وإسناده صحيح كما في الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (٢/ ١٩٧-١٩٩)، رقم: (٥٢٢).

وعــن أنــس بن مالــك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن عمر بــن الخطــاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قرأ علىٰ المنبر: «﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقــال: هــذه الفاكهــة قــد عرفناها، فما الأب؟ ثــم رجــع إلىٰ نفســه، فقال: لعمــرك إن هذا لهــو التكلف يــا عمر»[(١)].

قــال ابــن تيميــة رَحِمَهُ اللَّهُ:«وهــذا كلــه محمول علــىٰ أنهمــا إنمــا أرادا استكشــاف علــم كيفية الأب، وإلا فكونــه نبتًا من الأرض ظاهــر لا يجهل»[(٢)].

وعــن عبد الله بــن مســعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:«يــا أيها النــاس من علم شــيئا فليقــل بــه، ومن لــم يعلم فليقــل: الله أعلــم؛ فإن مــن العلم، أن يقــول لما لا يعلم: الله أعلــم، قال الله تعالىٰ لنبيــه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص: ٨٦]»[(٣)].

وقــال معاذ بــن جبــل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«يفتح القــرآن علــىٰ الناس، حتــىٰ تقرأه المــرأة، والصبــي، والرجل، فيقــول الرجل: قد قــرأت القرآن فلــم أتبع، والله لأقومــن به فيهــم لعلــي أتبــع، فيقوم بــه فيهم فــلا يتبــع، فيقول: قــد قرأت القــرآن، فلــم أتبع، وقد قمــت به فيهم فلــم أتبــع، لأحتظرن في بيتي مســجدًا لعلــي أتبع، فيحتظــر في بيته مســجدًا فلا يتبع، فيقــول: قد قرأت القــرآن، فلم

(١) أخرجــه ســعيد بن منصور في ســننه (١/ ١٨١)، برقم: (٤٣)، وصححــه محققه، والحاكم في المســتدرك (٢/ ٥٥٩)، برقم: (٣٨٩٧)، وقال: صحيح علىٰ شــرط الشــيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٧٢).

(٣) أخرجــه البخاري، كتاب تفســير القرآن، باب ســورة الروم، برقم: (٤٧٧٤)، ومســلم، كتاب صفــات المنافقين وأحكامهم، باب الدخــان، برقم: (٢٧٩٨).

أتبع، وقمت به فيهم فلم أتبع، وقد احتظرت في بيتي مسجدًا فلم أتبع، والله لآتينهم بحديث لا يجدونه في كتاب الله، ولم يسمعوه عن رسول الله لعلّي أتبع، قال معاذ: فإياكم وما جاء به، فإن ما جاء به ضلالة»[١].

وقال مسلم بن يسار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إياكم والمراء، فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته»[٢].

وعن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «من جعل دينه غرضا للخصومات، أكثر التنقل»[٣].

فكل هذه الآثار، تدل على بعد السلف عن التكلف، والأخذ من القرآن الكريم بما وعته قلوبهم، وهكذا ينبغي التعامل مع الهدايات عند استنباطها، بعيدا عن الإغراب، والتعسف، والإغراق.

تاسعًا: البعد عن الاختلاف في القرآن الكريم:

آيات القرآن الكريم متآلفة، وليست متخالفة، ومتفقة، وليست مفترقة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢].

(١) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٢٨٤)، برقم: (٢٠٥) وصححه محققه، وبنحوه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب لزوم السنة، برقم: (٤٦١١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٣٨٩)، برقم: (٤١٠)، وصححه محققه، والآجري في الشريعة (١/ ٤٣٤)، برقم: (١١٢).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، باب الخصومة في الدين والرجل يشهد على الرجل بالكفر، برقم: (٩١٨)، والدارمي في سننه (١/ ٣٤٢)، برقم: (٣١٢)، وصححه المحقق.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو كان مفتعلًا مختلقًا، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، أي: اضطرابًا، وتضادًا كثيرًا، أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله، كما قال تعالىٰ مخبرًا عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]، أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلىٰ المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلىٰ المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح تعالىٰ الراسخين، وذم الزائغين»(١).

وقد فهم السلف الكرام هذا المعنىٰ، فاجتنبوا كل ما يؤدي إلىٰ الاختلاف في القرآن الكريم، وحذروا منه، وجففوا كل ينبوع يصب فيه؛ ممتثلين بذلك وصية النبي الكريم - عليه أفضل الصلاة والتسليم -، حيث قال: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا»(٢)، فتحققوا بهذا الهدي بهداياته، وانتفعوا بعظاته، واستقامت قلوبهم علىٰ تعظيمه، وانشرحت صدورهم للعمل به وتعليمه.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قال: «خرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، والناس يتكلمون في القدر، قال: وكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم، قال: «فما غبطت نفسي بمجلس فيه

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٦٤-٣٦٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، برقم: (٥٠٦٠)، ومسلم، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، برقم: (٢٦٦٧).

رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم أشـهده، بما غبطت نفسـي بذلك المجلس، أني لم أشهده»[(١)].

وقـد كانت خطوتهـم الأولىٰ في سـبيل ذلك هي جمـع المصاحف خوفًا من الاختـلاف في ألفاظه.

فعـن أنـس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن حذيفـة بـن اليمـان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قدم علـىٰ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان يغـازي أهل الشـأم في فتح إرمينيـة وأذربيجان مع أهـل العراق، فأفـزع حذيفـة اختلافهم في القـراءة، فقال حذيفـة لعثمان: يا أميـر المؤمنين، أدرك هـذه الأمـة قبـل أن يختلفـوا في الكتاب، اختـلاف اليهـود والنصارىٰ، فأرسـل عثمان إلـىٰ حفصة أن أرسـلي إلينا بالصحف ننسـخها في المصاحف، ثـم نردها إليك، فأرسـلت بها حفصـة إلىٰ عثمـان، فأمر زيد بـن ثابت، وعبد الله بـن الزبير، وسـعيد بـن العاص، وعبـد الرحمن بـن الحارث بن هشـام، فنسـخوها في المصاحف.

وقال عثمان للرهط القرشـيين الثلاثـة: إذا اختلفتم أنتـم وزيد بن ثابت، في شـيء من القرآن، فاكتبوه بلسـان قريش، فإنما نزل بلسـانهم، ففعلوا.

حتـىٰ إذا نسـخوا الصحـف في المصاحـف، رد عثمـان الصحـف إلىٰ حفصـة، وأرسـل إلـىٰ كل أفـق بمصحف ممـا نسـخوا، وأمر بما سـواه من القـرآن، في كل صحيفـة أو مصحـف أن يحـرق.

(١) أخرجـه أحمـد في المسـند (٦/ ٢٢٧)، برقـم: (٦٦٦٨)، وصححه أحمد شـاكر في تحقيقه للمسند .

قال ابن شهاب: وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت، سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب، حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ بها، فالتمسناها، فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب: ٢٣]، فألحقناها في سورتها في المصحف»[(١)].

ثم حذروا من الاختلاف في القراءات، فاهتموا بتعلمها وتعليمها حتى لا يقع تنازع بسببها، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إني قد سمعت إلى القَرَأَةِ، فوجدتُهم متقاربين، فاقرأوا كما عُلِّمتم، وإياكم والتنطع، فإنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال»[(٢)].

ولما أراد ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن يأتي المدينة، جمع أصحابه، فقال: «والله إني لأرجو أن يكون قد أصبح اليوم فيكم من أفضل ما أصبح في أجناد المسلمين، من الدين، والفقه، والعلم بالقرآن، إن هذا القرآن أنزل على حروف، والله إن كان الرجلان ليختصمان أشد ما اختصما في شيء قط، فإذا قال القارئ: هذا أقرأني، قال: أحسنت، وإذا قال الآخر، قال: كلاكما محسن، فأقرأنا: إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، واعتبروا ذاك بقول أحدكم لصاحبه:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، برقم: (٤٠٤٩).

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (١/ ٤٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٦/ ٤٢١)، برقم: (٣٢٠٢٣)، وصححه محققه، وكذا شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد (٣٤/ ١٤٧).

كذب وفجر، وبقوله إذا صدقه: صدقت وبررت، إن هذا القرآن، لا يختلف ولا يستشن، ولا يتفه لكثرة الرد، فمن قرأه على حرف، فلا يدعه رغبة عنه، ومن قرأه على شيء من تلك الحروف، التي علم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يدعه رغبة عنه، فإنه من يجحد بآية منه، يجحد به كله، فإنما هو كقول أحدكم لصاحبه: اعجل، وحيهلا، والله لو أعلم رجلا أعلم بما أنزل الله على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مني لطلبته، حتى أزداد علمه إلى علمي، إنه سيكون قوم يميتون الصلاة، فصلوا الصلاة لوقتها، واجعلوا صلاتكم معهم تطوعًا، وإنّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعارض بالقرآن في كل رمضان، وإني عرضت في العام الذي قبض فيه مرتين، فأنبأني أني محسن، وقد قرأت من فيّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعين سورة»[١].

ثم حذروا من الاختلاف في معناه، كما سبق، حين منعوا من التكلف والجدال والمراء، فكلها من أسباب الاختلاف والفرقة.

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن هذا الصراط محتضر، يحتضره الشياطين، ينادون: يا عبد الله، هلم هذا الصراط؛ ليصدوا عن سبيل الله، فاعتصموا بحبل الله، فإن حبل الله هو كتاب الله»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣٩٥)، برقم: (٣٨٤٥)، وبنحوه الطبراني في الكبير (١٠/ ٩٧)، برقم: (١٠٠٧٩)، وله طرق يصح بها، ذكرها محققو المسند.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (٤/ ٢٠٩١)، برقم: (٣٣٦٠)، وابن جرير في جامع البيان (٧/ ٧٢)، وصححه أحمد شاكر.

وعن عاصم الأحول رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «قال لنا أبو العالية: تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الصراط يمينًا وشمالًا، وعليكم بسنة نبيكم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي كانوا عليه، من قبل أن يقتلوا صاحبهم، ويفعلوا الذي فعلوا، فإنا قد قرأنا القرآن، من قبل أن يقتلوا صاحبهم، ومن قبل أن يفعلوا الذي فعلوا، بخمس عشرة سنة، وإياكم وهذه الأهواء، التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء، فأخبرت به الحسن - يعني: البصري - فقال: صدق ونصح، وحدثت به حفصة بنت سيرين فقالت لي: بأهلي أنت هل حدثت بهذا محمدا؟ قلت: لا، قالت: فحدثه إياه»[1].

(١) أخرجه المروزي في السنة (ص: ١٣)، برقم: (٢٦)، ابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص: ٣٩)، والآجري في الشريعة (ص: ١٣)، وإسناده صحيح كما في الصحيح المسند (١/ ١٢٦-١٢٧)، رقم: (١١٥).

المبحث الثاني
طرق العلماء في الوصول إلى الهدايات القرآنية

طرق العلماء في الوصول إلى الهدايات القرآنية

تمهيد:

يعد هذا المبحث من المباحث المهمة في موضوع «الهدايات»؛ فالنظر في منهج العلماء وطرائقهم في كل علم يكسب قوة في الجانب العملي، ويصقل الملكة للوصول إلىٰ نتائج تطبيقية عميقة، كما يجمع للناظر رؤىٰ متنوعة، ومدارس متعددة في طريقة النظر التدبري.

والمقصود بهذا المبحث هو النظر في الطرق والخطوات التي يسلكها العلماء؛ للوصول إلىٰ استخراج «الهدايات» من الآيات.

ولا يعني أن لكل عالم طريقا منها، وإنما المقصود أن العلماء استخدموا هذه الطرق: إما مجتمعة، أو متفرقة؛ بحسب ما يقتضيه المقام، وهي متنوعة، ظهرت من خلال التأمل في الطريقة التي يستخرج بها العلماء تلك «الهدايات القرآنية»، ويمكن إجمالها في عشرين[1] طريقة؛ **كما يلي**[2]:

أولًا: الاعتماد علىٰ دلالات الألفاظ.

ثانيًا: الالتفات إلىٰ تنوع الأساليب.

ثالثًا: النظر في اختلاف القراءات.

رابعًا: التأمل في مجموع أدلة الكتاب والسنة.

خامسًا: الصدور من أصول الشريعة.

---

(١) كانت في الطبعة السابقة سبع عشرة طريقة.

(٢) والترتيب غير مقصود في هذه الطرق، فكل آية لها أولويات للنظر فيها، والله أعلم.

سادسًا: استحضار حكم التشريع وأسراره.

سابعًا: الاستفادة من أوجه الإعراب.

ثامنًا: الرجوع إلىٰ الاشتقاق والتصريف.

تاسعًا: فهم الآيات من خلال أحوال النزول.

عاشرًا: النظر في المناسبات.

الحادي عشر: التأمل في مواضع اقتران أسماء الله الحسنىٰ.

الثاني عشر: استنباط مقاصد القرآن الكريم.

الثالث عشر: النظر في السياق.

الرابع عشر: استحضار أسماء السور.

الخامس عشر: توظيف علم الوجوه والنظائر.

السادس عشر: الاستفادة من آثار الصحابة والتابعين.

السابع عشر: التدبر في فضائل السور والآيات.

الثامن عشر: النظر في دلائل الرسم.

التاسع عشر: ربط الآيات بالواقع.

العشرون: تأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم الكونية.

وبيان هذه الطرق بأمثلتها التطبيقية -مع طي الجمل والكلمات-؛ كما يلي:

أولًا: الاعتماد علىٰ دلالات الألفاظ:

المقصود بدلالات الألفاظ ما ترشد إليه الألفاظ من المعاني، أو فهم المعاني من الألفاظ.

والكلام حول دلالات الألفاظ وأقسامها، عند علماء التفسير، والأصول، واللغة، مما يطول، لكنها في الجملة يمكن إرجاعها إلىٰ قسمين:

القسم الأول: دلالة المنطوق، وقد تكون نصًّا أو ظاهرًا أو مؤولًا، مطابقةً أو تضمنًا.

القسم الثاني: ودلالة المفهوم، وتنتظم معها دلالة الاقتضاء، والإشارة، والإيماء، والتنبيه، واللزوم.

علىٰ اختلاف في هذه الاصطلاحات والتقاسيم، باختلاف مذاهب العلماء[(١)].

وهذه الدلالات هي أول ما ينظر فيه مستنبط «الهدايات»، فيجب عند تدبر القرآن الكريم، والاهتداء بعظاته وأحكامه، إعطاءُ الألفاظ حقَّها من الدلالة، وتوفيتها ما لَها من المعاني، سواء في ذلك الأسماء، أو الأفعال، أو حروف المعاني بأنواعها، ولا شك أنه باب من أوسع أبواب فهم القرآن، وهو سيصدر في ذلك من الضوابط، والأصول الجامعة، التي تضبط له فهمه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الواجب فيما علق عليه الشارع الأحكام، من الألفاظ، والمعاني، أن لا يتجاوز بألفاظها ومعانيها، ولا يقصر بها، ويعطي

---

(١) ينظر: دلالات الألفاظ في مباحث الأصوليين، للدكتور الباحسين (١/ ١٧).

اللفظ حقه، والمعنىٰ حقه؛ وقد مدح الله - تعالىٰ - أهل الاستنباط في كتابه، وأخبر أنهم أهل العلم»[١].

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذه الدلالات قد تجتمع أنواع منها في آية واحدة.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين، وفيها أوفر نصيب للمؤمنين؛ تدبرًا لها، واعتبارًا بموردها»[٢].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا:«يعني أنها في شأن الكافرين من دلالة العبارة، وفي شأن المؤمنين من دلالة الإشارة»[٣].

وجملة من الألفاظ القرآنية لقوة بلاغتها، وعمق دلالتها، تحتاج إلىٰ سبر لأغوارها، وغوص لاستخراج لآلئها، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة دلالات الألفاظ علىٰ وفق قواعد اللغة، والقواعد المتعلقة بأصول التفسير.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«والطريق إلىٰ سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني، فإذا فهمتها فهمًا جيدًا، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها، وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه، حتىٰ تصير لك ملكة جيدة في الغوص علىٰ المعاني الدقيقة، فإن القرآن

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٧٢).

(٢) الكشاف (٣/ ٣٠٢).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٧).

حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق، ذلك كله حق ولابد»[(١)].

ومن أمثلة ذلك قول الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[الأنعام: ١٥٨]: «وفي مفهوم الصفتين دلالة على أن النفس التي آمنت قبل مجيء الحساب، وكسبت في إيمانها خيرًا، ينفعها إيمانها وعملها، فاشتملت الآية بمنطوقها ومفهومها على وعيد ووعد مجملين، تبيّنهما دلائل الكتاب والسنة»[(٢)].

وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾[الأنعام: ١٣٦].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والإتيان بالموصول ﴿مِمَّا﴾ لأجل دلالة صلته على تسفيه آرائهم، إذ ملّكوا الله بعض ملكه؛ لأن ما ذرأه هو ملكه، وهو حقيق به بلا جعلٍ منهم»[(٣)].

وكذلك في استخدام لفظ ﴿ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠].

---

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص: ٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٩١).

(٣) المرجع السابق (٨/ ٩٥).

يقول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النجد: الطريق في ارتفاع، فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية، بسبب أنها واضحة للعقول، كوضوح الطريق العالي للأبصار»(١).

ويضيف القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هداية أخرىٰ فيقول: «وإنما سماهما نجدين؛ ليشير إلىٰ أن في كل منهما وعورة وصعوبة مسلك، فليس الشر بأهون من الخير كما يظن»(٢).

ولا يجوز القول في القرآن الكريم بما لا دلالة فيه من اللفظ، بوضع اللغة، أو عرفها، أو لازمها، كما يقع من تأويلات باطنية لمعاني الآيات، من نحو قول التستري في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٦]: «باطنها: الرسول، يؤمن به من أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس»(٣).

ولا شك أنه معنىٰ لا دلالة له من الآية البتة؛ فالبيت هو الكعبة، وليس الرسول.

ولذلك قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا التفسير يحتاج إلىٰ بيان؛ فإن هذا المعنىٰ لا تعرفه العرب، ولا فيه من جهتها وضع مجازي مناسب، ولا يلائمه مساق بحال»(٤).

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٧).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٤٧٧).

(٣) تفسير التستري (ص: ٥٠).

(٤) الموافقات (٤/ ٢٤٧).

ومن جنس ذلك قول المراغي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾[الفيل: ٣]: «وقد يكون هذا الطير من جنس البعوض، أو الذباب، الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، أو تكون هذه الحجارة من الطين اليابس المسموم، الذي تحمله الرياح، فيعلق بأرجل هذا الطير، فإذا اتصل بجسم دخل فى مسامّه، فأثار فيه قروحًا، تنتهىٰ بإفساد الجسم وتساقط لحمه.

ولا شك أن الذباب يحمل كثيرًا من جراثيم الأمراض، فوقوع ذبابة واحدة، ملوّثة بالمكروب علىٰ الإنسان، كافية في إصابته بالمرض الذي يحمله، ثم هو ينقل هذا المرض إلىٰ الجمّ الغفير من الناس، فإذا أراد الله أن يهلك جيشًا، كثير العدد، ببعوضة واحدة، لم يكن ذلك بعيدًا عن مجرىٰ الإلف والعادة، وهذا أقوىٰ في الدلالة علىٰ قدرة الله، وعظيم سلطانه، من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور، وغرائب الأمور»[١].

فهذا كله يجب اجتنابه عند استنباط «الهدايات»؛ فقد يصل بعضه إلىٰ أن يكون تحريفًا للكلم عن مواضعه.

ثانيًا: الالتفات إلىٰ تنوع الأساليب:

سبق معنا أن أساليب القرآن كثيرة متنوعة، وقد تحقق المفسرون بتمام تصورها وتدبرها؛ للوصول للهدايات، فكل أسلوب له دلالته وفائدته، فإذا ذكر الله تعالىٰ أسلوب التوكيد، أو الالتفات، أو المقابلة، أو الاستفهام، أو التقديم والتأخير، أو القصص، أو التمثيل، أو غيرها مما سبق تفصيله؛ كان

---

(١) تفسير المراغي (٣٠/ ٢٤٣).

لغـرض بلاغـي، يتضمن هداية مـن الهدايات، وأمثلة ذلـك لا تحصىٰ.

فمن أسـلوب التقديـم والتأخير ما سـبق في قولـه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطـر: ٢٨].

قال الزمخشـري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قلت: هل يختلـف المعنىٰ إذا قدّم المفعول في هـذا الـكلام أو أخـر؟ قلت: لا بـدّ من ذلـك، فإنـك إذا قدمت اسـم الله، وأخـرت العلماء، كان المعنىٰ: إنّ الذين يخشـون الله من بين عبـاده هم العلماء دون غيرهـم، وإذا عملت علـىٰ العكس، انقلب المعنىٰ إلىٰ أنهم لا يخشـون إلا الله، كقولـه تعالىٰ: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾، وهما معنيـان مختلفان»[(١)].

ومنها: الاسـتفهام في قوله تعالـىٰ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥۗ﴾ [آل عمران: ١٠١]، فهو اسـتفهام مسـتعمل في الاسـتبعاد؛ اسـتبعادًا لكفرهم، ونفيًا له.

لذلك اسـتفاد منـه الطاهـر بن عاشـور هداية دقيقـة؛ فقـال: «وفي الآية دلالـة علىٰ عظـم قـدر الصحابـة، وأن لهـم وازعين عـن مواقعـة الضلال: سـماع القرآن، ومشـاهدة أنوار الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن وجـوده عصمة من ضلالهم»[(٢)].

وفي قولـه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سـبأ: ٢٤].

---

(١) الكشاف (٣/ ٦١١).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢٩).

يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي درجه بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية، على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أنضل[(١)]، بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفل شوكته»[(٢)].

لذلك لحظ العلماء هذه الأساليب، واعتبروها من أنفع الطرق؛ لاستنباط هدايات القرآن الكريم، كما سبق مفصلا في مبحث أساليب القرآن في عرض الهدايات.

ثالثًا: النظر في اختلاف القراءات:

اتفق العلماء على أن الخلاف في القراءات إنما هو خلاف تنوع، وليس خلاف تضاد وتناقض، وفي تقرير ذلك:

يقول الداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجملة ما نعتقده من هذا الباب وغيره، من إنزال القرآن، وكتابته، وجمعه، وتأليفه، وقراءته، ووجوهه، ونذهب إليه ونختاره؛ فإن القرآن منزل على سبعة أحرف، كلها شافٍ، كافٍ، وحق، وصواب، وأن الله تعالى قد خير القراء في جميعها، وصوبهم إذا قرؤوا بشيء منها، وأن هذه الأحرف السبعة المختلف معانيها تارة، وألفاظها تارة، مع اتفاق المعنى؛ ليس فيها تضاد، ولا تناف للمعنى، ولا إحالة، ولا فساد»[(٣)].

---

(١) في الصحاح «نَاضَلَهُ»: راماه، يقال: ناضلت فلانًا فنضلته إذا غلبته. اهـ، فالأنضل الأشد رميًا. حاشية الكشاف (٣/ ٥٨١).

(٢) الكشاف (٣/ ٥٨١).

(٣) الأحرف السبعة للقرآن (ص: ٦٠).

ولذلـك فإن تأثيـر القراءات علىٰ الهدايات، سيكون تأثيـر إثراء وتعدد، فـكل قراءة قد تحمـل هداية أخرىٰ لا تناقـض غيرها، وإنمـا تضاف إليها.

لذلك قال الثعالبـي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن تنوّع القراءات، يقـوم مقام تعدّد الآيات، وذلك ضـرب من ضـروب البلاغة، يبتدىء مـن جمال هذا الإيجـاز، وينتهي إلـىٰ كمال الإعجـاز، أضـف إلىٰ ذلـك ما في تنـوّع القـراءات مـن البراهين السـاطعة، والأدلـة القاطعة، علـىٰ أن القـرآن الكريـم كلام الله، وعلىٰ صدق مـن جاء بـه وهو رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فـإن هـذه الاختلافـات في القراءة علـىٰ كثرتها لا تؤدي إلىٰ تناقـض في المقروء وتضادّ، ولا إلـىٰ تهافت وتخاذل، بـل القرآن كله علـىٰ تنوّع قراءاتـه، يصدّق بعضـه بعضًا، ويبين بعضـه بعضًا، ويشـهد بعضه لبعـض، علىٰ نمـط واحد في علو الأسـلوب والتعبيـر، وهدف واحد من سـموّ الهداية والتعليم، وذلك -من غير شـك- يفيـد تعدّد الإعجاز بتعدّد القـراءات والحروف.

ومعنـىٰ هـذا: أنّ القرآن يعجـز إذا قرئ بهـذه القراءة، ويعجـز أيضًا إذا قـرئ بهذه القـراءة الثانية، ويعجـز أيضًا إذا قـرئ بهذه القـراءة الثالثة، وهلمّ جـرّا، ومن هنا تتعـدّد المعجزات بتعـدّد تلك الوجـوه والحروف»[1].

ومثالـه، قولـه تعالـىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيـم: ٤٦].

ففي كلمة: ﴿لِتَزُولَ﴾ قراءتان:

الأولـىٰ: بكسـر (الـلام) الأولىٰ، وفتـح الثانية فيهـا: ﴿لِتَزُولَ﴾، وهـي قراءة الجمهور.

(١) الجواهر الحسان (١/ ١٠٧).

والثانية: بفتح (اللام) الأولىٰ، ورفع الأخرىٰ: ﴿لَتَزُولُ﴾، وهي قراءة الكسائي[(١)].

فأما وجه القراءة الأولىٰ، فعلىٰ كون «إن» نافية، أي: ما كان مكرهم، وإن تعاظم وتفاقم، ليزول منه أمر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودين الإسلام.

وفي القراءة الثانية «إنْ» مخففة من الثقيلة، أي: وإن مكرهم كامل الشدة، تقتلع بسببه الجبال الراسيات من مواضعها، ففي الأولىٰ تكون الجبال مجازًا عن الدين الحق، وفي الثانية تكون حقيقة[(٢)].

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]، فقرأ حمزة والكسائي: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بالثاء، وقرأ الباقون: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بالباء[(٣)].

فمعنىٰ قراءة: ﴿إِثْمٌ كَثِيرٌ﴾ من الكثرة، وذلك لأن شرب الخمر يحدث معه آثام كثيرة، من لغط، وتخليط، وسب، وأيمان، وعداوة، وخيانة، وتفريط في الفرائض، وفي غير ذلك، فوصف بالكثرة.

يقول أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ: «ووصف الإثم بالكثرة، إما باعتبار الآثمين، فكأنه قيل: فيه للناس آثام، أي: لكل واحد من متعاطيها إثم، أو باعتبار ما يترتب علىٰ شربها، من توالي العقاب، وتضعيفه، فناسب أن ينعت بالكثرة، أو باعتبار ما يترتب علىٰ شربها، مما يصدر من شاربها، من الأفعال والأقوال

---

(١) المبسوط في القراءات العشر (ص: ٢٥٧).

(٢) مناهل العرفان (١/ ١٨٦)، بتصرف.

(٣) التيسير في القراءات السبع (ص: ٨٠).

المحرمة، أو باعتبار من زوالها من لدن كانت، إلىٰ أن بيعت وشريت، فقد لعن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخمر، ولعن معها عشرة: بائعها، ومبتاعها، والمشتراة له، وعاصرها، ومعتصرها، والمعصورة له، وساقيها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة له، وآكل ثمنها، فناسب وصف الإثم بالكثرة بهذا الاعتبار»[(١)].

أما معنىٰ قراءة: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فهو من الكبر والعظم، أي: فيها إثم عظيم؛ لأنَّ شرب الخمر والميسر من الكبائر.

وفي هذا يقول الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما الإثم الكبير الذي في الخمر فبين، لأنها توقع العداوة والبغضاء، وتحول بين المرء وعقله الذي يميز به، ويعرف ما يجب لخالقه»[(٢)].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] قراءة الجمهور برفع: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾، وهي تدل علىٰ أن كلمة الله تعالىٰ ثابتة في علوها، لم يعتريها شيء من الدنو.

بينما علىٰ قراءة النصب علىٰ أنه مفعول به، فيكون المعنىٰ أن الله جعل كلمته هي العليا، أي: قدر ذلك وقضاه[(٣)].

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٤٠٥).

(٢) معاني القرآن (١/ ٢٩٢).

(٣) ينظر: الكشاف (٢/ ٢٦٠)، مفاتيح الغيب (١٦/ ٧١)، روح المعاني (٥/ ٩٩).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[التكوير: ٢٤]، قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضاد، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ورويس: ﴿بِظَنِينٍ﴾ بالظاء.

فالقراءة بالضاد ﴿بِضَنِينٍ﴾: فمن الضنّة؛ وهي البخل، أي معناها: ما هو علىٰ الغيب ببخيل، أما القراءة بالظاء ﴿بِظَنِينٍ﴾: فمن الظنّة، وهي الاتهام، أي: ما هو علىٰ الغيب بمتهم[١].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن قرأ ﴿بِظَنِينٍ﴾ فمعناه: ما هو علىٰ الغيب بمتهم، وهو الثقة فيما أداه عن الله عَزَّوَجَلَّ، يقال: ظننت زيدًا، في معنىٰ اتهمت زيدًا، ومن قرأ ﴿بِضَنِينٍ﴾ فمعناه: ما هو علىٰ الغيب ببخيل، أي: هو يؤدي عن الله ويُعَلِّمُ كتاب الله»[٢].

رابعًا: التأمل في مجموع أدلة الكتاب والسنة:

تحقيق الفهم السديد في جميع مسائل علوم الشريعة، يكون بجمع ما فيها من النصوص، والتأليف بينها وتحليلها، واستنباط «الهدايات القرآنية» لا يخرج عن هذا الأصل؛ فلذلك نجد أن العلماء حين يستنبطون هذه الهدايات من الآيات، يستحضرون ما يعضدها، ويدل عليها، من نصوص أخرىٰ، من القرآن والسنة، وأمثلة ذلك كثيرة:

فمن الاستدلال بآيات القرآن؛ قول الله تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ٧٦

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦١-١٦٣).

(٢) معاني القرآن (٥/ ٢٩٣).

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ٧٦ – ٧٨].

فمن هدايات هذه الآيات: استخدام المناظرة في تقرير التوحيد، كما ذكر ذلك جمع من المفسرين: كالنحاس، وابن عطية، والرازي، وابن كثير - رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ -(١).

ولا يمكن أن يكون قول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ من باب النظر، والاسترشاد وطلب التوحيد؛ لأن النصوص الأخرىٰ تقرر أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن يومًا علىٰ الشرك، أو الشك في التوحيد، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل: ١٢٠]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ١٦١]، فمجموع هذه النصوص يدل علىٰ تلك الهداية(٢).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول هذه المعاني: «فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه علىٰ ظاهره، روىٰ علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قال هذا ربي، فعبده حتىٰ غاب، وعبد القمر حتىٰ غاب، وعبد الشمس حتىٰ غابت، واحتج أرباب هذا القول بقوله تعالىٰ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾، وهذا يدل علىٰ نوع تحيير، قالوا: وإنما قال هذا في حال طفولته علىٰ ما سبق

(١) ينظر: معاني القرآن (٢/ ٤٥٠)، المحرر الوجيز (٦/ ٩١)، مفاتيح الغيب (١٣/ ٥٠)، تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٨٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٢٥٤).

إلى وهمه، قبل أن يثبت عنده دليل، وهذا القول لا يرتضى، والمتأهِّلون للنبوة محفوظون من مثل هذا على كل حال.

والثاني: أنه قال ذلك استدراجًا للحجة؛ ليعيب آلهتهم، ويريهم بغضها عند أفولها..

والثالث: أنه قال مستفهمًا، تقديره: أهذا ربي؟»[1].

أقول: ويمكن أن يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام: ٨٣]، فهي مشعرة بأن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال ذلك، مبرهنًا لقوله، محتجًّا له، وليس شاكًّا مترددًا في إثبات ربوبية ربه تعالى.

ومثله ما جاء في معنى العهد الذي أمر بالوفاء به في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[البقرة: ٤٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيده؛ ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم، في أمره ونهيه، ما احتج به لرسله، من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم، أن يأتي بمثلها، الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك؛ تركهم الإقرار بما ثبتت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب، مع علمهم أن ما أتوا به حق، وروي أيضًا عن مقاتل بن حيان نحو هذا، وهو حسن.

(١) زاد المسير (٣/ ٤٨)، باختصار يسير.

وإليه مال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه قال: «فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمر وصاهم به، ووثقه عليهم، وهو معنى قوله: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]»[١].

فاستفاد هذه الهداية من مجموع آيات الميثاق.

ومن الاستدلال بالسنة؛ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هداية هذه الآية حيث جاءت بعد ذكر صفات المؤمنين: «دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة، يأتي بالطاعات، مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين»[٢].

وهذه الهداية مستفادة من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا بأنها قالت للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢١٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٣).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون (٥/ ٣٢٧)، برقم: (٣١٧٥)، وأحمد في مسنده (٤٢/ ١٥٦)، برقم: (٢٥٢٦٣)، و(٤٢/ ٤٦٥)، و(٢٥٧٠٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٧)، برقم: (٣٤٨٦)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٠٤)، برقم: (١٦٢).

فالهداية التي استنبطها الرازي مبنية علىٰ هذا الحديث، وهذه الطريقة لاشك هي أحد أوجه التفسير، واستنباط «الهدايات» له تعلق بالتفسير بإطلاقه العام، كما سبق في التأصيل لمفهوم «الهدايات».

خامسًا: الصدور من أصول الشريعة:

لا يغيب عن نظر العلماء وهم يستنبطون «الهدايات» من القرآن الكريم، ضرورة انتظامها في أصول الشريعة وقواعدها، وعدم مخالفة شيء منها، ففي قوله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء:٧٩]،ذكر العلماء أنّ فيها تعليما للأدب مع الله سبحانه، وهو أصل عام يجب ملاحظته في كل كلام عن الله تعالىٰ، ووجه ذلك في الآية: أنه تعالىٰ أضاف الحسنة إليه سبحانه، والسيئة إلىٰ خلقه؛ لتعليم الأدب في عدم نسبة الشر إلىٰ الله تعالىٰ، مع أن الكل منه سبحانه كما في الآية السابقة ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[النساء: ٧٨]، وهذا له شواهد كثيرة.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«الأدب في ترك التنصيص علىٰ نسبة الشر إلىٰ الله تعالىٰ، وإن كان هو الخالق لكل شيء، كما قال بعد قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾.. إلىٰ قوله:﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ﴾[آل عمران: ٢٦]، ولم يقل: (بيدك الخير والشر)، وإن كان قد ذكر القسمين معًا؛ لأن نزع الملك والإذلال بالنسبة إلىٰ من لحق ذلك به شر ظاهر، نعم قال في أثره:﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: ٢٦]؛ تنبيهًا في الجملة علىٰ أن الجميع خلقه،

حتىٰ جاء في الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والخير في يديك والشر ليس إليك»[(١)] »[(٢)].

وهذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأضاف عيب السفينة إلىٰ نفسه رعاية للأدب؛ لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلىٰ نفسه، كما تأدب إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، فأسند الفعل قبل وبعد إلىٰ الله تعالىٰ، وأسند إلىٰ نفسه المرض، إذ هو معنىٰ نقص ومصيبة، فلا يضاف إليه سبحانه من الألفاظ إلا ما يستحسن منها، دون ما يستقبح»[(٣)].

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلىٰ الله تعالىٰ، والشر حذفوا فاعله تأدبًا مع الله»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، برقم: (٣٣٤٨)، وكتاب الرقاق، باب قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، برقم: (٦٥٣٠)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم: (٧٧١)، عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الموافقات (٢/ ١٦٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٣٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٩٠).

ومن ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين: ١٥].

استخرج العلماء من هذه الآية هداية عظيمة، وهي تنعم المؤمنين برؤية ربهم، كما هو أصل عند أئمة السنة.

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال أكثر المفسرين عن رؤيته، قال الحسن: لو علم الزاهدون العابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد؛ لزهقت أنفسهم في الدنيا، قال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده، حجبهم في الآخرة عن رؤيته، وسئل مالك عن هذه الآية فقال: لما حجب أعداءه، فلم يروه، تجلىٰ لأوليائه حتىٰ رأوه، وقال الشافعي: دلالة علىٰ أن أولياء الله يرون الله عيانًا»[(١)].

ومن أمثلة الاعتماد علىٰ الأصول العامة، قوله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق: ٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾[النازعات: ٤٥]، ونحوها من الآيات، التي تخص الذكرىٰ بأقوام، قامت فيهم أوصاف معينة.

يقول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فخص الإنذار بمن ذكر في الآيات؛ لأنهم هم المنتفعون به، مع أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحقيقة منذر لجميع الناس»[(٢)].

وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الذاريات: ٥٥]، فاستفاد في تقرير هذه الهداية، من المعلوم في أصول الإسلام، أن النذارة عامة لجميع الثقلين.

---

(١) معالم التنزيل (٥/ ٢٢٥).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٥٣٦).

سادسًا: استحضار حكم التشريع وأسراره:

حكم التشريع وأسراره، تعني: الغايات التي لأجلها شرعت الأحكام، وهي من أكثر ما يهدي المستنبط للوصول إلىٰ الهداية؛ فكلما استحضرها عند تدبره للآيات، تجلت له أنواع من الهدايات، وهذه الطريقة استُخدمت كثيرًا عند المفسرين، وبالأخص المتأخرون منهم، فمن شواهد ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة:٣٢].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حثّ جميع الأمة علىٰ تعقب قاتل النفس وأخذه أينما ثقف، والامتناع من إيوائه، أو الستر عليه، كل مخاطب علىٰ حسب مقدرته، وبقدر بسطة يده في الأرض، من ولاة الأمور إلىٰ عامة الناس»[١].

وهذه الهداية الدقيقة لها تعلق بحكمة الشريعة في قتل القاتل، وهي المأخوذة من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٩].

وقال ابن عاشور في آخرها: «ولك أن تجعل المقصد من التشبيه توجيه حكم القصاص وحقيته، وأنه منظور فيه لحق المقتول، بحيث لو تمكن لما رضي إلا بجزاء قاتله بمثل جرمه، فلا يتعجب أحد من حكم القصاص، قائلًا: كيف نصلح العالم بمثل ما فسد به؟ وكيف نداوي الداء بداء آخر، فبين لهم أن قاتل النفس عند ولي المقتول، كأنما قتل الناس جميعًا»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١٧٨).

(٢) المرجع السابق.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وما حصل فيها من رد كيد إخوته-: «تنبيه علىٰ أن من كاد كيدًا محرمًا، فإن الله يكيده، وهذه سنة الله في مرتكب الحيل المحرمة»(١).

فذكر هذه الهداية التي تنتظم مع مقاصد الشرع، وهي تحريم الحيل وسد ذرائع الفساد، والمعاملة بنقيض القصد، وأن الجزاء من جنس العمل.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

يقول الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ووجه النهي عن سب أصنامهم هو: أن السب لا تترتب عليه مصلحة دينية؛ لأنّ المقصود من الدعوة هو الاستدلال علىٰ إبطال الشرك، وإظهار استحالة أن تكون الأصنام شركاء لله تعالىٰ، فذلك هو الذي يتميز به الحق عن الباطل، وينهض به المحق، ولا يستطيعه المبطل، فأما السب فإنه مقدور للمحق وللمبطل؛ فيظهر بمظهر التساوي بينهما، وربما استطاع المبطل بوقاحته وفحشه، ما لا يستطيعه المحق، فيلوح للناس أنه تغلب علىٰ المحق، علىٰ أن سب آلهتهم لما كان يحمي غيظهم ويزيد تصلبهم، قد عاد منافيا لمراد الله من الدعوة»(٢).

فاستنبط هذه الهداية الغالية من مقاصد الشريعة في الدعوة إلىٰ الحق.

(١) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٦/ ١٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٤٣٠).

سابعًا: الاستفادة من أوجه الإعراب:

الإعـراب هو ركـن المعنىٰ، وعلاقته بالقـرآن الكريم وثيقة؛ فـإن بداية ظهـور هذا العلـم كان لحفظ اللسـان العربي من اللحن، ومن ثـم حفظ القرآن الكريـم الذي نـزل به؛ فلا غرو أن يكـون له أثره البالغ في التفسـير، وهو كذلك تربة خصبة لتنـوع الهدايات.

وفي ذلك يقول الزمخشـري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن آثار الإعـراب عديدة الحصىٰ، ومن لـم يتق الله في تنزيلـه، فاجترأ علىٰ تعاطـي تأويله، وهو غيـر معرب؛ فقد ركـب عمياء، وخبط عشـواء، وقال ما هـو تقوّل وافتراء وهـراء، وكلام الله منه براء»[1].

وأمثلـة ذلك كثيرة لا تحصـىٰ؛ ففي قولـه تعالىٰ: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[التوبة: ٨].

مـن هداياتهـا: أنّ المشـركين لا يرقبـون في المؤمنين عهـدًا، حال كونهم يرضونكـم بأفواههم، وتأبىٰ قلوبهم، هذا علـىٰ القول بأن جملة: «﴿يُرۡضُونَكُم﴾ حاليـة»[2].

وهنـاك وجـه إعرابي آخـر لا يسـاند هـذه الهداية، وهـو أن جملة: «﴿يُرۡضُونَكُم﴾ مسـتأنفة»[3].

(١) المفصل في صنعة الإعراب (١/ ٤).

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب (١٠/ ٢٩)، أنوار التنزيل (١/ ٣٩٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/ ٣٨٦).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧] في إعراب: ﴿يُفْتَرَىٰ﴾؛ وجهان:

الأول: مصدر مؤول وهو خبر ﴿كَانَ﴾؛ أي: وما كان القرآن افتراء، والمصدر هنا بمعنىٰ المفعول؛ أي: مفترىٰ.

الثاني: علىٰ تقدير (لام) الجحود، أي: ما كان ليفترىٰ[1].

وعلىٰ الوجه الأول يكون المعنىٰ: لا يصح أن يكون هذا القرآن الكريم مفترىٰ، فهو خبر قاطع بنفي الافتراء.

وعلىٰ الثاني يكون المعنىٰ: لا يمكن أن يفترىٰ هذا القرآن، ولا يستطيع أحد أن يفتريه، وفيه معنىٰ التحدي[2].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿جَمِيعًا﴾ حال مؤكدة من كلمة ﴿مَّا﴾، ولا دلالة لها كما ذكره البعض، علىٰ الاجتماع الزماني، وهذا بخلاف معًا، وجعله حالًا من ضمير ﴿لَكُم﴾ يضعفه السياق؛ لأنه لتعداد النعم دون المنعم عليه، مع أن مقام الامتنان يناسبه المبالغة في كثرة النعم، ولاعتبار المبالغة لم يجعلوه حالًا من الأرض أيضًا»[3].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

(١) وهناك وجوه أخرىٰ. ينظر: التبيان في إعراب القرآن، للعكبري (٢/ ٦٧٥).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٦٤٥)، مفاتيح الغيب (١٧/ ١٠٠)، البحر المحيط (٥/ ١٥٨).

(٣) روح المعاني (١/ ٢١٧).

فكلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾: إما أن تكون مبتدأ، أو خبرا لمبتدأ محذوف، وعلىٰ الوجهين تتنوع الدلالات.

فعلىٰ أنه مبتدأ؛ يكون المعنىٰ: ذلك التثبت.

كما قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ذلك التثبت والتشمر؛ لظهور البراءة؛ ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ العزيز، أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بظهر الغيب في حرمته»[١].

وعلىٰ أنه خبر؛ يقول النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع، أي: الأمر ذلك، ﴿لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: لم أذكره وهو غائب بسوء، وكذا الخيانة، وقد قيل: هذا من كلام يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ»[٢].

ثامنًا: الرجوع إلىٰ الاشتقاق والتصريف:

هناك تقارب شديد بين (الاشتقاق) و(التصريف).

قال ابن جني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وينبغي أن يعلم أن بين التصريف والاشتقاق نسبًا قريبًا، واتصالاً شديداً؛ لأن التصريف إنما هو أن تجيء إلىٰ الكلمة الواحدة فتصرفها علىٰ وجوه شتىٰ»[٣].

وقد كان في بداية الأمر يطلق كل منهما علىٰ الآخر.

قال الدكتور هنداوي: «إذا أمعنا النظر في نصوص الصرفيين رأيناهم لا يفرقون بين التصريف والاشتقاق، فيسمون الاشتقاق تصريفًا»[٤].

---

(١) الكشاف (٢/ ٤٧٩).

(٢) إعراب القرآن (٢/ ٢٠٥).

(٣) المنصف (ص: ٣).

(٤) منهج الصرفيين ومذاهبهم، للدكتور حسن هنداوي (ص: ٤٨).

والعلاقة بين التصريف والاشتقاق وثيقة؛ فإنه لا يوصل إلىٰ الاشتقاق إلا بالتصريف؛ ولذلك جمعت بينهما في هذا المبحث، وقد استقرت الاصطلاحات بعد ذلك علىٰ الفرق بينهما، ويمكن تناولهما كما يلي:

- الاشتقاق؛ في اللغة: يطلق علىٰ معان:

منها: أخذ الشيء من الشيء، ومنها الأخذ في الكلام والخصومة يمينًا وشمالاً مع ترك القصد، واشتقاق الحرف من الحرف أخذه منه، وكذلك أخذ الكلمة من الكلمة، واشتقاق الكلام إخراجه أحسن مخرج[(١)].

وورد اللفظ عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه عَزَّ وَجَلَّ: «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمي»[(٢)].

وفي الاصطلاح: أخذ كلمة من أخرىٰ مع تناسب بينهما في المعنىٰ واختلاف في الصيغة[(٣)].

مثل الرَبوة من الأرض؛ بقعة مرتفعة عن مستوىٰ ما حولها، أي: زائدة عنه إلىٰ أعلىٰ، والرِبا الذي حرَّمه الله تعالىٰ هو زيادة غير مشروعة، والزيادة من جنس الارتفاع[(٤)].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ١٧١)، لسان العرب (١٠/ ١٨٤)، مادة: (شقق).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم، برقم: (١٩٠٧)، وأبو داود، كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم، برقم: (١٦٩٤)، وأحمد في المسند (٣/ ١٩٨)، برقم: (١٦٥٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٥١): رواه البزار وإسناده حسن، وقال الحافظ في تهذيب التهذيب (٣/ ٢٧١): سنده صحيح.

(٣) ينظر: دراسات في فقه اللغة، لصبحي الصالح (ص: ١٧٤)، وتقديم عبد السلام هارون لكتاب الاشتقاق لابن دريد (ص: ٢٦)، ومن ذخائر ابن مالك في اللغة: مسألة من كلام الإمام ابن مالك في الاشتقاق، لمحمد المهدي (ص: ٢١٥).

(٤) المعجم الاشتقاقي المؤصل، للدكتور محمد جبل (١/ ١٨).

- وأما التصريف: فهو لغة من التحويل والتقليب.

واصطلاحًا: عرّفه ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه:

«علم يتعلق ببنية الكلمة وما لحروفها من زيادة وأصالة، وصحة واعتلال، وشبه ذلك»(١).

وهو من أهم علوم العربية، قال ابن عصفور رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فالذي يبين شرفه احتياج جميع المشتغلين باللغة العربية، من نحوي ولغوي، إليه أيما حاجة؛ لأنه ميزان العربية؛ ألا ترىٰ أنه قد يؤخذ جزء كبير من اللغة بالقياس، ولا يوصل إلىٰ ذلك إلا من طريق التصريف، نحو قولهم: كل اسم في أوله ميم زائدة مما يعمل به وينقل؛ فهو مكسور الأول، نحو: مطرقة ومروحة، إلا ما استثني من ذلك، فهذا لا يعرفه إلا من يعلم أن الميم زائدة، ولا يعلم ذلك إلا من جهة التصريف»(٢).

والتصريف ينقسم قسمين:

أحدهما: جعل الكلمة علىٰ صيغ مختلفة، لضروب من المعاني، نحو: ضرَب، وضرَّب، وتَضَرَّب، وتَضَارَب، واضْطِراب.

فالكلمة التي هي مركبة من (ضاد، وراء، وباء) نحو «ضرب»؛ قد بنيت منها هذه الأبنية المختلفة، لمعانٍ مختلفة.

الثاني: تغيير الكلمة عن أصلها، من غير أن يكون ذلك التغيير دالًّا علىٰ معنىٰ طارئ علىٰ الكلمة، نحو تغييرهم (قَوَل) إلىٰ (قَال)(٣).

(١) إيجاز التعريف في علم التصريف (ص: ٥٨).

(٢) الممتع الكبير في التصريف (ص: ٣١).

(٣) المصدر السابق (ص: ٣٣).

ومـن أمثلة أثر ذلـك في «الهدايات» أن التضعيف يفيد السـلب، ففي قوله تعالـىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾[الإسـراء: ٧٩] دلالـة علىٰ تـرك الهجود؛ وهو النوم، كما قـال تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾[السـجدة: ١٦].

وكذلك التفاعـل، كما في قوله تعالـىٰ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾[النبـأ: ١] فالمعنىٰ عنـد الجمهور: يسـأل بعضهم بعضـا، وهو يفيد شـدة حيرتهـم واضطرابهم، خلافـا لمن قـال بأن المعنىٰ: يسـألون النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [١].

وكذلـك وصف الله تعالىٰ بالكريم دون السـخي؛ لأن السـخاء أصله من الأرض السـخاوية، وهي الرخـوة، فالكريم أكمل من حيث الاشـتقاق.

وكذلـك وصفه بالعالـم دون (الـدَّاري)؛ لأن أصله مـن (الدَّرِيَّة)، وهي شـيء يضعه الصائـد لضرب من الحِيلـة والخديعة، فكأن ما يقدمـه الذي يريد أن يتوصـل إلىٰ علم شـيء من الأدلـة، بمنزلة الدَّريَّـة التي يتوصـل إلىٰ ختل الصيد وخدعه[٢].

تاسعًا: فهم الآيات من خلال أحوال النزول:

نعنـي بأحـوال النـزول: مـا هو أعم مـن السـبب الخاص، فهو يشـمل أسـباب النزول، وزمـان النـزول، ومكانه، والواقـع الذي نزلت فيـه الآيات، كحالـة الخـوف أو الأمـن، والقـوة أو الضعف، والحالـة الاجتماعيـة، ومنه المجتمـع المكـي والمـدني، ومـا لـكل واحـد منهما مـن خصائـص، فهذه الأحـوال تُلهـم المتدبر بعضا من المعـاني، التي قد لا يدل عليهـا ظاهر اللفظ.

(١) ينظر: زاد المسير (٤/ ٣٨٧).
(٢) الممتع الكبير في التصريف (ص: ٣٢).

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائد أسباب النزول:«ومنها: الوقوف على المعنىٰ، قال الشيخ أبو الفتح القشيري: بيان سبب النزول، طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز، وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا»(١).

ودون ذلك قد يقع الاضطراب والاختلاف.

فقد روىٰ أبو عبيد عن إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال أنه:«خلا عمر ذات يوم؛ فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟ فأرسل إلىٰ ابن عباس؛ فقال: كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين!! إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيما نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن، ولا يدرون فيما نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا، قال: فزجره عمر وانتهره؛ فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه فأرسل إليه؛ فقال: أعد علي ما قلت، فأعاده عليه؛ فعرف عمر قوله، وأعجبه»(٢).

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٢).

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٤٥-٤٦)، وسعيد بن منصور في سننه (١/ ١٧٦) برقم: (٤٢)، عن هشيم عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي به، والتيمي لم يدرك زمن عمر؛ فإسناده منقطع، لكن له طريق عن علي بن بذيمة الجزري عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس به نحوه، وإسناده صحيح، أخرجه عبد الرزاق في جامع معمر (١١/ ٢١٧-٢١٨)، برقم: (٢٠٣٦٨).

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما قاله صحيح في الاعتبار، ويتبيّن بما هو أقرب، فقد روىٰ ابن وهب عن بكير؛ أنه سأل نافعًا: كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية؟ قال: «يراهم شرار خلق الله، إنهم انطلقوا إلىٰ آيات أنزلت في الكفار، فجعلوها علىٰ المؤمنين»[١].

فهذا معنىٰ الرأي الذي نبه ابن عباس عليه، وهو الناشئ عن الجهل بالمعنىٰ الذي نزل فيه القرآن»[٢].

ومن شواهد الهدايات المتعلقة بأسباب النزول في قوله تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾[البقرة: ٢٢٣].

حيث بين تعالىٰ أن الزوجة كالحرث الذي ينبت الزرع، ولا يكون ذلك إلا بالإتيان حيث يكون الولد.

ويظهر في هذه الهداية الاستئناس بسبب النزول، وهو أن اليهود قالوا: (إن العرب يأتون النساء من قِبَل أعجازهن، فإذا فعلوا ذلك جاء الولد أحول) فأكذب الله أحدوثتهم، فأنزل الآية[٣].

وكذلك في قوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[البقرة: ٢٥٦].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تكرهوا أحدا علىٰ الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بيّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلىٰ أن يكره أحد علىٰ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، (١٢/ ٢٨٢)، تعليقًا بصيغة الجزم، وذكر الحافظ وصله، وصححه في تغليق التعليق (٥/ ٢٥٩).

(٢) الموافقات (٤/ ١٣٩).

(٣) جامع البيان (٤/ ٤٠٢).

الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عامًّا»[1].

وقد استفاد هذه الهداية من سبب النزول، وهو قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كانت المرأة تكون مقلاة، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]»[2].

عاشراً: النظر في المناسبات:

علم المناسبات من حيث كونه علمًا مستقلًّا يعدّ من العلوم المهمة، ويعرّف بأنّه علم يعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن الكريم[3]، ويبحث في (نظام القرآن).

ولم يكن هذا العلم يتجاوز مجرد الإشارات واللفتات، بين ثنايا كتب التفسير، «ولم يظهر علمًا مستقلًّا، إلا مع الإمام الجليل أبي بكر النيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٣٢٤هـ)، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، فإنه أول من أظهر

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٨٢).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الأسير يكره على الإسلام، برقم: (٢٦٨٢)، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، سورة البقرة، قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾، برقم: (١١٠٤٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٨/ ١٦)، رقم: (٢٤٠٤).

(٣) ينظر: نظم الدرر (١/ ٦).

علم المناسـبة، إذ كان يهتم به في درسـه، ويقول إذا قرئت عليـه آية: لم جُعلت هـذه الآيـة إلىٰ جنب هـذه؟ ومـا الحكمـة في جعل هـذه السـورة إلىٰ جنب هـذه؟.. وكان يزري علىٰ علماء بغـداد، لعدم علمهم بتلـك المعاني»[(١)].

فنجـد أن السـورة الطويلـة المنجمة في نزولهـا، تنسـجم مقاصدها، مع تنـوع أسـاليبها وموضوعاتها، فـلا تناكر في أوضاعهـا، بل يظهـر للمتدبر تمام التآلـف بيـن الأجناس المتنوعـة، فلم يكن الانتقـال بين الأغـراض المختلفة في السـورة الواحـدة أمـرًا اعتباطيًـا بلا علاقـة بينها، فهـذا لو وقع من البشـر لم يكـن لائقًا، فكيف بـكلام أحكم الحاكميـن، بل تتعانق جميـع الأغراض، والأسـاليب، والموضوعـات؛ لتصل إلـىٰ الغايـة القصوىٰ، والمقصـد العام الـذي تدور حوله السـورة.

وهـذا العلـم يعتـبر خزانـة للهدايـات، حيـث يهتـدي به المفسـر في اسـتخراجها.

قـال الزركشـي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وقد قـل اعتناء المفسـرين بهـذا النـوع لدقته، وممـن أكثر منـه الإمام فخـر الدين الـرازي، وقـال في تفسـيره:(أكثر لطائف القـرآن مودعـة في الترتيبـات والروابـط)، وقال بعـض الأئمة: من محاسـن الـكلام أن يرتبـط بعضـه ببعض؛ لئـلا يكـون منقطعًا»[(٢)].

فلذلك نجد أن جل المناسبات، عبارة عن هدايات.

---

(١) مصابيـح الـدرر في تناسـب آيـات القـرآن الكريم والسـور، لعادل بـن محمد أبـو العلاء (ص: ٢١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٦).

فعلىٰ سبيل المثال؛ عند الكلام عن المناسبة بين سورة الفاتحة والبقرة، يذكر المفسرون: أن الله تعالىٰ أرشد عباده في سورة الفاتحة إلىٰ أن يسألوه الهداية، بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦]، فبين لهم سبحانه طريقها، وأرشدهم إلىٰ أعظم أسبابها، فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ١ – ٢]، فهذا القرآن الكريم هو طريق الهداية الكبرىٰ، وهذه إحدىٰ الهدايات المستنبطة من هذه الآية، وقد استخرجت من خلال النظر في المناسبات.

قال أبو جعفر الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما قال العبد بتوفيق ربه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦]، قيل له: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾[البقرة: ٢] هو مطلوبك، وفيه أربك، وهو الصراط المستقيم، ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ القائلين: اهدنا الصراط المستقيم، والخائفين من حال الفريقين: المغضوب عليهم والضالين، فاتخذوا وقاية من العذاب خوف ربهم وتقواه، بامتثال أمره ونهيه، ثم أشير من الأعمال إلىٰ ما يستحق سائرها، من قبيلي البدنيات والماليات؛ بيانًا للصراط المستقيم»[(١)].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾[الطارق: ١١ – ١٢]، بيّن البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مناسبة ذكر هذه الآيات بما قبلها، من خلق الإنسان، وتقرير البعث.

فقال: «فجمع بالقسم العالم العلوي الذي هو كالرجل، والسفلي الذي هو كالمرأة، فكما أن الرجل يسقيها من مائه، فتصدع عن الولد، فكذلك

(١) البرهان في تناسب سور القرآن (ص: ١٩٠).

السماء، تسقي الأرض، فتتصدع عن النبات، وكما أنها تتصدع عن النبات بعد فنائه، وصيرورته رفاتًا، فيعود كما كان، فكذلك تتصدع عن الناس بعد فنائهم، فيعودون كما كانوا بإذن ربها، من غير فرق أصلًا»[(١)]، وهو بتدبره من أروع الهدايات في باب المناسبات.

وكذلك بين الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الهدايات في مناسبات الآيات بختامها في الجملة.

فقال: «وعادة القرآن العظيم، إذا ذكر أحكامًا، ذكر بعدها وعدًا ووعيدًا؛ ليكون ذلك باعثًا على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه؛ ليعلم عظم الآمر والناهي»[(٢)].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[الأنعام: ٩٧ – ٩٨]، حيث ختم سبحانه الأولى بالعلم، والثانية بالفقه.

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مناسبة ختم الآيتين: «وعدل عن ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إلى ﴿يَفْقَهُونَ﴾؛ لأن دلالة إنشائهم على هذه الأطوار، من الاستقرار والاستيداع، وما فيهما من الحكمة، دلالة دقيقة، تحتاج إلى تدبر، فإن المخاطبين كانوا معرضين عنها، فعبر عن علمها بأنه فقه، بخلاف دلالة النجوم على حكمة الاهتداء بها، فهي دلالة متكررة، وتعريضًا بأن المشركين

(١) نظم الدرر (٢١/ ٣٨٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٠).

لا يعلمون ولا يفقهون، فإن العلم هو المعرفة الموافقة للحقيقة، والفقه هو: إدراك الأشياء الدقيقة، فحصل تفصيل الآيات للمؤمنين، وانتفىٰ الانتفاع به للمشركين، ولذلك قال بعد هذا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾»[1].

الحادي عشر: التأمل في مواضع اقتران أسماء الله الحسنىٰ:

تتناول وجوه اقتران الأسماء الحسنىٰ في علم المناسبات، وإنما أفرد هنا لأهميته، فأسماء الله تعالىٰ حسنىٰ، أي: بالغة في الكمال؛ لتضمنها لصفات الجلال.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أسماء الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، دالة علىٰ صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنىٰ؛ إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها، لم تكن حسنىٰ، ولا كانت دالة علىٰ مدح وكمال»[2].

وتزداد قوة دلالاتها ومعانيها كلما اجتمعت، وهو سر اجتماعها في أكثر الآيات، مناسبا لسياقها.

وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: «فلهُ بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر»[3].

ومن ذلك ما يلي:

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٩٧، ٣٩٨).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٨).

(٣) المصدر السابق (١/ ٥٨).

• اقتران اسم (الغفور) بـ(الرحيم): وهي من أكثر الأسماء التي وردت مقترنة في القرآن الكريم، فقد وردت اثنتين وسبعين مرة، والسر في ذلك: أن المغفرة تقتضي ستر الذنب والتجاوز عنه، والرحمة تقتضي مزيد الإحسان والإكرام بدخول الجنان.

وله وجه آخر، ذكره البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «فتعرضوا لرحمته بالطاعة، ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية»[1].

• وكذلك اقتران اسم (الودود) بـ(الرحيم)، و(الغفور)، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود: ٩٠]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾[البروج: ١٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور؛ فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالىٰ يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه، ويحبه مع ذلك؛ فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه، ولو كان منه ما كان»[2].

• ومنه اقتران اسم (العزيز) بـ(الحكيم): فكل منهما دال علىٰ الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو كمال العزة في العزيز، وكمال الحكمة في الحكيم، وحينما يجتمعان يقتضي ذلك كمالًا آخر، فعزته بحكمة تنزه عن الظلم، وحكمته بعزة تنزه عن الضعف، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٨].

(١) أنوار التنزيل (٣/ ١٢٦).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٩٣).

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ حيث كان من مقتضىٰ حكمتك أن تغفر لمن أتىٰ بأسباب المغفرة»[١].

وكذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تذييل؛ لأن العزيز قوي لا ينفلت شيء من قدرته، ولا يخرج عما خلق له، والحكيم يضع الأشياء مواضعها، فموضع الإرسال والتبيين، أتىٰ علىٰ أكمل وجه من الإرشاد، وموقع الإضلال والهدىٰ، هو التكوين الجاري علىٰ أنسب حال بأحوال المرسل إليهم، فالتبيين من مقتضىٰ أمر التشريع، والإضلال من مقتضىٰ أمر التكوين»[٢].

• ومن ذلك اقتران اسم (السميع) بـ (العليم): فقد كثر اقتران هذين الاسمين في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، فهو يسمع ما هو مسموع من استعاذتكم، ويعلم ما ليس بمسموع من نزغاته[٣].

الثاني عشر: استنباط مقاصد القرآن الكريم:

علم مقاصد القرآن الكريم وسوره، من العلوم الاستنباطية الحديثة، والمقصود به معرفة مغزىٰ السورة، الذي ترجع إليه معاني السورة،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٨٨).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٩١).

ومضمونها[١]، وبعضهم يبحثه تحت ما يسمىٰ بـ (الوحدة الموضوعية)، وله ارتباط وثيق بالمناسبات.

وعلم مقاصد السور لم يكن معروفا بهذا الاسم عند المتقدمين، وإنما كانوا يذكرون ما تدور حوله السورة.

كما قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند حديثه عن سورة الأنعام: «وأن أكثرها احتجاج علىٰ مشركي العرب، علىٰ من كذب بالبعث والنشور»[٢].

ففيه إشارة إلىٰ مقصد السورة.

ومثل ذلك قرر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقال عن السورة نفسها: «مشتملة علىٰ دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين»[٣].

ثم ظهر بعد ذلك استخدام كلمة (المقصود)، كما يقول الغرناطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفىٰ سنة (٧٠٨هـ) عن سورة القمر مثلًا:

«سورة القمر بأسرها، مقصودها: تذكير كفار العرب من قريش بغيرهم، بما نزل بمن تقدمهم من مكذبي الأمم»[٤].

إلا أن التأصيل لهذا العلم، وإطلاق كلمة (مقصد) كمصطلح عليه، كان علىٰ يد البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفىٰ سنة (٨٨٥هـ) في كتابه: «مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور»، وقد قال في مقدمته:

---

(١) ينظر: علم مقاصد السور، للدكتور محمد الربيعة (ص: ٧).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٢٢٧).

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤٧١).

(٤) ملاك التأويل (٢/ ٤٦٠).

«فإن كل سورة لها مقصد واحد، يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها، فترتب المقدمات الدالة عليه علىٰ أتقن وجه، وأبدع نهج، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلىٰ دليل، استدل عليه، وهكذا في دليل الدليل، وهلم جرا.

فإذا وصل الأمر إلىٰ غايته، ختم بما منه كان ابتدأ، ثم انعطف الكلام إليه، وعاد النظر عليه، علىٰ نهج آخر بديع، ومرقىٰ غير الأول منيع، فتكون السورة كالشجرة النضيرة العالية، والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية، المزينة بأنواع الزينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدر، وأفنانها منعطفة إلىٰ تلك المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصل أولها، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها»[(١)]، ثم درج عليه العلماء بعد ذلك.

وقد يدل اسم السورة علىٰ مقصدها، كما قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلىٰ سورة سبأ، في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب، أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه الدال إجمالًا، علىٰ تفصيل ما فيه»[(٢)].

ومقصد السورة بحد ذاته نوع من الهدايات، فكل مقصد من المقاصد ما هو إلا هداية من الهدايات، وقد اجتهد العلماء في استنباط مقاصد السور، **ومن أمثلتها:**

---

(١) مصاعد النظر (١/ ١٤٩).

(٢) نظم الدرر (١/ ١٨- ١٩) .

- مقصد سورة الفاتحة: تحقيق العبودية لله تعالىٰ.

- مقصد سورة آل عمران: الثبات علىٰ الإسلام بعد كماله وبيانه، وردّ شبهات أهل الكتاب وخاصة النصارىٰ.

- مقصد سورة النساء: تنظيم حقوق المجتمع المسلم من داخله، من خلال حفظ الحقوق الاجتماعية والمالية؛ إزالةً لرواسب الجاهلية، وتركيزًا علىٰ حقوق النساء والضعفاء.

- مقصد سورة التوبة: كشف أحوال الطوائف، بالمُفاصلة مع الكافرين، وفضح المنافقين، وتمييز المؤمنين.

- مقصد سورة هود: بيان منهج الرسل في مواجهة قومهم المكذبين.

- مقصد سورة يوسف: تركز علىٰ الوعد بالتمكين بعد الابتلاء المبين؛ تثبيتًا ووعدًا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين.

- مقصد سورة النحل: تركز علىٰ التذكير بالنعم الدالة علىٰ المنعم؛ إلزامًا بعبوديته، وتحذيرًا من جحودها.

- مقصد سورة الإسراء: التركيز علىٰ كمال الرسالة المحمدية، وفيها إشارات وبشارات للرسالة، مضمونًا ومستقبلًا[١].

وهكذا إلىٰ آخر القرآن، ومما ينبغي التنبيه له في هذا الباب ما يلي:

١- أنه قد يكون للسورة الواحدة عدة مقاصد، لاسيما السور الطوال.

٢- أن استنباط هذه المقاصد اجتهادي، تختلف فيه أنظار العلماء.

٣- أن هذا الباب -كغيره من علوم القرآن الاجتهادية- قد دخله شيء من التكلف غير المرضي، والله أعلم.

---

(١) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم؛ في أوائل كل سورة.

الثالث عشر: النظر في السياق:

من المعلوم أن سياق الكلام يدل علىٰ مراد المتكلم، ولا يكفي مجرد اللفظ، وما يجوز حمله عليه في اللغة؛ ولذلك يعد السياق القرآني من أهم مقومات المفسر، كما ظهر ذلك من خلال اختيارات المفسرين، وهذا ما يقال عند تدبر القرآن الكريم، واستنباط هداياته.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن تدبر القرآن، وتدبر ما قبل الآية، وما بعدها، وعرف مقصود القرآن: تبين له المراد، وعرف الهدىٰ والرسالة، وعرف السداد، من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ، المجرد عن سائر ما يبين معناه، فهذا منشأ الغلط من الغالطين؛ لا سيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية، فإن هؤلاء أكثر غلطًا من المفسرين المشهورين؛ فإنهم لا يقصدون معرفة معناه، كما يقصد ذلك المفسرون»[(١)].

وقد ظهر التأكيد علىٰ استحضار السياق في وقت مبكر، فقد روي عن تلميذ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مسلم بن يسار البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفىٰ سنة (١٠٠هـ)، أنه قال -وهو ينبه إلىٰ ضرورة الاهتمام بالسياق-: «إذا حدّثت عن الله؛ فقف حتىٰ تنظر ما قبله وما بعده»[(٢)].

وكذلك ذكر الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ منهج الراغب في مفرداته، فقال: «وطريق التوصل إلىٰ فهمه: النظر إلىٰ مفردات الألفاظ من لغة العرب،

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٩٤).

(٢) فضائل القرآن، للقاسم بن سلام (ص: ٢٢٩).

ومدلولاتها، واستعمالاتها، بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيرًا في كتاب «المفردات»، فيذكر قيدًا زائدًا علىٰ أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ؛ لأنه اقتنصه من السياق»(١).

ولذلك كلما تأمل المستنبط في سياق الآيات، وطوف نظره في سباقها ولحاقها، انفتحت له جملة من معالم الهدايات، وأسرار الدلالات.

ومن شواهد ذلك، قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

يقول الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية تثبيت للوعد وإدامة له، وأنّه لا يتغيّر مع تغيّر صنوف الأعداء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ ليتبيّن أنّ المراد بالنّاس كفّارهم، وليومئ إلىٰ أنّ سبب عدم هدايتهم هو: كفرهم، والمراد بالهداية هنا: تسديد أعمالهم، وإتمام مرادهم، فهو وعد لرسوله بأنّ أعداءه لا يزالون مخذولين لا يهتدون سبيلًا لكيدِ الرّسول والمؤمنين؛ لطفًا منه تعالىٰ، وليس المراد الهداية في الدّين؛ لأنّ السياق غير صالح له»(٢).

وكذلك أورد الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إشكالًا في سورة عبس، وهو: لماذا ذكر تعالىٰ وصف العمىٰ مع أن المقام تشريف لابن أم مكتوم؟!

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٦٤).

وأجاب عنه بما استنبطه من هداية دل عليها سياق الآيات، فقال: «إنه بسبب عماه استحق مزيد الرفق والرأفة، فكيف يليق بك يا محمد أن تخصه بالغلظة؟!»[١].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[الإنسان: ٦]؛ ذهب بعض العلماء إلىٰ تضمين يشرب معنىٰ يرتوي؛ وذلك لأنّ السياق في الامتنان والتكثير؛ والري أبلغ من مجرد الشرب، كما أنه لو قال: يشرب منها، لم تدل علىٰ الري؛ فعبر عن المعنيين بغاية الاختصار، وهذا من بدائع القرآن الكريم ومحاسنه وكماله[٢].

الرابع عشر: استحضار أسماء السور:

السور القرآنية معلومة، وقد استقر الإجماع علىٰ أنها مائة وأربع عشرة سورة، وحدّ السورة أنها: قرآن يشتمل علىٰ آي ذي فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات.

وقيل: الطائفة من الآيات المسماة باسم خاص[٣]، والأول أدق.

وأسماء السور منها ما هو توقيفي، ومنها ما هو اجتهادي، والإجماع واقع علىٰ الذي استقرت عليه أسماء السور الآن، وقد جاءت نصوص تدل علىٰ أكثرها.

(١) مفاتيح الغيب (٣١/ ٥٣).

(٢) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢١).

(٣) الإتقان (١/ ١٨٦).

وأما الاجتهادي فمنه تسمية (الفاتحة) بالكافية، قال السيوطي: «لأنها تكفي في الصلاة عن غيرها، ولا يكفي عنها غيرها»[(١)].

وتسمىٰ الوافية، كان سفيان بن عيينة يسميها به لأنها وافية بما في القرآن من المعاني، وقيل: لأنها لا تقبل التنصيف؛ فإن كل سورة من القرآن لو قرئ نصفها في كل ركعة والنصف الثاني في أخرىٰ لجاز بخلافها، وقيل: لأنها جمعت بين ما لله وبين ما للعبد[(٢)].

وكذلك تسمية (التوبة) بالفاضحة؛ لأنها كشفت عن صفات المنافقين وأفعالهم وأقوالهم[(٣)].

فكل أسماء السور تتضمن دلالات علىٰ معانيها، وإشارات إلىٰ موضوعاتها، وفي ثنايا ذلك استنباط لجملة من الهدايات.

الخامس عشر: توظيف علم الوجوه والنظائر:

ظهر علم الوجوه والنظائر بهذا المصطلح متأخراً، وإن كان قد تم تناول مضمونه قديما.

قال السيوطي: «صنف فيها قديما مقاتل بن سليمان، ومن المتأخرين: ابن الجوزي، وابن الدامغاني، وأبو الحسين محمد بن عبد الصمد المصري، وابن فارس، وآخرون»[(٤)].

(١) الإتقان (١/ ١٩٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٠/ ٩٦).

(٤) الإتقان (٢/ ١٤٤).

وهو من العلوم الهامة التي توصل إلىٰ تصورات دقيقة للمفردة القرآنية[١]، لذلك اعتبره العلماء من أنواع معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلىٰ عشرين وجها وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر.

فكتب فيه العلماء منذ بداية القرن الثاني الهجري، فمن أول من صنّف فيه: عكرمة مولىٰ ابن عباس (ت ١٠٥هـ)، وعلي ابن أبي طلحة (ت ١٤٣هـ)، ومقاتل بن سليمان (ت ١٥٠) في كتابه: «الوجوه والنظائر في القرآن الكريم» وقد قيل إنه أول كتاب وصل إلينا في هذا العلم.

وألف فيه هارون بن موسىٰ الأعور (ت ١٧٠هـ) كتابه: «الوجوه والنظائر في القرآن الكريم»، ويحيىٰ بن سلام (ت ٢٠٠هـ) كتابه: «التصاريف»، وفي القرن الثالث ألف الحكيم الترمذي (ت ٢٥٥هـ) كتابه: «تحصيل نظائر القرآن»، وألف محمد بن يزيد أبو عباس المبرد (ت ٢٨٦هـ) كتابه: «ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد».

وفي القرن الخامس ألف الحسين الدمغاني (ت ٤٧٨هـ) كتابه: «الوجوه والنظائر في القرآن الكريم»، وألف أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) كتاباً أسماه: «الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيها وتنوعت معانيها».

(١) ينظر: إرشاد الحائر إلىٰ علم الوجوه والنظائر، لمحمد حسين القرني؛ وغالب الموضوع مستفاد من كتابه.

وفي القرن السادس ألف ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) كتابًا أطلق عليه اسم: «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر في القرآن الكريم».

وفي القرن السابع ألف أبو العباس أحمد بن علي المقرئ (ت ٦٥٨هـ) كتابه: «وجوه القرآن».

وفي القرن التاسع ألف أبو العماد المصري (ت ٨٨٧هـ) كتابه: «كشف السرائر في معنىٰ الوجوه والأشباه والنظائر».

وفي القرن العاشر جاء الإمام السيوطي فألف فيه كتابه: «معترك الأقران في مشترك القرآن»، وهو مطبوع بعنوان: «معترك الأقران في إعجاز القرآن». ثم اهتم المتأخرون بهذا العلم، وكتبوا فيه عدة مؤلفات.

وقد اختلفت تعريفاته، ويمكن تناوله **كما يلي:**

أولًا: لغة.

الوُجُوه: جمع وجه، وأصل الوجه مستقبل الشيء، كما قال ابن فارس: «الواو والجيم والهاء: أصلٌ واحد يدلُّ علىٰ مقابلةٍ لشيء، والوجه مستقبِلٌ لكلِّ شيء»[1].

النَّظَائِر: جمع نظير، وهو المثيل والشبيه، كما قال ابن منظور: «والنَّظائِرُ جمع نَظِيرة وهي المِثْلُ والشِّبْهُ في الأَشكال الأَخلاق والأَفعال والأَقوال، يقال: فلان نظير فلان، إذا كان مثله وشبيهه والجمع نظراء»[2].

(١) مقاييس اللغة (٦/ ٨٨)

(٢) لسان العرب (٥/ ٢١٩).

ثانيًا: تعريف الوجوه والنظائر اصطلاحًا.

أن تكون للمفردة القرآنية نظائر بوجوه مختلفة، نتعرف عليها من خلال السياقات القرآنية لكل مفردة.

ويوظف هذا العلم بمعرفة تنوع المعاني، ومن ثم استنباط الهدايات منها، ومن ذلك قول السيوطي: السوء يأتي على أوجه:

١- الشدة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

٢- والعقر: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾.

٣- والزنى: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ..مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾.

٤- والبرص: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

٥- والعذاب: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾(١).

ولفظة: (قرية) تكررت في القرآن في أكثر من خمسين موضعًا، وفي كل هذه المواضع معنى القرية واحد فقط، لكن المراد منها يختلف.

فمثلا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، القرية هنا: أريحا، أو القدس.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥]، القرية هنا: مكة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، القرية هنا: مصر.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٤١١)، بتصرف.

فمعنى القرية في كل هذه المواضع واحد، لكن المراد منها يختلف في كل موضع عن الآخر.

ومن ذلك لفظ: (أمة) جاءت في القرآن بمعنى الطائفة من الناس، وهو الغالب، وبمعنى المدة، وبمعنى الدِّين، وبمعنى الإمام في الخير.

وقد ذكر الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من ذلك، ومنها قوله: «كل ما في كتاب الله من ذكر (الأسف) فمعناه: الحزن، كقوله تعالى في قصة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، إلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥] فإن معناه أغضبونا، وأما قوله في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فقال ابن عباس: مغتاظا.

وكل ما في القرآن من ذكر (البروج) فإنها الكواكب، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، إلا التي في سورة النساء: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] فإنها القصور الطوال المرتفعة في السماء الحصينة»[1].

وكذلك: (كُتِب)، تأتي بمعنى فُرض، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] وغيرها.

وتأتي بمعنى قضى، كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [النساء: ٧٨].

وتأتي بمعنى جعل، كما في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ونحو ذلك مما يفيد في كل موضع هداية من المفردة القرآنية.

(١) البرهان (١/ ١٠٥).

السادس عشر: الاستفادة من آثار الصحابة والتابعين:

لاشك أن الصحابة والتابعين، هم أعلم الأمة بعد رسولها بكتاب ربها، فكان متحتما على كل ناظر في كتاب الله تعالى، أن يصدر من معينهم، ولا يخرج عن إجماعهم، فالصحابة -رضوان الله عليهم- قد شهدوا التنزيل، ومجموعهم فهم التأويل.

قال مسروق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لقد جالست أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجدتهم كالإخاذ[1]، فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المئة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم»[2].

وعلم «الهدايات» في إطاره العام، لابد أن يلحظ فيه ذلك، وإن كانت آحاده وتفاصيله غير متناهية، وقد تعامل جماعة من المفسرين على هذا المقتضى.

ومن ذلك قول البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر سورة النصر: «فالتسبيح الذي هو تنزيه عن النقص، إشارة إلى إكماله الدين، تحقيقًا لما كان تقدم به وعده الشريف، والاستغفار إشارة إلى أن عبادته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي هي أعظم العبادات، قد شارفت الانقضاء، ولا يكون ذلك إلا بالموت، فلذلك أمر بالاستغفار؛ لأنه يكون في خاتمة المجالس والأعمال؛ جبرًا لما لعله وقع فيها على نوع من الوهن، واعترافًا ببذل العبودية والعجز»[3].

---

(١) أي: غدير الماء، ويجمع على أُخُذ. القاموس المحيط (ص: ٣٣٠).

(٢) المدخل إلى السنن الكبرى، للبيهقي (ص: ١٦).

(٣) نظم الدرر (٢٣/ ٣١٩).

وقد استفاد هذا المعنىٰ مما استفاض عن ابن عباس وغيره من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ من أن السورة نعي للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[المائدة: ١٠٥].

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يضركم الضلال إذا كنتم مهتدين، ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته»(٢).

وهذه الهداية معلومة من مجموع النصوص، ومنها:

أثر أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «إنكم تقرؤون هذه الآية، وإنكم تضعونها علىٰ غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، أوشك الله أن يعمهم بعقابه»(٣).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[البقرة:٢٩].

---

(١) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، للفيروزآبادي (ص: ٥٢١).

(٢) أنوار التنزيل (٢/ ٢٤٧).

(٣) أخرجه أبوداود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، برقم: (٤٣٣٨)، والترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، برقم: (٢١٦٨) والنسائي في الكبرىٰ، كتاب التفسير، سورة المائدة، قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾، برقم: (١١٠٩٢) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، والسلسلة الصحيحة (٤/ ٨٨)، رقم: (١٥٦٤).

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأولىٰ المعاني بقول الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ علا عليهن وارتفع، فدبرهنّ بقدرته، وخلقهنّ سبع سموات»(١).

فاستفاد هذا المعنىٰ من مجموع ما نقل عن الصحابة والتابعين -رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- في معنىٰ الاستواء.

فقد ثبت عن أبي العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: ارتفع، وعن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: علا(٢).

ومن ذلك قول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هدايات قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[لقمان: ٦]: «لما ذكر تعالىٰ حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله، وينتفعون بسماعه.. عطف بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا علىٰ استماع المزامير والغناء، بالألحان وآلات الطرب»(٣).

وقد استفاد هذا المعنىٰ من قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث نقل الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره أنه قال: «الغناء، والذي لا إله إلا هو، يردّدها ثلاث مرّات»(٤).

(١) جامع البيان (١/ ٤٨٠).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود: ٧]، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[التوبة: ١٢٩]، (٩/ ١٢٤)، ووصله ابن حجر في تغليق التعليق (٥/ ٣٤٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣٠).

(٤) أخرجه في جامع البيان (٢٠/ ١٢٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٥٣٣)، برقم: =

السابع عشر: التدبر في فضائل السور والآيات:

في هـذه الطريقة تظهر استفادة العلماء مما ورد عـن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مـن فضائل للسـور والآيـات عنـد اسـتنباطهم الهدايـات، وبـاب الفضائل واسـع كتبت فيـه مؤلفات عديـدة، لكن دخل هـذا الباب كثير مـن الموضوع والضعيـف؛ ولذلك قـام جماعة من الباحثيـن بتمييز الضعيف مـن الصحيح، وأفـردوا الصحيح منهـا في مصنفات[1].

وتكـون الاسـتنباطات إمـا من خـلال تدبر مـا بيـن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضلـه وحض عليـه، أو ما أمـر بقراءته في بعض المناسـبات، أو ما قـرأه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسـه، أو قرنـه بين بعـض السـور والآيات.

فهذه أربعة أقسام للفضائل، وترتيبها مع أمثلتها **كما يلي:**

١- ما بيّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضله، وحض عليه.

كمـا قـال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقـرؤوا القـرآن فإنـه يأتي يـوم القيامة شـفيعًا لأصحابـه اقرؤوا الزهراوين البقرة و سـورة آل عمران فإنهمـا يأتيان يوم القيامة كأنهمـا غمامتان أو كأنهمـا غيايتان أو كأنهمـا فرقان من طير صـواف تحاجان عـن أصحابهمـا اقرؤوا سـورة البقـرة فـإن أخذها بركـة و تركها حسْـرة و لا يسـتطيعها البَطَلَة»[2].

= (٢٢٤٣٥)، والحاكـم في المسـتدرك، برقـم: (٣٥٤٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسـناد ولم يخرجـاه، ووافقه الذهبـي، وصححه ابن القيـم في إغاثة اللهفـان (١/ ٢٤٠)، والألباني في السلسـلة الصحيحة (٦/ ١٠١٧).

(١) وللباحث كتاب بعنوان: الدرر من صحيح فضائل الآيات والسور، طبع عام: (٢٠٠٣)م.

(٢) أخـرج مسـلم في صحيحـه، كتاب صـلاة المسـافرين وقصرها، بـاب فضل قـراءة القرآن وسـورة البقرة، برقـم: (٨٠٤).

وكذلــك (الإخــلاص)، فبيّن صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهــا تعدل ثلث القــرآن، وقد بيــن العلماء ما في هــذه الفضيلة مــن هدايات.

فقال شــيخ الإســلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ الْقُرْآنَ بِاعْتِبَارِ مَعَانِيهِ ثَلَاثَةُ أَثْلَاثٍ: ثُلُثٌ تَوْحِيــدٌ وَثُلُثٌ قَصَــصٌ وَثُلُثٌ أَمْــرٌ وَنَهْــيٌ، و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[الإخلاص: ١]، هِيَ صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَنَسَبُهُ، وَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»[(١)].

٢- ما أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقراءته في بعض المناسبات.

كمــا في قولــه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«من قــرأ آية الكرســي دبر كل صــلاة مكتوبة لــم يمنعه من دخــول الجنــة إلا أن يموت»[(٢)].

وكذلــك حضه علــىٰ قراءة ســورة (الكهف) يــوم الجمعــة، وخلاصة ما قيــل في هداياتها، ومناســبتها للجمعــة، أنها تتحدث عــن أربع فتن:

١. فتنــة الديــن في قصــة أصحاب الكهــف، والعصمــة منهــا بالصحبة الصالحة.

٢. وفتنــة المال في قصة صاحــب الجنتين، والعصمة منهــا بمعرفة حقيقة الدنيا.

٣. وفتنــة العلــم في قصة الخضر مــع موســىٰ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، والعصمة منها التواضع.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٢٠٧).

(٢) أخرجــه النســائي في الســنن الكبرىٰ، كتاب عمــل اليوم والليلــة، ثواب من قرأ آية الكرســي دبــر كل صلاة، برقــم: (٩٨٤٨)، والطبراني في الكبير (٨/ ١١٤)، برقــم: (٧٥٣٢)، والبيهقي في شــعب الإيمــان (٤/ ٥٦)، برقــم: (٢١٧٤)، وصححــه الألبــاني في السلســلة الصحيحة (٢/ ٦٦١)، رقم: (٩٧٢).

٤. وفتنة الملك في قصة ذي القرنين، والعصمة منها تذكر الآخرة.

وهذه الفتن يحتاج المؤمن إلىٰ معرفتها وطرق العصمة منها، فشرعت قراءتها كل جمعة، وفي اسمها ما يدل علىٰ مقصدها، وهو (الكهف) فهو عصمة مادية لمن يلجأ إليه عادة، وكذلك هذه السورة عصمة لمن قرأها وتدبرها من هذه الفتن[١].

ومن أعظم الفتن، فتنة الدجال، الذي يجمع هذه الفتن الأربع، فهو يفتن الناس في دينهم، بعلمه، وماله، وملكه.

ولذلك بين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قراءة سورة (الكهف) عصمة من الدجال، فقال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»، قال مسلم: «قال شعبة: من آخر الكهف، وقال همام: من أول الكهف»[٢].

ورغب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قراءتها يوم الجمعة؛ لكون قيام الساعة فيها، وظهور الدجال من أظهر علاماتها الأرضية.

٣- ما قرأه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه.

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أنه بات عند ميمونة، وهي خالته، فاضطجعت في عرض وسادة، واضطجع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهله في طولها، فنام حتىٰ انتصف الليل، أو قريبا منه، فاستيقظ يمسح النوم عن وجهه، ثم قرأ عشر آيات من آل عمران»[٣]، وهي تناسب صفاء الليل، والتهيئة لعمل النهار.

(١) ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي، لمصطفىٰ مسلم (ص: ١٧٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، برقم: (٨٠٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الوتر، باب ما جاء في الوتر، برقم: (٩٩٢).

وكذلك قراءة سورة (الجمعة) في صلاة الجمعة التي سميت بذلك؛ لمجيء ذكر يوم الجمعة فيها، وهي تدور حول تذكير الأمة بنعمة الله تعالىٰ عليها، بإرساله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن الله قد جعله هدايةً لها بعد الضلال، كما تنبه إلىٰ عدم التشاغل بالدنيا عن الآخرة، التي ستكون بدايتها مع القيامة في يوم الجمعة.

وكذلك سورة (المنافقون)؛ فهي تدور حول كشف أحوال المنافقين، وبيان حقيقتهم وصفاتهم؛ للحذر منهم، ونصيحتهم؛ فصلاة الجمعة مظنة لاجتماعهم فيها.

٤- ما قرن بينه من الآيات والسور في قراءاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كقراءة الأعلىٰ والغاشية؛ ففي الأولىٰ تعظيم الله تعالىٰ في ابتداء الخلق، وفي الثانية تعظيمه في انتهائه وحسابه في الآخرة.

وكذلك قراءة (السجدة والإنسان)، في فجر الجمعة.

والهدايات المستفادة من ذلك كثيرة: فسورتا السجدة والإنسان تدوران حول بيان حقيقة الخلق وأحوال الناس في الدنيا والآخرة، وتقرير البعث، والصبر، وكلها معان تناسب فجر الجمعة.

فقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة»[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، برقم: (٨٥٤).

وكذلك قرنه بين (المعوذتين) في مواضع من الصلوات والأذكار، ووجه التلازم بينهما ما بينه البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله:

«لما جاءت سورة (الفلق) للاستعاذة من شر ما خلق، من جميع المضار البدنية وغيرها، العامة للإنسان وغيره، وذلك هو جملة الشر الموجود في جميع الأكوان والأزمان، ثم وقع فيها التخصيص بشرور بأعيانها من الفاسق والساحر والحاسد، فكانت الاستعاذة فيها عامة للمصائب الخارجة التي ترجع إلىٰ ظلم الغير، والمعايب الداخلة التي ترجع إلىٰ ظلم النفس، ولكنها في المصائب أظهر، وختمت بالحسد فعلم أنه أضر المصائب، وكان أصل ما بين الجن والإنس من العداوة الحسد، جاءت سورة (الناس) متضمنة للاستعاذة من شر خاص، وهو الوسواس، وهو أخص من مطلق الحاسد، ويرجع إلىٰ المعايب الداخلة، اللاحقة للنفوس البشرية، التي أصلها كلها الوسوسة، وهي سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهي من الجن أمكن وأضر، والشر كله يرجع إلىٰ المصائب والمعايب»(١).

الثامن عشر: النظر في دلائل الرسم:

أكثر العلماء علىٰ أن الرسم القرآني توقيفي لإجماع الصحابة عليه، وذهب بعضهم إلىٰ أنه اجتهادي(٢)، وبعيدًا عن هذا الخلاف فإن ما يهمنا هو أن العلماء قد استنبطوا جملًا من الهدايات من خلال التأمل في دلائل رسم القرآن الكريم، فقد تكون الكلمة الواحدة يختلف رسمها من موضع

(١) نظم الدرر (٢٢/ ٤٢٤).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٧٩).

لآخر فيدل ذلك على هداية من الهدايات كما في كلمة نعمة، فقد وردت التاء مربوطة ومفتوحة.

وفي ذلك يقول ابن البناء المراكشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى سنة (٧٢١هـ):

«النعمة: مدت في أحد عشر موضعًا؛ أحدها: في سورة إبراهيم ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾[إبراهيم: ٣٤]، فهذه بمعنى الحاصلة بالفعل في الوجود، يدلك عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ فهذه نعمة متصلة بالظلوم الكفار في تنزلها.

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[النحل: ١٨]، وهذه قبضت تاؤها لأنها بمعنى الاسم، يدلك عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، فهذه نعمة وصلت من الرب الغفور، فهي ملكوتية ختمها باسمه تعالى، وختم الأولى باسم الإنسان»[(١)].

ومثلها كلمة: (سُنّة)، قال المراكشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ومن ذلك: (السنّة) مُدت في خمسة مواضع حيث تكون بمعنى الإهلاك والانتقام الذي ظهر في الوجود.

أحدها في الأنفال: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[الأنفال: ٣٨]، يدل على أنها للانتقام قوله تعالى قبلها: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[الأنفال: ٣٨]، وبعدها: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾[الأنفال: ٣٩].

وفي فاطر: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[فاطر: ٤٣]، يدلك على أنها كلها بمعنى الانتقام، قوله تعالى قبلها: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾[فاطر: ٤٣] وسياق ما بعدها.

(١) عنوان الدليل من مرسوم الخط والتنزيل (ص: ١١٠).

وفي المؤمن: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾[غافر: ٨٥].

فإذا كانت السُنة بمعنىٰ الشريعة، والطريقة المتبعة، فهي ملكوتية، بمعنىٰ: الاسم تقبض تاؤها، كما في الأحزاب: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾[الأحزاب: ٣٨] فهذه بمعنىٰ حكم الله و شرعه فيهم.

وكذلك ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾[الإسراء: ٧٧]، فهذه بمعنىٰ الشريعة، والطريقة المتبعة»[(١)].

وكذلك زيادة حرف في الرسم، كالواو، والألف، والياء، إنما يكون لفائدة في المعنىٰ، كما قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في فائدة زيادة الألف في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾[الأحزاب: ١٠] -:

«وزيادة الألف في قراءة من أثبتها في الحالين، وهم المدنيان، وابن عامر، وشعبة: إشارة إلىٰ اتساع هذه الأفكار، وتشعب تلك الخواطر، وعند من أثبتها في الوقف دون الوصل، وهم ابن كثير، والكسائي، وحفص: إشارة إلىٰ اختلاف الحال تارة بالقوة، وتارة بالضعف»[(٢)].

فهذه - وغيرها كثير - جملة من الهدايات الدقيقة التي استفيدت من رسم المصحف، والله أعلم.

---

(١) عنوان الدليل من مرسوم الخط والتنزيل (ص: ١١٢).

(٢) نظم الدرر (١٥/ ٣٠٣).

التاسع عشر: ربط الآيات بالواقع:

هدايات القرآن الكريم لا تنقضي، فهي معان خالدة، تزداد تجليا كلما اقتضاها الواقع، وأسعفتها اللغة، وهذا من معاني قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾[الأنعام: ١٩].

قال ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ القرآن كتاب الدهر، ومعجزته الخالدة، فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن»[(١)].

وقد نزل القرآن الكريم منجما لحكم كثيرة، منها:

معالجة الواقع، كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نزل مفرقًا منجمًا على الوقائع، بحسب ما يحتاج إليه العباد في معادهم ومعاشهم»[(٢)].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلًا عن الوزير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ القرآن لو لم ينزل منجما علىٰ حسب الحوادث، لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضىٰ الحال، ومناسبتها للمقام، وذلك من تمام إعجازها»[(٣)].

وعلماء التفسير يتفقون علىٰ أنّ العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، وهي قاعدة دالة علىٰ مراعاة الواقع، كلما تغيرت أحواله، وملابساته.

وعلىٰ ما سبق، نجد المحققين من المفسرين، في استخراجهم للهدايات، يتأثرون بالواقع؛ ربطًا وتفسيرًا، وأمثلة ذلك كثيرة منها:

---

(١) مجالس التذكير (ص: ٣٧٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٦٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠).

في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦].

يقول ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق، وأنصار السنة، ومرشدي الأمم، عندما يقومون بدعوة القرآن الكريم في عشائرهم، ويلقون منهم النفور والإعراض، والبغض والإنكار، ويجدون أنفسهم غرباء بينهم، يعاديهم من كانوا أحبابهم، ويقاطعهم أقرب الناس قرابة إليهم، ويصبح يؤذيهم من كان يحميهم، ويدافع عنهم.

في الآية بشارة لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنهم سيكون لهم على كلمة الحق مؤيدون، وفي الله محبون، وسيكون لهم ود في القلوب، ممن يعرفون وممن لا يعرفون.

وفيها أيضًا، تثبيت لهم في تلك الغربة، ووحشة الانفراد، بما يكون لهم من أنس الودّ، وأي ودٍّ هو!! ودٌّ يكون من جعل الرحمن»(١).

وظاهر جدًّا أن المفسر يستحضر معاناة الدعاة في زمانه، ويستخرج لهم هذه الهداية من الآية؛ لتثبيت قلوبهم، وتسليتهم في غربتهم، ومواساتهم في كربتهم.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أول ما يكابد قطع سرته، ثم إذا قمط قماطًا، وشد رباطًا، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام، الذي هو أشد من

(١) مجالس التذكير (ص: ٣٤١).

اللطام، ثـم يكابد الختـان، والأوجاع والأحـزان، ثم يكابد المعلـم وصولته، والمؤدب وسياسـته، والأسـتاذ وهيبتـه، ثم يكابد شـغل التزويـج والتعجيل فيـه، ثم يكابد شـغل الأولاد، والخـدم والأجناد، ثم يكابد شـغل الدور، وبناء القصـور، ثم الكبر والهـرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائـب يكثر تعدادها، ونوائـب يطول إيرادها، مـن صداع الـرأس، ووجع الأضـراس، ورمد العين، وغـم الدين، ووجع السـن، وألـم الأذن، ويكابد محنا في المـال والنفس، مثل الضـرب والحبس، ولا يمضي عليـه يوم إلا يقاسـي فيه شـدة، ولا يكابد إلا مشـقة، ثم المـوت بعد ذلك كلـه، ثم مسـألة الملك، وضغطة القـبر وظلمته، ثـم البعث، والعـرض على الله، إلى أن يسـتقر به القـرار، إمـا في الجنة وإما في النار»(١).

ومما يحسـن التنبيه إليه، أن ربـط الآيات بالواقع، لابـد أن يكون متصلًا أيضًـا بأسـباب النزول كما سـبق في نقل ابـن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبسـياق الآيات ودلالات اللغـة، وإلا تحولـت الهدايـات إلى ضـلالات، وتلاعـب بظواهر الآيات.

كمـا ذهب بعضهـم إلى أن معنـى قولـه: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[التكوير: ٥]: جمعـت في حدائـق الحيوانـات وسـجنت في الأقفاص، فنظر إلـى الواقع دون أدنـى مراعاة للدلالة التفسـيرية للآيـة، وقال في معنى قولـه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[التكويـر: ٦]: البترول المـودع في الأرض..(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٦٣).

(٢) مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية، للغماري (ص: ٢٣-٢٤).

إلىٰ آخر هذا الكلام الذي يفتقر إلىٰ أدنىٰ قواعد التفسير.

العشرون: تأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم الكونية:

النظر في مكتشفات العلوم التجريبية والكونية، ومطابقتها لظواهر القرآن الكريم، -وهو ما يسمىٰ بالإعجاز العلمي للقرآن- قد سبق الكلام عنه تفصيلًا[1]، وقد وظفه بعض العلماء في استخراج «الهدايات القرآنية»، فقد أمر الله تعالىٰ بالنظر، والتفكر، في ملكوت السموات والأرض، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس: ١٠١].

وهذا النظر والتفكر، يفتح للذهن مسارح التأملات؛ لاستخراج الهدايات، والعلماء القوّامون علىٰ كتاب الله، وسنة رسوله، لا يتلقونها بالفكر الخامد، والفهم الجامد، إنما يترقبون من سنن الله في الكون، وتدبيره في الاجتماع، ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلىٰ الزمن وأطواره، تفسير ما عجزت عنه أفهامهم.

وقال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾[فصلت: ٥٣].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله ﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك، أن القرآن تنزيل عالم الغيب، الذي هو ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: مطلع مهيمن،

(١) عند الكلام عن مجالات الهداية المختلف فيها.

يستوي عنده غيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلًا على أنه حق، وأنه من عنده، ولو لم يكن كذلك؛ لما قوي هذه القوة، ولما نصر حاملوه هذه النصرة»[(١)].

وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن الكريم، قولهم في بعض هذه الآيات: لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد، يعنون أنه آت، وأن الآتي به حوادث الزمان، ووقائع الأكوان[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه، من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب، من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة، التي لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا أن يعلمه الله به»[(٣)].

والمتدبر للآيات القرآنية، التي تتحدث عن قضية كونية، كالسماوات، والشمس، والقمر، والنجوم، والأرض، والجبال، والإنسان، وغيرها، إن كان عنده علم بها، سيظهر له من الهدايات ما لا يظهر لغيره، وهذا ظاهر عند من يعتني بهذه العلوم من المفسرين، وأمثلة ذلك كثيرة.

---

(١) الكشاف (٤/ ٢٠٧).

(٢) مجالس التذكير (ص: ٣٧٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٦).

فقد ذكر المفسرون أن حكمة تقديم الشمس علىٰ القمر إذا تواليا هي: أن الشمس هي الأصل، فإن نور القمر جزء من نور الشمس، وانتفاع أهل الأرض بالشمس، أعظم من الانتفاع بالقمر؛ لذلك قدم القمر مرة واحدة فقط، حينما كان الحديث عن السماوات، في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح:١٥ – ١٦] (١).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ:«ومن إعجاز القرآن العلمي، تسمية هذا الكائن باسم العلقة، فإنه وضع بديع لهذا الاسم؛ إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة، هو كائن له قوة امتصاص القوة من دم الأم، بسبب التصاقه بعروق في الرحم، تدفع إليه قوة الدم.

والعلقة: قطعة من دم عاقد، والمضغة: القطعة الصغيرة من اللحم، مقدار اللقمة التي تمضغ.. وعطف جعل العلقة مضغة بالفاء؛ لأن الانتقال من العلقة إلىٰ المضغة يشبه تعقيب شيء عن شيء؛ إذ اللحم والدم الجامد متقاربان فتطورهما قريب، وإن كان مكث كل طور مدة طويلة.

وخلق المضغة عظامًا، هو تكوين العظام في داخل تلك المضغة، وذلك ابتداء تكوين الهيكل الإنساني، من عظم ولحم، وقد دل عليه

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٥٩).

قوله: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾، بفاء التفريع على الوجه الذي قرر في عطف ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾ بالفاء»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأن الجلد هو الذي يوصل إحساس العذاب إلى النفس بحسب عادة خلق الله تعالى، فلو لم يبدل الجلد بعد احتراقه لما وصل عذاب النار إلى النفس»[2].

فبيّن أن الإحساس يكون بالجلد.

والشواهد على هذا الأصل كثيرة، ذكرتها في مجالات الهدايات عند الكلام عن مجال الإعجاز الكوني والنفسي.

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٢٤).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٥٨).

المبحث الثالث

أصول وقواعد وضوابط

في التعامل مع الهدايات القرآنية

أصول، وقواعد، وضوابط، في التعامل مع الهدايات القرآنية

مدخل:

يعتبر فهم القرآن الكريم وتفسيره، ومعرفة هداياته من أجلِّ وأعظم المقاصد، لأن صلاح أمور الدين والدنيا والآخرة متوقف علىٰ فهم القرآن والاهتداء بهديه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه:١٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[النساء:١٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٥ - ١٦]، وللوصول لفهم معانيه، واستخراج أحكامه، معرفة هداياته، وضع العلماء أصولًا وقواعد وضوابط محكمة، لابد من الإلمام بها لكلِّ متدبر لآيات الكتاب المجيد، مهتم بفهم معانيه، ومعرفة هداياته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية ترد إليها الجزئيات؛ ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا فيبقىٰ في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات، فيتولد فساد عظيم»[١].

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٢٠٣).

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعلوم أن الأصول والقواعد للعلوم، بمنزلة الأساس للبنيان، والأصول للأشجار، لا ثبات لها إلا بها، والأصول تبنىٰ عليها الفروع، والفروع تثبت وتتقوىٰ بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوىٰ، وينمي نماء مطردًا، وبها تُعرف مآخذ الأصول، وبها يحصل الفرقان بين المسائل التي تشتبه كثيرًا»(١).

وقال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من المهم في كل فن أن يتعلم المرء من أصوله ما يكون عونًا له علىٰ فهمه، وتخريجه علىٰ تلك الأصول؛ ليكون علمه مبنيًّا علىٰ أسس قوية، ودعائم راسخةً، وقد قيل: من حُرِم الأصول حرم الوصول»(٢)، وقال: «ينبغي للمعلم أن يعتني بالأصول والقواعد؛ لأن الأصول والقواعد هي التي يبنىٰ عليها العلم، وقد قال العلماء: من حُرم الأصول حُرم الوصول، أي: لا يصل إلىٰ الغاية إذا حرم الأصول، فينبغي أن يلقي علىٰ الطلبة القواعد والأصول التي تتفرع عليها المسائل الجزئية؛ لأن الذي يتعلم علىٰ المسائل الجزئية لا يستطيع أن يهتدي إذا أتته معضلة فيعرف حكمها؛ لأنه ليس عنده أصل»(٣).

ولقد واجهتني عدة إشكالات وأنا أدرس هذا الموضوع، حاولت معالجتها بطرق علمية محددة، إليك بيانها، **وهي تتلخص في الآتي:**

---

(١) طريق الوصول (ص: ٤).

(٢) تفسير ابن عثمين (١/ ١).

(٣) كتاب العلم (ص: ٣١٥).

١ - ليست هنالك مصادر قديمة في أصول وقواعد التفسير إلا كتب التفسير، والدراسات الحديثة قليلة، وليست محررة بطريقة علمية واحدة؛ ولذا اعتمدت علىٰ كتب التفسير، مع الرجوع لكلِّ المصادر الحديثة ومحاولة الاستفادة منها، وحتىٰ الرسائل العلمية التي درست قواعد التفسير عند عدد من المفسرين حاولت الرجوع إليها والاستفادة منها، كذلك في تحديد القواعد التي تتعلق بالهدايات.

٢ - هنالك عدم تفريق عند بعض العلماء الذين كتبوا في هذا الباب بين الأصول والقواعد والضوابط، ولقد اخترت هنا التفريق بينهما، والتزمت بهذا التفريق في الدراسة.

٣- ليست هنالك طريقة معينة عند المفسرين لصياغة القاعدة والتنصيص عليها كما هي عند الأصوليين؛ ولذا تجد تباينًا بينهم كبيرًا أحيانًا في التنصيص عليها، كما لا توجد دراسة علمية عن نشأة كل قاعدة وتطورها؛ ولذا فقد اخترت من عباراتهم ما رأيته الأمثل والأدق؛ ولو بتعديل، ولم أشر إلىٰ من ذكرها في الغالب، ولم أتطرق إلي بيان كيفية تنوع عبارات العلماء في صياغتها؛ لأنّ ذلك يتطلب استقراءً وتتبعًا دقيقًا لا تصلح مع طبيعة مثل هذه الدراسة، واكتفيت عن ذلك بذكر عبارات العلماء المختلفة أثناء التطبيق والاستدلال، وجعلت التأصيل مبينًا علىٰ القاعدة، وليس ذكر العلماء لها، واعتمدت في تثبيتها علىٰ الأدلة، ولذا ذكرت لكل أصل أو قاعدة أو ضابط أدلته، لأن به تثبت أو تنفىٰ.

٤- لم أجد منهجية محددة في ذكر الأصول والقواعد عند العلماء، ولهذا وضعت من عندي منهجيةً محددةً في إيراد الأصول والقواعد والحديث عنها، وذلك من خلال ذكر القاعدة، وشرحها، وبيان أدلتها، وتطبيقات العلماء لها، بما يعين طلاب العلم علىٰ التعامل مع هدايات القرآن بصورة سليمة؛ لأن من أدرك الأصول والقواعد والضوابط بأدلتها، ونظر في تطبيقات العلماء لها، وتمرس علىٰ ذلك، وأصبح بإمكانه استحضارها متىٰ أراد ذلك؛ تكاملت عنده ملكة التفسير بصورة قوية، وصار باستطاعته توظيف فهمه الصحيح في الوصول للهدايات، والترجيح والاختيار القويم بين ما كتبه العلماء.

٥- لم أجد حصرًا وتحديدا للأصول والقواعد، وخصوصًا تلك التي تتعلق بالتفسير وعلوم القرآن والقراءات والهدايات، ولم أجد كذلك تبويبًا وترتيبًا معينا سار عليه العلماء في ذكرهم للأصول والقواعد، ولهذا حاولت التركيز علىٰ قواعد الهدايات التي تتعلق بتوظيف معنىٰ الآية في الوصول للهداية بأوسع أبوابها، وتركت القواعد الأخرىٰ؛ لأنها خارج موضع الدراسة، وقد تناولها عدد من العلماء بالدراسة[(١)]، إلا أنه إذا كانت القاعدة مشتركة بين النوعين ذكرتها.

(١) ممن تناول الأصول والقواعد من العلماء: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في كتابه: (القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن)، والشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت في كتابه: (قواعد التفسير جمعًا ودراسة)، والشيخ الدكتور حسين بن علي الحربي في كتابه: (قواعد الترجيح عند المفسرين)، والشيخ الدكتور أحمد سلامة أبو الفتوح في كتابه: (عقود المرجان في قواعد المنهج الأمثل في تفسير القرآن من خلال أضواء البيان).

ولما كانت هذه الدراسة لا يصلح فيها استقراء وحصر جميع الأصول والقواعد للهدايات، وذلك لأن استقصاءها وحصرها يحتاج إلىٰ بحوث ومؤلفات خاصة، فإنني قد اكتفيت ببعضها، وخاصة الأصول الجامعة والقواعد المهمة في استثمار الفهم في الأصول للهداية، وقسمت هذه الدراسة إلىٰ **تمهيد، وثلاثة مطالب:**

كان **التمهيد**: في تعريف الأصل والقاعدة والضابط وبيان الفرق بينهم.

و**المطلب الأول**: في أصول التعامل مع هدايات القرآن.

و**المطلب الثاني**: في قواعد التعامل مع هدايات القرآن.

و**المطلب الثالث**: في ضوابط التعامل مع هدايات القرآن.

وإليك الحديث عن كل نوع، وهي أصول وقواعد وضوابط جليلة يستخدمها المفسر في فهمه القرآن الكريم، واستخراج هداياته الظاهرة والخفية، وما ذكرناه هنا يعتبر أهم الأصول والقواعد والضوابط التي لا يستغني عنها طالب علم مهتدٍ بهدايات الكتاب المجيد.

ولكن قبل الشروع في الحديث عن تلك الأصول والقواعد والضوابط، يحسن أن نبدأ بالتمهيد، الذي خصصناه في تعريف الأصل، والقاعدة، والضابط، مع بيان الفرق بينهم.

تمهيد: في تعريف الأصل، والقاعدة، والضابط، وبيان الفرق بينهم

المطلب الأول

تعريف الأصل والقاعدة والضابط

أولًا: الأصل لغةً واصطلاحًا:

أ - الأَصْل في اللغة:

أساس الشيء[١]، وأَسْفَلُ الشيء، يُقال: قَعَدَ في أَصْل الجَبَل، وأَصْل الحائِطِ، وقَلَعَ أَصْلَ الشَّجَرِ، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[إبراهيم: ٢٤]، ثم كثر حتّىٰ قيل: أَصل كلِّ شيءٍ: ما يستند وجود ذلك الشيءِ إليه، فالأب أصل للولد، والنَّهر أصل للجدول[٢].

وقال الرّاغب: «وأصل الشيء: قاعدته التي لو توهمت مرتفعة لارتفع بارتفاعه سائره لذلك»[٣].

وأَصُلَ الرَّأيُ أَصالةً: جاد واستحكم، وجمعه أُصول[٤].

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١/ ١٠٩).

(٢) ينظر: القاموس المحيط (ص: ١٢٤٢)، وتاج العروس (ص: ٦٨٣٧).

(٣) مفردات القرآن (ص: ٧٩).

(٤) ينظر: تاج العروس (ص: ٦٨٣٧)، لسان العرب (١١/ ١٦)، مادة: (أصل).

ب- الأَصْل اصطلاحًا:

الأصل في اصطلاح العلماء[١] يطلق ويراد به عدة معان، أبرزها الآتي:

الأول: الدليل؛ ومنه قولهم: الأصل في هذه المسألة الكتاب والسنة: أي دليلها، والكتاب والسنة أصل؛ لأن غيرهما يتفرع عنهما، وإنما كان الدليل أصلًا لبناء الأحكام عليه واستنباطها منه، مثال ذلك:

قول ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحجرات: ٩]: «هذه الآية هي الأصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأوِّلين، وعليها عوَّل الصَّحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملَّة..»[٢].

الثاني: الراجح أو الغالب الذي يكون عليه الشيء قبل عروض العوارض؛ ومنه قولهم: الأصل في الكلام الحقيقة، أي: الراجح، مثل: الأصل استواء الناس في الأحكام الشرعية إلا بدليل، والأصل في العقود والشروط الصحة، إلا ما أبطله الشارع، أو نهىٰ عنه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الأصل براءة الذمة، فمن ادعىٰ شغلها، فعليه الدليل، الأصل فرض الصوم»[٣].

---

(١) ينظر: الفروق، للقرافي (١/ ٢)، والقواعد، للمقري (١/ ١٠٧)، والمفصل في القواعد الفقهية، للبا حسين (ص: ٤٤)، والكليات (ص: ٧٢٨)، وكشاف اصطلاحات الفنون، للتهاوني (ص: ٨٨٦).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٩٦).

(٣) أضواء البيان (٦/ ١٩٩).

الثالث: القاعدة المستمرة؛ مثل: الأصل فيما على الأرض الإباحة، حتىٰ يرد دليل خاص بالمنع، الأصل في العقود الوجوب، إلَّا ما قام الدَّليل علىٰ ندبِه، ومثل: الأصل تحريم الميتة، وإباحتها للمضطر علىٰ خلاف الأصل، مثال ذلك:

قول الجصاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأصل في السنة دفن الموتىٰ»[١].

وكقول ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأصل في الأعمال الفرضيَّة الجهر، والأَصل في الأَعمال النَّفلِيَّة السِّرُّ»[٢].

وكقول الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ الاصل في المنافع الإباحة، وفي المضار الحرمة»[٣].

وكقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأصل وهو أخذ الناس بظواهرهم»[٤].

الرابع: المقيس عليه؛ وهو أحد أركان القياس الأربعة، وهي: الأصل، والفرع، والعلة، وحكم الأصل.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أركان القياس المذكورة أربعة: وهي الأصل المقيس عليه، والفرع المقيس، والعلة الجامعة بينهما، وحكم الأصل المقيس عليه»[٥]، وقال: «أما قياس الدلالة: فهو الجمع بين الأصل والفرع

(١) أحكام القرآن (٤/ ٤٩).
(٢) المصدر السابق (٤/ ٦).
(٣) مفاتيح الغيب (٥/ ٣٠٦).
(٤) التحرير والتنوير (١٠/ ٦٢).
(٥) أضواء البيان (٤/ ١٧٧).

بدليل العلة وملزومها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه، علىٰ الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء علىٰ إحياء، واعتبار الشيء بنظيره، والعلة الموجبة هي: عموم قدرته سبحانه، وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]»[١].

الخامس: ماله فرع، وليس هو فرعًا لغيره.

قال القفال الشاشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأصل: ما تفرع عنه غيره، والفرع: ما تفرع عن غيره، وهذا أسد الحدود»[٢].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والأصول مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء؛ ولهذا يقال فيه: الأصل ما ابتنىٰ عليه غيره، أو ما تفرع عنه غيره»[٣].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني علىٰ موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنىٰ عليها كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق فإنه مقيد به»[٤].

---

(١) أضواء البيان (٤/ ١٨٨).

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ١٠).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ١٥٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٤٩٩).

السادس: **ما يقابل البدل**؛ فيقال: «الماء أصل، والتيمم بدل منه»[(١)].

فخلاصة القول: إن الأصل قد يطلق عند العلماء ويراد به الدليل، والراجح أو الغالب الذي يكون عليه الشيء قبل عروض العوارض، والقاعدة المستمرة، والمقيس عليه، وماله فرع، وليس هو فرعًا لغيره، وما يقابل البدل؛ ولكن في مصطلح هذه الدراسة فالمراد بالأصل هنا ما ينبني عليه أساس الحكم، أو القاعدة المستمرة.

ثانيًا: القاعدة لغةً واصطلاحًا:

أ - القاعِدة لغةً:

وهي: أساس الشيء وأصوله، سواء كان حسيًّا، كقواعد البيت، أو معنويًّا، كقواعد الدين، أي: دعائمه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٢٦]، فالقواعد في الآيتين بمعنىٰ الأساس، وهو ما يرفع عليه البنيان، فكل ما يبنىٰ عليه غيره يسمىٰ قاعدة، وجمعها قواعد.

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾-: «أي: من أساطين البناء التي تعمِده»[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٤).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٣/ ١٩٥).

وقواعد البيت: أساسُه[(١)].

ب- القاعِدة اصطلاحًا:

قال التفتازاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القاعدة حكم كلي ينطبق على جزئياته؛ ليتعرف أحكامها منه»[(٢)].

وعرفها الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها»[(٣)].

وقال تاج الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القاعدة: الأمر الكلي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة يفهم أحكامها منه»[(٤)].

فالقاعدة على الراجح، هي: أمر كلي ينطبق على غالب جزئياته، كقول النحاة: «الفاعل مرفوع»، وقول الأصوليين: «الأمر للوجوب»، والذي يظهر أن القاعدة أكثرية لا كلية.

ثالثًا: الضابط لغةً واصطلاحًا:

أ- الضابِط لغةً:

من الضبط، فالضاد والباء والطاء أصل صحيح، يدل على لزوم الشيء وحَبْسِه، ضبط عليه، وضبطه يَضْبُط، وقال الليث رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الضّبط:

(١) ينظر: العين، للخليل (١/ ٢٧)، والمحكم والمحيط الأعظم (١/ ٥٦)، وتاج العروس (٩/ ١٥٣)، ومعجم مقاييس اللغة (٥/ ١٠٩)، ولسان العرب (٣/ ٣٥٧) مادة: (قعد)، والكشاف (٣/ ٥٦٣).

(٢) شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه (١/ ٢٠).

(٣) التعريفات (ص: ٢١٩).

(٤) الأشباه والنظائر (١/ ١١).

لـزوم شـيء لا يفارقه في كل شـيء، وضبط الشـيء: حفظه بالحـزم، والرجل ضابِط، أي: حــازم[١].

ب- الضابِط اصطلاحًا:

هنالـك من العلماء مـن لم يفرق بيـن مصطلح الضابـط والقاعدة، بل اسـتعملوهما اصطلاحيـن مترادفيـن، كالحافظ ابن رجـب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قواعده، وهنالـك مـن فرق بينهمـا، فجعلوا مجـال الضابط أضيـق من مجال القاعـدة، فهما متفقان في أن كلا منهمـا حكم كلي تندرج تحته فـروع، إلّا أنّ: الضابط يختـص ببابٍ واحـدٍ فقط، والقاعدة أوسـع مجالًا، فهـي تتعلق بعدة أبواب.

قال تـاج الديـن السـبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القاعدة: الأمـر الكلي الـذي ينطبق عليـه جزئيات كثيـرة يفهم أحكامها منـه.. والغالـب فيما اختُـص ببابٍ، وقُصد به نظـم صور متشـابهة، أن تسـمىٰ ضابطًا»[٢].

وقـال ابن نُجيـم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفـرق بيـن الضابـط والقاعـدة: أن القاعدة تجمـع فروعـا من أبـواب شـتىٰ، والضابـط يجمعها مـن باب واحـد»[٣].

وهـذا الذي قـرره العلماء هـو الذي سنسـير عليه في بحثنا هـذا بإذن الله تعالىٰ.

---

(١) ينظـر: لسـان العرب (٧/ ٣٤٠)، مـادة: (ضبط)، والصحـاح (٥/ ٢٩٢)، والمحيط في اللغة (٢/ ١٩٤)، ومقايـس اللغة (٣/ ٣٠٣).

(٢) الأشباه والنظائر (١/ ١١).

(٣) الأشـباه والنظائر (١/ ١٨٩)، وهو الذي مشـىٰ عليه السـيوطي في كتابه الأشـباه والنظائر في النحـو (١/ ٧)، وينظر: القواعد الفقهيـة، للندوي (ص: ٤٧).

المطلب الثاني

الفرق بين الأصول والقواعد والضوابط

أولًا: الفرق بين الأصول والقواعد:

هنالك من العلماء من لم يفرق بين الأصول والقواعد كما فعل الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن»، ولكن بعد التدقيق والنظر نجد أن هنالك فروقًا دقيقة **تتلخص في الآتي:**

١- الأصول سابقة ذهنيا للأحكام، فهي أدوات للتعامل مع النصوص، ومن ثم استنباط الأحكام منها، وأما القواعد فلاحقة للأحكام؛ فهي عبارة عن جمع للأحكام الجزئية الموجودة تحت كلي واحد يعمها.

٢- الأصول مأخوذة من دلالة الألفاظ، واللغة، والعقل، والاستقراء، والقواعد مأخوذة من الأحكام، وبعض النصوص.

٣- الأصول لا تستنبط منها أسرار الشرع وحكمه، بينما تدل القواعد علىٰ ذلك.

٤- الأصول لا تدل علىٰ الأحكام مباشرة، بل بواسطة الأدلة الخاصة، فقولنا: «القرآن الكريم ليس فيه اختلاف تناقض أو تفاوت»، لا يدل علىٰ مسألة بعينها إلا بواسطة الأدلة الخاصة في دفع موهم التعارض، وأما القواعد فقد تدل علىٰ الحكم مباشرة، فمن شك في صلاته قيل له: «اليقين لا يزول بالشك».

٥- الأصول عامة ومطردة، لا استثناء فيها، والقواعد أغلبية، تدخلها الاستثناءات.

٦- الأصول متعلقة بالأدلة الإجمالية، والقواعد متعلقة بأحكام فعل المكلف.

٧- أن النتيجة المستنبطة من تطبيق الأصول هي من فعل المجتهد، بخلاف النتيجة المستفادة من القواعد فقد تكون من المقلد؛ لعدم الاستنباط فيها، وإنما مجرد التنزيل على الفروع[١].

ثانيًا: الفرق بين القواعد والضوابط:

أما الضوابط فهي كالقواعد في الفرق بينها وبين الأصول، إلا أن الضوابط متعلقة بباب واحد، بينما القواعد تنتظم أبوابًا مختلفة، فالقواعد أعم وأشمل من الضوابط عند الجمهور؛ لأن الضابط يضبط موضوعًا واحدًا لا يتعداه، فمجال الضابط أضيق من مجال القاعدة.

قال السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الغالب فيما اختص بباب وقصد به نظم صور متشابهة أن يسمى ضابطًا»[٢].

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن القاعدة تجمع فروعا من أبواب شتى كالأمور بمقاصدها، والضابط يجمع فروعا من باب واحد»[٣].

(١) ينظر: الأشباه والنظائر، للسبكي (١/ ١١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) الأشباه والنظائر في النحو (١/ ٧). وينظر: الفروق، للقرافي (١/ ٢)، والقواعد، للمقري (١/ ١٠٧)، ومقدمة تخريج الفروع على الأصول للزنجاني، للدكتور محمد مدكور (ص: ٣٥)، المفصل في القواعد الفقهية، للبا حسين (ص: ٤٤)، وما بعدها.

المطلب الثالث

أصول في التعامل مع هدي القرآن الكريم

هنالك أصول عامة مطردة، ولا استثناء فيها، وضعها العلماء للتعامل مع القرآن الكريم بصورة صحيحة، في فهمه، والاهتداء بهديه، ينبغي تعلمها قبل النظر في «الهدايات القرآنية»، وهي لا تدل علىٰ الهدايات مباشرة، وإنما هي حاكمة لفهم هدايات الكتاب العزيز، **من ذلك:**

الأصل الأول: «الأصل العمل بأدلة الكتاب والسنة، ولا يقال بالنسخ إلا بدليل قاطع».

شرح الأصل: أدلة الكتاب والسنة الأصل فيهما السلامة من النسخ، والعمل بهما، واستنباط هدايتهما، ولا يقال بالنسخ إلا بدليل شرعي متأخر قاطع، يرجع إليه، والنسخ يقال به عند وجود تعارض بين دليلين، يتعذر الجمع بينهما، مع معرفة تاريخ نزول كل آية؛ لأنه لو أمكن العمل بالآيتين فلا معنىٰ للقول بالنسخ، ولا يصح القول بالنسخ لمجرد التعارض؛ لأن النسخ يثبت بدليل قاطع، ولا يثبت بالاحتمال والرأي.

أدلة الأصل: الأصل فيما أنزله الله تعالىٰ البقاء والعمل به، لأن الله أنزل كتابه ليتبع ويهتدىٰ به، فأي شيء يخالف هذا الأصل يحتاج إلىٰ دليل، قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يقول في شيء من القرآن والسنة: هذا منسوخ، إلا بيقين؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[النساء:٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٢]، فكل ما أنزل الله تعالىٰ في القرآن، أو علىٰ لسان نبيه، ففرض اتباعه، فمن قال في شيء من ذلك إنه منسوخ، فقد أوجب ألا يطاع ذلك الأمر، وأسقط لزوم اتباعه، وهذه معصية لله تعالىٰ مجردة، وخلاف مكشوف، إلا أن يقوم برهان علىٰ صحة قوله، وإلا فهو مفتر مبطل.. وكل ما ثبت بيقين فلا يبطل بالظنون، ولا يجوز أن تسقط طاعة أمر أمرنا به الله تعالىٰ ورسوله إلا بيقين نسخ، لا شك فيه، فإذا قد صح ذلك وثبت، فلنقل في الوجوه التي بها يصح نسخ الآية، أو الحديث، فإذا عدم شيء من تلك الوجوه، فقد بطلت دعوىٰ من ادعىٰ النسخ في شيء من الآيات، أو الأحاديث»[(١)].

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأحكام إذا ثبتت علىٰ المكلف؛ فادعاء النسخ فيها لا يكون إلا بأمر محقق؛ لأنّ ثبوتها علىٰ المكلف أولًا محقق؛ فرفعها بعد العلم بثبوتها لا يكون إلا بمعلوم محقق»[(٢)].

تطبيقات العلماء للأصل: قد قام علماء التفسير بتطبيق هذا الأصل في كتبهم بصورة واسعة، وبينوا أن ما ثبت من حكم في كتاب الله بيقين لا يبطل

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٤/ ٤٨٤).

(٢) الموافقات (٣/ ٣٣٩).

بظن، وأن الأصل في الدليل أنه محكم يجب العمل به، وأن الله أنزله ليهدي للتي هي أقوم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث عن اختلاف العلماء في آية الأنفال من سورة الأنفال، هل هي منسوخة أم محكمة؟ وهو يرجح بهذا الأصل عدم النسخ، فيقول: «وغير جائز أن يحكم بحكم قد نزل به القرآن أنه منسوخ، إلا بحجة يجب التسليم لها، فقد دللنا في غير موضع من كتبنا على أن لا منسوخ إلا ما أبطل حكمه حادثُ حكمٍ بخلافه، ينفيه من كل معانيه، أو يأتي خبرٌ يوجب الحجةَ، أن أحدهما ناسخُ الآخرَ»(١).

وقال أبو جعفر النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهو يرد على من يقول أن آية سورة البقرة ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾[البقرة: ٢٢١] منسوخة، فقال في أثناء رده على أن الآية محكمة: «القياسات، والتمثيلات، لا يؤخذ بها في الناسخ والمنسوخ، وإنما يؤخذ الناسخ والمنسوخ بالتيقن والتوقيف»(٢).

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث عن أقوال العلماء في عدة المتوفى عنها زوجها حولًا كاملًا، بين من يرى النسخ، ومن يرى أنها محكمة، ورجح عدم النسخ بهذا الأصل، ثم قال: «إن النسخ خلاف الأصل، فوجب المصير إلى عدمه بقدر الإمكان»(٣).

---

(١) جامع البيان (١٣/ ٣٨٢).

(٢) الناسخ والمنسوخ (ص: ٥٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٣/ ٣٩٠).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يؤكد على هذا الأصل في عدة مواضع في كتابه: «إن دعوى النسخ والتخصيص تحتاج إلى دليل يجب الرجوع إليه»(١).

وذلك لأن الأصل في الدليل أنه محكم غير منسوخ، وهنالك تطبيقات واسعة للعلماء لهذا الأصل العظيم.

الأصل الثاني: «القرآن الكريم أنزله الله عَزَّوَجَلَّ؛ لهداية الخلق، وإرشادهم للتي هي أقوم».

شرح الأصل: القرآن الكريم من أوله إلى آخره، أنزله الله تعالى لهداية العباد للتي هي أقوم، في كل وقت، فلا طريق للوصول إلى الحق والهدى والرشد بغيره، ومن ظن الهداية بغيره متحققة، فقد ضل ضلالًا مبينًا.

أدلة الأصل: قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٢١٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجْده؛ فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدي ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم.. فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدىٰ به؛ ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس، ولا بذوق ووجد ومكاشفة، ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل، فضلًا عن أن يقول: فيجب تقديم العقل»[(١)].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير هذا الأصل: «ما أعظمَ هذه القاعدةَ، وما أحكم هذا الأصل العظيم، الذي نص الله نصًّا صريحًا علىٰ عموم ذلك، وعدم تقيد هذا الهدىٰ بحالة من الأحوال، فكل حالة هي أقوم، في العقائد، والأخلاق، والأعمال، والسياسات، الكبار، والصغار، والصناعات، والأعمال الدينية، والدنيوية، فإن القرآن يهدي إليها، ويرشد إليها، ويأمر بها، ويحث عليها، معنىٰ ﴿أَقۡوَمُ﴾ أيْ: أكرم، وأنفس، وأصلح، وأكمل استقامة، وأعظم قيامًا وصلاحًا للأمور..»، ثم بعد شرح جميل قال: «وتفصيل هذا الأصل لا يمكن استيفاؤه في هذه القواعد الإجمالية، فكل التفاصيل الواردة في الكتاب والسنة، وما تقتضيه المصالح، تفصيلًا لهذا الأصل المحيط، وبهذا وغيره تبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح، أو معنىٰ نافع، أو طريق صلاح ينافي القرآن، والله وليُّ الإحسان»[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٢٨).

(٢) القواعد الحسان (ص: ٩٧، ٩٨)، عنده كلام نفيس يرجع إليه لمزيد الفائدة.

تطبيقات العلماء للأصل: فكل ما ذكره العلماء من هدايات من خلال كتبهم وأصلوا له يدخل ضمن تطبيقاتهم لهذا الأصل العظيم، بل ما قام علم التفسير إلا لتحقيق ذلك، فهو يهدي للتي هي أقول في التوحيد والعبادات والمعاملات والأخلاق وسائر مناحي الحياة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث عن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩]: «وهذه الآية الكريمة أجمل الله جَلَّ وَعَلَا فيها جميع ما في القرآن من الهدىٰ إلىٰ خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها علىٰ وجه الكمال لأتينا علىٰ جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدىٰ إلىٰ خيري الدنيا والآخرة، ولكنَّا إن شاء الله تعالىٰ سنذكر جملًا وافرة في جهات مختلفة كثيرة مِن هدىٰ القرآن للطريق التي هي أقوم بيانًا لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهًا ببعضه علىٰ كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفَّار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة..»[(١)].

ثم ذكر - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - تفصيلات قد يطول ذكرها في التوحيد والطلاق وتعدد الزوجات وغيرها.

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[البقرة: ٤٠]، «انتقال من موعظة المشركين إلىٰ موعظة الكافرين من أهل الكتاب، وبذلك تتم موعظة الفرق المتقدم ذكرها، لأن فريق المنافقين لا يعدو أن يكونوا من

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٣/ ١١١).

المشركين أو من أهل الكتاب اليهود، ووُجه الخطاب هنا إلىٰ بني إسرائيل وهم أشهر الأمم المتدينة ذات الكتاب الشهير والشريعة الواسعة، وذلك لأن هذا القرآن جاء يهدي للتي هي أقوم فكانت هذه السورة التي هي فسطاطه مشتملة علىٰ الغرض الذي جاء لأجله»[١].

الأصل الثالث: «القرآن الكريم جعله الله تعالىٰ تبيانًا لكلِّ شيء».

شرح الأصل: القرآن الكريم جعل الله فيه كل ما كانت الأمة في حاجة إليه، من معرفة الحق والباطل، والحلال والحرام، والثواب والعقاب، وما يحتاجه الناس إليه، في أمر دينهم ودنياهم، ومعاشهم ومعادهم، «فلم يبق من العلوم النافعة علم إلا بيَّنه لهم، فإن القرآن تبيان لكل شيء، فعلوم الأصول، وعلوم الفروع والأحكام، وعلوم الأخلاق والآداب، وعلوم الكون، وكل ما يحتاجه الخلق من ذلك اليوم، إلىٰ أن تقوم الساعة، ففي القرآن بيانه، والإرشاد إليه، وهو الذي إليه المرجع في جميع الحقائق الشرعية والعقلية، ومحال وممتنع أن يأتي علم صحيح، لا محسوس، ولا معقول، ينقض شيئا مما جاء به القرآن؛ فإنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]»[٢].

أدلة الأصل: قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

قال الجصاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني به -والله أعلم- تبيان كل شيء من أمور الدين، بالنص، والدلالة، فما من حادثة، جليلة ولا دقيقة، إلا ولله فيها حكم»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٤٧).

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير الأحكام، للسعدي (٢/ ٢٥).

(٣) أحكام القرآن (٥/ ١٠).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: «في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبيين، بألفاظ واضحة، ومعان جلية.. فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدىً لهم، يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة»(١).

وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام:٣٨].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: في اللوح المحفوظ، فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث، وقيل: أي: في القرآن، أي: ما تركنا شيئًا من أمر الدين، إلا وقد دللنا عليه في القرآن؛ إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة، يتلقى بيانها من الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، فأجمل في هذه الآية وآية النَّحْلِ ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره، إما تفصيلًا وإما تأصيلًا؛ وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]»(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٤٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤٢٠).

وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع، من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم»(١).

وقال أيضًا: «أنزل في هذا القرآن كل علم، وكلّ شيء قد بين لنا في القرآن، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]»(٢).

تطبيقات العلماء للأصل: قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة، إلا وفي كتاب الله الدليل على سبل الهدى فيها، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]»(٣).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن القرآن أنزله الله تعالى كتابًا؛ لصلاح أمر الناس كافة، رحمة لهم؛ لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية، فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد، والحقد، والكبر.

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٩٤).

(٢) ينظر: جامع البيان (١٧/ ٢٧٩)، تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٩٧).

(٣) أحكام القرآن (١/ ٢١).

وأما الصلاح الجماعي، فيحصل أولا من الصلاح الفردي، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد علىٰ ذلك، وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض، علىٰ وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات، ومواثبة القوىٰ النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

وأما الصلاح العمراني، فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات، والأقاليم، بعضهم مع بعض، علىٰ وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمىٰ هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[المائدة:٣]: «فإكمال الدين هو إكمال البيان المراد لله تعالىٰ.. بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنّة، كافيًا في هدي الأمّة، في عبادتها، ومعاملتها، وسياستها، في سائر عصورها، بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدين وافيًا في كلّ وقت بما يحتاجه المسلمون»[٢].

وقد تحدث السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أهمية هذه القاعدة فقال: «ومتىٰ علم العبد أن القرآن فيه تبيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح، مبين لها،

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٨).

(٢) المصدر السابق (٦/ ١٠٢).

حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزلها علىٰ كل واقع وحادث، سابق أو لاحق، ظهر له عظم مواقعها، وكثرة فوائدها، وثمرتها»[١].

الأصل الرابع: «القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم، وبعضه متشابه، باعتبار ثالث»[٢].

شرح الأصل: القرآن الكريم عند اعتبار معناه لا يخلو من ثلاث حالات:

١- محكم علىٰ الاطلاق، والمراد: أنه متقن ممتنع عن الخلل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، في غاية من الإحكام، ونهاية في الانتظام، أخباره صدق، وأحكامه عدل، وأوامره خير، ونواهيه صلاح، وإصلاح للفرد والجماعة.

٢- ومتشابه علىٰ الاطلاق، والمراد به: «تماثل الكلام وتناسبه، بحيث يصدق بعضه بعضًا، فإذا أمر بأمر، لم يأمر بنقيضه في موضع آخر؛ بل يأمر به، أو بنظيره، أو بملزوماته، وإذا نهىٰ عن شيء، لم يأمر به في موضع آخر؛ بل ينهىٰ عنه، أو عن نظيره، أو عن ملزوماته، إذا لم يكن هناك نسخ»[٣].

فالتشابه هنا: هو تماثل الكلام وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضا.

---

(١) القواعد الحسان (ص: ٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٦١ ٣).

٣- ومحكم من وجه ومتشابه من وجه، والمراد به: «مشابهة الشيء لغيره من وجه، مع مخالفته له من وجه آخر؛ بحيث يشتبه على بعض الناس أنه هو أو هو مثله، وليس كذلك، والإحكام هو الفاصل بينهما بحيث لا يشتبه أحدهما بالآخر»[(١)].

المحكم والمتشابه في معناهما العام لا ينافي ولا يناقض أحدهما الآخر؛ بل تشترك فيهما جميعًا آيات القرآن، فالقرآن كله محكم، بمعنى: متقن لا يتطرق إليه خلل، تتفق معانيه، وإن اختلفت ألفاظه، ومتشابه يصدق بعضه بعضًا، دون اختلاف، أو تضاد، ويشبه بعضه بعضا بلاغة وحسنًا، حتى لا يستطيع الإنسان أن يفاضل بين حروفه وكلماته، فهما معنيان متفقان على القرآن حكمًا ووصفًا.

والمحكم والمتشابه في معناهما الخاص؛ فالمراد بالآيات المحكمات أنها واضحة الدلالة على مراد الله، ليس فيها اشتباه أو إشكال، ولا تقبل تأويلًا أو احتمالًا، والآيات المشتبهات: هي التي لا يتضح معناها مباشرة، ويشبه لفظه غيره، وتشتبه معانيه أحيانًا مع آيات أخرى، فهي مأخوذة من المعنى العام للتشابه، وهو مشابهة الشيء لغيره من وجه، مع مخالفته له من وجه آخر، فالآيات المتشابهات هي التي تشبه هذا وتشبه هذا، فتكون محتملة معنيين أو أكثر، خلافًا للآيات المحكمات.

أدلة الأصل: جاءت أدلة تصف القرآن كله بالإحكام، وأدلة أخرى تصفه بالتشابه، وأدلة أخرى جعلت بعضه محكمًا وبعضه متشابهًا، «فقد

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٦٢).

وصفه الله تعالىٰ بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاثة، فوصفه بأنه محكم في عدة آيات، قال تعالىٰ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ومعنىٰ ذلك أنه في غاية الإحكام، ونهاية الانتظام، فأخباره كلها حق وصدق، لا تناقض فيها ولا اختلاف، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[النساء:٨٢]، وأوامره كلها خير، وبركة، وصلاح، ونواهيه متعلقة بالشرور والأضرار، والأخلاق الرذيلة، والأعمال السيئة، فهذا إحكامه.

ووصفه بأنه متشابه في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾[الزمر:٢٣] أي: متشابها في الحسن والصدق والحق، ووروده بالمعاني النافعة المزكية للعقول، المطهرة للقلوب، المُصلحة للأحوال، فألفاظه أحسن الألفاظ ومعانيه أحسن المعاني.

ووصفه بأن بعضه محكم، وبعضه متشابه، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾[آل عمران:٧]، فهنا وصفه بأن بعضه هكذا، وبعضه هكذا، وأن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلىٰ المحكم، فيصير كله محكمًا»[(١)].

ومن هنا كان لابد من استصحاب هذا الأصل عند النظر في هدايات القرآن حتىٰ لا يضل العبد من خلال عدم رد المتشابه إلىٰ المحكم.

تطبيقات العلماء للأصل: وقد تكلم العلماء كثيراً في الآيات التي تمسك بها بعض الفرق المنحرفة، من جبرية، وقدرية، ومعتزلة، وردوها

---

(١) القواعد الحسان (ص: ٣٩).

علىٰ المحكم، وبينوا كيف يتعامل الدارس مع الآيات المتشابهات، بل بينوا الحكمة من إنزالها، وكيف كان السلف يتعاملون معها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان منهج العلماء في التعامل مع المتشابهات: «ردوا تأويل المتشابهات، علىٰ ما عرفوا من تأويل المحكمة، التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضًا، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر»[(١)].

وتعامل العلماء مع الآيات المتشابهة حتىٰ في الأحكام بهذه المنهجية.

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[البقرة: ٢٣٧]، «فقد اختلف السلف فيه، فقال علي، وجبير بن مطعم، وابن المسيب، وقتادة: هو الزوج.. وقال مالك: هو الأب في حق البكر، وهو رواية عن ابن عباس، ولا شك بأن قوله: ﴿بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ محتمل للوجهين اللذين تأولهما السلف عليهما، فينظر في أقرب الوجهين إلىٰ معاني الشرع والأصول المحكمة، التي ترد المتشابهات إليها..»[(٢)].

وقال السمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[النساء: ٦] قال: «هو قرض، ثم يرد عليه إذا كبر، فقال: ألا ترىٰ أنه قال في سياق الآية: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾.. وأمّا من قال: إنه لا يجوز أكله؛ لأن الله تعالىٰ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠).

(٢) أحكام القرآن (١/ ١٢٦).

ﱡظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﱠ[النساء: ١٠] وتلك الآية محكمة، وهذه من المتشابهة؛ لأنه يحتمل التأويل أنهم يأكلون علىٰ وجه القرض أو علىٰ وجه الإباحة فيرد حكم المتشابه إلىٰ المحكم»[١].

وغيرها من تطبيقات كثيرة.

الأصل الخامس: «القرآن الكريم ليس فيه اختلاف تناقض أو تفاوت».

شرح الأصل: القرآن الكريم ليس فيه اختلاف يؤدي إلىٰ التناقض والاضطراب، في أحكامه، وأخباره، أو اختلاف تفاوت من جهة البلاغة وعدمها، «إذ لابد للكلام إذا طال من مرذول، وليس في القرآن إلا بليغ»[٢].

فهو متآلف الألفاظ، متسق المعاني، محكم البيان، «يصدق بعضه بعضًا، فإذا أمر بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر؛ بل يأمر به أو بنظيره، أو بملزوماته، وإذا نهى عن شيء لم يأمر به في موضع آخر؛ بل ينهىٰ عنه أو عن نظيره أو عن ملزوماته إذا لم يكن هناك نسخ، وكذلك إذا أخبر بثبوت شيء لم يخبر بنقيض ذلك؛ بل يخبر بثبوته أو بثبوت ملزوماته، وإذا أخبر بنفي شيء لم يثبته، بل ينفيه، أو ينفي لوازمه، بخلاف القول المختلف الذي ينقض بعضه بعضًا، فيثبت الشيء تارة، وينفيه أخرىٰ، أو يأمر به، وينهي عنه في وقت واحد، ويفرق بين المتماثلين، فيمدح أحدهما، ويذم الآخر، فالأقوال المختلفة هنا هي المتضادة، والمتشابهة هي المتوافقة»[٣].

---

(١) تفسير السمرقندي (١/ ٣٩٥).

(٢) زاد المسير (٢/ ١٤٥).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٦١).

أدلة الأصل: قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قال البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: ولو كان من كلام البشر كما تزعم الكفار؛ لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، من تناقض المعنىٰ، وتفاوت النظم، وكان بعضه فصيحًا، وبعضه ركيكًا، وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل، ومطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض، علىٰ ما دل عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية»[١].

وقال البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: في المعنىٰ، بالتناقض والتخلف عن الصدق، في الإخبار بالمغيبات، أو بعضها، وفي النظم بالتفاوت في الإعجاز»[٢].

ومن هنا إذا وجد الإنسان ما ظاهره التعارض والاختلاف فليعتقد يقينًا خلاف ذلك، ثم يبحث عن وجه التوفيق.

قال ابن عطية الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإن عَرَضَت لأحدٍ شبهةٌ، وظن اختلافًا في شيء من القرآن، فالواجب أن يَتَّهِمَ نظره، ويسأل من هو أعلم منه»[٣].

قال ابن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن القرآنّ لا يكذّب بعضه بعضًا، ولا ينقض بعضه بعضًا، ما جهل الناس من أمرٍ، فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم!!

(١) أنوار التنزيل (١/ ٤٨٩).

(٢) نظم الدرر (٢/ ٢٨٧).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٩٩).

وقرأ: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:٨٢]، قال: فحقٌّ علىٰ المؤمن أن يقول: كل من عند الله، ويؤمن بالمتشابه، ولا يضرب بعضه ببعض، وإذا جهل أمرًا ولم يعرف أن يقول: الذي قال الله حق، ويعرف أن الله تعالىٰ لم يقل قولا وينقضه»[١].

تطبيقات العلماء للأصل: قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما ذهب إليه بعض الزنادقة المعاندين، من أنّ فيه أحكامًا مختلفة، وألفاظًا غير مؤتلفة، فقد أبطل مقالتهم علماء الإسلام، وما جاء في القرآن من اختلاف، في تفسير، وتأويل، وقراءة، وناسخ، ومنسوخ، ومحكم، ومتشابه، وعام، وخاص، ومطلق، ومقيد، فليس هو المقصود في الآية، بل هذه من علوم القرآن الدالة علىٰ اتساع معانيه، وإحكام مبانيه»[٢].

ولهذا قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الآيات القرآنية التي يفهم منها قصَّار النظر التعارض: يجب حمل كل نوع منها علىٰ ما يليق، ويناسب المقام، كل بحسبه، وهذا في مواضع متعددة من القرآن.

منها: الإخبار في بعض الآيات أن الكفار لا ينطقون، ولا يتكلمون يوم القيامة، وفي بعضها: أنهم ينطقون، ويحاجُّون، ويعتذرون، ويعترفون، فمحمل كلامهم ونطقهم أنهم في أول الأمر يتكلمون ويعتذرون، وقد ينكرون ما هم عليه من الكفر، ويقسمون علىٰ ذلك، ثم إذا ختم علىٰ ألسنتهم وأفواههم، وشهدت عليهم جوارحُهم بما كانوا يكسبون، ورأوا أن الكذب غير مفيد

---

(١) جامع البيان (٨/ ٥٦٧).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٢٤٨).

لهم، أُخْرِسوا، فلم ينطقوا، وكذلك الإخبار بأن الله تعالىٰ لا يكلمهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، مع أنه أثبت الكلام لهم معه، فالنفي واقع علىٰ الكلام الذي يسرهم، ويجعل لهم نوع اعتبار..

ومن ذلك الشفاعة فإنه أثبتها في عدة مواضع، ونفاها في مواضع من القرآن، وقيدها في بعض المواضع بإذنه، ولمن ارتضىٰ من خلقه، فتعين حمل المطلق علىٰ المقيد، وأنها حيث نفيت، فهي الشفاعة بغير إذنه، ولغير من رضي الله قوله وعمله، وحيث أثبتت، فهي الشفاعة التي بإذنه لمن رضيه الله وأذن فيه..

ومن ذلك النهي في كثير من الآيات عن موالاة الكافرين، وعن مُوادَّتهم، والاتصال بهم، وفي بعضها الأمر بالإحسان، إلىٰ من له حق علىٰ الإنسان منهم، ومصاحبته بالمعروف، كالوالدين والجار ونحوهم، فهذه الآيات العامات من الطرفين قد وضحها الله غاية التوضيح في قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الممتحنة: ٨، ٩]، فالنهي واقع علىٰ التولي والمحبة لأجل الدين، والأمر بالإحسان والبر واقع علىٰ الإحسان؛ لأجل القرابة، أو لأجل الجيرة، أو الإنسانية، علىٰ وجه لا يُخل بدين الإنسان..»[1].

---

(١) القواعد الحسان (ص: ٢٠-٢٣)، هنالك كلام قيم يرجع إليه.

الأصل السادس: «القرآن الكريم معانيه تجري مع الزمان والمكان والأحوال لا تتغير، وإنما التغير يكون فقط في أحكامه، الراجعة للعرف والعوائد»[١].

شرح الأصل: الأصل في معاني القرآن وهدايته أنها تكون واحدة لا تتغير بتغير الزمان، والمكان، والحال، فما فهم الأوائل في العقيدة، والأخلاق، والعبادات، من صلاة وزكاة وصيام وحج، وغيرها من الشرائع الراتبة، يجب أن يفهمه، ويكون عليه الأواخر، فالمعروف في كل زمان واحد، والمنكر كذلك واحد لا يتغير، والواجب علىٰ الآخرين نظير الواجب علىٰ الأولين من هذه الأمة، ولكن هنالك أحكام يردهم الله تعالىٰ فيها إلىٰ العرف، والعادة، والمصلحة، المتعينة في الوقت الذي يعيشونه، فهذه هي التي تختلف باختلاف الأمكنة، والأزمنة، والأحوال.

أدلة الأصل: قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠]، أي: والذين اتبعوهم علىٰ ما كانوا عليه علمًا وعملًا، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة: ١١٩].

---

(١) ينظر: القواعد الحسان (ص: ٥٩)، وهو نص عليها بقوله: «القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد».

تطبيقات العلماء للأصل: قال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦]، فكل ما كان فيه توقير وإكرام للذات، في كل زمان، من الأقوال الكريمة، والأفعال الحميدة يشمله الأمر بالإحسان.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمر بالإحسان إلىٰ الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعين لعباده نوعًا خاصًّا من الإحسان والبر؛ ليعم كل ما تجدد من الأوصاف، والأحوال، فقد يكون الإحسان إليهم في وقت، غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص، دون حق الشخص الآخر، فالواجب الذي أوجبه الله: النظر في الإحسان المعروف في وقتك ومكانك، في حق والديك، ومثل ذلك: ما أمر به من الإحسان إلىٰ الأقارب، والجيران، والأصحاب، ونحوهم، فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده، إلىٰ ما يتعارفه الناس إحسانًا، وكذلك ضده من العقوق والإساءة، ينظر فيه إلىٰ العرف، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩]، وكقوله تعالىٰ: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:٢٥]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فرد الله الزوجين في عشرتهما، وأداء حق كل منهما علىٰ الآخر، علىٰ المعروف المتعارف عند الناس، في بلدهم، وحالهم، وعرفهم؛ وذلك يختلف اختلافًا عظيمًا، لا يمكن إحصاؤه عدًّا، فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة، وهذا من آيات القرآن، وبراهين صدقه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾[الأعراف: ٢٦]، فقد أباح لعباده الأكل والشرب واللباس، ولم يعين شيئًا من الطعام والشراب واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال، فيتعلق بها أمره حيث كانت، ولا ينظر إلىٰ ما كان موجودًا منها وقت نزول القرآن فقط.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال: ٦٠]، ومن المعلوم: أن السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن، غير نوع القوة التي وجدت بعد ذلك، فهذا النص يتناول كل ما يستطاع من القوة، في كل وقت، وبما يناسبه ويليق به.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مفهوم القوة: «فاتّخاذ السيوف، والرماح، والأقواس، والنبال، من القوة في جيوش العصور الماضية، واتّخاذ الدبابات، والمدافع، والطيارات، والصواريخ، من القوّة في جيوش عصرنا»[(١)].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية، وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك، مما يعين علىٰ قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة، والآلات، من المدافع، والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون، والقلاع، والخنادق، وآلات الدفاع.. ولهذا قال

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ٣٩٥).

تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته، فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابًا منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورًا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتىٰ إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة، وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب»[(١)].

وكذلك لما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، لم يعين لنا نوعًا من التجارة ولا جنسًا، ولم يحدد لنا ألفاظًا يحصل بها الرضىٰ، وهذا يدل علىٰ أن الله أباح كل ما عد تجارة، ما لم ينه عنه الشارع، وأن ما حصل به الرضىٰ، من الأقوال، والأفعال، انعقدت به التجارة، فما حقق الرضىٰ من قول أو فعل، انعقدت به المعاوضات، والتبرعات، وفي القرآن من هذا النوع شيء كثير[(٢)].

الأصل السابع: «الأوامر الربانية في القرآن الكريم، إما لمكلف لم يقم بها؛ فعليه القيام، وإما لقائم بها؛ فعليه تحقيق الكمال والثبات»[(٣)].

شرح الأصل: من الأصول المطردة في جميع الأوامر القرآنية: أن ما أمر الله به في كتابه من فعل أو كف، إما أن يوجه الخطاب فيها إلىٰ من لم يقم بها، فهذا أمر له بالقيام بها، وإما أن يوجه لمن هو قائم بها، فهذا أمر له بتصحيح ما وجد منه، مع طلب الزيادة، والكمال، والدوام.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٣٢٤).

(٢) ينظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص: ٤١) بتصرف.

(٣) المصدر السابق (ص: ١٠٣) بتصرف.

دليل الأصل لمن لم يقم بالأوامر الربانية: قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[النساء:٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾[الأحزاب: ٥٣].

ودليل الأصل للقائم بها ومطالب بالكمال والدوام قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء: ١٣٦]، «فإنه أمرهم بما يصحح، ويكمل إيمانهم، من الأعمال الظاهرة، والباطنة، وكمال الإخلاص فيها، ونهاهم عما يفسدها وينقصها»[١].

وكقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠].

وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويصوموا رمضان أمر بتكميل ذلك، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل، والنهي عن كل مفسد وناقض لذلك العمل.

---

(١) القواعد الحسان (ص: ٧٨).

وكذلك أمره لهم بالتوكل، والإنابة، ونحوها من أعمال القلوب، هو أمرٌ بتحقيق ذلك، وإيجاد ما لم يوجد منه.

تطبيقات العلماء للأصل: هذا الأصل نجده واضحًا في كلام العلماء في الخطاب الموجه للمؤمنين، ولغير المؤمنين، بل حتىٰ في الخطاب الموجه للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما نجدهم استصحبوا هذا الأصل حتىٰ في الآيات التي جاء الخطاب فيها عامًا للناس جميعًا، وبينوا أنه يصلح أن يكون لمن هو قائم؛ ليستمر ويزيد، ومن ليس قائمًا؛ ليدخل في سلك القائمين، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالناس يعم الموجودين وقت النزول لفظًا، ومن سيوجد، لما تواتر من دينه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مقتضىٰ خطابه، وأحكامه، شامل للقبيلين، ثابت إلىٰ قيام الساعة، إلا ما خصّه الدليل، وما روي عن علقمة والحسن أن كل شيء نزل فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فمكي، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فمدني، إن صح رفعه، فلا يوجب تخصيصه بالكفار، ولا أمرهم بالعبادة، فإن المأمور به، هو القدر المشترك، بين بدء العبادة، والزيادة فيها، والمواظبة عليها، فالمطلوب من الكفار هو الشروع فيها، بعد الإتيان بما يجب تقديمه من المعرفة، والإقرار بالصانع، فإن من لوازم وجوب الشيء وجوب ما لا يتم إلا به، وكما أن الحدث لا يمنع وجوب الصلاة، فالكفر لا يمنع وجوب العبادة؛ بل يجب رفعه والاشتغال بها عقيبه، ومن المؤمنين ازديادهم وثباتهم عليها»[١].

---

(١) أنوار التنزيل (١/ ٢١٨).

الأصل الثامن: «الأصل في خطاب القرآن الكريم العموم».

شرح الأصل: الأصل في خطاب القرآن أنه لعموم الناس؛ ولذا يجب حمل نصوص الكتاب والسنة على العموم، ولا يقال بالتخصيص إلا بدليل، وإذا جاء النص عامًّا، والسبب خاصًّا، فالعبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب، والاعتبار دائما بعموم المعنى، لا بخصوص المخاطب.

أدلة الأصل: قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان:١]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩]، فالوحي جاء لعموم الناس، فلا يثبت التخصيص إلا بدليل، ولا يصح التخصيص بالاحتمال، حتى ما كان خطابًا للنبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٢١].

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن كلام الله تعالى إذا ورد، هل يحمل على العموم المطلق أو الغالب من المتناول فيه؟ والصحيح حمله: على العموم المطلق»[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأصل مشاركة أُمَّتِه له في الأحكام، إلا ما خصَّه الدليلُ»[٢].

وقال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يحل لأحد أن يقول في شيء فعله ﷺ إنه خصوص له، إلا بنص»[٣].

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ٤٧٠).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٦٧).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٤٦٩).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث عن قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) التي تتفرع عن هذا الأصل: «هذه القاعدة نافعة جدًا، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير، وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع الغلط، والارتباك الخطير، وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتىٰ راعيت القاعدة حق الرعاية، وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول، إنما هو علىٰ سبيل المثال؛ لتوضيح الألفاظ، وليست معاني الألفاظ، والآيات مقصورةً عليها.

فقولهم: نزلت في كذا وكذا، معناه: أن هذا مما يدخل فيها، ومن جملة ما يراد بها، فإن القرآن - كما تقدم - إنما نزل لهداية أول الأمة وآخرها، حيث تكون، وأنىٰ تكون.. وإذا أمر بشيء نظرت إلىٰ معناه، وما يدخل فيه، وما لا يدخل، وعلمت أن ذلك الأمر موجه إلىٰ جميع الأمة، وكذلك في النهي.

ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله، أصلَ كل الخير والفلاح، والجهل بذلك، أصل كل الشر والخسران، فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون علىٰ معرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله والقيام بها»[1].

تطبيقات العلماء لهذا الأصل: قال أبو بكر الجصاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ٤]: «فتأول بعضهم قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ علىٰ الكلاب خاصة، وتأوله بعضه علىٰ الكلاب وغيرها، ومعلوم أن قوله

(١) القواعد الحسان (ص: ٤).

تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ شامل للطير والكلاب، ثم قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ محتمل أن يريد ذكره من الجوارح والكلاب منها، ويكون قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بمعنىٰ مؤدبين أو مضرين، ولا يخصص ذلك بالكلاب دون غيرها فوجب حمله علىٰ العموم، وأن لا يخصص بالاحتمال، ولا نعلم خلافًا بين فقهاء الأمصار في إباحة صيد الطير وإن قتل وأنه كصيد الكلب»[1].

وقال الخازن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة:١-٤]: «قال محمد بن إسحاق: ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أمية بن خلف الجمحي، وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ورائه ويطعن عليه في وجهه، وقيل: نزلت في العاص بن وائل السّهمي، وقيل: هي عامة في كل شخص هذه صفته كائنًا من كان، وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ والحكم، ومن قال: إنها في أناس معينين قال أن يكون اللّفظ عامًّا لا ينافي أن يكون المراد منه شخصًا معينًا، وهو تخصيص العام بقرينة العرف، والأولىٰ أن تحمل علىٰ العموم في كل من هذه صفته»[2].

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ [الكهف: ١٠٣]: «اختلف السلف في تعيين هؤلاء الأخسرين أعمالًا؛ فقيل:

(١) أحكام القرآن (٣/ ٣١٠).

(٢) تفسير الخازن (٧/ ٢٨٩).

اليهود والنصارىٰ، وقيل: كفار مكة، وقيل: الخوارج، وقيل: الرهبان أصحاب الصوامع، والأولىٰ حمل الآية علىٰ العموم لكل من اتصف بتلك الصفات المذكورة»[١].

الأصل التاسع: «كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنىٰ، وكل ترتيب وجد فهو لحكمة».

شرح الأصل: القرآن الكريم محكم الكلمات، فكل حرف ولفظة وردت، فهي لمعنىٰ مقصود، وكل تقديم، وتأخير، وترتيب، فهو لحكمة مقصودة.

أدلة الأصل: قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: نظمت نظمًا محكمًا لا يلحقها تناقض ولا خلل»[٢].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأحكمت ألفاظه، وفصلت معانيه، أو بالعكس علىٰ الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح، لا يجارىٰ، ولا يدانىٰ»[٣].

فهذا الإحكام في القرآن الكريم جعل لكل حرف ولفظ معنىٰ، ولكل ترتيب أسرارًا وحكمًا، وكلها أخذ بعضها بعناق بعض.

---

(١) فتح القدير (٣/ ٣١٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢١٧).

ومن هنا قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «غير جائز أن يكون في كتاب الله حرف لا معنىٰ له»(١).

تطبيقات العلماء لهذا الأصل: قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «انظر إلىٰ بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه وترتيبه، ومكانة إضماره، ورصانة تفسيره وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغًا واحدًا، ولأمر مّا أعجز القوي وأخرس الشقاشق(٢)»(٣).

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنىٰ، وكل ترتيب وجد فهو لحكمة، وما ذكر علىٰ خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن»(٤).

وقال أيضًا: «الأصل حمل كل لفظة علىٰ فائدة جديدة، وترك العمل به عند التعذر، فيبقىٰ في غير موضع التعذر علىٰ الأصل»(٥).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأصل أن يكون لكل حرف من كلام الله تعالىٰ فائدة»(٦).

---

(١) جامع البيان (٢/ ٤٠٠).

(٢) «الشَّقَاشِق»: الخُطَبَاءُ الفُصَحاءُ، وأصْلُ الشَّقْشَقَةِ: جَهَارَةُ الصَّوْتِ. ينظر: المحيط في اللغة، لابن عباد (١/ ٤٢٧).

(٣) الكشاف (٣/ ٣٩٢).

(٤) مفاتيح الغيب (١٠/ ٤٠٩).

(٥) المصدر السابق (٤/ ٣٧).

(٦) المصدر السابق (١/ ١٧٧).

الأصل العاشر: «الأصل حمل القرآن الكريم علىٰ ظاهره وعدم تأويله».

شرح الأصل: الأصل في القرآن الكريم حمل الكلام فيه علىٰ ظاهره، ولا يجوز العدول عن ظاهره إلا بدليل يجب الرجوع إليه، فيصرفه إلىٰ المحتمل المرجوح، فالدليل قد يكون له معنىٰ في الظاهر دل عليه، وقد يكون له معنىٰ مؤول، يمكن حمله عليه، فالأصل العمل بما دل عليه ظاهر الدليل، ولا يجوز تأويله عن ظاهره إلا بدليل، يدل علىٰ صحة ذلك التأويل.

أدلة الأصل: الأصل في الكلام لغة: أن يكون دالًّا بظاهره علىٰ مراد المتكلم، وهو ما يتبادر إلىٰ الذهن من معان، وقد نص العلماء علىٰ هذا الأصل.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وغير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام إلىٰ باطن لا دلالة علىٰ صحته»[1].

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن الأصل المعتبر في علم القرآن، أنه يجب إجراء اللفظ علىٰ الحقيقة، إلا إذا قام دليل يمنع منه»[2].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «متىٰ أمكن حمل الكلام علىٰ ظاهره، فلا حاجة إلىٰ صرفه عنه»[3].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما سؤاله عن إجراء القرآن علىٰ ظاهره،

---

(١) جامع البيان (١/ ١٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/ ٣٠٣).

(٣) المصدر السابق (٨/ ٤٣١).

فإنه اذا آمن بما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تكييف، فقد اتبع سبيل المؤمنين»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الواجب حمل كلام الله تعالىٰ، ورسوله، وحمل كلام المكلف، علىٰ ظاهره الذي هو ظاهره، وهو الذي يقصد من اللفظ عند التخاطب، ولا يتم التفهيم والفهم إلا بذلك، ومدعي غير ذلك، علىٰ المتكلم القاصد للبيان والتفهيم، كاذب عليه»[(٢)].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أجمع جميع المسلمين علىٰ أن العمل بالظاهر واجب، حتىٰ يرد دليل شرعي صارف عنه، إلىٰ المحتمل المرجوح، وعلىٰ هذا كل من تكلم في الأصول»[(٣)].

فهم يرون أنه لا يحاد عن الظاهر، ويمنع صرف الكلام عنه إلا بدليل يعتد به.

تطبيقات العلماء لهذا الأصل: قال الثعالبي في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]: «قال جمهور الأمة: إن الله أراد ان يبين لعباده، أن الحساب والنظر يوم القيامة، هو في غاية التحرير، ونهاية العدل، بأمر قد عرفوه في الدنيا، وعهدته أفهامهم.. قال الفخر: والأظهر إثبات موازين في يوم القيامة، لا ميزان واحد؛ لظواهر الآيات، وحمل الموازين علىٰ الموزونات، أو علىٰ الميزان الواحد، يوجبان

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٨٠،٣٧٩).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٠٨).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٢٦٩).

العدول عن ظاهر اللفظ؛ وذلك إنما يصار إليه عند تعذر حمل الكلام على ظاهره، ولا مانع هاهنا منه، فوجب إجراء اللفظ على حقيقته»[١].

وقال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] في معنى ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾: «إنه الحقيقي الذي يخبز فيه، وهذا هو الظاهر فلا يعدل عنه إلا بدليل، لأن صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل عبث، كما قاله أهل الأصول»[٢].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث في آية سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤]: «التحقيق الذي لا شك فيه، وهو الذي عليه أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وعامة المسلمين: أنه لا يجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، في حال من الأحوال، بوجه من الوجوه، حتى يقوم دليل صحيح شرعي صارف عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح، والقول بأن العمل بظاهر الكتاب والسنة من أصول الكفر، لا يصدر ألبتة عن عالم بكتاب الله وسنة رسوله، وإنما يصدر عمن لا علم له بالكتاب والسنة أصلًا؛ لأنه لجهله بهما يعتقد ظاهرهما كفرًا، والواقع في نفس الأمر، أن ظاهرهما بعيد مما ظنه، أشد من بعد الشمس من اللمس»[٣].

(١) الجواهر الحسان (٣/ ٩). وينظر: كلام الرازي في مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٠٣).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣/ ٨٥١).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٤٣٨).

وقال: «لا يجوز صرف القرآن عن معناه المتبادر بلا دليل يجب الرجوع إليه»(١).

وقد يجوز صرف الكلام عن ظاهره بدليل عقلي أو سمعي، عقلي: كقوله تعالىٰ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[الأحقاف: ٢٥]، وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[النمل:٢٣]، وأما الأدلة السمعية، وهو ما جاء من أدلة الكتاب والسنة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويجوز باتفاق المسلمين، أن تفسر إحدىٰ الآيتين بظاهر الأخرىٰ، ويصرف الكلام عن ظاهره إذ لا محذور في ذلك عند أحد من أهل السنة، وإن سمي تأويلًا وصرفًا عن الظاهر، فذلك لدلالة القرآن عليه، ولموافقة السنة والسلف عليه؛ لأنه تفسير للقرآن بالقرآن ليس تفسيرًا له بالرأي، والمحذور إنما هو صرف القرآن عن فحواه، بغير دلالة من الله، ورسوله، والسابقين»(٢).

فهذه الأصول العشرة، هي أبرز ما ظهرت للباحث من خلال تتبع كلام العلماء في كتب التفسير وغيرها، وقد تكون هنالك أصول أخرىٰ تحتاج إلىٰ دراسة واستقصاء آخر.

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٢٦٠).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٦ / ٢١).

المطلب الرابع
قواعد في التعامل مع الهدايات القرآنية

هنالك قواعد عامة، وضعها العلماء في استخراج «الهدايات القرآنية» بصورة صحيحة، وهنالك قواعد أخرىٰ تستخدم عند الترجيح والاختيار بين الهدايات التي استخرجها العلماء، وسوف نذكر هنا أهم القواعد التي نص عليها العلماء، وطبقوها في الوصول للهداية، والتي ذكروها في الترجيح والاختيار، إليك الحديث عن كل قسم، من ذلك:

القسم الأول: قواعد في استخراج الهدايات:

القاعدة الأولىٰ: «تؤخذ الهداية من كلِّ قراءة ثابتة عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ» .

شرح القاعدة: الاختلاف في القراءات الثابتة، قد يكون اختلاف ألفاظ دون المعاني، وقد يكون اختلاف معان، لكنه اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد، وهي بمنزلة آية مستقلة، فهنالك بعض المفسرين والمعربين يردون بعض القراءات الثابتة، وهذا خطأ كبير في التعامل مع هدايات الآيات؛ بل يجب قبولها، وقبول معناها، فكل معنىٰ مستنبط من القراءة الثابتة فهو معنىٰ صحيح يعمل به، فالقراءة الثابتة لا يجوز ردها ولا رد معناها، **أو ترجح إحدىٰ القراءتين علىٰ الأخرىٰ؛ لأن القراءة الثابتة** عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **قرآن يهتدىٰ به** .

أدلة القاعدة: القرآن الكريم بكل أحرفه نزل من عند الله تعالىٰ: كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ

ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[السجدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[يونس: ١٥]، وغيرها من أدلة كثيرة في القرآن.

وقد روى البخاري ومسلم عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»[١].

وروى البخاري في صحيحه عن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَلَىٰ حَرْفٍ، فَرَاجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ فَيَزِيدُنِي، حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»[٢].

وهذا يدل على أن الأحرف كلها من عند الله، كما قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي، أي: أنَّ كل واحد يغير الكلمة بمرادفها في لغته، بل المراعى في ذلك السماع عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٣].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القراءات التي يتغاير فيها المعنى كلها حق، وكل قراءة منها مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع الآية، يجب الإيمان بها كلها، واتباع ما تضمنته من المعنى، علمًا وعملًا، لا يجوز ترك موجب

---

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، برقم: (٤٦٠٨)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، برقم: (١٣٥٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، برقم: (٤٦٠٧).

(٣) فتح الباري (٩/ ٣٥).

إحداهما لأجل الأخرى، ظنًّا أن ذلك تعارض، بل كما قال عبد الله بن مسعود -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-: «من كفر بحرف منه فقد كفر به كله»[(١)].

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: وتطبيقات العلماء لهذه القاعدة أكثر من أن تحصى، بل جعلوا ذلك موضع اهتمامهم، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن القراءتين كالآيتين، فزيادة القراءات لزيادة الآيات؛ لكن إذا كان الخط واحدًا، واللفظ محتملًا، كان ذلك أخصر في الرسم»[(٢)].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن القراءتين إذا ظهر تعارضهما في آية واحدة لهما حكم الآيتين، كما هو معروف عند العلماء»[(٣)].

وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾[البقرة: ٢٥٩]: «في الآية قراءتان؛ إحداهما: ﴿نُنۡشِرُهَا﴾ بالراء المهملة، قرأ بذلك ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، ومعناه نحييها، والقراءة الثانية: قرأ بها الباقون ﴿نُنشِزُهَا﴾ بالزاي المعجمة، يعني نرفع بعضها إلى بعض، وأصل النشوز: الارتفاع، ومنه النشز اسم للموضع المرتفع من الأرض، ومنه نشوز المرأة لارتفاعها عن طاعة الزوج، وقيل: إنَّ الله أحيا عينيه، وأعاد بصره، قبل إحياء جسده، فكان يرى اجتماع عظامه واكتسائها لحمًا، ورأى كيف أحيا الله حماره وجمع عظامه»[(٤)].

---

(١) الفتاوى الكبرى (٤/ ٤١٤).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٦٧).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٨).

(٤) النكت والعيون (١/ ٣٣٢).

وقال الـرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]: «وفيه قراءتـان، إحداهمـا: الرفع، فيكـون ذلك صفة لله سـبحانه، وهـو اختيار أكثر القـراء والمفسـرين؛ لأن المجد من صفـات التعالي والجـلال، وذلك لا يليق إلا بـالله سـبحانه، والقراءة الثانيـة: بالخفض، وهـي قراءة حمزة والكسـائي، فيكون ذلك صفـة العرش»(١).

وقـال ابـن عاشـور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قولـه تعالـىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقـرة:٢٨]: «و﴿تُرْجَعُونَ﴾ بضـم التـاء وفتـح الجيـم في قـراءة الجمهور، وقـرأهُ يعقـوب بفتح التاء وكسـر الجيم، والقـراءة الأولىٰ: علـىٰ اعتبار أن الله أرجعهـم، وإن كانوا كارهين؛ لأنهـم أنكروا البعـث، والقراءة الثانيـة: باعتبار وقـوع الرجـوع منهـم بقطع النظـر عن الاختيـار أو الجـبر»(٢).

وقـال الشـنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قولـه تعالـىٰ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات:١٢]: «قـرأ هـذا الحرف عامة القراء السـبعة، غير حمزة والكسـائي، ﴿عَجِبْتَ﴾ بالتـاء المفتوحـة، وهـي تـاء الخطـاب، المخاطـب بهـا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقـرأ حمزة والكسـائي: ﴿بَـلْ عَجِبْتُ﴾، بضم التـاء، وهي تاء المتكلـم، وهـو الله عَزَّوَجَلَّ»(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٦/ ٤٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٧٧).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٠٨).

وقال في تفسيرها: «وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك، أن القراءتين المختلفتين يحكم لهما بحكم الآيتين، وبذلك تعلم أنّ هذه الآية الكريمة علىٰ قراءة حمزة والكسائي، فيها إثبات العجب لله تعالىٰ، فهي إذًا من آيات الصفات علىٰ هذه القراءة»[(١)].

القاعدة الثانية: «ألفاظ القرآن مشتملة علىٰ جوامع المعاني».

شرح القاعدة: ألفاظ القرآن الكريم تدل علىٰ معان جامعة، وقواعد كلية، يحتاج شرحها إلىٰ مطولات، يصعب استيفاء ما يدخل فيها من معان، وهي ستظل محل نظر العلماء في كل عصر؛ ليدخلوا تحتها أمثلة، ونماذج يصعب حصرها.

أدلة القاعدة: أدلة هذه القاعدة كثيرة جدًا في القرآن الكريم، من ذلك ما جاء في الأمثلة التالية، والتي منها قوله تعالىٰ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد:٢١]،

(١) أضواء البيان (٦/ ٣٠٨).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]، وغيرها كثير.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يشير لهذه القاعدة: «المعهود أن ألفاظ القرآن كلها أنها تكون دالة على جملة معان»(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر عشرات الأمثلة من القرآن لهذه القاعدة: «فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها، كل كلمة منها قاعدة، وأصل كلي يحتوي على معان كثيرة»(٢).

وقال في تفسيره: «إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح، معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس»(٣).

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: كل ما ذكره العلماء في مثل تلك الآيات يذكرونه من باب التفسير بالنوع والمثال، وليس من باب الحصر للمعنى، وهم يرون أن المعنى أوسع من أن يحدد بشيء معين، مثال ذلك:

ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ على العفو والإغضاء، ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ على الانتقام والتشفي، ويجوز

(١) جلاء الأفهام (١/ ٩٣ - ١٠٠).

(٢) القواعد الحسان (ص: ١١٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٦١).

أن يـراد العموم لكل بـر وتقـوىٰ، وكل إثم وعـدوان، فيتنـاول بعمومه العفو والانتصار»(١).

وقـال الـرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فجعل الـبر ضد الإثم، فـدل علىٰ أنه اسـم عام لجميـع مـا يؤجر عليـه الإنسـان، وأصله مـن الاتسـاع، ومنه الـبر الذي هو خلاف البحر لاتسـاعه»(٢).

وقال ابـن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يأمر تعالـىٰ عباده المؤمنيـن بالمعاونة علىٰ فعل الخـيرات، وهو البر، وترك المنكـرات وهو التقـوىٰ، وينهاهم عن التناصـر علىٰ الباطل، والتعـاون علىٰ المآثـم والمحارم»(٣).

وقال السـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تشـمل جميع أنواع البر والخير، وتشمل التقوىٰ جميع مـا يجب اتقـاؤه مـن أنـواع المَخُوفـات، والمعاصـي، والمحرمات، والإثـم: اسـم جامـع لكل ما يؤثـم، ويوقـع في المعصيـة، كمـا أن العدوان: اسـم جامع يدخل فيـه جميع أنـواع التعدي علـىٰ الناس في الدمـاء والأموال والأعـراض، والتعدي علىٰ مجموع الأمـة، وعلىٰ الحكومـات والتعدي علىٰ حدود الله»(٤).

وقـال السـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قولـه تعالـىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[الأنفال:٦٠]: «أي: كل مـا تقـدرون عليه، من القـوة العقليـة، والبدنية،

(١) الكشاف (١/ ٦٣٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/ ٤٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٤).

(٤) القواعد الحسان (ص: ٩). وينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢١٨).

وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة، والآلات، من المدافع، والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي، والسياسة، التي بها يتقدم المسلمون، ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلّم الرّمي، والشجاعة والتدبير.. ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته»[١].

ولهذا قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عادة السلف أن يفسروها بذكر بعض الأنواع، يقع على سبيل التمثيل؛ لحاجة المخاطبين، لا على سبيل الحصر والتحديد»[٢].

ولهذا قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة:٣]: «و﴿يُنفِقُونَ﴾ معناه هنا: يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة، وما ندبهم إليه من غير ذلك، قال ابن عباس: ﴿يُنفِقُونَ﴾ يؤتون الزكاة احتسابًا لها، وقال غيره: الآية في النفقة في الجهاد، قال الضحاك: هي نفقة كانوا يتقربون بها إلى الله، على قدر يسرهم، قال ابن مسعود وابن عباس أيضًا: هي نفقة الرجل على أهله، قال القاضي أبو محمد: والآية تعم الجميع، وهذه الأقوال تمثيل لا خلاف»[٣].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٢٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٩٦).
(٣) المحرر الوجيز (١/ ٧٥).

القاعدة الثالثة: «ينبغي حمل الآية علىٰ أوسع المعاني».

شرح القاعدة: فهذه قاعدة مهمة تعين علىٰ فهم القرآن الكريم، ويجمع بها بين ما يذكر في كتب التفسير من أقوال مختلفة، فإذا تعددت المعاني في الآية، وكان المعنىٰ يحتملها، فالأولىٰ حمل هدايات الآية علىٰ جميع الأقوال، وعدم قصره علىٰ واحد منها.

أدلة القاعدة: قال تعالىٰ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾[يونس: ١]، «والمراد أنّه أحكم وأتقنَ في بلاغته»[١].

وقال تعالىٰ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود: ١]، «فهو أفضل من كل كلام يُوجَد في هذه المعاني، ولا يمكن أحد أن يأتي بكلام يساويه فيها، والعرب تقول في البناء الوثيق، والعقد الوثيق الذي لا يمكن حَلُّه: مُحْكَم»[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٢ – ٣].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من إحكامها، أنها جاءت بأجل الألفاظ، وأفصحها، وأبينها، الدالة علىٰ أجل المعاني، وأحسنها، ومن إحكامها، أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف، ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها، نبي من الأنبياء..»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٥٦).

(٢) اللباب في علوم الكتاب (٥/ ٣٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٤٦).

فالقرآن الكريم كتاب أحكمت آياته، بطريقة تجد في اللفظة الواحدة، أو الجملة الواحدة، احتمالًا لعدة معان، كلها صحيحة، فالأولىٰ الأخذ بها، وعدم رد بعضها، وهذا ما سار عليه العلماء الربانيين من هذه الأمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والكلمة إذا احتملت وجوهًا، لم يكن لأحد صرف معناها إلىٰ بعضٍ وجوهها دون بعضٍ، إلا بحجة يجب التسليم لها»[(١)].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تقرّر عند العلماء، أن الآية إن كانت تحتمل معاني، كلها صحيحة، تعيَّن حملها علىٰ الجميع»[(٢)].

وقال: «أن التفسيرات المتعددة في الآية، إن كان يمكن حمل الآية علىٰ جميعها، فهو أولىٰ»[(٣)].

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال الجصاص في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣٣]: «فإنه عائد علىٰ المضارة، نهىٰ الرجل أن يضارها بولدها، ونهىٰ المرأة أيضا أن تضاره بولده، والمضارة من جهتها قد تكون في النفقة وغيرها، فأما في النفقة بأن تشتط عليه، وتطلب فوق حقها، وفي غير النفقة أن تمنعه من رؤيته، والإلمام به، ويحتمل أن تغترب به، وتخرجه عن بلده، فتكون مضارة له بولده، ويحتمل أن تريد أن لا يطيعه، وتمتنع من تركه عنده، فهذه الوجوه كلها محتملة، ينطوي عليها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ حمل الآية عليها»[(٤)].

---

(١) جامع البيان (١/ ٣١٥).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٢٥٩).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٥٧).

(٤) أحكام القرآن (٢/ ١٠٨).

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]: «فيه وجوه؛ أحدها: قال الأصم: أحسنوا في فرائض الله، وثانيها: وأحسنوا في الإنفاق علىٰ من تلزمكم مؤنته ونفقته، والمقصود منه: أن يكون ذلك الإنفاق وسطًا، فلا تسرفوا، ولا تقتروا، وهذا هو الأقرب؛ لاتصاله بما قبله، ويمكن حمل الآية علىٰ جميع الوجوه»[(١)].

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٩]: «أي: لا يقتل بعضكم أيها المسلمون بعضًا، إلا بسبب أثبته الشرع، أو لا تقتلوا أنفسكم، باقتراف المعاصي، أو المراد النهىٰ عن أن يقتل الإنسان نفسه حقيقة، ولا مانع من حمل الآية علىٰ جميع هذه المعاني»[(٢)].

وقال في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:١١٩]: «واختلف العلماء في هذا التغيير ما هو، فقالت طائفة: هو الخصاء، وفقء الأعين، وقطع الآذان، وقال آخرون: إن المراد بهذا التغيير، هو: أن الله سبحانه خلق الشمس، والقمر، والأحجار، والنار، ونحوها من المخلوقات، لما خلقها له فغيره الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة، وبه قال الزجاج، وقيل: المراد بهذا التغيير: تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولا مانع من حمل الآية علىٰ جميع هذه الأمور، حملًا شموليًّا، أو بدليًّا»[(٣)].

وقال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ

---

(١) مفاتيح الغيب (٣/ ١٥٤).

(٢) فتح القدير (١/ ٤٥٧).

(٣) المصدر السابق (١/ ٥١٧).

ٱللَّهِۚ﴾: «أي: دين الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: خصي الدواب، وقيل: الوشم، وقال السيوطيّ رَحِمَهُٱللَّهُ في «الإكليل»: (فيستدل بالآية على تحريم الخصاء، والوشم، وما يجري مجراه: من الوصل في الشعر، والتفلج، وهو تفريق الأسنان، والتنميص، وهو نتف الشعر في الوجه).. ولا يخفى أن عموم الآية يصدق على جميع المعاني، إذ كلها من تغيير خلق الله، فلا مانع من حمل الآية عليها»(١).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾[المائدة: ٥]: «قال كثير من العلماء: أراد الله هنا بالطعام الذبائح، مع اتّفاقهم على أنّ غيرها من الطعام مباح، ولكن هؤلاء قالوا: إنّ غير الذبائح ليس مرادًا، أي: لأنّه ليس موضع تردّد في إباحة أكله، والأولى حمل الآية على عمومها، فتشمل كلّ طعام قد يظن أنَّه محرّم علينا، إذ تدخله صنعتهم، وهم لا يَتَوَقَّوْنَ ما نتوقّى، وتدخله ذكاتهم، وهم لا يشترطون فيها ما نشترطه، ودخل في طعامهم صيدهم على الأرجح»(٢).

القاعدة الرابعة: ينبغي «مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام عند استخراج الهداية وغيرها».

شرح القاعدة: على المفسر للقرآن أن يراعي عند استخراج الهدايات ما دلت عليه ألفاظه مطابقة، وما دخل في ضمنها، كما عليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما لا تحصل بدونها، وما يقتضيه النص اقتضاء، وما يشترط

(١) محاسن التأويل (٢/ ٤٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٢٠).

لها من معنىً، وما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، وما تستدعيه من المعاني، التي لم يعرج في اللفظ علىٰ ذكرها.

وهذه القاعدة: **من أجل قواعد التفسير وأنفعها**، وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر، وصحة قصد، فإن الذي أنزله للهدىٰ والرحمة هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكن الصدور، وبما تضمنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها، وتتوقف هي عليه.

ولهذا أجمع العلماء علىٰ الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب، والطريق إلىٰ سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني، فإذا فهمتها فهمًا جيدًا، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها، وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه، حتىٰ تصير لك ملكة جيدة في الغوص علىٰ المعاني الدقيقة، فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف علىٰ الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق، ذلك كله حق ولا بد.

فمن وفق لهذه الطريقة، وأعطاه الله توفيقًا ونورًا، انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجليلة، والأخلاق السامية، والآداب الكريمة العالية [(١)].

---

(١) ينظر: القواعد الحسان (ص: ١٧-٢٠).

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦]: «ولما كان طلب الزيادة يستلزم طلب دوام ما حصل إذ لا تكاد تنفع الزيادة إذا انتقض الأصل كان استعمالها حينئذٍ في لازم المعنىٰ مع المعنىٰ فهو كناية»(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾[النساء: ٥٨]: «فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلىٰ أهلها؛ استدللت بذلك علىٰ وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها، والتفريط والتعدي فيها، وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك، وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل، استدللت بذلك علىٰ أن كل حاكم بين الناس، في الأمور الكبار والصغار، لابد أن يكون عالمًا بما يحكم به، فإن كان حاكمًا عامًا، فلابد أن يحصل من العلم ما يؤهله إلىٰ ذلك، وإن كان حاكمًا ببعض الأمور الجزئية، كالشقاق بين الزوجين، حيث أمر الله أن نبعث حكمًا من أهله، وحكمًا من أهلها، فلابد أن يكون عارفًا بهذه الأمور التي يريد أن يحكم فيها، ويعرف الطريق التي توصله إلىٰ الصواب منها، وبهذا بعينه نستدل علىٰ وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد، فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة، ونهانا عن أمور كثيرة، ومن المعلوم أن امتثال أمره، واجتناب نهيه، يتوقف علىٰ معرفة المأمور به، والمنهي عنه، وعلمه، فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمرَ الذي لا يعرفه، أو يتجنب النهي الذي لا يعرفه؟

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٨٩).

ومن ذلك: أن الله أمر بالصلاح والإصلاح، وأثنىٰ علىٰ المصلحين، وأخبر أنه لا يُصلح عمل المفسدين، فيُسْتدل بذلك علىٰ أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم، وكل أمر يعين علىٰ ذلك فإنه داخل في أمر الله وترغيبه، وأن كل فساد وضرر وشر، فإنه داخل في نهيه، والتحذير عنه، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلىٰ الصلاح والإصلاح، بحسب استطاعة العبد..»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: «لا يكون المتدبر مقتصرًا علىٰ مجرد معنىٰ اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنىٰ اللفظ، فإذا فهمه فهمًا صحيحًا علىٰ وجهه، نظر بعقله إلىٰ ذلك الأمر، والطرق الموصلة إليه، وما لا يتم إلا به، وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراده، كما يجزم أنه أراد المعنىٰ الخاص، الدال عليه اللفظ»[٢].

وقريب من هذا قاعدة: «الأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به»[٣]، وقاعدة: «الإتيان بالملزوم ليدل علىٰ اللازم»[٤].

القاعدة الخامسة: «حذف المتعلق يفيد العموم».

شرح القاعدة: من القواعد المهمة المساعدة في استخراج الهدايات القرآنية، هذه القاعدة التي تفيد أن الفعل، وما هو في معناه، متىٰ قيد بشيء

(١) القواعد الحسان (ص: ١٧-٢٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٣٢).
(٣) المصدر السابق (ص: ٥١٧).
(٤) المصدر السابق (ص: ٧٢٠).

تقيد به، فإذا أطلقه الله تعالىٰ، وحذف المتعلق، كان القصد من ذلك التعميم، «والتوسع في تقدير المحذوف بكل احتمال مناسب؛ تكثيرًا للمعاني»[(١)]، ويكون الحذف هنا أحسن، وأفيد كثيرًا من التصريح بالمتعلقات، وأجمع للمعاني النافعة، ولهذا قال العلماء: «حذف المُتَعَلّق – المعمول فيه – يفيد تعميم المعنىٰ المناسب»[(٢)].

أدلة القاعدة: قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر علماء البيان أن حذف المتعلق يشعر بالتعميم، نحو زيد: يعطي ويمنع، ونحو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[يونس: ٢٥]، فينبغي أن يكون ذلك من أقسام العموم، وإن لم يذكره أهل الأصول»[(٣)].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه قاعدة مفيدة جدًا، متىٰ اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة»[(٤)].

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: العلماء راعوا هذه القاعدة في استخراج هدايات ومعان آيات القرآن الكريم، وأكدوا عليها؛ لأن حذف المعمول دائمًا يكون لقصد العموم، وتكثير المعنىٰ، ومثال ذلك:

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾[البقرة: ٢٨٢].

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤٠).

(٢) ينظر: القواعد الحسان (ص: ٤٣).

(٣) إرشاد الفحول (ص: ١٩٨).

(٤) القواعد الحسان (ص: ٢٥).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والذي يظهر أنّ حذف المتعلّق بفعل ﴿ دُعُوا ﴾ لإفادة شمول ما يُدعَون لأجله في التعاقد: من تحمّل، عند قصد الإشهاد، ومن أداء، عند الاحتياج إلىٰ البيّنة»(١).

وكقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾[آل عمران: ٣٢].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حذف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: في جميع الأوامر والنواهي»(٢).

وكقوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٠].

قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حذف المتعلق تعميماً لكل مسموع»(٣).

وكقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٣٩].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ حذف المتعلق؛ ليعم الخوف من العدو، والسبع، وفوات ما يتضرر العبد بفوته»(٤).

وقال في «القواعد الحسان»: «إنه قال في عدة آيات: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فيدل ذلك علىٰ أن المراد: لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه وكل ما علمكموه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، ولعلكم تذكرون، فلا تنسون ولا تغفلون،

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١١٣).
(٢) فتح القدير (١/ ٣٣٣).
(٣) نظم الدرر (٥/ ١١٤).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٢٢).

فتكونون دائمًا متيقظين، مُرْهفي الحواس، تحسون كل ما تمرون به من سنن الله وآياته، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية.

ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه، من الغفلة، والجهل، والتقليد، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه، من جميع الذنوب، والمعاصي، ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه، وهو فرد من أفراد هذا المعنىٰ العام؛ ولهذا كان قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣] يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام، أي: لعلكم تتقون المحارم عمومًا، ولعلكم تتقون ما حرم الله علىٰ الصائمين من المفطرات والممنوعات، ومن كل الأحوال والصفات السيئة والخبيثة، ولعلكم تتصفون بصفة التقوىٰ، وتحصلون علىٰ كل ما يقيكم مما تكرهون، وتتخلقون بأخلاقها، وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ.. وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر أمثلة عليه لطالت، ولكن قد فتح لك الباب، فامش علىٰ هذا السبيل المفضي إلىٰ رياض بهيجة من أصناف العلوم»[1].

القاعدة السادسة: «الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده والعكس».

شرح القاعدة: إذا أمر الله بشيء كان ناهيًا عن ضده، إذا كان له ضد واحد، كالأمر بالإيمان نهي عن الكفر، وإن كان له أضداد، كالأمر بالقيام، له أضداد، من القعود، والركوع، والسجود، والاضطجاع، يكون الأمر به نهيًا عن جميع أضداده كلها؛ لأنك إذا فعلت ضده لم تكن ممتثلًا للأمر، وإذا

(١) القواعد الحسان (ص: ٢٧).

نهىٰ عن شيء كان آمرًا بضده، فإذا قلت لك: لا تقم، فإنك تكون ممتثلًا إذا جلست[١].

أدلة القاعدة: هذه القاعدة من القواعد العظيمة التي تعين علىٰ فهم هدايات الآيات القرآنية؛ «لأنه لا يمكن فهم الأمر وامتثاله علىٰ وجه الكمال إلا بترك ضده»[٢]، «وحجة الجمهور: أن ضد المأمور به إما أن يكون مأمورًا به، أو منهيًا عنه، أو مباحًا، ولا يصح أن يكون مأمورًا به؛ لأنه لا يصح الأمر بالضدين، لاستحالة الجمع بينهما، ولا يصح أن يكون مباحًا، وإلا لجاز له فعل الضد»[٣]، ومن هنا كان حيث أمر بالتوحيد نهىٰ عن الشرك، وحيث أمر بالصلاة نهىٰ عن تركها وإضاعتها، وحيث أمر بالإنفاق نهىٰ عن البخل، وحيث أمر ببر الوالدين نهىٰ عن العقوق، وحيث أمر بصلة الأرحام نهىٰ عن القطيعة، وحيث أمر بالعدل نهىٰ عن الظلم، وحيث أمر بالصدق نهىٰ عن الكذب، وحيث أمر بالأمانة نهىٰ عن الخيانة، وحيث أمر بالصبر نهىٰ عن الجزع، وحيث أمر بالشكر نهىٰ عن كفر النعم، وهكذا في سائر الأوامر والنواهي، وقد ذكر هذه القاعدة السعدي في كتابه «القواعد الحسان» في القاعدة الثانية والثلاثين[٤].

---

(١) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١/ ٢٥٦).

(٢) القواعد الحسان (ص: ٨٥)، وهو ذكر هذه القاعدة ضمن قواعد أخرىٰ في سياق واحد.

(٣) تعليقات أصولية حديثية علىٰ المرشد المعين علىٰ الضروري من علوم الدين، لابن عاشر (ص: ٨).

(٤) ينظر: كتابه القواعد الحسان (ص: ٨٦)، فيه كلام قيّم.

قال ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]: «هذه الآية نص في أنّ الأمر بالشيء نهي عن ضده؛ لأنّهم قالوا: سبب نزولها، أنّ قريشا الحمس، كانوا يجتمعون بعد الإفاضة من عرفات، فيفتخرون بأنسابهم، فنزلت الآية ردا عليهم، فكان الأصل أن يقال: فإذا قضيتم مناسككم، لا تفتخروا بآبائكم، لكنه لو قيل ذلك؛ لاحتمل أن يسكتوا، ولا يتكلّموا بشيء، ويتحدّثوا في أخبار الأوائل فيما ليس بذكر ولا فخر، فأمرهم الله تعالىٰ بذكره، حتىٰ يتناول النهي عن الاشتغال بجميع أضداده المنافية له»[(١)].

وقال في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦١ - ٦٢]: «أخذوا منها أن الأمر بالشيء نهي عن ضده، قال: لأنه قال لهم: اعبدوا الله، فأجابوه بأنه نهاهم عن عبادة غيره؛ إنكارًا عليه»[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الأمر بالشيء نهي عن ضده، من طريق اللزوم العقلي لا القصد الطلبي، فإن الأمر إنما مقصوده فعل المأمور، فإذا كان من لوازمه ترك الضد، صار تركه مقصودا لغيره، وهذا هو الصواب في مسألة الأمر بالشيء، هل هو نهي عن ضده أم لا؟ فهو نهي عنه من جهة

(١) تفسير ابن عرفة (٢/ ٥٨٧).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٦١).

اللزوم لا من جهة القصد والطلب، وكذلك النهي عن الشيء، مقصود الناهي بالقصد الأول الانتهاء عن المنهي عنه، وكونه مشتغلًا بضده، جاء من جهة اللزوم العقلي، لكن إنما نهىٰ عما يضاد ما أمر به كما تقدم، فكأن المأمور هو المقصود بالقصد الأول في الموضعين»[(١)].

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]: «أي: في وقت، أو عند استقبال العدة، أي: استقبال طهر يحسب منها، وهو الطهر الذي لم يجامع فيه، إن كانت مدخولًا بها.. وذلك دال علىٰ أن العدة بالأطهار، وأن الطلاق في الحيض حرام؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده»[(٢)].

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠]: «إن الله يأمر بالعدل.. قد قوبل في الآية الأمر بالنهي، وكل من المأمور به، بكل من المنهي عنه، وجمع بين الأمر والنهي، مع أن الأمر بالشيء نهي عن ضده، والنهي عن الشيء أمر بضده؛ لمزيد الاهتمام والاعتناء»[(٣)].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩]: «والأمر يشمل النهي عن الضد، فإن النهي عن المنكر أمر بالمعروف، والأمر بالمعروف نهي عن المنكر؛ لأن الأمر

(١) الفوائد (ص: ١٣١).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٦٩).
(٣) روح المعاني (١٤/ ٢١٩).

بالشيء نهي عن ضده، فالاجتزاء بالأمر بالعرف عن النهي عن المنكر من الايجاز، وإنما اقتصر علىٰ الأمر بالعرف هنا: لأنه الأهم في دعوة المشركين لأنه يدعوهم إلىٰ أصول المعروف واحدًا بعد واحد»[١].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[البقرة: ١٤٤]: «ففيها اشتراط استقبال الكعبة، للصلوات كلها، فرضها، ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن، مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده»[٢].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]: «ونفي الريب عنه، يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل علىٰ علم اليقين، المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة، أن النفي المقصود به المدح، لابد أن يكون متضمنا لضده، وهو الكمال؛ لأن النفي عدم، والعدم المحض، لا مدح فيه»[٣].

القاعدة السابعة: «إذا جاء سياق الكلام في أوله خاصًّا، وجاء الحكم في آخره عامًّا، دل ذلك علىٰ العموم».

شرح القاعدة: إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة، وأراد الله أن يحكم عليها بأن ذلك الحكم لا يختص بها، بل يشملها ويشمل غيرها، جاء الله بالحكم العام.

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٢٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧١).

(٣) المصدر السابق (ص: ٤٠).

أدلة القاعدة: لما ذكر الله المنافقين وذمهم، واستثنىٰ منهم التائبين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦]، فلما أراد الله أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: (وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا)، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن، ولئلا يظن اختصاص الحكم بهم[(١)].

ولما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠- ١٥١]، لم يقل: (وأعتدنا لهم)، للحكمة التي ذكرناها، ومثله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣ - ٦٤]، أي: هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾.

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥ -١٤٦]: «الخطاب -أي: في قوله: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾- يجوز أن يراد به جميع الأمة،

---

(١) القواعد الحسان (ص: ١١٠).

ويجوز أن يوجّه إلىٰ المنافقين علىٰ طريقة الالتفات من الغيبة إلىٰ الخطاب ارتفاقًا بهم»[(١)].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر الآية: «وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: (وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا)، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة - لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب عليه ثوابًا أو عقابًا، وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد عدة تطبيقات لهذه القاعدة في كتابه «القواعد الحسان»: «وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليل علىٰ إحكامه وانتظامه العجيب، ثم قال: وأمثلة هذه القاعدة كثيرة، وذكر ما سبق من الأمثلة في التطبيقات»[(٣)].

وهنالك قواعد كثيرة نص عليها العلماء، لا يستغني عنها ناظر في الهدايات القرآنية لا يسع المجال لاستقصائها هنا، منها:

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص:٢١١).

(٣) القواعد الحسان (ص: ٧٨).

قاعدة: «إن زيادة المبنىٰ تدل علىٰ زيادة المعنىٰ»[(١)].

وقاعدة: «الجملة الاسمية تدل علىٰ الدوام والثبوت»[(٢)].

وقاعدة: «الجملة الفعلية تدل علىٰ التجدد والحدوث، وتدل علىٰ الاهتمام بشأن الفعل، دون الفاعل»[(٣)].

وقاعدة: «التعليق علىٰ المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء»[(٤)].

وقاعدة: «النكرة في سياق النفي، أو النهي، أو الاستفهام، أو الشرط تفيد العموم»[(٥)].

وقاعدة: «تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في العموم يدل علىٰ زيادته عن غيره»[(٦)].

وقاعدة: «وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك علىٰ أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغّب فيه»[(٧)].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ١٧١)، وروح المعاني (٢٢/ ٦)، وتفسير الثعالبي (١/ ١٦٧)، وتفسير القرآن، للعثيمين (١٢/ ١).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل (١/ ٣٧٤)، وإرشاد العقل السليم (٢/ ٧٠)، وروح المعاني (٧/ ٢٣٣).

(٣) ينظر: البحر المحيط (١/ ٣٢)، مفاتيح الغيب (١٤/ ١٢٧)، واللباب (٩/ ١٨٧)، وأضواء البيان (٩/ ٤١).

(٤) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤١٥).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ١٦)، وأضواء البيان (٢/ ٤١٦)، والقواعد الحسان (ص: ١١).

(٦) ينظر: أحكام القرآن، للجصاص (٥/ ٢٧٩)، مفاتيح الغيب (٦/ ١٠٨)، تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٨٩).

(٧) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٧٥).

وقاعـدة: «أن التفسـير بعد الإبهـام، والتقييـد بعد الإطـلاق؛ أوقع عند النفـس، وأجـدر بالقبول»[(١)].

وقاعـدة: «النهي عن الشـيء يشـمل النهي عـن مقدماته، وعن وسـائله الموصلـة إليه»[(٢)].

وقاعـدة: «نفي الواحـد يلزم منه نفـي الجنـس ألبتة، وبأن نفـي الأدنىٰ يلـزم منه نفـي الأعلىٰ»[(٣)].

وغيرها من قواعد أخرىٰ تحتاج إلىٰ جمع واستقصاء.

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم (٢/ ١٣٢).

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٧، ٢٤٣).

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢٧١).

القسم الثاني: قواعد في التعامل مع الهدايات المستنبطة:

هنالك قواعد وضعها العلماء مقصدهم منها أن يرجح أو يختار بها بين الفوائد والهدايات التي اختلفت فيها أقوال العلماء من ذلك:

القاعدة الأولى: «الهداية التي تؤيدها آية قرآنية أو حديث نبوي مقدم على ما عدم ذلك».

شرح القاعدة: أي هداية مستنبطة من موضع في القرآن الكريم، ومصرح بها في موضع آخر في القرآن أو السنة، يدل ذلك على قبولها، واعتبارها، وتقدمها.

أدلة القاعدة: «الهدايات التي أيدها القرآن في موضع آخر، أو السنة النبوية أولى من غيرها في الاعتبار؛ لأنّ القرآن مثنى يصدق بعضه بعضًا كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾[الزمر: ٢٣]، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ هو المكلف ببيان هديه للناس، وهو أعلم بما أنزل عليه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾[النساء:١٠٥]، ولهذا قال العلماء: إذا ثبت الحديث، وكان نصًّا في تفسير الآية، فلا يصار إلى غيره، وقالوا: إذا عرف التفسير من جهة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فلا حاجة إلى قول من بعده، وقالوا: لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه، دون النظر في شرحه وبيانه، وهو السنة»[١].

---

(١) الموافقات (٤/ ١٨٣).

فأي هداية مستنبطة إذا عارضت هداية منصوصًا عليها في الكتاب والسنة فهي باطلة؛ لأن الوحيين لا يعارض بعضهما بعضًا، وإذا ثبت الحديث وكان في معنىٰ أحد الأقوال فهو مرجح له علىٰ ما خالفه؛ لأن «الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم بما أنزل الله عليه، وليس لأحد مع قوله الذي يصح عنه قول»[(١)].

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قول ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في مسألة المرأة تُزوِّج نفسها في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾[البقرة: ٢٣٠]- في رده علىٰ من قال: المراد بالنكاح العقد؛ وبيّن أن المراد بالنكاح هنا هو الوطء.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا يصحّ الاستدلال لكم معنا بهذه الآية، فإن قيل: القرآن اقتضىٰ تَحْرِيمها إلىٰ العقد، والسُّنَّة لم تُبَدِّل لفظ النِّكاح، ولا نقلته عن العقد إلىٰ الوطء، إنَّمَا زادت شرطًا آخر وهو الوطء، قلنا: إذا احتمل اللَّفظ في القرآن معنيين فأثبتت السُّنَّة أَنَّ المراد أحدهما، فلا يقال: إنَّ القرآن اقتضىٰ أَحدهما، وزادت السُّنَّة الثَّاني؛ إنَّما يُقال: إنَّ السُّنَّةَ أَثبتت المراد منهما، والعدول عن هذا جهل بالدَّليل، أو مراغمة، وعناد في التَّأويل»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث، إذا عرف تفسيرها، وما أريد بها من جهة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يحتج في ذلك إلىٰ الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٨).
(٢) أحكام القرآن (١/ ٣٩٣).

غيرهم؛ ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع: نوع يعرف حَدّه بالشرع، كالصلاة والزكاة، ونوع يعرف حده باللغة، كالشمس والقمر، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ (القبض)، ولفظ (المعروف) في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾[النساء: ١٩]، وكان من أعظم ما أنعم اللّه به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجْده؛ فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات، والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدىٰ ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم»(١).

قول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ما ذكر ما قيل في معنىٰ السبع المثاني، بيّن من قال: هي السبع الطوال، ومن قال: إنها الفاتحة، ورجح بالحديث الصحيح أنها السبع المثاني.

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا نص صحيح من النَّبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم: فاتحة الكتاب، وبه تعلم أن قول من قال: إنها السبع الطوال، غير صحيح، إذ لا كلام لأحد معه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ»(٢).

القاعدة الثانية: «الهدايات التي نص عليها الصحابة والتابعون أولىٰ من غيرهم».

شرح القاعدة: أي هداية نص عليها الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، وأئمة التابعين، ونقلت إلينا بسند صحيح، هي معتبرة أكثر ممن جاء بعدهم من أهل القرون.

---

(١) مجموع الفتاوي (٧/ ٢٨٦).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٣١٥).

أدلة القاعدة: الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ هم الذين عاصروا الوحي، وعايشوا التنزيل، ونزل القرآن بلغتهم فهم أعلم الناس بمعاني القرآن الكريم، ورباهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعلمهم معاني القرآن، ومدحهم الله في كتابهم، فأثبت صدقهم وعدلهم، وطهارة نفوسهم، وهم الذين تتلمذ عليهم أئمة التابعين رَحِمَهُمُٱللَّهُ، وكلاهما يمثلون القرون المفضلة، وقد حث الله في كتابه على أتباعهم في العلم والعمل، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٣٧]، وهنالك أدلة كثيرة جاءت تؤكد هذا المعنى.

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: هذه القاعدة التزم به كل من فسر القرآن بما أثر عن الصحابة والتابعين، بل أكدوا عليها بشدة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ:«وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفة بأمور السنة، وأحوال الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لا يعرفها أكثر المتأخرين، فإنهم شهدوا الرسول والتنزيل، وعاينوا الرسول، وعرفوا من أقواله، وأفعاله، وأحواله، ما يستدلون به على مراده، ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٠٠).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: «ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها، ويخاطبهم بها النبي، وعادتهم في الكلام، وإلا حرف الكلم عن مواضعه، فإن كثيرا من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعادتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله، أو رسوله، أو الصحابة، فيظن أن مراد الله، أو رسوله، أو الصحابة، بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة، وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف، أن خير قرون هذه الأمة، في الأعمال، والأقوال، والاعتقاد، وغيرها من كل فضيلة، أن خيرها القرن الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة، من علم، وعمل، وإيمان، وعقل، ودين، وبيان، وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علم.

كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من كان منكم مستنًّا، فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد، أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله؛ لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم».

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٤٣).

وقال غيره: «عليكم بآثار من سلف، فإنهم جاءوا بما يكفي وما يشفي، ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه..».

وما أحسن ما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته: «هم فوقنا في كل علم، وعقل، ودين، وفضل، وكل سبب ينال به علم، أو يدرك به هدىٰ، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا» »[١].

القاعدة الثالثة: «القول الذي تؤيده قرائن السياق مرجح علىٰ ما خالفه»[٢].

شرح القاعدة: لابد عند استخراج الهداية من مراعاة إدخال الكلام في معنىٰ ما قبله وما بعده، وهو ما يسمىٰ: (بالسِّباق واللحاق)، فلا ينظر في الكلمة، أو الجملة، أو الآية، مستقلة بنفسها؛ بل عليه أن ينظر إليها في المعنىٰ الذي وردت فيه، فإن ذلك معين علىٰ تحديد المراد، لا سيما إذا كان للكلمة، أو الجملة، أكثر من معنىٰ.

ومن هنا قال العلماء: إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولىٰ من الخروج به عنهما إلا بدليل يجب التسليم له، هذا ما قصده العلماء بهذه القاعدة التي أكدوا عليها كثيرًا.

أدلة القاعدة: القرآن الكريم محكم البيان، قوي الأركان، ليس فيه تناقض واختلاف، قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٥٧).

(٢) قواعد الترجيح، للحربي (١/ ٢٧١)، والكتاب مفيد في بابه.

خَبِيرٍ﴾[هود: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢]، ومن هنا أكد العلماء علىٰ أن المعنىٰ المتوافق مع ما قبله وما بعده أولىٰ من غيره؛ وذلك لأن «الأصل في آي القرآن، أن يكون بين الآية ولاحقتها، تناسب في الغرض، أو في الانتقال منه، أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل»[١].

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: هذه القاعدة من القواعد المهمة في فهم القرآن الكريم، وفي الترجيح بين كلام العلماء في هدايات الآية، وقد اعتمدها عامة المفسرين، وأكدوا عليها.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث عن الأمور التي تعين علىٰ المعنىٰ عند الإشكال وذكر منها: «دلالة السياق، فإنها ترشد إلىٰ تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة علىٰ مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظيره، وغالط في مناظراته، وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[الدخان:٤٩]، كيف تجد سياقه يدل علىٰ أنه الذليل الحقير»[٢].

وقد ذكر ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة تفسيره، أن من قواعد الترجيح أن يشهد بصحة القول سياق الكلام، ويدل عليه ما قبله أو ما بعده، وبهذه القاعدة رجح الطبري وغيره من المفسرين بعض الأقوال، وردوا غيرها.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٩).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٠٠).

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد زعم بعض الزاعمين أن قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ يعني به الشياطين، وأن قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يعني به الناس، وذلك قول لجميع أهل التأويل مخالف، وذلك أنهم مجمعون على أن قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ معني به اليهود، دون الشياطين، ثم هو -مع ذلك- خلاف ما دل عليه التنزيل؛ لأن الآيات قبل قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾، وبعد قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، جاءت من الله بذم اليهود، وتوبيخهم على ضلالهم، وذمًّا لهم على نبذهم وحي الله، وآيات كتابه، وراء ظهورهم، مع علمهم بخطأ فعلهم، فقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أحد تلك الأخبار عنهم»(١).

وجاء مثله في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

فقد نقل الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: هؤلاء أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وروى عن غيره: أنهم علماء بني إسرائيل الذين اتبعوا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

ثم رجح الطبري القول الثاني استنادًا على هذه القاعدة، فقال: «وهذا القول أولى بالصواب من القول الذي قاله قتادة؛ لأن الآيات قبلها مضت

(١) جامع البيان (٢/ ٤٥٦).

(٢) ينظر: المصدر السابق (٢/ ٥٦٤).

بإخبار أهل الكتابين، وتبديل من بدل منهم كتاب الله بالأباطيل، ولم يجد لأصحاب محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الآية التي قبلها ذكر، ولا لهم بعدها ذكر في الآية التي تتلوها»(١).

القاعدة الرابعة: «القول بالتأسيس أولىٰ من القول بالتأكيد».

شرح القاعدة: إذا دار كلام العلماء بين التأسيس -الذي هو إفادة معنىٰ جديد لم يكن حاصلًا من قبل-، والتوكيد، واحتملهما، فحمل الكلام علىٰ التأسيس أولىٰ من حمله علىٰ التوكيد؛ لأن حمله علىٰ التأسيس يضيف معنىٰ جديدًا، فهو أولىٰ من إعادة معنىٰ سابق، «ولا يذهب إلىٰ التأكيد إلا عند اتضاح عدم التأسيس»(٢).

أدلة القاعدة: هذه القاعدة من القواعد المهمة التي أكد عليها، وقررها علماء اللغة، والأصول، والتفسير، ورجحوا بها الكثير من الأقوال.

قال صاحب «معجم القواعد العربية»: «التأسيس: هو أن كون اللفظ المكرَّر لإفادة معنىٰ آخر لن يكون حاصلا قبله، ويسمَّىٰ التأسيس، ويقولون: التأكيد إِعادة، والتأسيس إفادة، والإفادة أَولىٰ، وإذا دار اللفظ بينهما، حسن الحمل علىٰ التَّأسيس، كقوله تعالىٰ: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾[الكافرون: ٢ - ٥]، فإنْ أُريد بهذا التكرار زيادة التَّقرير فهو توكيد، وإن أُريد بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: في المستقبل، فهذا معنىٰ زائِد عن مجرَّد التكرار، وهذا هو التأسيس»(٣).

(١) جامع البيان (٢/ ٥٦٤).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٢٩٣).

(٣) معجم القواعد العربية، لعبد الغني الدقر (٤/ ٥).

وقال الآمدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التأسيس أصل، وفائدة التأكيد تبع، فكان حمله على التأسيس أولىٰ»[١].

وقال بدر الدين الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا دار اللفظ بين حمله على التأسيس أو التأكيد فالتأسيس أولىٰ، لأنه أكثر فائدة»[٢].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد تقرّر في الأصول، أنه إن دار اللفظ بين التأكيد والتأسيس، فحمله على التأسيس أرجح، إلا لدليل»[٣].

وقال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أمكن حمل اللَّفظ على فائدة مجدَّدة، لم يحمل على التَّكرار في كلام النَّاس، فكيف كلام العليم الحكيم»[٤].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الكلام إذا دار بين التأسيس والتأكيد فحمله على التأسيس أولىٰ؛ لأن التأسيس فيه معنىٰ جديد، والتأكيد خلاف الأصل»[٥].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المقرّر في الأصول: أنَّ النص من كتاب الله، وسنّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا احتمل التأسيس والتأكيد معًا، وجب حمله على التأسيس، ولا يجوز حمله على التأكيد، إلا لدليل يجب الرجوع إليه»[٦].

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (ص: ٢٤٩).

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٤٨٤).

(٣) مذكرة أصول الفقه (ص: ١٤٣).

(٤) أحكام القرآن (١/ ٣٣٣).

(٥) التحرير والتنوير (١/ ١٩٦).

(٦) أضواء البيان (٦/ ٤٧١).

وقال العثيمين: «والقاعدة: أنه إذا احتمل أن يكون الكلام توكيدًا، أو تأسيسًا، حمل علىٰ التأسيس؛ لأنه فيه زيادة معنىٰ»[(١)].

وغيرهم كثير ممن نص علىٰ هذه القاعدة.

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال السمين الحلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[يوسف: ٤]: «يحتمل وجهين، أحدهما: أنها جملةٌ كُرِّرَتْ للتوكيد.. والثاني: أنه ليس بتأكيدٍ، وإليه نحا الزمخشري: فإنه قال: «فإن قُلْتَ: ما معنىٰ تكرار ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾؟ قلت: ليس بتكرارٍ، إنما هو كلامٌ مستأنفٌ، علىٰ تقديرِ سؤالٍ وقع جوابًا له، كأنَّ يعقوبَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال له عند قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ كيف رأيتها؟ سائلًا عن حال رؤيتها، فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾، قلت: وهذا أظهرُ؛ لأنه متىٰ دار الكلامُ بين الحَمْل علىٰ التأكيد، أو التأسيس، فَحَمْلُه علىٰ الثاني أَوْلَىٰ»[(٢)].

وقال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]: «يحتمل أن يراد بهذا الاصطفاء غير الاصطفاء الأول، وهو ما كان آخرًا من هبة عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لها من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد من النساء، وجعلها وإياه آية للعالمين، ويحتمل أن يراد به الأول، وكرر للتأكيد، وتبيين من اصطفاها عليهن.. ولعل الأول أولىٰ، كما قال الإمام؛ لما أن التأسيس خير من التأكيد»[(٣)].

(١) تفسير ابن عثيمين (٥/ ٣١٧).

(٢) الدر المصون (ص: ٣٤٢٧).

(٣) روح المعاني (٣/ ٣٠).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[النور:٤١]: «﴿كُلٌّ﴾ أي: كل من المصلين، قد علم صلاة نفسه، وكل من المسبحين قد علم تسبيح نفسه، وعلىٰ هذا القول فقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، تأسيس لا تأكيد، أما علىٰ القول بأن الضمير راجع إلىٰ ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: قد علم الله صلاته، يكون قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ كالتكرار مع ذلك، فيكون من قبيل التوكيد اللفظي، وقد علمت أن المقرر في الأصول أن الحمل علىٰ التأسيس، أرجح من الحمل علىٰ التوكيد»(١).

القاعدة الخامسة: «القول بالتباين أولىٰ من القول بالترادف».

شرح القاعدة: إذا اختلفت أقوال المفسرين في معنىٰ لفظة قرآنية، بين من يقول بالترادف، ومن يقول بالتباين، فأرجح القولين حملها علىٰ التباين؛ لأنه الأصل، فأكثر اللغة علىٰ إفادة معنىٰ جديدًا، ولأن اللفظين وإن اشتركا في معنىٰ، فلأحدها ميزة علىٰ الأخر؛ ولأن الترادف في القرآن قليل نادر أو معدوم، لأن كل لفظة في القرآن الكريم مقصودة المعنىٰ، ولها أثرها في دلالة المعنىٰ.

أدلة القاعدة: العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وإن اختلفوا في القول بالترادف في اللغة لكنهم لم يختلفوا أن القول بالتباين أولىٰ من القول بالترادف، فهذا ما أكده علماء اللغة والأصول والتفسير، بل واعتمده علماء التفسير في الترجيح والاختيار بين أقوال العلماء.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الترادف خلاف الأصل، فإذا دار اللفظ بين كونه مترادفًا، أو متباينًا، فحمله علىٰ المتباين أولىٰ، لأن القصد الإفهام،

---

(١) أضواء البيان (٦/ ٣٥).

فمتىٰ حصل بالواحد لم يحتج إلىٰ الأكثر، لئلا يلزم تعريف المعرف، ولأنه يوجب المشقة في حفظ تلك الألفاظ»(١).

وقد رجحوا هذا الأصل: لأنه ثبت بالاستقراء لكلام العرب، أن الشائع الكثير عندهم هو: «لكل معنىٰ لفظًا واحدًا خاصًّا به، فيكون الترادف -وهو: أن يكون للمعنىٰ الواحد أكثر من لفظ واحد- خلاف الأصل.. وهذا في أكثر كلامهم، والكثرة تفيد الظن والرجحان، فيكون المعنىٰ المنفرد بلفظ واحد، أكثر وجودًا من المعنىٰ الذي له لفظان فأكثر -وهو: المترادف- فيكون مرجوحًا؛ نظرًا لقلته، ولأنه لما عرفنا المعنىٰ بأحد اللفظين، وحصل المقصود، فالأصل عدم الثاني؛ لعدم الحاجة إليه، ولأنه يلزم منه تعريف المعرَّف، فيكون تحصيلًا وهو باطل، ولأنه ومتىٰ أمكن تكثير فوائد كلام صاحب الشرع، وجعل مدلول لكل دليل، فهو أولىٰ من الترادف والتأكيد»(٢).

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقَلَّ أن يعبر عن لفظ واحد، بلفظ واحد، يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل:

(١) البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٤٧٦).

(٢) ينظر: الجامع لمسائل أصول الفقه وتطبيقاتها علىٰ المذهب الراجح، لعبد الكريم النملة (ص: ١١٧)، والمحصول في علم أصول الفقه، للرازي (٢/ ٢٣٤)، وأنوار البروق في أنواع الفروق، للقرافي (٥/ ٣٥٥).

﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾[الطور: ٩] إن المور هو الحركة، كان تقريبًا؛ إذ المور حركة خفيفة سريعة.. والعرب تُضَمِّنُ الفعل معنىٰ الفعل، وتعديه تعديته، ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض، كما يقولون في قوله: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾[ص: ٢٤] أي: مع نعاجه، و﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[الصف: ١٤] أي: مع الله، ونحو ذلك، والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين، فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلىٰ نعاجه.. ومن قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾[البقرة: ٢]: لا شك، فهذا تقريب، وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأصل في اللغة هو التباين، وهو أكثر اللغة، والله أعلم»[(٢)].

وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه، وزعت بحسب المقامات، فلا يقوم مرادفها فيما استعمل فيه مقام الآخر، فعلىٰ المفسر مراعاة الاستعمالات، والقطع بعدم الترادف ما أمكن، فان للتركيب معنىٰ غير معنىٰ الإفراد، ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر في التركيب، وإن اتفقوا علىٰ جوازه في الإفراد، مثال ذلك: الخوف والخشية، لا يكاد اللغوي يفرق بينهما، ولا شك أن الخشية أعلىٰ من الخوف، وهي أشد الخوف.. إن الخشية تكون من عظم

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٤١).

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٥٤).

المخشـي، وإن كان الخاشـي قويًّـا، والخوف يكون من ضعـف الخائف، وإن كان المخوف أمرًا يسـيرًا..»[١].

وقـال ابن عاشـور رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«والهـدىٰ علىٰ التحقيـق، هـو: الدلالة التي من شـأنها الإيصـال إلىٰ البُغيـة، وهذا هو الظاهـر في معنـاه؛ لأن الأصل عدم الـترادف، فلا يكـون هـدىٰ مرادفًا لـدل، ولأن المفهـوم من الهُـدىٰ الدلالة الكاملـة، وهذا موافـق للمعنـىٰ المنقول إليه الهـدىٰ في العرف الشـرعي»[٢].

القاعدة السادسة: «القول بالترتيب مقدم علىٰ القول بالتقديم والتأخير».

شـرح القاعـدة: إذا اختلـف العلمـاء في معنىٰ آيـة من كتـاب الله، وكان خلافهـم دائـرًا بين مـدعٍ للتقديم والتأخيـر في الآيـة، ومبقٍ لها علـىٰ ترتيبها، فأولـىٰ القوليـن بالصـواب، قول من قـال بالترتيـب؛ لأنه الأصـل في الكلام، وينبغـي لزوم فهم الآيـة بترتيبهـا؛ لأن التقديـم والتأخير في القـرآن الكريم له أسـباب محددة، والأصل بقاء الـكلام علىٰ ترتيبه في النص، فـلا يقال بالتقديم والتأخيـر إلا بقرينـة تقرر ذلك.

أدلـة القاعدة: الأصل في بيان معـاني القرآن مراعـاة الترتيب الذي وردت به الكلمـات والآيـات، ولا ينتقل عن الأصـل إلا بدليل واضـح، وقرينة بينة، لا سـيما إذا اسـتقام المعنىٰ بدونه، فـإذا احتمل الأمر، وعُـدم الدليل والقرينة، فالقـول الحق أن يبقىٰ الـكلام علىٰ ترتيبـه، وذلك لأن القـرآن الكريم محكم البيان، قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]،

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٤/ ٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٥).

وقد راعىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فهمه وتعامله مع القرآن الترتيب الذي ورد به، كما جاء في صفة حجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ إِلَىٰ الصَّفَا، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الصَّفَا قَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ، فَبَدَأَ بِالصَّفَا»[١].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتقديم والتأخير علىٰ خلاف الأصل، فالأصل إقرار الكلام علىٰ نظمه وترتيبه، لا تغيير ترتيبه، ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة، أما مع اللبس فلا يجوز؛ لأنه يلتبس علىٰ المخاطب»[٢].

وقال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يصار إلىٰ التقديم والتأخير إلا لمعنىٰ يقتضي ذلك، أو بتوقيف، أو فيما لا يمكن فيه إلا ذلك»[٣].

وقال: «لا حاجة إلىٰ ادعاء التقديم والتأخير، والمعنىٰ يصح بخلافه»[٤].

وقال السمين الحلبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ التقديمَ والتأخيرَ من الضرائرِ عند الجمهور»[٥].

وقال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «التقديم والتأخير لا يذهب إليه إلا عند الضرورة»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حَجَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (٣٠٠٩).

(٢) مجموع فتاوىٰ (٤/ ٢٥١).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٨).

(٤) المصدر السابق (٨/ ٢٩٦).

(٥) الدر المصون (ص: ٥٥٤).

(٦) روح المعاني (١٤/ ٤٨٧).

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذكر بعض من قال في التفسير أن هذه الآية ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ﴾[البقرة: ٢١١]، مؤخرة في التلاوة، مقدمة في المعنىٰ، والخطاب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، قال: والتقدير ﴿فَإِن زَلَلۡتُم..﴾ إلىٰ آخر الآية: سل يا محمد بني إسرائيل، كم آتيناهم من آية بينة؟ فما اعتبروا ولا أذعنوا إليها، ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾؟ أي: أنهم لا يؤمنون حتىٰ يأتيهم الله، انتهىٰ.

لا حاجة إلىٰ ادّعاء التقديم والتأخير، بل هذه الآية علىٰ ترتبها أخذ بعضها بعنق بعض، متلاحمة التركيب، واقعة مواقعها، فالمعنىٰ أنهم أمروا أن يدخلوا في الإسلام، ثم أخبروا أن من زلّ جازاه الله العزيز الذي لا يغالب، الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها، ثم قيل: لا ينتظرون في إيمانهم إلاَّ ظهور آيات بينات، عنادًا منهم، فقد أتتهم الآيات، ثم سلَّىٰ نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في استبطاء إيمانهم مع ما أتىٰ به لهم من الآيات، بقوله: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ﴾ فما آمنوا بها، بل بدلوا وغيروا، ثم توعد من بدل نعمة الله بالعقاب الشديد، فأنت ترىٰ هذه المعاني متناسقة، مرتبة الترتيب المعجز، باللفظ البليغ الموجز، فدعوىٰ التقديم والتأخير المختص بضرورة الأشعار، وبنظم ذوي الانحصار، منزه عنها كلام الواحد القهار»(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ

---

(١) البحر المحيط (٢/ ٨٥).

﴿إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾[المائدة: ٦]: «الأمر بالترتيب في الوضوء، لأن الله تعالىٰ ذكرها مرتبة، ولأنه أدخل ممسوحا -وهو الرأس- بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة، غير الترتيب»[1].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾[هود: ٧٧]: «ومن بديع ترتيب هذه الجمل، أنها جاءت علىٰ ترتيب حصولها في الوجود، فإن أول ما يسبق إلىٰ نفس الكاره للأمر أن يُساء به، ويتطلب المخلص منه، فإذا عَلم أنه لا مخلص منه ضاق به ذرعًا، ثم يصدر تعبيرًا عن المعاني، وترتيبًا عنه، كلامًا يُريح به نفسه، وتصلح هذه الآية لأن تكون مثالاً لإنشاء المنشئ إنشاءه، علىٰ حسب ترتيب الحصول في نفس الأمر، هذا أصل الإنشاء ما لم تكن في الكلام دواعي التقديم والتأخير، ودواعي الحذف والزيادة»[2].

القاعدة السابعة: «المعنىٰ الشرعي مقدم علىٰ المعنىٰ اللغوي».

شرح القاعدة: ألفاظ الوحي قد تكون لها حقيقة شرعية، وهو ما وضعها الشارع في معنىٰ محدد، مثل: الصلاة والزكاة والحج، ولها حقيقة لغوية، فهي عند عدم وجود مرجح، الأولىٰ حملها علىٰ المعنىٰ الشرعي؛ لأن ألفاظ القرآن جاءت لبيان المعنىٰ الشرعي.

أدلة القاعدة: العلماء يقولون أن الحقيقة الشرعية مقدمة علىٰ الحقيقة اللغوية، وذلك عندما يكون التباين عند العلماء دائرًا بين مسمىٰ شرعي

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢٥).

وآخر لغوي، ولا دليل يعين أحدهما، حمل علىٰ الشرعي، فإن قام دليل علىٰ تعيين أحدهما، فلا ترجيح بهذه القاعدة.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا كان للكلمة الواحدة معنيان أو أكثر؛ أحدهما لغوي، والآخر شرعي، واختلف المعنيان، قدم المعنىٰ الشرعي؛ لأن القرآن الكريم نزل لبيان الشرع، لا لبيان اللغة، إلا أن تدل قرينة علىٰ إرادة المعنىٰ اللغوي»[1].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن النص إن دار بين الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية حمل علىٰ الشرعية، وهو التحقيق»[2].

وقال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن اختلف المعنىٰ الشرعي واللغوي، أخذ بما يقتضيه الشرعي، لأن القرآن نزل لبيان الشرع، لا لبيان اللغة، إلا أن يكون هناك دليل يترجح به المعنىٰ اللغوي فيؤخذ به»[3].

تطبيقات العلماء لهذه القاعدة: هذه القاعدة لها تطبيقات كثيرة، مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقدم فيه المعنىٰ الشرعي؛ قوله تعالىٰ عن المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[التوبة: ٨٤]، فالصلاة لها معنيان: (لغوي)؛ هو: الدعاء، و(شرعي)؛ وهو: هنا صلاة الجنازة، فيقدم المعنىٰ الشرعي؛ لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب.

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٦٧)، وأصول التفسير، للعثيمين (ص: ٢٩).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٣٤٧).

(٣) تفسير ابن عثيمين (١/ ٢٤).

ومثال مـا اختلف فيه المعنيـان، وقدم فيـه اللغوي لقرينـة؛ قوله تعالىٰ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبـة:١٠٣]، فالمراد بالصـلاة هنا: الدعـاء، بدليل حديث عبد الله بن أبـي أوفىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:«كان رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أتاه قـوم بصدقتهم، قـال: اللهم صل عليهـم»[١]، وأمثلـة ما اتفق فيـه المعنيان الشـرعي واللغوي كثيرة: كالسـماء، والأرض، والصـدق، والكذب، والحجر، والإنسـان[٢].

وهنالك قواعد أخرىٰ كثيرة يرجح بها عند الاختلاف، منها:

قاعدة:«متـىٰ أمكن حمل الـكلام علىٰ غير إضمار ولا افتقـار، كان أولىٰ من أن يسـلك به الإضمار والافتقار»[٣].

قاعدة:«لـكل حـرف مـن حروف المعـاني وجهٌ هـو به أولىٰ مـن غيره، فـلا يصلـح تحويل ذلك عنـه إلىٰ غيـره إلا بحجة يجـب التسـليم لها»[٤].

وقاعدة:«الضميـر يعود إلـىٰ القريب إذا لم يكن هنـاك دليل علىٰ خلاف ذلك»[٥].

(١) أخرجـه البخاري، كتـاب المغازي، باب غـزوة الحديبية، حديث رقم: (٤١٦٦)، ومسـلم، كتاب الـزكاة، باب الدعاء لمـن أتىٰ بصدقة، حديث رقـم: (١٠٧٨).

(٢) ينظر: أصول التفسير، للعثيمين (ص: ٢٩)، تفسير القرآن، للعثيمين (١/ ٢٥).

(٣) البحر المحيط (١/ ٢١).

(٤) جامع البيان (٢/ ٣٤٠).

(٥) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ١١٢).

وقاعدة: «إعادة الضمير إلىٰ المحدث عنه أولىٰ من إعادته إلىٰ غيره»[(١)].

وقاعدة: «حمل معاني القرآن علىٰ ما غلب استعماله في القرآن أولىٰ»[(٢)].

وقاعدة: «القول الذي يؤيده تصريف الكلمة وأصل اشتقاقها أولىٰ بتفسير الآية»[(٣)].

وغيرها من قواعد كثيرة تحتاج إلىٰ جمع ودراسة.

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٧٩).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٦٧)، وأصول التفسير، للعثيمين (ص:٢٩).

(٣) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين، للحربي (٢/ ١٥٣)، والكتاب مفيد في بابه.

المطلب الخامس
ضوابط في التعامل مع الهدايات

هنالك عدة ضوابط في التعامل مع الهدايات القرآنية، لابد من مراعاتها، وهي لا تنفك عن ضوابط التفسير بالرأي غالبًا، والعلماء فيها بين مقل ومكثر(١)، وقد رأيت الاكتفاء بالضوابط التي لا يستغنىٰ عنها، ويجب الالتزام بها، **من ذلك:**

أولًا: التزام طرق الفهم الصحيح للقرآن الكريم:

عند النظر في الهدايات القرآنية ينبغي أن يلتزم بالطرق الصحيحة في فهم القرآن من حيث بيان القرآن بالقرآن؛ لأن القرآن يبين بعضه بعضًا، ويحمل أحيانًا عامه علىٰ خاصه، ومطلقه علىٰ مقيده، ومبهمه علىٰ مبينه وهكذا، فإن لم يجد بيانًا للقرآن بالقرآن، فليطلبه فيما صح وثبت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه هو المكلف ببيانه للناس كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤]، وهنالك من القرآن ما لا يمكن الوصول لهديه إلا ببيان الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد تبين ببيان الله جلّ ذكره؛ أنّ مما أنزل الله من القرآن علىٰ نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لا يُوصل إلىٰ علم تأويله إلا ببيان الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره -واجبه

(١) ينظر: تفسير القرآن الكريم، أصوله وضوابطه، للدكتور علي بن سليمان العبيد، فقد ذكر ضوابط أخرىٰ ضمن جزء كبير منها في الأصول والقواعد.

ونَدْبه وإرشـــاده-، وصنوف نهيــه، ووظائف حقوقه وحــدوده، ومبالغ فرائضه، ومقاديـر الــلازم بعـض خَلْقه لبعـض، وما أشـبه ذلك مـن أحكام آيـه، التي لـم يُدرَك علمُهـا إلا ببيان رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمَّته، وهذا وجـهٌ لا يجوز لأحـد القـول فيه، إلا ببيان رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـه تأويلَه بنـصٍّ منه عليه، أو بدلالــة قـد نصَبها، دالَّــةٍ أمَّتَه علـىٰ تأويله»[١].

ولكـن يتجنـب الضعيـف والموضوع والإسـرائيليات، فإن لـم يجد في السـنة بيانًا رجع إلىٰ أقوال أصحـاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم أعلـم الناس بما أنزل علـىٰ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتعلمهـم علىٰ يده، ومعايشـتهم لنـزول القرآن ومعرفتهـم الدقيقـة بلغته، فإن لم يجد مـا يطلبه في أقـوال الصحابة، رجع إلىٰ أقوال أئمة التفسـير مـن التابعين.

ولهذا قال شـيخ الإسـلام ابن تيميـة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الجملة مـن عَدَل عن مذاهـب الصحابة والتابعين وتفسـيرهم، إلـىٰ ما يخالف ذلـك، كان مخطئًا في ذلك، بـل مبتدعًـا، وإن كان مجتهدًا مغفـورًا له خطؤه، فالمقصـود بيان طرق العلم وأدلته، وطـرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قـرأه الصحابة والتابعون وتابعوهـم، وأنهـم كانوا أعلم بتفسـيره ومعانيـه، كما أنهم أعلـم بالحق الذي بعـث اللّه به رسـوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن خالـف قولهم، وفسـر القرآن بخلاف تفسـيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلـول جميعًا»[٢].

---

(١) جامع البيان (١/ ٧٤).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٦١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اخْتُصِر في مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له.. إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلىٰ أقوال الصحابة، فإنهم أدرىٰ بذلك لما شاهدوه من القرآئن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين..»(١).

وقد بين الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «البرهان» خلاصة الشروط التي لابد منها لإباحة التفسير بالرأي الذي هو الضابط للنظر في الهدايات، وهي:

«الأولىٰ: النقل عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

الثانية: الأخذ بقول الصحابي، فقد قيل: إنه في حكم المرفوع مطلقا وخصه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه.

الثالثة: الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلىٰ ما لا يدل عليه الكثير من كلام العرب.

الرابعة: الاخذ بما يقتضيه الكلام، ويدل عليه قانون الشرع»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٦٥).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٥٦).

وقال الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«فمن فسر القرآن برأيه، أي: باجتهاده، ملتزمًا الوقوف عند هذه المآخذ، معتمدا عليها فيما يرىٰ من معاني كتاب الله، كان تفسيره سائغًا، جائزًا، خليقًا بأن يسمىٰ التفسير الجائز، أو التفسير المحمود، ومن حاد عن هذه الأصول، وفسر القرآن غير معتمد عليها، كان تفسيره ساقطًا، مرذولًا، خليقا بأن يسمىٰ التفسير غير الجائز، أو التفسير المذموم، فالتفسير بالرأي الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد علىٰ ما نقل عن الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، مما ينير السبيل للمفسر برأيه، وأن يكون صاحبه عارفا بقوانين اللغة، خبيرًا بأساليبها، وأن يكون بصيرا بقانون الشريعة، حتىٰ ينزل كلام الله علىٰ المعروف من تشريعه»(١).

ومن هنا فكل هداية خالفت دليلًا في الكتاب والسنة فهي باطلة، ولا يرجع إلىٰ اللغة مع بيانه وبيان أصحابه.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها، وما أريد بها من جهة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يحتج في ذلك الىٰ الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم»(٢).

ولذلك قال العلماء بأنه إذا لم يجد بيانًا في أقوال التابعين، رجع إلىٰ لغة العرب بالضوابط التي حددها العلماء.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٣٨٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٢٨٦).

ثانيًا: عدم الخوض فيما استأثر الله بعلمه:

مما ينبغي الالتزام به من ضوابط فهم القرآن، والبحث في هداياته، عدم الخوض فيما استأثر الله بعلمه، من الأمور الغيبية، وغيرها من الأمور التي لا تدرك بالاجتهاد والنظر، بل يُتوَقَّف معرفتها علىٰ أدلة الوحي.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنّ منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار، وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة، وأوقات آتية، كوقت قيام الساعة، والنفخ في الصور، ونزول عيسىٰ بن مريم، وما أشبه ذلك، فإن تلك أوقاتٌ لا يعلم أحدٌ حدودَها، ولا يعرف أحدٌ من تأويلها إلا الخبرَ بأشراطها، لاستئثار الله بعلم ذلك علىٰ خلقه، وبذلك أنزل ربُّنا محكم كتابه فقال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف:١٨٧]، وكان نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إذا ذكر شيئًا من ذلك لم يدلّ عليه إلا بأشراطه دون تحديده بوقته كالذي روىٰ عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنه قال لأصحابه، إذ ذكر الدجّال: «إنْ يخرجْ وأنا فيكُم، فأنا حَجِيجُه، وإن يخرجْ بعدي، فالله خليفتي عليكم»، وما أشبه ذلك من الأخبار -التي يطُول باستيعابها الكتاب- الدالّةِ علىٰ أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لم يكن عنده علمُ أوقاتِ شيء منه بمقادير السِّنين والأيام، وأن الله جل ثناؤه إنما كان عرَّفه مجيئه بأشراطه، ووقَّته بأدلته»(١).

(١) جامع البيان (١/ ٧٤).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مغيبات القرآن، وتفسير مجمله، ونحو هذا، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالىٰ، ومن جملة مغيباته، ما لم يعلم الله به، كوقت قيام الساعة ونحوها، مما يستقري من ألفاظه، كعدد النفخات في الصور، وكرتبة خلق السموات والأرض»(١).

وقال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مغيبات القرآن، وتفسير مجمله، ونحوه، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالىٰ»(٢).

وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يبحث عن مبهم أخبر الله باستئثاره بعلمه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾[الأنفال: ٦٠].. قال: والعجب ممن تجرأ.. وقال: إنهم قريظة، أو من الجن»(٣).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مغيبات القرآن، وتفسير مجمله، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف»(٤).

وقال الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وينبغي أن يعلم أن في القرآن علوما تتنوع إلىٰ ثلاثة:

الأول: علم لم يطّلع الله عليه أحدا من خلقه، بل استأثر به وحده، كمعرفة حقيقة ذاته، وصفاته، وغيوبه التي لا يعلمها إلا هو، وهذا النوع لا يجوز الكلام فيه لأحد إجماعًا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣١).

(٢) البحر المحيط (١/ ١١٩). وينظر: التحرير والتنوير (١/ ٢٣).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٥٥).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٢٣).

الثاني: ما أطلع الله عليه نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واختص به، وهذا لا يجوز الكلام فيه إلا له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولمن أذن له الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قيل: ومنه أوائل السور.

الثالث: العلوم التي علّمها الله تعالىٰ لنبيه مما أمر بتبليغه، وهذا النوع قسمان:

- قسم لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع والنقل، كالكلام في الناسخ والمنسوخ، والقراءات، وقصص الأمم الماضية، وأسباب النزول، وأخبار الحشر، والنشر، والمعاد.

- وقسم يعرف بطريق النظر والاستدلال، وهذا منه المختلف في جوازه، وهو ما يتعلق بالآيات المتشابهات، ومنه المتفق علىٰ جوازه، وهو ما يتعلق بآيات الأحكام، والمواعظ، والأمثال، والحكم، ونحوها، لمن له أهلية الاجتهاد»[1].

ثالثًا: عدم الخوض في هدى القرآن بغير علم:

من الضوابط المهمة للتكلم في القرآن، أن يتكلم الإنسان فيما يعلم، وأن لا يخوض فيما لا يعلم، لأنه سيؤدي بلا شك إلىٰ التبديل والتحريف في كلام الله تعالىٰ؛ ولذا حرم الله القول في الهدىٰ بغير حق.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا

(١) مناهل العرفان (١/ ٣٨٣).

﴿وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٣].

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قالَ في الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١).

قال صاحب «تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «من قال في القرآن بغير علم» أي: بغير دليل يقيني، أو ظني نقلي، أو عقلي مطابق للشرعي»(٢).

فالهدايات المعتبرة؛ هي التي يتكلم فيها صاحبها بعلم، ويؤيدها بنقل ثابت، أو نظر صائب، وما سواها فباطل.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعلم إما نقل مصدق عن معصوم، وإما قول عليه دليل معلوم، وما سوىٰ هذا فإما مزيف مردود، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود»(٣).

وقد حذر الله تعالىٰ من تحريف كلامه ووضعه في غير ما أريد به، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾[فصلت: ٤٠]، وقال تعالىٰ في ذم اليهود ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء: ٤٦].

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن الكريم، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، برقم: (٢٩٥٠)، والنسائي في السنن الكبرىٰ، كتاب فضائل القرآن، باب من قال في القرآن بغير علم، برقم: (٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (٢٢٧٥)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وقد ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤/ ٢٦٥)، رقم: (١٧٨٣).

(٢) تحفة الأحوذي (٤/ ١٢).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٢٩).

ومن أعظم أسباب الضلال في القرآن الكريم الذي وقع فيه أهل الأهواء راجع إلىٰ القول علىٰ الله بغير علم، أو تحريف الكلم عن موضعه.

وقد بين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبب انحرافهم، وحصره في سببين:

«إحداهما: قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها.

والثانية: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلىٰ المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به.

فالأولون راعوا المعنىٰ الذي رأوه، من غير نظر إلىٰ ما تستحقه ألفاظ القرآن، من الدلالة والبيان، والآخرون: راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز عندهم أن يريد به العربي، من غير نظر إلىٰ ما يصلح للمتكلم به، ولسياق الكلام..

والأولون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به، وتارة يحملونه علىٰ ما لم يدل عليه ولم يرد به، وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنىٰ باطلًا، فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقًّا، فيكون خطؤهم في الدليل لا في المدلول»[1].

رابعًا: الالتزام بضوابط اللغة العربية في فهم المعنى:

القرآن الكريم نزل بلغة العرب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[يوسف: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٣٥٥-٣٥٧).

﴿أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[الرعد: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[فصلت: ٣]؛ ولذلك قال العلماء: لا يفهم القرآن إلا وفق لغة العرب التي نزل عليها، ومعهودهم في الكلام، وطرائقهم في التعبير، ووجوه تصرفهم في البيان، خاصة إذا لم يجد المفسر تفسيرًا للآية في القرآن، ولا في السنة، ولا في أقوال الصحابة، ولا في أقوال التابعين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل علىٰ نبينا محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهره لظاهر كلامها ملائمًا»[١].

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القرآن نزل بلسان العرب علىٰ الجملة، فطلب فهمه إنَّما يكون من هذا الطريق خاصة، فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلىٰ تطلب فهمه من غير هذه الجهة»[٢].

بل يجب حمل كلام الله علىٰ المعروف من كلام العرب، والمشهور منهم، دون الشاذ والضعيف والمنكر، وكل تفسير ليس له أصل في لغة العرب فهو مردود.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كتاب الله تعالىٰ لا توجَّهُ معانيه، وما فيه من البيان، إلىٰ الشواذ من الكلام والمعاني، وله في الفصيح من المنطق والظاهر من المعاني المفهوم، وجهٌ صحيح موجودٌ»[٣].

(١) جامع البيان (١/ ٥٥).

(٢) الموافقات (٢/ ٣٧٥).

(٣) جامع البيان (٧/ ١٠٠).

وقال أيضًا: «غير جائز حمل كتاب الله تعالىٰ ووحيه جلّ ذكره، علىٰ الشواذ من الكلام، وله في المفهوم الجاري بين الناس وجه صحيح موجود»[1].

وقال: «وغير جائز أن نحمل معاني كتاب الله علىٰ غير الأغلب المفهوم بالظاهر، من الخطاب في كلام العرب، ولنا إلىٰ حمل ذلك علىٰ الأغلب من كلام العرب سبيل»[2].

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل معنىٰ مستنبط من القرآن، غير جار علىٰ اللسان العربي، فليس من علوم القرآن في شيء، لا مما يستفاد منه، ولا مما يستفاد به، ومن ادعىٰ فيه ذلك، فهو في دعواه مبطل»[3].

فكل هداية مستنبطة من القرآن، لا تجري علىٰ قواعد اللغة العربية، التي نزل بها القرآن، فهي ليست من هدايات هذا الكتاب، وعلومه، فالقرآن عربي، فيسلك عند استنباط واستخراج هداياته، مسلك العرب في تفسير معانيه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب الله به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم، وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها علىٰ ألفاظه العربية المعروفة المعاني التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالًا منقولة عن غير رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ردها إلىٰ هذا الأصل، فإن وافقته قبلها لكون اللفظ دالًّا عليها، وإن خالفته لفظًا ومعنىٰ، أو لفظًا،

(١) جامع البيان (٤/ ٥٧٣).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٥٧٨).

(٣) الموافقات (٣/ ٣٩١).

أو معنىٰ ردها، وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلًا معلومًا مناقضًا لها، وهو ما يعرفه من معنىٰ الكلام ودلالته»(١).

ومن لم يجعل لغة العرب مرجعه ومفزعه في التفسير، كان من أهل التحريف والزيغ لا محالة، في فهم معاني القرآن.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا بد في تفسير القرآن والحديث، من أن يعرف ما يدل علىٰ مراد الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها، مما يعين علىٰ أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ علىٰ المعاني، فإن عامة ضلال أهل البدع بهذا السبب، فإنهم صاروا يُحَمِّلُون كلام الله ورسوله علىٰ ما يدّعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك»(٢).

خامسًا: الالتزام بفهم المعنى وفق السياق الذي ورد فيه:

من الضوابط المهمة في فهم القرآن الكريم أن تُفْهَمَ معانيه وتفسر ألفاظه وفق السياق الذي ورد به المعنىٰ، وهذا من الضوابط المهمة التي أكد عليها العلماء، حيث يجب أن يراعىٰ السابق واللاحق في فهم معنىٰ الآية، خاصة إذا كان الكلام مفتقرًا إلىٰ ما بعده في إعرابه أو معناه؛ لأن قطع الآية عن سابقتها ولاحقتها قد يوقع في خطأ كبير، خاصة «فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه، وما يحف به من القرائن اللفظية، والحالية»(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٠٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ١١٦).

(٣) المصدر السابق (٦/ ١٤).

ومن هنا أكد العلماء على مراعاة نظم الكلام، والغرض الذي سيق له، لما له من دور في فهم المراد، وإصابة الحق الصواب.

قال مسلم بن يسار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا حدثت عن الله، فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده»[١].

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقوم به حُجَّة، فأما الدَّعاوى فلا تتعذر على أحد»[٢].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن تدبر القرآن، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن؛ تبين له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ، المجرد عن سائر ما يبين معناه، فهذا منشأ الغلط من الغالطين، لاسيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية، فإن هؤلاء أكثر غلطًا من المفسرين المشهورين، فإنهم لا يقصدون معرفة معناه، كما يقصد ذلك المفسرون»[٣].

وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة؛ ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٢).

(٢) جامع البيان (٩/ ٣٨٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩٥).

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٧).

فاستصحاب دلالات السياق، من الضوابط المهمة التي لا غنىٰ عنها لفهم هدايات القرآن.

وهو ضابط مهم في الوصول للمعنىٰ، وإهماله يؤدي إلىٰ خلل كبير في الوصول إلىٰ الهداية، كما جاء عن عكرمة أن نافع بن الأزرق الخارجي قال لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «يا أعمىٰ البصر، أعمىٰ القلب، تزعم أن قومًا يخرجون من النار، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة:٣٧] فقال: ويحك، اقرأ ما فوقها، هذا للكفار»[(١)].

سادسًا: جمع الآيات في الموضوع الواحد وفهمها مجتمعة:

القرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا، ويبيّن بعضه بعضًا، فقد يكون الحكم في موضع عامًا، مخصصًا في موضع آخر، مطلقٌ في موضع، مقيدٌ في موضع آخر، مبهمٌ في موضع، مُبيَّنٌ في موضع آخر، مجملٌ في موضع، مفصّلٌ في موضع، كما أن الكثير من المواضيع لا تستطيع أن تقرر الحكم النهائي، وتستوفي هدىٰ المسألة، إلا بجمع أدلة الموضوع الواحد، ثم النظر إليها مجتمعة .

مثل: أحكام الطلاق، والمواريث، والعدة؛ بل والصلاة، والزكاة، والحج، ومثل الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان، أو أحوال الأرض والجبال، وغيرها، ومن هنا فلابد للوصول لفهم سليم، من جمع الأدلة الأخرىٰ التي تتحدث عن الموضوع الواحد، ثم النظر فيها، ومحاولة

(١) جامع البيان (١٠/ ٢٩٤).

فهمها مجتمعة، وهذا هو منهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسلف الصالح، وهو ما سار عليه العلماء في كتبهم، حيث يحاولون جمع الآيات التي تتحدث عن حكم، أو موضوع واحد، خاصة إذا تطلب فهم الآية ذلك، قبل البدء في تفسير الآية، وهذا الضابط هو الذي يوصل لفهم صحيح للقرآن الكريم، ويعصم الزلل والانحراف.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو علىٰ حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها لبعض، فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين، إنما هو علىٰ أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامها المرتب علىٰ خاصها، ومطلقها المحمول علىٰ مقيدها، ومجملها المفسر بينهما، إلىٰ ما سوىٰ ذلك من مناحيها، فإذا حصل للناظر من جملتها حكم من الأحكام، فلذلك الذي نظمت به حين استنبطت.. فشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة، يخدم بعضها كأعضاء الإنسان إذا صورت صورة مثمرة، وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما أي كان عفوا، وأخذا أوليا وإن كان، ثم ما يعارضه من كلي أو جزئي..»[(١)].

سابعًا: أن يجرّد المفسِّر نفسه من الهوى:

من الضوابط المهمة للنظر في «هدايات القرآن الكريم» التجرد من الهوىٰ، الذي يعني: «أخذ القول والفعل الذىٰ يحبه، ورد القول والفعل

(١) الاعتصام (١/ ١٨١).

الذي يبغضه بلا هدى من الله»[١]؛ لأن اتباع الهوى والنزعات الشخصية من أعظم الأسباب الصارفة عن الحق والهدى، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص: ٢٦].

وقد يكون الهوى هو ميله إلى مذهب بعينه، أو قول شيخ محدد، فيحمله ذلك التعصب على تفسير القرآن برأيه ومذهبه؛ فيقع في الزيغ والضلال، فيجعل المذهب أصلًا ومتبوعًا، ومعنى الآية فرعًا وتابعًا، كما يفعله أهل الأهواء من أصحاب الفرق، فيقع في الضلال المبين، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[البقرة: ١٢٠].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن اتبع أهواء الناس بعد العلم الذي بعث الله به رسوله، وبعد هدى الله الذي بينه لعباده، فهو بهذه المثابة، ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع والتفرق المخالفين للكتاب والسنة: أهل الأهواء؛ حيث قبلوا ما أحبوه، وردوا ما أبغضوه بأهوائهم، بغير هدى من الله»[٢].

وقد حذرنا الله من اتباع الهوى، لأن الهوى دائمًا يصد عن الحق، ويعمي البصيرة عن نور الهدى، وهو من أعظم أسباب ضلال الفرق: من قدرية، ومعتزلة، ورافضة، وغيرهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٨٩).

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٨٩).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وصاحب الهوىٰ يعميه الهوىٰ ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك، ولا يطلبه، ولا يرضىٰ لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضىٰ إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه»[١].

فهذه هي أهم الضوابط التي يجب الالتزام بها لكل ناظر في «الهدايات القرآنية» ملتزمًا طريقة السلف الصالح في فهم القرآن الكريم والاهتداء به.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها علىٰ عبده؛ بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما؛ بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم، الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة، وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدىٰ والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوىٰ الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته، اتباع الهوىٰ، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوىٰ»[٢].

---

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية (٥/ ١٣٣).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٨٧).

الفصل الخامس

تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة

سبله، وموانعه، وأثره

ويشتمل على المباحث التالية:

- ❁ سبل تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة
- ❁ موانع تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة
- ❁ أثر تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة

تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة سبله، وموانعه، وأثره

تمهيد:

الحمد لله الذي جعل القرآن العظيم هدىً للمتقين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين، الهادي إلىٰ الطريق القويم، والصراط المستقيم، صلىٰ الله عليه، وعلىٰ آله، وأصحابه، ومن تبعهم، وسار علىٰ هديهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فالقرآن الكريم كلام الله تعالىٰ، أعظم الكتب السماوية التي أنزلها الله علىٰ أنبيائه ورسله، وأجمعها للعلوم كافة، هذا الكتاب العظيم والسفر القويم وُصف في مواطن عديدة منه أنه كتاب هداية، أي: دلالة وإرشاد، يدل الناس إلىٰ الحق ويرشدهم إلىٰ الصواب، بل قد سمىٰ الله كتابه بالهدىٰ في غير ما آية، فقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[الإسراء: ٩٤]، وقال جل في علاه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾[الكهف: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[النجم: ٢٣].

والهداية - كما أخبر القرآن - لا تتحقق إلا لمن آمن بالله تعالىٰ، وصدق برسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1][البقرة: ٢،١].

(١) أخرج الطبري في جامعه (١/ ٢٣٣) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه فسر الآية بـ: المؤمنين.

يقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أي: الذين يحذَرُون من الله تعالىٰ عقوبتَه في تَرْك ما يعرفون من الهُدىٰ، ويرجون رحمَته بالتَّصديق بما جاء به»(١)؛ لأن «الهدىٰ على التحقيق؛ هو الدلالة التي من شأنها الإيصال إلىٰ البغية.. والهدىٰ الشرعي هو الإرشاد إلىٰ ما فيه صلاح العاجل الذي لا يَنقُضُ صلاح الآجل، وأثر هذا الهدىٰ هو الاهتداء، فالمتقون يهتدون بهديه، والمعاندون لا يهتدون؛ لأنهم لا يتدبرون»(٢).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٩٧]، «وإنما سماه الله جل ثناؤه هدىٰ؛ لاهتداء المؤمن به، واهتداؤه به اتخاذه إياه هاديًا يتبعه، وقائدًا ينقاد لأمره ونهيه، وحلاله وحرامه»(٣).

وهذا لا يتنافىٰ أو يتعارض مع شمولية الهداية وعمومها للناس كافة، كما أخبر القرآن في عدة مواضع من كتابه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[البقرة: ١٨٥]؛ فقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾أي: عموم الناس، فالمراد «بالهدىٰ الأول: ما في القرآن من الإرشاد إلىٰ المصالح العامة والخاصة التي لا تنافي العامة، وبالبينات من الهدىٰ: ما في القرآن من الاستدلال على الهدىٰ الخفي، الذي

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (١/ ٢٣٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٥).

(٣) جامع البيان (٢/ ٣٩٣).

ينكره كثير من الناس، مثل: أدلة التوحيد، وصدق الرسول، وغير ذلك من الحجج القرآنية»[(١)].

ويقول أبو الفداء إسماعيل حقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتخصيص الهدىٰ بهم -أي: بالمتقين كما في الآية السابقة من سورة البقرة- لما أنهم المقتبسون من أنواره، المنتفعون بآثاره، وان كان ذلك شاملًا لكل ناظر من مؤمن وكافر، وبذلك الاعتبار قال تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: كلهم بيانًا، وهدىٰ للمتقين علىٰ الخصوص إرشادًا»[(٢)].

ومما تقدم يفهم أن الهداية أنواع كما ذكر أهل العلم[(٣)].

يقول ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما مراتب الهدىٰ **فأربعة:**

إحداها: الهدىٰ العام، وهو: هداية كل نفس إلىٰ مصالح معاشها وما يقيمها، وهذا أعم مراتبه.

المرتبة الثانية: الهدىٰ بمعنىٰ البيان، والدلالة، والتعليم، والدعوة إلىٰ مصالح العبد في معاده، وهذا خاص بالمكلفين، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولىٰ، وأعم من الثالثة.

المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء، وهي: هداية التوفيق، ومشيئة الله لعبده الهداية، وخلقه دواعي الهدىٰ، وإرادته والقدرة عليه للعبد، وهذه الهداية التي لا يقدر عليها إلا الله تعالىٰ.

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٧٣).

(٢) روح البيان، لإسماعيل حقي الإستانبولي الحنفي (١/ ٣٠).

(٣) سبقت الإشارة إلىٰ ذلك في الفصول المتقدمة، لكني أشير هنا إلىٰ هذه الأنواع دون تفصيل .

المرتبة الرابعة: الهداية يوم المعاد إلىٰ طريق الجنة والنار»[١].

ثم استطرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان هذه الأنواع الأربعة بشيء من التفصيل[٢].

وقد جمع القرآن الكريم بين الهداية العامة والهداية الخاصة في آيات عديدة، يقول سبحانه عن قوم صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، ويقول تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٨]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النحل: ٦٤]، ويقول: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وعليه؛ فإن قال قائل: بما أن القرآن الكريم فيه بيان وهداية لجميع الخلق، فلم خص المتقين بالهداية كما تقدم بيانه؟

فيجاب عنه: بأن «المتقين هم الذين ينتفعون بالبيان، ويعملون به، فإذا كانوا هم الذين ينتفعون، صار في الحقيقة حاصل البيان لهم»[٣].

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٦٥ – ٨٥).

(٢) ينظر: شفاء العليل، الباب الرابع عشر: في الهدىٰ والضلال، ومراتبهما، والمقدور منهما للخلق، وغير المقدور لهم. وينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٣٥- ٣٧).

(٣) بحر العلوم (١/ ٢٢)، وبنحوه قال غير واحد. وينظر: جامع البيان (١/ ٢٣٠).

وهذه الهداية الخاصة بنوعيها -المجملة والمفصلة-[١]، لا بد أن يُعلم علم اليقين أن من لم يوفقه الله تعالىٰ لها لن يوفق مهما عمل، فهي منَّة من الله يخص بها من شاء من خلقه، ويصطفي إليها من أراد من عباده، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾[الشورىٰ: ٥٢]، ولا تتحقق إلا بأمر الله تعالىٰ، فهو الهادي سبحانه، كما جاء ذلك مقررًا في نصوص كثيرة من كتاب الله:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ﴾[الأنعام: ٨٨].

وبنحوها قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾[الزمر: ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾[النور: ٣٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[الأحزاب: ٤].

وغيرها من الآيات الكثيرة في هذا الباب.

وفي الحديث القدسي: «.. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم..» الحديث[٢].

---

(١) قال ابن رجب الحنبلي: «فإن الهداية نوعان:

هداية مجملة، وهي الهداية للإسلام والإيمان، وهي حاصلة للمؤمن.

وهداية مفصلة، وهي هداية إلىٰ معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام، وإعانته علىٰ فعل ذلك، وهذا يحتاج إليه كل مؤمن ليلًا ونهارًا». جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٠).

(٢) الحديث بطوله أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧).

ومع تعدد نعم الله تعالىٰ علىٰ عباده: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] (١)، فإن نعمة الهداية هي أعظم النعم وأجلها علىٰ الإطلاق: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

(١) وردت هذه الآية في موضعين من كتاب الله تعالىٰ بنفس اللفظ؛ في سورة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ آية: (٣٤)، وفي سورة النحل آية: (١٨)، والملاحظ أن هاتين الآيتين اختلفتا في أمرين:

الأول: في رسم كلمة ﴿نِعۡمَتَ﴾، فرسمت في آية إبراهيم بـ(التاء) المفتوحة، مع عشرة مواضع أخرىٰ في القرآن الكريم رسمت هكذا، ورسمت بـ(التاء) المربوطة في آية النحل، ومثلها في أربعة وعشرين موضعًا أخرىٰ في القرآن الكريم، والفرق بينهما كما ذكر أبو العباس المراكشي في كتابه: «عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل» (ص: ١٠٩)، أنها ترسم بـ(التاء) المفتوحة إذا كانت بمعنىٰ الفعل، وبالتاء المضمومة إذا كانت بمعنىٰ الاسم.

وأشار محمد شملول في كتابه: «إعجاز القرآن وإعجاز التلاوة» (ص: ١٧٧)، أنها تأتي بـ(التاء) المفتوحة حينما تدل علىٰ النعمة الخاصة التي وهبها الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين من عباده، وتأتي بـ(التاء) المربوطة حينما تتحدث عن نعم الله الظاهرة للعيان، وهي النعم العامة للبشر، أو تتحدث عن أقل شيء يطلق عليه نعمة، ثم قال بعد أن ذكر الفرق بينهما: «وجدير بالذكر أنه حينما تذكر ﴿نِعۡمَتَ﴾ في أي آية من القرآن الكريم؛ فيكون ذلك من أجل لفت انتباه قارئ القرآن لتدبر هذه الآية، وما حولها من آيات، واستخلاص الحكمة، والعبرة».

والثاني: التذييل، فقد ذيلت الأولىٰ بـ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وذيلت الثانية بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١٨]، وسبب الاختلاف بين الآيتين راجع إلىٰ السياق؛ ففي الآية الأولىٰ يدور السياق حول الإنسان وصفاته، فختمت بما يناسب صفاته، وأما آية النحل فإنها في سياق الحديث عن صفات الله تعالىٰ ونعمه؛ لذا ختمت بما يناسب صفات المولىٰ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من العفو والمغفرة.

فتحقيق الهداية إذًا لا يمكن أن تكون إلّا بتوفيق الله تعالىٰ لعبده، فمن ابتغىٰ الهدىٰ من عند غير الله أضله الله، وقد بين القرآن الكريم في آياته أن كافة الشركاء من دون الله لا يمكن أن تحقق الهداية مهما بذل الإنسان وسعىٰ، قال تعالىٰ مستنكرًا علىٰ من زعم هذا الزعم: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[يونس: ٣٥].

وبعد: فإنَّ تحقق الهداية وإن كان اصطفاءً واختيارًا من الله تعالىٰ، إلا أنه تعالىٰ قد هيأ السبل وبين الوسائل لتحقيقها، وفي مقابل ذلك أوضح سبحانه الموانع التي تمنع منها، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ﴾[الأعراف: ٣٠]، أي: الناس علىٰ فريقين:

فريق «وفقهم الله تعالىٰ لهدايته، ويسر لهم أسبابها، وصرف عنهما موانعها».

وفريق «وجبت عليهم الضلالة، بما تسببوا لأنفسهم، وعلموا بأسباب الغواية»(١).

وعليه؛ فإن من اتبع السبل والوسائل تحققت له تلك الهداية بأمر الله جل وعلا ونفع نفسه، ومن ارتكب شيئًا من الموانع امتنع عنها ولم يضر إلا نفسه، قال تعالىٰ مخاطبًا نبيه وخليله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[يونس: ١٠٨]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾[الإسراء: ١٥].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٤٩).

وهذه السبل والموانع متفرعة المشارب، ومتعددة المسالك، ومتنوعة الطرق، ذكرها الله في كتابه، وبينها رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما صح من سنته.

وسيكون محور الحديث هنا حول هذه السبل والموانع، وأثر تحقيق الهداية في واقع الأمة، وهذا من خلال **ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: سبل تحقيق الهدايات القرآنية، **وفيه مطالب:**

المطلب الأول: الإيمان بالله والإسلام.

المطلب الثاني: تقوى الله والاستجابة لأوامره تعالى.

المطلب الثالث: الاستجابة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباع هديه.

المطلب الرابع: اتباع أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاقتداء بهديهم.

المطلب الخامس: الدعاء بطلب الهداية والثبات عليها.

المطلب السادس: التوبة والإنابة إليه سبحانه.

المطلب السابع: تلاوة القرآن الكريم وتدبره.

المطلب الثامن: العلم والعمل.

المبحث الثاني: موانع تحقيق الهدايات القرآنية، **وفيه مطالب:**

المطلب الأول: الكفر.

المطلب الثاني: الظلم.

المطلب الثالث: الفسق.

المطلب الرابع: الخيانة.

المطلب الخامس: حب الدنيا وكراهية الموت.

المطلب السادس: اتباع الهوى.

المطلب السابع: الكذب.

المطلب الثامن: الحسد.

المطلب التاسع: الكبر.

المبحث الثالث: أثر تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة، **وفيه مطالب**:

المطلب الأول: الهداية للتي هي أقوم.

المطلب الثاني: العدل والإنصاف.

المطلب الثالث: الوحدة والاتفاق.

المطلب الرابع: التمكين في الأرض.

المطلب الخامس: الأمان والطمأنينة.

المطلب السادس: السعادة الحقيقية.

هذا والله تعالىٰ أسأل أن يكتب التوفيق لي، ويشرح صدري، وييسر أمري، ويجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله، وصحبه، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

سبل تحقيق الهدايات القرآنية

سبل تحقيق الهدايات القرآنية

المطلب الأول
الإيمان والإسلام

لا تتحقق الهداية بالقرآن الكريم إلا إن آمن المرء بالله تعالىٰ، وأسلم لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصدق بكتابه، ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تدلان علىٰ ذلك، وتبينان أن الإيمان والإسلام سبب للهداية لمن طلبها وأرادها.

وإن المتأمل لنصوص القرآن والسنة يجد أن الهداية تتحقق في فئتين من الناس بسبب الإيمان أو الإسلام:

الفئة الأولىٰ: الكفار أو المشركون الذين أسلموا ودخلوا في الإيمان، والذي يقول الله تعالىٰ في حقهم: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾[البقرة: ١٣٧]، أي: فإن آمن أهل الكتاب وصدقوا بالله وما أنزل إليكم، وأقروا بذلك، مثل ما صدقتم أنتم به أيها المؤمنون وأقررتم، فقد وُفِّقوا ورَشِدوا، ولزموا طريق الحق واهتدوا(١).

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الرد علىٰ أهل الكتاب الذين زعموا أن اليهودية والنصرانية سبب للهداية، حيث قالوا كما حكىٰ القرآن علىٰ لسانهم: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾[البقرة: ١٣٥]، فردّ الله تعالىٰ عليهم بأن الهداية ليست كما زعموا، بل إنها في الإيمان بالله الواحد

---

(١) ينظر: جامع البيان (٣/ ١١٣).

الأحد، واتباع ملل الأنبياء جميعًا، قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٥، ١٣٦]، «فإيمانهم اهتداءٌ، وليسوا قبل ذلك على هدىً خلافًا لزعمهم أنهم عليه.. فدل مفهوم الشرط على أنهم ليسوا على هدى، ما داموا غير مؤمنين بالإسلام»[١].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم، فقد اهتدوا، أي: فقد أصابوا الحق، وأرشدوا إليه..»[٢].

ويقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية الكريمة: «أي: فإن آمن أهل الكتاب ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ يا معشر المؤمنين من جميع الرسل، وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم، وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ للصراط المستقيم، الموصل لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية، إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾، فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه، و الهدى هو العلم بالحق،

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٤٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٢٢).

والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا»(١).

والآية الكريمة ذكرت «لهم الهداية بالإقرار والاعتقاد بدون سائر الطاعات، بيانًا لشرف الإيمان، وجلال قدره، وعلو أمره؛ فانه إذا قوىٰ لم يبطله نفس المخالفات، بل هو الذي يغلب فيرد الىٰ التوبة بعد التمادي في البطالات، وكما هدىٰ اليوم الىٰ الإيمان يهدي غداً إلىٰ الجنان»(٢).

وفي سورة آل عمران يأمر الله تعالىٰ نبيه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يقول لأهل الكتاب وغيرهم من مشركي العرب: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ﴾[آية: ٢٠]، «أمر أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين، وجعلهم إذا أسلموا مهتدين، وإن لم يسلموا فقد قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ﴾، أي: تبلغهم رسالات ربك إليهم، والله هو الذي يحاسبهم، فدل بهذا كله علىٰ أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام، كما يبلغ الأميين، وأن الله يحاسبهم علىٰ ترك الإسلام كما يحاسب الأميين»(٣).

وهذه الآية الكريمة وردت في سياق مجادلة أهل الكتاب وغيرهم من مشركي العرب ومحاجتهم، وبيان أن الدين عند الله جَلَّ وَعَلَا هو الإسلام لا غير، وأن من لم يسلم فلا سبيل له إلىٰ الهداية والرشاد، قال سبحانه:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٨).

(٢) روح البيان (١/ ٤٣).

(٣) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (١/ ٣٣٧).

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[آل عمران: ١٩، ٢٠]، فبين تعالىٰ أنه لا دين مرضي عنده سوىٰ الإسلام، وهو الشرع الذي بعث به الرسل، وأنزل من أجله الكتب[١]، كما قال المولىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران: ٨٥]، وعليه؛ فإن من يكفر بالله تعالىٰ، ولم يسلم وجهه إليه تعالىٰ فلن يصل إلىٰ الهداية، مهما سعىٰ، وعمل، واجتهد، وقد تعجب الله تعالىٰ من قومٍ طلبوا الهداية في غير الإسلام ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

والإسلام ليس مجرد شعار يرفع، وباللسان ينطق، بل هو تطبيق وسلوك وعمل، «فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه، فمن عبده، وعبد معه إلهًا آخر، لم يكن مسلمًا، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا، والإسلام هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له، والعبودية له»[٢].

---

(١) أخرج الطبري في تفسيره (٦/ ٢٧٥)، عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال في قوله ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾: «الإسلام: شهادة أنّ لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودلّ عليه أولياءه، لا يقبل غيرَه ولا يجزىٰ إلا به».

(٢) الإيمان، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ٢٠٧).

وللشيخ الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام نفيس ولطيف في هذا الباب، أنقله بتمامه من تفسيره، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإسلام النفس لله معناه: إسلامها لأجله، وصيرورتها مِلكًا له، بحيث يكون جميع أعمال النفس في مرضاة الله، وتحت هذا معان جمَّة هي جماع الإسلام، نحصرها في عشرة:

المعنىٰ الأول: تمام العبودية لله تعالىٰ، وذلك بألا يُعبد غير الله، وهذا إبطال للشرك؛ لأن المشرك بالله غير الله لم يُسلم نفسه لله، بل أسلم بعضها.

المعنىٰ الثاني: إخلاص العمل لله تعالىٰ، فلا يلحظُ في عمله غير الله تعالىٰ، فلا يُرائي، ولا يصانع فيما لا يُرضي الله، ولا يقدِّم مرضاة غير الله تعالىٰ علىٰ مرضاة الله.

الثالث: إخلاص القول لله تعالىٰ، فلا يقول ما لا يَرضىٰ به الله، ولا يصدر عنه قولٌ إلا فيما أذن الله في أن يقال، وفي هذا المعنىٰ تجيء الصراحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، علىٰ حسب المقدرة والعلم، والتصدي للحجة لتأييد مراد الله تعالىٰ، وهي صفة امتاز بها الإسلام، ويندفع بهذا المعنىٰ النفاق، والملق، قال تعالىٰ في ذكر رسوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

الرابع: أن يكون ساعيًا لتعرُّف مراد الله تعالىٰ من الناس، ليُجريَ أعماله علىٰ وفقه، وذلك بالإصغاء إلىٰ دعوة الرسل المخبِرين بأنهم مرسلون من الله، وتلقيها بالمتأمل في وجود صدقها، والتمييز بينها وبين الدعاوىٰ الباطلة، بدون تحفُّز للتكذيب، ولا مكابرة في تلقي الدعوة، ولا إعراضٍ عنها بداعي الهوىٰ وهو الإفحام، بحيث يكون علمُه بمراد الله من الخلق هو ضالته المنشودة.

الخامس: امتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهىٰ عنه، علىٰ لسان الرسل الصادقين، والمحافظة علىٰ اتباع ذلك، بدون تغيير ولا تحريف، وأن يذود عنه من يريد تغييره.

السادس: ألا يجعل لنفسه حُكماً مع الله فيما حكم به، فلا يتصدىٰ للتحكم في قبول بعض ما أمر الله به، ونبذ البعض، كما حكىٰ الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾ [النور: ٤٨، ٤٩]، وقد وصف الله المسلمين بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾[الأحزاب: ٣٦]، فقد أعرض الكفار عن الإيمان بالبعث؛ لأنهم لم يشاهدوا ميِّتا بُعث.

السابع: أن يكون متطلِّبًا لمراد الله مما أشكل عليه فيه، واحتاج إلىٰ جرْيه فيه علىٰ مراد الله، بتطلبه من إلحاقه بنظائره التامة التنظير بما علم أنه مراد الله، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾[النساء:٨٣]، ولهذا أدخل علماء الإسلام حكم التفقه في الدين، والاجتهاد، تحت التقوىٰ المأمور بها، في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[التغابن: ١٦].

الثامن: الإعراض عن الهوىٰ المذموم في الدين، وعن القول فيه بغير سلطان ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾[القصص: ٥٠].

التاسع: أن تكون معاملة أفراد الأمة بعضها بعضًا، وجماعاتها، ومعاملتها الأمم كذلك، جاريةً علىٰ مراد الله تعالىٰ من تلك المعاملات.

العاشر: التصديق بما غُيب عنا، مما أنبأنا الله به من صفاته، ومن القضاء والقدر، وأن الله هو المتصرف المطلق»[١].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٠٣، ٢٠٤).

أقول: وقد بينت آية آل عمران أن إسلامهم سبب لهدايتهم، فإن هم أسلموا فقد ظفروا بالهداية، «ظفروا بالهداية التي هي الحظ الأكبر، وفازوا بخيري الدنيا والآخرة»(١).

الفئة الثانية: المؤمنون أصلًا، الذين استجابوا لله والرسول، ودخلوا في الدين، وآمنوا بالله تعالىٰ، وصدقوا رسوله ومصطفاه، ومن هذا الباب ما ورد من طلب الهداية في سورة الفاتحة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[الفاتحة:٦]، فما المراد بالهداية هنا؟

وقد اختلفت أقوال أهل التفسير رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في المراد بالهداية هنا علىٰ أقوال، حاصلها:

القول الأول: الإلهام والتوفيق والثبات عليها، أي: وفقنا للثبات علىٰ الهداية، رُوي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال لمحمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قل يا محمد: اهدنا الصراط المستقيم، يقول: ألهمنا الطريق الهادي»(٢).

ونقل السمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ يعني: ثبتنا عليه»(٣).

---

(١) فتح القدير (١/ ٣٧٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان (١/ ١٦٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣٠)، وإسناده ضعيف؛ لعلتين: العلة الأولىٰ: ضعف أحد الرواة، وهو: بشر بن عمارة الخثعمي الكوفي ضعفه البخاري، والنسائي، وابن حبان، وابن حجر، وقال عند الدارقطني: متروك.
ينظر ترجمته في: التاريخ الكبير للبخاري (٢/ ٨٠)، وتهذيب الكمال (٤/ ١٣٧، ١٣٨)، والتقريب (ص: ١٢٣).
العلة الثانية: الانقطاع بين الضحاك بن مزاحم، وابن عباس، قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨) عندما ذكر هذا الإسناد قال: «فإن في إسناده ضعفًا وانقطاعًا».

(٣) بحر العلوم (١/ ١٨).

وهذا المعنىٰ ذهب إليه جماعة من المفسرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: كالطبري، والزجاج، والنسفي، وابن عادل الحنبلي وآخرين[١].

واستشهد الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمعنىٰ التوفيق والإلهام بقول الشاعر:

لا تَحْرِمَنِّي هَـدَاكَ اللهُ مَسْأَلتِي ... وَلا أُكُونَنْ كَمَنْ أَوْدَىٰ به السَّفَرُ

يعني: وفقك الله لقضاء حاجتي.

القول الثاني: الدلالة والإرشاد، أي: «دلنا علىٰ الصراط المستقيم وأرشدنا إليه، وأرنا طريق هدايتك الموصِّلة إلىٰ أنسك وقربك»[٢].

وإليه ذهب السمرقندي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن وآخرون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ [٣].

وجمع بينهما بعض المفسرين: «دُلَّنا عليه، واسلكْ بنا فيه وثبِّتنا عليه»[٤].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية الكريمة: «هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلىٰ البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه، وتزيينه في قلبه، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه.

---

(١) ينظر: جامع البيان (١/ ١٦٦)، ومعاني القرآن، للزجاج (١/ ٤٩)، ومدارك التنزيل (١/ ٣٢)، واللباب في علوم الكتاب (١/ ٢٠٣).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٤٧).

(٣) ينظر: بحر العلوم (١/ ١٨)، ومعالم التنزيل (١/ ٥٤)، وتفسير السمعاني (١/ ٣٨)، والجامع لأحكام القرآن (١/ ١٤٧)، ولباب التأويل (١/ ٢٠).

(٤) المحرر الوجيز (١/ ٨٩). وينظر: تفسير السمعاني (١/ ٣٨)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٥١)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٩).

هما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلًا وإجمالًا، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة لنا على القيام لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هاهنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟! فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته، ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوته الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور، كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام»[١].

القول الثالث: الزيادة، أي: زدنا هدىً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾[محمد:١٧]، أي:«وأما الذين وفّقهم الله لاتباع الحقّ، وشرح صدورهم للإيمان به وبرسوله من الذين استمعوا إليك يا محمد، فإن ما تلوته عليهم، وسمعوه منك ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ يقول: زادهم الله بذلك إيمانًا إلى إيمانهم، وبيانًا لحقيقة ما جئتهم به من عند الله إلى البيان الذي كان عندهم»[٢].

---

(١) التفسير القيم (ص: ١٣)، مدارج السالكين (١/ ٣٢).

(٢) جامع البيان (٢٢/ ١٧٠).

وزيادة الإيمان ونقصانه وردت فيه نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك مثلًا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾[الفتح: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾[المدثر: ٣١]=

= وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وقوله جل في علاه في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾[الأنفال: ٢]، وفي الحديث المشهور الصحيح الثابت عن عدد من أصحاب النبي ﷺ كأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال حبة من إيمان».

حديث أنس أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، برقم: (٤٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، برقم: (١٩٣)، وحديث جابر أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، برقم: (١٩١)، وحديث أبي هريرة أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، برقم: (٦٥٧٣)، وألفاظهم متقاربة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» أي: كامل الإيمان

أخرجه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب النهبى بغير إذن صاحبه، برقم: (٢٤٧٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان بالمعاصي، برقم: (٧٥).

قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (١٠/ ٣٤): «وحمل أهل السنة الإيمان هنا على الكامل؛ لأن العاصي يصير أنقص حالًا في الإيمان ممن لا يعصي».

إلى غيرها من النصوص الكثيرة في القرآن والسنة، وهذه النصوص في مجملها تدل بدلالة الالتزام على أنه ينقص أيضًا؛ لأن كل ما يزيد ينقص.

قال البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٦٠) بعد أن ذكر جملة من الآيات التي صرّحت بزيادة الإيمان: «فثبت بهذه الآيات أن الإيمان قابل للزيادة، وإذا كان قابلًا للزيادة فعدمت الزيادة كان عدمها نقصانًا». =

القـول الرابع: سـلوك طريـق الجنة، أي: أسـلكنا طريق الجنة يـوم المعاد، ذكـره الطـبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] وتعقبه بـأن الحجة من أهـل التفسـير مجمعون علىٰ خلافه.

والذي يظهـر لي -والله تعالىٰ أعلـم- أنه لا تعارض بين مـا ذكر من أقوال، فالآيـة تحتمل جميعها، ولا وجـه لتخصيص وجه دون آخر.

ومن الآيـات الدالة علىٰ هداية المؤمنين كذلـك؛ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[يونـس: ٩]، حيـث بينت الآيـة الكريمة أن من آمن بـالله تعالىٰ، وعمل صالحًا هـداه الله بسـبب إيمانه[2]، «والبـاء في ﴿بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ للسـببية، بحيث إن

= وهـذا القول مروي عـن أصحاب النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كأبـي الدرداء، وأبـي هريرة، وابن عبـاس.. وغيرهـم، ولم يعـرف فيهم خالف -كما قال شـيخ الإسـلام-، وهـو مما أجمع عليه أهل السـنة والجماعـة، وخالف في ذلك المرجئـة والمعتزلة والخـوارج، الذين أنكروا الزيـادة والنقصان معًـا، وقالوا: النقص شـك، والشـك كفر، فلا يزيـد ولا ينقص.

ينظر: كتاب الشـريعة للآجـري، باب ذكر ما دل علـىٰ زيادة الإيمان ونقصانـه، (٢/ ٥٨٠)، ومـا بعدها، وشـرح أصـول اعتقاد أهل السـنة والجماعـة للالكائي، باب جمـاع الكلام في الإيمـان (٤/ ٨٨٩) وما بعدهـا، وكتاب الإيمان لابن تيميـة ص: (١٧٦) وما بعدها، وروائع التفسـير الجامع لتفسـير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٢٧٢)، وشـرح النووي علىٰ صحيح مسلم (١/ ١٤٦، ١٤٧)، وأضـواء البيـان (٢/ ٥١،٥٠)، وكتـاب زيادة الإيمـان ونقصانه وحكم الاسـتثناء فيه، للدكتورعبد الـرزاق البـدر (ص: ٥١) وما بعدها.

(١) جامع البيان (١/ ١٦٩).

(٢) قـال ابن كثيـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسـيره (٤/ ٢١٨): «يحتمل أن تكون الباء ها هنا سـببية، فتقديره: بسـبب إيمانهـم في الدنيـا يهديهـم الله يـوم القيامة علـىٰ الصراط المسـتقيم حتـىٰ يَجُوزُه ويَخلصـوا إلىٰ الجنـة، ويحتمل أن تكون للاسـتعانة».

الإيمان يكون سببًا في مضمون الخبر، وهو الهداية، فتكون الباء لتأكيد السببية المستفادة من التعريف بالموصولية»(١).

وقد اختلف العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في بيان المراد من الهداية في هذه الآية، كذلك على أقوال(٢):

القول الأول: الهداية إلى الجنة، أي: «كما هداهم اليوم إلى معرفته من غير ذريعة يهديهم غدًا إلى جنته ومثوبته من غير نصير من المخلوقين ولا وسيلة»(٣).

روي عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال في الآية: «يكون لهم إيمانهم نورًا يمشون به»(٤).

وقال ابن جريج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَمْثُل له عمله في صورة حسنة، وريحٍ طيبة، يعارِض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك! فيجعل له نورًا من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾، والكافر يَمْثل له عمله في صورة سيئة، وريح منتنة، فيلازم صاحبه ويُلازُّه حتى يقذفه في النار»(٥).

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٠١).

(٢) ينظر: النكت والعيون (٢/ ٤٢٣)، وزاد المسير (٢/ ٣١٨)، ومفاتيح الغيب (١٧/ ٢١٣)، ولباب التأويل (٢/ ٤٣٠).

(٣) لطائف الإشارات (٢/ ٨١).

(٤) تفسير مجاهد (ص: ٣٧٩)، وأخرجه الطبري في جامع البيان (١٥/ ٢٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٩٢٩).

(٥) ذكره الطبري في جامع البيان (١٥/ ٢٨).

وإلىٰ هـذا المعنىٰ ذهب كثير مـن المفسـرين، بل عـزاه الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلـىٰ قول المفسـرين(١)، ويشـهد لهذا المعنىٰ **آيتان:**

الأولىٰ: قوله تعالىٰ في سـورة الأعـراف: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾[آيـة:٤٣]، أي: هدانا للجنة، بدلالة السـياق؛ لأن الله تعالىٰ أشـار إلىٰ دخول أهل الجنـة الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾، ثـم ذكر علىٰ لسـانهم أنهم يحمدونـه تعالىٰ علىٰ هذه النعمة العظيمـة والمنة الكبيرة.

الثانيـة: قولـه تعالـىٰ: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾[الحديـد: ١٢].

القـول الثاني: الهداية للديـن، أي: بتصديقهم بهذا الديـن هداهم الله(٢)، وقد أشـار بعض المفسـرين(٣) إلىٰ أن هـذا علىٰ معنـىٰ التقديم، ومعنـاه: إن الذين يهديهـم ربهم بإيمانهـم حتىٰ آمنوا وعملـوا الصالحات.

---

(١) الوسـيط، للواحـدي (٢/ ٥٤٠). وينظر: الهدايـة إلىٰ بلوغ النهايـة (٥/ ٣٢٢٣)، ولطائف الإشـارات (٢/ ٨١)، ومفاتيـح الغيب (١٧/ ٢١٣)، وتفسـير القرآن، للعز بن عبد السـلام (٢/ ٦٣)، والتسهيل (١/ ٣٥٣).

(٢) ذكـره الطـبري في جامـع البيـان ولـم يعـزه لأحـد (١٥/ ٢٨)، وكـذا البغوي في تفسـيره (٤/ ١٢٢).

(تنبيـه): ذكـر الشـيخ أحمد شـاكر في تحقيقـه أن ما بعده سـقط من المخطـوط، ورجعت كذلـك إلـىٰ نسـخة (دار هجـر) مـن تفسـير الطبري فلـم أجـد كلامًا بعـد هـذا القول.

(٣) ينظر: بحر العلوم (٢/ ١٠٥).

وهذا المعنىٰ قدمه الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره(١)، مجوّزًا القول السابق.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جامعًا بين القولين السابقين: «أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلىٰ الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلىٰ الصراط الموصل إلىٰ جنات النعيم»(٢).

القول الثالث: الدوام والثبات، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[محمد: ١٧]، وقوله تعالىٰ عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾[الكهف: ١٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[النساء: ١٣٦] «فإنما معناه: اثبتوا»(٣).

وهذا المعنىٰ قدمه القرطبي(٤)، وجوّزه الخازن(٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهداهم أولًا للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان، هداية بعد هداية»(٦).

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٣٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٥٨، ٣٥٩).

(٣) قاله ابن عطية في تفسيره (٣/ ١٠٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣١٢).

(٥) لباب التأويل (٢/ ٤٣٠).

(٦) الفوائد (ص: ١٣٠).

وقد يكون للهداية معنىٰ آخر إضافي لما تقدم ذكره في حق المؤمنين، وهو: الرضا بما قسم الله تعالىٰ، والتسليم لأمره تعالىٰ، وهي هداية عملية: «هداية توفيق وإعانة علىٰ القيام بوظيفة الصبر عند حلول المصائب، إذا علم أنها من عند الله، فرضي وسلم وانقاد»(١)، ومن هذا الباب قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن: ١١]، أي: «ومن يصدّق بالله، فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله، بذلك ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يقول: يوفِّق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه»(٢)، «وهذا الخبر في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ إيماءٌ إلىٰ الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب؛ لأنه يلزم من هدي الله قلب المؤمن عند المصيبة: ترغيب المؤمنين في الثبات والتصبر عند حلول المصائب، فلذلك ذُيل بجملة: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو تذييل للجملة التي قبلها، واردٌ علىٰ مراعاة جميع ما تضمنته من أن المصائب بإذن الله، ومن أن الله يهدي قلوب المؤمنين للثبات عند حلول المصائب.. وفيه كناية عن مجازاة الصابرين بالثواب؛ لأن فائدة علم الله التي تُهمُّ الناس هو: التخلق، ورجاء الثواب ورفع الدرجات»(٣).

وأقوال أهل العلم والتفسير في تفسير الآية الكريمة تدور حول اليقين، والصبر، والرضا بما قسم الله(٤)، روي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في

(١) تيسير اللطيف المنان (١/ ٤٩).

(٢) جامع البيان (٢٣/ ٤٢١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٨٠).

(٤) ينظر: بحر العلوم (٣/ ٤٥٧)، والهداية إلىٰ بلوغ النهاية (١٢/ ٧٥٠٨)، والوسيط، =

تفسير الآية: «يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[(١)].

وروى الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي ظبيان قال: «كنا عند علقمة، فقرئ عنده هذه الآية، فسئل عن ذلك، فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم»[(٢)].

وفي هذا المعنى حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لأمر الْمُؤْمِنِ، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء، شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر، فكان خيرًا له»[(٣)].

ويتلخص مما تقدم أن الهداية لا تتحقق إلا للمؤمن، وبعد إيمانه يطلب الهداية كذلك للثبات عليها، والزيادة منها، للوصول إلى المأمول، وهو: رضا رب العالمين، ودخول جنته.

= للواحدي (٤/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ومعالم التنزيل (٨/ ١٤٢)، والمحرر الوجيز (٥/ ٣١٩)، وزاد المسير (٤/ ٢٩٣)، والجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٣٩)، وتفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦٢)، وفتح القدير (٥/ ٢٨٣)، وأضواء البيان (٨/ ٢٠٢).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (٢٣/ ٤٢١)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ١٨٤) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان (٢٣/ ٤٢١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، باب أمر المؤمن كله خير، من حديث صهيب الرومي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، برقم: (٢٩٩٩).

المطلب الثاني

تقوى الله تعالى والاستجابة لأوامره تعالى

تقوى الله تعالى من أهم سبل تحقيق «الهداية القرآنية»، لذا أمر الله تعالى به في مواضع كثيرة من كتابه بلغت (نيِّفًا وخمسين) موضعًا، وهذا التكرار لا يدل إلا على فضل وأهمية تقوى الله جَلَّ وَعَلَا، وأنها سبب الفلاح في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[آل عمران: ٢٠٠].

يقول الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني تعالى ذكره بذلك: واتقوا الله أيها الناس، فاحذروه، وارهبوه بطاعته، فيما أمركم به من فرائضه، واجتناب ما نهاكم عنه؛ لتفلحوا فتنجحوا في طلباتكم لديه، وتدركوا به البقاءَ في جَنَّاته والخلودَ في نعيمه»[١].

---

(١) جامع البيان (٣/ ٥١٦).

(فائدة): ثلاث آيات كريمات من كتاب الله تعالى ربطت الفلاح بالتقوى، ولا شك أن في هذا دلالة على أهمية تقوى الله تعالى، وأنها سبب مهم من أسباب الهداية، وهي:

١- قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[البقرة: ١٨٩].

٢- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٣٠].

٣- الموضع الثالث هو المذكور في المتن.

وإن المتأمل في هذه المواضع يجدها جاءت بعد تشريع: (أمر ونهي)، فالمؤمن الحق =

فالآيــة الكريمــة فيها أمر مــن الله تعالىٰ لعبــاده «بالصبر، وهو حــال الصابر في نفسه.

والمصابــرة: مقاومة الخصــم في ميدان الصــبر، فإنها مفاعلة، تســتدعي وقوفها بيــن اثنيــن، كالمشــاتمة والمضاربة، فهي حــال المؤمن في الصــبر مع خصمه.

والمرابطــة: وهي الثبــات واللزوم، والإقامــة علىٰ الصــبر والمصابرة، فقد يصبر العبــد ولا يصابر، وقد يصابــر ولا يرابط، وقد يصــبر ولا يصابر، ويرابط من غير تعبــد بالتقوىٰ.

فأخبر تعالىٰ أن ملاك ذلك كله: التقوىٰ، وأن الفلاح موقوف عليها»(١).

فالفلاح ســبب للنجاة يوم القيامة، ولا يكون ذلــك إلا لمن اهتدىٰ في الدنيا، لــذا ربــط الله تعالىٰ بينهمــا في قولــه: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقــرة: ٥]، أي: اهتــدوا في الدنيــا بهــدي القرآن والســنة، فنجوا يــوم القيامة، وفلحوا وفازوا.

وعليــه؛ فإن مــن اتقىٰ الله تعالــىٰ، واتبع أوامــره، واجتنب نواهيــه، هداه الله تعالــىٰ بالقــرآن، كما قــال تعالــىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائــدة: ١٥، ١٦].

= هــو الــذي يتــق الله تعالــىٰ في هــذه الأوامر فيــأتي بها كما أمــر الله، ويتــق الله فيما نهــىٰ الله عنه فيجتنبها.

يقــول الحافظ ابن كثيــر في تفســيره (١/ ٣٨٦): «اتقوا الله فافعلــوا ما أمركم بــه، واتركوا ما نهاكــم عنــه لعلكم تفلحــون غــدًا إذا وقفتم بيــن يديــه، فيجازيكم علــىٰ التمــام والكمال».

(١) التفسير القيم (ص: ٢٢١).

فهذه الآية الكريمة أشارت إلىٰ أن للقرآن الكريم الكثير من الفوائد، ومنها:

الأولىٰ: أنه نور يهدي إلىٰ طريق الحق.

الثانية: أنه يخرج من اتبعه من ظلمات الشرك والكفر إلىٰ نور الحق.

الثالثة: أنه يهدي إلىٰ الصراط المستقيم، وهو صراط أهل الحق من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وعليه؛ فإن التقوىٰ التي تنفع صاحبها، وتكون سببًا لفلاحه ونجاحه هي القائمة «علىٰ استحضار القلب لعظمة الله تعالىٰ، واستشعار هيبته وجلاله وكبريائه، والخشية لمقامه، والخوف من حسابه وعقابه، وإذا كان هذا معنىٰ التقوىٰ، فإن نطاقها لا ينحصر في اجتناب الكبائر فحسب، بل إنه يمتد ليشمل كل ما فيه معنىٰ المخالفة لأوامر الله، حتىٰ لو كان من اللمم أو الصغائر»[(١)].

وأقوال العلماء في بيان المراد من التقوىٰ تدور حول معنىٰ: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية.

يقول ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصل التقوىٰ: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوىٰ العبد لربه، أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه، من غضبه، وسخطه، وعقابه، وقاية تقيه من ذلك، وهو: فعل طاعته واجتناب معاصيه»[(٢)].

---

(١) آيات التقوىٰ في القرآن الكريم، للدكتور حسين الجبوري (ص: ١٠)، وهو بحث متعدد الأغراض في التقوىٰ بمعانيها المختلفة كما وردت في القرآن الكريم، منشور علىٰ الشبكة العنكبوتية، في موقع صيد الفوائد، علىٰ العنوان التالي:
http://www.saaid.net/book/open.php?cat=101&book=3733

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٨).

«وقيل: إن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل أبيَّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن التقوىٰ، فقال له: أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: بلىٰ، قال: فما عملت: قال: شمَّرت واجتهدت، قال: فذلك التقوىٰ»[1].

وذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[2] أنّ ابن المعتز أخذ هذا المعنىٰ فقال:

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها ... وكبيرَها ذاك التُّقىٰ
واصْنَعْ كَماشٍ فوق أرضِ ... الشوكِ يَحذَرُ ما يَرىٰ
لا تَحْقِرَنَّ صغيرةً ... إنَّ الجِبالَ من الحَصَىٰ

يقول تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحديد: ٢٨] فبينت الآية أن الله تعالىٰ ضمن لهم «بالتقوىٰ ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته، نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة، فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم.

وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوىٰ سببًا لكل يسر، وترك التقوىٰ سببًا لكل عسر»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٧٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٥٨).

وبنحو هـذا قوله تعالـىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[الأنفال: ٢٩]، فدلـت الآيـة علـىٰ أن المتقين «هـم المنتفعـون بالآيـات القرآنيـة، والآيات الكونيـة، ولأن الهدايـة نوعان:

هداية البيـان، وهداية التوفيـق، فالمتقون حصلت لهـم الهدايتان، وغيرهم لـم تحصل لهم هدايـة التوفيق، وهداية البيـان بدون توفيق للعمل بها، ليسـت هدايـة حقيقية تامة»[1].

وقد رتب الله تعالىٰ علىٰ التقوىٰ ثلاثة أمور[2]:

الأول: يجعـل لـه فرقانًـا، والفرقـان هـو: العلم والهـدىٰ الـذي يفرق به صاحبـه بين الهـدىٰ والضلال، والحـق والباطـل، والحلال والحـرام، وأهل السـعادة من أهل الشـقاوة.

الثاني: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب.

الثالـث: الأجر العظيم، والثـواب الجزيل، حيث ختمـت الآية بـ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، وكمـا أن التقـوىٰ نافعـة للمرء في دينـه ودنياه، فهـي نافعة كذلـك لذريته مـن بعده، فمـن خاف علـىٰ ذريته فخيـر ضمانـة يحفظهم بها أن يتقـيَ الله تعالـىٰ ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾[النساء: ٩].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٠).

(٢) ينظر: المصدر السابق (ص: ٣١٩).

ويتلخص مما تقدم: أن التقوىٰ من أهم الأسباب التي تؤدي إلىٰ تحقيق الهداية في قلب المسلم؛ بل «هي الزاد الدائم في الحياة، وهي قمة المكارم الأخلاقية، والفضائل الحسنة التي يتصف بها الإنسان؛ لأنه من خلالها تتشعب جميع الصفات المحمودة، فهذه الفضيلة أراد بها الله تعالىٰ في القرآن أن تحكم علاقة الإنسان بهذا الوجود وما فيه، وبين الإنسان وخالقه، لذلك تدور هذه الكلمة ومشتقاتها في أكثر آيات القرآن الأخلاقية والاجتماعية، والمراد بها: أن يتقي الإنسان ما يغضب ربه، وما فيه ضرر لنفسه، أو إضرار لغيره»[1].

اللهم ارزقنا تقواك، وخشيتك في الغيب والشهادة..

(١) مقالة بعنوان: «التقوىٰ طريق الله في الحياة الإنسانية» لـ د. ناصر الحق، نقلها عنه الدكتور حسين بن علي الجبوري، في بحث له بعنوان: «آيات التقوىٰ في القرآن الكريم» (ص: ٥).

المطلب الثالث
الاستجابة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباع هديه

القرآن الكريم عندما ذكر الهداية مقرونة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكرها من ناحيتين(١):

الناحية الأولى: هداية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمدعوين: وهذه الهداية أثبتها القرآن الكريم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مواضع، ونفاها عنه في مواضع أخرى، فمن الهداية المثبتة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى: ٥٢]، ومن الهداية المنفية: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص:٥٦]، وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[البقرة:٢٧٢] .

وليس في هذه المواضع تعارض أو تنازع؛ لأنه تقدم معنا أن الهداية أنواع، فالهداية المنفية عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي أحد أنواع الهداية، وهي: هداية التوفيق والإلهام، وهداية القلوب، وأما الهداية المثبتة؛ فهي هداية الدلالة والإرشاد والبيان(٢).

---

(١) أشار إليهما صاحب كتاب: الهداية في القرآن الكريم، للدكتور عباس الحازمي (ص: ١١٩).

(٢) ينظر: الانتصار للقرآن، للباقلاني (٢/ ٦٤٠)، وبدائع الفوائد (٢/ ٣٧)، وشفاء العليل (ص: ٥٣)، وأضواء البيان (٦/ ١٥٤)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٢٠)، وتيسير اللطيف المنان (ص: ٣١٢)، وتفسير الفاتحة والبقرة، لابن عثيمين (١/ ٥٣)، وإعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، لصالح الفوزان (١/ ٢٥٨).

وقد أجمع المفسرون(١) علىٰ أن قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ نزلت في شأن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبي طالب، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمه عند الموت: «قُلْ لا إِلَهَ إلا الله، أَشْهَدُ لَكَ بِها يَوْمَ القِيامَةِ» قال: لولا أن تعيرني قريش لأقررت عينك، فأنزل الله الآية(٢).

وفي الصحيحين من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أميّة، فقال: «أي عم، قل معي: لا إله إلا الله، أحاجُّ لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وابن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فلم يزالا يكلّمانه، حتىٰ قال آخر شيء كلمهم به: أنا علىٰ ملّة عبد المطلب، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لأستغفرنّ لك ما لم أُنه عنك»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(٣).

والآية وإن كانت نازلة في عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن لفظها دال علىٰ العموم(٤)، فهذا اللفظ «من العام النازل علىٰ سبب خاص، فيعمُّه وغيرَه»(٥).

---

(١) كذا قال الزجاج في معانيه (٤/ ١٤٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان (١٩/ ٥٩٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، برقم: (٣٨٨٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، برقم: (٣٩).

(٤) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١١٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٤٧).

ومثل هذا المعنىٰ في القرآن الكريم كثير، كما جاء في قوله تعالىٰ مخاطبًا نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾[يونس: ٤٣]، أي: «أفأنت يا محمد!! تحدث لهؤلاء الذين ينظرون إليك وإلىٰ أدلتك وحججك، فلا يوفَّقون للتصديق بك أبصارًا، لو كانوا عُمْيًا يهتدون بها ويبصرون؟ فكما أنك لا تطيق ذلك ولا تقدر عليه ولا غيرك، ولا يقدر عليه أحدٌ سواي، فكذلك لا تقدر علىٰ أن تبصِّرهم سبيلَ الرشاد، أنت ولا أحدٌ غيري، لأن ذلك بيدي وإليّ»[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[النمل:٨١].

وهذه الآيات ومثيلاتها توجب الإيمان الجازم بأن الله تعالىٰ بيده مقاليد الأمور كلها، يفعل ما يشاء، ويختار من شاء.

وصدق الله إذ يقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[آل عمران: ١٥٤]، ويقول تعالىٰ مخاطبًا نبيه وخليله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فإذا كان حبيب الله وخليله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك النفع والضر إلا بإرادته سبحانه، فهل يملكه غيره؟!

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٩٦).

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا تحقيق التوحيد، مع أنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أكرم الخلق على الله وأعلاهم منزلة عند الله»(١).

الناحية الثانية: أن طاعة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والاستجابة له، ومتابعة هديه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سبب من أسباب الهداية، وفي تقرير هذا وردت نصوص عديدة في القرآن الكريم، إلا أن المتأمل لهذه النصوص يجد أنها سارت على اتجاهين:

الاتجاه الأول: تحقيق الهداية لمن أطاع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واتبع أوامره، ومما ورد في ذلك:

١- قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤] دلت الآية على أن طاعة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سبب للهداية التي يتحصل عليها المرء، فيفهم من هذا أن من لم يطع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حرمها، فجعل سبحانه الاهتداء مقرونًا بطاعته.

يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن تطيعوا أيها الناس رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما يأمركم وينهاكم ترشدوا، وتصيبوا الحقّ في أموركم»(٢).

والسياق القرآني لهذه الآية الكريمة يبين دلالة أكيدة أن الفلاح في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة لا يكون إلا بطاعة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واتباع أوامره، والسير على منواله وطريقه، فقد جاءت عقب الحديث عن موقف طائفتين من طاعة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: المنافقين، والمؤمنين.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٣٠٣).

(٢) جامع البيان (١/ ٢٠٧). وينظر: الهداية إلىٰ بلوغ النهاية (٨/ ٥١٤٠)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٩٦).

ففي المنافقين يقول سبحانه مبينًا إعراضهم عن اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٧ - ٥٠].

وفي المؤمنين يقول تعالىٰ تزكية في استجابتهم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباع أوامره: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥١-٥٤].

روي عن بعض السلف أنه كان يقول: «مَنْ أمَّر السُّنَّة علىٰ نفسه قولًا وفعلًا، نطق بالحكمة، ومن أمّر البدعة والهوىٰ علىٰ نفسه قولًا وفعلًا، نطق بالبدعة»[(١)].

٢- قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

دلت الآية علىٰ أن الهداية متعلقة باتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن أرادها فعليه بالاتباع.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٠٣)، ونقله شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابيه: «الاستقامة» (١/ ٩٧) و «الحسنة والسيئة» (ص: ٢٦)، عن أبي عثمان النيسابوري.

يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فاهتدوا به أيها الناس، واعملوا بما أمركم أن تعملوا به من طاعة الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يقول: لكي تهتدوا فترشدوا وتصيبوا الحقّ في اتّباعكم إيّاه»(١).

وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق الحديث عن قوم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وموقفهم من نبيهم، وتكذيبهم إياه، بعد أن نجاهم الله علىٰ يديه من الطاغية فرعون، فاتخذوا العجل إلاها من دون الله وقت غياب نبيهم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم يخبر القرآن بعد ذلك ما حصل عندما عاد موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ورأىٰ من قومه ما رأىٰ وغضبه الشديد مما حصل منهم: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠ – ١٥٢].

ثم لما هدأ موسىٰ، وسكت عنه الغضب، لجأ إلىٰ ربه ومولاه، طالبًا المغفرة والصفح عمن وقع في الظلم: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾.. الآيات.

ثم تبين الآيات أن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طلب من ربه الحسنة في الدنيا والآخرة ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾، بين القرآن بعد

(١) جامع البيان (١٣/ ١٧٢).

ذلك صفات عباده المستحقين لرحمته تبارك وتعالىٰ، فذكر من صفاتهم: أنهم المتقون، الذين يؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال الله تعالىٰ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ١٥٦- ١٥٧].

ثم جاء الأمر من الله تعالىٰ لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول للناس: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨]، فالمؤمنون بالله، المتبعون لهدي رسول الله هم المهتدون حقًّا.

وقبل أن تمضي الآيات الكريمات، يقرر القرآن الكريم حقيقة مهمة عن قوم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي: أنهم لم يكونوا جميعًا ضالين، بل فيهم المتبع المهتدي ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

الاتجاه الثاني: نفي الهداية عمن أعرض عن الاستجابة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وابتعد عن اتباع هديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[القصص: ٥٠]، ما سبق ذكره يبين ويوضح أن من أهم أسباب هداية الله تعالىٰ لعباده: اتباع

رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد وقع ذلك صراحة في القرآن الكريم، كما تقدم بيانه، مما يدل بالمفهوم علىٰ أن من لم يستجب لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورفض اتباعه وعصاه فقد حرم الهداية وكان من أصحاب الغواية والضلال.

وفي هذه الآية الكريمة يقرر القرآن أن من لم يستجب لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنما يتبع هواه، ومن اتبع هواه أضله الله، وقرر ذلك علىٰ جهة البيان، أي: لا أحد أضل منه(١).

والمعنىٰ: «إن لم يستجيبوا لدعوتك، أي: إلىٰ الدين بعد قيام الحجة عليهم بهذا التحدي، فاعلم أن استمرارهم علىٰ الكفر بعد ذلك، ما هو إلا اتباع للهوىٰ، ولا شبهة لهم في دينهم»(٢).

يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«فإن لم يجبك هؤلاء القائلون للتوراة والإنجيل: سحران تظاهرا، الزاعمون أن الحقّ في غيرهما من اليهود يا محمد، إلىٰ أن يأتوك بكتاب من عند الله، هو أهدىٰ منهما، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، وأن الذي ينطقون به ويقولون في الكتابين، قول كذب وباطل، لا حقيقة له.. وَمَنْ أَضَلُّ عن طريق الرشاد، وسبيل السداد ممن اتبع هوىٰ نفسه بغير بيان

(١) ينظر: المحرر الوجيز (٤/ ٢٩١).

وأشار أبو السعود في إرشاد العقل السليم (٧/ ١٨) إلىٰ أن قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ..﴾ «استفهام إنكاري للنفي، أي: لا أضل ممن اتبع هواه بغير هدىٰ من الله، أي: هو أضل من كل ضال، وإن كان ظاهرُ السبك لنفي الأصل، لا لنفي المساواة». ينظر: محاسن التأويل (٧/ ٥٢٦)، وروح البيان (٦/ ٤١٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٣٩).

من عند الله، وعهد من الله، ويترك عهد الله الذي عهده إلىٰ خلقه في وحيه وتنزيله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يقول تعالىٰ ذكره: إن الله لا يوفق لإصابة الحقّ وسبيل الرشد القوم الذين خالفوا أمر الله وتركوا طاعته، وكذّبوا رسوله، وبدّلوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم إيثارًا منهم لطاعة الشيطان علىٰ طاعة ربهم»[1].

ويدخل في هذا كل «من اتبع ذوقًا أو وجدًا بغير هدىٰ من الله، سواء كان ذلك عن حب أو بغض، فليس لأحد أن يتبع ما يُحبهُ فيأمر به ويتخذه دينًا، وينهىٰ عمَّا يبغضه ويذمه، ويتخذ ذلك إلا بهدىٰ من الله، وهو شريعة الله التي جعل عليها رسوله، ومن اتبع ما يهواه حبًّا وبغضًا بغير الشريعة فقد اتبع هواه بغير هدىٰ من الله»[2].

فالله تعالىٰ قسم الناس: «إلىٰ مستجيبين للرسول، ومتبع هواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة وعدل عنها إلىٰ خلافها فقد اتبع هواه، وهذا أكثر من أن يذكر، والمقصود أن الواجب علىٰ الخلق بعد وفاته، هو الواجب عليهم حياته سواء..»[3].

والآيات القرآنية في ذم اتباع الهوىٰ كثيرة وعديدة، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾[المؤمنون:٧١]،

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٥٢٩). وينظر: تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢١٩).

(٢) الاستقامة، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٢٥٤).

(٣) الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة (٤/ ١٥٢٧). وينظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٤٠٤، ٤٠٥).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤].

يقول الله تعالى مخاطبًا نبيه الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

ومثل هذا في القرآن الكريم كثير، وسيأتي مزيد إيضاح حول هذه المسألة إن شاء الله في موانع الهداية.

المطلب الرابع

اتباع أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاقتداء بهديهم

الأسوة الحسنة في الإسلام، تحتل مكانة مرموقة وعالية، ولمكانتها البالغة، وأهميتها الكبرىٰ، أمر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتأسىٰ ويقتدي بالأنبياء من قبله، قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[الأنعام: ٩٠].

والأسوة اسم لما يؤتسىٰ به، أي: يقتدىٰ به، ويعمل مثل عمله[١]، والاقتداء: الاتباع، والسير علىٰ سنن من يُتخذ قدوة، أي: مثالًا يُتّبع[٢].

ولا شك أن حاجة الناس إلىٰ القدوة والأسوة، مطلب غريزي لديهم، لذا أمر الله تعالىٰ الناس أن يقتدوا بمن ينفعهم في دينهم ودنياهم، وعلىٰ رأسهم سيد ولد آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾[الأحزاب: ٢١].

فهذه الآية كما يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: «أصل كبير في التأسي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أقواله، وأفعاله، وأحواله»[٣]، وتقرر قاعدة منهجية: «ينبغي أن يسير عليها كل مسلم راغب في الخلق الفاضل، وفي الخير بعامّةٍ، وهي أن يتأسىٰ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقتدي به في كل شيء؛ لأنه هو المربي الكامل، وهو الأستاذ في الأخلاق والدين.

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ٣٠٢).

(٢) ينظر: الهداية إلىٰ بلوغ النهاية (٣/ ٢٠٩٦)، والتحرير والتنوير (٧/ ٣٥٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٠).

إن التأسي بالرسول الكريم يستطيعه كل أحد، الكبير والصغير، والعالم والمتعلم والجاهل، وضمير الجمع في قوله تعالىٰ: ﴿لَكُمْ﴾ يتناول هؤلاء كلهم، ويشمل المسلمين جميعًا»[١].

وتكمن أهمية القدوة الحسنة، من خلال ما تثيره في النفوس من إعجاب وانبهار، مما يؤدي إلىٰ التقليد والتشبه بالشخص المقلَّد، وعليه فكلما كان الشخص المقلّد زكيًّا نقيًّا كان المقلِّد كذلك، فيؤدي إلىٰ تقويم السلوك، وتحسين الأخلاق والأعمال.

«والقدوة الحسنة لَهَا أعظم الأثر فِي النُّفُوس، وتأثيرها أعظم من تَأْثِير الْخطب، والمقالات، والكتابات، وَهَذَا مِمَّا يُثبتهُ الْوَاقِع، وتدركه الْعُقُول. وَلِهَذَا كَانَ النَّبِي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتَمَثَّل حَقِيقَة الإسلام بَين أَصْحَابه، فِي قدوة حَسَنَة، يقرن الْفِكر بِالْعَمَلِ، ويربط النظرية بالتطبيق، وَيقدم الْمعَانِي حقائق حَيَّة، فيُهتدىٰ بِعَمَلِهِ قبل قَوْله، وبفعله قبل علمه، وَيكون أَمَام أَصْحَابه تجسيدًا حَيًّا لدعوته، ومثلًا صَرِيحًا علىٰ مبادئه، وَكَانَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمر الصَّحَابَة بالاقتداء بِهِ، فَيَقُول: «وصلّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[٢]، ويقول: «لتأخذوا مناسككم»[٣]؛ بل إنه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعمد مرة أن يصلِّي مرتفعًا ليراه أصحابه، فيقتدوا به ويتبعوه، ويسيروا علىٰ منواله وطريقته»[٤].

---

(١) الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها، لعبد الله الرحيلي (ص: ٤٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر..، برقم: (٦٣١).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة راكبًا، برقم: (١٢٩٧).

(٤) وقفات مع أحاديث تربية النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصحابته، لعبد الرحمن الزيد، ضمن منشورات مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة: السادسة والثلاثون، العدد: (١١٢)، عام: (١٤٢٤) هـ، (ص: ١٣٠).

ولا أزكىٰ وأنقىٰ -بعد الأنبياء والمرسلين الذين أمرنا باتباعهم والتأسي بهم- من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذين خالطوا سيد المربين، وإمام المرسلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصفت قلوبهم، وارتقت نفوسهم، وعلا شأنهم، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، وزكاهم على الملأ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، فوصفهم الله تعالىٰ بأحسن الصفات، وذكرهم بأفضل الخلال، وأحسن الأخلاق، قال تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] بيان من الله تعالىٰ أن هؤلاء القوم اصطفاهم الله تعالىٰ لنبيه، واجتباهم لخليله، «فجعلهم أصحابه ووزراءه علىٰ الدِّين الذي بعثه بالدعاء إليه»[(١)]، فهم أكمل الخلق بعد أنبياء الله ورسله، وأرشدهم سلوكًا، وأحسنهم طريقًا.

(١) جامع البيان (١٩/ ٤٨٢).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلينا المغرب مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قلنا: لو جلسنا حتىٰ نُصليَ معه العشاء، قال: فجلسنا، فخرج علينا، فقال: «ما زلتم هاهنا؟» قلنا: يا رسول الله!! صلينا معك المغرب، ثم قلنا نجلس حتىٰ نصلي معك العشاء، قال: «أحسنتم، أو أصبتم»، قال: فرفع رأسه إلىٰ السماء، وكان كثيرًا مما يرفع رأسه إلىٰ السماء، فقال: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَىٰ السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَىٰ أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَىٰ أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»(١).

لذا جاء في القرآن الكريم ما يرشد الناس إلىٰ الاقتداء بهم، والتأسي بسيرهم، ومن فعل ذلك فطريقه الهداية، ومن لم يسلك مسلكهم، ويسير علىٰ طريقهم ومنوالهم؛ فقد ضل وهلك، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٣٧].

يقول الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن صدّق اليهود والنصارىٰ بالله، وما أنزل إليكم، وما أنزل إلىٰ إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسىٰ، وعيسىٰ، وما أوتي النبيون من ربهم، وأقروا بذلك، مثل ما صدقتم أنتم به أيها المؤمنون وأقررتم، فقد وُفقوا ورَشِدوا، ولزموا طريق الحق واهتدوا»(٢).

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب أن بقاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة، حديث رقم: (٢٥٣١).

(٢) جامع البيان (٣/ ١١٣).

ويقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾: يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه..»[١].

وأما إن كان التقليد والتأسي منبعه الهوىٰ، والتقليد الأعمىٰ البعيد عن الحجة والاستدلال، فهو الفساد الكبير، والخطأ الجسيم، المؤدي إلىٰ الهلاك والضلال، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[القصص: ٥٠]، أي: لا أحد أضل من هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم، ويسيرون علىٰ غير مرضاة الله تعالىٰ، وقد تقدم الحديث عن هذه الآية في المطلب السابق، إلا أن الحديث هنا عن هذه الآية من باب التقليد المبني علىٰ الهوىٰ.

يقول فخر الدين الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا من أعظم الدلائل علىٰ فساد التقليد، وأنه لا بد من الحجة والاستدلال»[٢].

ونحو هذا قاله الفخر الرازي عند آيات عديدة، ومنها:

قوله تعالىٰ: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾[آل عمران: ١٥١][٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٢٢). وينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٦٠٦). وينظر: محاسن التأويل (٧/ ٥٢٦).

(٣) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (٩/ ٣٨٥): «هذه الآية دالة علىٰ فساد التقليد، وذلك لأن الآية دالةٌ علىٰ أن الشرك لا دليل عليه؛ فوجب أن يكون القول به باطلًا..».

أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾[طه: ١٥، ١٦][(١)].

وفي قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من سورة الشعراء عندما حاج أباه وقومه في آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، لم يجدوا جوابًا إلا أن يقولوا كما حكىٰ القرآن عنهم: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾[الشعراء: ٧٤][(٢)].

فالقدوة قد تكون صالحة فتصبح سببًا للهداية، وقد تكون سيئة فتصبح سببًا للغواية.

فنسأل الله تعالىٰ بمنه وكرمه أن يرزقنا حسن الاقتداء، بأهل الخير، والبر، والإحسان.. وأن يعيذنا من الاقتداء بأهل الغواية، والشر، والطغيان.

---

(١) حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (٢٢/ ٢٣): «أما قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فالمعنىٰ: أن منكر البعث إنما أنكره اتباعًا للهوىٰ لا لدليل، وهذا من أعظم الدلائل علىٰ فساد التقليد؛ لأن المقلّد متّبع للهوىٰ لا الحجة».

(٢) قال الفخر الرازي عند تفسير هذه الآيات من سورة الشعراء (٢٤/ ٥١٠): «فعند هذه الحجة القاهرة لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه الحجة، فعدلوا إلىٰ أن قالوا: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾، وهذا من أقوىٰ الدلائل علىٰ فساد التقليد، ووجوب التمسك بالاستدلال، إذ لو قلبنا الأمر فمدحنا التقليد، وذممنا الاستدلال؛ لكان ذلك مدحًا لطريقة الكفار التي ذمها الله تعالىٰ، وذمًّا لطريقة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ التي مدحها الله تعالىٰ».

المطلب الخامس

الدعاء بطلب الهداية والثبات عليها

فضل الدعاء عظيم، وأثره كبير، لذا حث الله عباده المؤمنين بملازمته في كافة شؤون حياتهم، وحض عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته، فالدعاء هو العبادة[١]، لذا كان «أولىٰ ما انصرفت إلىٰ حفظه عناية ذوي الهمم، وأحق ما اهتدي بأنواره في غياهب الظُّلَم، وأنفع ما استدرت به صنوف النعم، وأمنع ما استدرئت به صروف النقم، ما كان بفضل الله تعالىٰ لأبواب الخير مفتاحًا، وبنص رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمؤمنين سلاحًا، وذلك التحميد والثناء، والتمجيد والدعاء، أمر الله تعالىٰ به في كتابه، وفيه رغب رسوله الكريم، وإليه جنح المرسلون والأنبياء، وعليه عول الصالحون والأولياء..»[٢].

وما من شك أن أسمىٰ المطالب التي يسعىٰ العبد إليه، ويحرص علىٰ تحقيقه هو الاهتداء بالقرآن الكريم، والوصول إلىٰ مرضاة رب العالمين،

(١) كما صح ذلك عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قال: «الدعاء هو العبادة».

أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الدعاء، باب فضل الدعاء، برقم: (٣٨٢٨)، والترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب: ومن سورة البقرة، برقم: (٢٩٦٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأبو داود في سننه، باب تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، برقم: (١٤٧٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥/ ٢١٩)، رقم: (١٣٢٩).

(٢) مقدمة كتاب: سلاح المؤمن في الدعاء والذكر، لابن الإمام (ص: ٢٥).

وهذا مما لا يمكن تحقيقه إلا بإرادته سبحانه ومشيئته ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[البقرة:٢١٣]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾[الحج:١٦].

وعليه؛ فإن من أهم أسباب تحقيق الهداية هو سؤال رب العالمين، والتضرع إليه، واللجوء إليه سبحانه حتىٰ يصل بأمره تعالىٰ إلىٰ تحقيق الهداية في حياته، وقد بين القرآن الكريم أن طلب الهداية من الله تعالىٰ من صفات عباده المؤمنين وأوليائه المتقين، قال تعالىٰ علىٰ لسانهم ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦]، وهذا الطلب في مفتتح سور القرآن الكريم الذي ضمن الله تعالىٰ لمن طلبه خالصًا خاشعًا؛ الاستجابة له، وتحقيق الهداية في قلبه، فقال تعالىٰ في الحديث القدسي:«هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[(١)].

وعند مسلم من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ سمع نقيضًا فوقه، فرفع رأسه فقال جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:«هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم «فنزل منه ملك، فقال:«هذا ملك نزل إلىٰ الأرض لم ينزل قط إلا اليوم» فسلم، وقال:«أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»[(٢)].

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، كتاب الصلاة، باب قراءة الفاتحة في كل ركعة، برقم: (٣٩٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، برقم: (٨٠٦).

وقد جاء الوعد في القرآن الكريم من ربٍّ رحيم، بأن من اجتهد، وجاهد، وصابر، في طلب الهداية وغيرها، فإن الله تعالىٰ لا يحرمه منها، بل يعينه عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩]، والجهاد هو: الصبر علىٰ الفتن والأذىٰ، ومدافعة كيد العدو، وهو الذي ذُكر في أول هذه السورة المكية ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ﴾[العنكبوت: ٦].

فإذا كان ذلك كذلك كان الاعتصام بالله تعالىٰ، واللجوء إليه سبحانه من أهم وأعظم الأسباب، لتحقيق الهداية بهذا الكتاب، للوصول إلىٰ مرضاة رب الأرباب ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران: ١٠١].

روي عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال في تفسير الآية: «علَمان بيِّنان: وُجْدان نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكتابُ الله، فأما نبيّ الله فمضىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما كتاب الله فأبقاه الله بين أظهُركم، رحمة من الله ونعمة، فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته»(١).

حتىٰ إذا ما تحققت الهداية في قلب المؤمن، تضرع إلىٰ ربه سبحانه، واجتهد في طلب الثبات علىٰ الهدىٰ، وعدم الرجوع والانتكاس، كما بينه القرآن الكريم فذكر أن من صفات أولي الألباب والعقول والأفهام: التضرع إلىٰ الله تعالىٰ بأن يثبت قلوبهم، قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[آل عمران: ٨].

وفي الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنه

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (٧/ ٦١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٧٢٠).

قال: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم»(١)، أي: اطلبوا مني الهداية أهدكم(٢).

«وهذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئًا من ذلك كله، وأن من يتفضل الله عليه بالهدى والرزق فإنه يُحرمهما في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه، أوبقته خطاياه في الآخرة»(٣).

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة واقتداء، فقد كان ﷺ -مع اصطفاء الله له واجتبائه- يستفتح صلاته في قيام الليل بطلب الهداية، كما صح ذلك من حديث عائشة بأنها قالت: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(٤).

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧).

(٢) ينظر: شرح الأربعين النووية، لابن دقيق العيد (ص: ٨٨)، وشرح الأربعين، لابن عثيمين (ص: ٢٣٩).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٨).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم: (٧٧٠).

وعند النسائي وغيره من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استفتح الصلاة كبَّر، ثم قال: «إنَّ صَلاتي ونُسكي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي للهِ ربِّ العَالمين، لا شريكَ لهُ، وَبِذَلك أُمرتُ وأنا أوَّلُ الْمُسلمين، اللهم اهْدِنِي لأَحْسَنِ الأعْمَالِ، وأحسنِ الأخْلاقِ، لا يَهْدي لأحْسَنِها إلاَّ أنْتَ، وَقِنِي سَيِّئَ الأعْمَالِ وَسَيِّئَ الْأَخْلَاقِ لاَ يَقِي سَيِّئَهَا إلاَّ أَنْتَ»(١).

ومن جهة أخرىٰ فإن الله تعالىٰ ذم من لم يتخذ الدعاء وسيلة للنجاة، وطريقًا إلىٰ مرضاته تعالىٰ، فقال سبحانه بعد أن أمر عباده بالدعاء ووعد بالإجابة ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: ٦٠]، وفي ختام الآيات التي تحدثت عن عباد الرحمن وصفاتهم في سورة الفرقان، ختم الله تعالىٰ تلك الآيات كذلك بالوعيد الشديد لمن ترك الدعاء، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾[الفرقان: ٧٧].

فنسألك اللهم بأسمائك الحسنىٰ، وصفاتك العلىٰ، الهداية والثبات عليها حتىٰ الممات، اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم..

---

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الافتتاح، باب الدعاء بين التكبير والقراءة، برقم: (٨٩٦)، وإسناده صحيح، فقد قواه الذهبي في تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق (١/ ١٤٢)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٢٦٠)، وفي الباب عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ أطول منه، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم: (٧٧١).

المطلب السادس

التوبة والإنابة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التّوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدّين كلّه داخل في مسمّىٰ التّوبة، وبهذا استحقّ التائب أن يكون حبيب الله، فإنّ الله يحبّ التّوّابين ويحبّ المتطهّرين، وإنّما يحبّ الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه.

فإذًا التّوبة هي الرّجوع عمّا يكرهه الله ظاهرا وباطنا إلىٰ ما يحبّه ظاهرًا وباطنًا، ويدخل في مسمّاها الإسلام، والإيمان، والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كلّ مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية الّتي وجد لأجلها الخلق، والأمر والتّوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الّذي عليه بناؤها..

ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان، لم يكن الرب تعالىٰ يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم[1]، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها»[2].

(١) إشارة إلىٰ حديث: «لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتىٰ إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلىٰ مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده».
أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، برقم: (٦٣٠٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في الحض علىٰ التوبة والفرح بها، برقم: (٢٧٤٤).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣١٣).

هذا الاستهلال لهذا المطلب من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبين أهمية التوبة والإنابة، فهما أساس كل خير، ومنبع كل هداية، فمن أراد الهداية وسعىٰ إليها، فأول الطرق وأقصر السبل إلىٰ تحقيقها الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ، والإنابة إليه سبحانه، والتوبة من كبائر الذنوب وصغائرها، يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[الزمر: ٥٣، ٥٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وهذه الآية التي في سورة تنزيل مشروطة بالتوبة، فمن تاب من أي ذنب، وإن تكرر منه، تاب الله عليه، ولهذا قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ أي: بشرط التوبة، ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه، ولا يصحُّ ذلك؛ لأنه تعالىٰ قد حكم هاهنا[1] بأنه لا يغفر الشرك، وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء، أي: وإن لم يتب صاحبه، فهذه أرجىٰ من تلك[2] من هذا الوجه، والله أعلم»[3].

وقال كذلك عند تفسير هذه الآيات الكريمات:«هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة، من الكفرة وغيرهم، إلىٰ التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله

(١) يشير إلىٰ آية النساء رقم: (٤٨)، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ الآية.

(٢) يقصد أن آية النساء أرجىٰ من آية الزمر من هذا الوجه، والله تعالىٰ أعلم.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٩١).

تعالىٰ يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه علىٰ غير توبة؛ لأن الشرك لا يُغفر لمن لم يتب منه..».

ثم أعقب ذلك بذكر عدة أحاديث دالة علىٰ هذا المعنىٰ، ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«فهذه الأحاديث كلها دالة علىٰ أن المراد: أنه يغفرُ جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطَنَّ عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[التوبة: ١٠٤]»[1].

وقد دلت نصوص القرآن الكريم علىٰ أن التوبة والإنابة من أسباب الهداية، فإن من تاب إلىٰ الله وأناب إليه سبحانه فقد هدي إلىٰ الصراط المستقيم، وكان مصيره الفلاح والنجاة يوم لقاء رب العالمين، بإذن المولىٰ الكريم، قال تعالىٰ:﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[الرعد: ٢٧]، وقال تعالىٰ:﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورىٰ: ١٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ:﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١].

وإن المتأمل لهذه النصوص يجد أن بعضها جاءت بلفظ الإنابة، وبعضها بلفظ التوبة، فهل يفرق بينهما؟ أم هما بمعنىٰ واحد؟

قبل الحديث عن الفرق بينهما يجدر بنا معرفة أصل كلتا الكلمتين في لسان العرب.

فالتَّوْبَة في اللغة: مصدر مشتق من آبَ يَؤُوبُ إذا رَجَع أو عاد.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٩٥، ٩٦).

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التاء والواو والباء كلمة واحدة تدل على الرجوع، يقال: تاب من ذنبه، أي: رجع عنه، يتوب إلى الله تَوْبَة ومَتابًا، فهو تائِب، والتَّوْب التَّوْبَة»(١).

أما في الاصطلاح فقد اختلفت ألفاظ العلماء مع تقاربها:

فعرفها الإمام الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «ترك الذّنب لقبحه، والنّدم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال، بالأعمال بالإعادة»(٢).

وأما الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فعرف التوبة بأنها هي: «الرجوع إلى الله بحلّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب»(٣).

وعرفها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يُحبُّ، وترك ما يكره»(٤).

وأما الإنابة فأصلها النَّوْب، والنون والواو والباء أصل واحد، تدل على اعتياد مكان، والرجوع إليه، كما قال ابن فارس في معجمه(٥).

يقال: ناب إلى الله تعالى إذا أقبل، وتاب، ورجع إلى الطاعة، وأناب: تاب ورجع(٦).

(١) معجم مقاييس اللغة (١/ ٣٥٧). وينظر: الصحاح (١/ ٩٢)، ولسان العرب (١/ ٢٣٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٦٩).

(٣) التعريفات (ص: ٧٠).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٣١٣).

(٥) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٣٦٧).

(٦) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٣٦٧)، والصحاح (١/ ٢٢٩)، وتاج العروس (٤/ ٣١٥).

قال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإنابة إخراج القلب من ظلمات الشبهات، وقيل: الإنابة الرجوع من الكل إلىٰ من له الكل، وقيل: الإنابة الرجوع من الغفلة إلىٰ الذكر، ومن الوحشة إلىٰ الأنس»[(١)].

مما تقدم ذكره يتبين -والله أعلم- أن الإنابة أعلىٰ درجة من التوبة، فالتوبة هي الرجوع من الذنب إلىٰ الطاعة، أما الإنابة فتتضمن ذلك وأكثر، وهذا ما يفهم من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد علمت أن من نزل من منزل التوبة، وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام، فإن التوبة الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها، ولكن لا بد من إفرادها بالذكر والتفصيل، تبيينًا لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه في منزل التوبة نزل بعده منزل الإنابة، وقد أمر الله تعالىٰ بها في كتابه، وأثنىٰ علىٰ خليله بها، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾[الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة، فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ إلىٰ أن قال: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾[ق:٦-٨]..»[(٢)].

وجاء في كتاب: «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم» في بيان الفرق بينهما؛ بأن التوبة تقال لمن خاف العقاب، ولمن يتوب بطمع الثواب يقال عنه صاحب إنابة.

«فالتّوبة صفة عامّة المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ

(١) التعريفات (ص:٣٧).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٣٢).

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[النور:٣١]، والإنابة صفة الأولياء والمقرّبين الذين يخشون ربهم بالغيب، قال تعالىٰ: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾[ق:٣٣]»(١).

وما تقدم ذكره من حديث عن الإنابة، فإنما يعود على إنابة الأولياء والصالحين؛ لأن الإنابة إنابتان:

«**إنابة لربوبيته**، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر، والبّرُّ والفاجر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾[الروم: ٣٣]، فهذا عام في حق كل داع أصابه ضرٌّ، كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام، بل تُجامع الشرك والكفر، كما قال تعالىٰ في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم .. لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[الروم: ٣٣-٣٤]، فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع..»(٢)، وهذه هي الإنابة النافعة التي تحقق الهداية بأمر الله تعالىٰ.

والناس في الإنابة لربهم علىٰ درجات(٣):

- فمنهم المنيب إلىٰ الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي.

---

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٤/ ١٢٦٩-١٢٧٢).

(٢) مدراج السالكين (٤/ ٤٣٣).

(٣) ينظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ١٧٣)، والهداية في القرآن، للحازمي (ص: ١٢٩، ١٣٠).

- ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات.

فنسأل الله تعالىٰ بمنه وكرمه أن يرزقنا توبة نصوحًا قبل الممات، وأن يجعلنا من عباده المنيبين المتقين، وأن يكتبنا في جملة المهتدين.

المطلب السابع

تلاوة القرآن الكريم وتدبره

القرآن الكريم في ذاته كتاب هداية، هداية الخالق سبحانه لإصلاح الخلق، أنزله المولى تعالى؛ ليهتدي الناس به إلى الطريق القويم، والصراط المستقيم، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[فصلت: ٤٤]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢].

فهذه النصوص القطعية، وغيرها، من كتاب الله تعالى، تؤكد هذه الحقيقة وتبينها أوضح بيان، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[آل عمران: ١٠٣]، فمن أهم أسباب تحقيق الهداية في قلب المؤمن: القرآن الكريم، ولا يتم ذلك إلا من خلال: كثرة قراءته، وتدبر آياته، واتباع أوامره، واجتناب نواهيه، فـ «من تمسك بالقرآن الكريم في جميع شؤونه، فقد اهتدى كل الهدى، ومن اهتدى بهدى الله فقد فاز في دنياه وأخراه»(١).

والله تعالى قد سمى كتابه نورًا ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[المائدة: ١٥]؛ «لأنّ القلوب لا تضيء ولا تشرق إلا بتلاوة القرآن والعمل به»(٢)، فإذا فعل المرء ذلك وصل للهداية التي كتبها الله تعالى﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

---

(١) التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلمين، للدكتور عبد الله بن عمر الشنقيطي (ص: ١٧).

(٢) موسوعة الأخلاق، لخالد الخراز (ص: ٨٤).

[المائدة:١٦]، فإذا أشرق نور القرآن في القلب، وذلك بكثرة تلاوته، وتدبره، حصلت الهداية بأمر الله تعالىٰ، وتحقق موعود الله جَلَّ وَعَلَا.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ إشارة إلىٰ أن هذا القرآن هو هدىٰ وشفاء للمؤمنين، يجدون ذلك في آياته وكلماته، وكلما أكثر المرء من تلاوة القرآن بتدبر وتعقل كان ذلك أدعىٰ لتحقيق الهداية في قلبه، وزيادة إيمانه(١).

والله سبحانه يقرّر هذا علىٰ لسان الحبيب المصطفىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فيقول تعالىٰ: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠] أي: إن استقمت علىٰ الحق والهدىٰ، فبوحي الله الذي يوحِي إلي من آياته، وتوفيقه للاستقامة علىٰ محجة الحق وطريق الهدىٰ(٢)، فالقرآن الكريم هو: «مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري»(٣).

وفي سؤال للشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُٱللَّهُ حول أسباب تحقيق الهداية، أجاب بقوله: «الهداية لها أسباب، منها: سؤال الله والضراعة إليه في طلب الهداية وطلب التوفيق، وانشراح الصدر للحق..، ومن أسباب الهداية: الإكثار من قراءة القرآن، وتدبر معانيه، فإن الله جعله سبب الهداية، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب (١٢/ ١٣٣١).

(٢) ينظر: جامع البيان (٢٠/ ٤٢٠)، بحر العلوم (٣/ ٩٦)، الهداية إلىٰ بلوغ النهاية (٩/ ٥٩٣٩)، تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٦٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٨٣).

﴿وَشِفَآءٌ﴾ فالإكثار من قراءة القرآن بالتدبر والتعقل، والإقبال بالقلب عليه، من أسباب الهداية..»[١].

فنسأل الله تعالىٰ بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وذهاب همومنا وغمومنا، وأن يرزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار علىٰ الوجه الذي يرضيه عنا.. اللهم آمين.

(١) الموقع الرسمي للشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ الشبكة العنكبوتية: http://www.binbaz.org.sa/mat/17379

المطلب الثامن

العلم والعمل

العلم فضله عظيم، وأمره جليل، فضله الله تعالىٰ علىٰ كل شيء، وقدمه حتىٰ علىٰ القول والعمل(١)، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾[محمد: ١٩]، وذلك أن العلم الحقيقي، المبني علىٰ كتاب الله تعالىٰ، وسنة نبيه(٢) صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ نور وضياء؛ فالعالم يستنير

(١) بوّب البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فبدأ بالعلم، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقًا يطلب به علمًا، سهل الله له طريقًا إلىٰ الجنة.
ينظر: صحيح البخاري (١/ ٢٤).

(٢) بوّب ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه القيم «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٧٥١ – ٧٨٥) باب بعنوان: باب معرفة أصول العلم وحقيقته، وما الذي يقع عليه اسم الفقه والعلم مطلقًا، وأورد تحت هذا الباب جملة من الأحاديث الدالة علىٰ فضل العلم وأهله، ثم ذكر جملة من آثار السلف عن ماهية العلم المرادة هنا في هذا الباب، ومن ذلك مثلًا: قول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس لأحد أن يقول في شيء حلال ولا حرام إلا من جهة العلم، وجهة العلم ما نصّ في الكتاب أو في السنة، أو في الأجماع، فإن لم يوجد في ذلك، فالقياس علىٰ هذه الأصول ما كان في معناها.
قال بقية بن الوليد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال لي الأوزاعي يومًا: يا بقية!! العلم ما جاء علىٰ أصحاب محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وما لم يجئ عن أصحاب محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فليس بعلم، يا بقية!! لا تذكر أحدًا من أصحاب محمد نبيك صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إلا بخير، ولا أحدًا من أمتك، وإذا سمعت أحدًا يقع في غيره، فاعلم أنه إنما يقول: أنا خير منه.
وغيرها من النقولات الكثيرة، التي ختمها ابن عبد البر بقوله: «وأما أصول العلم: فالكتاب والسنة».=

بنور القرآن، ويستضيء بضياء سنة المصطفىٰ العدنان، فيعبد الله تعالىٰ علىٰ بينة وهدىٰ وبصيرة، كما هي عادة وسنة الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]، أي: أنا وأتباعي علىٰ بصيرة، «فأهل العلم هم أهل البصيرة الذين نوَّر الله قلوبهم فميزوا الحق من الباطل»[١].

والبصيرة هي: العلم واليقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية، والدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه، والمعرفة التي تميز فيها بين الحق والباطل[٢].

فالعلماء هم ورثة الأنبياء، كما صحَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلىٰ الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتىٰ الحيتان في الماء، وفضل العالم علىٰ العابد، كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[٣].

= ينظر: إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، لصالح الفُلاني المالكي (ص:٢٦،٢٥)، والحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، للألباني (ص:٧٩).

(١) بصائر في الفتن، لمحمد المقدم (ص: ٢٦).

(٢) ينظر: جامع البيان (١٦/ ٢٩١)، ومعالم التنزيل (٤/ ٢٨٤)، ومدارج السالكين (٢/ ٤٥١)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٠٦)، وأضواء البيان (١/ ٤٦٣).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه علىٰ العبادة، برقم: (٢٦٨٢)، وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث علىٰ طلب العلم، برقم: (٣٦٤١)، =

ولمكانة العلم العالية في الإسلام قرنه الله تعالىٰ بالإيمان، ورتب عليه الأجر ورفعة الدرجات في الدنيا والآخرة، فقال تعالىٰ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾[المجادلة: ١١]، أي: يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين، علىٰ الذين لم يؤتوا العلم درجات، كما روي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا[(١)].

وهذا المعنىٰ محمول علىٰ أن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ صفة لـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: يرفع الله المؤمنين العلماء درجات.

ويحتمل أن تكون جملة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في محل نصب مفعول به ثان لـ: ﴿يَرۡفَعِ﴾، أي: يرفع الله المؤمنين، ويرفع الذين أوتوا العلم.

يقول ابن جزي المالكي: «يرفع الله المؤمنين والعلماء الصنفين جميعًا درجات، فالدرجات علىٰ الأول للمؤمنين بشرط أن يكونوا علماء، وعلىٰ الثاني للمؤمنين الذين ليسوا علماء، وللعلماء أيضًا، ولكن بين درجات العلماء وغيرهم تفاوت يوجد في موضع آخر، كقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب»[(٢)]، وقوله

= وابن ماجه في سننه، كتاب الإيمان، باب فضل العلماء والحث علىٰ طلب العلم، برقم: (٢٢٣)، وأحمد في مسنده (٣٦/ ٤٥-٤٦)، برقم: (٢١٧١٥)، كلهم من حديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٧٩)، رقم: (٦٢٩٧).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٤٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٢٣)، برقم: (٣٧٩٣)، وصححه ووافقه الذهبي، والسيوطي في الدر المنثور (٨/ ٨٣).

(٢) تقدم تخريجه.

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلًا»(١)، فإذا كان لهم فضل على العابدين والشهداء، فما ظنك بفضلهم على سائر المؤمنين»(٢).

ومع هذا الفضل العظيم للعلم، إلا أن هذا الفضل لا يتحقق بكماله إلا إذا جاء بلازمه، وهو العمل، فثمرة العلم العمل الصالح، والعلم الشرعي يقتضي العمل به، وقد كان أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يحرصون على العلم والعمل معًا، فقد روي عن أبي عبد الرحمن السلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنهم كانوا: يقترؤون من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل»(٣).

وأخرج ابن عبد البر عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: «اعلموا ما شئتم أن تعلَموا، فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا»(٤)، والمقصود: «أن العمل

(١) أخرجه أبو داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، برقم: (٣٦٤١)، والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، برقم: (٢٦٨٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه، أبواب السنة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم: (٢٢٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٧٩)، برقم: (٦٢٩٧).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٤٦٠)، برقم: (٣١٩٢١)، وأحمد في المسند (٣٨/ ٤٦٦)، برقم: (٢٣٤٨٢)، وابن جرير في جامع البيان (١/ ٨٠)، وحسنه شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

(٤) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٩٣)، وأخرجه الشجري في الأمالي مرفوعًا، كما في ترتيب =

بالعلم هو المطلوب من العباد، النافع عند قيام الأشهاد، ومتىٰ تخلف العمل عن العلم كان حجة علىٰ صاحبه، وخزيًا وندامة يوم القيامة»[(١)].

ويُروىٰ أن سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان ينشد متمثلًا:

إذا العلمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ كَانَ حجَّةً ... فَإن كُنتَ قَدْ أوتيتَ عِلمًا فَإنَّمَا
عَليكَ وَلم تُعذرْ بِمَا أنتَ جاهِلُهْ ... يُصدِّقُ قولُ المَرْءِ ما هو فَاعِلُهْ[(٢)]

وما أحسن ما قاله علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:«هتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»[(٣)].

فالعمل الصالح يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ:﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾[فاطر:١٠].

والآيات الدالة علىٰ اقتران العمل بالعمل، وأنهما سبب للهداية كثيرة في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالىٰ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

= الأمالي للقاضي العبشمي (١/ ٨٣)، وقد أخرجه كذلك ابن عبد البر (١/ ٦٩٤) مرفوعًا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث عبد الرحمن بن غنم، وإسناده ضعيف، كما قال الشيخ الألباني في ضعيف الجامع الصغير (١/ ٣٦١)، برقم: (٢٤٥٣)، إلا أن الموقوف أصح من المرفوع، كما قال ابن عبد البر، ونقل المناوي في فيض القدير (٣/ ٢٥٣) عن الحافظ العراقي قوله:«ورواه الدرامي موقوفا علىٰ معاذ بسند صحيح».

(١) قاله العلائي، نقله عنه المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٢٥٣).

(٢) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ٦٩٨)، ونسبه إلىٰ سابق البربري في شعر له مطول من البحر الطويل.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (ص: ٣٥)، برقم (٤٠)، وعبد الخالق بن أسد الحنفي في معجمه (ص: ٣٥٣)، برقم: (٣٥٧).

﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[يونس: ٩]، حيث قرن الله تعالىٰ بين العلم والإيمان، ورتب عليهما الهداية.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾[النحل: ٩٧]، وفي سورة العصر يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ..﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[فصلت: ٣٠]، وبمعناه حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «قل آمنت بالله فاستقم»(١).

وعليه فإن العلم إذا صاحبه العمل نفع وأثمر وأينع، فالعلماء الربانيون العاملون هم المهتدون؛ لأنهم أشد الناس خشية من الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[فاطر: ٢٨]، أي: لا يخشىٰ الله تعالىٰ إلا عالم؛ لأنهم علموا حقيقة الإيمان بالله، وتيقنوا من موعود الله، فأخلصوا لله العمل، وجدوا في سبيل مرضاة الله، واجتهدوا في الإتيان بأوامر الله، وترك نواهيه سبحانه.

وقد قيل للشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أيها العالم، فقال: لسنا بعلماء، إنما العالم من يخشىٰ الله»(٢).

وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: «ليس العلم عن كثرة الحديث، إنما العلم خشية الله»(٣).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ يقتضي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، برقم: (٣٨).

(٢) شفاء العليل (ص: ١٧٢).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٥٨).

الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالمًا إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفىٰ العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت علىٰ انتفاء العلم..»[(١)].

فالخشية من أهم سمات العلماء وصفاتهم، لكن ينبغي التنبه إلىٰ أن مقام الخشية جامع لمقام المحبة والرجاء، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، فدلت الآية علىٰ أن «الخشية أبدًا متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قُنوطًا، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله»[(٢)].

وعليه فإن العلماء العاملون هم المهتدون حقًّا؛ لأنهم يرون صدق ما أنزل، فيعملون بمقتضاه، فمن صدَّق عمل، ومن عمل آمن، ومن آمن اهتدىٰ، يقول سبحانه: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[سبأ:٦]، فالقرآن الكريم يهدي إلىٰ الحق وإلىٰ الصراط المستقيم، والعلماء به هم المستفيدون؛ لأنهم يؤمنون حق الإيمان بهذا الكتاب، وأنه منزل من الله تعالىٰ، فيسلكون سبيله، ويأتمرون بأوامره، ويجتنبون نواهيه، فتحصل لهم الهداية بأمر الله تعالىٰ.

---

(١) شفاء العليل (١/ ١٧٢).

(٢) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٧/ ٢١).

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«لما ذكر تعالىٰ إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل علىٰ رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله علىٰ رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق، أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه، فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلىٰ درجة اليقين.

ويرون أيضا أنه في أوامره ونواهيه ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عيانًا، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها، في الآفاق، وفي أنفسهم، ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالىٰ، وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلىٰ الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق، والإخلاص، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلىٰ عموم الخلق، ونحو ذلك، وتنهىٰ عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال، والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علمًا وتصديقًا بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، وعمل بمتضىٰ علمه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة

علىٰ ما جاء به الرسول، احتج الله بهم علىٰ المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها»(١).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[الحج: ٥٤] ما يؤكد أهمية العلم في تحقيق الهداية، حتىٰ في حال بث الشبه من شياطين الإنس والجن، فإنهم يردونها بما أودع الله تعالىٰ في قلوبهم من العلم، فيزداد إيمانهم، وتخضع قلوبهم.

وهذه الآية جاءت عقب الحديث عن وسوسة الشياطين، وزرع الشكوك في نفوس المدعوين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: أن الأنبياء والرسل يرجون اهتداء قومهم، فيبلغونهم ما ينزل إليهم من الله سبحانه، ويعظونهم بآياته، ويدعونهم بالحجة والمجادلة الحسنة، فيأتي الشيطان فيدخل في نفوس الأقوام ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد والهدىٰ والحق والنور، فيلقي وساوسه، ويروج الشبهات والتخيلات بإلقاء الشكوك علىٰ أوليائه التي تصرف نظر العقل عن تذكر البرهان، فيجادلوه بالباطل، ويردوا ما جاء به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٧٥).

(تنبيه): ذهب جماعة من المفسرين إلىٰ أن المراد من أهل العلم في الآية الكريمة: هم مؤمنو أهل الكتاب، أو هم أصحاب النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا وإن كان حقًّا إلا أن الآية أعم وأشمل، وهو ما يفهم من كلام الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتقدم، وغيره من أقوال المفسرين، كابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ٤٠٦)، والقرطبي في جامعه (١٤/ ٢٦١)، والنسفي في مدارك التنزيل (٣/ ٥٣)، وابن كثير في تفسيره (٦/ ٤٣٧).. وغيرهم.

ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٢١]، ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: فيبطل الله ما يلقيه الشيطان من الشبه في نفوس الناس، بفضح وساوسه، وسوء فعله(١)، ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقىٰ خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان(٢)، «فالله بهديه وبيانه ينسخ ما يلقي الشيطان، أي: يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان ببيان الله الواضح، ويزيد آيات دعوة رسله بيانًا، وذلك

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٨ – ٣٠٢)، والتفسير الوسيط، لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (٦/ ١٢٣٨).
(تنبيه): أغلب كتب التفسير أوردت قصة ذكروا أنها سبب نزول هذه الآية، وهي القصة المشهورة بـ(قصة الغرانيق) وما ورد فيها من زيادة بعض الكلمات فيما تلاه النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من قرآن، «تلك الغرانيق العلىٰ، وإن شفاعتهن لترتجىٰ» وسجود مشركي قريش.. إلىٰ آخر ما ورد فيها، وهذه القصة برواياتها المختلفة، وطرقها المتعددة لم تثبت بوجه صحيح، كما قال ذلك أهل العلم.
يقول الإمام ابن خزيمة: «إن هذه القصة من وضع الزنادقة»، نقله عنه غير واحد.
ويقول القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (٢/ ١٢٥): «إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا أخرجه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم».
ويقول الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٩٠): «قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلىٰ أرض الحبشة، ظنًّا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم».
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٢).

هو إحكام آياته، أي: تحقيقها، وتثبيت مدلولها وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلا لمن رين على قلبه»(١).

وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: «واسع العلم، فلا يخفى عليه ما يصدر من الشيطان وأوليائه، بليغ الحكمة في رد شبهاتهم ونصر رسله وأنبيائه»(٢).

عندها بينت الآيات أن الناس ينقسمون إلى: مكذب، ومصدق.

فالمكذبون هم: مرضى القلوب، وظالموا أنفسهم ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾، فما يلقيه الشيطان، يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم، من الخبث الكامن فيها(٣).

وأما المصدقون فهم: أهل العلم والبصيرة والنور والهدى ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية، «لأنّ الله منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يقيض بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريرة، ﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبه، ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أي: تخشع

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٩).

(٢) التفسير الوسيط، لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (٦/ ١٢٣٩).

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٢).

وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بسبب إيمانهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده»(١).

وفي سورة الفاتحة يقول الله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فطريق الذين أنعم الله عليهم، هو طريق العلماء الربانيين، من الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وأما العلم بلا عمل، أو العمل بلا علم، فإنه يؤدي بصاحبه إلىٰ التهلكة، وإلىٰ سلوك سبيل غير المؤمنين، من الذين غضب الله تعالىٰ عليهم، وأضلهم.

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمعنىٰ: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم: أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسله، وامتثال أوامره، وترك نواهيه وزواجره، غيرِ صراط المغضوب عليهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلىٰ الحق..»(٢).

فالمغضوب عليهم: اليهود الذين وصفهم الله تعالىٰ في كتابه بقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٦١، وآل عمران: ١١٢]، وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح: ٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٢). وينظر: تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٩٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٤).

ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة: ٦٠]، وصفوا كذلك؛ لأنهم علموا الحق ولم يعملوا به، وبلغهم شرع الله ودينه، فرفضوه، ولم يتقبلوه؛ انصرافًا عن الدليل، ورضاءً بما ورثوه من القيل، ووقوفًا عند التقليد، وعكوفًا على هدىً غير رشيد.

والضالون: النصارىٰ الذين وصفهم الله تعالىٰ في كتابه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة: ٧٧]، وصفوا كذلك لأنهم عملوا بلا علم، فضلوا وأضلوا.

والآية وإن فسرت باليهود والنصارىٰ -كما تقدم- إلا أن الغضب ليس خاصًا باليهود، والضلال كذلك ليس خاصًّا بالنصارىٰ، بل كلا الفريقين ضلال مغضوب عليهم، لكن كل فريق اختص بما تميز به، وإن كان له من صفات الذم ما للآخر، ومن جانب آخر فالغضب والضلال ليس خاصًّا فقط باليهود والنصارىٰ، بل هو عام في كل اتصف بالعمل بلا عمل، أو العلم بلا عمل[١].

فنسألك اللهم بأن ترزقنا العلم النافع، والعمل الصالح..

(١) ينظر: جامع البيان (١/ ١٨٥-١٩٥)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٥٥)، وتفسير الشيخ ابن عثيمين لسورتي الفاتحة والبقرة (١/ ١٧).

المبحث الثاني
موانع تحقيق الهدايات القرآنية

موانع تحقيق الهدايات القرآنية

تمهيد:

فكما هو معلوم من الدين بالضرورة، أن الله تعالىٰ لم يترك الناس هملًا، بل أرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وأقام الحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، لإخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، من ظلمة الكفر إلىٰ نور الإيمان، ومن ظلمة الضلال إلىٰ نور الهداية واليقين.

فوفق الله تعالىٰ طائفة من عباده، فاستجابوا لدعوته، واهتدوا بهديه، وضلت طائفة من الناس، فآثرت الضلال علىٰ الهدىٰ، والغواية علىٰ الهداية، وما ذلك إلا لمانع في قلوبهم، وعائق في نفوسهم، تمكن منهم فلم يهتدوا.

والله تعالىٰ في كتابه وعلىٰ لسان رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيّن هذه الموانع حق بيان، وأوضح العوائق التي تمنع صاحبها من الهداية، وتجعله يسلك سبيل الغواية.

لكن لا بد أن يُعلم أن الهداية المنفية هي الهداية إلىٰ الحق التي بمعنىٰ التوفيق والإلهام، والهداية إلىٰ جنة الرحمن، أما الهداية التي بمعنىٰ الدلالة والبيان، فهي عامة لجميع الخلق، مؤمنهم وكافرهم.

وهذه الموانع تتلخص في: الكفر، والظلم، والفسق، والخيانة، وحب الدنيا وكراهية الموت، واتباع الهوىٰ، والكذب، والكبر، والحسد.

وهـذه الموانـع وغيرها هي موضـوع هـذا المبحث إن شـاء الله، حيث سـأفرد كل مانـع في مطلب مسـتقل، أجمـع ما يتعلـق به من نصـوص القرآن والسـنة، وأدرسـها دراسـة تفسـيرية تحليلية، مبينًا وجه كونها مانعًـا من موانع الهداية.

سـائلًا المولىٰ تعالـىٰ التوفيق والسـداد، والبر والرشـاد، اللهم اشـرح لي صدري، ويسـر لي أمـري، واحلل عقدة من لسـاني، يفقهوا قولـي.. اللهم آمين.

المطلب الأول

الكفر

«الكُفْر» في اللغة: يرجع إلىٰ الستر، وتغطية ما حقه الإظهار.

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معجمه: «الكاف والفاء والراء: أصل صحيح يدل عل معنىٰ واحد، وهو: الستر والتغطية، يقال لمن غطَّىٰ درعه بثوب: قد كَفَر درعه، والمُكفِّر: الرجل المتغطَّىٰ بسلاحه»[(١)].

وأما في الاصطلاح فاختلفت أقوال العلماء، وتنوعت ألفاظهم، لكنها تدور حول معنىٰ: المضادة للإيمان بالله تعالىٰ، ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والجحود بما جاء به الله تعالىٰ، ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

يقول الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الكافر علىٰ الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثتها»[(٢)].

ويعرفه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «الكفر جحد ما علم أن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جاء به»[(٣)].

و«الكُفْر» كما يقول أهل العلم؛ كفران:

كفر أصغر، غير مخرج من الملة، وهو ما لا يناقض أصل الإيمان، بل يضعفه وينقصه، ولهذا الكفر أنواع، ليس هذا مجال الحديث عنها.

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ١٩١). وينظر: تهذيب اللغة (١١٠/٥- ١١٦)، ولسان العرب (٥/ ١٤٤ – ١٤٩)، والتوقيف علىٰ مهمات التعاريف (ص: ٢٨٢).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٧١٥).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٥٩٦).

وكفر أكـبر: وهو المخـرج من الملـة، وهذا النـوع هو المقصـود بنفي الهدايـة عن صاحبـه، وله عدة أنـواع بينها أهـل العلم، مجملها تسـعة:

كفـر الإنـكار، وكفـر الجحود، وكفـر العنـاد، وكفـر النفـاق، وكفر التكذيب، وكفر الاسـتكبار، وكفـر الإعراض، وكفر الشـك، وكفر الجهل[(١)].

وعلـىٰ كلٍّ؛ فـإن الكفر الأكبر وإن كان هـو الضلال بعينـه، إلا أن الكافر عندمـا رغب عـن الحق بالضـلال، وبالغواية عـن الهداية، اسـتحق عقوبة الله سـبحانه جَلَّ وَعَلَا بـأن ران علـىٰ قلبـه، فلم يعـرف معروفـا، ولم ينكـر منكرًا، وضل عن سـواء الصراط، ولم يهتد إلـىٰ الحق المبين، يقـول الله تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففيـن: ١٤].

وقـد تقـرر في كتـاب الله تعالـىٰ -كما جـاء بيانـه سـابقًا- أن الهداية لا تتحقـق إلّا لمن آمن بـالله تعالىٰ، وصدّق برسـوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقـرة:٢]، فـإذا كان ذلـك كذلـك علـم أن الكفـر بـالله

---

(١) ذكـر بعض العلمـاء أن الكفر أربعة أنحـاء: كفر إنـكار، وكفر جحود، وكفـر معاندة، وكفر نفـاق، وممن ذهب إلىٰ هذا: الأزهـري في تهذيب اللغة، والبغوي في التفسـير، وابن الأثير في النهايـة وغيرهـم، وذهب آخرون إلىٰ أنها خمسـة أنواع، هـي: كفر تكذيب، وكفر اسـتكبار وإبـاء، وكفر إعراض، وكفر شـك، وكفـر نفاق، وممن ذهـب إلىٰ هذا: ابن القيم، والشـيخ محمد بـن عبدالوهاب، وحافظ حكمـي.. وغيرهم.

وللمزيـد حول هـذه التقسـيمات وأنواعها، ينظر: تهذيـب اللغـة (٥/ ١١١، ١١٠)، ومعالم التنزيل (١/ ٦٤)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٨٦)، والرسـالة المفيدة، للشـيخ محمـد بـن عبدالوهـاب (ص: ٤٥، ٤٦)، ومعارج القبول بشـرح سـلم الوصـول إلىٰ علم الأصـول، لحافـظ الحكمـي (٣/ ٥٩٤، ٥٩٣)، وأصول الإيمـان في ضوء الكتاب والسـنة، لنخبـة من العلماء، وزارة الشـؤون الإسـلامية بالمملكـة العربية السـعودية (ص: ٦٥، ٦٦).

وبرسوله ﷺ من أعظم موانع الهداية العامة والخاصة، وقد نفىٰ الله تعالىٰ الهداية عن الكافرين في آيات كثيرة، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٦٤، التوبة: ٣٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٦٧] أي: إن الله تعالىٰ لا يوفق هؤلاء الكفار ولا يسددهم لإصابة الحق والهدىٰ في فعلهم وقولهم بسبب أعمالهم(١)، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾[الزمر:٣].

(تنبيه): جملة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ذيلت بها آيتان من كتاب الله تعالىٰ، كلتاهما وردتا في سياق الحديث عن بعض أحوال الكفار، وتحذير المؤمنين منها:

الآية الأولىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾[البقرة: ٢٦٤]، وهذا مثل ضربه الله تعالىٰ لعمل المرائي، وعمل المانّ المؤذي، يري الناس في الظاهر أن له عملًا، كما يرىٰ التراب علىٰ هذا الحجر الأملس الذي لا ينبت عليه شيء، فإذا كان يوم القيامة بطل عمله، لأنه لم يكن لله، كما أذهب المطر ما كان علىٰ الحجر من التراب، فلا يقدر أحد علىٰ ذلك التراب الذي أزاله المطر عن الحجر، فهم بالتالي لا يؤجرون علىٰ ما أنفقوا، ولا يجدون ثواب ما عملوا؛ لأنهم لم يخلصوا لله العمل، ولم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر.

---

(١) ينظر: معاني القرآن، للزجاج (١/ ٣٤٧)، وبحر العلوم (١/ ١٧٦، ٢/ ٥٧)، والهداية إلىٰ بلوغ النهاية (١/ ٨٨٦).

ثم ذيلت الآية الكريمة بجملة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: أن الله تعالىٰ لا يوفق هؤلاء الكفار لإصابة الحق في نفقاتهم؛ لأنهم آثروا الرياء علىٰ ابتغاء مرضاة الله، فتركهم في ضلالهم يعمهون، «وهذا التذييل مسوق لتحذير المؤمنين، عن تسرب أحوال الكافرين إلىٰ أعمالهم، فإن من أحوالهم المن علىٰ من ينفقون وأذاه»(١)، ففي هذه الآية إذًا تعريض «بأن الرياء والمن والأذىٰ علىٰ الإنفاق من صفات الكفار، ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها»(٢).

الآية الثانية: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾[التوبة: ٣٧]، والنسيء: تأخير شهر حرام، فيجعل حلالًا، وتحريم شهر آخر، من الأشهر الحلال عوضًا عنه(٣)، وهذا «مما ذم الله تعالىٰ به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله، وتحريمهم ما أحل الله»(٤)، ثم ذيلت بنفي الهداية عنهم؛ للدلالة علىٰ أن الله تعالىٰ «أمسك عنهم اللطف والتوفيق، اللذين بهما يتفطنُ الضال لضلاله فيقلع عنه، جزاءً

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٠). وينظر: جامع البيان (٥/ ٥٢١-٥٣٨)، وبحر العلوم (١/ ١٧٦)، والوسيط، للواحدي (١/ ٣٧٨)، والجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣١٢)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٥٣٣)، والتفسير الوسيط، لمجمع البحوث بالأزهر (١/ ٤٥٤).

(٢) أنوار التنزيل (١/ ١٥٨). وينظر: روح المعاني (٢/ ٣٥).

(٣) ينظر: معاني القرآن، للأخفش (١/ ٣٥٧)، ومعاني القرآن، للزجاج (٢/ ٤٤٧)، وأحكام القرآن، لابن العربي (٢/ ٥٠١)، والجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٣٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٣٢).

لهم على ما أسلفوه من الكفر، فلم يزالوا في دركات الضلال إلى أقصى غاية»[١].

(فائدة): قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير آية البقرة: «ومن فوائد الآية: أن من قضى الله عليه بالكفر لا تمكن هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين الواقع، من أن الله تعالى هدى قومًا كافرين كثيرين؟

فالجواب: أن من هدى الله لم تكن حقت عليهم كلمة الله؛ فأما من حقت عليه كلمة الله فلن يُهْدى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾[يونس: ٩٦، ٩٧]»[٢].

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فقد ذيلت بها آية البلاغ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فالله تعالى أمر نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بتبليغ الدعوة، وإيصالها إلى الناس، وطمأنه سبحانه بأنه سيحفظه ويرعاه، فالبلاغ مهمته، والحفظ من الله، والهداية موكولة إليه تعالى، لذا ذيلت الآية الكريمة بهذه الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ للدلالة على أن الهدى هدى الله، فهو سبحانه الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلا يوفق للرشد من حاد

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ١٩٥).

(٢) تفسير الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٢٤).

عن سبيل الحق، وجار عن قصد السبيل، وجحد ما جاء به من عند الله، فلم يأتمر بأمره، ولم ينته عن نهيه[١]، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾[البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾[الرعد: ٤٠].

وآية الزمر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾[الزمر:٣] تقرّر هذا المعنىٰ وتؤكده، فالله تعالىٰ «لا يهدي إلىٰ الحق ودينه الإسلام، والإقرار بوحدانيته فيوفقه له ﴿مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ مفتر علىٰ الله، يتقول عليه الباطل، ويضيف إليه ما ليس من صفته، ويزعم أنه له ولدًا افتراءً عليه، كفار لنعمه، جحودًا لربوبيته»[٢]، فمن كان هذا صفته فـ«أنىٰ له الهدىٰ، وقد سدّ علىٰ نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله علىٰ قلبه، فهو لا يؤمن؟»[٣]، كما قال تعالىٰ: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾[آل عمران: ٨٦].

فالكافر عندما سلك طريق الكفر واختاره علىٰ الإيمان، ورضي علىٰ نفسه الضلال إصرارًا، وابتعد عن الهداية عنادًا، وصد عن سبيل الله تعالىٰ ظلمًا وعدوانًا، اتباعًا لهواه وتزيين الشيطان له عمله، كما قال تعالىٰ:

(١) جامع البيان (١٠/ ٤٧٢)، وينظر: الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٤٤)، وتفسير القرآن العظيم (٣/ ١٤٠)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٣٩)، والتفسير الوسيط، لمجمع البحوث بالأزهر (٢/ ١١١٩).

(٢) جامع البيان (٢١/ ٢٥٢)، وينظر: الهداية إلىٰ بلوغ النهاية (١٠/ ٦٢٩٧)، ومعالم التنزيل (٤/ ١٠٨)، وتفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧١٧).

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾[النمل: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧] وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾[فاطر: ٨]، فالآيات الثلاث تقرر أن الشياطين زينت للكافرين أعمالهم السيئة، فرأوها حسنة، ومن كان هذا حاله فلا يمكن أن يتغير؛ لأن أول مراحل التغيير الاعتراف بالخطأ والتقصير، فلما لم يقر هذا الكافر بعمله السيء ويعترف به، فلا مجال عنده للتغيير والاهتداء، لذا نفىٰ الله تعالىٰ عنهم الهداية ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهذه الجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾.

«فهي مشمولة لمعنىٰ الاستئناف البياني، المراد منه التعليل لتلك الحالة الغريبة؛ لأن التعجيب من تلك الحالة يستلزم التعجيب من دوامهم علىٰ ضلالهم، وعدم اهتدائهم إلىٰ ما في صنيعهم من الاضطراب، حتىٰ يُقلعوا عن ضلالهم، فبعد أن أُفيدَ السائلُ بأن سبب ذلك الاضطراب هو تزيين الشيطان لهم سوء أعمالهم، أفيد بأن دوامهم عليه لأن الله أمسك عنهم اللطف والتوفيق، الّذين بهما يتفطن الضال لضلاله، فيقلع عنه، جزاءً لهم علىٰ ما أسلفوه من الكفر، فلم يزالوا في دركات الضلال إلىٰ أقصىٰ غاية.

والإظهار في مقام الإضمار بقوله: ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لقصد إفادة التعميم الذين يشملهم وغيرَهم، أي: هذا شأن الله مع جميع الكافرين»[1].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/ ١٩٤، ١٩٥).

فمن كان هذا وصفه، وهذا حاله كيف يهديه تعالىٰ بعد ذلك، وقد أصم أذنه، وأغلق قلبه فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي ما يفيده(١)، يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾[النساء: ١٦٧ - ١٦٩].

أي: إن الذين كفروا «في أنفسهم، فلم يتبعوا الحق، وسعوا في صد الناس عن اتباعه والاقتداء به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه، وبعُدوا منه بُعدًا عظيمًا شاسعًا، ثم أخبر تعالىٰ عن حُكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك، وبالصد عن سبيله، وارتكاب مآثمه، وانتهاء محارمه، بأنه لا يَغفر لهم ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي: سبيلًا إلىٰ الخير ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾..»(٢).

وهذا الجزاء الذي استحقوه، والعقوبة التي كتبها الله لهم، من تعذر المغفرة والهداية لهم؛ «لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم، فطبع علىٰ قلوبهم، وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦]»(٣).

(١) ينظر: التفسير الوسيط، لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (٢/ ٩٨٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٢١، ٤٢٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢١٥).

فنسـألك اللهم بأسـمائك الحسـنىٰ وصفاتـك العلىٰ الثبـات في الأمر، والعزيمة علىٰ الرشـد، ونسـألك اللهـم موجبات رحمتـك، وعزائم مغفرتك، والفـوز بالجنة، والنجاة مـن النار.

المطلب الثاني

الظلم

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«والجهل والظلم: هما أصل كل شر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: ٧٢]»(١).

و «الظلم» هو الجَورُ، ومجاوزة الحد في الأذىٰ، والميل عن القصد(٢)، وله **أنواع ثلاثة**(٣)، ذكرت في القرآن الكريم:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٤٨).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ٤٦٨)، ولسان العرب (١٢/ ٣٧٣ – ٣٧٩)، مادة: (جور).

(٣) ينظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ٧٠)، ومجموع فتاوىٰ الشيخ ابن باز (٢/ ٢٦٥)، وإعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، للشيخ صالح الفوزان (١/ ٥٧)، والتمهيد لشرح كتاب التوحيد، للشيخ صالح آل الشيخ (ص: ٢٤).

وهذه الأنواع الثلاثة جاء ذكرها في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدواوين عند الله ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وديوان لا يغفره الله، فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[المائدة:٧٢]، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئًا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها، فإن الله تعالىٰ يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء الله، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئًا فظلم العباد بعضهم بعضًا، القصاص لا محالة».

أخرجه أحمد في مسنده (٤٣/ ١٥٥)، برقم: (٢٦٠٣١)، وهذا لفظه، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦١٩)، برقم: (٨٧١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٥٤٠) برقم: (٧٠٦٩)، قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص: ١٣٥١): «أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة، وفيه صدقة بن موسىٰ الدفيقي، ضعفه ابن معين وغيره، وله شاهد =

النوع الأول: ظلم الشرك، وهو أقبح الظلم وأعظمه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣]، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[الأنعام: ٨٢] شق ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله! أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣]»(١).

النوع الثاني: ظلم المعاصي، فكل من خرج عن طاعة الله، وتعدَّ حدود الله فقد وقع في الظلم: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة: ٢٢٩]، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[الطلاق: ١].

فمن أظلم نفسه بالشرك، أو أظلم نفسه بالوقوع فيما حرم الله فهو لا يظلم إلا نفسه، ولا يضر إلا ذاته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[البقرة: ٥٧]، وكما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[يونس: ٤٤].

«والمقصود من هذا التذييل: التعريض بالوعيد، بأن سينالهم ما نال جميع الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسل الله.. وهذا الاستدراك أشعر بكلام مطوي بعد نفي الظلم عن الله، وهو أن الله لا يظلم الناس بعقابه

= من حديث سلمان، أخرجه الطبراني»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (١/ ٤٤٣)، رقم: (٣٠٢٢).

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ برقم: (٣٤٢٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، برقم: (١٢٤).

من لم يستوجب العقاب، ولكن الناس يظلمون فيستحقون العقاب، فصار المعنىٰ: أن الله لا يظلم الناس بالعقاب، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالاعتداء علىٰ ما أراد منهم، فيعاقبهم عدلًا؛ لأنهم ظلموا فاستوجبوا العقاب»(١).

النوع الثالث: ظلم العباد بعضهم بعضًا في أنفسهم، أو أموالهم، أو أعراضهم، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، ويقول تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الشورىٰ: ٤٢].

وهذا «الظلم» هو الذي حرمه الله تعالىٰ علىٰ عباده، ونهاهم عن ظلم بعضهم بعضًا، كما في الحديث القدسي: «يا عبادي!! إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا..» الحديث(٢).

وهو الذي حذر منه سيد البشر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة..» الحديث(٣).

وهذا «الظلم» صوره متعددة، وفروعه متنوعة كثيرة، وهو: «لا ينحصر في صور معدودة، بل كل تعدٍّ علىٰ مصالحهم، أو تقصير في حقوقهم؛ فإنه يعد ظلمًا لهم، سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل»(٤)، ومن ذلك علىٰ سبيل المثال:

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٨٠).

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧).

(٣) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم: (٢٥٨٧).

(٤) مقالة بعنوان: حقيقة الظلم: معناه، أنواعه، صوره، عاقبته، للدكتور عبد العزيز الفوزان، منشور علىٰ الشبكة العنكبوتية في موقع: شبكة النور، علىٰ العنوان التالي: http://islamselect.net/mat/7623

- السخرية والاستهزاء بالآخرين، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الحجرات: ١١].

- الاحتقار والخذلان، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم علىٰ بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذُله، ولا يحقره..» الحديث[1]، وغيرها من أنواع الظلم..

ورأس «الظلم» وأقبحه: الكفر بالله تعالىٰ، حيث سمىٰ الله الشرك ظلمًا، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾[الأنعام:٨٢] فمن اتصف بالإيمان، ولم يشرك بالله جل في علاه فقد رُزق الهداية، ومن تلبس بشرك حرمها.

وعلىٰ كلٍّ؛ فإن «الظلم» بأنواعه من أشد المعاصي خطرًا علىٰ المرء، فعاقبته وخيمة، وعقوبته شديدة أليمة، في الدنيا قبل الآخرة، يقول تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[هود: ١٠٢]، ويقول سبحانه: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾[الأنبياء: ١١].

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم واحتقاره، برقم: (٢٥٦٤).

وفي الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»(١)، ويقول تعالىٰ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الفرقان: ٣٧]، ويقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله تعالىٰ ليملي للظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يفلته»(٢).

وما أشد الوعيد الذي توعد الله تعالىٰ به الظالم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[إبراهيم: ٤٢-٤٣]، وعيد تنخلع له القلوب الحية، وتقشعر له الجلود المؤمنة، وإضافة إلىٰ هذا كله: فإن الظلم يعد أحد أهم موانع الهداية، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا يوفقهم للهداية(٣)، ولا ييسر لهم أسبابها.

يقول ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا سلم العبد من أنواع الظلم: ظلم الشرك، وظلم المعاصي، وظلم العباد في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم، إذا سلم من هذه الأنواع الثلاثة حصل له الأمن الكامل، والاهتداء الكامل في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، برقم: (٢٥١١)، وقال: هذا حديث صحيح، وأخرجه ابن ماجه، أبواب الزهد، باب البغي، برقم: (٤٢١١)، وأحمد في مسنده (٣٤/ ٣٩، ٤٠)، برقم: (٢٠٣٩٨)، كلهم من حديث أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٥٨٨)، برقم: (٩١٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾، برقم: (٤٦٨٦).

(٣) ينظر: تفسير الخازن (٤/ ٢٨٨)، تفسير ابن عثيمين (٣/ ٢٨١).

أمـا إن سـلـم من الظلـم الأكبر وهـو الشـرك، ولكن بقي معه شـيء من الظلـم الأصغر، وهو ظلم العباد، وظلمه لنفسـه بالانغمـاس في المعاصي، فإن هـذا يكون معـه أصل الأمن، ومعـه أصل الهدايـة، وأصل النجاة مـن الخلود في النـار، ولكنـه علىٰ خطر في دنيـاه وفي أخراه، علـىٰ خطر مـن العقوبات في الدنيـا وفي الآخـرة، فليس له أمـن كامل، ولا اهتداء كامل بسـبب مـا معه من أنواع المعاصي، وظلـم العباد»(١).

وعليه؛ فـإن من وقـع في «الظلم» عاقبـه الله تعالىٰ بحرمانه مـن الهداية، إلا إن اسـتغفر وتاب، وعاد إلىٰ رشـده وأناب، وإن المتأمـل للنصوص القرآنية التـي نفت الهدايـة عن الظالميـن، والتي ذيلت بهـا بعض آي القـرآن الكريم، يجـد أنها سـيقت في مقام التنبيـه والتحذير عن بعض الذنـوب والمعاصي التي تعد من أنـواع الظلم، نفـىٰ الله تعالىٰ عن صاحبهـا الهداية:

فأولهـا: مـوالاة غيـر المؤمنيـن، يقـول الله تعالـىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائـدة:٥١]، فـالله تعالـىٰ «لا يُوَفِّـق من وضـع الولاية في غير موضعهـا، فوالـىٰ اليهـود والنصارىٰ مـع عداوتهم لله ورسـوله»(٢).

وثانيهـا: الافتراء علىٰ الله تعالـىٰ لإضلال الناس وإبعادهـم عن الهداية، يقـول تعالـىٰ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنعـام: ١٤٤]، أي: «لا أحـد أشـد ظلمًـا ممن

(١) مجموع فتاوىٰ الشيخ عبد العزيز ابن باز (٢/ ٢٦٥).

(٢) الهداية إلىٰ بلوغ النهاية (٣/ ١٧٧٨).

اختلق الكذب على الله تعالى، فنسب إليه تحريم ما لم يحرم، ليوقع الناس بجهله في الضلال والبعد عن المنهج القويم، الذي شرعه الله لعباده»[١]، فمن اتصف بهذه الصفة لا يهديه الله تعالى، فالله تعالى لا يوفق للرشد من افترى عليه سبحانه، وقال عليه الزور والكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرم، كفرًا بالله سبحانه، وجحودًا لنبوة نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظلمًا وعدوانًا[٢].

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الصف:٧]، استفهام إنكاري والمقصود: لا أحد أظلم من هؤلاء، «وإنما كانوا أظلم الناس لأنهم ظلموا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنسبته إلى ما ليس فيه، إذ قالوا: هو ساحر، وظلموا أنفسهم إذ لم يتوخوا لها النجاة.. وظلموا ربهم إذ نسبوا ما جاءهم من هديه وحجج رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ما ليس منه، فسموا الآيات والحجج سحرًا، وظلموا الناس بحملهم على التكذيب، وظلموهم بإخفاء الأخبار التي جاءت في التوراة والإنجيل مثبتة صدق رسول الإسلام صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٣]، فاستحقوا عقاب الله تعالى.

وثالثها: اتباع الهوى[٤] ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، أي: لا أحد أضل ممن اتبع هواه، ولم يستجب لدعوة الحق،

---

(١) التفسير الوسيط، لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (٣/ ١٣٤٧).

(٢) جامع البيان (١٢/ ١٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ١٨٨).

(٤) سيأتي الحديث عن اتباع الهوى بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

فهؤلاء ظلموا أنفسهم باتباعهم الهوىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[الروم: ٢٩]، «فمن يسدّد للصواب من الطرق، يعني بذلك من يوفق للإسلام مَن أضلّ الله عن الاستقامة والرشاد ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يقول: وما لمن أضلّ الله من ناصرين ينصرونه، فينقذونه من الضلال الذي يبتليه به تعالىٰ ذكره»(١).

ورابعها: الكفر بالقرآن الكريم، يقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأحقاف: ١٠] يأمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ بأن يقول للمشركين الذين أنكروا كلامه ولم يؤمنوا به، قل لهم: «أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به، أي: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزل عليَّ لأبلِّغكموه، وقد كفرتم به وكذبتموه.. وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة علىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي(٢)،

(١) جامع البيان (٢٠/ ٩٧).

(٢) هذا المعنىٰ علىٰ قول من قال: أن المراد من الشاهد في الآية نبي الله موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو قول مسروق بن الأجدع، والشعبي.. وغيرهما، وفي الآية قول آخر عن السلف، وهو: أن الشاهد هو عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو مروي عن سعد بن أبي وقاص، وابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة.. وغيرهم.
ينظر: زاد المسير (٤/ ١٠٥)، ومفهوم علم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، للدكتور مساعد الطيار (ص: ١١٨).
وذهب الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٥٥) وغيره إلىٰ أن الشاهد يحتمل كلا القولين، فهو اسم جنس، يعم عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره، والله تعالىٰ أعلم بالصواب.

بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به»[١].

ففي الكلام حذف لعلم السامع به، والمعنىٰ: أليس قد غررتم، وأتيتم أمرًا قبيحًا، واجترأتم عليه[٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «يقول: إن الله لا يوفق لإصابة الحق، وهدىٰ الصراط المستقيم، القوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم، بإيجابهم لها سخط الله بكفرهم به»[٣].

ويقول سبحانه عن اليهود: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الجمعة:٥]، شبه الله تعالىٰ أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ الذين أوتوا التوراة وأمروا بالعمل بها وبما جاء فيها، ومنها صدق نبوة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، لكنهم لم يعملوا بما فيها، وكذبوا بالنبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، شبههم الله بالحمار الذي يحمل علىٰ ظهره كتبًا وصحفًا فيها العلم الكثير، لكنه لا ينتفع به؛ لأنه لا يعقل ما فيها، ومن كان هذا حاله، وهذه صفته فقد ظلم نفسه ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٤٥). وينظر: جامع البيان (٢٢/ ١٠٨)، والهداية إلىٰ بلوغ النهاية (١١/ ٦٨٢٣،٦٨٢٢)، والتفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ١٠٤،١٠٣)، معالم التنزيل (٧/ ٢٥٤)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٧٩).

(٢) ينظر: معاني القرآن، للنحاس (٦/ ٤٤٢).

(٣) جامع البيان (٢٢/ ١٠٨).

(٤) ينظر: جامع البيان (٢٢/ ٣٧٧)، وبحر العلوم (٣/ ٤٤٧)، والتسهيل (٢٣٧٣)، وتفسير القرآن العظيم (٨/ ١٤٣).

وفي هـذا تنبيه مـن الله تعالىٰ لمن حمـل الكتاب أن يتعلـم معانيه، ويعلم ما فيـه؛ لئلا يلحقـه من الذم مـا لحق هؤلاء.

يقـول ابن القيـم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهـذا المثـل وإن كان قد ضرب لليهـود، فهو متنـاول مـن حيث المعنىٰ لمـن حمل القرآن، فـترك العمل به، ولـم يؤد حقه، ولم يرعه حـق رعايته»[١].

وخامسـها: الجـدال بالباطـل، يقـول الله تعالـىٰ عـن محاجـة إبراهيم للنمـروذ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقـرة:٢٥٨] يحكـي الله تعالىٰ في هـذه الآية قصة نبـي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع عـدو الله النمـروذ، الـذي ادعـىٰ الربوبيـة، فحاجه إبراهيـم بما ذكـر القرآن، فبهـت هذا الكافـر فانقطعـت حجتـه الواهية، وبطلـت اسـتدلالاته الواهنة، فحرمه الله تعالىٰ الهداية بسـبب ظلمه وطغيانه ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ونفـي الهدايـة في الآية هنا عـن القوم الظالميـن يحتمل أن يـراد به نفي خـاص، وهو نفـي الهداية إلـىٰ الحجة، التـي يدحضون بها حجـة أهل الحق، عنـد المخاصمة والمجادلة، فظاهـره العموم، ومعنـاه الخصوص[٢].

---

(١) التفسير القيم (ص: ٥٤٣). وينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٩٤).

(٢) قالـه الطبري في جامع البيـان (٥/ ٤٣٢). وينظر: بحر العلـوم (١/ ١٧٠)، والمحرر الوجيز (١/ ٣٤٥)، وتفسـير القرآن العظيم (١/ ٥٢٥).

ويحتمل أن يكون المراد به العموم، والمعنىٰ: أن الله تعالىٰ لا يهديهم من الكفر إلىٰ الإيمان، ومن الضلالة إلىٰ الهداية [١].

أقول: يظهر لي -والله أعلم- أنه لا تعارض بين القولين، فإن من لم يهده الله تعالىٰ إلىٰ الحجة والصواب، وجادل بالباطل والحجة الفاسدة، فقد وقع في الظلم الذي يبعده عن الهداية إلىٰ الحق والصراط المستقيم؛ «لأن الظلم حائل بين صاحبه وبين التنازل إلىٰ التأمل من الحجج وإعمال النظر فيما فيه النفع؛ إذ الذهن في شاغل عن ذلك بزهوه وغروره»[٢].

ومن فوائد هذه الآية المتعلقة بالهداية ما قاله ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنه كلما كان الإنسان أظلم، كان عن الهداية أبعد؛ لأن الله علق نفي الهداية بالظلم، وتعليق الحكم بالظلم يدل علىٰ عليته، وكلما قويت العلة قوي الحكم المعلق عليه.

ومنها: أن من أخذ بالعدل كان حريًا بالهداية؛ لمفهوم المخالفة في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإذا كان الظالم لا يهديه الله، فصاحب العدل حري بأن يهديه الله سبحانه؛ فإن الإنسان الذي يريد الحق ويتبع الحق -والحق هو العدل- غالبًا يُهدىٰ، ويوفّق للهداية؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية عبارة من أحسن العبارات؛ قال: «من تدبر القرآن طالبًا الهدىٰ منه تبين له طريق الحق»؛ وهذه كلمة مأخوذة من القرآن منطوقًا، ومفهومًا»[٣].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زمنين (١/ ٢٥٣)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ١١١).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٣١).

(٣) تفسير الفاتحة والبقرة (٢/ ٢٧٩، ٢٨٠).

وسادسها: الكفر بعد الإيمان، والضلالة بعد الهداية ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران:٨٦]، ذكر جماعة من المفسرين أن هذه الآية نزلت في أشخاص أسلموا(١)، ثم ارتدوا بعد إيمانهم، ثم أرادوا الرجوع إلىٰ الإسلام ونيتهم الكفر، فأعلم الله تعالىٰ أنه لا جهة لهدايتهم، إذ كيف يستحق هؤلاء الهداية بعدما قامت عليهم الحجج والبراهين علىٰ صدق ما

---

(١) ذكر أهل التفسير ثلاثة أقوال فيمن نزلت فيهم هذه الآية:

الأول: أنه رجل من الأنصار، أسلم ثم ارتد فرجع إلىٰ الكفار، وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي.

الثاني: أنها نزلت في عشرة رهط، أسلموا ثم ارتدوا، وهو مروي عن ابن عباس كذلك، وبه قال مقاتل.

الثالث: أنها نزلت في أهل الكتاب، عرفوا النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم لم يؤمنوا به، وهو مروي عن الحسن البصري.

ينظر: جامع البيان (٦/ ٥٧٢ - ٥٧٦)، وزاد المسير (١/ ٣٠١)، واللباب (٥/ ٣٧٥).

قال الطبري بعدما ذكر الروايات العديدة: «وأشبه القولين بظاهر التنزيل ما قال الحسن، من أنّ هذه الآية معنيٌّ بها أهل الكتاب علىٰ ما قال، غير أنّ الأخبار بالقول الآخر أكثر، والقائلين به أعلم، بتأويل القرآن، وجائز أن يكون الله تعالىٰ أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذُكر أنهم كانوا ارتدّوا عن الإسلام، فجمع قصّتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم في ارتداده عن الإيمان بمحمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الآيات، ثم عرّف عباده سُنته فيهم، فيكون داخلًا في ذلك كلّ من كان مؤمنًا بمحمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يبعث، ثم كفر به بعد أن بُعث، وكلّ من كان كافرًا ثم أسلم علىٰ عهده صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ارتد -وهو حيٌّ- عن إسلامه، فيكون معنيًّا بالآية جميعُ هذين الصنفين وغيرُهما ممن كان بمثل معناهما، بل ذلك كذلك إن شاء الله».

جاءهم به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلىٰ ظلمة الشكر فظلموا أنفسهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] «فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلمًا وبغيًا واتباعًا لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يرجىٰ أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص علىٰ التماسه، فهذا بالحري أن ييسر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية»[2].

وسابعها: محاربة الله ورسوله، والتفريق بين المؤمنين، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التوبة:١٠٧ - ١٠٩]، فالكافر حتىٰ وإن قدم أعمالًا صالحة فإنها لا تقبل منه؛ لأن أهم شروط قبول العمل: الإخلاص لله تعالىٰ وتوحيده، يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فمن الظلم والإجحاف مساواة من قدم بعض هذه الأعمال -وإن كانت صالحة في ذاتها- مع بقائه علىٰ الكفر والشرك، مع

(١) ينظر: معاني القرآن، للزجاج (١/ ٤٢٩)، وتفسير القرآن العظيم (٢/ ٦١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٢٧).

من آمن بالله وضحىٰ بنفسه وماله في سبيل الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التوبة:١٨، ١٩].

يقول الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وإنما انتفىٰ هدي الله للقوم الظالمين؛ لأن الظلم حائل بين صاحبه وبين التنازل إلىٰ التأمل من الحجج، وإعمال النظر فيما فيه النفع، إذ الذهن في شاغل عن ذلك بزهوه وغروره»[١].

اللهم طهر قلوبنا، وتقبل توبتنا، وارزقنا حسن الختام يا رب العالمين..

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٣٤).

المطلب الثالث

الفسق

«الفِسْق» تكرّر ذكره في القرآن الكريم في كونه أحد موانع الهداية الربانية، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[المائدة:١٠٨]، وقبل الشروع في الحديث عن نفي الهداية عن الفاسقين، يجدر بنا أن نعرف معنىٰ «الفِسْق» في لسان العرب، وعند أهل العلم والشرع.

فـ «الفِسْق» في اللغة يطلق علىٰ: خروج الشيء من الشيء، والميل إلىٰ المعصية، وقد يطلق «الفسق» ويراد به الخروج من الدين، إما نفاقًا أو كفرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[التوبة: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[البقرة: ٩٩] [(١)].

فمن خلال ما تقدم يظهر أن كلمة «الفِسْق» قد يراد به الخروج من الدين بالكلية، أو الخروج من الطاعة إلىٰ المعصية، وهو أكثر ما يطلق عليه «الفِسْق»، فقد يكون شركًا وقد يكون إثمًا، فـ «الفِسْق» أعم من الكفر، وكما قال الراغب: «كل كفر فسق، وليس كل فسق كفرًا»[(٢)].

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ٥٠٢)، والمفردات في غريب القرآن (ص: ٦٣٧،٦٣٦)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٤٦)، ولسان العرب (١٠/ ٣٠٨)، مادة: (فسق).

(٢) ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٣٠).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الفسوق فهو في كتاب الله نوعان: مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان، والمفرد نوعان أيضًا: فسوق كفر يخرج عن الإسلام، وفسوقٌ لا يخرج عن الإسلام»[1].

وهذا المعنىٰ هو ما سار عليه كثير من العلماء في تعريف «الفِسْق» شرعًا.

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو أعمّ من الكفر، والفِسْقُ يقع بالقليل من الذّنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيرًا، وأكثر ما يقال الفَاسِقُ لمن التزم حكم الشّرع وأقرّ به، ثمّ أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليّ: فَاسِقٌ، فلأنّه أخلّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة، قال الله تعالىٰ: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف: ٥٠]»[2].

فـ «الفِسْق» إذًا إذا أطلق يشمل الكافر وغير الكافر، والسياق هو الذي يحدد المفهوم منه، وعلىٰ كلٍّ فإن الله تعالىٰ في مواضع كثيرة من كتابه بين نفي الهداية عن القوم الفاسقين، وهذا يشمل كلا النوعين، وإن كان التفاوت في نفي الهداية بينهما واضح، فإن كان المقصود بـ «الفِسْق» الكفر المخرج من الملة فنفي الهداية من أصله، وإن كان أقل من ذلك فالمنفي عنه بقدر فسقه كمًّا وكيفًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[المائدة: ١٠٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[المنافقون: ٦].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٦٧).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٣٦).

والمتأمل لكتاب الله تعالىٰ يجد أن هذه الجمل قد ذيل الله تعالىٰ بها عدة آيات من القرآن الكريم، تضمنت بعض المعاصي التي خرج أصحابها عن الحق وطاعة الله، راضية بها نفوسهم، مطمئنة بها قلوبهم، فعاقبهم الله تعالىٰ بنفي الهداية عنهم، وسماهم بالفاسقين، وهذه المعاصي تنوعت بين الكفر بالله تعالىٰ، وبين ما هو دونه:

فأولها: الكفر بالله تعالىٰ، والخروج من طاعته سبحانه، إلىٰ معصيته وعدم الإيمان به، وإنكار ما جاء به رسوله ومصطفاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، تبين الآية الكريمة أن المثل الذي يضربه الله تعالىٰ قد يكون سبب هدايةٍ لقوم فهموه، أو أن يكون سبب ضلالٍ لقوم لم يفهموا الحكمة منه[١]، فإضلال «من ضل ليس لمجرد المشيئة، بل لوجود العلة التي كانت سببًا في إضلال الله العبد»[٢].

وقد استعمل القرآن هنا أسلوب الحصر، فجملة ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ نفي وإثبات، وهذا يفيد الحصر، أي: أن الضلال محصور في الفاسقين، «فكأنه قيل: هؤلاء فاسقون، وما من فاسق إلا وهو ضال، فما ثبت الضلال إلا بثبوت الفسق»[٣].

(١) أضواء القرآن (٢/ ٢٤٦).

(٢) تفسير الفاتحة والبقرة، لابن عثيمين (١/ ١٠١).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٦٦).

وفي قولــه تعالىٰ: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[البقـرة: ٩٩] تأكيد لمعنىٰ أنــه لا يكفر بآيات القرآن إلا الفاســقون.

وثانيهــا: النفــاق، وهــو إظهــار الإســلام وإبطان الكفــر، قــال تعالىٰ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبـة:٨٠]، وقــال تعالــىٰ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[المنافقـون:٦].

الآيتــان الســابقتان تحدثتــا عــن المنافقين، ففــي الآية الأولــىٰ خطاب مــن الله تعالــىٰ لنبيه ﷺ يــدور فحــواه علــىٰ التأييس مــن مغفرة الله للمنافقيــن، فالــكلام -كما يقــول أهل التفســير- وإن خرج مخــرج الأمر، إلا أن تأويلــه الخبر.

ومعناه: اســتغفرت لهم أم لم تســتغفر لهــم لن يغفر الله لهــم، حتىٰ وإن اســتغفرت لهم ســبعين مــرة، وذلــك للمبالغة في اليــأس علىٰ طمــع المغفرة، فإنــه ســبحانه لن يغفر لهم، بســبب أنهــم جحدوا توحيد الله ورســالة رســوله ﷺ، فخرجــوا بذلــك عــن الهــدي الســوي والصــراط المســتقيم، والله تعالــىٰ لا يهــدي القــوم الفاســقين، أي: لا يوفقهــم للإيمان به وبرســوله ﷺ ما داموا راضيــن بأعمالهم، وثابتين علىٰ نفاقهــم، واختاروا الكفر علــىٰ الإيمــان، وخرجوا عــن طاعــة الله تعالىٰ وطاعة رســوله ﷺ.

وهـذا المعنىٰ ذهـب إليـه كثيـر مـن المفسـرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وعـزاه ابن الجـوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلـىٰ المحققيـن(١).

ويحتمـل أن يكون اللفظ علـىٰ الأمر كما ورد، فيكون مـن باب التخيير، أي: إن شـئت فاسـتغفر، وإن شـئت لا تسـتغفر، ثم أعلمه الله تعالىٰ أنه لا يغفر لهم حتىٰ وإن اسـتغفر سبعين مرة.

وهـذا المعنـىٰ صححـه ابـن عطيـة، والثعالبـي، وقـواه ابـن العربي، ورجحه ابن جـزي -رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ-، محتجين بقول النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما صلىٰ علـىٰ عبد الله بـن أبي بن سـلول رأس المنافقيـن في المدينـة، فراجعه عمر بن الخطـاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في ذلك، فقـال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخِّر عني يا عمـر!! إني خُيِّرت فاختـرت، ولو علمت أني إذا زدت علىٰ السـبعين يغفر له لـزدت»، قال: فصلىٰ عليـه رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم انصـرف، فلم يمكـث إلا يسـيرًا حتىٰ نزلت الآيـة مـن بـراءة ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبـة: ٨٤] الحديث(٢).

---

(١) ينظـر: جامـع البيـان (١٤/ ٣٩٤)، وبحـر العلـوم (٢/ ٧٦)، وأحكام القـرآن، للجصاص (٣/ ١٨٥)، ومعالـم التنزيـل (٤/ ٧٩)، وزاد المسـير (٢/ ٢٨٤)، وتيسـير الكريم الرحمن (ص: ٣٤٦)، والتحريـر والتنويـر (١٠/ ٢٧٧).

(٢) ينظـر: المحـرر الوجيـز (٣/ ٦٤)، والجواهـر الحسـان (٣/ ٢٠١)، وأحـكام القـرآن، لابـن العربـي (٢/ ٥٥٦)، والتسـهيل (١/ ٣٤٤)، وهـذا المعنـىٰ ذكره القرطبـي في جامعه (٨/ ٢٢٠)، وعزاه إلىٰ الحسن وقتادة وعروة بن الزبير.

والحديـث أخرجـه البخاري، كتـاب الجنائز، باب ما يكره مـن الصلاة علـىٰ المنافقين، برقم: (١٣٦٦)، وبلفـظ مقـارب كذلـك مـن حديث عمر بـن الخطـاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخرجـه البخاري، =

أقول: سواء كان هذا أو ذاك، فإن الله تعالىٰ بين في الآيتين السابقتين بأن صدور الاستغفار منه ﷺ للمنافقين لن ينفعهم، وذلك لأنهم ليسوا بأهل لاستغفاره ﷺ، ولا للمغفرة منه سبحانه لهم(١)، لذا ذيل كلتا الآيتين ببيان أنه لا يهدي القوم الفاسقين، وهذا التذييل يدل علىٰ أن النفاق فسوق، كما صرّح القرآن بذلك في ذات السياق من سورة التوبة، حيث قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[التوبة:٨٤]، فدل ذلك علىٰ أن «الفِسْق» صار للمنافقين وصفًا، «بحيث لا يختارون عليه سواه، ولا يبغون به بدلًا، يأتيهم الحق الواضح فيردونه، فيعاقبهم الله تعالىٰ بأن لا يوفقهم له بعد ذلك»(٢).

وثالثها: أذية أنبياء الله تعالىٰ ورسله -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، والخروج عن اتّباعهم وطاعتهم إلىٰ معصيتهم والزيغ عن هديهم، يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[الصف:٥]، فقوم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آذوا نبيهم(٣) مع علمهم بأنه نبي

= كتاب التفسير، باب ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم.. ﴾، برقم: (٤٦٧٠)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر بن الخطاب، برقم: (٢٤٠٠).

(١) فتح القدير (٢/ ٤٤١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٤٦).

(٣) ذكر الله تعالىٰ في القرآن الكريم صورًا مما وقع فيه قوم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أذية نبيهم، ومن ذلك:

١- اتهامه بالأدرة والبرص.. وغيرها، أخرج الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسىٰ كان رجلًا حييًا ستيرًا، لا يُرىٰ من جلده شيء استحياءً منه، =

الله حقًّا، وهـذا العلم موجـب للتبجيـل والتعظيـم، إلا أن هذا لـم يردعهم، فمالـوا عـن الحق والصـواب، ووقعـوا في الفسـوق والعصيـان، فعاقبهم الله تعالىٰ بعـدم التوفيـق للهداية.

يقول السـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وهذه الآيـة الكريمة تفيد أن إضـلال الله لعباده، ليـس ظلمًـا منـه، ولا حجة لهم عليـه، وإنما ذلك بسـبب منهـم، فإنهم الذين أغلقـوا علىٰ أنفسـهم بـاب الهـدىٰ بعـد مـا عرفـوه، فيجازيهم بعـد ذلك بالإضـلال، والزيـغ الذي لا حيلـة لهم في دفعـه وتقليب القلـوب، عقوبة لهم وعدلا منـه بهم»(١).

= فـآذاه مـن آذاه من بنـي إسـرائيل، فقالوا: ما يسـتتر هذا التسـتر إلا مـن عيب بجلـده، إما برص، وإمـا أدرة، وإمـا آفة.. فذلـك قولـه:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ ﴾ [الأحـزاب :٦٩]».

أخرجـه البخاري، كتـاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسـىٰ عليهما السـلام، برقـم: (٣٤٠٤)، ومسـلم، كتاب الحيـض، باب جواز الاغتسـال عريانًـا في الخلوة، برقم: (٣٣٩).

٢- طلبهم آلهة يعبدونها من دون الله ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَـٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ ﴾[الأعراف: ١٣٨].

٣- عـدم اسـتجابتهم لنبيهـم موسـىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في الدخـول إلـىٰ الأرض المقدسـة، فآذوه بالعصيـان والتهكـم والسـخرية، فقالـوا كمـا حكىٰ القـرآن عنهـم ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾[المائـدة:٢٤].

ينظر: الجامع لأحـكام القـرآن (١٤/ ٢٥٠)، (٧/ ٢٧٣)، (٦/ ١٢٨)، (١٨/ ٨٢)، والتحرير والتنويـر (٢٢/ ١٢٠).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٥٨).

وهذه الآية تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أصابه من الكفار، وأمر له بالصبر، وتعريض بمن يؤذيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد حذر الله تعالىٰ عباده من مشابهة قوم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الشأن، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ [الأحزاب:٦٩]، «وفي هذا تنبيه علىٰ عظيم إيذاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتىٰ إنه يؤدي إلىٰ الكفر، وزيغ القلوب عن الهدىٰ»(١).

ورابعها: الاعتداء في الشهادة، والخروج بها عن وجهها الصحيح إلىٰ الزور والكذب والبهتان، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[المائدة: ١٠٦ – ١٠٨].

في هذه الآيات خبر من الله تعالىٰ يتضمن الأمر بإشهاد اثنين علىٰ الوصية، إذا حضر المسلم مقدمات الموت وعلاماته، فينبغي عليه أن يكتب وصيته، ويشهد عليها رجلان مسلمان ذوا عدل، فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين جاز له أن يوصي إليهما.

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٢٨). وينظر: تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٣٥).

وأمر الله تعالىٰ أولياء الموصي إن ارتابوا في حال الشاهدين أن يحلفوهما بأنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا، فيبرآن بذلك، فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل علىٰ كذب الشاهدين، فإن شاء أولياء الميت فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله: إن شهادتنا أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا[١].

وبين الله تعالىٰ أن هذا الإجراء من باب حفظ حقوق الموصِّي، وعدم تضييع الأمانة، ومن ضيع الأمانة فهو فاسق يستحق العقوبة والعذاب، لذا ذيل الله تعالىٰ الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ للدلالة علىٰ أن من غير الوصية وبدل فيها فهو موصوف بالفسق، والفاسق لا يوفقه الله تعالىٰ للهداية.

يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: «وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ تحريض علىٰ التقوىٰ والطاعة لله فيما أمر، ونهي وتحذير من مخالفة ذلك؛ لأن في اتباع أمر الله هدىً، وفي الإعراض فسقًا، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: المعرضين عن أمر الله، فإن ذلك لا يُستهان به؛ لأنه يؤدي إلىٰ الرين علىٰ القلب، فلا يَنفذ إليه الهدىٰ من بعد، فلا تكونوهم، وكونوا من المهتدين»[٢].

وخامسها: حب الدنيا وإيثار ما فيها من الآباء والذرية والإخوة والأزواج والعشيرة، علىٰ حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله، قال الله

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٤٦) بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٩٤).

تعالـىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة: ٢٤]، ففي الآية أمرٌ من الله تعالىٰ عباده بتقديم محبة الأهل والولد علىٰ محبة الله تعالىٰ ورسوله، ونهاهم عن موالاتهم ان استحبوا الكفر علىٰ الإيمان، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة: ٢٢]، فمن فعل ذلك فقد وقع في الوعيد الشديد والعذاب الأكيد[(١)]، وخرج عن طاعة الله تعالىٰ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: أن الله تعالىٰ «لا يوفق إلىٰ الرشد القوم الخارجين عن طاعته فيما أمرهم به، من ترك موالاة أقاربهم الكافرين، والهجرة لإعزاز الدين، والجهاد لحماية الإسلام والمسلمين»[(٢)].

وقد استفيد من الآية الكريمة وجوب أن يكون الله ورسوله ﷺ أحب إلىٰ المسلم مما سواهما، وأن يكون لهذا الحب أثره من طاعة الله ورسوله ﷺ فيما أمر به الله أو نهىٰ عنه.

أخرج الإمام أحمد بسنده عن زهرة بن معد عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: والله لأنت يا رسول الله أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٨).

(٢) التفسير الوسيط، لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (٣/ ١٦٧٨).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من نفسه»، فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الآن يا عمر»[(١)(٢)].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكل من قدم طاعة أحدٍ من هؤلاء علىٰ طاعة الله ورسوله، أو قولَ أحدٍ منهم علىٰ قول الله ورسوله، أو مرضاةَ أحدٍ منهم علىٰ مرضاة الله ورسوله، أو خوفَ أحدٍ منهم ورجاءَه والتوكلَ عليه، علىٰ خوف الله ورجائه والتوكيل عليه، أو معاملة أحدهم علىٰ معاملة الله فهو ممن ليس الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبارٌ بخلاف ما هو عليه، وكذلك من قدَّم حكم علىٰ أحد حكم الله ورسوله، فذلك المقدَّمُ عنده أحبُّ إليه من الله ورسوله..»[(٣)].

فبهذا يظهر جليًّا أن «الفِسْق» بنوعيه يعد مانعًا مهمًّا من موانع الهداية،

---

(١) الحديث بطوله بالإسناد المذكور أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (٦٦٣٢)، وبنحوه من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»، أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإيمان، برقم: (١٥)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (٤٤).

(٢) التفسير الوسيط، مجمع البحوث بالأزهر (٣/ ١٦٧٦). وينظر: جامع البيان (١٤/ ١٧٧)، والهداية إلىٰ بلوغ النهاية (٤/ ٢٩٥٦) برقم: (٢٩٥٧)، ومعالم التنزيل (٤/ ٢٥)، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٩٥)، فتح القدير (٢/ ٣٩٥، ٩٦)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٣٢).

(٣) مدارج السالكين (١/ ١٢٠).

وذلك لأن الفاسق نقض عهد الله تعالىٰ، وارتكب ما حرم الله، واستمراره علىٰ الوقوع في الحرام، وترك ما أمر الله تعالىٰ به يؤدي إلىٰ الرين، فإذا ران علىٰ قلبه لا يعي معروفًا ولا ينكر منكرًا.

ويبين ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ «أن للفسق تأثيرًا في زيادة الضلال؛ لأن الفسق يرين علىٰ القلوب، ويُكسب النفوس ظلمة، فتتساقط في الضلال، المرة بعد الأخرىٰ علىٰ التعاقب، حتىٰ يصير لها دُربة..»[(١)].

ويقول الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه عن «الفِسْق» مبينًا وجه كونه سبب الضلال: «ومن هم الفاسقون؟ هم الذين ينقضون عهد الله، أول شيء في الفسق أن ينقض الفاسق عهده.

ويقال: فسقت الرُّطَبَة أي: بعدت القشرة عن الثمر، فعندما تكون الثمرة أو البَلَحَة حمراء تكون القشرة ملتصقة بالثمرة بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها، فإذا أصبحت الثمرة أو البَلَحَة رُطبًا تسود قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة، هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله، ينسلخ عنه بسهولة ويسر، لأنه غير ملتصق به، وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه..»[(٢)].

فنسألك اللهم أن تصلح أحوالنا، وتعيذنا من مضلات الفتن، ما ظهر منها وما بطن، وتعصمنا من الزلل، والوقوع في الخلل.. اللهم آمين.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٦٦).

(٢) تفسير الشعراوي (١/ ٢١١).

المطلب الرابع

الخيانة

«الخِيانة» خلق ذميم، وضرره جسيم، ذمه الشارع الحكيم، وبيَّن خطره النص القاطع المبين، من اتصف بهذه الصفة وقع في سخط الله وغضبه، والبعد عن محبته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[النساء:١٠٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[الأنفال:٥٨].

و«الخِيانة» تطلق في اللسان العربي علىٰ نقيض الأمانة، أصله: خَوَن، يقال: خانَهُ يَخُونُهُ خَوْنًا، وهو: التنقص والغدر وعدم النصح(١).

قال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«معنىٰ الخَوْن: النقص، كما أن معنىٰ الوفاء التمام، ومنه: تَخَوَّنَه، إذا تنقصه، ثم استعمل في ضدّ الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه»(٢).

وقال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«الخيانة والنفاق واحد، إلا أنّ الخيانة تقال اعتبارًا بالعهد والأمانة، والنّفاق يقال اعتبارًا بالدّين، ثم يتداخلان، فالخيانة: مخالفة الحقّ بنقض العهد في السّر»(٣)، ويشهد لهذا ما صح عن

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٢٣١)، ولسان العرب (١٣/ ١٤٤) مادة: (خون)، والقاموس المحيط (ص: ١١٩٤).

(٢) الكشاف (٢/ ٢١٣).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٠٥)، وبنحوه قال الكفوي في الكليات (ص: ٤٣٤).

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[١].

يقول القتبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخيانة أن يؤتمن علىٰ شيء فلا يؤدي إليه، ثم سمّىٰ العاصي من المسلمين خائنًا، لأنه قد ائتمن علىٰ دينه فخان»[٢].

ويقول الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحقيقة الخيانة: عملُ من اؤتمن علىٰ شيء بضدِّ ما اؤتمن لأجله بدون علم صاحب الأمانة، ومن ذلك نقض العهد بدون إعلانٍ بنبذه»[٣].

ولعظم خطر الخيانة علىٰ المرء وعلىٰ المجتمع؛ نهىٰ الله تعالىٰ عباده منها، وحذر من الوقوع فيها، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]، ذكر المفسرون أقوالًا عديدة في تخصيص نزول هذه الآية علىٰ أناس معينين، إلا أن الأولىٰ أن يقال -والله تعالىٰ أعلم بالصواب-: «هذا خطاب لجميع المؤمنين إلىٰ يوم القيامة، وهو يجمع أنواع الخيانات كلها قليلها وكثيرها»[٤].

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صحَّ أنها وردت علىٰ سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق برقم: (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم: (٥٩).

(٢) نقله عنه السمرقندي في بحر العلوم (٢/ ١٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ١١٦).

(٤) المحرر الوجيز (٢/ ٥١٧).

السبب عند الجماهير من العلماء، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار، اللازمة والمتعدية»[١].

ويقول القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«ويدخل في خيانة الله: تعطيل فرائضه، ومجاوزة حدوده.

وفي خيانة رسوله: رفض سنته، وإفشاء سره للمشركين.

وفي خيانة أمانتهم: الغلول في المغانم، أي السرقة منها، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو أهل أو سر، وكل ما تعبدوا به.

وقد روي في نزول الآية شيء مما ذكرنا، ولفظ الآية مطلق يتناوله وغيره»[٢].

فـ«الخِيانة» يظهر مما تقدم أنها تشمل جميع شرائع الدين، وقد ذكر يحيىٰ بن سلام القيرواني أن «الخِيانة» تأتي في القرآن علىٰ **خمسة وجوه**:

الأول: الذنب في الإسلام، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ [غافر:١٩]، أي: النظرة في المعصية.

الثاني: خيانة الأمانة، ومنه قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ [النساء:١٠٥].

الثالث: نقض العهد، ومنه قوله:﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾[الأنفال:٥٨].

الرابع: الخلاف في الدين، ومنه قوله تعالىٰ:﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[التحريم:١٠].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٦).

(٢) محاسن التأويل (٥/ ٢٧٩).

الخامس: الزنا، ومنه قوله تعالىٰ في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[يوسف:٥٣][(١)].

وهذه الآية الأخيرة فيها التصريح البيّن أن أحد موانع الهداية «الخِيانة»، حيث إنها ختمت بنفي الهداية عن كيد الخائنين: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

وأما معنىٰ الآية فقد اختلف فيه أهل التفسير بناءً علىٰ اختلافهم في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ هو مِن قول مَن؟

فذهب جمهور المفسرين[(٢)] إلىٰ أنه من قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمعنىٰ علىٰ هذا: أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما اعترفت امرأة العزيز بفعلتها، وأنها هي التي راودته عن نفسها، فلما بلغه خبر اعترافها قال حينها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾أي: أن ما فعلته من ردّي رسول الملك إليه، وتركي إجابته والخروج إليه، وطلبي منه أن يسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن عن شأنهن لم فعلن ذلك، كل ذلك إنما فعلته ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته، ولم أرتكب معها فاحشة في حال غيبته عني، ومن باب أولىٰ في حال حضوره وشهوده[(٣)].

---

(١) التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، (ص: ١٧٧- ١٧٨). وينظر: اللباب في علوم الكتاب (٩/ ٤٩٧)، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ١٥٢).

(٢) عزاه السمعاني في تفسيره (٣/ ٣٩) إلىٰ الأكثرين، ونسبه إلىٰ الجمهور: الفخر الرازي في تفسيره (١٨/ ٤٦٨)، والشوكاني في فتح القدير (٢/ ٤١).

(٣) ينظر: معاني القرآن، للفراء (٢/ ٤٧)، وجامع البيان (١٦/ ١٤٠)، ومعاني القرآن، للزجاج (٣/ ١١٥)، وبحر العلوم (٢/ ١٩٧)، وتفسير القرآن، لابن أبي زمنين (٢/ ٣٣٠)، والهداية إلىٰ بلوغ النهاية (٥/ ٣٥٧٩)، ومعالم التنزيل (٤/ ٢٤٨، ٢٤٩)، والكشاف (٢/ ٤٧٩).

ثم ختمت الآية الكريمة بنفي الهداية عن الخائنين ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾، «فأطلقت الهداية التي هي الإرشاد إلىٰ الطريق الموصلة علىٰ تيسير الوصول، وأُطلق نفيُها علىٰ نفي ذلك التيسير، أي: إن سنة الله في الكون جرت علىٰ أن فنون الباطل وإن راجب أوائلها، لا تلبث أن تنقشع»(١).

وذهب جماعة من المفسرين(٢) إلىٰ أن هذه المقولة من كلام امرأة العزيز، وهذا هو الأنسب للسياق القرآني، ولحفظ مقام نبي الله تعالىٰ يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

والمعنىٰ علىٰ هذا: أن ذلك الإقرار الذي أقررت به من مراودة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عن نفسه، من أجل أن يعلم أني لم أخنه بالغيب، والضمير في ﴿أَخُنۡهُ﴾ يحتمل أن يرجع إلىٰ زوجها، أي: لم أفسد عليه فراشه، ولم يحصل مني إلا مجرد المراودة ويحتمل أن يرجع إلىٰ يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أي: ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا راودته عنه، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٩٣).

(٢) هذا القول نسبه الشوكاني في تفسيره (٢/ ٤١) وابن عاشور في التحرير (١٢/ ٢٩٣) إلىٰ الأقلين من المفسرين، ورجحه القرطبي في جامعه (٩/ ٣٠٩)، وكذا شيخ الإسلام ابن تيمية في دقائق التفسير (٢/ ٢٧٣)، وابن القيم في التفسير القيم (ص: ٣٣٠،٣٣١) وفي روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٣١٩،٣٢٠)، وابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٣٨)، وأظهره أبو حيان في البحر (٦/ ٢٨٨)، وابن عادل الحنبلي في اللباب (١١/ ١٢٩)، ولم يذكر السعدي في تفسيره غيره (ص: ٤٠٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد قال كثير من المفسرين إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه، بل الأدلة تدل علىٰ نقيضه».

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ فالخيانة لا بد أن تعود على صاحبها، ولا بد أن يتبين أمره[(١)].

وعلى كل فإن الله تعالى ختم الآية الكريمة بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ فسواء كان من كلام يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أو من كلام امرأة العزيز، إلا أن المراد بها العموم -والله أعلم-، فالله تعالى نفى الهداية عن الذين يخونون العهود والمواثيق والأمانات، ولا شك أن من أعظم الخيانات خيانة الزنا، ورتب على الخيانة العقاب الأليم، والعذاب الشديد.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعاقب كل خائن بأنه يضل كيده ويبطله، ولا يهديه لمقصوده وإن نال بعضه، فالذي ناله سبب لزيادة عقوبته وخيبته ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾»[(٢)].

ويقول الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يرشد كيد من خان أمانته، يعني: أنه يفتضح في العاقبة بحرمان الهداية»[(٣)].

ويقول ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان معنى الآية: «لا يرشد كيد من خان أمانته، بل يحرمه هدايته في الدنيا، ويفضحه على رءوس الأشهاد في العقبى، فالخيانة قبيحة في كل شيء، لكن بعضها أشد وأقبح من بعض، إذ

---

(١) ينظر: جامع الأحكام (٩/ ٣٠٩)، ودقائق التفسير (٢/ ٢٧٣)، والبحر المحيط (٦/ ٢٨٨)، والتفسير القيم (ص: ٣٣٠،٣٣١) وروضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٣١٩،٣٢٠)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٨)، واللباب في علوم الكتاب (١١/ ١٢٩)، وتفسير الشوكاني (٢/ ٤١) والتحرير والتنوير (١٢/ ٢٩٣)، وتفسير السعدي (ص: ٤٠٠).

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٣٥٩).

(٣) الكبائر (ص: ١٤٩). وينظر: الوجيز، للواحدي (ص: ٥٥٠).

من خانــك في فَلْس ليــس كمن خانك في أهلــك..»[١].

فـ «الخِيانة» خبيثة في كل شــيء، وعاقبتها وخيمــة في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا: عدم التوفيــق للهداية والطاعة، وفي الآخرة العذاب الشــديد، والفضيحة الكــبرىٰ، كما روي عــن النبــي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قــال:«إن الغادر يرفــع له لواء يــوم القيامة، يقــال: هذه غدرة فلان بــن فلان»[٢].

اللهم إنا نسألك العافية والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة.

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٤٤٤).

(٢) أخرجـه البخـاري، كتـاب الأدب، باب ما يدعىٰ النـاس بآبائهم، برقم: (٦١٧٧)، ومسـلم، كتاب الجهاد والسـير، باب تحريـم الغدر، برقـم: (١٧٣٥)، ولفظه:«إذا جمـع الله الأولين والآخريـن يـوم القيامة، يرفع لكل غـادر لواء..» الحديـث، كلاهما من حديـث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

المطلب الخامس

حب الدنيا وكراهية الموت

حب الدنيا وكراهية الموت مرض خطير من أمراض القلوب التي تؤدي إلىٰ الهلاك والفساد.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»(١).

وهذا الداء الخطير إذا سيطر علىٰ قلب الإنسان، حتىٰ تصير الدنيا همه الأكبر، وشغله الشاغل، عاقبه الله تعالىٰ بضد ما أراد، فأبعده عن كل مرغوب يقرب إلىٰ مرضاة الله تعالىٰ، وقربه من كل مكروه يبعده عن طاعة الله تعالىٰ.

فعند ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من كانت الدنيا همَه، فرق الله عليه أمرَه، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث علىٰ المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، برقم: (١١٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، برقم: (٤١٠٥)، والطبراني في الأوسط (٦/ ١٢٣) برقم: (٥٩٩٠)، بسند صحيح، قال البوصيري في المصباح (٤/ ٢١٢): «هذا =

فحب الدنيا وكراهية الموت سبب خراب المجتمعات، وتسلط الأعداء، وفساد الأمم، بل هو رأس كل خطيئة[(١)].

يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يوشك الأمم أن تداعىٰ عليكم كما تداعىٰ الأكلة إلىٰ قصعتها»، فقالوا: ومن قلة نحن يومئذ؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله!! وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[(٢)].

= إسناد صحيح، رجاله ثقات»، وكذا قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٦٣٤)، برقم: (٩٥٠).

(١) وردت هذه العبارة علىٰ لسان جماعة من أهل العلم. ينظر: التنوير شرح الجامع الصغير، للصنعاني (١/ ٥٤٩)، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٦/ ٨٣)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا علي القاري (١/ ١٤٤).
وقد ورد في هذا المعنىٰ «حب الدنيا رأس كل خطيئة» حديث ضعيف عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أخرجه البيهقي في الشعب عن الحسن البصري مرسلًا، وهو من كلام مالك بن دينار،أخرجه عنه ابن أبي الدنيا، كذا قال الزركشي في اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة (ص: ١٢٢)، وينظر: المقاصد الحسنة، للسخاوي (ص:٢٩٦)، والدرر المنتثرة في الأحاديث المنتشرة، للسيوطي (ص:١٠٥)،وعند أبي نعيم في الحلية (٦/ ٣٨٨)، والبيهقي في الشعب (١٣/ ٧٤) برقم: (٩٩٧٤)، عن سفيان الثوري أنه قال: كان عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «حب الدنيا أصل كل خطيئة..».

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم علىٰ الإسلام، برقم: (٤٢٩٧)، وأحمد في مسنده (٣٧/ ٨٢)، برقم: (٢٢٣٩٧)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٤٤) برقم: (٦٠٠)، ثلاثتهم من حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسند جيد، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٨٧): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه، وإسناد أحمد جيد»، =

يقول الفضيل بن عياض: «إنما أُتي الناس من خصلتين: حب الدنيا، وطول الأمل»[(١)].

والمقصود بكراهية الموت؛ بينه النبي المصطفى ﷺ كما في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، فقال ﷺ: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضر، بُشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكرهَ إليه مما أمامه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه»[(٢)].

فيفهم من هذا الحديث أن اللقاء غير الموت، فالمراد «باللقاء: المصير إلى الدار الآخرة، وطلب ما عند الله، وليس الغرض به الموت؛ لأن كلًّا يكرهه، فمن ترك الدنيا وأبغضها، أحب لقاء الله، ومن آثرها وركن إليها، كره لقاء الله؛ لأنه إنما يصل إليه بالموت»[(٣)].

= وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤٧٤)، برقم: (٥٣٦٩)، وجوّده في السلسلة الصحيحة (٢/ ٦٤٧)، برقم: (٩٥٨).

(١) حلية الأولياء (٨/ ٩٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، برقم: (٦٥٠٧) وهذا لفظه، ومسلم مختصرًا، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار برقم: (٢٦٨٣).

(٣) الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي (٤/ ١٣٦٣).

وقال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنىٰ الحديث: «ليس وجهه عندي أن يكون يكره عَلَزَ الموت وشدته؛ لأن هذا لا يكاد يخلو منه أحد، نبي ولا غيره، ولكن المكروه من ذلك: إيثار الدنيا والركون إليها، والكراهة أن يصير إلىٰ الله والدار الآخرة، ويؤثر المقام في الدنيا..»[١].

ولما في حب الدنيا من أضرار جسام، وأخطار عظام، ورد عن السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالىٰ ذمه، والتحذير منه.

يقول أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «كفىٰ به ذنبًا لا يُستغفر منه: حب الدنيا»[٢].

وكان من كلام جندب بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[٣].

وكان مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «إن البدن إذا سقم، لم ينجع في طعام، ولا شراب، ولا نوم، ولا راحة، وكذلك القلب إذا علقه حب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة»[٤].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أحب الدنيا وسرَّته خرج حبُّ الآخرة من قلبه»[٥].

---

(١) نقله عنه ابن عبد البر في التمهيد (١٨/ ٢٤، ٢٥).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الزهد (ص: ٢١٨)، برقم: (٢٤٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٠٣).

(٤) الزهد، لابن أبي الدنيا (ص: ١٧٤)، حلية الأولياء (٢/ ٣٦٣).

(٥) الزهد، لابن أبي الدنيا (ص: ٨١)، جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٠٣).

وهـذا يبين خطـر حب الدنيا علىٰ الإنسـان في الدنيا والآخرة، لكن أشـد مـا يلحق من قَـدَّم دنياه علـىٰ آخرته، وآثر حـب الدنيا علىٰ حـب الله: حرمانه مـن الهداية، فقد أخـبر القرآن الكريـم أن من أهم أسـباب كفـر الكافرين هو حـب الدنيا؛ لذلك اسـتحقوا عقـاب الله تعالىٰ لهـم بأن حرمهـم الهداية، قال تعالـىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[النحل:١٠٧].

فهـذه الجملـة واقعـة موقـع التعليـل، واسـم الإشـارة هنا عائـد إلىٰ ما مضمـون قولـه تعالـىٰ في الآيـة السـابقة: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آيـة:١٠٦] أي: أن مـا حـل بهـؤلاء المشـركين مـن غضب الله، وبمـا وجـب لهـم العـذاب العظيـم، فذلك مـن أجـل إيثارهـم الحياة الدنيـا وزينتهـا، وتلقهم بهـا وبمطامعها ومفاتنهـا، علىٰ نعيم الآخـرة، فآثروا العاجـل الفـاني علـىٰ النعيـم الباقـي، فلمـا اختـاروا الكفـر علـىٰ الإيمان، منعهـم الله الهدايـة، والله تعالـىٰ ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: «لا يوفـق القوم الذيـن يجحدون آياتـه، مع إصرارهم علـىٰ جحودهـا»[1]، لذلك عقب بقولـه سـبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [آية: ١٠٨، ١٠٩].

---

(١) ينظـر: جامع البيان (١٧/ ٣٠٥)، والهداية إلىٰ بلوغ النهاية (٦/ ٤٠٩٦)، وتفسـير السـمعاني (٣/ ٢٠٤)، والمحـرر الوجيـز (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥)، والجامـع لأحكام القـرآن (١٠/ ١٩٢)، والتسـهيل لعلـوم التنزيـل (٣/ ٢٤٢)، وتيسـير الكريـم الرحمـن (ص: ٤٥٠)، والتحرير والتنويـر (١٤/ ٢٩٦)، والتفسـير الوسـيط، لمجمع البحوث بالأزهـر (٥/ ٦٨٤).

فهـذه هي نتيجـة حرمان الهدايـة، «فطبع علـىٰ قلوبهم، فهـم لا يعقلون بها شـيئًا ينفعهم، وختـم علىٰ سـمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بهـا، ولا أغنت عنهم شـيئًا، فهـم غافلون عما يـراد بهم»[١].

يقـول شـيخ الإسـلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله تعالىٰ جعـل اسـتحباب الدنيا علىٰ الآخـرة هو الأصـل الموجب للخسـران، واسـتحباب الدنيا علـىٰ الآخرة قد يكـون مـع العلم والتصديق بـأن الكفر يضـرُّ في الآخرة، وبأنه ما لـه في الآخرة من خلاق»[٢].

اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين..

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٢٠).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٥٦٠).

المطلب السادس

اتباع الهوى

اتباع الهوىٰ أساس كل بلاء، ومصدر كل شر، ومنبع كل فتنة، وفيه من «شدة الضرر، وقبح الأثر، وكثرة الإجرام، وتراكم الآثار»[(١)] ما الله به عليم.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل كل شر: البدع، واتباع الهوىٰ»[(٢)].

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود: أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق، وبين الخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به، وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب، وهو الاستمتاع بالخلاق، فالأول: البدع، والثاني: اتباع الهوىٰ.

وهذان هما أصل كل شر، وفتنة، وبلاء، وبها كُذِّبت الرسل، وعُصي الرب، ودُخلت النار، وحَلَت العقوبات، فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات، ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوىٰ، فتنته هواه، وصاحب دنيا، أعجبته دنياه.

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم..»[(٣)].

---

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص: ٢٩).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٠٦)، حيث عقد فصلاً بهذا العنوان، ثم بعد ذلك بين المقصود بكلامه.

(٣) المصدر السابق.

والهوىٰ: هو ميل النفس إلىٰ الشهوة، وسمّي بذلك لأنّه يَهْوِي بصاحبه في الدّنيا إلىٰ كلّ داهية، وفي الآخرة إلىٰ الهَاوِيَةِ(١).

وهو: «كناية عن الباطل، والجَور، والظلم، لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور وبين هوىٰ النفوس»(٢).

فصاحب الهوىٰ مجرد عن العقل، لا يفكر في عواقب الأمور، مما يؤدي إلىٰ السوء والشرور، يقول الشاعر(٣):

إذا أنتَ طاوَعْتَ الهوىٰ قادَكَ الهوىٰ ... إلىٰ بعضَ ما فيه عليكَ مقالُ

فالهوىٰ أحد أهم الأمراض والأدواء التي تؤدي إلىٰ هلاك الإنسان، وفساد سريرته، وسوء طويته، وخبث نيته؛ لأن: «اتباع الهوىٰ يعمي عن الرشد، ويطيل عن الحق، ويطيل المكث في العمىٰ»(٤)، ويؤدي بصاحبه إلىٰ الذل والهوان.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوىٰ، كانت نهايته الذل، والصغار، والحرمان، والبلاء المتبوع»(٥)، وقد أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنها أحد المهلكات، كما في حديث أبي هريرة

(١) قاله الراغب الأصفهاني في المفردات (ص: ٨٤٩)، وبنحوه ذكر الجرجاني في التعريفات (ص: ٢٥٧)، والفيروز آبادي في القاموس (٥/ ٣٥٩)، وابن القيم في روضة المحبين (ص: ٤٠١، ٤٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٤٢).

(٣) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق، ونسبه إلىٰ هشام بن عبد الملك (٧٤/ ٢٧).

(٤) موارد الظمآن لدروس الزمان، لعبد المحسن السلمان (٢/ ٤١٦).

(٥) روضة المحبين (ص: ٤٨٣).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات؛ فأما المنجيات: فتقوىٰ الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضىٰ والسخط، والقصد في الغنىٰ والفقر، وأما المهلكات: فهوىٰ متبع، وشحٌّ مطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن»(١).

وقد نظم بعضهم جملة المهلكات وجعلها في أربعة، فقال(٢):

إني بُليتُ بأربعٍ ما سُلِّطوا ... إبليسَ والدنيا ونفسي والهوَىٰ
إلا لأجل شَقاوَتي وعَنائي ... كيف الخلاصُ وكلُّهم أعدائي

واتباع الهوىٰ ذمه الله تعالىٰ في كتابه، وحذر منه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته .

يقول الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ذكر الله لفظ الهوىٰ في القرآن إلا ذمه»(٣).

ويقول أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم نجد الهوىٰ يوضع إلا في موضع الشر، لا يقال: فلان يهوىٰ الخير، إنما يقال: يريد الخير ويحبه»(٤).

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩/ ٣٩٦)، برقم: (٦٨٦٥)، والشجري في «ترتيب الأمالي الخميسية» (٢/ ٣٠٢)، برقم: (٢٥٢٧)، والتيمي الأصبهاني في الترغيب والترهيب (١/ ٢٤٠)، برقم: (٣٥٣)، ثلاثتهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، بسند ضعيف، كما قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ١١٤٥)، وحسنه لشواهده الشيخ الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٣/ ١٤١٦).

(٢) أنشدهما جماعة من العلماء دون نسبة، وممن ذكرهما: ابن الجوزي في بحر الدموع (ص: ٨٢)، والقرطبي في التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة (ص: ٨٨٠) وغيرهم.

(٣) مفاتيح الغيب (١٢/ ٤١١)، اللباب (٧/ ٤٦٧).

(٤) المصدر السابق.

يقول الله تعالىٰ ذامًا أتباع الهوىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾[الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، فالآية الكريمة شبهت من اتبع هواه بعد أن جاءته البينات ولم يؤمن، شبهته بالكلب اللاهث، الذي لا ينفك عن لهثه بحال، يلهث في حال تعبه وفي حال دعته وراحته[١]، وقد تضمنت الآية ذم المشركين من عدة **وجوه:**

---

(١) «اللَّهَث»: الإعياء والتعب، ولَهَث الكلب: دلع لسانه من شدة العطش والحر. ينظر: لسان العرب (٢/ ١٨٤) مادة: (لهث).

يقول ابن قتيبة: «كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلًا لهذا الكافر فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إنه طردته لهث، وإن تركته علىٰ حاله لهث». نقله ابن القيم في الفوائد (ص: ١٠٢).

ويقول ابن عاشور في التحرير والتنوير (٩/ ١٧٨،١٧٧): «وليس لشيء من الحيوان حالة تصلح للتشبيه بها في الحالتين غير حالة الكلب اللاهث؛ لأنه يلهث إذا أتعب وإذا كان في دعة، فاللهث في أصل خلقته، وهذا التمثيل من مبتكرات القرآن، فإن اللهث حالة تؤذن بحرج الكلب من جرَّاء عسر تنفسه عن اضطراب باطنه، وإن لم يكن لاضطراب باطنه سببٌ آت من غيره..».

وذكر ابن القيم في روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٤٧٥): «أن الله سبحانه شبه أتباع الهوىٰ بأخس الحيوانات صورة ومعنىٰ، فشبههم بالكلب تارة، كما في الآية هنا، وشبههم بالحمر تارة أخرىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ [المدثر:٥٠-٥١]، وقلب صورهم إلىٰ صورة القردة والخنازير تارة أخرىٰ».

الأول: أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر علىٰ الإيمان عمدًا لا جهلًا.

الثاني: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة، كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

الثالث: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وهو أبلغ من (تَبِعَهُ) لفظًا ومعنىٰ؛ لأنها تتضمن معنىٰ الإدراك واللحوق.

الرابع: أنه غوي بعد الرشد.

الخامس: أنه تعالىٰ لم يشأ أنه يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم يرفع به، فصار وبالًا عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه.

السادس: أنه سبحانه أخبر عن خسّة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنىٰ علىٰ الأشرف الأعلىٰ.

السابع: أن اختياره للأدنىٰ لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلىٰ الأرض، وميل بكليّته.

الثامن: أنه رغب عن هداه، واتبع هواه، فجعل هواه إمامًا له يقتدي به ويتبعه.

التاسع: أنه شبهه بالكلب، الذي هو أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفسًا، وأبخلها وأشدها كلبًا.

العاشر: أنه شبه لهثه علىٰ الدنيا وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها، وحرصه علىٰ تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه، والحمل عليه بالطرد،

وهكـذا هذا إن تـرك فهو لهثـان علـىٰ الدنيـا، وإن وُعظ وزجر فهـو كذلك، فاللهث لا يفارقـه في كل حال، كلهـث الكلب[١].

واتبـاع الهـوىٰ هـو الطريق الموصـل إلىٰ غضـب الله وسـخطه، عذابه وجحيمـه، وفي مقابل ذلـك جعل الله تعالـىٰ طريق الجنة: الخـوف منه تعالىٰ، ومخالفـة الهوىٰ، كما قال سـبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧- ٤١].

يقـول ابـن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هـو العبد يهـوىٰ المعصيـة، فيذكر مقـام ربه عليـه في الدنيا، ومقامـه بين يديـه في الآخرة فيتركهـا لله»[٢].

وأهل الشـرك لم يشـركوا مع الله تعالىٰ غيره إلا اتباعًا لأهوائهم الفاسدة، وظنونهـم الباطلة، قال تعالـىٰ: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [النجـم: ٢٣]، فهـؤلاء القـوم مـن كفار قريش أشـركوا مـع الله تعالـىٰ غيره، واتخـذوا آلهة عبدوها مـن دون الله، وهي: الـلات، والعزة، ومنـاة، وهذا مما «ليـس لهم فيه مسـتند، إلا حسـن ظنهم بآبائهم الذين سـلكوا هذا المسـلك الباطـل قبلهم، وإلا حظ نفوسـهم في رئاسـتهم، وتعظيم آبائهـم الأقدمين»[٣]، ومـع أن الله تعالىٰ أرسـل إليهم الرسـل بالحجج الباهرة، والأدلـة القاطعة، إلا

(١) الفوائد، لابن القيم (ص: ١٠١، ١٠٢) بتصرف.

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٤٠١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٢٥).

أنهم لم يتبعوا ما جاءوهم به، ولا انقادوا لهم.

وفي الآية وجه بلاغي جميل، حيث التفت من الخطاب ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ إلىٰ الغيبة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ وفي ذلك إعراض عنهم، وتحقيرٌ لشأنهم[1]، كما جيء بالمضارع في: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ «للدلالة علىٰ أنهم سيستمرون علىٰ اتباع الظن، وما تهواه نفوسهم، وذلك يدلُّ علىٰ أنهم اتبعوا ذلك من قبل، بدلالة لحن الخطاب أو فحواه»[2].

فإذا كان الشرك في مكة سببه اتباع الهوىٰ، كذلك كان النفاق في المدينة، فالمنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، لم يمنعهم من الدين الحق، واتباع سيد الخلق، إلا اتباعهم الهوىٰ، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٦]، يخبر الله تعالىٰ في الآية الكريمة عن المنافقين (في بلادتهم وقلة فهم، حيث كانوا يجلسون إلىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويستمعون كلامه، فلا يفهمون منه شيئًا، فإذا خرجوا من عنده قالوا للذين أوتوا العلم من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾، أي: الساعة، «يقولون ذلك سخرية واستهزاء، لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له -كأنه كلام لا ينهض إلىٰ درجة الفهم، أو لا ينبغي سماعه فضلًا عن فهمه-، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾، أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح»[3].

(١) ينظر: فتح القدير (٥/ ١٢٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٠٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٩١)، وما بين القوسين من التفسير الوسيط، لمجمع البحوث

وأهل الهوىٰ ضلالهم ليس قاصراً علىٰ أنفسهم، بل هم قد ضلوا أنفسهم وأضلوا غيرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾[الأنعام: ١١٩]، أي: «وإن كثيرًا من الناس الذين يجادلونكم في أكل ما حرم الله عليكم، أيها المؤمنون بالله، من الميتة، ليُضلون أتباعهم بأهوائهم من غير علم منهم بصحة ما يقولون، ولا برهان عندهم بما فيه يجادلون، إلا ركوبًا منهم لأهوائهم، واتباعًا منهم لدواعي نفوسهم، اعتداءً وخلافًا لأمر الله ونهيه، وطاعة للشياطين»(١).

لذا حذر سلف هذه الأمة من الهوىٰ واتباعه، موضحين خطره وضرره.

روي عن علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إن أخوف ما أتخوف عليكم اثنتين: اتباع الهوىٰ وطول الأمل، أما اتباع الهوىٰ فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة..»(٢).

وقال بشر الحافي رَحِمَهُ اللَّهُ: «البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه»(٣).

بالأزهر (٩/ ٩٥٩).

(١) جامع البيان (١٢/ ٧١). وينظر: معاني القرآن، للزجاج (٢/ ٢٨٧)، ولباب التأويل (٢/ ١٥١)، وتفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٨٩)، فتح القدير (٢/ ١٧٨)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٧١)، والتفسير الوسيط، لمجمع البحوث بالأزهر (٣/ ١٣١٧).

(٢) أخرجه وكيع في الزهد (ص: ٤٣٩)، برقم: (١٩١)، وأحمد في فضائل الصحابة (١/ ٥٣٠)، برقم: (٨٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٧٢)، برقم: (١٠١٢٩).

(٣) روضة المحبين (ص: ٤٧٨).

وعندما سئل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك[١].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسمعت شيخنا -يعني ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ- يقول: جهاد النفس والهوىٰ أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر علىٰ جهادهم حتىٰ يجاهد نفسه وهواه أولًا، حتىٰ يخرج إليهم»[٢].

وما أحسن ما قاله الشاعر[٣]:

إذا ما رأيت المرءَ يعتادُه الهوىٰ — وقد أشْمَتَ الأعداءَ جهلًا بنفسِه
وما يردعُ النفسَ اللَّجوجَ عن الهوىٰ — فقد ثَكِلَتْهُ عند ذاكَ ثَواكِلُهْ
وقد وَجَدَتْ فيه مقالًا عواذِلُهْ — من الناسِ إلا حازمُ الرأيِ كامِلُه

فظهر مما تقدم ذكره: أن اتباع الهوىٰ ضرره عظيم، وخطره جسيم، ومن أشد أضراره كما بينه القرآن: حرمان صاحبه من الهداية؛ لأن صاحب الهوىٰ قلبه منغلق عن قبول الحق وإن كان واضحًا وضوح الشمس في رابعة النهار.

---

(١) روضة المحبين (ص: ٤٧٨)، وهو عند الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ٢٩) بلفظ: «أفضل الجهاد: جهاد الهوىٰ».

(٢) روضة المحبين (ص: ٤٧٨).

(٣) أخرج أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٧٦) عن حكيم بن أبجَر المكي أن سفيان بن عيينة كان يتمثل هذه الأبيات، ولم ينسبها لأحد، وقد ذكر هذه الأبيات الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ٣٠)، وأبو إسحاق الوطواط في غرر الخصائص الواضحة (ص: ١١٨).

ولما كان اتباع الهوىٰ متشعب الأنواع، مترامي الأطراف، يدخل فيه كل صاحب خلق دنيء، وعمل رديء؛ كالجور، والظلم، والكذب، حتىٰ الكفر -والعياذ بالله-، كان لكل منهم نصيب من الحرمان حسب ابتلائه كمًّا وكيفًا[١].

فأهل الهوىٰ عمومًا هم أشد الناس ضلالًا وبعدًا عن الهداية، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص: ٥٠]، فبين الله تعالىٰ في هذه الآية الكريمة أن الناس بالنسبة إلىٰ ما بعث الله به نبيه محمدًا ﷺ من الهدىٰ ودين الحق قسمان لا ثالث لهما:

«إما الاستجابة لله والرسول ﷺ وما جاء به، وإما اتباع الهوىٰ، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوىٰ»[٢].

فإن كان من القسم الأول كان مهتديًا، لا يضل في الدنيا، ولا يشقىٰ في الآخرة، وإن كان من القسم الثاني -عافانا الله والمسلمين- كان أشد الناس ضلالة، يعيش شقيًا، ويبعث محرومًا، مصداقًا لقوله تعالىٰ مخاطبًا آدم وزوجه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾[طه: ١٢٣، ١٢٤].

(١) ينظر: الهداية في القرآن (ص: ١٦٣).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٣٧). وينظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:٤٧٥)، ومجموع فتاوىٰ الشيخ ابن باز (٢٦/ ١٩٥).

روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «لا يضل في الدنيا، ولا يشقىٰ في الآخرة»[١].

وأما من أعرض عن ذكر الله تعالىٰ، وخالف أوامره، وما أنزل علىٰ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرض عنه الله تعالىٰ وتناساه، وأخذ من غيره هداه، وعاش حياة ضنكًا في الدنيا «فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرَجٌ لضلاله، وإن تنعم ظاهره وليس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يَخلص إلىٰ اليقين والهدىٰ، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة»[٢].

ويقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعنىٰ: أن مجامع همه، ومطامح نظره تكون إلىٰ التحيُّل في إيجاد الأسباب والوسائل لمطالبه، فهو متهالك علىٰ الازدياد، خائف علىٰ الانتقاص، غير مُلتفت إلىٰ الكمالات، ولا مأنوسٌ بما يسعىٰ إليه من الفضائل، يجعله الله في تلك الحالة وهو لا يشعر، وبعضهم يبدو للناس في حالة حسنة، ورفاهية عيش، ولكن نفسَه غيرُ مطمئنة»[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾، «قال مجاهد، وأبو صالح، والسدي: لا حجة له، وقال عكرمة: عُمي عليه كل شيء إلا جهنم، ويحتمل أن يكون المراد: أنه يبعث أو يحشر إلىٰ النار أعمىٰ البصر والبصيرة

(١) أخرجه الثوري في تفسيره (ص: ١٩٧) من طريق الشعبي، وعبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (٢/ ٣٧٩)، والطبري في جامع البيان (١٨/ ٣٨٩) كلاهما من طريق عطاء بن السائب.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٨٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٢٩).

أيضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[الإسراء: ٩٧]»[١].

وفي قصة داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾[ص:٢٦]، ففي الآية الكريمة خطاب منه تعالىٰ لنبيه داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يأمره فيه بأن يحكم بين الناس بالعدل والإنصاف، وهو الذي آتاه الله إياه، وينهاه عن اتباع الهوىٰ، وإيثاره في القضاء بين الناس؛ لأن اتباعًا الهوىٰ يؤدي إلىٰ الجور والحيف، وهذا يؤدي إلىٰ الضلال، ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾، أي: يميل بك اتباعك هواك في قضائك علىٰ العدل والعمل بالحق، عن طريق الله الذي جعله لأهل الإيمان فيه، فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل الله، فاتباع الهوىٰ علة للضلال عن سبيل الله؛ لأن الفاء تدل علىٰ العِلَّية.

وللتنبيه علىٰ شناعة الضلال، وقبح اتباع الهوىٰ قال الله تعالىٰ عقب ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[٢].

فإذا كان النهي عن اتباع الهوىٰ في الحكم بين الناس في حق نبي من الأنبياء، فمن باب أولىٰ لمن هو دونه، ولا يعني ذلك بحال أن داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٨٤). وينظر: جامع البيان (١٨/ ٣٩٥)، وفي تفسير مجاهد (ص: ٤٦٧) ورد قوله بلفظ: «أعمىٰ عن الحجة».

(٢) ينظر: جامع البيان (٢١/ ١٨٨)، وتفسير القرآن العظيم (٧/ ٥٣)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٧١١)، وأضواء البيان (٦/ ٣٣٩)، والتفسير الوسيط، لمجمع بحوث الأزهر (٨/ ٤٩٤).

أجحف في حكمه، وظلم في قضائه؛ لأنه نبي من أنبياء الله ورسله، ولا خلاف بين العلماء المحققين من السلف والخلف علىٰ أن الأنبياء كلهم معصومون مؤيدون من الله تعالىٰ، فتوجيه الله تعالىٰ لأنبيائه ورسوله بأمر، أو نهي، أو إرشاد، أو نصح، لا يقدح في عصمتهم، ولا ينال من رسالهم، ولا يعيب في نبوتهم، فإن هذا قد يكون من باب التذكير، أو من باب التشريع لأمته، ونبينا ﷺ قد خاطبه الله تعالىٰ بمثل ما خاطب به نبيه داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ في آيات كثيرة من كتابه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة:٤٢]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١، و٤٨]، وكقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].. وغيرها من الآيات(١).

ومتبع الهوىٰ وصل إلىٰ هذه الدرجة الدنيا، وانحط إلىٰ هذا المستوىٰ الرديء؛ لأنه باتباعه لهواه أشرك مع الله، فصار كمن إلهه هواه، فاستحق حرمان الهداية، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣]، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده(٢).

وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به»(٣).

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٣)، وأضواء البيان (٦/ ٣٤٠).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٣٣).

(٣) الحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (ص: ١٢)، برقم: (١٥)، وأبو نعيم النسوي في كتاب الأربعين برقم: (٨) و(٥١)، وابن بطة في الإبانة الكبرىٰ (١/ ٣٨٧)، برقم: =

قال الملا علي قاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه للحديث: «أي: ميل نفسه، سُمي به لأنه يهوي صاحبه في الدنيا إلىٰ الداهية، وفي الآخرة إلىٰ الهاوية، فكأنه من هويَ يهوي هوىً إذا سقط، «تبعًا لما جئت به» يجوز أن يحمل هذا علىٰ نفي أصل الإيمان، أي: حتىٰ يكون تابعًا مقتديًا لما جئت به من الشرع، عن اعتقاد لا عن إكراه وخوف سيف، كالمنافقين.

وقيل: المراد نفي الكمال، أي: لا يكمل إيمان أحدكم حتىٰ يكون ميل نفسه، أي: ما تشتيه تبعًا لما جئت به من الأحكام الشرعية، فإن وافقها هواه اشتغل بها لشرعيتها، لا لأنها هوىٰ، وإن خالفها اجتنب هواه، فحينئذ يكون مؤمنًا كاملًا»(١).

وهذا الثاني هو ما صححه ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه للأربعين النووية، حيث قال: «أنا حملناه علىٰ ذلك لأنه لا يصدق في كل مسألة؛ لأن الإنسان قد يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أكثر مسائل الدين، وفي بعض المسائل لا يكون هواه تبعًا، فيحمل علىٰ نفي الكمال، ويقال: إن كان هواه لا يكون تبعًا لما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل الدين، فحينئذ يكون مرتدًا»(٢).

= (٢٧٩)، وقوام السنة في الحجة في بيان المحجة (ص: ٢٦٩)، برقم: (١٠٣)، كلهم من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد صححه جماعة من المحققين، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص: ٨٢٤): «وقد خرّج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين، وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وجياد الآثار مما أجمع الناقلون علىٰ عدالة ناقليه»، وقال ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٨٩): «رجاله ثقات»، وكذا صححه النووي في الأربعين النووية (ص: ١١٣).

(١) مرقاة المفاتيح (١/ ٢٥٥).

(٢) شرح الأربعين النووية (ص: ٣٩٤). وينظر: الكاشف عن حقائق السنن (٢/ ٦٣٧).

والسبب الذي من أجله حرم أصحاب الهوىٰ الهداية: أنهم قدموا القياس علىٰ النص، وعطلوا عقولهم، وصدوا عن قبول الحق غيرهم.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصل ضلال من ضل هُوَ بِتَقْدِيم قِيَاسه علىٰ النَّص الْمنزل من عِنْد الله، وَتَقْدِيم اتِّبَاع الْهوى علىٰ اتِّبَاع أَمر الله، فَإِن الذَّوْق والوجد وَنَحْو ذَلِك هُوَ بِحَسب مَا يُحِبهُ العَبْد ويهواه، فَكل محب لَهُ ذوق وَوجد بِحَسب محبته وهواه»[١].

ويقول كذلك: «فبيّن أن اتباع الهوىٰ يُضلّ عن سبيل الله، فمن اتبع ما تهواه نفسه أضلّ عن سبيل الله، فإنه لا يكون الله هو المقصود، ولا المقصود الحق الذي يوصل إلىٰ الله، فلا قَصَد الحق، ولا ما يوصل إلىٰ الحق، بل قصد ما يهواه من حيث هو يهواه، فتكون نفسه في الحقيقة هي مقصوده، فيكون كأنه يعبد نفسه، ومن يعبد نفسه فقد ضلّ عن سبيل الله قطعًا، فإن الله ليس هو نفسه»[٢].

يبين ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبب حرمان صاحب الهوىٰ الهداية بقوله: «فإن اتباع الهوىٰ يطمس نور العقل، ويُعمي بصيرة القلب، ويصدُّ عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرةُ العبرة معه البتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيُه ونظرُه، فأرته نفسُه الحسنَ في صورة القبيح، والقبيحَ في صورة الحَسَن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنىٰ له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة؟»[٣].

(١) العبودية (ص: ٦٧).

(٢) جامع الرسائل (٦/ ١٤٣).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٤٧، ٤٤٨).

المطلب السابع

الكذب

«الكذب» آفة كبرىٰ، ومصيبة عظمىٰ، إذا أصابت الفرد تؤدي به إلىٰ الهلاك والعياذ بالله، وهو أقرب الطرق الموصل إلىٰ عذاب الله وجحيمه، فقد قال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محذرًا ومنبهًا: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلىٰ البر، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرىٰ الصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرىٰ الكذب حتىٰ يكتب عند الله كذابًا»(١).

و«الكذب» كما قال الإمام الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «جماع كل شر، وأصل كل ذم، لسوء عواقبه، وخبث نتائجه؛ لأنه يُنتج النميمة، والنميمة تُنتج البغضاء، والبغضاء تُؤَوِّلُ إلىٰ العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة»(٢).

فـ«الكذب» نقيض الصدق، يقال: كذَب يكْذِب كَذِبًا وكِذْبا فهو كاذبٌ وكذَّابٌ وكَذُوبٌ، وكذَّبْتَ الرجل: إذا نسبتَه إلىٰ الكذب.

(١) الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وما يُنهىٰ عن الكذب، برقم: (٦٠٩٤)، ومسلم في صحيحه وهذا لفظه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، برقم: (٢٠٦٧).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٦١).

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الكاف والذال والباء أصل صحيح يدل على خلاف الصدق»[١].

وأما في عرف الشرع فـ «الكذب» هو: الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه، سواء كان ذلك عمدًا أم خطئًا[٢]، وأصله في القول كالصدق، وقد يقع في الفعل، أو النية.

يقول الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصدق والكذب أصلهما في القول، ماضيًا كان أو مستقبلًا، وعدا كان أو غيره، ولا يكونان بالقصد الأوّل إلا في القول، ولا يكونان في القول إلا في الخبر دون غيره من أصناف الكلام.. وقد يكونان بالعرض في غيره من أنواع الكلام، كالاستفهام والأمر والدّعاء.. وقد يستعمل الصّدق والكذب في كلّ ما يحقّ ويحصل في الاعتقاد، نحو صدق ظنّي وكذب، ويستعملان في أفعال الجوارح، فيقال: صَدَقَ في القتال إذا وفّى حقّه، وفعل ما يجب وكما يجب، وكذب في القتال إذا كان بخلاف ذلك»[٣].

وقد تكرر ذكر «الكذب» في القرآن الكريم كثيرًا في أكثر من **(مائتي)** موضع، محذرًا منه، مهددًا صاحبه ومتوعدًا، مبيّنًا أضراره ومفاسده، واصفًا به أرذل الخلق، وأدناهم منزلة، وأحقرهم صفة؛ كالكفار، والمنافقين، والكهنة الدجالين.

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ١٦٧)، وينظر: لسان العرب (١/ ٧٠٤، ٧٠٥) مادة: (كذب).

(٢) ينظر: التعريفات (ص: ١٨٣)، وفتح الباري (١/ ٢٠١)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٦٩)، والتحرير والتنوير (٢٨/ ٢٣٥).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٧٨ - ٤٨٠).

وقد بين القرآن الكريم صراحة أن من أشد أضراره، وأعظم مفاسده حرمان صاحبه من الهداية، فالمقصود من «الكذب» هو الذي يؤدي إلىٰ الكفر بالله تعالىٰ، والافتراء عليه سبحانه، وإظهار خلاف ما يبطن:

ففي حق الكافر يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾[النحل: ١٠٤، ١٠٥]، أي: إن الذين لا يؤمنون بآيات الله هم أهل الكذب، لا المؤمنون[١].

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذه الآية دلالة قوية علىٰ أن الكذب من أكبر الكبائر وأفحش الفواحش، والدليل عليه: أن كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، والمعنىٰ: أن الكذب والفرية لا يقدُمُ عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله، وإلا من كان كافرًا، وهذا تهديد في النهاية»[٢].

وفي قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ مبالغة في وصفهم بالكذب، كأن كل كذب قليل بالنسبة إلىٰ كذبهم، إذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله[٣]، فهؤلاء القوم الذين افتروا علىٰ الله الكذب، ولم يؤمنوا بآيات الله ظلموا أنفسهم، فاستحقوا حرمان الهداية؛ لأن الله تعالىٰ لا يهدي القوم الظالمين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الصف: ٧]، أي: لا أحد أظلم

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٣٠٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٧٢). وينظر: محاسن التأويل (٦/ ٤١٠).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٧٩)، فتح القدير (٣/ ٢٣٣).

منهم[١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الجمعة:٥]، أي: بئس هذا المثل الذي ضربه الله تعالىٰ لليهود والنصارىٰ وتشبيههم بالحمار في جهله، وعدم استفادته ما يحمل ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾، بئس هذا المثل، مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله تعالىٰ، وبأدلته وحججه وبراهينه، فهؤلاء لا يهديهم الله؛ لأنهم ظلموا أنفسهم فاستحقوا الحرمان ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

وقد وصف الله تعالىٰ المحروم من الهداية بوصفين: الكذب، وشدة الكفر[٣]، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾[الزمر:٣]، أي: «لا يرشد لدينه من كذب في زعمه أن الآلهة تشفع، وكفر في اتخاذ الآلهة دونه، وهذا فيمن سبق عليه القضاء بحرمان الهداية»[٤].

وأما المنافقون فالكذب شيمتهم، والخيانة دأبهم وطريقتهم، وفيهم يقول الله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[المنافقون: ١]، ويقول تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟

(١) تقدم الحديث عن الآية وبيانها.

(٢) تقدم الحديث عن هذه الآية. وينظر: جامع البيان (٢٣/ ٣٧٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٨).

(٤) التفسير الوسيط، للواحدي (٣/ ٥٧٠).

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[التوبة: ١٠٧، ١٠٨]، ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[الحشر: ١١، ١٢].

ففي الآيات المتقدمة شهد الله تعالىٰ بكذب المنافقين في أقوالهم وأفعالهم، ومع أن كل آية من الآيات السابقة وردت في سياق مختلف عن الآخر، إلا أنها في مجملها تؤكد حقيقة كذب المنافقين، وأنهم يظهرون خلاف ما يبطنون، فالكذب «وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذبهم الله بقوله، الذي وُجد مخبره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال»[(١)]، فهم ضالون مضلون في وعودهم، وإن عززوا ذلك وأكدوه بأيمانهم، فهي أيمان كاذبة خادعة؛ لأن شهادة الله تعالىٰ أصدق من حلفهم.

ففي الآية الأولىٰ يخبر الله تعالىٰ عن المنافقين أنهم إذا جاءوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتفوهون بالإسلام، ويشهدون بنبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما في باطن الأمر فهم ليسوا كذلك، بل علىٰ الضد من ذلك تمامًا؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه، ولهذا كذبهم الله تعالىٰ بالنسبة إلىٰ اعتقادهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: كاذبون «في شهادتهم التي زعموا أنها من صميم القلب وخلوص الاعتقاد، لا إلىٰ منطوق كلامهم،

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٥١).

وهو الشهادة بالرسالة، فهي حق، والمعنىٰ: والله يشهد أنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم من التأكيد الدال علىٰ أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد، وطمأنينة قلب، وموافقة باطن لظاهر»[1].

وفي الآية الثانية تحدث الله تعالىٰ فيها عن الكذب في أقوال المنافقين وأفعالهم، حيث إن أناسًا منهم بنوا مسجدًا بجوار مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاقة بين المؤمنين، ويعدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله، ويستعملونه حصنًا عند الاحتياج إليه[2]، فلما بنوه، أبان الله

(١) فتح القدير (٥/ ٢٧٥). وينظر: معالم التنزيل (٨/ ١٣٦)، والمحرر الوجيز (٥/ ٣١١)، وتفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥٠)، وأضواء البيان (٨/ ١٨٨).

(٢) هذا ما يفهم مما ورد عن السلف في سبب نزول هذه الآيات، ومن ذلك ما أورده الواحدي في أسباب النزول (ص: ٢٩٩، ٣٠٠) حيث قال:

«قال المفسرون: إن بني عمرو بن عوف، اتخذوا مسجد قباء، وبعثوا إلىٰ رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم فصلىٰ فيه، فحسدهم إخوتهم بنو غنم بن عوف، وقالوا: نبني مسجدًا ونرسل إلىٰ رسول الله ﷺ ليصلي فيه كما صلىٰ في مسجد إخواننا، وليصل فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية وتنصر ولبس المسوح، وأنكر دين الحنيفية لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعاداه، وسماه النبي ﷺ: أبا عامر الفاسق، وخرج إلىٰ الشام، وأرسل إلىٰ المنافقين أن أعدوا واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجدًا، فإني ذاهب إلىٰ قيصر، فآتي بجند الروم، فأُخرج محمدًا وأصحابه، فبنوا له مسجدًا إلىٰ جنب مسجد قباء.. فلما فرغوا منه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه.. فنزل عليه القرآن، وأخبره الله تعالىٰ خبر مسجد الضرار وما هموا به، فدعا رسول الله ﷺ بعضًا من أصحابه، وقال لهم: انطلقوا إلىٰ هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وأحرقوه..».

تعالىٰ كذبهم، وفضح سريرتهم، وأطلع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بخبايا نفوسهم، فذكر سبحانه أنهم بنوا هذا المسجد لأغراض أربعة(١):

الأول: المضارة بالمؤمنين، أي: محاولة إيقاع الضرر بهم.

الثاني: الكفر وتقويته، «وتسهيل أعماله من فعلٍ وترك، كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هنالك، مع خفاء ذلك علىٰ المؤمنين؛ لعدم اجتماعهم في مسجد واحد».

الثالث: التفرقة بين المؤمنين، حيث إنهم كانوا يصلون جميعًا في مسجد واحد، وهو مسجد قباء، وفي ذلك من مقاصد الإسلام الاجتماعية ما فيه، وهو: التعارف، والتآلف، والتعاون، وجمع الكلمة، وغيرها من المقاصد.

الرابع: الإرصاد لمن حارب الله ورسوله من قبل اتخاذ هذا المسجد، والإرصاد هو الانتظار والترقب، وقد ذكر المفسرون أن المقصود بهذا المحارب هو: أبو عامر الراهب، وعدهم بأنه سيأتيهم بجيش من الروم لقتال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

ومع هذا زعموا بأيمان كاذبة ودعاوىٰ باطلة أنهم ما أرادوا ببناء المسجد إلا خيرًا ورفقًا بالمؤمنين، وإحسانًا إلىٰ الضعيف، والعاجز الضرير، فأبان الله تعالىٰ كذبهم، وشهد بأن أبطنوا خلاف ما أظهروا ﴿وَٱللَّهُ

---

(١) وهي المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ ولا شك أن شهادة الله تعالىٰ أصدق من حلفهم[١].

وأما في الآية الثالثة فيبين الله تعالىٰ فيها كذب المنافقين في وعودهم، حيث إنها تحكي ما جرىٰ بين الكفار من أهل الكتاب والمنافقين في المدينة من وعود كاذبة، وأقوال فاسدة، وخيانة فاجرة، يريدون بها محاربة الإسلام والمسلمين، فالمنافقون وعدوا إخوانهم من يهود بني النضير علىٰ النصرة والتمكين، وبذل ما يملكون في الوقوف معهم ظاهرًا وباطنًا، من أجل استعداءهم علىٰ المسلمين، وعدم الرضوخ لهم، إلا أن الله تعالىٰ بين أن هذه الوعود كلها كاذبة؛ لأنها صدرت من قوم الكذب متأصل في نفوسهم، والنفاق متشعب في قلوبهم، فلا يقولون إلا الكذب ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: لكاذبون فيما وعدوهم به «إمّا لأنهم قالوا لهم قولًا ومن نيتهم أن لا يفوا به، وإما لأنهم لا يقع منهم لأنهم لا يقع منهم الذي قالوا»[٢]، وعلىٰ كلٍّ فقد بَانَ ذلك في أمر بني النضِير الذين عاقدهم المنافقون؛ لأنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم، فلم يخرج معهم المنافقون، وقُوتلُوا فلم ينصروهم، فأظهر الله تعالىٰ كذبهم[٣].

---

(١) ينظر: معاني القرآن، للزجاج (٢/ ٤٦٨، ٤٦٩)، والهداية إلىٰ بلوغ النهاية (٤/ ٣١٥٠- ٣١٥٣)، ومعالم التنزيل (٤/ ٩٤،٩٣)، والجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٥٣-٢٥٨)، وتفسير القرآن العظيم (٤/ ١٨٤،١٨٣)، وفتح القدير (٢/ ٤٥٨-٤٦١)، والتحرير والتنوير (١١/ ٢٩، ٣٠)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٥١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٠٣).

(٣) أقوال المفسرين في تفسير هذه الآيات تدور في هذا الفلك، وحول هذه المعاني.
ينظر: جامع البيان (٢٣/ ٢٨٩ ، ٢٩٠)، ومعاني القرآن، للزجاج (٥/ ١٤٧)، والهداية =

وأما الكهنة والدجالون، فقد وصفهم الله تعالىٰ بكثرة الكذب والإثم، فقال تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[الشعراء:٢٢١-٢٢٣]، الأفّاك: كثير الإفك: الكذب، والأثيم: كثير الإثم، وهو: «الفاجر في أفعاله، فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان، وما جرىٰ مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضًا كذبةٌ فسقةٌ، ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقونها إلىٰ أوليائهم من الإنس، فيحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سُمعت من السماء، كما صحَّ بذلك الحديث[(١)]»[(٢)].

والكاهن سمي: أثيمًا «لأنه يضُمُّ إلىٰ كذبه تضليل الناس بتمويه أنه لا يقول إلا صدقًا، وأنه يتلقىٰ الخبر من الشياطين التي تأتيه بخبر السماء.. فهم أفّاكون، وهم متفاوتون في الكذب، فمنهم أفاكون فيما يزيدون علىٰ خبر الجن، ومنهم أفّاكون في أصل تلقي شيء من الجن.

= إلىٰ بلوغ النهاية (١١/ ٧٣٧٩، ٧٣٨٠)، والمحرر الوجيز (٥/ ٢٨٩)، ومفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٠٩)، والجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٣٣)، والتحرير والتنوير (٢٨/ ٩٩).

(١) ورد في هذا المعنىٰ عدة أحاديث صحاح، منها حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناسٌ عن الكهّان، فقال: «ليس بشيء»، فقالوا: يا رسول الله!! إنهما يحدثونا أحيانًا بشيء فيكون حقًّا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيقَرُّها في أذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة».
أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب الكهانة، برقم: (٥٧٦٢)، ومسلم، كتاب الآداب، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم: (٢٢٢٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٥٥).

ولما كان حال الكهان قد يلتبس على ضعفاء العقول ببعض أحوال النبوة في الإخبار عن غيب، وأسجاعُهُم قد تلتبس بآيات القرآن في بادئ النظر، أطنبت الآية في بيان ماهية الكهانة، وبينت أن قُصاراها الإخبار عن أشياء قليلة قد تصدق، فأين هذا من هدي النبي والقرآن، وما فيه من الآداب، والإرشاد، والتعليم، والبلاغة، والفصاحة، والصراحة، والإعجاز..»[١].

وقد توعد الله تعالىٰ الأفاك الأثيم وهدده بالويل والثبور، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾[الجاثية:٧]، و «الويل في كلام العرب: المصائب والحزن والشدة، من هذه المعاني، وهي لفظة تستعمل في الدعاء على الإنسان.

وروي في بعض الآثار: أن في جهنم واديا اسمه: وَيْلٌ[٢]، وذهب الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أنه المراد بالآية[٣]، ومقتضىٰ اللغة أنه الدعاء علىٰ أهل الإفك والإثم بالمعاني المتقدمة»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) من ذلك ما روي عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الويل واد في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره».
أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة الأنبياء، برقم: (٣١٦٤)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٥٠٨)، برقم: (٧٤٦٧)، وأحمد في مسنده (١٨/ ٢٤٠)، برقم: (١١٧١٢)، وغيرهم، بسند ضعيف، كما قال الألباني في ضعيف سنن الترمذي (١/ ٣٩٥) وغيره.

(٣) جامع البيان (٢٢/ ٦٣).

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٨١).

وسبب حرمان الكذابين من الهداية أنهم ألغوا العقل، وتركوا التثبت، وهمشوا النصوص القاطعة، والأدلة الساطعة، فكذبوها، وانصرفوا عنها، بل افتروا عليها، فضلوا وأضلوا، فاستحقوا بذلك عقوبة الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة علىٰ أفعالهم الدنيئة، وصفاتهم الخبيثة، ونواياهم الرديئة.

نسأل الله تعالىٰ السلامة والعافية من كل مكروه، ومن صفات أهل النفاق والفجور، اللهم آمين.

المطلب الثامن

الحسد

«الحَسـد» داء عظيـم، ومرض خطير، إذا أصيب به الإنسـان اسـود قلبه، وتلـف عقله، فمنـع الخير كله، وأساسـه الإيمـان والاهتداء، عـن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عـن النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال: «لا يجتمعان في النار: مسـلم قتـلَ كافرًا ثـم سـدد وقـارب، ولا يجتمعـان في جـوف مؤمن: غبـار في سـبيل الله وفيح جهنـم، ولا يجتمعان في قلـب عبد: الإيمان والحسـد»[١].

«والحسـد مذمـوم، وصاحبه مغمـوم، وهو يـأكل الحسـنات كما تأكل النـار الحطـب..، وقال الحسـن: ما رأيـت ظالمًا أشـبه بمظلوم من حاسـد؛ نَفَـسٌ دائم، وحـزنٌ لازم، وعـبرة لا تنفد»[٢].

وهـو داء الأمم، وحالقـة الدين، كمـا أخبر النبـي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن الزبير بـن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال: «دبَّ إليكم داءُ الأممِ قبلكـم: الحَسـد، والبغضاء، هي الحالقـة، لا أقول تحلق الشـعرَ، ولكن تحلقُ الديـنَ، والذي نفسـي بيده، لا تدخلـوا الجنة حتـىٰ تؤمنـوا، ولا تؤمنوا حتىٰ

(١) أخرجـه النسـائي في السـنن، كتاب الجهـاد، باب من عمل في سـبيل الله علىٰ قدمـه، برقم: (٣١٠٩)، وابـن حبان في صحيحـه (١٠/ ٤٦٦)، برقم: (٤٦٠٦)، وصـدر الحديث مخرج عنـد مسـلم، كتاب الإمـارة، بـاب من قتـل كافرًا ثـم سـدد، برقـم: (١٨٩١)، والحديث صححه الألبـاني في صحيح الجامـع (٢/ ١٢٦٢) برقـم: (٢٧٤٥٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٥١).

تحابوا، أفلا أنبئكم بما يُثبِّت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم»[(١)].

و«الحَسد» أول المعاصي في السماء، حين حسد إبليس آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٢)]، وأول المعاصي على وجه الأرض، حين قتل (قابيل) أخاه (هابيل)، كما حكى القرآن قصتهما في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا﴾، فتقبل الله تعالى قربان أحدهما، ولم يتقبل قربان الآخر ﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾، حينها «قال الابن الذي لم يتقبل منه للآخر؛ حسدًا وبغيًا»[(٣)]: ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَ﴾، ثم نفذ تهديده ووعيده، فقتل أخاه: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[المائدة:٢٧ – ٣١].

وأهل مكة من قريش ممن لم يؤمن بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يمنعهم من الإيمان إلا «الحَسد» في قلوبهم، ولا أدل على ذلك من مقالة أبي جهل، كما نقله عنه ابن هشام: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه»[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، برقم: (٢٥١٠)، وأحمد في مسنده (٣/ ٢٩،٤٣)، برقم: (١٤١٢،١٤٣٠) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وصحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٧)، برقم: (٢٦٩٥).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٥١)، والتفسير القيم (ص: ٦٤٤)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٦٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٢٨).

(٤) السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٣١٦).

وكذا كفار أهل الكتاب، منعهم «الحَسد» من الإيمان بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)، كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[النساء:٥٤]، وما كيدهم للإسلام والمسلمين لإخراجهم من الدين، إلا حسدًا من عند أنفسهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[البقرة:١٠٩].

يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ:«وأما عامة اليهود وجهلتهم فقد بلغ بهم الحسد والغيظ إلىٰ مودة أن يرجع المسلمون إلىٰ الشرك، ولا يَبقوا علىٰ هذه الحالة الحسنة الموافقة لدين موسىٰ في معظمه، نكاية بالمسلمين وبالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٢).

و«الحَسد» كان مانعًا من موانع الهداية لأن الحاسد يتمنىٰ زوال النعمة عن غيره، وقد يسعىٰ بموجب حسده لإزالة نعمة المحسود بالبغي عليه بالفعل أو القول(٣)، لذا أمر الله تعالىٰ عباده أن يستعيذوا من شر الحاسد

(١) نقل مكي بن أبي طالب في الهداية إلىٰ بلوغ النهاية (١٢/ ٨٥١١) عن ابن زيد قوله: «أُمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستعيذ من شر اليهود الذين حسدوه، لم يمنعهم أن يؤمنوا به إلا حسدهم».

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٧٠).

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٣٤)، والتعريفات (ص: ٨٧)، والتفسير القيم (ص: ٦٣٦)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٦٦).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ .. وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ «أي: إذا ظلم»(١)، والظلم منافاة للهداية.

والعجيب في هذه الآية أنها عطفت علىٰ الاستعاذة من الساحر: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾ وهذا العطف يفيد أن الشر من نفس الحاسد هو ذات الشر من نفس الساحر، فالساحر يستعين بالشيطان ويبعده، والحاسد يعينه الشيطان علىٰ حسده(٢).

يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«وإنما جعل الحسد ظلمًا؛ لأن الظلم هو المعاملة بغير حق، والحسد: تمني زوال النعمة عن المحسود، ولا حق للحاسد في ذلك؛ لأنه لا يناله من زوالها نفع، ولا من بقائها ضر، ولقد أجاد أبو الطيب إذ أخذ المعنىٰ في قوله:

وأظلمُ خلقِ اللهِ مَن باتَ حاسدًا ... لِمَن باتَ في نَعْمائِهِ يتقلَّبُ»(٣)

اللهم طهّر قلوبنا من الغل والحقد والحسد، واملأ قلوبنا بحبك وحب من يحبك وحب كل عمل يقربنا إلىٰ حبك، وحب عبادك الصالحين.. اللهم آمين.

(١) تفسير السمعاني (٦/ ٣٠٧).

(٢) ينظر: التفسير القيم (ص: ٦٤٤، ٦٤٥).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٦٠٥). والبيت مذكور في: الأمثال السائرة من شعر المتنبي، للصاحب بن عباد (ص: ٦٣)، والوساطة بين المتنبي وخصومه، للجرجاني (ص: ١١٨)، وشرح ديوان المتنبي، للواحدي (ص: ٣٣٠).

المطلب التاسع

الكبر

«الكِبر» وصفه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه :«بَطَر الحق وغَمْط الناس»[١]، و«بَطَر الحق»: دفعه وإنكاره، وذكر ابن الأثير في معنىٰ «بَطَر الحق» ثلاثة أقوال[٢]:

الأول: أن يجعل ما يجعله الله تعالىٰ حقًّا من توحيده وعبادته باطلًا.

الثاني: أن يتجبر عند الحق فلا يراه حقًّا.

الثالث: أن يتكبر عن الحق فلا يقبله.

و«غَمْط الناس»: احتقارهم، والاستهانة بهم، وقد ورد في ألفاظ الحديث: «غَمْص» بالصاد، وهما بمعنىٰ واحد[٣].

و«الكِبر»: أول معصية عصي الله تعالىٰ به، وذلك عندما خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا كلهم، إلا إبليس تكبر وعصىٰ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم: (١٤٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق وغمط الناس».

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٣٥). وينظر: شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (٢/ ٩٠).

(٣) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٨٨)، وشرح النووي علىٰ صحيح مسلم (٢/ ٩٠).

ربه ولم يسجد: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١١، ١٢]، فرد الله تعالىٰ عليه بقوله: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، وفي سورة (ص) يقول سبحانه مؤكدًا هذا المعنىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: ٧٣-٧٦].

يقول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بين تعالىٰ في هذه الآية الكريمة أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده، حيث كان قصده التعاظم والتكبر، فأخرجه الله صاغرًا حقيرًا ذليلًا، متصفًا بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة.. ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك»[(١)].

وقد يكون التكبر أشد من الكفر، كما نقل ابن القيم ذلك عن شيخه ابن تيمية -رحمهما الله تعالىٰ-: «التكبر شرٌّ من الشرك، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالىٰ، والمشرك يعبد الله وغيره»[(٢)]، ثم قال ابن القيم: «قلت: ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين، كما قال تعالىٰ في سورة الزمر [آية: ٧٢]، وفي سورة غافر [آية: ٧٦]: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾..»[(٣)].

(١) أضواء البيان (٢/ ١٠).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣١٦).

(٣) المصدر السابق.

فالمتكبر مصيره وجزاؤه النار والعياذ بالله؛ لأنه نازع الله تعالىٰ في كبريائه وجبروته وسلطانه، يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ويقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه تعالىٰ: «الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فَمَن نازَعني واحدًا منهما قذفْتُه في النار»(١).

ويقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يَدْخلُ الجنَّةَ مَن كَانَ في قلبِهِ مِثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبرٍ»(٢).

يقول ابن القيم في نونيته المشهورة(٣):

وسل العياذ من التكبر والهوىٰ ... وهما يصدان الفتىٰ عن كل طر
فتراه يمنعه هواه تارة ... والله ما في النار إلا تابع
والله لو جردت نفسك منهما ... فهما لكل الشرّ جامعتان
ق الخير إذ في قلبه يلجان ... والكبر أخرىٰ ثم يشتركان
هذين فاسأل ساكني النيران ... لأتت إليك وفود كل تهان

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، برقم: (٤٠٩١)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، برقم: (٤١٧٤)، وأحمد في مسنده (٧/ ١٨٨)، برقم: (٧٣٧٦)، عن أبي هريرة وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٧٩)، رقم: (٥٤١)، وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته»، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، برقم: (٢٠٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه برقم: (٩١).

(٣) متن القصيدة النونية (ص: ٢٨٧).

وعليه؛ فإن المتكبر محروم من الهداية بالقرآن في هذه الدنيا، مطبوع علىٰ قلبه، فلا يهتدي بهديه، ولا يقتدي بشرائعه، ولا يستن بسننه وأحكامه، يقول تعالىٰ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾[الأعراف:١٤٦]، «والصرف: الدفع، أي: سأصد عن آياتي»[١].

يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه، علىٰ حقيقة ما أمر به عباده، وفرض عليهم من طاعته في توحيده، وعدله، وغير ذلك من فرائضه، والسموات والأرض، وكلُّ موجودٍ من خلقه فمن آياته، والقرآن أيضًا من آياته، وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فَهْمِ جميع آياته والاعتبار والادكار بها مصروفون؛ لأنهم لو وفقوا لفهم بعض ذلك، وهدوا للاعتبار به؛ لاتعظوا وأنابوا إلىٰ الحق، وذلك غير كائن منهم؛ لأنه جلَّ ثناؤه قال:﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾، ولا تبديل لكلمات الله»[٢].

وفي ذات السياق يقول الحق سبحانه:﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[غافر:٣٥]، والطبع: الختم، أي: أن الله تعالىٰ يختم علىٰ قلوب المتكبرين الجبارين، حتىٰ لا يعقلوا الرشاد، ولا يقبلوا الحق[٣].

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٠٣).

(٢) جامع البيان (١٢/ ١١٣).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٣١٣).

وسبب حرمان المتكبر الهداية أنه: «ينظر إلىٰ نفسه بعين الكمال، وإلىٰ غيره بعين النقص، فيحتقرهم ويزدريهم، ولا يراهم أهلًا لأن يقوم بحقوقهم، ولا أن يتقبل من أحد منهم الحق إذا أوردوه عليه»(١).

وبعد فهذه جملة من الموانع ذكرتها، اكتفيت بها مع وجود غيرها، مما ذكره أهل العلم في كتبهم، وبينه أهل الفضل في مؤلفاتهم، نظرًا لأن القرآن الكريم عدَّها كذلك صراحة، سائلًا المولىٰ الكريم سبحانه أن أكون قد وفقت في عرضها وبيانها.

وبالله تعالىٰ التوفيق والسداد، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٧٥).

المبحث الثالث

أثر تحقيق الهدايات القرآنية

في واقع الأمة

أثر تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة

تمهيد:

إن سلف هذه الأمة من الصحابة الكرام، والتابعين لهم بإحسان، ومن سار على نهجهم واقتدى سنتهم من العلماء والصالحين قد تحققت فيهم «الهداية القرآنية»؛ لأنهم سلكوا مسالكها، واتبعوا سبلها، واجتنبوا موانعها، فاثر تحقيق ذلك في حياتهم، فانتقلوا في فترة وجيزة من الزمن من أمة أمية، تابعة لغيرها، لا يقام لها وزن، مغلوبة على أمرها، تعيش في شتات وتفرق، وتباعد وتمزق، إلى أمة متقدمة في شتى المجالات، ففتحت البلدان، وانتشرت في الأمصار، وصارت شيئًا مذكورًا بين الأمم، بل قادة لها، منارة للعلم، منبعًا للرقي والحضارة، «أدان الله تعالى لهم البلاد، وفتح عليهم -حبًّا- قلوب العباد، وقمع بهم الشر والفساد، فرفرت عليهم بعد الحروب المدمرة رايات السلام، وأتم عليهم الله بعد الفاقة غاية الإنعام، وأكرمهم بعد الإهانة أيما إكرام»[1].

وقد شاءت سنة المولى الكريم أن يكون مقياس تمكن الأمة في هذه الأرض، وعلو شأنها: القرآن والسنة، فعلى مقدار تمسك الأمة بكتاب ربها، وسنة نبيها يكون تمكنها في هذه الأرض، يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ﴾[آل عمران:١١٠]، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[الأعراف: ٩٦].

---

(١) التمسك بالقرآن وأثره في حياة المسلمين، للدكتور عبد الله بن عمر الشنقيطي (٢/ ٥١٤).

فلما كان تمسك السلف قويًّا بالأصلين، مُكن لهم في الأرض أيما تمكين، ثم لما ضعف الاهتداء بالأصلين لدىٰ الأمة المحمدية، عادت إلىٰ الوهن بعد العزيمة، وإلىٰ الضعف بعد القوة، فواقع اليوم واقع أليم تعيشه الأمة الإسلامية من تفرق وتمزق، وضعف وهوان، وإذا أرادت الأمة أن تعود لسابق عهدها، وقديم مجدها، لا سبيل أمامها إلا العودة إلىٰ أصولها: كتاب ربها، وسنة نبيها، يهتدون بهديهما، ويقتدون بهما.

«فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»[(١)]، وصلاح أول الأمة كما هو معلوم كان بتمسكها بالقرآن والسنة، فـ«القرآن هو هداية الله العظمىٰ، صلح باتباعه من لم يعرف قبله صلاحًا، وأفلح بهديه من لم يجد من دونه فلاحًا، وما فقد كثيرٌ من المسلمين اليوم مجد الصالحين من أسلافهم والعزة في الأولين من آبائهم؛ إلا لأنهم لم يهتدوا بالقرآن كهدايتهم، ولم يأخذوا كتاب ربهم بقوة مثل أخذهم.. وإذا حصل الضلال -عياذًا بالله- واتباع الهوىٰ، وتجاوز الحق؛ اختلفت قوىٰ الإدراك في الناس، وحينئذٍ تضطرب الأعمال، وتموت العهود، وتفسد الأخلاق، ويحل الشقاء، وتفشو الفرقة، ويسلط الله علىٰ الأمة من يستذلها، ويستأثر بشئونها، ويعبث بمقدراتها، ثم يحيق الهلاك، وتمحىٰ الآثار والديار عياذًا بالله»[(٢)].

---

(١) روي ذلك عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، كما نقله عنه جملة من أهل العلم، كشيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٣٩٦)، وابن قيم الجوزية في إغاثة اللهفان (١/ ٢٠٠).

(٢) فضل سورة الفاتحة، للدكتور صالح بن حميد (٤٠/ ٢)، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية: http://www.islamweb.net.

وفي هذا المبحث سيكون الحديث بمشيئة الله تعالىٰ عن أثر تحقيق الهداية القرآنية في واقع الأمة الإسلامية، مستدلًّا علىٰ ذلك بنصوص من القرآن الكريم، ومستشهدًا بأحاديث سيد المرسلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومؤيدًا ذلك بأقوال الصحابة والتابعين، مستفيدًا في ذلك بما سطره أهل العلم في كتبهم، وما قيدوه في مؤلفاتهم، وذلك من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: الهداية للتي هي أقوم.

المطلب الثاني: العدل والإنصاف.

المطلب الثالث: الوحدة والاتفاق.

المطلب الرابع: التمكين في الأرض.

المطلب الخامس: الأمان والطمأنينة.

المطلب السادس: السعادة الحقيقية.

سائلًا المولىٰ سبحانه التوفيق والسداد فيما أكتب وأسطر، وأن يكون لها الأثر فيمن يقرأ وينظر، والله المستعان، وعليه التكلان.

المطلب الأول

الهداية للتي هي أقوم

إن من أهم آثار الهداية القرآنية: أنه يهدي لأقوم الطرق وأعدلها في كل الأمور الدينية والدنيوية النافعة[١]، فهو كما يقول الله تعالىٰ عنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩]، فـ﴿أَقْوَمُ﴾ تفضيل القويم، ومعناه: أنه يهدي للطريق التي هي: «أقوم الطرق وأوضح السبل»[٢]، فهو يهدي «للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلام..»[٣].

ففي الآية إذًا إخبار من الله تعالىٰ عن شرف القرآن وجلالته، وأنه يهدي لأعدل الطرق وأعلاها، من العقائد، والأعمال، والأخلاق، «وهذا وصف إجمالي لمعنىٰ هدايته إلىٰ التي هي أقوم، لو أريد تفصيله لاقتضىٰ أسفارًا»[٤].

يقول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين جَلَّ وَعَلَا ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: الطريقة التي

---

(١) ينظر: تيسير اللطيف المنان (٢/ ٣٥٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٥). وينظر: التحرير والتنوير (١٥/ ٤٠)، وتفسير الشعراوي (١٤/ ٨٣٧٦).

(٣) جامع البيان (١٧/ ٣٩٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٤١).

هي أسـد وأعدل وأصوب.. وهـذه الآية الكريمة أجمـل الله جَلَّ وَعَلَا فيها جميع مـا في القرآن مـن الهدىٰ إلىٰ خيـر الطرق وأعدلهـا وأصوبها..»[١].

ثـم أشـار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلـىٰ جملة مـن المسـائل والقضايـا التي تبيـن هدي القـرآن للطريـق التـي هي أعـدل الطـرق وأقومها.

فـالله تعالـىٰ يبيـن أن القـرآن الكريم ليـس كتـاب هداية فحسـب، بل إن هدايتـه «هـي أبين الـدلالات، وأوضحهـا، وأدلهـا علىٰ المـراد، وأوفقها للفطـر، وأصلـح ما تكون هداية، وأشـدها فرقًـا بين الحق والباطـل، والهدىٰ والضـلال.. فطريقته في الهداية هـي خير الطرق وأشـدها، وأحكامه وآدابه هي أقوم الأحـكام والآداب وأعدلها، وأصلحهـا للعباد والبلاد، وهـذا هو ما تدل عليه كلمـة﴿أَقۡوَمُ﴾..»[٢].

فالقـرآن الكريم قد جمـع «الكمال في ألفاظـه ومعانيـه؛ فألفاظه أوضح الألفـاظ وأبلغها، وأحسـنها تفسـيرًا لكل ما تفسـره من الحقائـق، بوضوحها وأحكامهـا وقوامهـا، ومعانيـه كلها حـق، وذلك أنـه تمت كلمـة ربك صدقا وعدلا، صدقـا في أخبارها، وعدلا في أحكامهـا؛ أوامرها ونواهيها:﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائـدة: ٥٠]»[٣].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٧-٥٤).

(٢) مـن مقال للدكتورمحمد أبو شـهبة، بعنوان: التفسـير العلمي للقرآن الكريم، نشـر في مجلة رابطة العالم الإسـلامي، عدد: محرم، الصـادر عام: ١٣٩٥هـ.

(٣) تيسير اللطيف المنان (١/ ٣٠٤).

وعليـه؛ فإن من «اهتـدىٰ بما يدعو إليه القرآن كان أكمـل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره»[(١)].

فللقرآن الكريم مقاصد **ثلاثة**[(٢)]:

الأول: الهدايـة إلـىٰ طريق النجاة، والسـلامة من الشـقاء والعـذاب في الدنيا والآخرة، وذلك باتباع الإسـلام، والإسـلام دين الحق والعدل والإخلاص والإنقاذ.

الثـاني: إخراج المؤمنين بـه من ظلمات الكفر والشـرك والوثنية، والوهم والخرافـة، وانحراف التفكير، إلىٰ نـور التوحيد الخالص.

الثالـث: هدايـة الناس وإرشـادهم إلـىٰ الطريق الصحيـح الموصل إلىٰ الهدف السـديد مـن الدين، وإلـىٰ خيري الدنيـا والآخرة.

والنفـر من الجن عندمـا سـمعوا كلام الله تعالىٰ آمنوا به لأنـه يهدي إلىٰ الرشـد، كما حكىٰ القرآن عنهم قولهـم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[الجـن: ١، ٢]، أي: أن القـرآن ليـس كغيـره مـن الكتب، بـل هـو كلام جليل القـدر، عظيم الشـأن، بديع في حسـنه ونظمـه، ودقة معانيـه، وجمال أسـلوبه، وهو مع ذلك يرشـد إلىٰ الطريق الحـق والصراط المسـتقيم والهـدي القويم[(٣)]، والرشـد: «اسـم جامع لكل ما يرشـد النـاس إلىٰ مصالـح دينهـم ودنياهم»[(٤)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٥٤).

(٢) ينظر: التفسير الوسيط، للدكتور وهبة الزحيلي (١/ ٤٤٤).

(٣) ينظر: التفسير الوسيط، لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (١٠/ ١٦١٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٩٠).

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوىٰ، المتضمنة لترك الشر، وجعلوا السبب الداعي لهم إلىٰ الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدىٰ بهديه، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني علىٰ هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمربىٰ والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة»[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٩٠).

المطلب الثاني

العدل والإنصاف

«العدل» في كافة شؤون الحياة أمر شرعي مهم، ومطلب ديني عظيم، أمر به رب العالمين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[النحل:٩٠].

و«العدل» هو «فعل كل مفروض من عقائد، وشرائع، وسير مع الناس في أداء الأمانات، وترك الظلم، والإنصاف وإعطاء الحق»(١).

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العدل ضربان: مطلق يقتضي العقل حسنه، ولا يوصف بالاعتداء بوجه، نحو: الإحسان إلىٰ من أحسن إليك، وكف الأذية عمن كفَّ أذاه عنك، وعدلٌ يعرف كونه عدلًا بالشرع، ويمكن أن يكون منسوخًا في بعض الأزمنة، كالقصاص، وأروش الجنايات.. والعدل هو المساواة في المكافأة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر»(٢).

فـ «العدل» إذًا هو الإنصاف في جميع جوانب الحياة، «وحقيقته التوسط بين طرفي النقيض، وضده الجور، وذلك أن الباري خلق العالَم مختلفًا متضادًّا متقابلًا مزدوجًا، وجعل العدل في اطراد الأمور بين ذلك، علىٰ أن يكون الأمر جاريًا فيه علىٰ الوسط من كل معنىٰ، فالعدل بين العبد وربه: إيثار حق الله علىٰ حظ نفسه، وتقديم رضاه علىٰ هواه، والاجتناب للزواجر، والامتثال للأوامر.

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤١٥). وينظر: جامع البيان (١٧/ ٢٧٩).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٥٢).

وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها عما فيه هلاكها.. وعُزوب الأطماع عن الاتّباع، ولزوم القناعة في كل حال ومعنىٰ.

وأما العدل بينه وبين الخلق ففي بذل النصيحة، وترك الخيانة فيما قل وكثر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إلىٰ أحد مساءة بقول ولا فعل، لا في سر ولا في علن، حتىٰ بالهم والعزم، والصبر علىٰ ما يصيبك منهم من البلوىٰ، وأقل ذلك الإنصاف من نفسك وترك الأذىٰ»(١).

فـ «بالعدل» قامت السموات والأرضين، وبه صلاح الحال للفرد والمجتمعات، وصلاح المآل عند البعث بعد الممات، لذا أمر الله تعالىٰ به نبيه ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[الشورىٰ:١٥]، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[المائدة:٤٢]، وأمر به خلقه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[الأنعام:١٥٢].. وغيرها من الآيات الكثيرة.

وأما صلاح المآل بإذن الواحد الديان، فيظهر جليًّا في الحديث الذي أخرجه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن المقسطين

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٥٤). قال القرطبي في جامعه (١٠/ ١٦٥) بعد أن نقل كلام ابن العربي المتقدم: «قلت: هذا التفصيل في العدل حسن وعدل».

علىٰ منابر من نـور، عن يميـن الرحمن، وكلتا يديـه يمين، الذيـن يعدلون في حكمهم وأهلهم ومـا ولوا»(١).

فـإذا أقيم «العـدل» بين النـاس صلحت الحيـاة، وعاش النـاس في أمن وأمـان، وسـكينة واطمئنـان، بـل إن «العدل» سـبب من أسـباب اسـتمرارية الـدول إن التـزم به حكامهـا وملوكها، فـ«العدل» أسـاس الملك، وبه تسـتمر الـدول وتقـوم، وبضده تفشـل وتزول.

يقول شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ النّاس لم يتنازعوا في أنّ عاقبة الظّلم وخيمـة، وعاقبة العدل كريمة، ولهـذا يروىٰ: اللّه ينصـر الدّولة العادلة، وإن كانت كافـرة، ولا ينصر الدّولة الظّالمة، ولـو كانت مؤمنة»(٢).

وعليه؛ فـإن من أهم آثار الاهتـداء بالقرآن الكريم: «العـدل والإنصاف» بيـن النـاس، فالهدايـة القرآنيـة إذا تحققـت في المؤمـن تحقق لديـه «العدل والإنصـاف»؛ لأن القـرآن الكريـم نظـام حياة متكامـل، من اهتـدي به هدي إلـىٰ أقوم الطـرق وأعدلها وأصوبهـا، في كافة شـؤون الحياة، فالقـرآن الكريم كمـا أخـبر الله تعالـىٰ عنـه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الإسراء:٩-١٠]، فـلفظ: ﴿أَقْوَمُ﴾ عام، يشـمل الهداية إلىٰ كل خير في الدنيـا والآخرة، ومـن أهمها العـدل في التعامل مع الآخرين؛ لأن الإسـلام

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، برقم: (١٨٢٧).

(٢) مجمـوع الفتاوىٰ (٢٨/ ٦٣،٦٢). وينظر: التمسـك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسـلمين (٢/ ٥٣٢، ٥٣٣).

مبني على «العدل والإنصاف»، والقرآن الكريم أنزله الله تعالى لإقامة العدل بين الناس في الأرض.

وإن المتأمل للآية الكريمة، يجد أنها وصفت القرآن الكريم **بثلاث صفات**:

الصفة الأولى: الهداية للتي هي أقوم، أي: «أسد وأعدل وأصوب»[١]، وهو دين الإسلام.

الصفة الثانية: البشارة للذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير، والثواب الجزيل «وذلك لأن الصفة الأولى لما دلت على كون القرآن هاديًا إلى الاعتقاد الأصوب، والعمل الأصلح، وجب أن يظهر لهذا الصواب والصلاح أثر، وذلك هو الأجر الكبير؛ لأن الطريق الأقوم لا بد وأن يفيد الربح الأكبر والنفع الأعظم»[٢].

الصفة الثالثة: العذاب الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة»، وذلك لأن الاعتقاد الأصوب والعمل الأصلح، كما يوجب لفاعله النفع الأكمل الأعظم، فكذلك تركه يوجب لتاركه الضرر الأعظم الأكمل»[٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٢٤). وينظر: زاد المسير (٣/ ١٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠٣).

(٣) المصدر السابق.

المطلب الثالث

الوحدة والاتفاق

من أهم المبادئ التي دعا إليها الإسلام، وأمر بها الله تعالىٰ في القرآن، وحث عليها رسول الأنام: الوحدة بين المسلمين، وعدم التنازع والاختلاف بينهم، يقول الله سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران:١٠٣]، ويقول تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٠٥].

والاعتصام وعدم التفرق، مما يرضاه الله تعالىٰ لعباده، كما أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا، فيرضىٰ لكم: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(١).

والنصوص في هذا الباب كثيرة وعديدة، والتي تؤكد في مجموعها أن من الآثار الهامة المترتبة علىٰ الهداية القرآنية: الوحدة والاتفاق بين المسلمين، فالمجتمع المسلم إذا تحققت لدىٰ أفراده الهداية القرآنية كان مجتمعًا موحَّدًا متفقًا بعيدًا عن التفرق والشتات؛ لأن القرآن في آياته العديدة ونصوصه الكثيرة يدعو إلىٰ التفرق، ويحذر من الاختلاف، كما تقدمت

(١) في كتاب الحدود، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة..، برقم: (١٧١٥).

الإشارة إلىٰ شيء من ذلك، فالله تعالىٰ يأمر عباده إلىٰ ما «فيه صلاح أنفسهم لأخراهم، بما فيه صلاح حالهم في دنياهم، وذلك بالاجتماع علىٰ هذا الدين، وعدم التفرق، ليكتسبوا باتحادهم قوة ونماء»[١].

والنبي الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما هاجر إلىٰ المدينة النبوية كان من أهم المبادئ والأسس التي بنىٰ عليها المجتمع المدني: الوحدة والاتفاق، والعمل علىٰ اجتماع كلمة المسلمين، وذلك عن طريق الإخاء بين المهاجرين والأنصار[٢]، وبث روح الألفة والمودة والمحبة والتسامح بين كافة المسلمين[٣]، هذه الأخوة والمحبة التي أثمرت فيما بعد مجتمعًا

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٣٢).

(٢) المراد بهذا الإخاء هو الإخاء الخاص، وهو ما وقع في المدينة النبوية من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، علىٰ المشهور مما ذكره أهل التأريخ والسير، وأما الإخاء العام بين المسلمين فهذا أحد مبادئ الدين الإسلامي كما وردت النصوص الكثيرة من القرآن والسنة في بيانها، والتأكيد عليها، وبيان أهميتها، ومن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال:٦٣].
ينظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ١٠٨-١١٠)، والسيرة النبوية، لابن كثير (٢/ ٣٢٧، ٣٢٨)، وزاد المعاد (٣/ ٥٦-٥٨).

(٣) العديد من النصوص في القرآن والسنة جاءت في هذا الشأن، ومن ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم علىٰ بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوىٰ هاهنا».=

= أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، برقم: (٢٥٦٤).

مسلمًا متآلفًا قويًّا متماسك الأركان، لا تهزه رياح الفتن، ولا تثيره أمواج الإحن.

فالأمة التي توفق لهداية القرآن الكريم أمة خير وبر وصلاح، إن تمثلت به الأمة صلح حالها، وارتقت إلىٰ قمة الهرم في مقاييس الأمم، كما كان مجتمع أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين اهتدوا بالقرآن، وتمثلوا سلوكه، وساروا علىٰ نهجه، فالقرآن لا يهدي إلا لأحسن الأخلاق وأقومها، وأفضل الخلال وأحسنها، فمن وفقه الله تعالىٰ للهداية القرآنية كان موفقًا مسددًا في أقواله وأفعاله، فلا يقول إلا حسنًا، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[البقرة:٨٣]، ولا يعمل إلا حقًّا، يطابق قوله فعله، وفعله قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢، ٣].

إن التفرق والاختلاف مضاره عديدة، ومصائبه وخيمة، فإذا حل

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ترىٰ المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكىٰ عضوا تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ».

أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، برقم: (٦٠١١)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم: (٢٥٨٦).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، برقم: (١٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، برقم: (٤٥).

وأمثال هذه النصوص في القرآن والسنة كثيرة. ينظر: مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٤١٩).

التفرق أدىٰ ذلك إلىٰ تفرق الأمة وفشلها، وذهاب هيبتها وقوتها، وتغلب الأعداء عليها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾[الأنفال:٤٦].

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«فإن في اجتماع المسلمين علىٰ دينهم، وائتلاف قلوبهم، يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف علىٰ الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم، وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعىٰ في شهوة نفسه، ولو أدىٰ إلىٰ الضرر العام»[1].

وقد أشار الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ هذا الداء وطريقة الخروج منه من خلال الاهتداء بالقرآن الكريم، وذلك في معرض حديثه عن الاهتداء بالقرآن الكريم في تفسير قوله تعالىٰ:﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«المشكلة الثالثة: هي اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء علىٰ كيان الأمة الإسلامية؛ لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدولة.. فترىٰ المجتمع الإسلامي اليوم في أقطار الدنيا يضمر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء، وإن جامل بعضهم بعضًا فإنه لا يخفىٰ علىٰ أحد أنها مجاملة، وأن ما تنطوي عليه الضمائر مخالف لذلك.

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٤١).

وقد بيّن تعالىٰ في سورة الحشر أن سبب اختلاف القلوب: ضعف العقول، كما قال تعالىٰ: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[الحشر:١٤]، ولا شك أن داء ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي؛ لأن نور الوحي يحيا به من كان ميتًا، ويضيء الطريق للمتمسك به، فيريه الحق حقًّا، والباطل باطلًا، والنافع نافعًا، والضار ضارًّا، قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة:٢٥٧]، ومن أخرج من الظلمات إلىٰ النور أبصر الحق؛ لأن ذلك النور يكشف له عن الحقائق فيريه الحق حقًا والباطل باطلًا..»[(١)].

وللضرر الكبير الذي يوقعه الاختلاف علىٰ أمة الإسلام أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتل كل من تسوّل له نفسه تفريق هذه الأمة، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن عرفجة بن شريح الأشجعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إنها ستكون هَنَات وهَنَاتٌ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميعٌ، فاضربوه بالسيف كائنًا من كان»[(٢)].

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٤،٥٣).

(٢) في كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، برقم: (١٨٥٢).

المطلب الرابع
التمكين في الأرض

خلق الله تعالىٰ الإنسان، وأراد له الخلافة في الأرض، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠]، أي: «قومًا يخلف بعضهم بعضًا، قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل»[(١)]، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[فاطر:٣٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام:١٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[النمل:٦٢]، ونحوها من الآيات.

ثم خص الله تعالىٰ طائفة من الناس فمكن لهم في الأرض بمشيئته وإرادته سبحانه، وفق شروط وضوابط معينة أخبر عنها القرآن في آيات عديدة من كتابه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾[النور:٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[الحج:٤١]، وقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[الأعراف:١٣٧].. ونحوها من الآيات.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٢٤).

وهذا الوعد عام «لكل من اتصف بهذا الوصف، فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله كما وعد، وقد اتصف بعدهم به قومٌ بحسب إيمانهم وعملهم الصالح، فمن كان أكملَ إيمانًا وعمل صالحًا كان استخلافه المذكور أتم، فإن كان فيه نقص وخلل كان في تمكينه خلل ونقص، وذلك أن هذا جزاء هذا العلم، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء»[١].

وهو وعد «مسطور في الكتب الشرعية والقدرية، وهو كائن لا محالة»[٢]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥].

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذه من أوعاد الله الصادقة، التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعدَ من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة؛ لفضلها وشرفها، ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، ليكون غيرهم من أهل الأديان، وسائر الكفار، مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذىٰ كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جدًّا بالنسبة إلىٰ غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل.

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (١٨/ ٣٠٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٧).

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا، ولا يخافون أحدا إلا الله، فقام صدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون علىٰ غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام، والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلىٰ قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان، والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويديلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح»(١).

وإن المتأمل لحال الرعيل الأول، من سلف هذه الأمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من الصحابة والتابعين، الذين قرأوا القرآن، فآمنوا بآياته، واهتدوا بهديه، انقلب حالهم إلىٰ أحسن حال، فأصبحوا سادة بعد أن كانوا مسودين، وصاروا قادة بعد أن كانوا مستعبدين، فتح الله تعالىٰ عليهم البلاد، وقهر لهم العباد، فتهاوت العروش تحت أقدامهم، ودانت لهم الدنيا في فترة وجيزة من الزمان، وصدق الله العلي العظيم إذ يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: ٢٦](٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٧٣).

(٢) ينظر: التمسك بالقرآن الكريم (٢/ ٥٣١).

فالأمــة التي تريد التمكين والاســتخلاف في الأرض لا بــد لها من العودة لكتــاب الله تعالــىٰ فتهتــدي به، وتســلك ســبيله، كما كان ســلف هــذه الأمة رضوان الله تعالــىٰ عليهم.

المطلب الخامس

الأمان والطمأنينة

الأمن والأمان، والعيش بطمأنينة وسلام مطلب مهم لكل فرد على وجه الأرض، فكل إنسان يبحث عن الأمن والطمأنينة، إلا أن الأمن الحقيقي، والأمان المطلق، والطمأنينة التامة، لا تتحقق حقيقة إلا لمن آمن بالله تعالى، واتبع هداه، واهتدى بآياته وكلامه، وصدَّق رسوله ومصطفاه، وقد بين الله تعالى هذا الأمر في آيات عديدة من كتابه، كما قال سبحانه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة:٣٨]، ففي قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ نفي لجنس الخوف، وهذا يشمل نفي الخوف في الدنيا والآخرة[١]، أي: لا خوف عليهم مما يعتري غيرهم ممن اتبع هواه من وساوس إبليس وأعوانه، ولا مما يتبع ذلك من الشقاء والخسران الأكبر يوم القيامة.

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا حصل ضدهما، وهو: الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه حصل له الأمن، والسعادة الدنيوية والأخروية، وانتفى عنه كل مكروه من

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٤٤٤).

الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب..»[١].

وقال تعالىٰ عن المؤمنين الصادقين العاملين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾[النور:٥٥]، أي: أن من آمن بالله تعالىٰ، وعمل الصالحات أذهب الله تعالىٰ عنه الخوف، وأبدله بالأمن والطمأنينة[٢].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[الأنعام:٨٢] ما يدل علىٰ أن الأمن التام، والاهتداء المطلق، إنما هما لمن لم يلبِس إيمانه بشرك[٣]، وفي المراد من الأمن في الآية.

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: «الأمن من المخاوف، والعذاب، والشقاء، والهداية إلىٰ الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا، لا بشرك ولا بمعاص، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها..»[٤].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٠).

(٢) ينظر: معاني القرآن، للفراء (٢/ ٢٥٩).

(٣) أضواء البيان (١/ ٢٤٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٦٣).

المطلب السادس

السعادة الحقيقية

جميع الناس يبحث عن السعادة، ويحاول الوصول إلىٰ تحقيقها في حياته، مع تفاوت مشاربهم، واختلاف مناهلهم، فبعضهم يبحث عنها في المال، وبعضهم في الجاه، وبعضهم في المنصب، وبعضهم يبحث عنها في كثرة الولد والذرية.. وهكذا، كل يبحث عنها فيما يعتقد ويظن أنها مسلكها وطريقها، وكل ما تقدم ذكره، قد يكون مصدر سعادة ولا شك، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[آل عمران:١٤]، إلا أنها سعادة مؤقتة، تزول بزوالها، وتنتهي بانتهاء نشوتها، أو قد يأتي ما يكدرها في ثناياها، فيحصل له الشقاء والتعاسة.

لذا كانت السعادة الحقيقية في كتاب الله تعالىٰ، والاهتداء بهديه، واتباع آياته، فالقرآن الكريم تضمن كل خير وبر، من اتبعه واهتدىٰ بهديه، اكتسب السعادة الحقيقية، التي لا شقاء معها ولا ضلال، ومن أعرض عنه شقي وضل، وعاش عيشة ضنكًا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه:١٢٣-١٢٤]، لأنه وصل إلىٰ المقصود الأعظم: تقوىٰ الله تعالىٰ، وخشيته في السر والعلن، فإذا حصل ذلك تحققت السعادة الحقيقية في قلبه، واطمأن فؤاده «فخشية الله، والتقوىٰ، توأمان، لا يصل الإنسان إلىٰ السعادة إلا بهما، فلولا التقوىٰ والخشية من الله؛ لاسترسل الإنسان في شروره، وانكب علىٰ شهواته، وأضاع

حياته، فخشية الله المقرونة بالتقوىٰ، تربي الضمير الإنساني، وتجعله متحليًا بالأخلاق الفاضلة، كريمًا، شجاعًا، بعيدًا عن الرذائل، يحافظ علىٰ حق الله وحق عباده.. وفي أمثال العرب: السعيد من اتقىٰ الله»[١].

يقول الشاعر[٢]:

ولستُ أرىٰ السعادةَ جمعَ مالٍ ... وتقوىٰ الله خيرُ الزادِ ذُخرًا
وما لا بدَّ أن يأتيَ قريبٌ ... ولكنّ التقيَّ هو السعيدُ
وعند اللهِ للأتقىٰ مزيدٌ ... ولكنَّ الذي يَمْضي بعيدُ

فإذا تحققت التقوىٰ في نفس المسلم، تحققت له السعادة الحقيقة، في الدنيا قبل الأخرىٰ، فالله تعالىٰ وصف التقوىٰ «بأنها صيانة النفس عن كل ما يضر ويؤذي، والابتعاد عن كل ما يحول بين الإنسان والغايات النبيلة، التي بها كماله في جسمه وروحه»[٣].

وقد وعد الله سبحانه من اتقاه بوعود كثيرة، تحقق له هذه السعادة المرجوة، ومن هذه الوعود:

• البشارة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ

(١) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للقاضي حسين المهدي (٢/ ٦٧،٧٧).

(٢) هو: جرول بن أوس بن مالك العبسي، المعروف بالحُطَيْئَة، المتوفىٰ: (٤٥هـ). وينظر: الأمالي، لأبي علي القالي (٢/ ٢٠٢)، ولباب الآداب، لأبي المظفر الكناني (ص: ٢٢).

(٣) صيد الأفكار (٢/ ٧٨).

ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[يونس: ٦٢ - ٦٤].

- معية الله تعالىٰ، قال سبحانه:﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨]، ومن كان الله معه، فقد ربح الدنيا والأخرىٰ.
- تكفير السيئات، وإعظام الأجور، قال الله تعالىٰ:﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾[الطلاق:٥].
- تقبل الأعمال، وضمان دخول الجنان بإذن الواحد الديان، قال تعالىٰ:﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة:٢٧]، وقد روي عن ابن عمر أو غيره من الصحابة رضوان الله عليهم:«لو أعلم أن الله يتقبل مني سجدة واحدة، لم يكن غائبٌ، أحب إلي من الموت»[(١)].

وعن فضالة بن عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «لأن أكون أعلم أن الله قد تقبل مني مثقال حبة من خردل، أحب إليّ من الدنيا وما فيها؛ لأن الله يقول:﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾»[(٢)].

والجنة وعد الله تعالىٰ بها عباده المتقين، قال سبحانه:﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ:﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[مريم:٦٣]، وقال تعالىٰ:﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[مريم:٧٢].

---

(١) المنار المنيف، لابن القيم (ص: ٣٢).

(٢) لطائف المعارف (ص: ٢٠٩).

• الحصن من الشيطان، والحرز من مكائده، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف:٢٠١].

• الحفظ من الأعداء، والنجاة من كيدهم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران:١٢٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾[النحل:١٢٨].

• نيله رحمة الله، وفوزه بنوره سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[الأعراف:١٥٦]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحديد:٢٨].

• حلول البركات، وفتح أبواب السموات، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف:٩٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾[الطلاق:٢، ٣].

• المخرج من المآزق، والكشف عن الهموم والغموم، والتيسير في كل الأمور، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا .. وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[الطلاق:٢-٤].

كل هـذه الوعـود وغيرها لمن اتقىٰ الله تعالىٰ لا شـك تحقق له السـعادة الحقيقيـة في الدنيـا، ثـم الوصول إلـىٰ السـعادة الدائمـة الأبدية يـوم القيامة بتكفير سـيئاته، وإعظام أجـره، ودخول جنته بـإذن الله سـبحانه، اللهم اجعلنا ممـن اتقاك، واتبـع رضاك يـا رب العالمين.

الخاتمة

الخاتمة

النتائج والتوصيات

بعد هذه الدراسة العلمية نصل بهذا البحث إلىٰ خاتمته التي تضمنت أهم النتائج والتوصيات، التي ألخصها في الآتي:

أولًا: النتائج:

١- جاءت كلمة «الهدىٰ» في القرآن الكريم بمعانٍ تتوافق مع اللغة وتزيد عليها، تتوافق معها في الدلالة والإرشاد إلىٰ المطلوب، والتي منها: **البيان، والمعرفة، والتعليم، والاستبصار، والدعوة، والسنة**، وهذه كلها من العبد، وهي وسائل للإرشاد العام، وأضاف القرآن علىٰ معنىٰ الهداية في اللغة: **الإلهام، والتوفيق، والثبات والزيادة**، وهذه كلها من الله تعالىٰ، وهي الدلالة الموصلة للمطلوب.

٢- «الهدايات القرآنية» في الاصطلاح هي: **الدلالة المبينة لإرشادات القرآن الكريم التي توصل لكل خير، وتمنع من كلِّ شر.**

٣- أنّ علم التفسير يهتم ببيان المعاني في الغالب، بينما «علم الهدايات» يهتم بما **تهدي وترشد وتدل عليه تلك المعاني**، فالتفسير بيان، والهدايات **دلالات وإرشادات**، يخلص إليها بعد معرفة معاني الآية، وعلم التفسير هو الأصل لعلم الهدايات.

٤- علم «الهدايات القرآنية» يتجه نحو **توظيف المعاني الظاهرة والخفية في الدلالات والإرشادات**، بينما اتجاه علم الاستنباط نحو المعاني الخفية والدقيقة التي تضمنتها الآية، والعلاقة بينهما علاقة الوسيلة بالمقصد، والجزء بالكل.

٥- علماء التفسير يعبرون عن «الهدايات» بإطلاقات متنوعة، وبعد التتبع وجدناها تدور حول سبعة ألفاظ وهي: **الدلالة، والإرشاد، والفائدة، والبيان، والإشارة، والفهم، الأخذ**، وهنالك ألفاظ أخرىٰ لم يكثر استعمالهم لها .

٦- تظهر أهمية «الهدايات القرآنية» من حيث موضوعها الذي هو **كلام رب العالمين**، ومن حيث عظيم صفاتها فهي **نور وهدىٰ، وشفاء ورحمة**، ومن حيث هدفها الجليل المتمثل في **إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، وإرشادهم إلىٰ ما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة**، ومن حيث شدة الحاجة إليها، لا سيما في عصر تعقدت مشكلاته، الاجتماعية، والنفسية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها، ومن حيث أثرها البليغ؛ لأنها تبلغ كل **كمال وسعادة، وتصون عن كل فساد وانحراف.**

٧- أبرز خصائص «الهدايات القرآنية»: أنها **ربانية المصدر والغاية**، وأنها تمثل **المقصد الأول للقرآن الكريم**، وأنها **عامة وشاملة**، وأنها **كاملة وتامة**، وأنها غاية في **الوضوح واليسر**، وأنها **خالدة ومتجددة**، وأنها في **أعلىٰ درجات المثالية والواقعية.**

٨- تنقسم «الهدايات القرآنية» إلىٰ **أربعة أنواع**، وهي: **الهداية العامة**، ويطلق عليها بعض العلماء **هداية الفطرة**، والنوع الثاني: **هداية البيان والدلالة**، ويطلق عليها العلماء **هداية التعليم، وهداية الإرشاد، وهداية الدعوة**، وهي **النوع الوحيد** الذي له تعلق بالعبد، والنوع الثالث: **هداية التوفيق والإلهام**، يطلق عليها العلماء **هداية التأييد**، وهي تكون بجعل الهدىٰ في القلب، الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالىٰ، والنوع الرابع: **الهداية في الآخرة**، و يطلق عليه العلماء **الهداية إلىٰ الجنة والنار**، وهي **ثمرة ونتيجة** تحقق الهداية ومحصلتها في الدنيا.

٩- تنقسم مجالات «الهدايات القرآنية» إلىٰ **قسمين: مجالات متفق عليها**، وهي أربعة مجالات: **العقيدة، والعبادة، والأخلاق والآداب، والمعاملات**، **ومجالات مختلف فيها**، وهي **المجالات العلمية**، وأن أعظم المجالات وأنفعها هو **مجال العقيدة**؛ إذ بها صلاح الدين والدنيا والآخرة.

١٠- حال الناس من «الهدايات القرآنية» انقسم في الجملة إلىٰ **قسمين: معرضون عنها**؛ وهؤلاء هم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وصدفوا عنها، **ومقبلون عليها**؛ وهؤلاء الذين آمنوا بها، ولكنهم في اتباعها تفاوتت مراتبهم ودرجاتهم.

١١- «الأسلوب القرآني» هو: **طريقة القرآن الكريم في اختيار الألفاظ، وتأليف الكلام، والدلالة علىٰ المعاني**، فهي القوالب التي تصاغ فيها المعاني وتعرض بها الهدايات، في حين أن الوسائل هي الطرق التي جاء بها القرآن لتحقيق الهدايات، ومتىٰ سلكها الإنسان كانت سببًا في إيصاله إلىٰ الهداية بأنواعها -بتوفيق الله تعالىٰ-.

١٢- **الأساليب** التي استخدمها القرآن في عرض هداياته كثيرة منها: **الاستفهام، والتوكيد، والتكرار، والطباق والمقابلة، والالتفات، والحوار، والأمثال، والأخبار والقصص، وأسلوب التحدي والتعجيز، والترغيب والترهيب، والتقديم والتأخير**، وغيرها من أساليب لها حضورها المتنوع والمتميز في القرآن الكريم.

١٣- **وسائل القرآن** في عرض هداياته كثيرة منها: **الاستدلالات العقلية، وإنكار التقليد والتحذير منه، والأمر بتدبر القرآن، والحث علىٰ العمل بالقرآن، واتخاذ القدوات، والإشادة بهم، والأمر باتباعهم، والأمر بسؤال الهداية، والتذكير بأصل الخلقة، مع الأمر بالتفكر** في أصل الخلق وعظمته، والإتقان في صنعه، والإحكام الدقيق في تسيير حياته.

١٤- **أهم ما يميز** أساليب ووسائل «الهدايات القرآنية»: **كمال الفصاحة التي تعلوها، وغاية البلاغة التي تكسوها، وصدقها، والتنوع في صياغتها ودلالاتها وهداياتها، والشمول**، فهي شاملة لجميع أنواع الأساليب البلاغية، والوسائل العقلية والوعظية والعلمية، **ووضوحها، وبيانها لجميع الناس ممن يفهم لغة العرب، ومخاطبتها للعقل والعاطفة معًا، ودقة اختيار ألفاظه، والعمق في دلالة معانيه، مع التناسب والتناغم بين آياته.**

١٥- هدي السلف في التعامل مع «هدايات القرآن» يتمثل في: **كثرة تلاوة القرآن والاهتمام بحفظه وإدامة النظر فيه، والاهتمام بتعلم أحكامه ومعانيه، والعمل بهدايات القرآن ظاهرًا وباطنًا، وتعليم القرآن ومدارسة هداياته، والتأكيد علىٰ معرفة أحوال النزول، واستحضار هدايات القرآن**

في مختلف المواقف، واجتناب المراء والجدال، والبعد عن تكلف ما لم يؤمروا به تجاه القرآن تأويلًا أو عملًا، والبعد عن الاختلاف في القرآن .

١٦- استخدم العلماء **طرقًا محددة** للوصول إلىٰ «الهدايات القرآنية» منها: الاعتماد علىٰ **دلالات الألفاظ**، والالتفات إلىٰ **تنوع الأساليب**، وتدبرها للوصول للهدايات، والنظر في **الاختلاف**، والتأمل في **مجموع أدلة الكتاب والسنة**، والصدور من **أصول الشريعة**، واستحضار **حكم التشريع وأسراره**، والاستفادة من **أوجه الإعراب**، وفهم الآيات من خلال **أحوال النزول**، والنظر في **المناسبات**، والتأمل في مواضع **اقتران أسماء الله الحسنىٰ**، واستنباط **مقاصد القرآن**، والنظر في **السياق**، والاستفادة من **آثار الصحابة والتابعين**، والتدبر في **قراءة النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصلوات وبعض الأحوال، والنظر في **دلائل الرسم**، وربط الآيات **بالواقع**، وتأمل الآيات من خلال **مكتشفات العلوم الكونية** المطابقة لظواهر القرآن .

١٧- **الوصول لفهم معاني** القرآن الكريم واستخراج هداياته، وضع لها العلماء **أصولًا وقواعد وضوابط محكمة** لابد من الإلمام بها لكلِّ مشتغل بـ«علم الهدايات»، ومن أدرك الأصول والقواعد والضوابط التي وضعها العلماء بأدلتها، ونظر في تطبيقاتهم لها، وتمرس عليها، تكاملت عنده ملكة التفسير، وصار باستطاعته الفهم الصحيح، والاستنباط السليم، والترجيح والاختيار القويم.

١٨- هنالك **أصول عامة مطردة** وضعها العلماء، للتعامل مع القرآن الكريم بمنهجية صحيحة، في فهمه، والاهتداء بهديه، ينبغي تعلمها قبل النظر

في الهدايات القرآنية، وهي لا تدل على الهدايات مباشرة، وإنما هي ضابطة لفهم هدايات الكتاب العزيز، من ذلك: «**العمل بأدلة الكتاب والسنة، ولا يقال بالنسخ إلا بدليل قاطع**»، ومنها: «**القرآن الكريم جعله الله تعالى تبيانًا لكلِّ شيء**»، ومنها: «**القرآن الكريم ليس فيه اختلاف تناقض أو تفاوت**»، وغيرها مما جاء في الدراسة.

١٩- تنقسم **القواعد** التي وضعها العلماء إلى قسمين: **قواعد عامة**، وضعها العلماء في استخراج الهدايات القرآنية، **وقواعد أخرى** تستخدم عند الترجيح والاختيار بين الهدايات التي استخرجها العلماء.

٢٠- **القواعد** التي ذكرها العلماء في **الوصول للهداية** كثيرة، من ذلك: «تؤخذ الهداية من كلِّ **قراءة ثابتة عن النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ»، ومنها: «ألفاظ القرآن مشتملة على **جوامع المعاني**»، ومنها: «ينبغي حمل الآية على **أوسع المعاني**»، وغيرها من قواعد.

٢١- **القواعد** التي ذكرها العلماء **للترجيح والاختيار** بين الهدايات كثيرة، من ذلك: « **الهداية التي تؤيدها آية قرآنية أو حديث نبوي مقدم على ما عدم ذلك**»، ومنها: «**إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما، إلّا بدليل يجب التسليم له**»، ومنها: «**القول بالتأسيس أولى من القول بالتأكيد**»، وغيرها من قواعد.

٢٢- أبرز الضوابط التي وضعها العلماء في التعامل مع «الهدايات القرآنية»: التزام طرق **الفهم الصحيح** للقرآن الكريم، وعدم الخوض فيما **استأثر الله بعلمه**، وعدم الخوض في هدى القرآن **بغير علم**، والالتزام

بضوابط اللغة العربية في فهم المعنىٰ، والالتزام **بفهم المعنىٰ وفق السياق** الذي ورد فيه، وجمع الآيات في الموضوع الواحد و**فهمها مجتمعة**، و أن يجرّد المفسر نفسه **من الهوىٰ**.

٢٣- **سبل تحقيق** «الهدايات القرآنية» كثيرة، من أبرزها: **الإيمان بالله تعالىٰ وتقوىٰ الله والاستجابة لأوامره** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، و**الاستجابة لرسول الله** صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباع هديه، و**اتباع أصحاب النبي** صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و**الدعاء، والتوبة والإنابة** إليه سبحانه، و**تلاوة القرآن الكريم وتدبره**، و**العلم والعمل** به، وغيرها.

٢٤- أبرز **موانع** تحقيق «الهدايات القرآنية»: **الكفر، الظلم، الفسق، العجب بالنفس، الخيانة، حب الدنيا وكراهية الموت، اتباع الهوىٰ**، وغيرها.

٢٥- تحقيق «الهدايات القرآنية» في واقع الأمة تترتب عليه **آثار عظيمة**، منها: **قوام الأمة في جميع شؤون حياتها، الوحدة والاتفاق، الوصول إلىٰ الحق والصواب، الأمان والطمأنينة، الوصول إلىٰ السعادة الحقيقية**.

ثانيًا: التوصيات:

ولما كانت هذه الدراسة تمثل **الجانب النظري** لموسوعة «الهدايات القرآنية» الذي سوف تكتب علىٰ ضوئه **الدراسة التطبيقية**، فإن فريق البحث يوصي بالآتي:

١- إلزام جميع طلاب المشروع بقراءة هذه الدراسة وفهمها بدقة؛ لأن النجاح في تنفيذ المشروع، يتطلب الفهم الجيد لهذه الدراسة.

٢- تحويل بعض المباحث التطبيقية لحقائب تدريبية للطلاب، حتى يسهم في تسهيل وجودة الدراسة التطبيقية.

٣- إفراد موقف كل مفسر من موضوع الهدايات، يسهم في تجلية هذا المشروع في الجوانب التطبيقية.

تمَّ والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات..

في أواخر شهر (محرّم) من عام: (١٤٣٧) هـ، ببلد الله الحرام، مكة المكرمة.

المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الإبانة الكبرىٰ، لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري، المعروف بابن بَطَّة، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، الرياض: دار الراية للنشر والتوزيع.

٣- أبجد العلوم، لأبي الطيب محمد صديق خان الحسيني البخاري القِنَّوجي، الطبعة الأولىٰ، دار ابن حزم، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٤- الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، الشارح: محمد منير بن عبده أغا النقلي الدمشقي الأزهرىٰ، شرحه باسم: «النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية»، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، وطالب عواد، بيروت: دار ابن كثير.

٥- الإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، تحقيق وطبع: مركز الدراسات القرآنية، التابع لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة ١٤٢٦هـ.

٦- أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، لعبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٧- الأحرف السبعة للقرآن، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني، تحقيق: د. عبد المهيمن طحان، مكة المكرمة: مكتبة المنارة، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ.

٨- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لمحمد بن حبان، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٩- أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥هـ.

١٠- أحكام أهل الذمة، لابن القيم الجوزية، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، الدمام: رمادىٰ للنشر، الطبعة الأولىٰ ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١١- الإحكام في أصول الأحكام، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الآفاق الجديدة.

١٢- إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، بيروت: دار المعرفة.

١٣- الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها، لعبد الله بن ضيف الله الرحيلي، مطبعة سفير.

١٤- أخلاق أهل القرآن لأبي بكر محمد بن الحسين الآجُرِّيُّ البغدادي، تحقيق: محمد عمرو عبد اللطيف، بإشراف المكتب السلفي لتحقيق التراث، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٥- آداب البحث والمناظرة، لمحمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: سعود العريفي، دار عالم الفوائد.

١٦- أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، دار مكتبة الحياة ١٩٨٦م.

١٧- الأدب المفرد، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، وعليها تعليقات الألباني، الطبعة الثالثة، بيروت: دار البشائر الإسلامية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٨- الأذكار، لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، بيروت: دار الفكر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٩- الأربعون لأبي العباس الحسن بن سفيان الشيباني الخراساني النسوي، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤هـ.

٢٠- إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، محمد بن محمد العمادي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة.

٢١- إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٢٢- الإرشاد إلىٰ صحيح الاعتقاد والرد علىٰ أهل الشرك والإلحاد، للدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الطبعة الرابعة، الدمام: دار ابن الجوزي ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٣- استخراج الجدل من القرآن، لناصح الدين عبد الرحمن الحنبلي، تحقيق: زاهر بن عواض الألمعي، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

٢٤- الاستذكار، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢١/ ٢٠٠٠م.

٢٥- الاستشفاء بالقرآن الكريم لعلي بن غازي التويجري، بدون معلومات.

٢٦- الاستقامة، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، المدينة المنورة: جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٣هـ.

٢٧- أسرار البلاغة، لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني النحوي، جدة: دار المدني.

٢٨- الأسلوب، لأحمد الشايب، الطبعة الثانية عشر، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ٢٠٠٣م.

٢٩- أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم؛ غرضه - إعرابه، لعبدالكريم محمود يوسف، دمشق: مطبعة الشام، الطبعة الأولىٰ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٣٠- الأشباه والنظائر، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٣١- الأشباه والنظائر لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٣٢- الأَشْبَاهُ والنَّظَائِرُ علىٰ مذهَبِ أَبِي حَنيفةَ النُّعمانِ، لزين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٣٣- الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولىٰ، دبي: مركز جمعة الماجد ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٣٤- الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الجيل ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٣٥- الإصابة في تمييز الصحابة، لأبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلىٰ محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥هـ.

٣٦- أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، لنخبة من العلماء، الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ.

٣٧- أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة، لحمد بن إبراهيم العثمان، بيروت: دار ابن حزم، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٣٨- أصول في التفسير، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، تحقيق: قسم التحقيق بالمكتبة الإسلامية، المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٣٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، بيروت: دار الفكر ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٤٠- إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، لصالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٤١- الاعْتِصَام، لإبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: د. محمد بن عبد الرحمن الشقير، د. سعد بن عبد الله آل حميد، د. هشام بن إسماعيل الصيني الطبعة الأولىٰ، الدمام: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م .

٤٢- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، لعبدالله المصلح، وعبدالجواد الصاوي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٤٣- إعجاز القرآن للباقلاني، لأبي بكر الباقلاني محمد بن الطيب، تحقيق: السيد أحمد صقر، الطبعة الخامسة، القاهرة: دار المعارف ١٩٩٧م.

٤٤- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفىٰ صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، الطبعة الثامنة، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٤٥- إعراب القرآن، لأبي جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢١هـ.

٤٦- إعلام الموقعين عن رب العالمين، المحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

٤٧- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الرياض: مكتبة المعارف.

٤٨- أفلا يتدبرون القرآن، لناصر بن سليمان العمر، الرياض: دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٤٩- اقتضاء العلم العمل، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ.

٥٠- الأمالي = شذور الأمالي = النوادر، لأبي علي القالي، إسماعيل بن القاسم، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، القاهرة: دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م.

٥١- الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، لعبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، الطبعة الأولىٰ، المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٥٢- الأمثال في القرآن، لابن قيم الجوزية، تحقيق: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، طنطا: مكتبة الصحابة، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٥٣- الانتصار للقرآن، للقاضي أبي بكر ابن الطيب الباقلاني، تحقيق: محمد عصام القضاة، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار ابن حزم ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

٥٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الفكر ٢٠٠١م.

٥٥- آيات التحدي في القرآن، لعبد العزيز بن صالح العمار، دار كنوز إشبليا، ١٤٢٩هـ.

٥٦- آيات التقوىٰ في القرآن الكريم، للدكتور/ حسين علي خليف الجبوري، منشور علىٰ الانترنت، علىٰ موقع صيد الفوائد.

٥٧- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر جابر بن موسىٰ الجزائري، الطبعة الخامسة، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٥٨- إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، لصالح بن محمد بن نوح العَمْري المعروف بالفُلَّاني المالكي، بيروت: دار المعرفة.

٥٩- الإيمان، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، عمان: المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٦٠- الإيمان لابن منده لأبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيىٰ بن مَنْدَه العبدي، تحقيق: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

٦١- بحر الدموع، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: جمال محمود مصطفىٰ، بيروت: دار الفجر للتراث، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٦٢- بحر العلوم، لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، المكتبة الشاملة، موافقة للمطبوع.

٦٣- البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معرض، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٦٤- بدائع التفسير الجامع لما فسره ابن قيم الجوزية، جمع: يسري السيد محمد، الدمام: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٧هـ.

٦٥- بدائع الفوائد، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، بيروت: دار الكتاب العربي .

٦٦- البدع والنهي عنها، لأبي عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، الطبعة الأولىٰ، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، القاهرة ١٤١٦هـ.

٦٧- البرهان في أصول الفقه، لعبد الملك بن عبد الله الجويني، أبي المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٦٨- البرهان في تناسب سور القرآن، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، تحقيق: د. سعيد بن جمعة الفلاح، الطبعة الأولىٰ، الدمام: دار الجوزي، ١٤٢٨هـ.

٦٩- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولىٰ، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

٧٠- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت: المكتبة العلمية ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٧١- بصائر في الفتن، لمحمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، الإسكندرية: الدار العالمية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٧٢- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبد المتعال الصعيدي، الطبعة ١٧، القاهرة: مكتبة الآداب، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٧٣- تاج العروس من جواهر القاموس، لأبي الفيض محمد الملقّب بمرتضىٰ الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، بيروت: دار الهداية.

٧٤- التاريخ الكبير، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبي عبد الله، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان.

٧٥- تاريخ بغداد، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٧٦- تاريخ دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٧٧- تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية.

٧٨- التبيان في آداب حملة القرآن، لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، تحقيق: محمد الحجار، الطبعة الثالثة بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٧٩- التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة: عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه.

٨٠- التبيان في أقسام القرآن، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار المعرفة.

٨١- التَّحبير لإيضَاح مَعَاني التَّيسير، لمحمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، المعروف كأسلافه بالأمير، تحقيق: محَمَّد صُبْحي بن حَسَن حَلّاق أبو مصعب، الرياض: مَكتَبَةُ الرُّشد، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٨٢- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع ١٩٩٧م.

٨٣- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لأبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، بيروت: دار الكتب العلمية.

٨٤- تحفة المودود بأحكام المولود، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولىٰ، دمشق: مكتبة دار البيان ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٨٥- تخريج الفروع علىٰ الأصول، لمحمود بن أحمد بن محمود بن بختيار، أبو المناقب شهاب الدين الزَّنْجاني، تحقيق: د. محمد أديب صالح، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

٨٦- التدبر مفتاح العلم وباب العمل، لسعود بن عبد الله الفنيسان، مطبوع ضمن مطبوعات الملتقىٰ العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم بعنوان: مفهوم التدبر تحرير وتأصيل، الرياض: مركز تدبر ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٨٧- ترتيب الأمالي الخميسية للشجري، ليحيىٰ (المرشد بالله) بن الحسين الموفق بن إسماعيل بن زيد الحسني الشجري الجرجاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٨٨- الترغيب والترهيب، لإسماعيل بن محمد بن الفضل الطليحي التيمي الأصبهاني، أبي القاسم، الملقب بقوام السنة، تحقيق: أيمن بن صالح بن شعبان، القاهرة: دار الحديث، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٨٩- التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، الطبعة الأولىٰ، بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ١٤١٦هـ.

٩٠- التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، ليحيىٰ بن سلام بن أبي ثعلبة، تحقيق: هند شلبي، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩م، ونسخة أخرىٰ من إصدار مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي، عمان.

٩١- التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٥هـ.

٩٢- تعليقات أصولية حديثية علىٰ المرشد المعين علىٰ الضروروي من علوم الدين، جمع وترتيب: فرح حسن البوسيفي، المكتبة الشاملة.

٩٣- تعليم تدبر القرآن أساليب عملية ومراحل منهجية، لهاشم الأهدل، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية.

٩٤- تفسير ابن باديس « في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير »، لعبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، تحقيق: أحمد شمس الدين، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٩٥- تفسير ابن عثيمين، لمحمد بن صالح العثيمين، الدمام: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٣هـ.

٩٦- تفسير الإمام ابن عرفة، لمحمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، تحقيق: د. حسن المناعي، الطبعة الأولىٰ، تونس: مركز البحوث بالكلية الزيتونية ١٩٨٦م.

٩٧- تفسير التستري، لأبي محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٣هـ.

٩٨- تفسير الراغب الأصفهاني، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، تحقيق: د. محمد عبد العزيز بسيوني، وبقية الأجزاء، بتحقيق: د. عادل بن علي الشِّدِي، د. هند بنت محمد بن زاهد سردار، مكتبة الشاملة.

٩٩- تفسير السمعاني، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس، الرياض: دار الوطن، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٠٠- تفسير الشعراوي = الخواطر، لمحمد متولي الشعراوي، مصر: مطابع أخبار اليوم.

١٠١- التفسير العلمي للقرآن الكريم، لمحمد بن محمد أبو شهبة، مقال نشر في مجلة رابطة العالم الإسلامي، عدد محرم، الصادر عام ١٣٩٥هـ.

١٠٢- تفسير القرآن العزيز، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسىٰ بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفىٰ الكنز، القاهرة: الفاروق الحديثة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١٠٣- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية، مكة المكرمة: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٠٤- تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولىٰ، لمحمود شلتوت، القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثانية عشر ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

١٠٥- تفسير القرآن الكريم، أصوله وضوابطه، أ.د. علي بن سليمان العبيد، الرياض: مكتبة التوبة، الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ.

١٠٦- التفسير القيم، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار ومكتبة الهلال ١٤١٠هـ.

١٠٧- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي التميمي، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الفكر ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٠٨- تفسير المراغي، لأحمد مصطفىٰ المراغي، الطبعة الأولىٰ، القاهرة: مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

١٠٩- التفسير الوسيط، لوهبة بن مصطفىٰ الزحيلي، دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ.

١١٠- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمحمد سيد طنطاوي، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ.

١١١- التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة الأولىٰ ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، و١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١١٢- تفسير عبد الرزاق، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، تحقيق: د. محمود محمد عبده، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ.

١١٣- تفسير مجاهد، لأبي الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، مصر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، الطبعة الأولىٰ ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

١١٤- التفسير من سنن سعيد بن منصور، لأبي عثمان سعيد بن منصور الجوزجاني، تحقيق: د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، الدمام: دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١١٥- تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، لعبد الحميد الفراهي، الهند: الدائرة الحَمِيدية، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٨م.

١١٦- التلخيص في أصول الفقه، لعبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبي المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، تحقيق: عبد الله جولم النبالي وبشير أحمد العمري، بيروت: دار البشائر الإسلامية.

١١٧- التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلمين، لعبد الله بن عمر محمد الأمين الشنقيطي، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

١١٨- التمهيد لشرح كتاب التوحيد، لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الرياض: دار التوحيد، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١١٩- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: مصطفىٰ بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، المغرب: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٣٨٧هـ.

١٢٠- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ينسب: لعبد الله بن عباس، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، بيروت: دار الكتب العلمية.

١٢١- تهذيب الأسماء واللغات، لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، بيروت: دار الكتب العلمية.

١٢٢- تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبي منصور، تحقيق: محمد عوض مرعب، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار إحياء التراث العربي ٢٠٠١م.

١٢٣- تهذيب سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق وتهذيب: محمد بن حسن الشريف، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الثانية.

١٢٤- التوقيف علىٰ مهمات التعاريف، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، الطبعة الأولىٰ، القاهرة، عالم الكتب ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٢٥- تيسير التحرير، لمحمد أمين بن محمود البخاري المعروف بأمير بادشاه الحنفي، مصر: مصطفىٰ البابي الْحلَبِي ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

١٢٦- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله علىٰ العبيد، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة الأولىٰ، بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١٢٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الطبعة الأولىٰ، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٢٨- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، لأبي عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي، الرياض: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ.

١٢٩- التيسير في القراءات السبع، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبي عمرو الداني، تحقيق: اوتو تريزل، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٣٠- التيسير في قواعد التفسير، لمحي الدين محمد بن سليمان الكافيجي، تحقيق: د. مصطفىٰ محمد حسين الذهبي، الطبعة الأولىٰ، القاهرة: مكتبة القدسي للنشر والتوزيع ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٣١- الجامع، لمعمر بن أبي عمرو راشد نزيل اليمن، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية، باكستان: المجلس العلمي، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ.

١٣٢- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، بتحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولىٰ، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٣٣- الجامع الصحيح المختصر، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، الطبعة الثالثة، تحقيق د. مصطفىٰ ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٣٤- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة ١٤٢٢هـ.

١٣٥- جامع المسائل لابن تيمية، لتقي الدين أبي العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد عزير شمس، بيروت: دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ.

١٣٦- جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الدمام: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م.

١٣٧- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي: تحقيق: هشام سمير البخاري، الرياض: دار عالم الكتب ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٣٨- الجامع لمسائل أصول الفقه وتطبيقاتها علىٰ المذهب الراجح، لعبد الكريم بن علي بن محمد النملة، الرياض: مكتبة الرشد، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٣٩- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، لأحمد بن إبراهيم بن مصطفىٰ الهاشمي، ضبط وتدقيق وتوثيق د. يوسف الصميلي، بيروت: المكتبة العصرية.

١٤٠- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للإمام عبد الرحمن بن محمد مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي، تحقيق: الشيخ علي محمد

معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٤١- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لإسماعيل بن محمد التيمي الأصبهاني، أبي القاسم، الملقب بقوام السنة، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، الرياض: دار الراية، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٤٢- الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

١٤٣- حقيقة الظلم: معناه، أنواعه، صوره، عاقبته، للدكتور عبد العزيز بن فوزان الفوزان، منشور علىٰ الشبكة العنكبوتية في موقع: شبكة النور.

١٤٤- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصبهاني، مصر: السعادة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٤٥- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دمشق: دار القلم.

١٤٦- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: د.عبد الله عبد المحسن التركي، الطبعة الأولىٰ، القاهرة: مركز هجر للبحوث والدراسات ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٤٧- درء تعارض العقل والنقل، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٤٨- دراسة وظيفية لأسلوب التوكيد في القرآن الكريم لعائشة عبيزة، رسالة دكتوراه، من جامعة الحاج لخضر بالجزائر ٢٠٠٨م/ ٢٠٠٩م.

١٤٩- درة التنزيل وغرة التأويل، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الإسكافي الأصبهاني، تحقيق: د. محمد مصطفىٰ آيدين، الطبعة الأولىٰ، مكة المكرمة: من إصدارات معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرىٰ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٥٠- دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي، تحقيق: د. محمد السيد الجليند، دمشق: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

١٥١- دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، جمع وتحقيق: محمد السيد الجليند، دمشق: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٥٢- دلالات التقديم والتأخير في القرآن، لمنير محمود المسيري، القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٥٣- دلائل الإعجاز في علم المعاني لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة، القاهرة: مطبعة المدني ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٥٤- ديـوان لبيد بـن ربيعة العامـري، للَبِيد بـن ربيعة بـن مالك، أبي عقيـل العامري الشـاعر، اعتنىٰ بـه: حمدو طمّـاس، الطبعة الأولـىٰ، بيروت: دار المعرفـة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٥٥- ذم مـن لا يعمـل بعلمـه، لأبي القاسـم علي بن الحسـن بن هبة الله المعروف بابن عسـاكر، تحقيـق: محمد مطيع الحافظ، دمشـق: دار الفكر، الطبعة الأولـىٰ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٥٦- رد المحتـار علـىٰ الـدر المختـار، لمحمـد أميـن بـن عمر بن عبـد العزيز عابديـن الدمشـقي الحنفـي، الطبعة الثانيـة، بيـروت: دار الفكر ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٥٧- الـرد علـىٰ الجهمية، لأبي سـعيد عثمان بن سـعيد بـن خالد بن سـعيد الدارمـي السجسـتاني، تحقيق: بـدر بن عبـد الله البدر، الطبعـة الثانية، الكويـت: دار ابن الأثيـر ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٥٨- الـرد علـىٰ المنطقيين، لتقـي الدين أبـي العباس أحمـد بن عبد الحليـم بـن عبد السـلام ابن تيمية الحـراني الحنبلي الدمشـقي، بيـروت: دار المعرفة.

١٥٩- الرسـالة التبوكيـة = زاد المهاجـر إلـىٰ ربه، لمحمد بـن أبي بكر بن أيوب بن سـعد شـمس الدين ابن قيـم الجوزية، تحقيـق: د. محمد جميل غازي، جدة: مكتبـة المدني.

١٦٠- الرسـالة المفيـدة، لمحمد بـن عبد الوهاب بن سـليمان التميمي النجـدي، تحقيق: محمد بن عبد العزيز المانع، الرياض: رئاسـة إدراة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشـاد.

١٦١- الرسل والرسالات، لعمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي، الطبعة الرابعة، الكويت، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، دار النفائس للنشر والتوزيع،١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

١٦٢- رفع الأعلام على سلم الأخضري، لمحمد محفوظ، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٦٣- روائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي، ترتيب: طارق بن عوض الله بن محمد، طبعة دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٦٤- روح البيان، لإسماعيل حقي بن مصطفىٰ الإستانبولي الحنفي الخلوتي، بيروت: دار الفكر.

١٦٥- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، عني بنشره وتصحيحه المرحوم السيد محمود شكري الألوسي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٦٦- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، بيروت: دار الكتب العلمية الطبعة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٦٧- زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، الطبعة الثالثة، بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٤هـ.

١٦٨- زاد المعاد في هدي خير العباد، لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية أبو عبد الله، الطبعة السابعة والعشرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، الكويت: مكتبة المنار الإسلامي ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٦٩- الزهد، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السّجِسْتاني، تحقيق: أبو تميم ياسر بن ابراهيم بن محمد، وأبو بلال غنيم بن عباس بن غنيم، حلوان: دار المشكاة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٧٠- الزهد، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٧١- الزهد، لأبي مسعود المعافىٰ بن عمران بن نفيل بن جابر الأزدي الموصلي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، تحقيق: الدكتور عامر حسن صبري، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٧٢- الزهد، لوكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الرؤاسي، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، المدينة المنورة: مكتبة الدار، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٧٣- الزهد والرقائق لابن المبارك، لأبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب العلمية.

١٧٤- الزواجر عن اقتراف الكبائر، لأبي العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين، شيخ الإسلام، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٧٥- زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، لعبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الرياض: مكتبة دار القلم والكتاب، الطبعة الأولىٰ ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

١٧٦- سلاح المؤمن في الدعاء والذكر، لمحمد بن محمد بن علي بن همام أبو الفتح، تقيّ الدين، المعروف بابن الإِمَام، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، دمشق: دار ابن كثير، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٧٧- سلسلة الآثار الصحيحة أو الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين، لأبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، راجعه: عبد الله بن صالح العبيلان، دار الفاروق، الطبعة الأولىٰ.

١٧٨- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني ١٤٢٠هـ، الطبعة الأولىٰ، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

١٧٩- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، الرياض: دار المعارف، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٨٠- السنة، لأبي بكر بن أبي عاصم الشيباني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٠هـ.

١٨١- السنة، لأبي عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي، تحقيق: د. محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، الطبعة الأولىٰ، الدمام: دار ابن القيم، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م.

١٨٢- السنن، أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر.

١٨٣- السنن، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر.

١٨٤- السنن، لأبي عيسىٰ محمد بن عيسىٰ الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٨٥- السنن الكبرىٰ، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٨٦- السنن الكبرىٰ، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولىٰ، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م.

١٨٧- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين، إشراف/ شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثالثة، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٨٨- السيرة النبوية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: مصطفىٰ عبد الواحد، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٦م.

١٨٩- السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبي محمد، جمال الدين، تحقيق: مصطفىٰ السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

١٩٠- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، الطبعة الثامنة، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، مكة: دار طيبة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٩١- شرح الأربعين النووية، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الثريا للنشر.

١٩٢- شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، لتقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، مؤسسة الريان، الطبعة السادسة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٩٣- شرح التلويح علىٰ التوضيح، لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، مصر: مكتبة صبيح .

١٩٤- شرح الرضي علىٰ الكافية لابن الحاجب، لرضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي النحوي، تحقيق: يوسف حسن عمر، ليبيا: جامعة قار يونس، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١٩٥- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ « الكاشف عن حقائق السنن »، لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز.

١٩٦- شرح العقيدة الطحاوية، لصدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي، تحقيق: أحمد شاكر، الطبعة الأولى، الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤١٨هـ.

١٩٧- شرح الكوكب المنير، لتقي الدين أبي البقاء محمد بن أحمد الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الطبعة الثانية، الرياض: مكتبة العبيكان ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٩٨- شرح معاني الآثار، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي، تحقيق: محمد زهري النجار ومحمد سيد جاد الحق، مراجعة: د. يوسف عبدالرحمن المرعشلي، بيروت: عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٩٩- الشريعة، لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبدالله الآجُرِّيُّ البغدادي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، الطبعة الثانية، الرياض: دار الوطن١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م.

٢٠٠- شعب الإيمان، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبي بكر البيهقي، تحقيق: د.عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٠١- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: دار المعرفة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٢٠٢- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، الطبعة الرابعة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢٠٣- صَحِيح التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، لمحمد ناصر الدين الألباني، الرياض: مكتَبَة المَعارف لِلنَشرِ والتوزيع، الطبعة: الأولىٰ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٠٤- صحيح الجامع الصغير وزياداته، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي.

٢٠٥- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢٠٦- صفة الفتوىٰ والمفتي والمستفتي، لأبي عبد الله أحمد بن حمدان بن شبيب بن حمدان النميري الحرّاني الحنبلي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الرابعة، بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٤هـ.

٢٠٧- الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الرياض: دار العاصمة، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ.

٢٠٨- صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، لحسين بن محمد المهدي، راجعه: عبد الحميد محمد المهدي ٢٠٠٩م.

٢٠٩- ضعيف الجامع الصغير وزيادته، لمحمد ناصر الدين الألباني، أشرف علىٰ طبعه: زهير الشاويش، بيروت: المكتب الإسلامي.

٢١٠- طبقات الشافعية الكبرىٰ، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الطبعة الثانية، الدمام: هجر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٣هـ.

٢١١- الطبقات الكبرىٰ، لأبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولىٰ ١٩٦٨ م.

٢١٢- الطراز المتضمن لعلوم البلاغة وحقائق الإعجاز، ليحيىٰ بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله، بيروت: المكتبة العنصرية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٣هـ.

٢١٣- طريق الهجرتين وباب السعادتين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، القاهرة: دار السلفية، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ.

٢١٤- عادات القرآن الأسلوبية، لراشد بن حمود الثنيان، دمشق: دار التدمرية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢١٥- العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لعبد الرحمن بن محمد ابن خلدون المغربي، الطبعة الرابعة، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢١٦- العبودية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد زهير الشاويش، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة السابعة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢١٧- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الطبعة الثالثة، دمشق وبيروت: دار ابن كثير ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢١٨- العزف علىٰ أنوار الذكر، معالم الطريق إلىٰ فقه المعنىٰ القرآني في سياق السورة، لمحمود توفيق محمد، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ.

٢١٩- عظمة القرآن وتعظيمه وأثره في النفوس في ضوء الكتاب والسنة؛ مفهوم، وعظمة، وأثر، وتدبر، وفضائل، وعلم، وعمل، وتعاهد، وآداب، وأخلاق، لسعيد بن علي بن وهف القحطاني، الرياض: مطبعة سفير.

٢٢٠- عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، لمحمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، الطبعة الأولىٰ، مكتبة دار الزمان ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢٢١- علم مقاصد السور، لمحمد الربيعة، الطبعة١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢٢٢- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لأبي محمد محمود الغيتابىٰ الحنفي بدر الدين العيني، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢٢٣- عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل، لأبي العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المعروف بابن البناء المراكشي، تحقيق: هند شلبي، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠م.

٢٢٤- العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، بيروت: دار ومكتبة الهلال.

٢٢٥- غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائض الفاضحة، لأبي إسحق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيىٰ بن علي المعروف بالوطواط، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٢٢٦- فتاوىٰ اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، المجموعة الثانية، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، الرياض: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء.

٢٢٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف علىٰ طبعه: محب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

٢٢٨- فتح الرحمن في بيان هجر القرآن، لأبي أنس محمد بن فتحي آل عبد العزيز، وأبي عبد الرحمن محمود بن محمد الملاح، الرياض: دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٢٢٩- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، اعتنىٰ به: يوسف الغوش، الطبعة الرابعة، بيروت: دار المعرفة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٢٣٠- الفرقان في بيان إعجاز القرآن، لأبي محمد عبد الكريم بن صالح بن عبد الكريم الحميد، الطبعة الأولىٰ، الرياض: فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٣١- الفروق أنوار البروق في أنواء الفروق، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي، بيروت: عالم الكتب.

٢٣٢- فضائل الصحابة، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، الطبعة الأولىٰ، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٣٣- فضائل القرآن، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، الطبعة الأولىٰ، دمشق: مكتبة ابن تيمية ١٤١٦هـ.

٢٣٤- فضائل القرآن للقاسم بن سلام، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، الطبعة الأولىٰ، دمشق: دار ابن كثير ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٣٥- الفقيه والمتفقه، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، الدمام، الطبعة الثانية، دار ابن الجوزي ١٤٢١هـ.

٢٣٦- فهم القرآن ومعانيه، للحارث بن أسد المحاسبي، أبي عبد الله، تحقيق: حسين القوتلي، الطبعة الثانية، بيروت: دار الكندي، دار الفكر، ١٣٩٨هـ.

٢٣٧- فيض القدير شرح الجامع الصغير، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، مصر: المكتبة التجارية الكبرىٰ، الطبعة الأولىٰ ١٣٥٦هـ.

٢٣٨- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، عجمان: مكتبة الفرقان، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١هـ.

٢٣٩- قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات لتقي الدين ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٤٠- القاموس المحيط، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الطبعة الثامنة، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٤١- القدوة مبادئ ونماذج، للدكتور صالح بن عبد الله بن حميد، منشور علىٰ موقع وزارة الأوقاف السعودية.

٢٤٢- القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، لمحمد الصادق إبراهيم عرجون، الإمارات: دار القلم، الطبعة الثانية ١٩٨٩م.

٢٤٣- القصة في القرآن، لمريم السباعي، رسالة دكتوراه قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرىٰ ١٤٠٤هـ.

٢٤٤- قواعد الترجيح، لحسين الحربي، الطبعة الأولىٰ، الرياض: دار القاسم، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢٤٥- القواعد الحسان لتفسير القرآن، لأبي عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، الطبعة الأولىٰ، الرياض: مكتبة الرشد ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٤٦- قواعد الفقه، لأبي عبد الله محمد بن أحمد المقري، تحقيق: محمد الدردابي، الرباط: مكتبة دار الأمان ٢٠١٢م.

٢٤٧- الكافية في الجدل، لأبي المعالي الجويني، تحقيق: فوقية حسين محمود، القاهرة: مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢٤٨- الكبائر؛ لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، بيروت: دار الندوة.

٢٤٩- كتاب العلم، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، تحقيق: صلاح الدين محمود، مكتبة نور الهدىٰ.

٢٥٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، الطبعة الأولىٰ، الرياض: مكتبة العبيكان ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٢٥١- كشف الخفاء ومزيل الإلباس، لإسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبي الفداء، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، بيروت: المكتبة العصرية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٥٢- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأيوب بن موسىٰ الحسيني القريمي الكفوي، أبي البقاء الحنفي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري بيروت: مؤسسة الرسالة.

٢٥٣- لباب الآداب، لأبي المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد ابن منقذ الكناني الكلبي الشيزري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: مكتبة السنة، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢٥٤- اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الطبعة الأولىٰ، بيروت، دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢٥٥- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، تحقيق: نخبة من الأساتذة العاملين بدار المعارف، الطبعة الأولىٰ، القاهرة: دار المعارف.

٢٥٦- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٢٥٧- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين، أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، الطبعة الثانية، دمشق: مؤسسة الخافقين ومكتبتها ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢٥٨- مباحث في التفسير الموضوعي، للدكتور/ مصطفىٰ مسلم، الطبعة الثالثة، دمشق: دار القلم ١٤٢١هـ/ ٢٠٠م.

٢٥٩- المبسوط في القراءات العشر، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوريّ، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، دمشق: مجمع اللغة العربية ١٩٨١م.

٢٦٠- متن القصيدة النونية لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.

٢٦١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٦٢- مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الرابع- السنة الثانية - ذو الحجة ١٤٢٨هـ.

٢٦٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين أبو الحسين علي بن أبي بكر الهيثمي، بيروت: دار الفكر، ١٤١٢هـ.

٤٦٢- مجموع الفتاوىٰ، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٢٦٥- المجموع شرح المهذب، لأبي زكريا يحيىٰ ابن شرف النووي، بيروت: دار الفكر.

٢٦٦- مجموع فتاوىٰ العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله، لعبد العزيز بن عبد الله بن باز، أشرف علىٰ جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

٢٦٧- محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي، الطبعة الأولىٰ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

٢٦٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٦٩- المحصول، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، دراسة وتحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٧٠- المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٧١- المحيط في اللغة، لإسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد.

٢٧٢- مختار الصحاح، لزين الدين محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٧٣- مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، اختصره:

محمد بن محمد بن عبد الكريم شمس الدين، ابن الموصلي، تحقيق: سيد إبراهيم، القاهرة: دار الحديث، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٧٤- مُختَصَرُ مِنهَاجِ القَاصِدِين، لنجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دمشق: مكتبَة دَار البَيَان، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٢٧٥- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٢٧٦- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الفكر.

٢٧٧- المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبي بكر البيهقي، تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، الكويت: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي.

٢٧٨- المراسيل، لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، تحقيق: شكر الله نعمة الله قوجاني، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ ١٣٩٧هـ.

٢٧٩- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي بن سلطان محمد، أبي الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٨٠- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، وبذيله: التلخيص، للحافظ الذهبي، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٢٨١- المستصفىٰ، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٢٨٢- المسند، لأحمد ابن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الطبعة الثانية، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٨٣- مسند الدارمي المعروف بـ «سنن الدارمي»، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الطبعة الأولىٰ، الرياض: دار المغني للنشر والتوزيع ١٤١٢هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٨٤- مسند الشهاب، لأبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٢٨٥- المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية: مجد الدين عبد السلام ابن تيمية، وعبد الحليم ابن تيمية، وأحمد ابن تيمية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الكتاب العربي.

٢٨٦- مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه، لمحمد بن علي بن آدم بن موسىٰ، الرياض: دار المغني، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٨٧- مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة، بيروت: المكتب الإسلامي ١٩٨٥م.

٢٨٨- مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، لعادل بن محمد أبي العلاء، المدينة المنورة: منشورات الجامعة الإسلامية، العدد ١٢٩، السنة ٣٧/ ١٤٢٥هـ.

٢٨٩- مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم عمر البقاعي، تحقيق: د. عبد السميع محمد أحمد حسنين، الطبعة الأولىٰ، الرياض: مكتبة المعارف ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٢٩٠- المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية، الهند: المجلس العلمي ١٤٠٣هـ.

٢٩١- المصنف، لأبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولىٰ، الرياض: مكتبة الراشد ١٤٠٩هـ.

٢٩٢- مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية، لأبي الفيض أحمد بن محمد الصديق الغماري، دمشق: دار الألباب، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٩م.

٢٩٣- معالم التنزيل، لمحيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية،

سليمان الحرش، الطبعة الرابعة، مكة المكرمة: دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٢٩٤- معانى القرآن للأخفش، لأبي الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط، تحقيق: د.هدىٰ محمود قراعة، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الأولىٰ ١٤١١ هـ/ ١٩٩٠م.

٢٩٥- معاني القرآن، لأبي زكريا يحيىٰ بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي/ محمد علي النجار/ عبد الفتاح الشلبي، مصر: دار المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولىٰ.

٢٩٦- معاني القرآن وإعرابه، لإبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، الطبعة الأولىٰ، بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٩٧- المعجزة الكبرىٰ «القرآن»، لمحمد بن أحمد بن مصطفىٰ بن أحمد المعروف بأبي زهرة، بيروت: دار الفكر العربي.

٢٩٨- المعجم الأوسط، لسليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق عوض الله وعبد المحسن الحسيني، القاهرة: دار الحرمين ١٤١٥هـ.

٢٩٩- المعجم الصغير للطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٥ - ١٩٨٥م.

٣٠٠- المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، الموصل: مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٣٠١- المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفىٰ، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، بيروت: دار الدعوة.

٣٠٢- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٣٠٣- المعرفة والتاريخ، لأبي يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، تحقيق: أكرم ضياء العمري، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٣٠٤- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، لأبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، بيروت: دار ابن حزم، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٣٠٥- مفاتيح تدبر القرآن، لخالد بن عبد الكريم اللاحم، موقع المسلم، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٣٠٦- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، بيروت: دار الكتب العلمية.

٣٠٧- مفردات القرآن نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، لعبد الحميد الفراهي، تحقيق: د.محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الطبعة الأولىٰ، بيروت: دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٢م.

٣٠٨- المفردات في غريب القرآن، للحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة.

٣٠٩- المفصل في صنعة الإعراب، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق: د. علي بو ملحم، بيروت: مكتبة الهلال، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

٣١٠- مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، لمساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، الرياض: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

٣١١- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبي جعفر، تحقيق: عبد الغني محمد علي الفاسي، بيروت: دار الكتب العلمية.

٣١٢- المنار المنيف في الصحيح والضعيف، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٣١٣- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، الطبعة الثالثة، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣١٤- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني، تحقيق: الحبيب ابن الخوجة، تونس: الدار العربية للكتاب ٢٠٠٨م.

٣١٥- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد رشاد سالم، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٣١٦- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

٣١٧- منهج الجدل والمناظرة، لعثمان علي حسن، الطبعة الأولىٰ، دار إشبيليا، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٣١٨- المنيحة بسلسلة الأحاديث الصحيحة، لأبي إسحاق الحويني الأثري حجازي محمد شريف، تصنيف وانتقاء: أبي عمرو أحمد بن عطية الوكيل، مصر: مكتبة دار ابن عباس للنشر والتوزيع.

٣١٩- موارد الظمآن لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان، لعبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان، الطبعة الثلاثون ١٤٢٤هـ.

٣٢٠- الموافقات، لإبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الطبعة الأولىٰ، دار ابن عفان ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣٢١- مَوسوعَةُ الأَخلَاقِ، لخالد بن جمعة بن عثمان الخراز، الكويت: مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٣٢٢- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، لمحمد بن علي ابن القاضي محمد الفاروقي الحنفي التهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، الطبعة الأولىٰ، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ١٩٩٦م.

٣٢٣- الموطأ، لمالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٣٢٤- موقع البوابة علىٰ الشبكة العنكبوتية.

٣٢٥- الموقع الرسمي للشيخ/ عبدالعزيز بن باز، علىٰ الشبكة العنكبوتية:

٣٢٦- موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات، بحث محكم بكلية أصول الدين جامعة الأزهر ١٤٢٥هـ، لأحمد بن محمد الشرقاوي سالم.

٣٢٧- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة الأولىٰ ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م.

٣٢٨- الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد، الكويت: مكتبة الفلاح، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ.

٣٢٩- الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم الهروي البغدادي، تحقيق: محمد بن صالح المديفر، الرياض: مكتبة الرشد، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٣٣٠- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، لمحمد بن عبد الله دراز، اعتنىٰ به: أحمد مصطفىٰ فضلية، دمشق: دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٣٣١- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، الطبعة الثالثة، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٣٢- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، لعدد من المختصين، بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد، جدة: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة.

٣٣٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: مجموعة من العلماء بدائرة المعارف العثمانية، القاهرة: ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٣٣٤- النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، بيروت: المكتبة العلمية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٣٥- هجر القرآن العظيم أنواعه وأحكامه، لمحمود أحمد الدوسري، الدمام: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٣٣٦- الهداية إلىٰ بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيرواني الأندلسي القرطبي المالكي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٣٣٧- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، تقديم وتحقيق: عربي عبد الحميد علي، بيروت: دار الكتب العلمية.

٣٣٨- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة الأولىٰ، بيروت: الدار الشامية، ١٤١٥هـ.

٣٣٩- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، لمحمد محمود حجازي، القاهرة: دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولىٰ ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٣٤٠- ورتل القرآن ترتيلًا، لأنس كرزون، الرياض: دار ابن حزم ٢٠٠٢م.

٣٤١- الوساطة بين المتنبي وخصومه، لأبي الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مصر: مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه.

٣٤٢- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، وأحمد محمد صيرة، وأحمد عبد الغني الجمل، وعبد الرحمن عويس، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٣٤٣- وقفات مع أحاديث تربية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصحابته، لعبد الرحمن بن عبد الكريم الزيد، ضمن منشورات مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة السادسة والثلاثون، العدد: (١١٢) عام ١٤٢٤هـ.

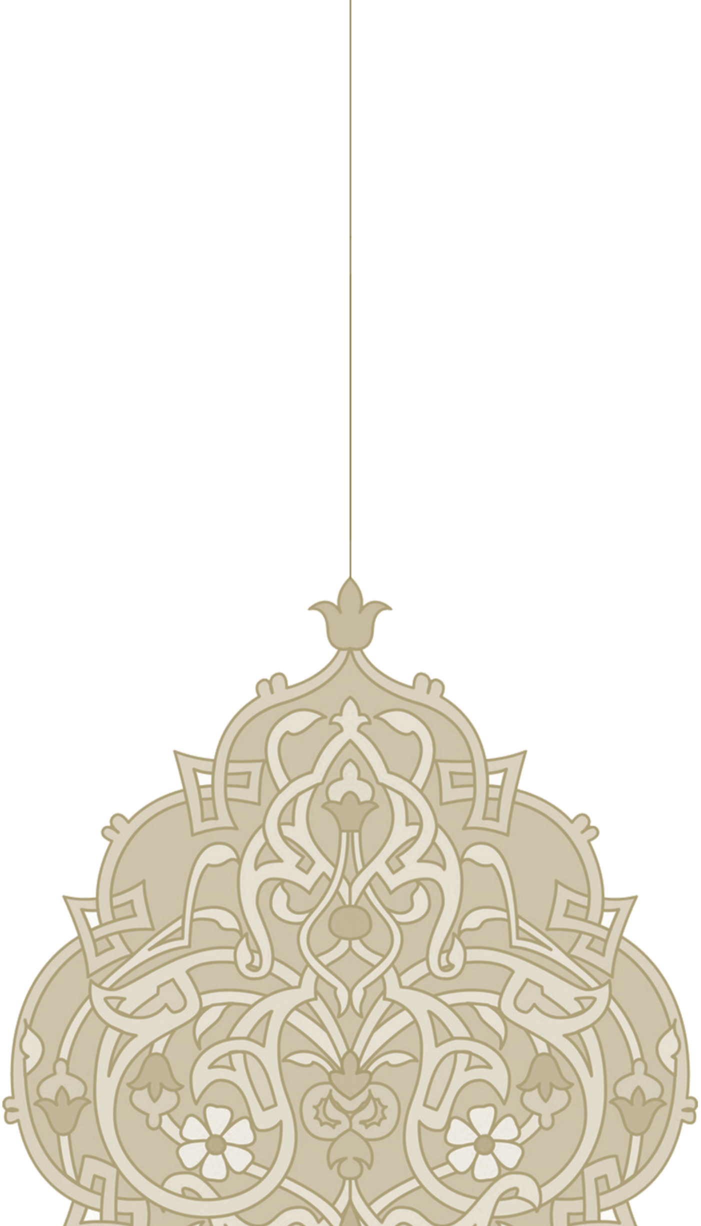

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

كلمة الكرسي .... أ
كلمة الفريق البحثي........................ ٥
المقدمة.. ٧
أولًا: أهمية الموضوع وأسباب الكتابة فيه: ٩
ثانيًا: أهداف الدراسة: ١٠
ثالثًا: منهج الدراسة: ١١
رابعًا: إجراءات الدراسة وضوابط الكتابة: ١١
خامسًا: الدراسات السابقة: ١٣
سادسًا: خطة الدراسة: ١٣
الفصل الأول: الهدايات القرآنية، مفهومها، وأهميتها، وخصائصها.......... ١٥
المبحث الأول: مفهوم الهدايات القرآنية ١٦
مدخل ١٧
المطلب الأول: تعريف الهدايات في اللغة ١٩
المطلب الثاني: معاني الهدىٰ في القرآن الكريم............ ٢٦
المطلب الثالث: الفرق بين الهدىٰ والهداية والاهتداء في اللغة والقرآن......... ٣٧
المطلب الرابع: تعريف الهدايات القرآنية في الاصطلاح ٤١
المطلب الخامس: الفرق بين مصطلح الهدايات والمصطلحات المقاربة...... ٤٥
المطلب السادس: تعبيرات علماء التفسير لمفهوم الهدايات............ ٥٦
المبحث الثاني: أهمية الهدايات القرآنية ٦٧
مدخل ٦٩
المطلب الأول: موضوع الهدايات القرآنية ٧١
المطلب الثاني: صفات الهدايات القرآنية............ ٧٥
المطلب الثالث: غايات الهدايات القرآنية وأهدافها............ ٨١
المطلب الرابع: عظيم أثر الهدايات القرآنية............ ٩٠

المبحث الثالث: خصائص الهدايات القرآنية ٩٥
مدخل ٩٦
المطلب الأول: الهدايات ربانية المصدر والغاية ٩٧
المطلب الثاني: الهدايات هي المقصد الأول للقرآن الكريم.................. ١٠٣
المطلب الثالث: خاصية العموم في الهدايات القرآنية....................... ١٠٨
المطلب الرابع: خاصية التمام والكمال في الهدايات القرآنية................ ١١٣
المطلب الخامس: خاصية الوضوح واليسر للهدايات.......................... ١١٧
المطلب السادس: خاصية الخلود والتجدد في الهدايات القرآنية ١٢١
المطلب السابع: خاصية المثالية والواقعية في الهدايات القرآنية ١٢٤
الفصل الثاني: الهدايات القرآنية، أنواعها، ومجالاتها، وحال الناس معها ١٢٨
المبحث الأول: أنواع الهدايات القرآنية ١٢٩
مدخل.. ١٣٠
النوع الأول: الهداية العامة ١٣١
النوع الثاني: هداية البيان والدلالة.................................... ١٣٨
النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام ١٤٤
النوع الرابع: الهداية في الآخرة ١٥٠
المبحث الثاني: مجالات الهدايات القرآنية ١٥٧
تمهيد.. ١٥٨
المطلب الأول: مجالات هدايات القرآن الكريم المتفق عليها.................. ١٦٢
المجال الأول: هدايات القرآن الكريم في مجال العقيدة....................... ١٦٢
المجال الثاني: هدايات القرآن الكريم في مجال العبادة ١٨٧
المجال الثالث: هدايات القرآن الكريم في مجال الأخلاق والآداب ١٩٣
المجال الرابع: هدايات القرآن الكريم في مجال المعاملات ٢٠٢
المطلب الثاني: المجالات المختلف فيها...................................... ٢٠٩
المبحث الثالث: حال الناس مع الهدايات القرآنية ٢١٨

تمهيد: ٢١٩
المطلب الأول: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار الاستماع والتلاوة.... ٢٢٥
المطلب الثاني: حال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار التدبر ٢٤١
المطلب الثالث: أحوال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار العلم والعمل..... ٢٥٢
المطلب الرابع: أحوال الناس مع الهدايات القرآنية باعتبار التداوي والاستشفاء به . :... ٢٦٣
الفصل الثالث: أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات، ووسائله في تحقيقها، ومميزاتهما. :.. ٢٧٣
تمهيد: في بيان مفهوم الأساليب والوسائل ٢٧٤
المبحث الأول: أساليب القرآن الكريم وعرضها للهدايات ٢٧٨
تمهيد... ٢٧٩
المطلب الأول: أسلوب الاستفهام ٢٨٢
المطلب الثاني: التوكيد.. ٢٨٨
المطلب الثالث: التكرار.. ٢٩١
المطلب الرابع: الطباق والمقابلة ٢٩٨
المطلب الخامس: أسلوب الالتفات....................................... ٣٠٢
المطلب السادس: الأسلوب الجدلي والحواري ٣٠٧
المطلب السابع: أسلوب ضرب الأمثال.................................... ٣١٤
المطلب الثامن: الأسلوب القصصي....................................... ٣٢٨
المطلب التاسع: أسلوب التحدي والتعجيز ٣٣٤
المطلب العاشر: أسلوب الترغيب والترهيب................................ ٣٣٩
المطلب الحادي عشر : أسلوب التقديم والتأخير : ٣٤٦
المبحث الثاني: وسائل القرآن الكريم في تحقيق الهدايات ٣٥٢
المطلب الأول: الدعوة إلىٰ التعقل والتفكر ٣٥٤

المطلب الثاني: إنكار تقليد الآباء والكبراء........................ ٣٦٥
المطلب الثالث: الدعوة إلىٰ تدبر القرآن الكريم.................... ٣٧٠
المطلب الرابع: الدعوة إلىٰ العمل بالقرآن الكريم.................... ٣٧٩
المطلب الخامس: التأسي بالقدوة الحسنة.............................. ٣٨٣
المطلب السادس: الأمر بسؤال الهداية ٣٨٨
المطلب السابع: التذكير بأصل الخلق.................................. ٣٩٣
المطلب الثامن: الأمر بتذكر النعم....................................... ٣٩٧
المبحث الثالث: مميزات الأساليب والوسائل القرآنية في عرض الهدايات... ٤٠١
تمهيد... ٤٠٢
المطلب الأول: كمال الفصاحة والبلاغة.............................. ٤٠٤
المطلب الثاني: الصدق ٤٠٩
المطلب الثالث: التنوع.. ٤١٣
المطلب الرابع: الشمول ٤١٩
المطلب الخامس: الإجمال مع الوضوح والبيان ٤٢٤
المطلب السادس: التوازن بين العقل والعاطفة......................... ٤٢٩
المطلب السابع: الدقة والعمق ٤٣٣
الفصل الرابع: المنهج الأمثل في التعامل مع الهدايات القرآنية ٤٤٢
المبحث الأول: هدي السلف في التعامل مع الهدايات القرآنية............. ٤٤٣
تمهيد... ٤٤٤
أولًا: كثرة تلاوة القرآن الكريم والاهتمام بحفظه وإدامة النظر فيه........... ٤٤٩
ثانيًا: الاهتمام بتعلم أحكامه ومعانيه.................................... ٤٥٤
ثالثًا: العمل بهدايات القرآن الكريم ظاهرًا وباطنًا ٤٥٩
رابعًا: تدبر القرآن الكريم ، والتفكر في هداياته ٤٦٣
خامسًا: تعليم القرآن الكريم ومدارسة هداياته ٤٦٨
سادسًا: التأكيد علىٰ معرفة أحوال النزول ٤٧٠

سابعًا: استحضار هدايات القرآن الكريم في مختلف المواقف........... ٤٧٢
ثامنًا: اجتناب التكلف والمراء والجدال.................................. ٤٧٤
تاسعًا: البعد عن الاختلاف في القرآن الكريم ٤٧٩
المبحث الثاني: طرق العلماء في الوصول إلىٰ الهدايات القرآنية ٤٨٥
تمهيد.. ٤٨٦
أولًا: الاعتماد علىٰ دلالات الألفاظ.. ٤٨٨
ثانيًا: الالتفات إلىٰ تنوع الأساليب... ٤٩٢
ثالثًا: النظر في اختلاف القراءات ٤٩٤
رابعًا: التأمل في مجموع أدلة الكتاب والسنة................................ ٤٩٨
خامسًا: الصدور من أصول الشريعة ٥٠٢
سادسًا: استحضار حكم التشريع وأسراره ٥٠٥
سابعًا: الاستفادة من أوجه الإعراب ٥٠٧
ثامنًا: فهم الآيات من خلال أحوال النزول ٥٠٩
تاسعًا: النظر في المناسبات ٥١٢
عاشرًا: التأمل في مواضع اقتران أسماء الله الحسنىٰ........................ ٥١٥
الحادي عشر: استنباط مقاصد القرآن الكريم ٥١٩
الثاني عشر: النظر في السياق ٥٢١
الثالث عشر: الاستفادة من آثار الصحابة والتابعين.......................... ٥٢٥
الرابع عشر: التدبر في قراءة النبي ﷺ في الصلوات وبعض الأحوال......... ٥٢٧
الخامس عشر: النظر في دلائل الرسم ٥٢٨
السادس عشر: ربط الآيات بالواقع ٥٣٣
السابع عشر: تأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم الكونية............ ٥٣٦
الثامن عشر: النظر في دلائل الرسم....................................... ٥٤٠
التاسع عشر: ربط الآيات بالواقع... ٥٤٣
العشرون: تأمل الآيات من خلال مكشفات العلوم الكونية.................. ٥٤٦

المبحث الثالث: أصول وقواعد وضوابط في التعامل مع الهدايات القرآنية ... ٥٥٠
مدخل ٥٥١
تمهيد: في تعريف الأصل، والقاعدة، والضابط، وبيان الفرق بينهم.......... ٥٥٦
المطلب الأول: تعريف الأصل والقاعدة والضابط ٥٥٦
المطلب الثاني: الفرق بين الأصول والقواعد والضوابط................ ٥٦٣
المطلب الثالث: أصول في التعامل مع هدي القرآن الكريم................ ٥٦٥
الأصل الأول: « الأصل العمل بأدلة الكتاب والسنة، ولا يقال بالنسخ إلا بدليل قاطع». :... ٥٦٥
الأصل الثاني: « القرآن الكريم أنزله الله ﷻ؛ لهداية الخلق، وإرشادهم للتي هي أقوم». :... ٥٦٨
الأصل الثالث: « القرآن الكريم جعله الله تعالىٰ تبيانًا لكلِّ شيء »................ ٥٧١
الأصل الرابع: «القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم، وبعضه متشابه، باعتبار ثالث» ٥٧٥
الأصل الخامس: « القرآن الكريم ليس فيه اختلاف تناقض أو تفاوت»...... ٥٧٩
الأصل السادس: « القرآن الكريم معانيه تجري مع الزمان والمكان والأحوال لا تتغير، وإنما التغير يكون فقط في أحكامه، الراجعة للعرف والعوائد»........... ٥٨٣
الأصل السابع: «الأوامر الربانية في القرآن الكريم ، إما لمكلف لم يقم بها ، فعليه القيام، وإما لقائم بها، فعليه تحقيق الكمال والثبات» ٥٨٦
الأصل الثامن: «الأصل في خطاب القرآن الكريم العموم».................. ٥٨٩
الأصل التاسع: « كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنىٰ، وكل ترتيب وجد فهو لحكمة».. ٥٩٢
الأصل العاشر: « الأصل حمل القرآن الكريم علىٰ ظاهره وعدم تأويله»....... ٥٩٤
المطلب الرابع: قواعد في التعامل مع الهدايات القرآنية ٥٩٨

القسم الأول: قواعد في استخراج الهدايات ٥٩٨
القاعدة الأولىٰ: « تؤخذ الهداية من كلِّ قراءة ثابتة عن النبي ﷺ» ٥٩٨
القاعدة الثانية : « ألفاظ القرآن مشتملة علىٰ جوامع المعاني ».................. ٦٠٢
القاعدة الثالثة: « ينبغي حمل الآية علىٰ أوسع المعاني».......................... ٦٠٦
القاعدة الرابعة: ينبغي«مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام عند استخراج الهداية وغيرها»... ٦٠٩
القاعدة الخامسة: « حذف المتعلق يفيد العموم»........................... ٦١٢
القاعدة السادسة: « الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده والعكس»......... ٦١٥
القاعدة السابعة: « إذا جاء سياق الكلام في أوله خاصًّا، وجاء الحكم في آخره عامًّا، دل ذلك علىٰ العموم »... ٦١٩
القسم الثاني: قواعد للتعامل مع الهدايات المستنبطة ٦٢٤
القاعدة الأولىٰ: « الهداية التي تؤيدها آية قرآنية أو حديث نبوي مقدم علىٰ ما عدم ذلك ».. ٦٢٤
القاعدة الثانية:»الهدايات التي نص عليها الصحابة والتابعون أولىٰ من غيرهم" ٦٢٦
القاعدة الثالثة: «القول الذي تؤيده قرائن السياق مرجح علىٰ ما خالفه «...... ٦٢٩
القاعدة الرابعة: «القول بالتأسيس أولىٰ من القول بالتأكيد»................ ٦٣٢
القاعدة الخامسة: « القول بالتباين أولىٰ من القول بالترادف «................ ٦٣٥
القاعدة السادسة: « القول بالترتيب مقدم علىٰ القول بالتقديم والتأخير»...... ٦٣٨
القاعدة السابعة: « المعنىٰ الشرعي مقدم علىٰ المعنىٰ اللغوي «................ ٦٤١
المطلب الخامس: ضوابط في التعامل مع الهدايات ٦٤٥
أولًا: التزام طرق الفهم الصحيح للقرآن الكريم ٦٤٥
ثانيًا: عدم الخوض فيما استأثر الله بعلمه ٦٤٩
ثالثًا: عدم الخوض في هدىٰ القرآن بغير علم ٦٥١
رابعًا: الالتزام بضوابط اللغة العربية في فهم المعنىٰ ٦٥٣

خامسًا: الالتزام بفهم المعنىٰ وفق السياق الذي ورد فيه........ ٦٥٦
سادسًا: جمع الآيات في الموضوع الواحد وفهمها مجتمعة........ ٦٥٨
سابعًا: أن يجرد المفسر نفسه من الهوىٰ ٦٥٩
الفصل الخامس: تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة سبله، وموانعه، وأثره .:........ ٦٦٣
تمهيد........ ٦٦٤
المبحث الأول: سبل تحقيق الهدايات القرآنية ٦٧٣
المطلب الأول: الإيمان والإسلام ٦٧٤
المطلب الثاني: تقوىٰ الله تعالىٰ والاستجابة لأوامره تعالىٰ........ ٦٩٠
المطلب الثالث: الاستجابة لرسول الله ﷺ واتباع هديه ٦٩٦
المطلب الرابع: اتباع أصحاب النبي ﷺ والاقتداء بهديهم ٧٠٦
المطلب الخامس: الدعاء بطلب الهداية والثبات عليها........ ٧١٢
المطلب السادس: التوبة والإنابة إليه سبحانه........ ٧١٧
المطلب السابع: تلاوة القرآن الكريم وتدبره........ ٧٢٤
المطلب الثامن: العلم والعمل........ ٧٢٧
المبحث الثاني: موانع تحقيق الهدايات القرآنية ٧٤٠
المطلب الأول: الكفر ٧٤٣
المطلب الثاني: الظلم........ ٧٥٢
المطلب الثالث: الفسق........ ٧٦٦
المطلب الرابع: الخيانة ٧٧٨
المطلب الخامس: حب الدنيا وكراهية الموت ٧٨٥
المطلب السادس: اتباع الهوىٰ........ ٧٩١
المطلب السابع: الكذب........ ٨٠٦
المطلب الثامن: الحسد........ ٨١٧
المطلب التاسع: الكبر ٨٢١

المبحث الثالث: أثر تحقيق الهدايات القرآنية في واقع الأمة ٨٢٧
تمهيد.. ٨٢٨
المطلب الأول: الهداية للتي هي أقوم ٨٣١
المطلب الثاني: العدل والإنصاف ٨٣٥
المطلب الثالث: الوحدة والاتفاق................................. ٨٣٩
المطلب الرابع: التمكين في الأرض................................ ٨٤٤
المطلب الخامس: الأمان والطمأنينة............................... ٨٤٨
المطلب السادس: السعادة الحقيقية................................ ٨٥٠
الخاتمة ٨٥٥
فهرس المصادر والمراجع ٨٦٥
فهرس الموضوعات ٩١٦